شريف محمد هاشم

الإسلام والمسيحية في الميزان

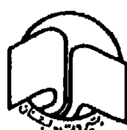
مؤسسة الوفاء
بيروت - لبنان

الإسلام والمسيحية

في الميزان

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م



مؤسسة الوفاء، بيروت. لبنان - ص.ب: ١٤٥٧ - ت: ٣١٢٦٢٠١

الإهداء

إلى كل من آمن قولاً وعملاً . . .

١ ـ أن الأديان براء ممن يتاجرون باسمها ، ويتسترون بخدمتها ، ويتظاهرون بالدفاع عنها .

٢ ـ وأن طريق الإنسان إلى محبة الله هي في محبته لأخيه الإنسان .

٣ ـ وأن الدين هو الحق ، والعدل ، والمحبة ، والسلام .

٤ ـ وأن الدين لله ، والوطن للجميع .

أهدي كتابي

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقــدّمَة

إذا كانت المعارك قد توقفت بين الإسلام وأعدائه ، بفضل انتصار الإسلام العسكري الحاسم في القرن الأول من ظهوره ، فلم نعد نسمع للسلاح قرقعة ولا للسيوف صليلاً . . .

فإن جبهة أخـرى لا زالت مفتوحـة بوجـه الإسلام ، لم تتـوقف ، أعني بها جبهـة الدس والتشكيـك والتضليل والافتـراء ، جنودهـا بعض الكتاب من اليهـود والمسيحيين ، وسلاحها الكلمة المضللة والرأي المسمـوم ، يحقنون بهمـا الفكر البشري ، على أمل أن ينجحوا بهذه الوسيلة ، حيث فشلوا بسواها .

وأكثر الظن ، أن هـذه الجبهة ستبقى مفتـوحة مشتعلة ، مـا بقي الإسـلام سيفاً مسلطاً فوق رقاب المنافقين المتاجرين بالأديان ، المتسترين بها على امتـداد هذا الكون الفسيح .

وكما حسم الإسلام الموقف لصالحه على الجبهة العسكرية ، فإن المناعـة والمنعة اللتين يتمتع بهما إيمان المسلم بدينه ونبيه وقرآنه ، لكفيلتين بإفشـال كل المؤامرات على الجبهة الأخرى .

وسـلاح الدس والتشـويه جـربه اليهـود ضد الإسـلام في مـطلع ظهـوره ، فإشاعاتهم المغرضـة ضد النبي معروفة ، نعتـوه تارة بـدعي كاذب ، وتـارة أخرى بساحر عجيب ، ونسبوا القرآن إلى غلام من أهل الكتاب كان يتردد إليه محمد ،

ومرة أخرى بأنه محصلة أفكار الراهب بحيرا ، وغيرها من الأباطيل التي كان اليهود وراءها .

ولقد دخل بعض حملة الأقلام المسيحيين على خط هذه الجبهة المشبوهة ضد الإسلام ، وبينهم من يشغل مناصب رفيعة في الكنيسة المسيحية .

ولا نغالي إذا ما قلنا : أن للإرساليات الدينية المسيحية ، وللمدارس التبشيرية ، وللبعثات الصهيونية التي غالباً ما تلتحف لحاف الإنسانية ، والثقافية المنتشرة في معظم الأقطار الإسلامية دوراً ، في خطة خبيثة مشبوهة مرسومة تسهر على تنفيذها مراجع القرار المسيحي والصهيوني في العالم .

وذلك قياساً على ما تنشره تلك المؤسسات المشبوهة من كتب ومنشورات محشوة بالأفكار الهدامة ، والآراء المشككة بالإسلام والقرآن والنبي .

والكتاب الذي نحن بصدد مناقشته «قس ونبي» ليس الأول في حلقة الدعاية ضد الإسلام ، ولن يكون الأخير بالطبع ، فلقد سبقته وستلحق به كتب أخرى ، لها نفس النهج وذات الهدف . ولكن إلى ماذا يهدف مؤلف الكتاب ومن هم وراءه بالتحديد ؟

إن ركائز الكتاب قائمة على افتراضات أهمها :

١ ـ وجود ديانة في التاريخ هي النصرانية ، انسلخت عن المسيحية في وقت ما واستقلت عنها كلياً ، وهذه النصرانية كما يفترض المؤلف كانت مهيمنة في مكة ، ولها فيها كنيسة ، يرعاها قس هو ورقة بن نوفل ، وأتباع أفترضهم كل سكان مكة ، لا بل قريش «المتنصرة» كما أخبرنا ، وإنجيل هو العبراني كما سماه .

وافترض صاحبنا أيضاً أن ورقة ، ولسبب لم يوضحه ، قام بتحويل هذه النصرانية إلى ديانة جديدة ، فكان : الإسلام .

٢ ـ وترجم كتابها إلى العربية فكان : القرآن .

ومكّن لمحمد بن عبد الله (يتيم قريش) ـ بخططه المدروسة ـ من استلام

مقاليد الدعوة ، إلى الدين الجديد ، فصار محمد : نبياً .

ليس هذا فحسب ، بل إنه افترض أيضاً وأيضاً أن هذه النصرانية ، ليست إلاّ البدعة الأبيونية، وأن إنجيلها (المغيب) ليس إلاّ نسخة محرفة ناقصة عن إنجيل متى .

وبذلك يصبح الإسلام (النصراني) : أبيونياً .

والقرآن إنجيلها المحرف المزور : معرباً .

والنبي : قساً على كنيستها أقامه ورقة بالتعيين .

أكثر من هذا وذاك ، فالحريري ينعي لنا (إسلام) القس ورقة والنبي ، معلناً أن إسلامهما ليس هو إسلام اليوم ، وأن ما وقع على (قرآنهما) من (التلاعب الفاضح) في عهد عثمان بن عفان كان كافياً ليباعد بينهما .

افترض كل هذه الأمور ، دون أن يكلف نفسه إبراز دليل واحد يدعم به افتراضاته ، ومع ذلك يريدنا أن نصدق .

وهكذا نرى ، أن الهدف يبقى هو هو/(يهودياً كان أم مسيحياً) : زرع بذرة الشك في الأذهان حول نبوة محمد ، وسماوية القرآن ، وصدق التعاليم الإسلامية برمتها . والمؤلف ومن هم وراءه ، يعرفون أنهم إذا ما نجحوا في مهمتهم المستحيلة ، فربحهم كبيراً جداً ، وإذا ما أخفقوا ، فلن يخسروا شيئاً .

ولذلك نراهم مستميتين غير يائسين ، يجربون حظهم المرة تلو الأخرى ، رغم فشلهم المتتالي . أما على ماذا اعتمد المؤلف بطرح أباطيله ؟ فالحقيقة أننا لم نجد لأي من رواياته وآرائه سنداً مقبولاً ، أو أساساً معقولاً .

وربما في ذلك بالذات ، تكمن صعوبة محاورته ومناقشة آرائه .

فلو أن مؤلف الكتاب اعتمد في بحثه ، الموضوعية والدقة ، والرأي المنصف ، المستند إلى أساس تاريخي ، لكان بالإمكان مناقشة آرائه ومحاورتها مهما اختلفنا معه حولها ، أو تباينت مواقفنا منها .

ولكن كيف لنا أن نحاور أو نناقش آراء محض شخصية ، مبتدعة ،

مستهجنة ، لا أساس لها ولا سند في التاريخ ؟ وبماذا نناقش إنساناً جاء يقول إن محمداً ليس نبياً ، ولواء النبوة معقودة إلى ورقة بن نوفل ؟ ولكننا رغم صعوبة المهمة ووعورة الطريق ، فلقد عزمنا أن نكمل المشوار ، تيمناً بقول النبي محمد :

«من رأى منكم اعوجاجاً فليقومه بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان»[1] .

وإذا كان هدف المؤلف من كتابه واضحاً ، وهو هدم صرح الإسلام وتقويض بنيانه ، فإن هدفنا من الرد عليه مختلف كلياً ، هدفنا البناء وليس الهدم ، هدفنا قول كلمة حق بوجه الباطل ، ووقفة صدق بوجه التضليل والتزوير .

هدفنا ، أن نغسل ما قد يعلق بأثواب الحقيقة الناصعة من وحول الدس والافتراء .

هدفنا ، الدفاع عن الإسلام ، بعدما طفح كيل التهجم ، وزاد معيار البهتان .

ومعاذ الله أن يكون في نيتنا الانجرار إلى أسلوب المؤلف الرخيص ، سواء بإثارة النعرات الدينية ، أو الافتئات على الديانة المسيحية ، وذلك لأن لهذه الديانة في قلب المسلم وعقله موقعاً مميزاً ، رغم تحفظه ، واستنكاره ، واعتراضه على الشوائب التي أدخلت عليها على مر التاريخ ، والتي آلينا على أنفسنا في هذا الكتاب ، خدمة للحقيقة والمسيحية على السواء ، أن نحاول كشف ما حُرّف وأضيف وحذف من هذه الديانة وإليها ، فباعد بينها وبين الإسلام ، في وقت يبقى هدفنا الأول والأخير العمل على إرساء قواعد الإخاء بين

---

(١) العوالي : ج ١ ص ٤٣١ ح١٢٨ و ١٢٩ . وصحيح مسلم: ج ١ ص ٦٩ ح ٧٨ وفيه: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . . » .

اتباع الديانات ، وتعزيز مناخات التعايش الحضاري ، وتقوية إمكانية التعاون الصادق بينهم ، لبناء مجتمع إنساني مؤمن بحقيقة أساسية ، هي أن الدين لله والوطن للجميع ، وبأن الأديان وجدت لخير الإنسانية جمعاء ، وهي الخير المطلق الذي به نصارع قوى الشر والباطل ، فلا يجوز لنا والأمر كذلك ، أن نجعل منها بعمى أحقادنا دافعاً للتخاصم والتقاتل ، فنخسر بذلك دنيانا وآخرتنا على السواء .

يبقى نقطة ، لا مجال لتناسيها وإغفال أهميتها .

الثابت أن أبا موسى الحريري ، ليس هو مؤلف الكتاب الحقيقي ، وما هو في الواقع إلا القناع الذي يخفي وراءه اسم المؤلف الفعلي ، وما يهمنا من الأمر ، ليس اسم المؤلف ، وإنما عملية الاستتار والتخفي ذاتها .

فبديهي أن لا يكون من مبرر لهذا التقنع وراء اسم مستعار ، إلاّ واحد من سببين . .

١ ـ إما أن المؤلف يعرف أن ما أتى به في كتابه ، ليس إلاّ دساً وكذباً وافتراءً على الحقيقة ، فبات ككل مذنب يشعر أن المجتمع يلاحقه ، وعدالة الرأي العام تتعقبه ، فآثر التستر والتقنع .

٢ ـ وإما أن تكون (الحقائق) التي طرحها في كتابه ، باتت تشكل خطراً على حياته ، من قبل جماعة لا تتقبل نقداً ، ولا تستسيغ حواراً ، ولا تفهم في تعاملها مع النقد والمعارضة إلاّ لغة العنف الهمجي ، فبات التخفي واجباً والتقية ضرورة .

ومن الطبيعي أن يكون الاحتمال الثاني ، هو ما يريد أبو موسى الحريري المزعوم إيصاله إلى ذهن القارىء ، إمعاناً منه في تشويه صورة المسلمين ، وتصويرهم همجاً ظلاميين متخلفين ، لا قيمة للكلمة عندهم ، ولا حرمة لمتكلم .

يؤكد لنا ذلك قوله في آخر كتابه :

«ليس من مسلم متـدين استطاع الإفـراج عن الحقيقـة ، وليس من باحث محقق تمكن من قول الحقيقة، وليس من جريء مغامرٍ هانت عليه حياته ليعلن ما يضمر»[1] .

ولما كان ذلك مغايراً للحقيقة ، وافتـراء على الصدق ، لأن مـا في تاريـخ الإسلام من العبر والدروس المضيئة المعبرة عن ديمقراطية رائعة ، آمن بها ودعـا إليها وعامل بها معارضيه ، بانفتاح وسعة صدر ، وترحيب وتسامح ، عبر احتـرامه لحرية آرائهـم ، مع ما فيها من نقد وتهجم وتجريح ، ما يكفي لدحض هذا الزعم وإبطاله .

فإننا نقول أن كتاب (قس ونبي) ليس الأول من نوعه ، إذ سبقه في مضمار التهجّم على الإسـلام كتب أخرى ، نـزلت إلى ساحـة الرأي العـام وفي الأمصار الإسلامية بالذات ، تـأليفا وطبـاعة وتسـويقاً ، وبـأسماء مؤلفيهـا الحقيقيين دونما تستر ولا تقنع .

فما حدث أن تعـرض مؤلف ولا ناشـر إلى مضايقـة أو أذى ، وكل مـا كان يصـدر عن الجانب الإسـلامي أن ينبري مفكـرون مسلمـون ، وأحيـانـاً من غيـر المسلمين ، لمنـاقشـة مضـامين تلك الكتب ، بـالحجـة ، والـرأي ، والفكـر ، والبـرهـان ، بـأسلوب حضـاري رفيـع ، بعيـداً عن العنف والإكـراه ، محتـرمين للمؤلف حقه بالرأي والمعتقد والنقد مهما كان متجنياً ظالماً .

ففي سنـة ١٩٦٨ ، صدرت عن مـطبعة حـاريصا البـولسية في لبنـان أربعة كتب بعنـوان (دروس قرآنيـة) للأب يـوسف درة الحـداد ، حملت من التهجم على الإسـلام ونبيه وقـرآنه ، ومن التضليـل والتجريـح ، مـا لا يقبله عقـل ، ولا يستسيغه ذوق ولا وجدان ، دون أن يجد المؤلف مبرراً للتقنـع أو التستر ، فكـان أن رد عليه الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه (القرآن والمبشرون) .

وفي عـام ١٩٦٤ صدر في مصـر كتاب آخـر لأحـد الأقبـاط ، حمـل نفس

---

(١) قسّ ونبي : ص ٢١٢ .

أسلوب التهجم السافر والدس الظالم بحق الإسلام والمسلمين ، فرد عليه الأستاذ محمد الغزالي في كتابه (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) .

وغيرهما كثيرون ، بالإضافة إلى بعض المستشرقين والمبشّرين الكارهين للإسلام ، الذين أصدروا أكثر من كتاب ، وكلها تجريح بالإسلام وافتراء عليه ، فكانت تلك الكتب تناقش وتبحث آراء مؤلفيها في المحافل الإسلامية ، دونما انفعال ولا توتر ، ومن هؤلاء من كان يعيش أو يتردد إلى الأقطار الإسلامية بحرية مطلقة ، دونما خوف ولا حذر ولا حرج . نذكر منهم : الراهب البلجيكي لامنس ، والأب لويس شيخو ، والمطران باسيل حمصي ، والمستشرق كاتياني ، والمبشرون : جسب ، وجون تاكلي ، وليفونيان ، بالإضافة لجريدة البشير ، التي كانت تصدر في بيروت زمن الانتداب .

فهل بعد من عذر لمؤلف كتاب «قس ونبي» أن يتستر بالعتمة ، ويتخفى بالظلام ويتقنع تحت ستار اسم مستعار ؟

يبقى أن نقول إن مشكلتنا مع الكتاب ، كامنة في مشكلة الكتاب مع واقعه ، فبعدما رماه مؤلفه وطابعه وناشره على قارعة طريق المجتمع ثم هربوا منه ، أصبح يتلطى وكأنه ممنوع من الظهور بقرار ذاتي ، إن أطل على مكتبة ، فمتسللاً من نوافذها وإن وجدته في إحداها فمزوياً وراء كوم الكتب المهمولة ، وإذا طلبته ، دسه لك صاحبها بالخفاء ، كمن يخفي عيباً أو يتستر على فضيحة ، فهو هارب من وجه العدالة الاجتماعية ، كما هرب مؤلفه منه وبسببه من وجه المجتمع .

شعور آخر بالإحراج أحسست به وأنا أرد على هذا اللقيط ، شعور من يحس بأن الكتابة عنه ومناقشته هي نوع من أنواع الترويج والدعاية له ، لكن عذرنا في ذلك مقبول ، فالمؤلف ـ المقنع ـ يحاول أن يوقد نار فتنة كبرى ، تحت ستار الغيرة على الفكر ، والحرص على الدين ، والبحث عن الحقيقة ، وعلينا أن نكون إطفائيين ، لكي نخمد ناره في مهدها قبل أن تأتي على الأخضر واليابس ، وهو ما قررت أن أجند نفسي له خدمة لضميري وأمتي والحقيقة .

حديث حول مقدمة (قس ونبي)

من أول صفحة في مقدمة كتابه أعلن الحريري حربه على الإسلام فقال بما معناه :

«إن إسلام النبي ليس هو إسلام اليوم ، وقرآنه ليس هو قرآن اليوم ، وإن فرقاً شاسعاً بين إسلام النبي وإسلام اليوم ، فمؤرخو الإسلام حققوا فيما هو عليه القرآن اليوم ، دون أن يحققوا فيما كان عليه بالأمس»[1] .

وهكذا نراه مدفوعاً بحسّه المسؤول تجاه (الحقيقة) يكرّس وقته وعلمه ومعرفته ـ مشكوراً ـ لكشف حقيقة الإسلام والقرآن .

ومن أجل غايته «النبيلة» هذه ، أحضر إلى الساحة إنساناً نبشه من بطون المجهول ، ليضعه في مقدمة الصفوف ، مقدماً إياه على محمد نفسه ، بعدما رسم له فضائل لا تحصى ، وصفاتاً لا تعد ، ومآثر ما أنعم على محمد بمثلها ، مؤكداً أن التاريخ تآمر عليه ، فطمس فضائله ومآثره ، ألا وهو ورقة بن نوفل .

أقامه شريكاً لمحمد ، وأستاذاً ومخططاً له ، وباعثاً إياه .

جمع بينهما في غار حراء ، رغم أن منطق التاريخ يؤكد أن النبي كان في رحم أمه ، في الوقت الذي أصبح فيه ورقة في خريف عمره .

---

(١) قسّ ونبي : ص ٥ .

ولكن لا بأس ، فلا اعتبار لعلم الحساب عند المؤلف .

المهم أنه أسند لهما مهمة خطيرة ، لم يسبقه إلى ذكرها إنسان .

فلنسمعه يحدثنا عنها قائلاً :

«كان دين النصرانية أفكاراً مبعثرة ، وأشلاء موزعة بين شيع الأحزاب والأناجيل المتعددة ، فأراد القس والنبي جمع شتاتها في دين واحد»[1] .

إذن كانت المهمة ، تقضي بجمع هذا الدين المبعثر وتلزيقه ، وإخراجه بقالب جديد .

وبنتيجة نجاحهما في المهمة ، ظهر هذا الدين إلى العالم ، بحلة جديدة ، واسم جديد ، وكتاب جديد ، فكانت نبوة محمد ، وكان القرآن ، وكان الإسلام .

ويضيف قائلاً :

«فإذا بالنصرانية قد أسلمت ، بعدما أذابها ورقة ومحمد في إسلامهما الجديد»[2] .

ولم ينس الحريري أن يسارع لإبعاد مسيحية اليوم عن نصرانية الأمس ، بقصد إبعاد الكأس المرة عنها التي شربتها النصرانية قبلها على يد ورقة ، عندما قبلت أن يذيبها في كيان الدين الجديد ، لتظهر من جديد متقمصة جسد الإسلام وروح النصرانية .

وذلك عندما قال :

«ولا تظنن أن نصرانية الأمس هي مسيحية اليوم ، فتلك أسلمت وهذه لم يعرفها الإسلام قط»[3] .

---

(١) قسّ ونبي : ص ٦ .

(٢) قسّ ونبي : ص ٦ .

(٣) قسّ ونبي : ص ٦ .

والمدهش أنه وزع الأدوار بين ورقة (المعلم) ، ومحمد (التلميذ) ، فإذا بالأول :

«علّم ودرّب وأرسى الدعائم»[1] .

والثاني «سمع ، وتعلّم ، ودرس ، وشيّد البنيان»[2] .

الأول «أستاذ فذ»[3] .

والثاني «تلميذ نجيب»[4] .

الأول «نقل كلمة الله الأعجمية ، أي النصرانية»[5] .

والثاني «بلغ الكلمة العربية وتلاها»[6] .

وكما وزع الأدوار ، كذلك فصل الفضائل بينهما بالقسطاس ، فإذا :

«فضل الأول على الثاني ، كفضل المربي على ربيبه»[7] .

وطبيعي أن يكون فضل المربي أضعاف فضل ربيبه ، لأن الأول أعطى دون أن يبادله الربيب ، أو مع حسن النية دون أن يتمكن من مبادلته عطاء بعطاء .

وفي الصفحة ذاتها يتحسر الحريري عندما يعلن :

«أن التلميذ قد تفوق على أستاذه ورقة الذي فضّل ، شأن كل مرب حكيم ، أن يترك حرية التصرف لربيبه ، فآثر بحكمة أن يتوارى عن الأضواء ، مفسحاً في المجال أمام تلميذه كي يصعد ويصعد»[8] .

---

(١) قسّ ونبي : ص ٦.
(٢) قسّ ونبي : ص ٦.
(٣) قسّ ونبي : ص ٦
(٤) قسّ ونبي : ص ٦.
(٥) قسّ ونبي : ص ٦.
(٦) قسّ ونبي : ص ٦.
(٧) قسّ ونبي : ص ٦.
(٨) قسّ ونبي : ص ٦

فيما «الأستاذ» تغمره الفرحة والسعادة . .

ثم يتحرق غيظاً ، لأن مصحف محمد أو لنقل «قرآن ورقة» لا يزال مفقوداً ، رغم جهوده الدؤوبة لإيجاده ، والأكثر إيلاماً له أن «مصحفاً آخر» يتربع الآن على عرش الإسلام سماه (مصحف عثمان)بعدما أعلنه محرفاً مزيفاً ، فذهبت بذلك جهود ورقة كلها هباء منثوراً .

والظاهر أن المؤلف قد اكتشف ، أنّ محمداً كان قد ضاق ذرعاً بشراكة ورقة ، فقرر لفرط ذكائه ـ أي محمد ـ أن يتخطاه نشداناً للحرية ، وتلمساً للاستقلال .

ولم ينس الكاتب أن يبدي إعجابه بورقة :

«الذي كان لبقاً حكيماً ، فآثر خدمة لتلميذه ، أن يتوارى عن مسرح التاريخ ، الذي غبنه فواراه وراء ستار حاجب»[1] .

ثم يختتم قصة ورقة المأساوية ، ليعزي نفسه ويعزي ورقة في قبره .

«بنجاح تلميذه محمد ، ونقله رسالة أستاذه بأمانة وإخلاص مدهشين ، حتى جاءت رسالته مناسبة لظروف البيئة والمجتمع»[2] .

وفي الصفحة ٧ من المقدمة ، يعود المؤلف لينتفض بوجه التاريخ ، فيقول :

«ولئن كان كلنا يعرف النبي ، ورسالته ، ومسيرته ، فإذ أكثرنا يجهل القسّ وهويّته ، ودوره في بنيان الدين الجديد»[3] .

---

(١) قسّ ونبي : ص ٦ .

(٢) قسّ ونبي : ص ٦

(٣) قسّ ونبي : ص ٧ .

ويضيف معللاً سبب هـذه المصيبة العميـاء ، أي مصيبـة جهـل دور ورقـة فيقول :

«وسبب جهلنا لا بد مصيبة عمياء ، أرادها التاريخ» [1] .

ولا نـدري ، كيف يكون هـذا التاريـخ المسكين مسؤولاً عن جهلنـا لـدور ورقة ، الذي هو نفسه كان قد آثر الإنزواء لزهده ، وخدمة لتلميذه محمد ؟

ثم كيف يمكن أن يكـون ورقة مجهـولاً ، بفعل إرادة التـاريـخ ومؤامـراتـه (الدنيئة) عليه ، والحريري نفسه استطاع دون أي عناء ، ومن أول سطور كتابه ، أن يتكلم عنه ، أستاذاً ، حكيماً ، مخططاً ، وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح ؟ .

وفي الصفحـة ذاتها ، يتلو بعض الآيـات القرآنيـة مستشهداً بهـا ، لإعلان نتيجة استخلصها ، ما هي إلاّ هذيان بهذيان ، حيث قال :

«إذا كانت الحقيقة وحياً من الله ، فلا بـد أن يكون الـوحي الـلاحـق ـ الإسـلام ـ تـذكيـراً لـلوحي الـسـابـق ـ النصرانية ـ» [2] .
فذلك ـ وهو المهم بنظره ـ ينبىء لا محـالة عن واحـد قبل النبي ، يقرأ عليه الكتـاب ، ويهمس في أذنه وحي الله، من وراء الستار» [3] .

وبلا شك ، فـإن هذا الـواحد ، الـذي كان يتلقى الـوحي من الله من وراء الستار ، ويهمسه بإذن النبي ، ما هو إلاّ ورقة نفسه .

والمثير هنا أن الحريري ، يعلن عن عملية سرية تمت على مرحلتين :
الأولى : بين الله وورقة .
والثانية : بين ورقة والنبي .

---

(١) قسّ ونبي : ص ٧.
(٢) قسّ ونبي : ص ٧
(٣) قسّ ونبي : ص ٧

وبعد أن ركز الحريري ورقة على عرش الوحي الإلهي ، عاد فجأة ناقماً على المتدينين ، فقال :

«لقد عظم على المتدينين أن يروا وراء النبي غير الله ، الذي غيبوه من على صفحات التاريخ كبطل أساسي ، وذلك لكي لا يبقى له فاعلية السحر ورهبة السر»[1] .

ثم يعلن بحماسه المعهود :

«أن بطل الإسلام هو ورقة بن نوفل»[2] .

نقطة على السطر .

ومن لا يعجبه فالحيطان كثيرة .

مغيباً هذه المرة صورة النبي بالكامل عن شاشة الحدث .

وفي الصفحة ذاتها يتأسف ويعتذر بأدبه الجم ، من (البطل) ورقة مؤكداً :

«أن الأمر لو كان بيده ، لما قطع عليه خلوته بربه»[3] .

ولكن للضرورة أحكامها ، فخطورة المهمة التي نذر نفسه لها ، ألا وهي :

«كشف ما ود التاريخ إخفاؤه»[4] .

تجيز له هذا الإزعاج . إضافة

«لرغبته بعدم ترك النبي معلقاً بين الأرض والسماء ، لا أصل له ولا أساس»[5] .

---

(١) قسّ ونبي : ص ٧.
(٢) قسّ ونبي : ص ٨
(٣) قسّ ونبي : ص ٨
(٤) قسّ ونبي : ص ٨
(٥) قسّ ونبي : ص ٨.

ولذا فهو مصر أن يقوم بواجبه الإنساني :

«حتى ولو اضطربت بذلك طمأنينة المتدينين»[1] .

فماذا يريد أن يقول بصراحة ؟

ولماذا يدور ويدور ؟

يريد القول بأن عليه تحديد هوية محمد ، وكشف حقيقته المستورة أو المموهة .

إذ لا يجوز بنظره أن تبقى صورته بعد الآن كما هي ، نبي مرسل بنظر البعض ، وبنظر البعض الآخر ـ والمؤلف منهم بالطبع ـ بعيداً عن النبوة بعد الأرض عن السماء .

مهمته إذاً ، هي فضح التزوير الحاصل لشخصية محمد ، وبالتالي لرسالته ، كما أن عليه أن يجيب على سؤال طرحته الإنسانية عليه ، ولا تزال تنتظر الجواب منه بفارغ الصبر .

أنبي مرسل من عند الله محمد ؟ أم إنسان عادي سرق اسم النبوة أو أعطي له ؟

أفي السماء مركزه بين الأنبياء ؟ أم في الأرض بين البشر ؟

والحريري هنا لا يريد من وراء كل ذلك ، إلاّ خدمة (الحقيقة) و (الإنسانية) ، وإنقاذهما من البلبلة الحاصلة ، وإسداء خدمة للنبي نفسه ، عن طريق وضعه في المكان الصحيح اللائق به .

ثم يصب جام غضبه على من سماهم بـ :

«المتدينون الذين استمروا يشهدون زوراً طيلة ١٤ قرناً ،

---

(١) قسّ ونبي : ص ٨.

والشاهدين شهادة خطأ تنال من حقيقة التاريخ ، بقصد حفظ إيمان الملايين المذهولين بالوحي ذهولاً»[1] .

وشهود الزور هؤلاء الذين عناهم ، هم أهل الأخبار ، والمؤمنين الذين يتسترون على حقيقة محمد ، مع معرفتهم بها ، فحقت عليهم لعنته وغضبه .

ويحدد في الصفحة الأخيرة من مقدمة كتابه سبب (مصيبته) بأربعة أسباب :

دون أن يحدد ماهية (مصيبته) وأكثر الظن أنه يقصد بها ، مصيبته وأمثاله بوجود الإسلام في العالم اليوم ، هذا الإسلام الذي ينغص عليه وعلى من هم وراءه ، عيشهم وحياتهم .

السبب الأول لمصيبته :

«هو جهلنا بالقس وكتابه»[2] .

والسبب الثاني لمصيبته :

«هو في اعتمادنا على مصحف عثمان ، على حساب قرآن النبي ، أو بالأحرى قرآن ورقة»[3] .

والسبب الثالث لمصيبته :

«هو في محاولتنا الفاشلة أبداً ، في الوفاق بين المسيحية والإسلام»[4] .

هكذا وخبطة واحدة ، ولا ندري هنا ما دخل الوفاق المفقود بين المسيحية والإسلام ، بمعركة المؤلف من أجل تثبيت ورقة في مناصبه ووظائفه ، ليستخدمه في محاولته المكشوفة المستميتة ، لإظهار (حقيقة) تزوير القرآن ، وبطلان نبوة محمد ؟

---

(١) قسّ ونبي : ص ٨
(٢) قسّ ونبي : ص ٩.
(٣) قسّ ونبي : ص٩.
(٤) قسّ ونبي : ص ٩.

ولا ندري كيف يقبل المؤلف ، أن يبحث بوفاق بين المسيحية والإسلام ، في وقت يؤكد فيه ، أن هذا الإسلام مزوراً مشوهاً ؟

ثم كيف يمكن لهذا الإسلام المسكين ، وهو يحمل كتاباً مزوراً غير معترف به ، أن يقف قبالة إنجيل سماوي ، ليتحاوروا ويتفاهما على قدم المساواة ، قبل أن يسوي هذا الإسلام أوضاعه ، ويستر عورته ، ويكشف قرآنه المفقود ؟

وعندها فقط يحق له التحاور مع المسيحية ، طالباً للوفاق . . . وهيهات أن يتمكن .

والسبب الرابع لمصيبته :

«هو في ارتياح المؤمنين المذهولين ، بأن كل حقيقة هي وحي من الله ، لا مجال لبحثها ونقاشها»[1] .

وهو يقصد بالطبع إيمان المسلمين بمحمد ورسالته ، وأن ما لديهم وحياً مقدساً من السماء ، لا مجال لبحثه ، والنقاش فيه ، والتشكيك به .

وهذا ما لا يعجبه ، بل يثير حفيظته واستياءه .

---

(١) قسّ ونبي : ص ٩.

الفَصْل الأوّل

١ ـ المؤامرة المزعومة .

٢ ـ ورقة والحنيفية والحنفاء .

٣ ـ لا وجود لديانة نصرانية خارج الديانة المسيحية .

٤ ـ حقيقة الوجود المسيحي في مكة وقريش .

٥ ـ أية نصرانية دخلت مكة وأي نصراني كان ورقة ؟

٦ ـ كيف أدخل الحريري الأبيونية إلى مكة ؟

٧ ـ هذه مصادره حول الأبيونية .

٨ ـ الخلاف جوهري بين الأبيونية والإسلام .

المؤامرة المزعومة

يتهم الحريري أصحاب السير بأنهم أهملوا

«أما عن قصد أو لا مبالاة أخبار فرع عبد العزى وذلك لأن هذا الفرع لا علاقة له قريبة بما تهتم به السيرة النبوية»[١] .

وهم يلاحقون أخبار الدعوة وحدها التي أعمتهم عن كل ما سواها . وطالت هذه المؤامرة فيما طالت القس ورقة وهو خط أحمر بالنسبة له لا يسمح بتجاوزه . ولذلك نراه يحدد همه الأساسي

«ألا وهو السعي وراء هوية هذا الفرع المنكود الحظ الذي لم يحظ بما يستحقه من عناية»[٢] .

ونحن نقول أن تتبع أهل السير لأخبار الدعوة أمر طبيعي ، باعتبارها ثورة شملت كل شؤون الحياة ، وغيّرت مجرى الواقع العربي تغييراً جذرياً ، وقلبت مفاهيم هذا الواقع رأساً على عقب ، ونقلت الحياة في تلك الصحاري من بدائيتها وبداوتها إلى كنف حضارة كاملة متكاملة ، وجد الإنسان العربي نفسه في أحضانها فاحتضنها وأصبحت شغله الشاغل وخبزه اليومي دون سواها .

ولذا فملاحقة أخبار الدعوة أو الصحابة ، وورقة ليس منهم ، أمراً طبيعياً ،

---

(١) قسّ ونبي : ص ١٤ .

(٢) قس ونبي : ص ١٤ .

بـل مفروضـاً ، وإهمال مـا عداهـا كونـه من تراث الجـاهلية البغيض التي تـركها الإنسان العربي إلى غير رجعة ، أمر طبعي أيضاً . ويضيف الحريري قائلاً :

«قد يكون ما كتبه أهل السير عن فرع عبد مناف غير موافق للحقيقة لأن همّ الذين كتبـوا عنه كـان لأجل غـاية معـروفة مقصودة سلفاً وهو أن يدلّـوا على جدّة الـرسالـة المحمديـة وإظهـار مـا سـواهـا ظلمـة قـاتمة ، ووضعهـا في خـانـة الجاهلية»[1] .

بمعنى آخر يود القول، بأن مؤامرة أهل السيـر على فرع عبـد العزى لنفيهم من جنة التاريخ ، إنما كانت إسداء خـدمة لفـرع عبد منـاف على حساب الفـرع الأول ، ولذلك نسبوا لهذا الفرع كل الفضائل والمآثر .

ولكنه لم يدلنا دعماً لرأيه، عن موقع واحـد من سيرة عبـد مناف المـربوطـة بسيرة النبي غير موافق للحقيقة . ويضيف :

«وكما أن كتاب السيـر والأخبار راحـوا في كتابـة سيرة عبـد مناف انطلاقاً من النبي فنحن أيضاً سنعمـد في كتابـة سيرة فـرع عبد العـزى انـطلاقـاً من القس ورقـة حتى ولـو كـان القليـل المذكـور عن القس لا يسمح لنا بوافـر من المـادة لإرواء غليل المتبحرين»[2] .

أمـا وأن أهل السيـر قد انـطلقوا من النبي في كتـابتهم سيرة عبـد منـاف . فالحريري قرر في كتابته عن فرع عبد العزى أن ينطلق من القس ورقة .

ولم ينس معـالجة مسـألة الفضـائل المنسـوبة لأجـداد النبي وحـظهم بـه ، وضرورة تدبير مثلها للقس ليغتني بها وأجداده أسوة بأجداد النبي .

---

(١) قس ونبي : ص ١٤ .

(٢) قس ونبي : ص ١٤ .

هذا بالإضافة لضرورتها في عملية حفظ التوازن المفروض بين النبي وورقة فقال :

«فلن يقل حظ القس فيما عرف عنه ـ من الفضائل ـ بالنسبة للنبي»[1] .

ولا بد هنا من وقفة متجردة، نلقي أثناءها الضوء على ما سجل التاريخ لهذين الفرعين من مآثر فرع عبد مناف وهم أجداد النبي ، وفرع عبد العزى وهم أجداد ورقة ، لنرى أين امتاز واحدهما على الآخر وأين تساويا .

ثم نتبصر بالتهمة التي ساقها المؤلف بحق أهل السير، بأنهم طمسوا مآثر فرع عن قصد وعمد، لصالح فرع آخر، وبعدها نعرج لنستطلع موقع ورقة في التاريخ .

ذلك الموقع الذي يجهد الحريري نفسه لإزالة أتربة النسيان عنه . وإعادة الحياة والمجد إليه بعد غبن .

«أين هي المؤامرة» ؟

يلتقي ورقة والنبي عند جدهما الأول قصي بن كلاب ، الذي أرجع المؤرخون له فضل تأسيس قريش ، ولنسله من بعده امتدادها البشري والاجتماعي والسياسي .

ولقد اختلف أهل الأخبار حول قصي ، فالأخبار الدقيقة عنه قليلة متضاربة ، ولكنهم أجمعوا بأن تاريخ قريش الواضح ، لحد ما ، يبدأ منه ، وما قبله غامض مشكوك به . وبأنه عاش يتيم الأب فتعهدته أمه بعدما تزوجت بعد أبيه من ربيعة بن رزاح .

وظل قصي معها في مرابع زوجها حتى أصبح بالغاً . وعندما عرف نسبه

---

(١) قس ونبي : ص ١٤.

رجع إلى قومه، وهناك تزوج من حبى ابنة حليل الخزاعي ، وكان حليل هذا هو حامل مفاتيح الكعبة في مكة .

ولقد ذكر الطبري وابن خلدون :

«بأن حليل عندما هلك أوصى بولاية البيت لصهره قصي»[1] .

ومن هنا بدأت زعامة قصي على مكة . تلك الزعامة التي توارثها أبناؤه عنه فيما بعد . ولا وجود في أقدم المراجع التاريخية ما يسند مزاعم الحريري بأن قصي كان نصرانياً ، لأنه لو كان كذلك لرفض على الأقل أن يكون خادماً لكعبة مليئة بشتى أصناف الأصنام ومعالم الوثنية والشرك .

ومن الواضح أن الزعم بنصرانية قصي أرادها المؤلف كي تكون مقدمة لجر سواه من عائلته إلى تلك الديانة .

رزق قصي بأربعة أولاد هم : عبد الدار ـ عبد مناف ـ عبد العزى ـ عبد قصي ـ وكان أكبرهم عبد الدار .

ولقد تحدثت المراجع التاريخية عن انقسام حاد حصل بين هؤلاء الأبناء بسبب تنافسهم على الزعامة بعد أبيهم . فكان عبد مناف في جهة، وعبد الدار في جهة أخرى . ولكن تلك الخلافات انتهت بتسوية سياسية بينهما قضت بأن تكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف ، والحجابة واللواء لبني عبد الدار[2] .

ولكن أين كان موقع بني عبد العزى من صراع الأخوة على الزعامة ؟ يبدو أنهم كانوا على هامشه .

---

(١) ابن خلدون : ج ٢ ص ٢٣٦ الطبري : ج ٢ ص ١٧ .

(٢) ابن خلدون : ج ٢ ص ٢٣٦ جواد علي في كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٤٠ .

ذكرهم ابن خلدون والطبري وجواد علي فقالوا :

«أنهم كانوا في صف بنو عبد مناف»(١) .

والثابت أن التسوية السياسية بين الفرعين المتنازعين لم تترك لبني عبد العزى أية مكاسب ، فقبلوا بما قبل به بنو عبد مناف .

وفيما كانت زعامة قريش مناوبة أو مقاسمة بين هذين الفرعين، استمر وضع فرع عبد العزى في الظل ، فلم يتحدث أهل الأخبار عن بروز يذكر فيهم . فظلوا على الدوام تابعين لا متبوعين . بالمقابل كان لهاشم من بني عبد مناف موقع مميز بين القبائل فأجمع أهل الأخبار أن عهده كان مليئاً بالمآثر والمواقف الرائدة في شتى المجالات .

ذكره ابن خلدون فقال :

«قام هاشم بأمر مكة فأحسن ما شاء في إطعام الحاج وإكرام وفدهم وهو أول من سن الرحلتين في الشتاء والصيف للعرب»(٢) .

وعندما مات هاشم خلفه ابنه المطلب .

ذكره ابن خلدون فقال :

«كان ذا شرف ، وفضل وكانت تسميته الفضل لسماحته» .

وانتقلت الزعامة بعد موت المطلب إلى ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم الذي رسخ زعامة بني عبد مناف في قريش .

ذكره البلاذري فقال :

«كان إذا خرج قام على رأسه أبناؤه وعبيده إجلالاً له ولما

---

(١) ابن خلدون : ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٢) ابن خلدون: ج ٢ ص ٢٣٦ .

مات لم يقم بمكة سوق أياماً كثيرة وأنه كان أول من تحنث بحراء يطعم المساكين وكان يعظم الظلم ويكثر الطواف بالبيت وأنه جاوز الثمانين ودفن في الحجون»(1) .

وذكره ابن خلدون فقال :

«عبد المطلب بن هاشم أقام الرفادة والسقاية للحاج على أحسن ما كان قومه يقيمونه بمكة من قبله . وكانت له وفادة على ملوك اليمن . وهو من حفر زمزم وأقام في رياسة مكة وأول من كسى الكعبة وعمر طويلاً» .

وإذا كان بنو عبد مناف قد تقاسموا زعامة مكة والسيادة على قريش مع بني عبد الدار فأين كان آنذاك بنو عبد العزى وهم وبنو عبد مناف موضوع بحثنا في هذه المقارنة ؟

لنحاول بتجرد وموضوعية إلقاء الضوء على ذلك قدر الإمكان .

أعقب عبد العزى بأسد ، والملفت للنظر أن كتب أهل الأخبار جميعها تقريباً خالية من ذكر شيء مهم عن هذا الرجل، مما يترك انطباعاً بأنه كان رجلاً عادياً بعيداً عن مشاكل الحياة العامة والأمور السياسية، فلم يذكر أحد أنه تبوأ مركزاً متقدماً أو أنه نافس غيره على مركز متقدم . ولا نعرف لقلة الأخبار عنه أكثر من أنه أعقب بثلاث أبناء هم: الحويرث، وخويلد، ونوفل. وإذا كانت أخبار الأب قليلة ونادرة، فأخبار أولاده أيضاً لم تكن بأفضل حالاً من أخباره . ويبدو أنهم ورثوا عن أبيهم الاستكانة، والدعة، ومحدودية الطموح، فلم يذكر لهم التاريخ دوراً بارزاً في أي حقل من الحقول . فقط كان أهل الأخبار يذكرونهم في سياق حديثهم عن أشراف مكة نسباً . فخويلد لم يذكر عنه أهل الأخبار أكثر من أنه أعقب بإبنته خديجة زوج النبي .

أما الحويرث، فكان شأنه كأخويه استكانة وانزواء، ولكنه أعقب بولد هو:

---

(1) أنساب البلاذري : ج ١ ص ٨١ (انظر تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٤ ص ٦٠/٦٦).

عثمـان بن الحويـرث . وعند عثمـان هذا يتـوقف أهـل الأخبـار ليسجلوا لـه أول محاولة جادة قام بها واحد من فرع عبد العزى للوصول إلى مركز ما في مكة .

ولكن هذه المحاولة البائسة التي أودت بحياة صـاحبها عثمـان مسمومـاً في الشـام ، لم تنته فقط بـالفشل الـذريع وإنمـا أكسبت صاحبهـا التحقير والبغضـاء والذم من قومه أيضاً . إذ اعتبرتها قـريش مؤامرة على أمنها، وخيانـة لها مـع قوى خارجية . ومفادها كما اتفق عليها أهل الأخبار :

أن عثمان الذي أشيع عنه تنصره على مذهب الروم بقصد التقرب منهم، قام بتحـريض قيصر الـروم لاحتلال مكـة والسيـطرة منهـا على كـل الحجاز، على أن يمكن القيصـر لعثمان تنصيب نفسـه ملكـاً على مكـة . ولكن القيصـر لسبب مـا رفض عرض عثمان ففشلت المؤامرة .

وعند سماعها الخبر، انتفضت قريش، وأرسلت من دس السم لعثمان وهو في الشام انتقاماً منه لتآمره على سلامتها فمـات ودفن هناك ، وبـذلك طـويت صفحة أول محاولة من بني عبد العزى في سبيل المجد المفقود .

وذكر أهل الأخبار عن عثمان أيضاً :

«بأنه كان في رؤساء حرب الفجار من قريش وأنه كـان أحد الهجائين»[1] .

ما عدا حركة عثمان الفاشلة، لا نجد لواحد من فرع عبـد العزى قبـل ظهور الإسلام أثراً بارزاً في حياة مكة يبقى من أبناء أسد بن عبد العزى، ولده الثـالث نوفل .

ذكره الطبري فقال :

«وقع خلاف بين عبـد المطلب وعمـه نوفـل سببه أن نـوفل ظلم عبد المطلب على أرضـه فتدخـل عقلاء قـريش وأكره

---

(1) الروض الأنف : ج ١ ص ١٤٦ تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٤ ص ٩٢. الاشتقاق : ص ٥٩، نسب قريش: ص ٢١٠.

على إنصاف عبد المطلب حتى عاد إليه حقه . وأن نوفل أعقب بورقة ومات في العراق»[1] .

هـذا هو فرع عبد العزى بعجه وعجيجه، وغثه وسمينه، فأين مآثره التي طمست بمؤامرة أهل السير خدمة لبني عبد مناف أجداد النبي ؟ وأين أمجاده الغابرة ؟ وهل من مبرر لنصدق مزاعم الحريري عن المؤامرة المزعومة لطمس أخبار هذا الفرع ؟ وهو لم يكن في وقت من الأوقات منافساً جدياً لبني عبد مناف ؟ بل على العكس رأيناه حليفهم في صراعهم مع بني عبد الدار على الزعامة قبل الإسلام .

وإذا صحت مزاعم الحريري، فإن علاقة ممتازة كانت تجمع بين النبي وورقة قبيل ظهور الإسلام، بحيث كان محمداً وزوجه خديجة يلجآن إليه لاستشارته حول بعض الأمور الدقيقة . فأين هو مبرر مؤامرة أهل السير ضد هذا الفرع ؟ في وقت لم يطمس هؤلاء أخبار أعدى أعداء النبي ودينه أمثال أبي سفيان وأبي لهب وسواهما، ممن ناصبوا النبي والإسلام عداءً معروفاً .

وإذا كنا قد تحدثنا ببعض التوسع عن الفرع (المنكود الحظ) فلكي نعطيه حقه، فإننا لا نستطيع ذلك لدى حديثنا عن فرع عبد مناف، إذ أننا نحتاج إلى صفحات وصفحات لتغطية أخباره ومآثره . بدءاً من هاشم ووصولاً إلى النبي .

فمآثر هـذا الفرع بقيت على مر الزمن منارة خالدة ، أنارت طريق مكة وقريش قبل الإسلام ، وتخطت حدود الجزيرة بعده لتنير سبيل الإنسانية إلى الهداية والإيمان والتقوى .

يبقى من فرع عبد العزى ورقة بن نوفل، ولا بد من أن نتوقف عند محطته، وهي المحطة الرئيسية في بحثنا من الأساس، لنسلط الأضواء على ما تركت شخصيته من مواقف خلّده بها التاريخ أو خلّدها به .

---

(١) الروض الأنف : ج ١ ص ١٤٦، تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ٤ ص ٩٢، الاشتقاق: ص ٥٩، نسب قريش: ص ٢١٠.

ورقة والحنيفية والحنفاء

لا نستطيع أن نتحدث بموضوعية وتجرد عن ورقة بن نوفل ، بدون الحديث عن حركة انتمى إليها في الجاهلية ، وكان إحدى ركائزها وعلماً من أعلامها ، حتى أن التاريخ إن كان قد سجل له سطراً في سجله ، أو أفسح له مكاناً بين رجالاته ، فليس إلا بسبب انتمائه لهذه الحركة التي كانت في زمن الجاهلية تعتبر حركة رائدة متقدمة ، تلك هي : الحنيفية ، والحنيفية تفرض على كل من يطرق باب عضو فيها أن يمر بفنائها أولاً . . ليبحثها ويدرسها ويناقشها ، ومن ثم يدلف إلى أشخاصها وإن كانوا قلة معدودين .

فما هي الحنيفية ، ومن هم الحنفاء ؟

يفترض بنا قبل الدخول في موضوعها، أن نجول قليلاً بأذهاننا في أنحاء مكة ، ليطالعنا منظر الكعبة تتوسط تلك المدينة الغبراء ، المتعبة من ضجيج قوافل الحجاج ، الوافدين إليها من قريش وسواها ، لتأدية فريضة التبرك والطاعة لأصنام منصوبة داخل كعبتها ، يتزاحمون للوصول إما إلى اللات أو العزى أو هبل ، أو إلى باقي الأحجار المنحوتة ببدائية فجة وبأسلوب لا يمت إلى الفن بصلة ، ناهيك عن منظر تلك الحيوانات التي كانت تهرق دماؤها إرضاء لتلك الحجارة ـ الآلهة ـ إضافة لبعثرة الأموال الطائلة التي كانت تبذر بسخاء ساذج تحت أقدام الأصنام ، طلباً لرضائها وتقرباً إليها ، أو التماس عونها في غزو جار ، أو في سطو على عدو .

وبينما كان هذا المنظر يتكرر كل عام ، كان في مكة جيل من الشباب قد بدأ يشرئب بأعناقه متطلعاً بعين حائرة متسائلة إلى ما يحيط به من أصنام ووثنية ، وفي داخله شك مرير في أن يكون لهذه الأصنام أية قدرة على تلبية حاجات المؤمنين بها اللاهفين إليها .

لقد بدا واضحاً أن رياحاً فكرية جديدة هبت على عقول أولئك الشباب ، وأن مفاهيم جديدة مختلفة يحملونها في أذهانهم لا تلتقي أبداً ومفاهيم الوثنية السائدة ، اكتسبوها من جراء أسفارهم التجارية إلى الشام أو العراق ، واحتكاكهم هناك ببعض الرهبان الذين كانوا قد زرعوا أنفسهم في أديرة ـ مصائد ـ كان لا بد لكل آت إلى الشام أو راجع منها أن يمر بها لبعض الوقت ، يقضيه بضيافتهم في جو من التعبئة النفسية والتثقيف النصراني ، أو من جراء قراءاتهم الكتب ومطالعاتهم لها، مما مكنهم من الاطلاع على بعض مبادىء النصرانية أو اليهودية أو على شيء من كليهما ، أو من خلال تأثرهم بما وصل إليهم من مبادىء وتعاليم دين إبراهيم الحنيف .

وإلى ذلك أشار جواد علي فقال :

«لبعض الأحناف علم اللغات الأعجمية مثل السريانية والعبرانية ، فأضافوا إلى علمهم الذي أخذوه من الكتب علماً حصلوا عليه من أسفارهم إلى الخارج مثل العراق والشام ، ومن اتصالهم برجال الكنائس واليهود» .

وقال أيضاً :

«أثرت الأديرة تأثيراً مهماً في تعريف تجار العرب والأعراب بالنصرانية»[1] .

ولا يسعنا إلا الاعتراف بأنه كان للرهبان فضل كبير بتحويل أولئك الشباب عن عبادة الأصنام إلى عبادة قوة أخرى .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ٦، ص ٤٥٦ وص ٥٨٩.

ولكن ما هي هذه القوة البديلة ؟ . .

ما هو الدين البديل عن الوثنية الذي هرع إليه أولئك الشباب ؟

لقد استطاع احتكاكهم بالرهبان أن يكوّن لديهم قناعات جديدة ، وأن يفتح آفاق أذهانهم إلى أمور جديرة بالدرس والتعمق .

ولكن هذا الاحتكاك لم يكن كافياً كما يبدو في بداية أمره ليدفع بهم إلى النصرانية ، إذ أنهم ظلوا أو أكثرهم على الأقل على مسافة منها .

وقد يكون مرد هذا الحذر من النصرانية إلى التعقيدات الجدلية الفلسفية المعروفة التي تحيط بها ، إضافة إلى أنها في تلك الفترة ، كانت تمر بأوج تمزقها ، بسبب الخلاف النصراني الذي نشب حول طبيعة المسيح وأمه .

وقد أشار إلى ذلك جواد علي فقال :

«من الأحناف من آمن بدين النصرانية ، ولكنه لم يكن على نصرانية قومه ، لأن عقله لا يقر التقرب إلى المادة ، مثل الصليب والصور والتماثيل . ومنهم من أبعدته ، مثل هذه العبادة عن النصرانية ، فصيرته حائراً في أمره من الديانات ، يعتقد بإله ولكن لم يستقر على دين»[1] .

لقد حاول أولئك الشباب إقناع أهلهم ، بأن هناك قوة غير الأصنام يجب أن يتوجهوا إليها ، ولكنهم كانوا في واد وأهلهم في واد آخر .

وكان من الطبيعي أن يؤدي تمسكهم بقناعاتهم ، وتمسك مجتمعهم بوثنيته وأصنامه ، إلى الاصطدام مع هذا المحيط ، بعدما اعتبرهم خوارج ، مسفهين لدين الأهل والأجداد . فكان البعض بسبب ذلك ، كثيراً ما يتعرض لأذى أهله .

فالمسعودي ذكر :

«أن الحنيفي المعروف زيد بن عمرو بن نفيل ، تعرض

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ٦، ص ٤٥٦ و ٥٨٩.

للأذى من سفهاء مكة بتحريض من عمه الخطاب»[1] .

لقد كوّن الحنفاء في مجتمعهم حالة رفض وتمرد على كل ما يحيط بهم من طقوس ، ولما فشلوا بتغيير حال قومهم واصطدموا بمحيطهم ، عزلوا أنفسهم أو أنهم عُزلوا عن مكة ، فكوّنوا خارجها ما يشبه ندوة روحية فكرية في مكان يدعى حراء . كانوا يجتمعون فيه فيتناقشون ويقرأون الكتب ويتعبدون ، ويقضون أوقاتاً طويلة بالتأمل والتهجد والتحنث والتعبد لله الواحد .

ولكن الواضح أن تلك الندوات وقراءة الكتب التي كانت بين أيديهم ، لم توصلهم بالنهاية إلى قناعة موحدة حول الدين البديل عن الوثنية ، بدليل أنهم لم يكونوا في وقت من الأوقات وحدة فكرية متجانسة ، فمنهم من كان يرى في النصرانية بديلاً ، ومنهم من كان يرى في دين إبراهيم الحنيف الحل المنشود ، ومنهم من ظل حائراً بين هذه وتلك، فلم يحسم أمره .

ورغم أننا لا نعرف إلى أي مدى كان أولئك الأحناف على معرفة باليهودية ، أو دين إبراهيم، أو النصرانية، إلا أننا من خلال ترددهم وبلبلتهم وتشقق انتمائهم ، نستنتج بأن مداركهم لم تكن لتستوعب أكثر من العموميات من هذه الأديان ، وما كانوا على اطلاع عليه خارج موضوع التوحيد ، ليس بأكثر من مبادىء أخلاقية اجتماعية بسيطة .

وحول هذا قال جواد علي :

«إن الحنفاء لم يكونوا على رأي واحد ودين واحد ، بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسير على شريعة ثابتة ، كما لا نستطيع أن نقول : أن الحنيفية كانت فرقة تتبع ديناً بالمعنى المفهوم من الدين ، لها أحكام وشريعة على نحو ما نفهم من الأديان السماوية ، كما لم يكونوا جماعة دينية منظمة»[2] .

---

(١) مروج الذهب: ص ٧٠.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٦، ص ٤٦٢، وص ٤٨٥ .

لقد كان أمام أولئك الأحناف طريقين للإيمان بديلاً عن الوثنية ، فإما النصرانية ، وإما دين إبراهيم ، بعدما كانت اليهودية قد أغلقت أبواب دعوتها بوجه الطامحين للدخول فيها .

كانت النصرانية بالنسبة لأكثرهم معقدة بجدليتها وفلسفتها ، مع ما كان يبدو على بعض طقوسها من شبهة وثنية أبعدت الكثيرين منهم عنها . بينما كانت ميزة دين إبراهيم بالنسبة لبعضهم بأنه لم يكن ديناً غريباً عن أذهانهم ، فإبراهيم ليس غريباً عن العرب عامة وقريش خاصة ، فهو جد العرب الأول ، وهو أول الأنبياء ، وهو من بنى مكة ، وابنه إسماعيل من بنى الكعبة ، ودين إبراهيم دين بسيط التعاليم قوامه التوحيد بعيداً عن التعقيد الفلسفي ، ولذلك كان طبيعياً جداً أن يكون معظمهم قد انتهى حنيفياً ، ومعروف أن اسم الحنفاء أطلق على الذين آمنوا بالحنيفية ، أي بديانة إبراهيم .

هدفنا من ذلك بالطبع الوصول في النهاية إلى شخصية ورقة بن نوفل .

وليس بغير هذه الخطى المتبصرة الهادفة نستطيع الوصول إليه بتجرد وموضوعية ، لنعرف أين بدأ هذا الحنيفي وأين انتهى ؟

وبذلك يتبين لنا ولصاحب اللقيط الخيط الأبيض من الأسود .

يبقى سؤال يفترض أن نجيب عليه ، ما هي الحنيفية ؟

١ ـ جواد علي قال :

«لفظة حنيف هي في الأصل بمعنى صابئي ، أي خارج عن ملة قومه ، وهي الميل عن الشيء أو تركه»[١] .

٢ ـ الأصفهاني قال :

«الحنيف، هو الذي يميل إلى الحق»[٢] .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ٦ ص ٤٥٣.

(٢) المفردات: ص ١٣٣.

٣ ـ الطبري قال :

«الحنيف ، هو من أسلم في أمر الله فلم يلتو في شيء»[1] .

٤ ـ المسعودي قال :

«إن اللفظة من الألفاظ السريانية المعربة ، أطلقت على المنشقين على عبادة قومهم الخارجين عليها»[2] .

٥ ـ المستشرق نولدكه قال :

«بأنها من أصل عربي هو : تحنف»[3] .

بعضهم قال :

«إنها من أصل عبراني هي تحينوت ، أو من حنف ومعناها التحنث بالعربية» .

ومن هنا يتبين أن كلمة حنيفية ، هي الميل عن موقف خاطىء إلى موقف سليم ، أو الميل عن طريق الضلال إلى طريق الهداية .

ولما كان ترك الوثنية إلى التوحيد هو نقلة من الباطل إلى الحق ، لذلك كان بإجماع أهل الأخبار اسم الحنيفية لصيقاً بحركة الميل عن الوثنية إلى الوحدانية .

وبذلك كان الحنفاء هم أبطال هذه الحركة ، فدعيت بالحنيفية ، وهم بالحنفاء ، ولا بد لنا ونحن نتحدث عن الحنيفية كمبادىء وعفيدة، من أن نرى كيف كانت صورتها بذهن أهل الأخبار .

٦ ـ جواد علي قال :

«لسنا نملك ويا للأسف شيئاً من الجاهلية يعيننا في

---

(١) الطبري : ج ١ ص ٢٥٨ .

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٧٨ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

الوقوف على عقائد الأحناف ودينهم ، وليس بإمكاننا في الوقت الحاضر وضع صريح لمفهوم الأحناف والدين الحنيف عند الجاهليين ، لعدم وجود مواد واضحة صريحة عن الأحناف ، وليست الصورة التي وضعها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء واضحة ، فهي غامضة مطموسة في كثير من الأحيان ، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية» .

ويضيف جواد علي قائلاً :

«الفضل في إخبارهم للقرآن الكريم ، فلولا إشارته إليهم لما اهتم المفسرون وأصحاب الأخبار بجمع ما كان عالقاً بذهن الناس عنهم . وللحديث وكتب السير والأدب فضل آخر في جمع أخبارهم ، كما للشعر الجاهلي دور لا بأس به في معرفة بعض نواحي وأخبار الحنيفية والحنفاء»[1] .

إذاً مصادر أهل الأخبار عن هذه الجماعة مبادىء وأتباعاً مستقاة من :

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ كتب السير والأدب .

٣ ـ الشعر الجاهلي .

وإلى هذه المصادر فقط يجب أن نعود لمعرفة الحنيفية ، فنبدأ أولاً بالقرآن الكريم :

* من القرآن نفهم أن الحنفاء هم الذين رفضوا عبادة الأصنام ، فلم يكونوا من المشركين ، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص ، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى ، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى .

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[2] .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٦ ص ٤٥٠ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٦٧ .

* فيما أهل السير والأخبار ذكروهم :

«لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، لم يشركوا بربهم ، سفهوا عبادة الأصنام ، سفهوا رأي القائلين بها» .

وأحكام الدين الحنيف عندهم هي :

«الإعتقاد بوجود إلـه واحد أحد ، طواف البيت ، الحج إليه ، العمرة ، الوقوف على عرفة ، وهدي للبدن ، وإهلال بالحج والعمرة» .

والحنيف هو :

«كل من اختتن ، وحج البيت ، واعتزل الأصنام ، واغتسل من الجنابة» .

ومن أهل الأخبار من أضاف إلى ذلك :

«الامتناع عن أكل ذبائح الأوثان ، وكل ما أهل إلى غير الله ، وتحريم الخمر والميسر»(١) .

بينما الفخر الرازي والطبرسي قالا في الحنيفية أربعة :

«حج البيت ، اتباع الحق ، اتباع إبراهيم فيما أتى من الشريعة ، الإخلاص وحده والإقرار بالربوبية والإذعان للعبودية»(٢) .

عن هذه الحقيقة عبر العلامة السيد محمد حسين آل كاشف الغطاء في كتابه (الدعوة الإسلامية) فقال :

«إن المذهب العام في العرب قبل الإسلام ، ما هو إلا ما

---

(١) الطبري : ج ١٠ ص ٤٦٧ ـ النهاية في غريب الحديث ـ لابن الأثير: ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) التفسير الكبير للرازي : ج ٤ ، ص ٨٩.

أنبأنا عنه من مذهب الحنفية ، مذهب إبراهيم وإسماعيل الذي بقي عندهم كثير من نواميسه وشرايعه التي عرفتها ، ودخله كثير مما ليس فيه شأن سائر المذاهب والأديان التي يمر عليها تطاول القرون والأزمان»[1] .

* وما وصل إلينا من الشعر الجاهلي الذي يتحدث عن الحنيفية ، يثبت بأن من الشعراء من فصل صراحة بين النصرانية والحنيفية ، واعتبر أن العرب يعتبرون الحنيفية دينهم وعقيدتهم ، وإليها تتجه عقولهم وأفئدتهم ، وإلى ذلك أشار أبو قيس الاسلت بالأبيات التالية :

«فلولا ربنا كنا يهودا ... وما دين اليهود بذي شكول
ولولا ربنا كنا نصارى ... مع الرهبان في جبل الجليل
ولكنا خلقنا مذ خلقنا ... حنيف ديننا عن كل جيل»

وإلى ذلك قصد أمية بن أبي الصلت عندما قال :

«كل دين يوم القيامة عند الله ... إلا دين الحنيفية زور»[2]

ومهما يكن من أمر ، فالأرجح أن المبادىء الحنيفية التي فهمها أو طبقها حنفاء مكة على قلتهم ، كانت مزيجاً من بعض التعاليم النصرانية التي عرفها الحنفاء ، من اتصالهم بالنصارى فأخذوا عنها :

- طرح عبادة الأصنام والوثنية .

ومن بعض التعاليم اليهودية التي أخذوا منها :

- وحدانية الله وعدم الشرك به .

ومما وصل إليهم بطريقة ما من دين إبراهيم ، سواء عن طريق الكتب ، أو بواسطة تواتر المعلومات فأخذوا منها :

---

(1) الدعوة الإسلامية : ص ٢٩٢ .
(2) الأغاني : ج ٤ ص ١٢٢ .

ـ وحدانية الله الخالصة ، مع أكثر المبادىء الخلقية والاجتماعية والإصلاحية .

هذا بالإضافة إلى أخذهم لبعض العادات الجاهلية ، التي لم يروا فيها شبهة شرك أو وثنية ، كالحج ، وطواف البيت ، والعمرة ، والوقوف على عرفة ، والهدي للبدن .

والملاحظ أن دور النصرانية في الحنيفية اقتصر على دق إسفين الشك وزعزعة الإيمان بالوثنية في أذهان الأحناف ، أي أن النصرانية هيأت لهم المناخ الفكري الملائم لترك الوثنية ، ولكنهم عندما تركوها لم يدخلوا في النصرانية كما كانت تأمل هذه ، بدليل أن الأحناف لم يتحولوا بكليتهم إليها ، وقد يكون ذلك بسبب إيمانهم بوحدانية خالصة لا شائبة فيها ولا غموض ، وحدانية ربما وجدوا أنها لا تلتقي وبعض التعاليم النصرانية التي بدت لهم أو لأكثرهم صورة ملطفة لنوع من أنواع الشرك ، قياساً على ما رأوه بها من المظاهر المادية من صلبان وتماثيل وصور وسواها .

ويفترض أن يكون بسبب هذا المزيج المتناقض ، المستمد من ثلاثة ديانات يكمن فشل الأحناف بتوحيد انتمائهم إلى دين واحد ، فتعددت ولاءاتهم وتشعبت توجهاتهم ، إلى أن انفرط عقدهم بالنهاية كما هو معروف .

وإلى ذلك أشار جواد علي بقوله :

«الحنفاء كانوا يرون تحريفاً في الكتابين ـ التوراة والإنجيل ـ وأن هناك تبايناً قليلاً أو كثيراً بين الأصل الذي أوحاه الله ، وبين الذي كان بين يدي الناس ، ولذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية ، إلى دين إبراهيم»[1] .

ولكن ما هو رأي المستشرقين وأدباء الغرب بهذه الجماعة ؟ وكيف نظروا

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٦ ص ٤٥٤ .

إليها ؟ يبدو أن لبعضهم في الحنفاء والحنيفية رأي آخر ، فمنهم من عد الحنفاء شيعة من شيع النصرانية ، وعدهم نصارى عرباً زهاداً ، كيفوا النصرانية بعض التكييف ، وخلطوا فيها من تعاليم غيرها ، وقد ذهب ولهوزن :

«إلى أن الأحناف هم من النصارى وأن حركتهم نصرانية ، وأنهم كانوا القنطرة التي توصل بين النصرانية والإسلام» .

أما غوستاف لوبون فله في الموضوع رأي مغاير ، إذ قال :

«إن المعتقدات القديمة في بلاد العرب قد ضعفت وفقدت الأصنام قوتها ، ودب الهرم في آلهتها ، وأنه كان في الجزيرة العربية ، خلا النصارى واليهود من كانوا يعبدون إلهاً واحداً ، وهم الحنفاء»[1] .

والملاحظ أن لوبون اعتبر الحنفاء فريقاً ثالثاً ، لا هو باليهودي ولا بالنصراني ، بل موحدين حنفاء ، بينما ذكرهم صاحب (قصة الحضارة) ول ديورانت فقال :

«كانت في البلاد شيعة من العرب تدعى بالحنيفية ، أبت أن تقرّ بالألوهية لأصنام الكعبة ، وقامت تنادي بإله واحد يجب أن يكون البشر جميعاً عبيداً له وأن يعبدوه راضين»[2] .

والملفت للنظر هنا أن ديورانت لم يأت على ذكر نصرانيتهم بشيء .

أما البروفسور بليايف فقال :

«نشأت الحنيفية كعقيدة خلقية ودينية في اليمامة ، وانتشرت في غربي الجزيرة العربية ، حيث وقع الكثير من

---

(١) حضارة العرب: ص ١٢٤ .

(٢) قصة الحضارة : ج ٣ ص ٢٤ .

سكانها تحت تأثير التوحيد والزهد والتقشف ، بسبب احتكاكهم واتصالهم باتباع ديانتي التوحيد النصرانية واليهودية ، كما اعتنق بعضهم إحدى هاتين الديانتين ، أما في مكة التي كانت حصناً للشرك وغالبية أهلها من المشركين ، فإن الحنيفية لم تنتشر هناك كثيراً» .

وأضاف بليابيف قائلاً :

«بدأت الحنيفية وهي شكل من أشكال التوحيد عند العرب ، صراعها ضد الشرك بمهاجمة عبادة الأصنام والقول بعبادة (الرحمن) وكأنها بذلك مهدت السبيل لقيام دين شامل في البلاد بأسرها ، ويمكن اعتبارها المرحلة التي مهدت لظهور الإسلام»[1] .

ولقد ذكرهم جواد علي فيما يشبه الرد على قول بعض المستشرقين بنصرانية الحنفاء فقال :

«قد كان من الحنفاء نفر من النصارى أخلصوا لنصرانيتهم وماتوا عليها ، فهؤلاء هم نصارى ولا شك ، ويجب إخراجهم من طائفة الحنفاء ، وإدخالهم في النصارى مثل الراهب بحيرا وورقة بن نوفل» .

وفي مكان آخر قال :

«إن الاخباريين وإن أدخلوا في الأحناف أناساً نصوا على أنهم نصارى ، إلاّ أنهم نصوا في الوقت نفسه نصاً صريحاً على أن البقية الباقية كانت واقفة لم تدخل في يهودية ولا نصرانية ، إذ وجدت في كل ديانة من الديانتين أموراً جعلها تتريث ، فلم تدخل في إحداهما وبقيت مخلصة

---

(١) العرب والإسلام : ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .

لسنة إبراهيم ، لذلك لا يمكن اعتبار الأحناف نصارى أو شيعة من شيع النصرانية»[1] .

والملاحظ أن الخلاف فيما بين أهل الأخبار حول هذه الفئة والتناقض في مواقفهم منها ، سببه قلة المعلومات التي وصلت لهم عن الحنيفية والحنفاء . فبات كل فريق يستنتج من المعلومات القليلة المتوفرة ما يراه مناسباً لانتمائه وأهوائه ، فالحنيفية بالنسبة لأهل الأخبار من المسلمين أو لبعضهم : «حركة إصلاحية اجتماعية أخلاقية رائدة» ، والحنفاء ثوار إصلاحيون بكل ما في الكلمة من معنى . بينما هم بالنسبة للمستشرقين المسيحيين خصوصاً المتعصبين منهم حركة نصرانية صرفة ، واتباعها من النصارى العرب .

وقد يكون لأهل الأخبار المسلمين حقهم في الدفاع عن الحنيفية ، لتلاقيها والإسلام في أمور دينية كثيرة ، أهمها موضوع التوحيد الخالص ، والتمايز الكبير الذي أعطاه الإسلام والحنيفية لإبراهيم . ولاعتبار آخر ، هو أن الإسلام اعتبر نفسه دين إبراهيم الحنيف ، ودين إبراهيم هو الإسلام ، فبديهي والأمر كذلك أن ينبري أهل الأخبار المسلمين ، للدفاع عن الحنيفية وتأكيدهم بأنها حركة عربية خالصة ، لا علاقة لها بالنصرانية من قريب أو بعيد . . فهم بذلك إنما يدافعون عن الإسلام . بالمقابل فقد يكون للمستشرق المتعصب أسبابه ودوافعه في محاولته ربط الحنيفية بالنصرانية ، لاعتبارات قد يكون أهمها :

١ ـ رغبته بتأكيد الوجود النصراني الفاعل في الجزيرة ، حتى ولو ظهر هذا الوجود بأشكال مختلفة ، ومن خلال حركات متعددة .

٢ ـ خلطه عن حسن أو سوء نية بين تأثر بعض التجار العرب بالنصرانية وبين اعتناقهم إياها ، ومع أن تأثر تلك الجماعات بالنصرانية لم يبلغ حداً ثبت أنه دفع بها إلى أحضانها ، بدليل بقاء الوجود النصراني ضعيفاً محدوداً بين العرب حتى ظهور الإسلام .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٤ ص ٥٩٢.

٣ ـ سبب آخر وراء محاولة بعض المستشرقين الذين يكنون للإسلام كراهية وبغضاء ، ربط الحنيفية بالنصرانية ، قد يكون كامناً في رغبة هؤلاء بإضعاف الموقف الإسلامي ، وبلبلة النظرة إليه وإرباك المؤمنين به .

فكم سيسبب لأي مسلم من الإرباك الذهني ، لو استطاع هؤلاء هز قناعاته بدينه والتأثير عليه ، وإقناعه بأن الحنيفية التي هي أساس الدين الإسلامي ، ما هي إلاّ شيعة نصرانية ؟

نذكر بأن هدفنا من هذا البحث ثابت ومعروف ، وإليه نسير بخطى ثابتة ، ومن أجل الوصول إليه سرنا هذه المسافات ، نتقفى آثار الحنيفية والحنفاء عقيدة واتباعاً . هدفنا من كل ذلك الوصول إلى ورقة بن نوفل ، ونحن بعد سيرنا الطويل بتنا على مسافة قريبة منه ، نكاد نصل إلى محرابه .

وإذا كنا قد عرفنا من خلال ما تقدم من البحث شيئاً عن عقيدة الأحناف وموقف أهل الأخبار منها ، فلا بد لنا بعدها من أن نتعرف بإيجاز إلى الحنفاء أنفسهم ، إلى أهم رموز الحنيفية ، إلى رواد حراء الأوائل ، لنصل بذلك إلى خريطة توزعهم على الأديان ، بعدما انفرط عقدهم ، وتشتت شملهم ، وأقفل غار حرائهم ، وذهب كل منهم في سبيله . وبذلك قد يمكننا أن نقتحم على ورقة بن نوفل محرابه ، أو لنقل كنيسته ، فنرى أين استقر به المقام ، وفي حضن أية ديانة ارتمى وعاش ومات .

من بين الأحناف أسماء وشخصيات معروفة ، تركت بعض آثارها على لوح التاريخ ، ولذلك فليس من الصعب علينا تتبع آثارها وخطاها ، وعليها سنركز حديثنا ، لنبيِّن كيف كانت نهاية أهم الحنفاء .

ذكر أهل الأخبار أن :

١ ـ عبد الله بن جحش : بدأ حنيفياً ثم نصرانياً ، ثم أسلم مع ظهور الإسلام ، وعندما هاجر إلى الحبشة عاد إلى نصرانيته ومات عليها .

٢ ـ عدي بن زياد العبادي
٣ ـ أرباب بن رئاب الأسدي
(ماتا على النصرانية)

٤ - الحميري الأبرصي — مشكوك بأمرهما ، إذ لم يستطع أهل
٥ - زهير بن أبي سلمى — الأخبار ذكر شيء عن دينهما

٦ - قس بن ساعدة الأيادي :اختلف فيه ، فمنهم من جعله نصرانياً ، لامنس والأب لويس شيخو جعلاه أسقفاً على نجران ، ومنهم من أماته على الحنفية .

٧ - زيد بن عمرو بن نفيل :بدأ حنيفياً متشدداً ، ومات لا على النصرانية ولا على اليهودية ، بل مشركاً ، بينما ذكره ابن خلدون : «أنه التزم ملة إبراهيم إلى أن قتل»[1] .

٨ - عثمان بن الحويرث :مات نصرانياً على مذهب الروم .

٩ - أمية بن أبي الصلت :لم يرض أن يدخل الإسلام ، لأنه كان يأمل أن تكون النبوة له ، لم يمت على دين الوثنية من قومه ، بل مات كافراً بالديانتين .

١٠ - أبو قيس بن صرمة بن أنس :همَّ بالنصرانية ، ثم أمسك عنها ، ثم أسلم وهو شيخ كبير وحسن إسلامه .

١١ - وكيع بن مسلم بن زهير الأيادي — مات ولم يشرح معتقده الديني .
١٢ - عامر بن الظرب العدواني
١٣ - عبد بن الطابخة بن قضاعة
١٤ - علاق بن شهاب التميمي
١٥ - المتلمس بن أمية الكناني — جميع هؤلاء ماتوا حنفاء موحدين
١٦ - عبد الله القضاعي
١٧ - عبيد الأسدي
١٨ - كعب بن غالب
١٩ - عير بن جندب الجهمي

(١) أسد الغابة ج ٣ ص ١٠٨، تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٦، ص ٥٠٤. الإصابة : ج ٢ ص ١٧٦ بلوغ الأرب: ج ٢ ص ٢٦٦ .

ومن هنـا يتبين أن أشهر الحنفـاء وأهم رواد حراء ، تبعثـروا بـالنهـايـة بين النصــرانيـة والحنيفيــة ، ومنهم من بقي على حيـرة وتــردد ، وقلة منهم لحقت بالإسلام فأسلمت .

ومن هذه الشلة التي توزعت هنا وهناك نصل إلى ورقة بن نـوفل ، ابن عم خـديجة زوج النبي ، ولقـد آثرنـا أن نتركـه إلى آخر المـطاف ، لأننا إن سمحنـا لأنفسنا أن نختصر سيرة الآخرين من رفاقه ، إلا أننا لا نستطيع ذلك بالنسبة لـه ، إذ أن علينا أن نلقي عليه وعلى سيرته وخـطاه الضوء السـاطع ، كي نفيـه حقه ، فلا نغبنه في موقع له حق فيه ، ولا نختلق له موقعاً ليس به حق .

فبماذا ذكره أهل الأخبار ؟

جواد علي قال :

«ذكروا أنه ساح على شاكلة من شك في دين قومـه ، وتتبع اليهود والنصارى وقـرأ الكتب وعد في جملة المتنصـرين ، كان شابـاً متأمـلاً مفكراً منكمشـاً على نفسه ، مكنـه علمه بـالكتـابـة والقـراءة من قــراءة الكتب والاطـلاع على آراء الماضين والحاضرين ، حتى جاء يـوم دفعه اجتهـاده الذي وصل إليه ، الخروج على تقاليد قومه وانتقاد الأوضاع التي كـانوا عليهـا ، ممـا حمله على تـرك مكـة طـوعـاً أم قهـراً والتجول للبحث ، أو فراراً من غضب قومه عليه»[1] .

وذكرهالمسعودي فقال :

«ورقـة بن نوفـل كـان قـد قـرأ الكتب ، ورغب عن عبـادة الأصنـام ، وبشر خـديجة بـالنبي وقال لهـا : إنه نبي هـذه الأمة ، وقد اختلف فيه ، فمنهم من زعم أنه مات نصرانيـاً ولم يدرك ظهور النبي ولم يتيسـر له أمـره ، ومنهم من رأى

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٩ ص ٥٠٥ .

أنه مات مسلماً وأنه مدح النبي .

وكان يكتب الكتاب العبراني ، فكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء أن يكتب ، أو أنه كان يكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب»[1] .

ولكن جواد علي علق على خبر المسعودي هذا فقال :

«الخبران هما خبر واحد كما يظهر من وحدة النص ، غير أن اسم اللغة التي زعم أنه كان يكتب بها قد (حُرّف) فقرأه بعضهم العربي وقرأه بعض آخر العبراني .

ولما كان الإنجيل باليونانية وبلغة أرم فقد أخطأ الرواة بجعل لغة الإنجيل هي العبرانية ، وهم يتوهمون كثيراً فيخلطون بين العبرانية والسريانية ، والغالب أنهم كانوا يريدون بالعبرانية لغة بني أرم ، التي كانت لغة العلم والأدب والدين في العراق وبلاد الشام ، بل لغة مثقفي اليهود ورجال دينهم في ذلك الوقت» .

ويضيف جواد علي قائلاً :

«يظهر من الأخبار المتقدمة أن ورقة بن نوفل كان قد أدرك أيام الرسول إلى يوم نزول الوحي ، بل يظهر أنه عاش مدة بعد نزول الوحي ، غير أن الأخبار المذكورة لا تنص على إسلامه ، ولم نجد أحداً قد نص على ذلك ، أما خبر رؤيا الرسول في منامه ، فإنه يدل على عدم إسلامه ، وعلى أنه كان قد توفي قبل نزول الوحي على الرسول ، وهو الرأي الأرجح .

---

(1) مروج الذهب: ج ١ ص ٥٠٣.

وقد اختلف فيه ، فمنهم من زعم أنه مات نصرانياً ولم يدرك ظهور النبي ، ومنهم من رأى أنه مات مسلماً وقد مدح النبي ، ولكن تشير كل الأخبار إلى وفاة ورقة قبل المبعث وعلى دينه ، إذ لم يدرك الإسلام»[1] .

بينما ذكره آخرون فقالوا :

«ورقة أدرك الإسلام وقال للرسول : ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً» .

وذكروه أيضاً فقالوا :

«أن النبي نهى عن سب ورقة فقال : لا تسبوا ورقة بن نوفل فإني رأيته في ثياب بيض»[2] .

وذكره ابن هشام فقال :

«ورقة من طائفة من المفكرين رأى بعضهم بلاد الشام ، واتصل ببعض المبشرين والنصارى ، ووقف على التطورات الفكرية في الخارج ، ولعله كان يقرأ ويكتب ، له اطلاع على مؤلفات في الفلسفة والدين»[3] .

بينما ذكره الأصفهاني فقال :

«ورقة بن نوفل هو من بين من اعتزل عبادة الأصنام والأوثان في الجاهلية ، وطلب الدين وقرأ الكتب ، وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، ونهى رسول الله بعد الإسلام

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٦ ص ٥٠٣ .
(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٤٤ .
(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٤٤ .

عن سبه»[1] .

والملاحظ أن الأصفهاني لم يتحدث بشيء عن ديانة ورقة ، وهل كان نصرانياً ومات عليها أو أنه لحق الإسلام ومات عليه .

وذكره صاحب البداية فقال :

«خرج زيد بن عمرو بن نفيل مع ورقة بن نوفل حتى انتهيا إلى راهب بالموصل ، فسأله عن الدين فلم يقتنع ، أما ورقة فاقتنع وتنصر» .

أما اليعقوبي فقد بدا واثقاً أكثر من سواه من نصرانية ورقة ، فقال :

«ورقة بن نوفل تتبع اليهود والنصارى وقرأ الكتب وعد في جملة المتنصرين ، فقد ذكر أنه تنصر واستحكم في النصرانية ، وقرأ الكتب ومات عليها» .

وفي مكان آخر قال :

«من تنصر من أحياء العرب ، فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى ، منهم عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل»[2] .

فيما لم يذكره بشيء كل من الشهرستاني ، أو ابن خلدون .

صاحب قصة الحضارة ول ديورانت قال :

«كان في بلاد العرب كثيرون من المسيحيين ، وكان منهم عدد قليل في مكة ، وكان محمد على صلة وثيقة بواحد منهم على الأقل هو ورقة بن نوفل ، الذي كان مطلعاً على

---

(١) الأغاني : ج ٣ ص ١١٣ الطبقات الكبرى: ج ١ ص ١٩٤ ، شرح صحيح البخاري للعسقلاني: ج ١ ص ٦٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي : ج ١ ص ٢٢٦ .

كتب اليهود والمسيحيين المقدسة»[1] .

فمما ذكر آنفاً يتبين :

* إن ورقة بن نوفل لم يكن الشخصية المؤثرة في الحركة ، كما لم تكن زعامتها من نصيبه في يوم من الأيام ، فزعامة الحنفاء ذكرت لقس بن ساعدة الأيادي ، ولزيد بن نفيل ، ومنهم من ذكرها لأمية بن أبي الصلت ، ولم يذكرها أحد لورقة . . .

كما لم يكن ورقة مرشد الندوة ومحركها الفكري ، بل كان شخصية انطوائية هامشية ، بدليل أنه لم يستطع أن يجعل أعضاء الندوة الحرائية يتبعونه ويقتفون آثاره ، فلقد عاش ومات نصرانياً ، وعاشوا وماتوا موزعين بكل الاتجاهات .

وبدليل آخر ، هو موقف أهل الأخبار منه خصوصاً المستشرقين ، فلم يلاحظ أن أحداً منهم اهتم بأخباره وآثاره أسوة برفاقه من الأحناف ، مثل قس بن ساعدة ، أو زيد بن نفيل ، أو أمية ابن أبي الصلت ، ممن نقرأ عن كل واحد منهم صفحات وصفحات في كتب المستشرقين ، وفي أدق التفاصيل من أخبارهم وأشعارهم وحياتهم ، بينما لم يذكروا ورقة إلا بكلمات قليلة عابرة .

ويفترض أن نوضح ، أن بعض هؤلاء لم يمت مسلماً كي لا يخرج بنا الظن ، فنتهم أهل الأخبار المسلمين بالتركيز عليهم دون غيرهم ، بدافع الغيرة الدينية . . كما لم يكونوا كلهم نصارى ، حتى لا نظن أن المستشرقين قد ركزوا عليهم لرفع شأنهم ، كما هي عادة أكثر المستشرقين بالنسبة لكل ما هو نصراني .

وإذا كان الغموض قد لفّ سيرة بعض الحنفاء لجهة انتمائهم الديني ، فلا نعرف بالتأكيد على أي دين ماتوا ، إلاّ أن الأمر بالنسبة لورقة ليس كذلك .

---

(١) قصة الحضارة : ج ١٣ ص ٢٣ .

بدأ ورقة بن نوفل حنيفياً ، وانتهى نصرانياً .

لقد كانت الحنيفية جسراً عبر منها إلى النصرانية ، ومن السخف محاولة دسه في إسلام لم يدركه ، وإن أدركه فلم يعتنقه ولم يمت عليه ، ولعمري كيف يصح أن يكون من عاش ومات نصرانياً ، هو باعث الإسلام ونبي الإسلام كما صوره صاحب «قس ونبي» .

هناك نقطة يجب أن نتوقف عندها ملياً لأهميتها القصوى ، كونها تدخل في صلب موضوع بحثنا ، وهي أن أيّاً من أهل الأخبار على اختلاف مشاربهم بمن فيهم المستشرقين المعادين للإسلام ، لم يذكر أن النبي كان واحداً من الرعيل الأول من الحنفاء ، الذي كان يتردد على حراء للتعبد والتأمل في زمن ورقة أو أتراب ورقة الذين من عمره . وإجماعهم على إهمال هذا الموضوع وعدم ذكره على ما له من أهمية ، يفسر بدون أدنى شك ، بأن ورقة لم يعرف محمداً في حراء ، ولم يلتقه مرة واحدة هناك ، ولا النبي عرف ورقة في ذلك المكان ، وربما ليس في سواه أيضاً ، لأسباب وجيهة ، أهمها فارق العمر بينهما .

ونظراً لدقة الموضوع وأهميته ، نرى أن نقف قليلاً بإمعان وتبصر عند موضوع عمر كل من ورقة والنبي .

فوفقاً لمزاعم الحريري الذي قال :

«بأن عمر ورقة فاق المائة عام عند ظهور الإسلام»[1] .

يعني ذلك ، أنه في الوقت الذي لم يكن محمد قد عرف النور والحياة ، كان عمر ورقة قد فاق الستين سنة .

وعندما بلغ الرسول سن الرشد أي العشرين عاماً على الأقل ، وهو العمر المفترض أن يكون النبي قد بلغه ، ليبدأ بالالتفات إلى أمور كبيرة ، كأمور الدين والفكر والفلسفة ، كان قد أصبح ورقة في الثمانين من عمره ، إن لم يكن أكثر .

---

(١) قس ونبي : ص ٣٢.

وعنـدما بشـر النبي بالإسـلام وهو في سن الأربعين من عمـره ، كان عمـر ورقة قد فاق المئة عام ونيف .

فهل يعقل أن يزامل شاب في العشرين من عمره ، من يفوقـه عمراً بـأربعة أضعاف ؟ ثم هل ورقة وهو في هذا العمر وبوضعه الجسـدي المتردي ، أعمى ، أطرش ، كهل ، كما حدثنا عنه الحريري ، بقادر على القيام بـأي نشاط جسـدي أو ذهني ؟ وكيف ؟ فكيف يمكن أن يكون لنا عقول تفكر ونصدق والأمر كذلك ، أن تكون جلسات حراء قد جمعت بين ورقة والنبي ؟

وعليه فإن مزاعم الحريري حول العلاقة بين ورقـة والنبي وملازمـة الواحـد الآخر ، لا أساس لها ، حيث يرفضها العقل والمنطق .

والأقرب إلى المعقول أن يكون تردد النبي إلى غار حراء للتعبـد والتأمـل ، قد حدث بعد فترة بعيدة من الوقت ، كان أثناءهـا ورقة بحكم تقـدمه في السن ، أما في عالم الأموات ، وإما أنه انقطع عن مزاولة أي جهد ونشاط ، بحكم عجزه وشيخوخته . . .

لا وجود لديانة نصرانية خارج الديانة المسيحية

إن مزاعم المؤلف كلها قائمة على عماد واحد ، ركيزة واحدة : هي أن في التاريخ وجود حقيقي لديانة نصرانية غير المسيحية ، مستقلة عنها بكتابها ، وإيمانها ، وأتباعها . وحول هذه النقطة بالذات يجب أن يتمحور بحثنا ونسلط أضواءنا فنحاول أن نفتش بتجرد وموضوعية عن أثر لهذه (الديانة) بالمفهوم الذي طرحه صاحب اللقيط .

وعليه فلا بد من أن نفتش عن جواب قاطع للسؤال التالي :

هل من وجود تاريخي لديانة نصرانية ، بالشكل الذي طرحه المؤلف ؟ أم أن القضية كلها من نسج خياله الخصب ؟
ولكن قبل التعاطي مع هذه المسألة لا بد من الإجابة على سؤال آخر هو : ماذا تعني كلمتا نصرانية ومسيحية ، ونصارى ومسيحيين ؟
وهل هما إسمان لجماعتين منفصلتين ، أم إسمان لمسمى واحد ؟

ففي سفر أعمال الرسل نقرأ النص التالي :

«مضى برنابا إلى طرطوس يبحث عن شاوول- أي بولس - فلما وجده جاء به إلى إنطاكية ، فأقاما سنة كاملة يعملان معاً في هذه الكنيسة ويعلمان خلقاً كثيراً ، وفي إنطاكية

سمي التلاميذ أول مرة مسيحيين»[1] .

ومن هذا النص نفهم أن اسم المسيحيين قد أطلق لأول مرة على اتباع المسيح ، بعد غيابه عن ساحة دعوته بزمن طويل ، كان قد تحول فيه بولس إلى المسيحية ، وأصبح مبشراً نشطاً ورسولاً فاعلاً . والاسم الذي كان يطلق على أتباع عيسى قبل هذا التاريخ ، كان بلا شك هو : النصارى ، وديانتهم : النصرانية .

ونقول بثقة أن كل الباحثين والمؤرخين ، مسيحيين كانوا أم غير مسيحيين ، على اختلاف ميولهم ومشاربهم ، تحدثوا في أبحاثهم وكتبهم عن النصرانية كونها المسيحية ، وعن النصارى كونهم المسيحيين ، والعكس صحيح أيضاً .

وهذا الخلط بين الاسمين لا نزال نجده ساري المفعول حتى يومنا هذا ، ولا نجد في أية مراجع تاريخية ما يدعم زعم المؤرخ ، بوجود ديانة نصرانية بمعنى الديانة ، مختلفة ومستقلة في جوهر إيمانها عن الديانة المسيحية .

ولكننا نقول : إن من المؤرخين من تحدث عن النصارى الأوائل ، الذين كان لبعضهم في القرون الثلاثة الأولى لظهور المسيحية مواقف متحفظة من بعض النظريات ، التي اعتبروها دخيلة على ديانتهم أو غريبة عنها ، كالتجسد ، والصلب ، والقيامة .

ومرد هذا التحفظ في الواقع للضبابية والغموض وعدم الحسم ، والفوضى الفكرية التي كانت المسيحية الأولى تعاني منها ، الأمر الذي فرض على القاعدة المسيحية أن تعيش إيمانها ضمن تيارات متصادمة متعارضة .

تحدث صاحب قصة الحضارة ويل ديورانت ، عن واقع المسيحية المتفجر في تلك الحقبة فقال :

---

(١) اعمال الرسل : ف ١١ـ ٢٦ .

«لقد كان أشق الواجبات التي واجهها التنظيم الكنسي ، هو منع تفتت الكنيسة بسبب تعدد العقائد المخالفة لتعاريف العقائد المسيحية ، كما قررتها المجالس الدينية»[1] .

وهذا التخبط الذي عانى منه الواقع المسيحي ، تطور في مطلع القرن الرابع الميلادي ، ليصبح خلافاً حاداً انفجر بعنف ، لتخرج بنتيجته من أحشاء النصرانية طوائف متعددة ، شكلت بداخلها وجوداً طائفياً أو مذهبياً متنافراً ، ولكن دون أن تشكل استقلالاً فعلياً عنها ، أو تنصلاً حاداً منها ، أو خروجاً مطلقاً عليها .

فلقد ظلت هذه الطوائف مسيحية الإيمان ، رغم وجود خلافات نظرية فيما بينها ، أو بينها وبين الحلقة الأهم ، التي ظلت تمثل الديانة المسيحية المركزية . فلم يحدث أن ابتعدت تلك الطوائف عن السباحة في فلك الإيمان المسيحي إلّا قليلاً ، تحدث عن هذه الأوضاع التي سادت المسيحية في قرونها الأولى الدكتور جواد علي ، فقال :

«لقد كان الناصريون الأولون ، وهي التسمية القديمة التي عرف بها النصارى في فوضى فكرية ، فلم تكن تعاليم المسيح مفهومة عندهم ولا مهضومة ، وكانت تفاسير تلاميذه غير منسقة ، ولا مركزة تركيزاً يكفي لتوجيه الناصريين وجهة معينة واحدة»[2] .

ومن آراء المؤرخين حول هذا الموضوع إلى القرآن ، حيث لا نجد فيه أيضاً نصاً واحداً ميّز بين النصرانية والمسيحية ، أو اعتبرهما ديانتين منفصلتين ، بل على العكس فكل الآيات التي تحدثت عنهما ، يفهم منها أنهما اسمان لديانة واحدة .

---

(١) قصة الحضارة : ج ١٢ ص ٩٦.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٦ ص ٦٢٤.

والغالب في القرآن على جميع أتباع المسيح ، هو اسم النصارى ، بصرف النظر عن اختلاف طوائفهم،دليلنا عليه ، أن آيات سورة الروم وسواها من آيات بعض السور ، قد تحدثت عن مسيحية الدولة البيزنطية ، تحت اسم النصارى ، مما يعني أن هذا الاسم كان يطلق على كل من آمن بإنجيل عيسى ، مهما كان مذهبه ، كما غلب عليهم الاسم نفسه في معظم المراجع التاريخية قديمها وحديثها .

فالنصرانية كما هو معروف ، تسمية عرفت بها تعاليم عيسى الناصري ، وقد تكون التسمية نسبة للناصرة ، القرية التي انطلقت منها مريم بجنينها عيسى إلى بيت لحم . وظل عيسى بعد ولادته لفترة طويلة ، وحتى بعد التبشير بدعوته يوماً إليه بالناصري أو النصراني ، وتعاليمه بالنصرانية ، وبهذا الاسم عرف أتباعه أيضاً فدعوا : بالنصارى .

جاء في الإنجيل نص يؤكد هذا التوجه :

«وجاء مدينة يقال لها الناصرة ليتم ما قيل على لسان الأنبياء ، أنه يدعى ناصري»[١] .

كما قد تكون هذه التسمية متأتية من كلمة : أنصار بمعنى أنصار الحق ، وفي القرآن آية تعزز هذا الاعتقاد ، وذلك عندما خاطب المسيح أتباعه قائلاً :

«من أنصاري إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله»[٢] .

سجل البروفسور بنجامان كلداني اعتراضه على تسمية أتباع عيسى الأوائل بالمسيحيين قائلاً :

«لم يفوض عيسى أتباعه أبداً بأن يسموا أنفسهم مسيحيين ، ولا يوجد لقب للموحدين الأوائل أفضل من

---

(١) الإنجيل المقدس متى : ٢ ـ ٢١.

(٢) سورة آل عمران، الآية/ ٥٢.

لقب الموحدين»[1] .

كما أن من المؤرخين والنقاد من يتعجب لتلقيب أتباع عيسى بالمسيحيين ، معتبراً أن هذا الاسم ليس الاسم الأصيل .

وأكثر الظن أن اسم المسيحيين لم يعرف ويتداول بشكل متواتر ، إلا في حقبة متأخرة من ظهور النصرانية ، وتحديداً إلى انعقاد مؤتمر نيقية الشهير ، الذي رفع عيسى النصراني من المسيح المنتظر ، بمعنى النبي أو الرسول المنقذ إلى مرتبة الألوهية ، مما حتم بداهة أن تصبح الديانة تابعة له باعتباره (الله) .

وبذلك صارت ديانته مسيحية ونصرانية بنفس الوقت ، وأتباعه نصارى ومسيحيين ، وبات التداول بالإسمين معمولاً به حتى يومنا هذا . ولو لم يتحول عيسى بنظر أتباعه إلى مسيح بمرتبة الله ، لما كان من مبرر ولا موجب أن تتحول ديانته والمؤمنين بها إلى صكوك مسجلة باسمه .

وهذا ما لا نراه في الإسلام ، الذي آمن به المسلمون إسلاماً لله وحده وولاء مطلقاً له قبل أن يكون للنبي ، ولذلك ظل المؤمنون به مسلمون وليس محمديون .

واسم المسيح حسبما جاء في ص ٥٨٢ من الإنجيل المقدس أتى :

> «من مسح أي دهن بالزيت ، وكان الأقدمون يمسحون الملوك عند توليهم الملك ، وكان اليهود يمسحون عظيم الأحبار عند تنصيبه»[2] .

وليس ببعيد عن هذا الرأي ، ما ذهب إليه ول ديورانت صاحب موسوعة قصة الحضارة ، حيث قال :

> «اسم المسيح مستمد من العبرية ، وكلمة مسيح بالعبرية

---

(١) محمد في الكتاب المقدس: ص ١٤٠.
(٢) الكتاب المقدس : ص ٥٨٢.

(مَسيح) حسبما جاءت في كثير من المواضع في العهد القديم ، وترجمها اليهود الذين كتبوا الترجمة اليونانية للتوراة باللفظ اليوناني (Christos) الذي صب عليه الزيت المقدس أو مسح به»[1] .

ولكن إذا كان الحريري قد قصد بالنصارى ، تلك الأعداد الكبيرة من المسيحيين واليهود ، الذين لاقوا الإسلام إلى منتصف الطريق ، فآمنوا به ، واعتنقوا تعاليمه ، وناضلوا في سبيله ، واستشهد بعضهم لأجله ، بعدما خلعوا عند عتبته هموم شكوكهم وريبتهم ، من عقائد كانوا ينتسبون إليها شكلاً ، وإن كانت قلوبهم إليها غير مطمئنة ، وعقولهم بها غير مقتنعة ، إذا كان قد عنى بالنصارى هؤلاء دون سواهم ، فهؤلاء منذ اعتنقوا الإسلام وهجروا بدعهم إليه ، لم يعودوا لا نصارى ولا يهوداً ، بل مسلمين .

وعليه يتبين بطلان ادعائه بوجود ديانة نصرانية غير مسيحية مختلفة عنها مبادىء وأتباع ، إلا إذا سمحنا لأنفسنا أن نسمي أو نعتبر أن كل بدعة ، أو ملة ، أو مذهب ، بمثابة ديانة بالمعنى الكامل للكلمة ، لتكون الديانة المسيحية بذلك قد (فرخت) مئات الديانات المستقلة ، وهذا ما لا يقبله عقل ولا يقره منطق .

أما زعمه بوجود ديانة في التاريخ اسمها (الأبيونية) نسب الإسلام لها ، فإن لنا معه حول هذا البهتان لقاء موسع ، عبر فصل كامل من هذا الكتاب .

---

(١) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٢٢ .

حقيقة الوجود المسيحي في مكة وقريش

سواء كان وجوداً مسيحياً ـ نصرانياً كما نعتقد ، أو نصرانياً صرفاً لا علاقة للمسيحية فيه كما يريدنا أن نعتقد ، فإن الحريري يحاول مستميتاً أن يضخم الوجود النصراني في صفوف قريش خاصة ، وفي مكة عامة ، معطياً إياه حجماً بشرياً ، واجتماعياً ، وحتى سياسياً ، أكبر بكثير من حقيقته التاريخية ، مما جعل التدقيق بهذا الوجود ، وتفحص واقعه أمراً مفروضاً . ففي عملية توريمه لهذا الوجود نجده يستشهد باليعقوبي ، الذي نقل عنه قوله :

«أما من تنصر من احياء العرب ، فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى»[1] .

علماً أن اليعقوبي أوضح طبيعة هذا التدين فقال :

«كانت قريش وعامة ولد معد بن عدنان على دين إبراهيم ، يحجون البيت ، ويقيمون المناسك»[2] .

فالواضح هنا أن اليعقوبي ، قد تحدث عن تنصر حدث في بعض أحياء العرب ، وحدد بعض الأسماء القليلة من فرع عبد العزى ، ولو كان بين من تنصر أسماء أخرى ذات أهمية ووزن ، لذكرها بلا شك .

(١) قس ونبي : ص ١٦ .
(٢) تاريخ اليعقوبي : ج ١ ص ٢٢٦ .

. ولما كان الحريري المزيف ، يحاول إثبات نصرانية مكة بتنصير فرع عبد العزى ، ولكي نضع الأمور في نصابها ونتحقق من بطلان رأيه ، نرى أن نقف عند موقف بني عبد العزى من مؤامرة نسيبهم عثمان بن الحويرث ، الذي سعى للوصول إلى زعامة مكة ، عندما عرض على قيصر الروم أن يحتل القيصر مكة ، لينطلق منها للسيطرة على الحجاز كله ، على أن تكون زعامة مكة لعثمان فيما بعد .

فالملاحظ هنا أن بنو عبد العزى أنفسهم ، كانوا من أشد المعارضين لهذه الحركة لدى افتضاح أمرها .

تحدث جواد علي عن هذا الأمر فقال :

«الظاهر أن مشروع عثمان لم يلاق نجاحاً ، لأن سادات مكة وفي جملتهم رجال من بني أسد بن عبد العزى ، وكانوا أرفع منزلة من عثمان بن الحويرث ، مثل الأسود بن المطلب ، وأبو زمعة قد عارضوه»[1] .

فلو كان بنو عبد العزى أو أكثرهم على الأقل من النصارى حقاً ، كما زعم الحريري ، لكان من المفروض بهم أن يرحبوا بمشروع نسيبهم ، خصوصاً وأنه كان في حال نجاحه سيؤمن لهم مكاسب كبيرة ، أهمها زعامتهم على مكة ، تلك الزعامة التي لم يكونوا يتوقعون تبوؤها في يوم من الأيام .

ووجود دولة الروم في مكة وهي على ديانتهم ، لضرورة كبرى لاستمرار نجاح مشروعهم ، ولكننا رغم ذلك رأيناهم يعارضون المشروع ويشتركون بإفشاله ، وهذا يدل أن النصرانية المزعومة فيهم أمر مبالغ فيه ، وكل الدلائل تدفع إلى الشك بصحته .

كما أن اليعقوبي أشار إلى تدين قوم من بني أسد بن عبد العزى ، وكلمة (تدين) المحددة مبنى ومعنى ، لا تعني أبداً : تنصراً .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٤ ص ٤٠ .

ثم أن اليعقوبي لم يترك طبيعة هذا التدين غامضة مبهمة ، بل نراه يحددها ويوضحها قائلاً :

«أنه كان على بعض دين إبراهيم» .

ولا مجال للخلط بين تدين على دين إبراهيم ، وتنصر موصول بحبل إنجيل محرف ناقص ، هو الإنجيل العبراني .

وفي الصفحة ١٧ من «قس ونبي» وبعد أن أخاب اليعقوبي ظنه ، أورد الحريري عن الأزرقي حديثاً ضعيفاً طعن وشكك بصحته أكثر من مؤرخ ، مفاده :

«أن النبي عندما دخل الكعبة محطماً الأصنام والصور ، وكان بينها صوراً لإبراهيم الخليل والملائكة ، وصورة عيسى ابن مريم وأمه ، فقال لأتباعه : أمحو كل الصور إلا ما تحت يدي ، أي صورة عيسى وأمه مريم»[١] .

فحتى وإن صدقنا هذه القصة الباهتة الملفقة والتي لنا حولها أكثر من سؤال ، فهي لا تخدم هدفه بإعلان وإثبات تنصر العرب في مكة . ولكن رغم ذلك فلا بأس من الوقوف عندها قليلاً .

فمن خلال شكنا بالقصة من أساسها نسأل : ما هو مبرر وجود صورة عيسى وأمه في الكعبة ، إلى جانب مئات التماثيل والأصنام الوثنية ؟

ولقد أثار جواد علي نفس النقطة حين قال :

«إن رسم شجر وصور ملائكة وأشباه ذلك في الكعبة ، فأمر لا اعتراض عليه ، إذ يجوز أن يكون ذلك في معبد وثني يضم الأصنام . . ولكن ما للوثنية والأنبياء ؟ وما شأن الشرك بمريم وبإبنها وببقية الرسل ، حتى ترسم صورهم

---

(١) قس ونبي : ص ١٧ .

على جدران أو أعمدة البيت ؟
أما طمس النبي لتلك الصور ، فأكثر العلماء يرون أن الرسول ، لم يستثن من ذلك الطمس صورة»[1] .

وللسيد رشدي الصالح ملحس نفس الموقف من الرواية ، في سياق تعليقاته على أخبار الأزرقي ، بينما اعتبر الأب لويس شيخو :

«إن وجود صورة عيسى وأمه في الكعبة ، التي أمر النبي بطمسها ومحو معالمها ، لدليل على انتشار النصرانية في مكة ، وأن الكعبة نفسها كانت كنيسة نصرانية بنيت بعد المسيح بعهد قليل»[2] .

ولكن شيخو لم يذكر أي دليل على صحة ما ذكر .

والظاهر أن إثبات تنصر قريش ، لم يعد الهدف الأساسي الذي يسعى إليه المؤلف ، لأن قصة الأزرقي لا تخدمه في هذا المجال كثيراً ، وما يرمي إليه هو أكبر من ذلك ، إذ يبدو أن هدفه هو الوصول إلى النبي وتنصيره . فجعله يجثو أمام صورة المسيح وأمه ، محتضناً إياها ، مدافعاً عنها ، مسترخصاً كل الصور أمامها ، بما فيها صورة الملائكة وإبراهيم الخليل ، وذكر ذلك ليس بالصدفة وبدون هدف بالطبع .

نقطة أخرى حول رواية الأزرقي ، فحتى وإن صحت ، فلماذا لا تكون التفاتة من النبي ، خص بها صورة عيسى وأمه ، انسجاماً ونظرة الإسلام لعيسى ، والإيمان بنبوته ، والتأكيد عليها ؟

ثم إن هذه الرواية ، لا يمكن اعتبارها دليلاً على وجود نصراني ضخم ، بالصورة التي طبل لها المؤلف .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٦ ص ٥١٤.
(٢) الأزرقي ، حاشية ج ١ ص ١٠٤.
(٣) النصرانية وآدابها: ص ١١٨ عن تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٦ - ص ٥١٤.

ورب قارىء يسأل : لماذا يركض الحريري لاهثاً وراء تنصير قريش بالذات ؟

نقول : إن غايته من ذلك واضحة ، فبعد أن أدخل إلى الكنيسة الوهمية النصرانية من أدخل ، ونصر من قريش من نصر ، ظل فرع عبد مناف كما يبدو على باب تلك الكنيسة لم يدخلها ، وكان لا بد له أن يقوم بعمل ما لإدخاله ، ذلك لأنه بواسطة الوصول إلى هذا الفرع يصل إلى النبي نفسه ، وهو غايته ومبتغاه .

ولذلك نراه يقول :

«الجدير بالذكر أن كتب السير والأخبار شهدت على نصرانية فرع عبد العزى بن قصي ، ولاذت بالصمت حيال فرع عبد مناف ، ولا ندري إذا كان الصمت جهلاً أم تنكراً ، وكلا الاثنين لا يجوز ، فالجهل مردود على أصحابه ، لأن معرفتهم تعدت إلى فرع لا أهمية له بالنسبة إلى سيرة النبي ، وهو فرع عبد العزى . فالنصرانية غزت فرع عبد مناف ، كما غزت فرع عبد العزى من قريش»[1] .

والواضح هنا أن الحريري لا يقبل لفرع عبد العزى ، الخفيف المقام ، الضئيل الأهمية أن يدخل النصرانية ، فيما الفرع الأهم ، فرع عبد مناف يقف خارج كنيستها . . .

اتضحت غايته : تنصير أجداد النبي ، وأهله ، وعشيرته ، ومن ثم الانقضاض عليه نفسه . ولكي يجعلنا نرى بأم العين ، آل عبد مناف بعجهم وعجيجهم في رحاب الكنيسة النصرانية ، نراه يلجأ إلى دليل هزيل آخر ، فقال :

«إن كتّاب السير متأرجحون بين قناعاتهم ، بأنه لا يجوز

---

(١) قس ونبي : ص ١٨ .

ولا يمكن تصور أجداد النبي إلا على الهداية والإيمان ، وبين أن يكونوا على الشرك والوثنية ، وأن أحدهم يميل إلى الأولى»[1]

وربب متسائل عن مصلحته ، من هداية وإيمان أجداد النبي ؟

نقول : يريد القول بأن هذه الهداية وهذا الإيمان ، لو حدثا لما كانا إلا على النصرانية فقط . ونحن أيضاً لدينا دليل ، بأن فرع عبد مناف ، لم يعرف النصرانية ولا باب كنيستها .

دليلنا على ذلك : التاريخ نفسه .

إلا إذا قبلنا ما نسجه خيال الحريري عن مؤامرة جماعية للتاريخ دور فيها ، هدفها إخفاء الدور النصراني في مكة وتقزيمه ، وهو ما لا نستطيع تصديقه طبعاً . . .

إن أكثر المصادر التاريخية ، وفي طليعتها المستشرقين ، تحدثت عن صفات خلقية رفيعة كان أجداد النبي يتمتعون بها ، وعن مسلكية اجتماعية مترفعة مسؤولة كانوا يمارسونها في مجتمعهم . . كما كانوا بالنسبة لمجتمعهم مميزين فكرياً واجتماعياً ، إذ كانت تعود إليهم معظم مشاكل الناس للمساعدة بحلها ، فكانوا ممن نستطيع أن نصفهم في مجتمعنا الحالي بالمصلحين الموثوقين ، أو العقلاء الحكماء .

ولقد تحدثت بعض المصادر عن تردد عبد المطلب إلى غار حراء للتعبد والتأمل ، ولكن أي من هذه المصادر ، لا يملك تصوراً واضحاً عن طبيعة هذا التعبد ، وإن صح حدوثه ، فلا يمكنه أن يكون إلا على الديانة الحنيفية ، ولا يجوز اعتبار كل من أم غار حراء نصرانياً .

على كل ، هناك أمر يفرض نفسه ، بات من المفترض بحثه بدقة

---

(١) قس ونبي : ص ١٨ .

وموضوعية وتجرد ، بعيداً عن التشنج والانفعال ، ذلك هـو الوجـود النصراني في مكة حجماً وواقعاً . . .

إلا أننا لا نستطيع أن نتحدث بموضوعيـة عن تاريـخ مكة ، كشـأن منفصل عن تـاريخ الجـزيرة ، السيـاسي ، والاقتصادي ، والاجتمـاعي ، والديني ، لأن تاريخ تلك المدينة التاريخية ، ليس إلا حلقة من حلقات تاريخ الجزيرة كلها .

كيف دخلت النصرانية إلى الحجاز ؟

جواد علي قال :

«ليس باستطاعتنـا تعيين الزمن الـذي دخلت فيه النصـرانية إلى الجزيرة العربية ، وتحـاول مؤلفات رجـال الكنائس رد ذلك التاريخ إلى الأيام الأولى من التاريخ النصـراني ، غير أننا لا نستطيع إقرارهم على ذلك ، لأن حججهم في ذلك غير كافية للإقناع»[1] .

وأكثـر المصادر التـاريخية والـوثـائق المكتـوبـة ، التي أجمـع عليهـا أهـل الأخبار ، تثبت أن دخول النصرانية إلى الجزيرة كان بفعل :

١ ـ التبشير، أي بدخول بعض النساك والرهبان ، إلى الجزيرة للعيش فيها .

٢ ـ بفضـل مـا كـان للمبشـرين من علم ، ومن وقـوف على الـطب والمنـطق ، ووسائل الإقناع ، مما مكنهم من اكتساب بعض سادات القبائل ، فـأدخلوهم في دينهم .

٣ ـ بلجـوء الرهبـان لاستمالـة سادات القبـائل ، عن طـريق معالجـة بعضهـم من بعض الأمراض ، ورد شفائهم إلى البركة الربانيـة ، مما جعـل بعضهـم يميل إلى النصرانية أو يعطف عليها .

ذكر صاحب النصرانية وآدابها :

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٦ ص ٥٩٤ .

«إن ضجعم سيد الضجاعمة ، رزق بولد ذكر استجابة لدعوة الرهبان ، فتنصر وأفراد قبيلته .

وذكر أيضاً :

أنه بفضل سمعان العمودي ، المولود نحو سنة ٣٦٠ ميلادية ، قد تنصر بعض سادات القبائل وأتباعهم .
وأن مارايشو عزخا الراهب شفى النعمان ملك الحيترة من مرض عصبي ، بإخراجه الشيطان من جسده»[١] .

ونسب إلى القديس افتيموس :

«معجزات بفضلها نصر بعض العرب»[٢] .

ناهيك عما ذكره صاحب النصرانية :

«عن الأساقفة الذين عرفوا بأساقفة الخيم ، لمرافقتهم الأعراب والعيش معهم في الخيام»[٣] .

بالتجارة ، جواد علي قال :

«لقد أثرت الأديرة تأثيراً مهماً ، في تعريف التجار العرب والأعراب بالنصرانية» .

الطبري والقرطبي قالا :

«أن أناساً من العرب دخلوا بالنصرانية ، لاتصالهم بالتجار النصارى ومجالستهم»[٤] .

بالسياسة :

---

(١) النصرانية وآدابها : ج ١ ص ٣٥.
(٢) نفس المصدر السابق : ج ١ ص ١٨١ .
(٣) المشرق : ص ٣٤٤.
(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٤ ص ١١٥ .

فالتنافس بين الروم ، والفرس ، وأهل الشام ، وأهل الحيرة على كسب مواقع جديدة لهم ، ومناطق نفوذ سياسية واقتصادية أكثر في الجزيرة ، من البعثات التبشيرية المكلفة بالدعوة إلى دين دولها ، وبسبب ذلك تعددت الطوائف والمذاهب في الجزيرة .

هذا بالنسبة للنصرانية في الجزيرة .

ولكن ماذا عن هذه النصرانية في مكة ؟

إن كل المصادر التاريخية التي لامست تاريخ مكة ، والوجود النصراني فيها ، كانت متضاربة متناقضة ، وإلى هذا أشار جواد علي فقال :

«لا نملك اليوم أثراً جاهلياً ، استنبط منه علماء الآثار شيئاً عن تاريخ مكة قبل الإسلام ، فكل ما ذكروه عنها هو من أخبار أهل الأخبار ، وأخبارهم عنها متناقضة»[1] .

ولا بد لنا من الرجوع إلى ما ذكره أهل الأخبار حول هذا الموضوع نبسطه ، لنحاول أن نستخلص منه الحقيقة المطمورة بين ركام الآراء المتناقضة المتضاربة ، ولكننا نستطيع التأكيد ، أن النصرانية دخلت مكة بنفس العوامل التي دخلت بها هذه إلى أنحاء أخرى في الجزيرة ، وذلك عن طريق الاحتكاك المباشر بين تجارها ونصارى الشام أو العراق ، أو بين تجار هذين البلدين النصارى ، الذين كانوا يحملون إليها بالإضافة إلى بضائعهم عقائدهم الدينية ، وبالعامل السياسي ، باعتبار مكة مركزاً تجارياً مهماً ، كانت محط أنظار الروم والفرس على السواء .

فكانت الدولة البيزنطية ، ترسل مبشريها لاستمالة أهل مكة إلى ديانتها ، بقصد الكسب السياسي والاقتصادي ، الأمر الذي كان له بعض الأثر في معرفة تلك المدينة حدوداً معينة من النصرانية .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٤ ص ١٨٠ .

وبعض أهل الأخبار تحدث عن يد عاملة نصرانيـة استقدمتهـا البورجـوازية القرشية ، كان لها بعض الدور في تعريف مكة إلى شيء من النصرانية .

ومنهم من ذكر ، بأن لوجود رقيق نصراني في مكة بعض الأثـر في الوجـود النصراني ، حيث كان بعض من هذا الرقيق يقرأ ويكتب ويفسر للناس ما جاء في التوراة والإنجيل ، ويقص عليهم قصصاً نصرانيـاً ويتحدث إليهم عنهـا ، بحيث تمكن من إقناع بعض العرب من الدخول فيها .

والثابت أن النصرانية دخلت مكة من بوابتي الشام والعراق ، رغم الخلاف الـديني والسياسي الـذي كان نـاشباً بين أهـل الشام اليعـاقبة ، وأهـل الحيرة من النساطرة .

يبقى أن نتحدث عن حجم الوجود النصراني في مكة ، كيف كان ؟

من المستشـرقين من حاول تضخيم الـوجود النصـراني في تلك المدينـة ، معتبراً أن له دوراً فاعلاً وأساسياً في حياتها .

ومنهم من غالى ، فاعتبر أنه كان للنصرانية أحياء وكنائس فيها .

حتى أن لويس شيخو :

> «اعتبـر أن الكعبة نفسهـا كانت كنيسـة نصرانيـة ، مستـدلاً على ذلـك بما قيـل عن صـور للمسيـح وأمـه عنـد ظهـور الإسلام ، معلقة على حيطان الكعبة». [(١)]
>
> **وهو زعم عالجناه في الفصل السابق .**

واليعقوبي من بين القائلين بوجود نصراني ملحوظ في مكة ، بينما لفئـة من المؤرخين رأي آخر مختلف حول هذا الموضوع .

ول ديورانت صاحب قصة الحضارة يرى أن الوجود النصراني في مكـة كان هزيلاً ، فقال :

---

(١) النصرانية وآدابها : « انظر تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٥٠٣».

«كان في بلاد العرب كثيرون من المسيحيين ، وكان منهم عدد قليل في مكة»[1] .

محمد حسين كاشف الغطاء قال :

«إن تنصر ورقة بن نوفل لا يستلزم تنصر بني أسد بن عبد العزى ، والأعجب أن يستدل كاتب ما على وجود النصرانية في مكة ، بمزعمة وجود صور الشجر والملائكة وإبراهيم وعيسى في الكعبة»[2] .

فيما ذكر الأستاذ نصري سلهب في كتابه (في خطى محمد) أن الوجود النصراني في مكة كان قليلاً حيث قال :

المسيحيين في مكة كانوا قلة[3] .

الأب يوسف دره الخوري ، في سلسلة كتبه التي ألّفها للتجريح بالإسلام ونبيه تحت اسم «دروس قرآنية» قال :

«كان اليهود كثرة في المدينة والنصارى قلة ، والطائفتان أكثر في المدينة منهما في مكة»[4] .

والثابت أن النصرانية في مكة ، كانت تعاني من ضعف ملحوظ ، وأن تجاوب مكة مع دعوات التنصير كان بطيئاً ومحدوداً ، وأنها كانت تشق طريقها في تلك المدينة بصعوبة خالصة وبطء ملحوظ ، يدلنا على ذلك :

أولاً : استمرار الوثنية في مكة قوية منيعة ، بدليل استشراس أهلها في الدفاع عنها بالأرواح والأموال عند ظهور الإسلام .

---

(١) قصة الحضارة : ج ١٣ ص ٢٣ .

(٢) الدعوة الإسلامية : ص ٢٩٢ .

(٣) في خطى محمد : ص ٦٥ .

(٤) دروس قرآنية « الأنجيل في القرآن » مجلد١ ـ ص ١٠٩ .

ثانياً : بقاء العادات الهمجية ، التي لا يقرها دين ولا عقل سائدة ومعمول بها (الوأد ـ السطو ـ الثأر ـ الغزو ـ القتل ـ السبي) .

ثالثاً : لم يتحدث أهل الأخبار عن أماكن في مكة ، أو عن قرى في محيطها محسوبة على النصرانية ، كما كان الحال بالنسبة لليهود ، أمثال خيبر وسواها .

رابعاً : لم يتحدث أهل الأخبار عن أي نفوذ سياسي أو اجتماعي مارسه نصارى مكة ، بحيث ظل تأثيرهم في الأحداث محدوداً حتى ظهور الإسلام .

ويستدل مما ذكرناه ، بأنه كان في مكة وجود نصراني هش مبعثر ، محصور بأفراد قلائل من بعض القبائل ، ساقتهم ظروف مختلفة بشكل إفرادي نحو النصرانية .

وأنهم كانوا بمعظمهم من الطبقة الدنيا في الصف الاجتماعي ، من العمال والرقيق الأجنبي ، إضافة إلى عدد قليل من شباب مكة ، من الطبقة المتعلمة الموسرة ، قد تنصروا ، ولكنهم ظلوا بلا تأثير وفعالية بعدما نبذهم أهلهم ، فلم يستطيعوا خدمة النصرانية بغير أنفسهم .

ولكن ما هي أسباب ضعف النصرانية في مكة ؟

قد يكون هذا البطء بانتشارها لعدة أسباب أهمها :

أولاً : لما عرف عن هذه الديانة من تعقيدات فلسفية نظرية جدلية ، يصعب على البدوي فهمها أو استيعابها .

وإلى ذلك أشار كاشف الغطاء فقال :

«ضربة العربي على عرنينه ، أهون عليه من تكليفه الإيمان بسر الثالوث ، وأن الواحد ثلاثة»[1] .

ثانياً : قد يكون لليهود دور نشط في عرقلة الانتشار النصراني ، نظراً لما هو

(١) الدعوة الإسلامية : ص ٢٩٢ .

معروف عن مناهضة اليهود لكل دعوة يرون فيها خطراً يتهدد مصالحهم ونفوذهم . وطبيعي أن تكون النصرانية من هذه الدعوات المرفوضة عندهم .

وإلى ذلك نوه الأستاذ محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد) فقال :

«كان اليهود إلى يومئذ لا يزالون يذكرون ثورة عيسى بهم وخروجه على دينهم ، فكانوا يعملون في الخفية ما استطاعوا لصد تيار المسيحية ، التي أخرجتهم من أرض الميعاد»[1] .

ثالثاً : الانشقاق الديني الحاد الذي حصل آنذاك في صفوف النصرانية ، بسبب الخلاف الداخلي حول طبيعة المسيح ، فليس من المستبعد أن تكون هذه الوضعية المسيحية الصعبة قد عكست نفسها على أي جهد تبشيري في مكة ، فجمدته وعطلته حقبة كبيرة من الزمن ، حتى إذا ما جاء الإسلام كانت نهايته أو نهاية توسعه .

وإلى ذلك أشار الدكتور حسن إبراهيم حسن في موسوعته (تاريخ الإسلام) فقال :

«كانت المسيحية إذ ذاك مذهباً معقداً ، تعددت فيه الفرقة واختلفت»[2] .

وتحدث محمد حسين هيكل عن هذا الموضوع فقال :

«تكاثر الشيع في المسيحية جعلها تتناحر وتقتتل ، وتهوي من عليا مراتب الإيمان إلىٰ الجدل في الصورة والألفاظ ، وفي مبلغ قدس مريم وتقدمها على ابنها المسيح أو تقدمه عليها .

---

(١) حياة محمد : ص ٨١.

(٢) تاريخ الإسلام : ج ١ ص ٧٠٤.

ولم يكن اليهود بطبيعة صلتهم بالنصارى ، ليعملوا على تهدئة هذا الجدل ، والتسكين من حدته ، لذلك كان طبيعياً أن يظل العرب ، الذين يتصلون بنصارى الشام وبنصارى اليمن في رحلتي الشتاء والصيف ، بعيدين عن أن ينتصروا لفريق على فريق ، مطمئنين إلى وثنيتهم التي ولدوا فيها وتابعوا آباءهم عليها»[1] .

رابعاً : رغبة أهل مكة وهم من التجار بعدم زج أنفسهم في الصراع بين الروم والفرس ، أو بين مذاهبهم المتصارعة ، حتى لا يؤثر ذلك على علاقاتهم التجارية بهذا الجانب أو ذاك ، ففضلوا أخذ جانب الحياد ، ورفضوا أية نصرانية تقدمت إليهم قد تبعدهم عن سياسة هذا الحياد ، فاحتفظوا بوثنيتهم وأصنامهم ، ليكون ذلك على حساب الوجود النصراني وسبباً لتقزيمه . وقد يكون للضعف النصراني في مكة أسباب أخرى ، إلا أن الثابت أن النصرانية في مكة عند ظهور الإسلام ، كانت مفككة مبعثرة لا أهمية لها ولا تأثير .

ولكن لنفترض جدلاً ، أن النصرانية قد عانت من سيطرة الوثنية عليها في الجاهلية ، فكان ذلك سبباً مفهوماً لتقزيم حجمها وعرقلة انتشارها .

إلا أن المستغرب أن حالها لم يتغير ، ووضعها لم يتبدل بعد ظهور الإسلام ، وسيطرة دين يدعو مثلها إلى التوحيد وعبادة الله ، مع التذكير بأن النبي قد مد يداً مسالمة متعاونة لكل أهل الكتاب والنصارى في طليعتهم .

ثم لنفترض أيضاً ، أن الخوف كان قد منع النصرانية من الخروج إلى العلن في أول ظهور الإسلام ، فبدت بفعل ممارستها لمبدأ التقية أقل من حجمها الحقيقي .

ولكن ماذا منعها من الخروج إلى العلنية بحجمها الحقيقي ، بعدما أعطاها

---

(١) حياة محمد : ص ٨١ ـ ٨٢.

النبي الأمن والأمان قولاً وعملاً ؟

إن كل الأمور والوقائع تدل على أن مزاعم الحريري ، القائلة بوجود نصراني فاعل في مكة في الحقبة التي سبقت الإسلام مباشرة وبعد ظهوره ، وحتى زوال الامبراطورية البيزنطية ، مزاعم تفتقر إلى البرهان والموضوعية ، وادعاء غير دقيق .

إن ما نريد قوله هنا لا يعني رفضاً لوجود نصراني بحجمه الحقيقي في مكة ، ولكن ما نرفضه هو تضخيم وتوريم هذا الوجود ، كي لا يكون على حساب الحقيقة ودور الآخرين .

أية نصرانية دخلت مكة ؟ وأي نصراني كان ورقة ؟

مما سبق تفصيله تتضح لنا الحقائق التالية :

الأولى : إن جميع المصادر التاريخية التي تحدثت عن الحنيفية ، لم تخلط بينها وبين النصرانية ، كما لم تعتبر أن المؤمنين بالحنيفية يمكن اعتبارهم نصارى .
وهذا واقع في أحاديث أهل الأخبار ، وفي القرآن الكريم ، وفي المصادر الشعرية الجاهلية والإسلامية ، وفي آراء معظم المستشرقين .

الثانية : إن النصرانية في مكة عند ظهور الإسلام ، كانت تعاني من ضعف واضح ومحدودية أكيدة ، وليست بالحجم الذي حلم به المؤلف ، فصورها على قدر حلمه .

الثالثة : إن ورقة بن نوفل عاش حقبة من عمره حنيفياً ، ولكنه انتقل بعدها إلى النصرانية ليموت عليها .

والسؤال الذي يجب أن نفتش له عن جواب هو :
ـ على أية نصرانية عاش ومات هذا الرجل ؟

ولا بد لنا كي نصل إلى جواب صحيح على هذا السؤال المهم ، من أن نعرف أية نصرانية تلك التي دخلت مكة ، إذ على ضوء هذا الجواب تتوقف أمور كثيرة وتتضح حقائق كبرى .

والملفت للنظر أن أهل الأخبار الذين عالجوا موضوع الوجود النصراني في مكة ، على اختلاف وجهات نظرهم حول حجم هذا الوجود ، لم يتحدثوا بتوسع وتفصيل عن طبيعة النصرانية التي كانت منتشرة هناك ، خصوصاً في تلك الحقبة التي تلت الانشقاق المسيحي في مطلع القرن الرابع الميلادي ، إما لشح في المعلومات حولها ، وإما لأن الوجود النصراني أياً كانت طائفته ، لم يكن بالأهمية التي تجعل أهل الأخبار يلتفتون إليه ويدققون في أوضاعه .

فلم نجد واحداً منهم ذكر بالتحديد طائفة نصارى مكة ، هل كانوا يعاقبة كأهل الشام ؟

أم نساطرة على مذهب أهل الحيرة ؟ أم ملكانيين على مذهب الروم ؟

أم أن البدعة الأبيونية التي زعمها الحريري ، هي التي كانت تسود في مكة ؟

من هنا يجب أن نبدأ ومن هذه النقطة بالذات يجب أن نتعاطى مع موضوع ورقة .

لقد بات واضحاً أن النصرانية دخلت مكة ، بفعل العوامل التي فصلناها سابقاً ، إما من بوابة الشام ، أو من بوابة أهل الحيرة في العراق . وعليه فنصارى هذه المدينة ، إما يعاقبة أو نساطرة . ولا يمكن تصورهم على مذهب آخر ، مع العلم أن أكثر المؤرخين يميلون إلى الاعتقاد بنسطوريتهم .

العلامة محمد حسين آل كاشف الغطاء قال في كتابه الدعوة الإسلامية :

«إن جل نصارى العرب أو كلهم ، كانوا نساطرة أو يعاقبة»[1] .

ولجلاء الغموض الذي يحيط بهوية نصارى مكة ، لا بد لنا من الوقوف عند نقطة مهمة قد تساعدنا في بحثنا ، نعني بها ، واقع مكة وموقعها آنذاك بالنسبة للجزيرة العربية ، فنحاول الإجابة على السؤال التالي :

هل كانت مكة بموقعها وظروفها ، وأوضاعها الاقتصادية ، والسياسية ،

---

(١) الدعوة الإسلامية : ص ٢٩٢ .

والاجتماعية ، مهيأة لاستقبال وتقبل بدعة نكرة ، مستنكرة ، كالبدعة الأبيونية ، مطرودة وملاحقة من مراكز القرار النصرانية المحيطة بمكة من كل جانب ، تلك المراكز القوية الفاعلة (الشام والحيرة) التي لها تأثيرها الفعال على مصالح مكة وعلاقاتها ؟

إن مكة ، تلك المدينة التجارية المهمة ، لم تكن قرية نائية معزولة في مجاهل الجزيرة ، ولا موقعاً ثانوياً لا أهمية له ولا دور ، حتى نفترض بأنه قد يمكن لبدعة كالأبيونية أن تدخلها بطريقة ما وتعشعش فيها ، دون أن تثير اهتمام نصارى الشام أو العراق . فمكة مركز مهم في حياة الجزيرة ، منها كانت تنطلق قوافل التجار في رحلتي الشتاء والصيف ، وإليها كان يتوافد التجار ليوزعوا بضائعهم في أنحاء الجزيرة . وفيها أعظم وأهم أصنام الوثنية ، وإلى كعبتها كانت تؤم القبائل وتتطلع . ثم منها وفيها كان أشراف قريش ، وهم سادة العرب .

وفيها ، كانت الحركة الثقافية والأدبية والشعرية تنمو وتتفاعل .

كما كانت فيها تعقد الأحلاف السياسية والعسكرية بين القبائل ، وعنها كانت تصدر قرارات الحرب والسلام ، إليها كان يتطلع الجميع ، وإلى خطب ودها كان يتسابق الروم والفرس ، فلم تكن هذه المدينة هامشية بالنسبة لهم ولمصالحهم ، حتى يتركونها نهباً للبدع والهرطقات المسيحية المنشقة ، ولا يتدخلون وهم على مرمى حجر منها ، ورهبانهم يعسكرون على طرق مواصلاتها ، خصوصاً وأن الصراع الذي كان يغطي منطقة الشرق الأوسط برمته يومذاك ، كان صراعاً طوائفياً مسيحياً محموماً ، وبالتحديد ضد البدع والهرطقات المسيحية ، التي كانت ملاحقة أينما كانت ، ورؤوسها مطلوبة حتى في أكثر زوايا هذا الشرق إهمالاً ونسياناً ، ومكة ليست زاوية منسية ولا مهملة من هذا الشرق .

ثم إن أكثر البدع المسيحية الهامشية ، كالأبيونية والكسائية وأمثالهما ، لم يحدث أن قويت وتعمقت جذورها في مكان تواجدها وتوسعت رقعة انتشارها ، لدرجة أن يكون لها قساوسة وكنائس ومبشرين ، أو أن يكون لها موقع ديني

وسياسي واجتماعي ، وخصوصاً في مركز مهم كمكة ، كما صور المؤلف وضع الأبيونية فيها .

فكثيراً ما كانت أية بدعة تفرخ وتتفاعل في محيط مهمل مسيحياً وتستمر لبعض الوقت ، ثم لا تلبث أن تذوب مخلية المكان لغيرها من البدع المتكاثرة والمتداولة يومياً في الجسم المسيحي ، وهذا ليس بواقع مكة بالطبع . وهكذا نجد أنفسنا بالنسبة لموضوع نصارى مكة أمام احتمالين ، فإما أن يكونوا نساطرة وهو الأرجح ، وإما يعاقبة ولا احتمال ثالث سواهما .

ومن هوية نصارى مكة إلى نصرانية ورقة بن نوفل وهو موضوع بحثنا أساساً . نستطيع القول لحد اليقين ، أن نصرانية ورقة ليست خارج نصرانية أترابه القلائل في مكة ، أي أن علينا أن نفتش عنه بين اليعاقبة أو النساطرة ، يعزز قناعتنا هذه ـ إضافة إلى ما سبق وفصلناه ـ الأمران التاليان :

١ ـ تأكيد أهل الأخبار ، أن ورقة تحول من الحنيفية إلى النصرانية على أثر زيارة له إلى الموصل ، قام بها برفقة زيد بن نفيل ، اجتمعا أثناءها إلى راهب هناك ، حيث اقتنع ورقة بالنصرانية منه فيما زيد لم يقتنع .

٢ ـ تأكيد أهل الأخبار بأن ورقة كان من بين الذين تاجروا لأهلهم بين مكة والشام ، ولذلك فإن من المفترض أن يكون قد عرف شيئاً عن النصرانية من هناك .

وما يهمنا هنا ليس التحديد القاطع بين يعقوبية ورقة أو نسطوريته ، طالما أن القطع في هذه النقطة بالذات يكاد يكون مستحيلاً ، لنقص المعلومات حوله ، وإنما الوصول إلى حقيقة واضحة نستطيع على أساسها أن نستبعد وقوع ورقة بن نوفل بشباك الأبيونية ، طالما أن هذه الأبيونية لم تعرفها مكة كما فصلناه .

وما إصرار الحريري على أبيونية ورقة بن نوفل ، ثم اختلاق دور ما له في ظهور الإسلام وبنيانه ، إلا بسبب رغبته ومن هم وراءه بتدبير بدعة كيفما كان ،

لينسبون الإسلام لها بقصد مساواته بطائفة البدع والهرطقات القديمة .

هذا هو الهدف ، ومن أجله ألَّف الحريري كتابه ، وبسببه استيقظ ورقة من غياهب النسيان ، ولأجله بعثت الأبيونية من جديد .

ومحاولة المؤلف لتشويه صورة الإسلام ليست الأولى ولن تكـون الأخيرة ، ولكنها حتماً ستكون فاشلة كسابقاتها واللاحقات بها .

كيف أدخل الحريري الأبيونية إلى مكة ؟

لقد أثبتنا في الصفحات السابقة بوضوح جلي ، أن الوجود النصراني في مكة وقريش ، لا يتعدى بعض الأفراد القلائل الذين لم يستطيعوا التأثير بشيء ، في محيطهم العائلي والاجتماعي .

ثم توصلنا إلى حصر هوية هذه النصرانية الطائفية بين النسطورية واليعقوبية .

وعليه يصبح استبعادنا لأي وجود للأبيونية في مكة وقريش أمراً طبيعياً ، مما يمكننا بالتالي من استبعادها عن ورقة بن نوفل أيضاً .

ورغم ذلك فإن بحث موضوع هذه البدعة نشأةً وتعاليماً بعد أن ألصقها الحريري بالإسلام ، أو ألصقه بها ، أمراً بات مفروضاً .

وقبل أن نتحدث عن نظريات ومعتقدات هذه الهرطقة المسيحية ، نرى أن نتبين الطريقة التي أدخل بها المؤلف هذه البدعة إلى مكة وقريش .

بحسب ما جاء في «قس ونبي» فإن من حمل لمكة هذه البدعة هم :

- رهبان قمران الهاربين إلى الجزيرة العربية بعد خراب هيكل أورشليم[١] .

---

(١) قس ونبي : ص ٢١ .

ومتى علمنا أن خراب هذا الهيكل قد حدث عام ٧٠ م على يد الملك الروماني كلوديوس ، لأدركنا أن هذه البدعة قديمة في الأرض المسيحية قدم المسيحية ذاتها ، وأن ولادتها من بطن المسيحية تزامنت مع ولادة الأناجيل نفسها ، المنحول منها والرسمي ، مما يعزز صحة الرأي القائل : بأن صاحب هذه البدعة هو القديس أبيون الذي تحمل اسمه ، وبحسب المؤلف ، فمن أولئك الرهبان صارت هذه البدعة إرثاً متعاقباً ، فانتقلت إلى :

- بعض القبائل العربية ، التي انضمت إلى أولئك الرهبان الهاربين .
- إلى قصي .
- إلى ولديه عبد العزى وعبد مناف ، وبنيهما بعدهما بالطبع .
- إلى ورقة بن نوفل .
- وأخيراً إلى المحطة الأخيرة ، التي انتقل إليها الحريري بالقطار الأبيوني ، لعله يضم كيفما كان إلى ركابه الراكب الأبيوني الأهم ،محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

إذاً فالعدوى الأبيونية ، قد انتقلت إلى الإسلام بحسب المؤلف من موطنها الأصلي في أورشليم ، أي من موطن المسيحية الأولى ، فإليها يجب أن نعود ، ومنها يجب أن ننطلق ، مقتفين آثار هذه البدعة في مسيرتها الغامضة ، ودبيبها المبهم .

وقد يبدو مستغرباً أن نرد التهمة عن الإسلام ، مبتدئين من ورقة لنتدرج باتجاه عمق التاريخ ، فنقف أمام كل محطة أبيونية زعمها المؤلف ، لنتبصر أمرها ، ونتدارس وضعها ، ثم ننتقل إلى أخرى ، لنصل بالبحث أخيراً إلى موطن الأبيونية الأول وزمان تكوينها . .

١ ـ **أبيونية ورقة بن نوفل** : لقد بينا بما لا يقبل الشك ، أن ورقة كان بعيداً عن الأبيونية بعد الأرض عن السماء ، وأوضحنا أن انتماءه النصراني يفترض أن

يكون بين اليعقوبية أو النسطورية ، وأقمنا الدليل الفعلي على ذلك ، وهو ما ذهب إليه معظم أهل الأخبار ، وهكذا انهارت أولى ركائز مزاعمه .

٢ ـ **أبيونية فرع عبد العزى بن قصي** : بينا أيضاً أن تنصير قبيلة بكاملها بنصرانية فرد من هذه القبيلة ، أمر يدعو للدهشة والاستهجان .

لقد تنصر من فرع عبد العزى نفر قليل جداً ، عرف منهم عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، ولم يتحدث أي من أهل الأخبار عن سواهما ، فكيف يجوز تعميم هذا التنصير ليشمل الفرع كله ؟ حتى أن عثمان بن الحويرث نفسه ، كان على مذهب أسياده الروم ، الذي مات مخلصاً لهم ودفن عندهم ، ولا مجال لجعله على مذهب آخر .

٣ ـ **نصرانية أو أبيونية بني عبد مناف** : النصرانية من أية طائفة كانت ، ولأية جهة انتمت ، لم تدخل بيت عبد مناف ، ولا بيت واحد من أولاده ، وهذا أمر ثابت بشهادة كل من أهل الأخبار ، عرباً كانوا أم مستشرقين .

ومزاعم الحريري لهذه الجهة ، لا يمكن الأخذ بها أو التوقف عندها ، إذ كيف يمكن أن يكونوا أبيونيين ، طالما أنهم لم يكونوا نصارى ؟ . .

٤ ـ **نصرانية أو أبيونية قصي** : إن نصرانية قصي المزعومة أمر لا برهان عليه ولا دليل ، وكل الأدلة والقرائن تسفهه وترفض الأخذ به ، إذ أن ما هو معروف عن هذا الجد القرشي ، أنه كان حارساً أميناً لكعبة كان أثمن ما فيها آنذاك أصنامها .

فلا ندري كيف يمكن أن يكون قصي نصرانياً ، وهو سعيد فخور بأصنامه ووثنيته ؟

إلا إذا اعتبرنا أن قرابة ما تجمع بين النصرانية والوثنية .

وإذا كان قصي لم يعرف في حياته النصرانية ، ولم يظهر أي برهان على إيمانه بها ، فكيف يمكن أن نعتبره أبيونياً ؟

ونصل برد التهمة عن الإسلام إلى زعم المؤلف .

٥ ـ **بتنصر قريش أو قريش المتنصرة** : هذا التنصر الذي حرصنا أن نتوسع بمعالجته بكل أمانة وتجرد ، وبينا بإسهاب ووضوح بأن استعمال كلمة (قريش المتنصرة) تعبير لا يخدم الحقيقة بشيء ، إذ أنه يترك لدى القارىء انطباعاً خاطئاً بأن النصرانية كانت دين قريش ولا دين سواه .

وهذا أمر مغاير للحقيقة وزعم تدحضه كل الشواهد والوقائع .

٦ ـ **ثم نصل إلى الزعم ، بانضمام قبائل عربية إلى أولئك الرهبان الهاربين من خراب هيكلهم ، الذين كانوا يحملون وباء هذه البدعة** : عجباً كيف يستبسط صاحبنا طرح آراء ، هي بحد ذاتها بدعة مستغربة ؟

إذ نراه ، ببساطة يؤكد انضمام قبائل عربية إلى أبيونية هاربة أو مهربة من أورشليم ، وبسهولة غريبة ينصر قبائل بالجمع والجملة ، في الوقت الذي جاهدت فيه النصرانية قروناً عديدة ، لتكسب إلى جانبها بعض أفراد من قبيلة واحدة ، وبالكاد نجحت .

ورأينا الروم وأهل الحيرة وكل رهبان النصرانية ومبشريها ، يلاقون الصعاب إثر الصعاب ، والفشل إثر الفشل ، باستمالة بعض القبائل إلى النصرانية ، رغم كل المغريات التي قدموها ، والجهود التي بذلوها ، والإمكانات التي يملكونها .

ولا ندري كيف استطاع بسحر ساحر وقدرة قادر ، رهبان هاربون من خراب هيكلهم ، لا حول لهم ولا قوة ، أن يدخلوا بسهولة ويسر ، قبائل عربية بالجملة في بدعة مستنكرة مطاردة ، لا هي بالنصرانية ولا هي باليهودية ؟

وحصيلة ما بحثناه يبين أن الأبيونية المزعومة لم تعرفها مكة ، ولم يكن لها وجود فيها ، على الأقل عند ظهور الإسلام .

أما كيف اكتشف الحريري لها وجوداً تاريخياً لا أثر له في سجل التاريخ ، وإنجيلاً لا أحد يعرف عنه شيئاً ، وقساً لا علاقة له بها ، وكنيسة بناها لها في قلب مكة حاضرة الحجاز وأم المدن في الجزيرة ، فأمر لم يشرحه في كتابه .

هذه مصادرة حول الأبيونية

كنا ننتظر أن يغدق الحريري نعم معرفته وأنوار علمه على البشرية ، فيسلط أضواءهما على حقيقة أبيونيته، التي اخترعها وألف كتابه للحديث عنها . بدلاً من أن يترك هذه البشرية تتخبط في ظلام جهلها ، حول هذه «الديانة» وتعاليمها «المقدسة» .

ولكن المفاجأة ـ الصدمة ـ أن مخترع حكاية هذه الأبيونية نفسه ، ليس بأفضل حال من القارىء ، بعدما جاء معتذراً عن جهله لمعتقداتها ، بسبب ضياع كتابها ، ومتأسفاً لضياع هذا الكتاب ، شاكياً من سوء تصرف أجداده الأوائل ، الذين دفنوا إنجيلهم هذا في باطن رمال مكة الظالمة ، فكان أن فقدوه إلى الأبد ، كما حدثنا في كتابه ص ٧٣ .

أما والأمر كذلك ، فلا يسعنا إلا الخضوع للأمر الواقع ، مشاركين الحريري أسفه وحسرته ولهفته المشروعة ، لاكتشاف (الضائع الغالي) ولو في آخر يوم من عمر الدنيا .

ومن هنا وحتى عودة (الضائع المغيب) نرى أن ندقق بالمصادر ، التي اعتمد عليها الحريري في حديثه عن هذه الأبيونية ، متجرأ على الصدق ، ومتجاسراً على الحقيقة ، لاصقاً الإسلام بهذه البدعة زوراً وفجوراً . كل مصادره التي استمد مزاعمه حسبما أوردها في كتابه هي :

١ ـ ضد سلسوس ـ تأليف أوريجانوس .
٢ ـ الشامل في الهرطقات ـ تأليف ابيفانوس .
٣ ـ ضد البدع ـ تأليف ايريانوس .

والمعروف أن هذه الكتب ، قد ألفها أصحابها منذ أكثر من سبعة عشر قرناً تقريباً ، وهي : من الكتب المفقودة منذ زمن بعيد ، على الأقل من المكتبة اللبنانية ، إن لم نقل العربية أيضاً ، والملاحظ هنا ، أن المؤلف لم يستعن في دعم مزاعمه ، بأية مصادر من أهل الأخبار المعروفين عرباً أم مستشرقين ، فاكتفى بما زعم وجوده في كتب لا وجود لها في زماننا الحالي ، مما يدل أن الحديث عن هذه البدعة لم يرد في أية مصادر تاريخية معاصرة ، وإلا لكان الحريري المزيف قد نقبها واستشهد بها .

وبغياب تلك الكتب ـ المصادر ـ اليتيمة رأينا بأنه قد يكون في تسليط الضوء على مؤلفيها ما يفيدنا بعض الشيء ، في تقدير قيمة هذه المصادر وأهميتها ، وصدق معلوماتها .

فأوريجانوس الذي كتب كتابه (ضد سلس) عام ٢٤٨ م، كان قد تخرج كأب نصراني من مدرسة دينية في الإسكندرية ، ذكره صاحب قصة الحضارة ، فقال :

«عمد إلى حياة التقشف،أكثر من الصوم ، قلل من ساعات النوم ، افترش الأرض ، مشى حافياً ، وعرض نفسه للبرد والعري ، وأخيراً وبعد أن تزمت ، عمد إلى خصي نفسه ، إطاعة للآية الثانية عشرة من الاصحاح التاسع عشر من إنجيل متى»[1] .

وكان أوريجانوس يعتبر ، أن القصص الواردة في الكتاب المقدس ، قد اخترعت في بعض الأحيان ، لكي توضح بعض الحقائق .

---

(١) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٣١٤.

وكان يعترض على بعض ما جاء في الكتاب المقدس ، فيتساءل متهكماً :

«أي رجل عاقل يصدق ، أن اليوم الأول والثاني والثالث ، وأن المساء والصباح ، قد كانت كلها من غير شمس ، أو قمر ، أو نجوم ؟ وأي إنسان تصل به البلاهة إلى حد الاعتقاد ، أن الله قد زرع جنة عدن ، كما يزرع الفلاح الأرض ، وغرس فيها شجرة الحياة ، حتى إذا ذاق إنسان منها من ثمرتها نال الحياة ؟»[1] .

والمعروف أن هذه من القصص ، التي أوردها الكتاب المقدس في أسفاره . وكان أوريجانوس يعتبر أيضاً ، أن لعبارات الكتاب المقدس طبيعتين من المعاني أكثر منه عمقاً هما : المعنى الخلقي ، والمعنى الروحي ، كما كان يرتاب في ما ورد في سفر التكوين .

فيما كان سلس ، يسخر من وضع المسيحيين المتشرذم آنذاك ، فيقول :

«إن المسيحيين تفرقوا شيعاً كثيرة ، حتى أصبح هم كل فرد منهم أن يكون له حزباً»[2] .

وبعدما ألغى مجمعاً مصغراً من الأساقفة رسامة أوريجانوس ، قساً ، قام هذا المجمع بنفيه من الإسكندرية إلى قيصرية ، حيث ألف كتابه ضد سلس .

ولكن أوريجانوس ، بدلاً من تسفيه حجج سلس وهرطقاته رأيناه يرد عليه ، وكأنه يوافقه على أمور خطرة ، فقال :

«إن كل صعوبة ، وكل فكرة بعيدة عن المعقول في العقيدة المسيحية ، يقابلها في الوثنية آراء أصعب منها ، وأبعد منها عن العقل»[3] .

(١) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٣١٤.
(٢) انظر قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٤٤.
(٣) نفس المصدر السابق.

وبذلك ، جعل المسيحية على مسافة قريبة جداً مٍن الوثنية .

وفي عام ٢٥٠ م قبض عليه القيصر ديسيوس ، وكانت له نهاية محزنة ، حيث مات من شدة التعذيب .

وفي عام ٤٠٠ م طعن البابا انستيوسوس بآرائه ، واعتبره مجدفاً مهرطقاً .

وفي عام ٥٥٣ م لعنه مجلس القسطنطينية ، وأعلن حرمانه ، وسفه بدعته .

وحصيلة الأمر ، أن المهرطق أوريجانوس في معرض رده على المهرطق سلس ، تحدث بشكل ما عن هرطقة ، هي الأبيونية .

فكيف لنا والأمر يدور بين هرطقات ومهرطقين ، أن نعتبر مصادر الحريري موضع ثقة واحترام ؟

مصدرا المقنع الثاني والثالث هما :

ايريانوس وابيفانوس ، ذكرهما صاحب قصة الحضارة ، في معرض حديثه عن تمزق النصرانية في أول ظهورها ، فقال :

«استطاع ايريانوس أن يحصي عام ١٨٧ م عشرين شيعة مختلفة من المسيحيين ، وأبيفانوس أحصى عام ٣٨٤ م ثمانين شيعة أيضاً ، وكانت الأفكار الأجنبية تتسرب إلى المسيحية في كل نقطة من نقاطها»[١] .

وبعملية حسابية نجد ، أنه خلال أقل من قرنين من الزمن ، أعقبت المسيحية بأكثر من ٨٠ بدعة ، اضافتها إلى رصيدها المتنامي من البدع والهرطقات ، وقد تكون (قريبتنا) الأبيونية واحدة منها .

وهكذا أجاز المؤلف لنفسه ، أن ينسب الدين الإسلامي إلى هرطقة ، ذكر أحدهم اسمها في كتاب ما ، وتحدث عنها مهرطق ما ، بكلمات عابرة منذ أكثر من ١٨ قرناً من الزمن .

---

(١) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٤٥ .

ولا بد من أن ندقق ملياً بعامل الزمن ، الذي انتشرت فيه تلك البدع ، وتكاثرت كالدمامل في الجسم المسيحي ، فلنفترض أن تكون الأبيونية واحدة من البدع التي تحدث عنها ايريانوس وابيغانوس ، فنقول :

أن ايريانوس ذكرها عام ١٨٧ م ، من بين عشرين شيعة نصرانية .

وأوريجانوس ذكرها عام ٢٤٨ م، في معرض رده على سلس .

وابيغانوس ذكرها عام ٣٨٤ م، من بين ثمانين شيعة نصرانية .

مما يجعلنا نؤكد أن هذه البدعة ، كانت موجودة قبل هذا التاريخ بزمن طويل ، طالما أن هؤلاء تحدثوا عنها ، كشيء من الماضي لم يعد في زمانهم موجوداً .

وهذا يعني أن المدة التي تفصل بين الأبيونية وظهور الإسلام ، تزيد عن خمسة قرون . وهو وقت كاف لكي تستنفذ هذه البدعة زخمها ، وتذوب في بوتقة بدعة أخرى ، لتنتهي كمصير كل البدع النصرانية الهامشية التي سبقتها ، أو ألحقت بها .

والأقرب إلى المنطق ، أن تكون هذه البدع ، ومنها الأبيونية ، قد نبتت في الأرض النصرانية في القرن الأول من ظهور المسيحية ، يوم كانت النصرانية سائبة بلا قواعد ، ولا ضوابط ، ولا إنجيل ، حتى ظهور بولس الرسول ، الذي أرسى للمسيحية قواعد محددة ، على أساس رسائله الشهيرة .

هذا الفراغ من الضوابط الدينية ، التي عانت منه النصرانية منذ ظهورها ، ربما كان مناخاً مناسباً لتقدم البدع والهرطقات لتملؤه ، فتكاثرت ، وتزاحمت ، وتعددت الأناجيل ، فكان بمقدور كل أسقف أو راهب أن يدلو بدلوه ، فيكتب إنجيله ، ويكسب من الأرض النصرانية أتباعاً ومؤمنين .

الخلاف جوهري بين الإسلام والأبيونية

ما هي الأبيونية ، التي نسب الحريري الإسلام إليها ؟

وماذا عرف أهل الأخبار عنها ؟

نعترف ، بأننا رغم ما بذلناه من جهد ، لم نستطع أن نعرف عنها إلا قليلاً ، ولسنا الوحيدون الذين لا يعرفون الكثير عنها ، فأهل الأخبار جميعهم تقريباً يشكون من قلة المعلومات حولها ، وشح الأخبار عن هذه البدعة ، يدل على أنها كانت بلا دور يذكر في حياة النصرانية .

وأنها لم تعمر وتتجذر في مجتمع نصراني ما ، لتلتصق بتاريخه ، وتصبح جزءاً منه وشأناً من شؤونه ، كما كان حال اليعقوبية أو النسطورية ، في حياة بعض الشعوب وتاريخها . كما لم تكن في بال جهابذة النصرانية ، ولا في صلب معاناتهم ، ولا على جداول أعمال مجامعهم المسكونية ، التي كانت تعقد في فترات متقطعة .

ولذلك لم يسجل التاريخ عن هذه البدعة ، إلا بالمقدار الذي كانت تشغله في حيز هذا التاريخ من موقع ، فكان نصيبها الإهمال والنسيان .

وقد عبر جواد علي عن هذه الحقيقة ، في معرض حديثه عن المذاهب النصرانية ، فقال :

«الأبيونية جماعة من قدماء اليهود المتنصرين ، عرفوا بهذه

التسمية العبرانية الأصل التي تعني الفقراء ، لا يعرف عن كيفية ظهورهم ونشوء عقيدتهم على وجه صحيح أكيد ، وكل ما يمكن أن يقال عن معتقداتهم ، أنها مزيج من اليهودية والنصرانية . وأنها نصرانية بنيت على أسس يهودية ، فهي نصرانية يهودية في وقت واحد»[1] .

وذكرها ول ديورانت في معرض حديثه عن المسيحية اليهودية ، فقال :

«ظلت المسيحية اليهودية قائمة مدى خمسة قرون ، بين طائفة قليلة من المسيحيين السريان المسمين بالأبيونيم ، أو الفقراء الذين كانوا يجمعون بين التثقيف المسيحي والناموس اليهودي الكامل ، فلما كان آخر القرن الثاني م ، حكمت عليهم الكنيسة المسيحية بالكفر ، وأخرجتهم من حظيرتها»[2] .

وذكرها نوفل الطرابلسي ، في كتابه سوسنة سليمان في أصول العقائد والأديان ، فقال :

«الكيرنثيين نسبة إلى كيرنثوس ، دعي بعضهم أيضاً أبيونيين ، وهؤلاء لم يقدروا أن يوفقوا بين ما حدث للمسيح ، مع ما كانوا يتصورونه عن ابن الله ، ولذلك أنكروا لاهوته ، وزعموا أن المسيح الذي اعتبروه منبثقاً من اللاهوت ، نزل على الإنسان يسوع عند معموديته ، ودام إلى وقت صلبه ، حينئذ تركه ورجع إلى السماء»[3] .

نفهم من المراجع التاريخية التي تحدثت عن هذه البدعة ، رغم قلتها ،

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٦ ص ٦٣٥ .
(٢) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٢٤٥ .
(٣) سوسنة سليمان : ص ١١٦ .

أن الأبيونية هي جماعة من اليهود ، اعتنقت المسيحية لفترة من الزمن ، في وقت مبكر من القرن الأول الميلادي ، ثم ضاعت بسبب عجزها عن التوفيق ، بين قناعاتها اليهودية القديمة ، وتعاليم مسيحيتها الجديدة . فاختارت بالنتيجة لنفسها معتقدات توفيقية بين اليهودية والمسيحية ، بحيث ابتعدت في النهاية عن الديانتين ، وخرجت منهما ، فاعتبرت من بين البدع المنشقة عن المسيحية .

والقليل المعروف عن هذه الجماعة ، يؤكد أنها حركة طوباوية روحية صرفة ، قالت بنظريات فيها من الحلم والخيال ، أكثر مما فيها من الواقعية .

فأتباعها حلموا بمجتمع تسوده الروحانية والمثالية المطلقتين ، وكأنه مجتمع انصاف آلهة ، لا يكون للمادة أثر فيه ولا دور ، وربما يكمن في نظرياتهم اللاواقعية هذه ، سر فشلهم ، وانطفائهم السريع ، وذوبانهم النهائي . .

إذ ما أن نزلت نظرياتهم إلى أرض الواقع ، وتبصر بها الناس ، حتى أسقطوها من حسابهم ، لأنهم لم يجدوا فيها سوى نصفهم الروحي ، فيما غاب عنها نصفهم المادي . .

وإذا كانت المسيحية ، ديانة طوباوية روحانية صرفة فالأبيونية تمثل أشد حالات التطرف الطوباوي الروحاني في المسيحية .

فاسم الأبيونية ، وتعاليمها ، وشعارها ، وما يميزها عن سواها من الطوائف والبدع المسيحية ، هو في فخارها بفقرها ، وتنكرها للغنى ، ولكل حالات التملك ، بشتى أشكاله ومظاهره . وما هو معروف عن أفراد هذه الجماعة ، أنهم كانوا يتسابقون للتحرر مما يملكونه ، فيوزعونه على الفقراء والمحتاجين بلا ثمن ولا مقابل ، لكي يصبحوا فقراء أو أبيونيين عن جدارة واستحقاق ، إذ أن جواز مرور الإنسان إلى الأبيونية كان فقره .

إذن ، كان الفقر هو صلب عقيدتهم ، ولب نظرياتهم ، وأساس معتقدهم ، مستمدين إيمانهم هذا مما جاء على لسان السيد المسيح ، قوله :

«طوبى للأبيونيين ، طوبى للفقراء» .

وربما من دعوته الإنسان إلى نشدان الكمال ، بقوله :

«إذا أردت أن تكون كاملاً ، فاذهب وبع كل شيء»

ولكن الأبيونيين زايدوا على المسيح نفسه في تحللهم من عالم المادة ، وتنكرهم له ، فلم يتحرروا مما يملكون بالبيع ، كما أمروا فحسب ، وإنما وهبوه بلا مقابل .

هذه الطائفة ، التي يشكل الفقر عماد نظرياتها ومبرر وجودها ، كيف يمكن أن تلتقي والدين الإسلامي ، الذي امتاز بواقعيته ومساواته المنصفة بين الروح والمادة ؟

الإسلام الذي آمن بمجتمع للمادة والروح فيه نفس الأهمية والاعتبار ، مختلفاً بنظرته الواقعية للإنسان والحياة عن اليهودية ، التي جفف أتباعها منها ينابيع الروح ، لتصبح ديانة مادية بحتة ، لا نجد في نصوصها سوى الحديث عن الذهب ، والنساء ، والجيوش . .

ومعارضاً هروب المسيحية من جاذبية المادة ، إلى عالم الروحانيات والخيال ، وإغراق أتباعها بنظريات طوباوية ، فشلت بمجرد احتكاكها بأرض الواقع ، بأن تكون لمشاكلهم المعقدة الحل الأنسب والأمثل .

كيف تلتقي الأبيونية والإسلام ، وفي آيات قرآنه :

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾[1] .

وفي آية أخرى يوصي الإسلام إنسانه ، بأن لا يحرم نفسه من متعة مادية ولا ملذة جسدية ، ما دام يتناولها من طريقها المشروع وفي حدها المعتدل .
ويأمره بها بأن يتبع ثواب ربه في آخرته ، على أن لا يحرم نفسه من نصيبه من دنياه :

---

(١) سورة الكهف ، الآية/ ٤٦ .

﴿وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك﴾[1] .

وفي آية ثالثة :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾[2] .

ومما يلفت النظر في هذا النص القرآني ، أن الله سمى حرمان النفس مما أحله الله اعتداء ، أي خروجاً عن طريق العدل بين الطبيعتين الروحية والمادية .

والحق ، أن ما ذهب إليه الإسلام من الجمع بين الروح والمادة ، هو ما تقبله الفطرة الإنسانية . والحالة الوسطى بين الروحانية المتطرفة ، والمادية المغالية ، أمر تستدعيه حياة المجتمع ، ولا يوجد من التعاليم ما هو حاصل على هذه الميزة غير الإسلام .

ولقد عبر عن هذه الحقيقة الإسلامية الرائعة ، الخليفة الرابع ، الإمام علي بن أبي طالب خير تعبير ، عندما قال :

«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»[3] .

أمر آخر جدير بالتأمل ، الأبيونية تقول بالتحلل من الملكية ، ونبي الإسلام كان يملك أرضاً ، وخديجة زوج النبي كانت تملك ، لا بل غنية وتملك الكثير ، وصحابة النبي كانوا يملكون ، وبعضهم معروف بغناه (عبد الرحمن بن عوف بن عثمان) وخلفاء النبي من بعده كانوا يملكون ، وبعضهم غني أيضاً ، (عثمان) .

---

(١) سورة القصص ، الآية/ ٧٧.

(٢) سورة المائدة، الآية/ ٨٧-٨٨.

(٣) من لا يحضره الفقيه : ج ٣ ص ٩٤ ووسائل الشيعة : ج ١٢ ص ٤٩.

المـال والبنون في الإسـلام ، زينة الحيـاة الدنيـا ، وزينة الحيـاة بـالنسبـة للأبيوني هي الفقر ، وهو طـريقه الـوحيد للوصـول إلى الآخرة السعيـدة ، فكيف يلتقيان ؟ وما بينهمـا من اختلاف جـوهري في الإيمـان والمعتقد ، كـاف ليباعـد بينهما أشواطاً وأشواطاً .

يبقى أن نورد تعارض أساسي آخر ، وتباين خطير بين الأبيونية والإسلام .

بعض الباحثين كما ذكرنا ، يرجعون هذه البدعـة إلى الكيرنثيـة ، نسبة إلى كيرنثوس مؤسس هذه الفرقة ، التي تؤمن بأن المسيح المنبثق من اللاهوت ، نزل على الإنسـان يسوع عنـد معموديتـه ، ودام معه إلى وقت صلبـه ، وحينئذ تـركـه ورجـع إلى السمـاء . وهي نـظريـة يـرفضهـا الإسـلام جملة وتفصيـلاً ، ويكفـر أصحابها .

وعلى هذا نقول بأنه لو افترضنا جدلاً ، أن هذه الأبيونية قد كـان لها وجـود في مكـة عند ظهـور الإسلام ، مـع أن ذلـك ليس صحيحـاً ، فهي تختلف معـه اختلافاً جوهرياً ، أسوة بكل الشيع المسيحية التي آمنت بألوهية المسيح بشكل أو بآخر .

نقصد من ذلك ، أنه لو صدقناه وكـانت الأبيونيـة هي نفس النصرانيـة التي تحدث عنها في لقيـطه ، ملصقاً الإسـلام بها ، نـاسباً إيـاه إليها ، فهي نصـرانية بعيدة كل البعـد عن الإسلام ، لا يمكن تـلاقيهما ، لمـا بينهما من اختـلاف في إيمانهما حول أمور جوهرية أساسية ، أهمها موضوع الله ووحدانيته .

وهل بعد من خلاف أكبر ، أو تناقض أهم ؟

فإذا ما اختلفت عقيدتان حول الله ، فماذا يبقى لكي تتوحدا حوله ؟ . . .

الفصل الثاني

١ ـ الإسلام قال بحزم : إنجيل واحد ، لا أناجيل متعددة
٢ ـ لم يعتنق ورقة بن نوفل الإسلام
٣ ـ حول لغز «الوقعة الإلهية»
٤ ـ أمية الرسول حقيقة ، وهذه براهين عليها
٥ ـ شعائر الإسلام ، يردها الحريري إلى نصرانية وهمية
٦ ـ ما يبحث عنه حقيقة هو : تقويض الإسلام
٧ ـ الكل في المسيحية ، يحيي الموتى

الإسلام قال بحزم : إنجيل واحد لا أناجيل متعددة

حمى الهذيان بدأت فعلياً ، عندما أورد الحريري آيات من القرآن الكريم ، ثم زعم أنها ما نزلت إلّا محاكاة لأحزاب النصرانية دون غيرها ، وهذه الآيات هي(*) :

١ ـ ﴿اختلف الأحزاب من بينهم﴾(١) .

٢ ـ ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾(٢) .

٣ ـ ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾(٣) .

٤ ـ ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾(٤) .

٥ ـ ﴿لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾(٥) .

٦ ـ ﴿آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين واحد منهم﴾(٦) .

ومعروف أن بعض هذه الآيات ، قد نزل في الفترة التي تكتل بها المشركون لمحاربة الإسلام ، متكلين على الدعم اليهودي الفاعل في المدينة ،

(*) أوردنا هذه الآيات مجتزأة حسبما وردت في كتاب «قس ونبي» تدليلاً على طريقة التشويه التي اعتمدها مؤلفه .

(١) سورة مريم ، الآية/ ٣٧ ، وسورة الزخرف ، الآية/ ٦٥.

(٢) سورة الرعد، الآية/ ٣٦.

(٣) سورة المؤمنون، الآية/ ٥٣ وسورة الروم، الآية/ ٣٢.

(٤) سورة طه، الآية/ ٩٤.

(٥) سورة البقرة ، الآية/ ١٣٦ وسورة آل عمران ، الآية/ ٨٤.

(٦) سورة النساء ، الآية/ ١٥٢.

مما حدا بالنبي ، في محاولة منه لتحييد العامل اليهودي عن الصراع مع المشركين ، أن يعقد مع اليهود اتفاق صلح معروف ، نكثوا به آخر الأمر ، عندما أحدث ضجة وتصدعاً ، وخلافاً سياسياً داخل الصف اليهودي . إذ أن فئة منهم أيدته وأخرى عارضته ، مدعية أن الدين الجديد يسفه أنبياءهم ، ويرفض كتبهم ، ويزرع الشقاق بين بني إسرائيل ، ويقوم بتفريق أحزابها .

فنزلت تلك الآيات لتشرح براءة الإسلام من تلك التهم ، وتحدد بالتالي موقفاً ثابتاً من الأديان السماوية والرسل ، يعتمده المسلمون ويتمسكون به حتى يومنا هذا .

الآيات واضحة المبنى والمعنى ، نزلت في أحداث معينة ومواقيت محددة ، حاكت أحزاب إسرائيل الموجودة في مكة والمدينة ، تلك التي كان لها دور في صراع المسلمين والمشركين .

فإذا بالحريري يقلب الحقائق ، ويخترع لها تفسيراً مغايراً . ويخترع من عنده أحزاباً وهمية ، مدعياً أن الآيات نزلت بها دون غيرها .

فمن هي تلك الأحزاب التي اختلقها يا ترى ؟

قال :

«عرف النصارى بني إسرائيل الضاربة في مكة والحجاز انقساماً لهم إلى شيع وفرق وأحزاب»[1] .

ثم كاشفاً أسماءها فإذا هي :

«الطائفة الأبيونية : يهود تنصروا لكنهم رفضوا ألوهية المسيح وبنوته لله ، فاعتبروه نبياً»[2] .

إنجيلهم العبراني : هو نسخة مزيفة محرفة عن إنجيل متى الآرامي .

---

(١) قس ونبي : ص ٢٠ .
(٢) نفس المصدر : ص ٢١ .

الطائفة القيرنثية :

تقول إن المسيح السماوي ، هو على مثال الأرضي ، مهمته سياسية ، والجنة السماوية هي متاع الجسد وشهواته ، أي الطعام والشراب ولذة الجسد .

الطائفة الكسائية :

هذه لا تزال شعاراتها حائرة ، بين أن يكون الروح القدس هو أم المسيح ، فيصبح هو بالتالي مؤنثاً ، وطوراً هو الملاك جبرائيل ، فهو بذلك مذكر .

هذه عينة من (أحزابه) النصرانية ، التي يصر علينا لنصدقه بأنها المقصودة بالآيات ، فهو بالإضافة إلى غرابة رأيه ، يضيف إلى مكة بدعاً جديدة ، تشارك الأبيونية المزعومة أرضها وتزاحمها في (جماهيرها) .

ونزول الآيات بها لو صدقناه ، لكان دليلاً كافياً على وجودها ، ولكان علينا بالتالي أن نصدق ، أن مكة ما كانت إلّا مسرحاً لشتى أنواع البدع والهرطقات النصرانية ، التي كانت تعشعش بها ، وهو أمر عالجناه وأظهرنا بطلانه .

ثم لا ندري أين ذهب صاحبنا بالوثنية والشرك في تلك المدينة ؟

وقد تحدث عن عمقهما في المجتمع المكي المستشرق بلييايف ، فقال :

> «أما في مكة التي كانت حصناً للشرك ، وغالبية أهلها من المشركين ، فإن القرشيين عملوا جهدهم للإبقاء على الشرك ، والمحافظة على التقاليد الوثنية»[1] .

في الصفحة ٢٤ من «قس ونبي» أورد المؤلف العديد من الآيات القرآنية ، التي تمجد العلم وتحض عليه بالمعنى الإنساني الشمولي ، فإذا به ينزع عن تلك الآيات شموليتها الإنسانية ، ليقنعنا بأنها نزلت حصراً بعلماء النصارى ، باعتبارهم وحدهم أهل العلم والعلماء .

---

(١) العرب والإسلام : ص ١٤٢ .

فسرد مجموعة أسماء قال انها من علمائهم ، مبتدئاً بإبن ساعدة ، مرورا بالراهب بحيرا ، وانتهاءً بعيصا ، واسم ورقة بين تلك الأسماء .

قائلاً :

«لا يستبعد ، بل يستغرب حقاً أن لا يكون القس ورقة واحداً من هؤلاء الرهبان المتبحرين في العلم ، وكأنه الحكيم الخبير»[1] .

وبذلك صار ورقة بن نوفل ، هو الحكيم الخبير بدلاً من الله تعالى .

ولكي تتم عملية ربط القرآن بالهرطقة الأبيونية ، قام الحريري باختراع بعض نصوص وأقوال ، زعم أنها من إنجيل الأبيونيين ، بحيث جعلها متوافقة من حيث المبنى وبعض الآيات القرآنية ، والملاحظ أنه يتقصد تعريف القرآن كلما اضطر لذكره بـ (القرآن العربي) رغبة منه بتأكيد اكتشافه الفريد القائل :

بوجود قرآنين ، واحد عبراني سابق ، وآخر عربي لاحق .
الأول أصل والثاني فرع منقول عنه . ولذلك وجب بنظره التمييز بينهما .

وانسجاماً مع هدفه بجعل القرآن منقولاً عن إنجيل من الأناجيل، وبعد أن انتدب لهذه المهمة (الخبير الحكيم) ورقة بن نوفل، ولكي ييسر له ويسهل عليه عملية النقل المزعومة، ولكي يكون للقرآن مصدر واحد لا مصادر متعددة ، رأيناه يسحب من ورقة كل الأناجيل مبقياً بين يديه إنجيلاً واحداً هو : الإنجيل العبراني .

فقال في ص ٢٨ من كتابه :

«يبدو أن الإنجيل العبراني هذا كان وحده دون سواه من الأناجيل بين يدي القس ورقة» .

ولكنه سرعان ما ناقض نفسه في الصفحة التالية فقال :

---

(١) قس ونبي : ص ٢٦.

«لا ننكر وجود تعاليم نصرانية أخرى كانت تطوف في أجواء القس والنبي ؟ مردها إلى أناجيل وكتب نصرانية أخرى»[1] .

وفي الصفحة ذاتها يكتشف بذكائه الوقاد ونظره الثاقب أمراً تفرد بمعرفته دون العالمين ، هو أن القرآن يستعمل «الألف واللام» كلما ذكر الإنجيل مما يدل على المعنى الأحادي للكلمة فقال :

«إن القرآن لم يورد صيغة الجمع مطلقاً عند ذكر الإنجيل»[2] .

وهذا بنظره برهان بأن ورقة كان لا يعرف عندما نقل القرآن إلّا الإنجيل العبراني . فليت الحريري تذكر لعرف أن من الطبيعي بل من المفروض أن يقول القرآن بآحادية الإنجيل ، لأن القرآن والمسلمين والمؤمنين به لا يعترفون إلّا بإنجيل واحد ، هو إنجيل النبي عيسى بن مريم وهو الإنجيل الذي كان يخاطبه القرآن ويعنيه .

وليس ذنب القرآن والمسلمين إذا كان هذا الإنجيل قد ضاع في زحمة الأناجيل المتعددة المتضاربة المتناقضة ، التي ظلت تتكاثر وتتزايد قرناً بعد قرن حتى ضاقت بها الأسماء والمكتبات وكلها يدعي بأنه الإنجيل الصحيح . . .

إلى ذلك أشار عبد الكريم الخطيب في كتابه (المسيح في القرآن) فقال :

«القرآن الكريم يتحدث عن إنجيل واحد هو الكتاب الذي أوحي إلى عيسى عليه السلام وبشر به بين اليهود . كما أن الواقع والعرف لا يسمحان بأن يكون لعيسى أكثر من كتاب هو دستور رسالته التي دعا إليها وبشر بها»[3] .

---

(١) قس ونبي : ص ٢٩ .
(٢) قس ونبي : ص ٢٨ .
(٣) المسيح في القرآن : ص ٧٧.

وتحدث عن الأمر نفسه محمد الغزالي فقال :

«بأي وجه من المنطق يؤخذ دين عيسى من ألسنة أعدائه بعد ضياع الصحائف الأولى التي أنزلت عليه»[1] .

في الصفحة ٢٩ من كتابه سارع الحريري بتواضع جم ـ ليعدد أسماء مجموعة الأناجيل التي تمتلكها المسيحية فذكر منها :

«الروايات القانونية الأربع ـ الروايات المنحولة ـ إنجيل متى ـ إنجيل مرقص ـ إنجيل لوقا ـ إنجيل يوحنا ـ إنجيل النصارى ـ إنجيل الطفولة ـ إنجيل العبرانية» .

وغيرها وغيرها بلا حسد يا رب .

ولا أدري إذا كان المؤلف قد قصد التباهي على المسلمين بكثرة أناجيله في وقت لا يملك الإسلام (المسكين) سوى قرآن واحد .

فليته ومن هم وراءه يشملون باهتمامهم وهم في خضم التفتيش عن (حقيقة القرآن الضائعة) تلك الأناجيل المتعددة الأسماء المتناقضة المضامين .

فينكب بعضهم عليها تدقيقاً وتمحيصاً لعلهم على الأقل ، يعالجون التناقض الفاضح بين تعاليمها ، ليخدموا بذلك مسيحيتهم والإنسانية على السواء .

ولكن لحكمة ما لا نعرف سرها نرى جهابذة المسيحية يصرون دائماً على (خدمة الحقيقة والإنسانية) عن طريق اختلاق عيوب يلصقونها فجوراً بالغير فيما ينسون عوراتهم مكشوفة .

---

(١) التعصب والتسامح : ص ١٨٦ .

لم يعتنق ورقة بن نوفل الإسلام

في الصفحة ٣٠ من كتابه ، أضاف الحريري إلى أمجاد ورقة مجداً جديداً ، عندما أعلن بحماسه المعهود قائلاً :

«إن ورقة بن نوفل ، هو سيد العرب الأوحد» .

معتمداً على قول قوّله لورقة ، لا يستحق منا الإلتفات ، باعتباره لا يشكل :

أولاً : عقدة في نفوس المسلمين .

ثانياً : لأنه تزوير للحقيقة مفضوح ، إذ ما من مؤرخ ذكر هذه السيادة له ، أو تحدث عنها . فجاءت من الحريري بحدود النكتة السمجة السخيفة .

وثالثاً : لأن سيد العرب المعيّن نفسه ، لم يعرف عنه إطلاقاً أنه مارس في حياته كلها ، أي شكل من أشكال هذه السيادة ، فكيف يكون صاحبنا سيداً ؟

ولكن لا بأس من الوقوف قليلاً ، عند عتبة هذا المجد المزعوم .

ورقة لم يقل أنا سيد العرب وقائدها . ولا قال : نحن سيد العرب وقائدها ، ليحق للمؤلف أن يعتبره بالذات سيداً عليهم ، بل قال مخاطباً الحاضرين بصيغة الجمع ، فقال : نحن سادة العرب ، وجل ما كان المسكين يعنيه ، وهو بحضرة بني عبد المطلب أسياد العرب الحقيقيين ، هو تذكير هؤلاء القادة بأواصر القربى التي تشده إليهم ، وبالعامل المشترك الذي يجمعه بهم

كونهم من جد واحد .

فكان يهنىء نفسه والحاضرين بهذا الزواج ، الذي أعاد للعائلتين الوحدة بعد فرقة ، والتقارب بعد تباعد .

وجل ما كان بذهن الرجل ، هو التقرب من الأسياد ، وليس السيادة .

مرة أخرى يحاول المؤلف ، أن يقفز بورقة فوق الأرض نحو السماء ، فقال :

«إليه يرجع الناس في مختلف أمور الدين ، وعليه تقوم مهمة تفقيه الرعية ، الوحي ، ومعاني التنزيل ، وقريش من عبد المطلب إلى كل زعماء قريش داروا حوله حتى النبي محمد دار حول ورقة طيلة ٤٤ سنة من حياته»[1] .

ما نريده ليس مناقشة الحدث بحد ذاته ، لأنه في الواقع ما من أحد دار حول الآخر ، لا محمد ، ولا ورقة ، لسبب بسيط ، هو أنهما لم يلتقيا ، إلاّ وكان ورقة قد أصبح بفعل فارق السن ، لا يدور ولا يدار حوله ، وإنما نريد فهم وتفسير ما عسر علينا فهمه وتفسيره ، ونعني قوله :

«حتى النبي دار حول ورقة ٤٤ سنة من حياته» .

فلو صدقنا موضوع الدوران هذا لكان علينا أن نفترض أن يكون دوران النبي حول ورقة قد حدث وورقة حي يرزق .

وهذا يعني أنّ النبي بدأ بالدوران رضيعاً ، فطفلاً ، فيافعاً ، فشاباً ، فنبياً ، ويفترض أيضاً أنه ظل يدور حوله ويدور ، حتى آخر يوم سجوّ به جسد ورقة في قبره ، ليكمل النبي الـ ٤٤ سنة من الدوران المزعوم .

في الصفحة ٣١ يعلن الحريري المساواة بين ورقة والنبي فقال :

«لما كان القس ورقة رئيس النصارى ، هكذا سيكون

---

(١) قس ونبي ، ص ٣٠.

محمــد أول المسلمين ، وليس أدل على ذلـك من كثـرة اهتمـام القس بالنبي نفسـه ، فهو الـذي زوّجه خـديجـة ، ودرّبه على التأمل والصلاة في غار حراء ، وهو الذي تـولى إعلان نبوته على العرب» .

بيد محترفة لا ترتجف يزور الحريري المزعوم وقائع التاريخ ، فقال : ورقة هو الذي تولى إعلان نبوة محمد على العرب . . .

نسأل : طالما أن ورقة كان لمحمد أستاذاً ، مدرباً ، هادياً ، وتوج أعمـاله الجليلة بإعلان نبوته على العـرب ، فهل اعتنق بـاعث الدين ومعلنـه على العرب هذا الدين ؟ هل مات ورقة بن نوفل مسلماً ؟

ونسأل أيضاً : أليس غريباً ومستهجناً ، أن يموت بـاعث الإسلام على غيـر الإسلام ؟

وأتصور أن المؤلف مرتبكـاً أيما ارتبـاك ، لستر هـذه العـورة ـ الفضيحـة ـ ولفلفتها . ولشدة ارتباكه وحرجه ، رأيناه يستحضر شهـوداً ، ويستنطق مؤرخين ، إثباتاً لإسلام ورقة ، أكثرهم طعنه ، فشهد ضده .

أتى بابن العباس ، فقال عن ورقة :

«مات على نصرانيته» .

ولكن صـدمته بـالجوزي كـانت أكبر ، إذ أن هـذا رفض وجود ورقـة أثنـاء الدعوة أساساً ، فغيبه عن مسرح الأحداث بالمرة ، إذ قال :

«إن القس ورقـة ، كان آخـر من مـات في الفتـرة ودفن في الحجون ثم فلم يكن مسلماً»[1] .

والحريري فسر (الفترة) بأنها المدة التي تفصل بين عيسى ومحمـد ، حيث

---

(١) قس ونبي : ص ٣٢ .

لم تكن نبوة ، وبحسب رواية الجوزي ، يكون ورقة قد مات قبل الدعوة ، ويصبح كل ما قاله الحريري عنه اختلاق وتلفيق .

وفي رواية ذكرها عن النبي ، أنه قال :

«لا تسبوا ورقة ، فإني رأيت له جنة أو جنتين ، لأنه آمن بي وصدقني»(1) .

والملفت للنظر هنا ، هو طلب النبي من المسلمين ، أن يكفوا عن سب ورقة ، دون أن ندري سبب هذا السب .

فإما أن يكون في موقف ورقة من الدعوة الإسلامية ، ما دفع المسلمين لسبه ، الذي نهاهم النبي عنه تأدباً بآداب الإسلام ، أو احتراماً لحرمة الموت ، أو مسايرة لقرابة ورقة من السيدة خديجة .

وإما أن تكون الرواية المنقولة عن النبي كلها مختلقة ، لا أساس لها . وبالحالين ، فالحريري خاسر ومتهم . . .

وبعدما خيّب شهوده آماله ، رأيناه يلجأ إلى القبول بحل وسط ، قائلاً :

«فأقوال النبي عن مصير ورقة ، إن لم تؤيد إسلامه ، فإنها تؤيد إيمانه وهدايته ، والذين أرادوه ميتاً على النصرانية ، يقصدون هلاكه أكثر مما يقصدون نجاته ، لأنه في ظنهم أدرك الدعوة دون أن يؤمن بها»(2) .

وهذا بالطبع أفضل من تمويته على الكفر .

لقد عالجنا بتفصيل ووضوح موضوع ديانة ورقة ، وأثبتنا بما لا يقبل الشك ، أن ورقة عاش ومات نصرانياً ، والحريري نفسه طالما دأب يفاخر بنصرانية قسه ، فكيف يمكن أن نميته على إسلام لا يعرفه ؟

---

(1) قس ونبي : ص ٣٣.

(2) قس ونبي : ص ٣٣.

فأهل الأخبار جميعهم قالوا بتنصره :

١ ـ الطبري قال :

تنصر وقرأ الكتب من أهل التوراة والإنجيل[١] .

٢ ـ الأصفهاني ، قال :

تنصر في الجاهلية[٢] .

٣ ـ ابن الأثير ، قال :

تنصر وقرأ الكتب[٣] .

٤ ـ المسعودي ، قال :

اختلف فيه ، فمنهم من زعم أنه مات نصرانياً ومنهم من رآه مسلماً[٤] .

٥ ـ ابن خلدون ، قال :

ورقة استحكم في النصرانية[٥] .

٦ ـ اليعقوبي ، قال :

تنصر قوم من العرب ، منهم ورقة بن نوفل[٦] .

٧ ـ ابن هشام ، قال :

فأما ورقة بن نوفل ، فاستحكم في النصرانية[٧] .

هل بعدها من شك بديانة ورقة ؟

وهل لنا أن نكذب هؤلاء ، ونصدق الحريري المزعوم ؟

وأما قوله :

«دربه على التأمل والصلاة في غار حراء» :

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٤٩ ص ٢٤٠.

(٢) الأصفهاني الأغاني : ج ٣ ص ١٤ .

(٣) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٤٨ .

(٤) مروج الذهب : ج ١ ص ٧٣.

(٥) ابن خلدون : ج ١ مجلد ٢ ص ٤ .

(٦) تاريخ اليعقوبي : ج ١ ص ٢٥٧.

(٧) سيرة ابن هشام : ص ٢٤٣ .

بالبرهان القاطع أوضحنا ، أنّ ورقة ومحمد لم يلتقيا في حراء ، بسبب فارق العمر الشاسع بينهما . فكيف يكون قد دربه على التأمل والصلاة ، وهو لم يلتقه ؟

«هو الذي زوّجه خديجة» :

من يقرأ كتابه ينتابه ضيق وملل ، وهو يتابع ترديده لموضوع زواج النبي من خديجة ، ودور ورقة فيه ، حتى صار هذا الزواج كقصة إبريق الزيت .

ولذلك ، فلا بد لنا من وقفة متفحصة أمام دور ورقة في هذا الزواج ، ولكن قبلها ، لا بد لنا من الإجابة على هذا السؤال :

لماذا يقفز المؤلف ، إلى هذا الزواج بمناسبة وبدونها ؟ وما هي فائدته من هذا الموضوع ؟

الواقع ، أنه يريد إقناعنا أن دور ورقة في حياة النبي ، لم يكن مقتصراً على الشأن الفكري والديني فحسب ، وإنما تعداه إلى كل ما يحيط بحياة محمد من شؤون وشجون ، بينها زواجه . . .

فهذا الزواج بنظره ، ما كان إلّا خيطاً من ألياف خطة وضعها ورقة بإحكام ، ليهيء بها لمحمد الظروف المناسبة كي يكون نبياً .

والثابت الذي لا يقبل الشك ، أن ورقة دخل على خط هذا الزواج صدفة ، وذلك عندما لجأت إليه خديجة كونه ابن عمها وكبير عائلتها ، ليقنع أباها المعترض على زواجها من محمد بسبب يتمه وفقره ، فقام ورقة بالمهمة ، وانتهى دوره عند هذا الحد ، لا أكثر ولا أقل .

وكان يمكن أن لا يرتبط هذا الزواج بذكر ورقة أو باسمه ، لو أن خديجة لم تكلفه بهذه المهمة ، أو لو أنها كلفت أحداً سواه .

فأين هي الخطة المحكمة ، والزواج المرسوم ؟

فيما ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى ، ودكتور حسن إبراهيم حسن :

«أن المزوج لخديجة ، كان عمها عمر بن أسد ، والمزوج له بها عمه أبو طالب ، والسفير بين خديجة والرسول نفيسة بنت منبه»[1] .

حتى أنهما لم يأتيا بذكر على حضور ورقة حفل الزواج ، الذي نصب نفسه سيداً على العرب بحسب الحريري .

عندما يعوز صاحب «قس ونبي» الدليل والبرهان نراه يلجأ إلى أسلوب رخيص ، فيخترع أحاديث ينسبها إلى مؤرخ ما بصفة المجهول ، ومنها قول كرره عشرات المرات في كتابه نسبه إلى السيدة عائشة هو :

«لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي»[2] .

فالذي يريد قوله هنا ، هو (أن الوحي) الرباني المزعوم ، لم يكن إلّا فكر ورقة يصل إلى الناس بلسان محمد ، ولما مات صاحب الفكر كان لا بد للوحي أن يتوقف ، لغياب مصدره ، وجفاف كوثره ، فترة من الزمن ، يكون محمد أثناءها قد كيّف أوضاعه الجديدة ، الناشئة عن الفراغ المستجد بغياب ورقة ، فيتدبر أمر (الوحي المنقطع) بشكل أو بآخر .

نقطتان لا بد من بحثهما يدخلان ، لا في علم التنظير والتحليل ، وإنما في علم التاريخ والحساب :

الأولى :لو صدقنا مزاعمه ، لما عاش ورقة بعد ظهور الإسلام بأكثر من ثلاث سنوات قضاها ، أطرشاً ، ضريراً ، مقعداً ، ولربما قد نزل على النبي من الوحي بعضه أثناءها . .

فلنسلم جدلاً بأن يكون لورقة دور ما فيه ، طالما هو حي يرزق .

ولكن كيف تدبر النبي أمر الوحي ، الذي نزل عليه طيلة تسع سنوات في

---

(١) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ١٣٩. تاريخ الإسلام : ج ١ ص ٧٦.

(٢) قس ونبي : ص ٣٢.

مكة ، بعد موت ورقة ؟ مع التنويه بأن الآيات المكية ، قد ركزت منذ البداية وحتى هجرة النبي إلى المدينة على النواحي العقائدية ، والإيمانية ، والروحية ، من الديانة الإسلامية .

واستمرت هكذا بحيث أتت متجانسة ، متناسقة ، لا يبدو فيها خلل ، أو فوارق ، أو فجوات ، يستدل منها على تغيير الصانع ، وتبدل المؤلف .

فمن كان في مكة وراء محمد يا ترى بعد غياب ورقة ، يهمس الوحي في أذنه من وراء الستار ؟

الثانية : إذاكان لورقة دور مزعوم في بعض الوحي المكي ، مارسه أثناء حياته القصيرة ، التي لحق بها الإسلام ، ولكن ماذا عن الوحي المديني ؟ ومن كان وراءه هناك أيضاً ؟ وورقة كان في العالم الآخر ، والمعروف أن الوحي المديني ، قد عالج شؤوناً دقيقة حساسة ، يتعلق بعضها بالأمور الإقتصادية ، والقانونية ، والتشريعية ، فمن كان وراء النبي في المدينة ؟

أيكون ورقة ، قد هيأ قبل موته لمحمد ، من تابع كفالته له في مكة ، ولحق به إلى المدينة ، ليهمس في أذنه بالنيابة عن ورقة ، وحي ورقة ، وفكر ورقة ، وإلهام ورقة ، كما كان يفعل وهو في الحياة ؟

لم يحدثنا الحريري عن هذا الأمر ، وقد يكون ذلك محرجاً له فأسقطه ، وهو بذلك معذور .

ثم قال :

«لم يكن النبي ، إلاّ قيماً على الدعوة الجديدة ، بعد وفاة صاحبها القس ، سيد العرب ، وقائدهم ، ورئيس دينهم» [1] .

نسارع هنا لإعلان فهمنا جدلاً ، بأن يكون النبي محمد قيماً على الدعوة

---

(١) قس ونبي : ص ٣١.

الجديدة ، بعد وفاة صاحبها (الأصلي) ورقة . . . ولكننا نفترض ، أن الأمر يجب أن يتغير وورقة حي يرزق . . إذ من المفترض أن يحمل ورقة شؤون دعوته بنفسه بالعلن ، وتحت رقابة ورعاية التاريخ ، وهذا ما لم يحدث ، فلماذا ؟ . .

ونسأل : إذا كانت العلاقات العلنية ، أم السرية ، بين الله وورقة ، قد وصلت إلى هذا الحد من الترابط ، لدرجة أنك لا تستطيع لها فصلاً ولا فكاكاً ، وإذا كان وضعه من الدعوة الجديدة ، هو وضع الحجر من الرحى ، وإذا كانت مؤهلاته وكفاءاته تكاد تكون (فوق بشرية) .

وإذا كان موقعه السياسي ، والاجتماعي ، والمعنوي ، موقع السيد ، والقائد من العرب ، وإذا كان متساوياً حسباً ، ونسباً ، مع النبي ، وإذا كان هو الأصل ، وسواه الفرع ؟

فلماذا لم يكن هو نفسه النبي يا ترى ؟

لماذا لم يختره الله لهذه النبوة ، وهو كفؤ لها ، بدلاً من (القيم) محمد ؟ إلّا إذا كان إقصاؤه عنها ، كان أيضاً بمؤامرة من التاريخ ، أو بسبب عماه وصممه ، ولكن حتى هذه قد تسوى ، فالله يشفي من يشاء ، وهو على كل شيء قدير .

حول لغز الوقعة الإلهية

يرفع الحريري ستارة الفصل الثاني من كتابه ، ليظهر على المسرح ورقة ومحمد ، ووراءهما مباشرة ثنائي آخر من الجنسين ، ممثلاً بأبي طالب وخديجة .

ـ المناسبة : حفل زواج محمد من خديجة .

ليعيدنا من جديد إلى موضوع الزواج ـ حكاية إبريق الزيت .

والظاهر ، أن أبا طالب وخديجة ، لم يعودا بعيدين عن ثقة ورقة ، بعدما أطلعهما على بعض أسرار اللعبة ، فيما يختص بأهدافه المرسومة المستورة من خطة تزويج محمد من خديجة .

١ ـ فذكر أن أبا طالب ، قال :

«وهو والله بعد هذا الزواج ، له نبأ عظيم ، وشأن خطير»[1] .

وبنظره ، أن أبا طالب قصد بما قاله ، أن يعبر عن إيمانه ، بأن هذا الزواج خطوة أولى في مسيرة محمد نحو النبوة ، العتيدة ، والرسالة المقررة . .

بينما تعني في الحقيقة ، استبشار أبي طالب خيراً ، ككل أب يرى ابنه وقد استقر في بيت ، اكتملت فيه شروط مطلوبة ، تشاركه حياته زوجة مدركة ،

---

(١) قس ونبي : ص ٣٨.

عاقلة ، موفورة مادياً ، وخلقياً ، واجتماعياً ، فعبر عن رضاه عن هذا الزواج بما قاله ، لا أكثر ولا أقل . .

٢ ـ ولنسمعه يقول :

«نتوقف عند الزواج ، لنبدي بعض الملاحظات ، فهو حدث خطير وهام في شأن القس والنبي ، وفي شأن المخطط ، الذي ينفذ على يد أبي طالب وخديجة .
لقد وقع النبي على ما يبدو وقعة إلهية بين يدي أولياء أمره»[١] .

وأضاف قائلاً :

«يلاحظ ، أن القس لم يكن حاضراً حفلة الزواج ، ومتقدماً على الآخرين وحسب ، بل محتفلاً بالعقد مكللاً ، فهو الذي أبرم العهد ، وشهد عليه ، وأعلن على الحضور ما جرى ، وهو المحتفل الأول بالعقد ، أو قل هو الذي ربط باسم الله ما لا يحله إنسان ، بحسب تعاليم إنجيل الأبيونية ، كاهن يبارك الزواج ، فعلى أي دين يكون الزوجان إذن ؟»[٢] .

من خلال النص أعلاه ، يتضح وكأن إعلان النبوة لمحمد ، كان ينتظر إتمام هذا الزواج ، أو أنه كان مشروطاً به ، إذ ما أن تم الزواج ، حتى بدأت الصدور تظهر مكنوناتها إلى العلن ، والتلميح صار تصريحاً ، في وقت كان فيه محمد غافلاً كلياً عن قدره المرسوم ، وعن مصيره المهيأ له من (أولياء أمره) القس ، والعم ، والزوجة خديجة .

إذن اتخذ ورقة قراره الحاسم ، وصمم أن يرسم محمداً نبياً ، بعدما

(١) قس ونبي : ص ٣٨.
(٢) قس ونبي : ص ٣٨.

توفرت لديه سبل النجاح ، وأسباب التوفيق . .

فالدهاء ، والخبرة ، والحنكة المطلوبة متوفرة في ورقة ، والجاه ، والمال مكدس في خزائن خديجة ، كما أخبرنا ، ولولا كلمته الغامضة المبهمة :

«وقع النبي على ما يبدو وقعة إلاهية بين يدي أولياء أمره»[1] .

لولا هذه الجملة ـ الفجوة ـ لكان طيراننا مع العروسين محمد وخديجة ، هادئاً ، سعيداً .

وحبذا لو أراح المؤلف أعصابنا ، وأنار أذهاننا ، ففسر لنا قصده من (الوقعة الإلهية) فمتى وكيف تكون الوقعة (إلهية) ومتى لا تكون كذلك ؟

كلمة أخرى في هذا النص لم نفهم قصده منها ، حين قال :

«هو الذي أبرم العهد»

يقصد ورقة

«وشهد عليه ، وأعلن على الحضور ما جرى»[2].

فماذا أعلن ورقة ، وما الذي جرى ؟

أيكون قد أعلن أثناء حفل الزواج نبوة محمد ؟

فالتقط الحريري المزعوم الخبر العظيم ، وزفه لنا ، رغم جهل التاريخ به ، وسكوته عنه ؟

نصل أخيراً بقطار هذيانه إلى المحطة ـ الهدف ـ إلى غايته الحقيقية ، التي من أجلها خاصم الصدق ، وماشى البهتان ، وتقنع وقبع في الظلام .

من أجل أن يقول ، إن محمد نصراني ، مراده أن يقول : زواج نصراني ، وفق الطقوس النصرانية ، بواسطة قس نصراني ، يعني أن الزوجين نصرانيان .

---

(١) قس ونبي : ص ٣٨.

(٢) قس ونبي : ص ٣٨.

لقد حمّل موضوع زواج محمد من خديجة أكثر مما يستحق ، رغم أنه بالنسبة للمسلمين حدث مبارك وكبير ، كان له كبير الأثر في حياة النبي ، ومسيرة دعوته ، لما كانت تتمتع به خديجة من مزايا طيبة ، وصفات حميدة ، ساعدت النبي في تذليل الصعاب ، وإزالة العقبات من طريق دعوته ، كما كانت خير زوجة ، وأوفى شريكة حياة وجهاد ، وأول من آمن بنبوة محمد وصدقها .

ولكن حشر ورقة في أمر هذا الزواج ، جاء سخيفاً مبتذلاً ، لأن الثابت ، أن ورقة حضر هذا الحفل فقط ، لكونه ابن عم خديجة ، وأكبر المسنين في عائلتها ، والعادات تفرض أن يتصدر مثل هذه المناسبات كبار السن في العائلتين ، لا أكثر ولا أقل .

في الصفحة ٣٩ قال :

«خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت» .

وهو بذلك ، يريد إثبات نظرية نصرانية الزواج والزوجين ، وإلّا لكان النبي بنظره قد تزوج عليها في حياتها ، بينما الصحيح ، هو أن محمداً الفقير مادياً ، كان يفتش عن الاستقرار عله يرتاح من فقره ، ويريح عمه أبا طالب الشهير بفقره وكثرة عياله ، ومحمد اليتيم المفتقد إلى الحنان والعاطفة ، ومحمد المفطور على الوفاء ، والاستقامة ، والصدق ، وجد بهذا الزواج من خديجة استقراره المادي ، وحنانه المفقود ، فثبت عنده ، وأخلص له ، واستقر عليه ، إذ كانت خديجة الزوجة الوفية ، والأم العطوف ، والاستقرار المادي المنشود .

وكان بيتهما واحة سعادة واستقرار ، فلماذا والحالة هذه يتزوج على خديجة في حياتها ؟

وماذا ينشد من زواج آخر ، أكثر مما أمنته له خديجة ؟

لهذه الأسباب لا لغيرها ، امتنع محمد عن زواج ثان بحياة خديجة ، وليس بسبب نصرانية مزعومة ألصقها المؤلف بهما بهتاناً .

يعود الحريري دائماً إلى إبريق الزيت ـ الزواج ـ فقال :

«وهو زواج دبره القس ورغب فيه ، قبل أن ترغب هي ، بدليل أنه أجاب أهل محمد وهم يطلبون يدها : ورغبتنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم»[1] .

فهو يريد هنا أيضاً أن يثبت ويؤكد ، بأنه كان زواجاً مرسوماً ، مخططاً له من ورقة ، بداية ونهاية ، حتى أن طرفي الزواج نفسيهما ، دفعا إليه دفعاً .

ولكن الوقائع التاريخية تكذب قوله وتسفه زعمه ، لأنها أثبتت أن خديجة بالذات ، هي التي خطبت محمداً لنفسها ، وهي التي أبلغته رغبتها به ، بواسطة وصيفتها نفيسة .

فكيف يكون ورقة ، قد دبر الأمر ورغب به قبلها ؟

وإجماع أهل الأخبار حول تفاصيل هذا الزواج يدحض مزاعمه .

ابن الأثير قال : «كانت خديجة امرأة عاقلة ، شريفة ، أرسلت إلى رسول الله ، فعرضت عليه نفسها»[2] .

الدكتور حسن إبراهيم حسن قال :

«قالت خديجة لمحمد ، يا ابن عم إني رغبت فيك لقرابتك ، وسلطتك في قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك»[3] .

الطبري قال :

«قالت يا ابن عم ، إني رغبت فيك لقرابتك ، وحسن خلقك ، ثم عرضت عليه نفسها»[4] .

---

(١) قس ونبي : ص ٣٩.
(٢) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٣٩.
(٣) تاريخ الإسلام السياسي : ج ١ ص ٧٦.
(٤) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٣٥.

ابن سعد قال :

«عندما ذهبت نفيسة وأبلغت قبول محمد على الزواج ، أرسلت إلى عمها عمر بن أسد ليزوجها»[1] .

أما جواب ورقة لأهل محمد حينما طلبوا يدها ، هذا القول لا يخدم مزاعم الحريري بشيء ، وذكره جاء حشواً رخيصاً ، فالإطراء المتبادل ، وعبارات التبجيل في هذه المناسبات بين العائلتين عادة قديمة ، لا تزال متداولة حتى يومنا هذا .

فأين الغرابة في ذلك ؟

لقد أمضى الساعات الطوال ، وهو يدفعنا باتجاه الاقتناع ، بأن زواج محمد من خديجة ، ما كان إلّا نتيجة لمخطط رباني ، وقعة إلهية ، قدر مرسوم ، جزء من خطة رسمها القس ، بالتعاون مع خديجة وأبي طالب، كي يكون هذا الزواج مقدمة لحدث عظيم .

ولكننا فجأة في الصفحة ٤٠ من كتابه نراه يغير ويبدل ، فيقول :

«لن ندرك الآن مقصد القس في ذلك أي - في الزواج - لعله ، وهو الأبيوني المذهب ، يريد الاهتمام باليتيم الفقير محمد ، ولعله وهو قس مكة ، يريد خليفة له من بعده ، أو يريد قائداً أو سيداً على قريش كما كان هو»

أي تناقض فاضح !! في كل الصفحات ، ظل يعاند ويكابر ، ليقنع القارىء بأن ورقة كان يهيء محمداً للنبوة العتيدة ، والرسالة المقررة ، ومن أجل ذلك واكبه ٤٤ سنة تعليماً وتدريباً ، ومن أجلهما علم ، وثقف ، وفقّه ، وزوج . . فما باله الآن ينقلب على نفسه ويلحس توقيعه ؟ . . فلم يعد متحمساً لا للنبوة ولا للرسالة . .

---

(١) الطبقات الكبرى: ج ٢ ص ١٣١ .

حتى الـزواج ، لم يعد القـرار المخطط ، ولا الـوقعة الإلهيـة ، ولا القـدر المرسوم ، بل أصبح له دافع آخر ، أصبح شفقة على فقير ، وعـطفاً على يتيم ، وعملاً إنسانياً من منطلق أبيوني .

وقبل أن نترك الصفحة ٤٠ من كتابه لا بد لنا من الوقوف قليلاً أمام قوله :

«ويلاحظ أخيراً ، دخـول محمد نفسـه في تدابيـر القس ، فتى في الخـامسة والعشـرين من عمره ، يتـزوج من امـرأة تجاوزت الأربعين ، وأرملة لرجلين قبله ، وأم لعدّة أولاد .
هذا الشاب مهما كان جريئاً ، لا تخطر بباله (وهو الخـادم) أن يتـزوج من سيـدتـه ، التي شفقت بـه واستخـدمتـه في تجارتها .
ولن يكـون لمحمد ذلـك ، لولا دافـع دبره لـه المناسب ، ومن يكون هذا الدافع غير القس ؟ فلولا القس لما كـان ما كان ، ومتى أراد القس شيئاً كان» .

فهو يزفر كل حقده ضد النبي ، محاولاً تحقيره وتصغير شأنـه كيفما كـان ، فنـراه يتقصد القـول : وهو الخـادم (وسيدتـه خديجـة) خادم وسيدته، والمقصـود واضح .

ولكن المسلمين فخورين ، بأن نبيهم كان يعمل بأجر لدى خديجـة ، فتبوأ بصفاته الحميدة ومزاياه النبيلة عقلها ، وقلبها ، فاختارته مشيحة عن فقره ويتمه .

وإن كنا لا نفهم منه ، من كان بنظره في هذا الزواج من الزوجين مغبونـاً ، ومن كان فيه رابحاً ؟

امرأة تجاوزت الأربعين على غنى وأخلاق ، أم فتى في الخامسة والعشرين على فقر ومزايا . . ؟

في الصفحة ٤١ قال :

«بعد أن ارتبط مصير محمـد بمصير خـديجة ، انحلت من

مخطط القس عقد كثيرة ، لقد وقع النبي في قبضة القس وقعة إلهية ، لقد تمت الخطوة الأولى بنجاح ، ووضعت ثرية قريش كل مالها في تنفيذ رغبات ابن عمها ورقة ، وتعاون الاثنان بما لهما من خبرة ، ودهاء ، وجاه ، ومال ، على إعداد النبي للرسالة المقررة ، وسار القس به على طريق النجاح المكفول . . » .

ويفهم مما قاله ، أن ورقة كان ينتظر حتى تستقر ابنة عمه خديجة في بيتها الجديد ، ويتأكد من صون زوجها لها ، حتى يقدم له المكافأة ـ المفاجأة ـ التي عمل وخطط لها بصبر وأناة طيلة ٤٤ سنة ، ولو فشل هذا الزواج ـ لا سمح الله ألف مرة ـ أو تخاصم محمد وزوجه ، كما يحدث عادة بين الأزواج لتغير وجه التاريخ ، ولربما ما كانت نبوة لمحمد ، ولا رسالة للعالمين .

ولكن ربك لطيف بعباده . .

المهم أن محمد بعد الزواج الناجح ، نال رضى ورقة ، ودخل غار حراء ، ليخضع هناك لدورة تدريبية على يد ورقة ، بالطبع ، تؤهله كي يصبح بعدها . . نبياً .

وهذا واضح في قوله :

«وهناك تدرب النبي على يد القس الخبير بشؤون الله والناس»[1] .

ثم أضاف :

«إن محمداً وقع في قبضة القس وقعة إلهية» .

أصبحنا نعرف أن الحريري المقنع متيم بالصرعات الكلامية ، ويبدو أن (الوقعة الإلهية) من أحبها إلى نفسه .

---

(١) قس ونبي : ص ٤١ .

أمية الرسول حقيقة وهذه براهين عليها

عبّر المبشر جون تاكلي Jhon Taklet ، عن الشعور أو عن الموقف المسيحي العام من الإسلام ، ومن القرآن بوجه خاص ، عندما قال :

«يجب أن نستخدم كتابهم - أي القرآن - وهو أمضى سلاح في الإسلام ، ضد الإسلام نفسه لنقضي عليه تماماً .

يجب أن يرى هؤلاء الناس ، أن الصحيح في القرآن ليس جديداً ، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً»(١) .

وإذا كان تهديم الدين الإسلامي ، بالنسبة لهذا المبشر أمر حيوي ومهم ، وغاية أساسية ، ومهمة مقدسة ، يرى أن تستعمل المسيحية لتنفيذها شتى الوسائل والطرق ، بما فيها وأهمها التشكيك بما لدى الإسلام من مبادىء وتعاليم ، وأهمها القرآن بالطبع ، ليتحقق الهدف «المقدس» مهما طال الوقت وتكثف الجهد .

فإن المبشر جسب Jesp يرى الأمر نفسه ، ولكن بصورة أكثر إلحاحاً واستعجالاً ، وأشد لهفة لرؤية الإسلام ، وقد تقوض أساسه ، وانهار بنيانه ، وامحى أثره من الوجود ، فنراه يختصر معاناته ، ويختزل أحقاده ومواقفه العدائية من الإسلام ، بطلب فج وقح ، فيقول :

---

(١) التبشير والاستعمار : ص ١٢٠ .

«يجب أن يمحي الإسلام من العالم»[1] .

القرآن ، هو المعقل الرئيسي الذي يتحصن به المسلمون ، حفاظاً على وحدتهم ، وهو الحلقة الأكثر صلابة وتماسكاً في البنية الإسلامية ، إذ لولاه لما كان إسلام ولا مسلمون .

فإذا استطاع المؤلف تفكيك هذه الحلقة الصلبة ، هان عليه بعدها كل شيء . .

وبعد القرآن ، أو معه تأتي معجزة أمية النبي ، المؤكدة لسماوية القرآن وقدسية تعاليمه .

وعليها يركز معوله الهدام وقلمه الخبيث ، فقال :

«وما آية النبي الأمي الواردة في القرآن ، إلاّ لتعني شيئاً آخر غير الذي يقصده المذهولين»[2] .

وأضاف :

«وأما العلم الذي كان يجهله ثم تعلمه ، فهو علم الكتاب المنزل ، أي علم الإلهيات ، والروحانيات ، والتشريع ، وهو العلم الذي اكتسبه محمد من لدن خبير حكيم»[3] .

ومعروف أن (الحكيم الخبير) بنظره ليس الله ، وإنما ورقة بن نوفل .

وتابع يقول :

«والدليل الثاني على معرفة محمد بالقراءة والكتابة من دعوة جبريل للنبي في السورة الأولى من تاريخ نزول القرآن فيها يدعو الملاك جبرائيل محمد .

---

(١) التبشير والاستعمار : ص ١٢٠ .

(٢) قس ونبي : ص ٤٦ .

(٣) قس ونبي : ص ٤٦ .

اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق .
ولولا معرفة محمد بالقراءة ولولا صحة ما جاء في الآية لما
اتفق الجميع على سرد الوقيعة»[1] .

فالمؤلف هنا كما هو واضح ، يريد الطعن بأمية النبي ، كمعجزة من معجزات نبوته ، كمقدمة للطعن بنبوته وبسماوية القرآن .

ولذلك نرى ، أن لا بد من بحث موضوع أمية الرسول ، ببعض التوسع والتفصيل .

إن أمية النبي موضوع جرّدت من أجله الأقلام ، وتعددت حوله الآراء ، واختلفت فيه الأبحاث ، فمن تعاطاه بحثاً وتدقيقاً ، واحد من اثنين .

١ ـ معاد للإسلام ، لا هم له من بحثه سوى التشويه ، غريزته مقود تفكيره ، وحقده الأعمى دليل طريقه ، فأساء القصد ، وأضل السبيل .

٢ ـ أو باحث لا هم له سوى الحقيقة ، دون جنوح إلى عاطفة ، أو ميل نحو انتماء . العقل سراج بحثه ، والتجرد شعار عمله ، فأحسن القصد ، وأجاد العطاء ، وهو من نحتاج إلى رأيه وبه مقتدون .

وما يشغل بال الحريري في أمية النبي ، هو كونها معجزة من معجزات النبوة ، وإحدى البراهين على سماوية القرآن ، ليس إلاّ ، ولذلك فهو يصارع كل شيء للوصول إلى تحطيمها ، ورفضها ، وصولاً لتحطيم القرآن .

فيقول بما معناه :

«إن آيات النبي الأمي ـ أو ـ وأرسلنا من الأميين نبياً ،
وسواهما من الآيات ، لا تعني جهل النبي بالقراءة

---

(١) قس ونبي : ص ٤٧ .

والكتابة ، وإنما تعني تعريفه بشخصيته الاجتماعية ، كونه
ينتمي إلى فئة من المجتمع تسمى بالأميين ، وهم
العرب ، فيما كان اسم الكتاب يطلق على اليهود»[1] .

ولا بد لنا قبل مناقشة موقفه الرافض لأمية النبي ، من أن نعود إلى القرآن الكريم ، لنستطلع الأمر منه ، ونعيد التبصر بروية وتمعن بالآيات التي وردت فيها كلمة (أمي) علنا بتجرد وموضوعية نصل إلى وضع الأصبع على الجرح ، في موضوع دقيق حساس ، كموضوع أمية النبي .

مجموع ما جاءت فيه كلمة (أمي) في القرآن الكريم ، ست آيات نستعرضها ، وتفسيرها بما يلي :

الآية الأولى من سورة الأعراف :

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾[2] .

والآية الثانية :

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلاّ هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾[3] .

في الآية الأولى نبأ عظيم ، يشهد بأن بني إسرائيل ، قد جاءهم اليقين

---

(١) قس ونبي : ص ٤٧ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية/ ١٥٧ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية/ ١٥٨ .

بالنبي الأمي ، على يدي نبيهم موسى ، ونبيهم عيسى ، منذ أمد بعيد .

جاءهم الخبر اليقين ، ببعثته ، وبصفاته ، وبمنهج رسالته ، وبخصائص ملته ، فهو النبي الأمي .

وفي الآية الثانية يوجه الخطاب إلى النبي الأمي ، يأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعاً .

الآية الثالثة من سورة آل عمران :

﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟﴾[1] .

جاءت اللفظة هنا بصيغتها الجماعية (الأميين) ، تساوي الآية بين المشركين وأهل الكتاب ، فالأميون هنا العرب المشركون ، الذين لا يجيدون قراءة ولا كتابة ، فهم وأهل الكتاب سواء ، مدعوون إلى الإسلام .

والآية الرابعة من سورة الأعراف :

﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلاّ ما دمت عليه قائماً . وذلك أنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[2].

منهم ـ من أهل الكتاب ـ أمناء ، ومنهم خونة ، طامعون ، مماطلون ، لا يردون حقاً وإن صغر ، إلاّ بالمطالبة والإلحاح والملازمة ، ثم هم يترجمون ويفلسفون هذا الخلق الذميم ، بالكذب على الله عن علم وقصد ، وهذه صفتهم بالذات ، صفة اليهود الذين يجعلون للأخلاق مقاييس متعددة . .

فالأمانة تكون بين اليهودي واليهودي ، أما غير اليهود ، ويسمونهم

---

(١) سورة آل عمران ، الآية/ ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران، الآية/ ٧٥.

الأميين ، وكانوا يعنون بهم العرب ، وهم في الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود ، فلا حرج على اليهودي في أكل أموالهم وغشهم وخداعهم ، ويلاحظ أنها المرة الثانية التي تأتي بها اللفظة بالصيغة الجماعية .

الآية الخامسة من سورة الجمعة :

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[1] .

جاء في (ظلال القرآن) لسيد قطب وفي مجمع البيان للطبرسي تفسير هذه الآية كالآتي :

«قيل إن العرب سموا بالأميين ، لأنهم لا يقرأون ولا يكتبون في الأعم الأغلب ، وسمي من لا يكتب أمياً ، لأنه نسب إلى حال ولادته من الأم ، لأن الكتابة إنما تكون بالاستفادة والتعلم ، وربما سموا كذلك كما كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم (جوييم) باللغة العبرية ، أي أمميون نسبة إلى الأمم ، بوصفهم شعب الله المختار ، وغيرهم هم الأمم ، ولقد كان اليهود ينتظرون مبعث الرسول الأخير منهم ، فيجمعهم بعد فرقة ، وينصرهم بعد هزيمة ، ويعزهم بعد ذل .

وكانوا يستفتحون بهذا على العرب ، أي يطلبون الفتح بذلك إلى النبي الأخير ، ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبي من العرب ، من الأميين غير اليهود»[2] .

---

(١) سورة الجمعة، الآية/ ٢ .

(٢) في ظلال القرآن: ومجمع البيان للطبرسي: ج ٩ ص ٤٢٨ .

الآية السادسة من سورة البقرة :

﴿ومنهم أميـون لا يعلمون الكتـاب إلا أمـاني وإن هم إلاّ يظنون﴾[1] .

فسرها الطبرسي وسيد قطب بما يلي :

«تحدثت الآيات التي قبلها عن بني إسرائيـل ، ثم يستطرد النص القـرآني ، فيقص على المسلمين من أحـوال بـني إسرائيل : أنهم فريقان :

فريق أمي ، جاهـل لا يدري شيئاً من كتابهم الـذي نـزل عليهم ، ولا يعرف منه إلاّ أوهاماً وظنـوناً ، وإلاّ أمـاني في النجـاة من العـذاب ، بمـا أنهم شعب الله المـختـار ، المغفـور له كـل ما يعمـل ، وما يـرتكب من آثام . وفـريق يستغل هذا الجهل وهذه الأمنية ، فيزوّر على كتـاب الله ، ويحـرف الكلم عن مواضعـه بالتـأويلات المفـرقة ، ويكتم منه ما يشاء ، ويبدي منه ما يشـاء ، ويكتب كلامـاً من عند نفسه يذيعه على الناس ، باسم أنه من كتاب الله .

كل هذا ليربح ويكسب ، ويحتفظ بالرياسة والقيادة»[2] .

هذه هي الآيات التي تحدثت عن كلمة (أمي) (وأميين) . وقد فسرهـا أئمة اللغة العارفون بها بمعنى : عدم القراءة والكتابة .

فالطبرسي قال :

«الأمي عند العرب هـو الذي لا يكتب لأمـه ، لأن الكتاب كان في الرجال دون النساء ، فنسب من لا يخط ولا يكتب

---

(١) سورة البقرة، الآية/ ٧٨.

(٢) مجمع البيان: ج ١ ص ٢٨٦ .

من الرجال إلى أمه في جهله بالكتابة دون أبيه . . »[1] .

أما أبي حيان الأندلسي في البحر المحيط ، فقال :

«الأمي الذي لا يقرأ في كتاب ولا يكتب ، نسب إلى الأم ، لأنه ليس من شغل النساء أن يكتبن ويقرأن في كتاب»[2] .

سيد قطب والطبرسي قالا :

«العرب سموا بالأميين ، لأنهم لا يقرأون ولا يكتبون»[3] .

وخلاصة ما نستنتجه من معاني كلمة (أمي) في القرآن تصنف كما يلي :

١ ـ وردت كلمة (أمي) بلفظها المفرد مرتين في القرآن الكريم ، وكلتاهما وصف للرسول بالأمية ، التي تعني عدم القراءة والكتابة ، وسياق النص يؤكد المعاني اللغوية للكلمة .

٢ ـ وردت الكلمة بصيغة الجمع (الأميون) أربع مرات في القرآن الكريم ، موزعة كما يلي :

المرة الأولى : وصفاً لليهود ﴿**منهم أميون لا يعلمون الكتاب إلّا أماني**﴾ .

والمرات الثلاث : في وصف العرب . وعلى هذا كله ، فكلمة أمي تأتي بمعنى :

(أ) من لا يجيد القراءة والكتابة .

(ب) غير اليهود من الأمم .

---

(١) تفسير الطبري : ج ١٢ ص ٢٩٦ .
(٢) البحر المحيط : ج ١١ ص ٢٦٩ .
(٣) في ظلال القرآن : ج ٨ ص ٩٣ .
ومجمع البيان : ج ٥ ص ١٩٦ .

(جـ) الأمة قبل أن تتعلم ، فتكون على جبلتها الأولى ، التي خلقت عليها .

(د) ينطبق عليها المعنى اللغوي الراجح ، والأصل للكلمة بمعنى عدم القراءة والكتابة ، وهذا مؤيد بسياق النص أيضاً .

(هـ) تبقى الكلمة ، إشارة واضحة إلى المعجزة التي جاء بها رسول الله ، تدعو الناس إلى الإيمان به واتباعه .

نسأل الحريري :

لماذا سمي العرب بالأميين أساساً ؟ أليس لأنهم لا يقرأون ولا يكتبون ؟

ولماذا سمي أولئك بالكتاب ، أليس لأنهم يقرأون ويكتبون ؟

فسواء كانت كلمة أمية الواردة في القرآن تعني أمية النبي فعلاً ، أو أنها عنت ما ذهب إليها الحريري .

فالنتيجة بالحالين سواء ، لأن هؤلاء ما عرفوا بالأميين ، إلّا لأنهم أميون ، والنبي واحد منهم . . من ناحية أخرى هل كانت (الأميين) تسمية حصرت بالعرب ، بحيث لم تشمل كل من جهل القراءة والكتابة ، سواهم من اليهود والنصارى ؟

وهل تسمية (الكتاب) كانت حكراً على هؤلاء ، فلم تشمل العرب القارئين الكاتبين ؟

الجواب على هذا السؤال نجده واضحاً في الآية التالية :

﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون﴾[1] .

ومتى عرفنا ، أن هذه الآية موجهة بصراحة ووضوح إلى اليهود ، التي جعلتهم فريقين :

---

(١) سورة البقرة، الآية/ ٧٨.

فريقاً (أميون) لا يعلمون من الكتاب إلا أماني .
وفريقاً يستغل هذا الجهل ، ويزور كتاب الله .

لأدركنا ، أن الأمية صفة لم تكن مقتصرة على العرب ، وإنما شملت كل جاهل بالقراءة والكتابة ، حتى ولو كان نصرانياً أو يهودياً .

وهذا يؤكد ، بأن الأمية التي ذكرها القرآن وعناها ، ليست بمعنى تعريف بشخصية محمد الاجتماعية ، وإنما هي تعبير عن حالة ، هي حالة جهل النبي للقراءة والكتابة .

أمر آخر لا بد من التنويه به ، هو أن تخصيص التسمية بالعرب ، وحصرها بهم ، يعني أن هؤلاء كانوا معروفين بإسمين : أميين وعرب بنفس الوقت .

ويمكن مناداتهم بهذه أو بتلك ، فإن قلنا الشعب العربي ، فكأننا نقول الشعب الأمي ، والعكس صحيح أيضاً ، وهذا أمر مستهجن لم يتحدث عنه مؤرخ ولا باحث ، مما يستوجب رده واستبعاده .

لقد استند المؤلف في رفضه لأمية النبي ، إلى أمور ثلاثة هي :

الأول : إن كلمة (أمي) لا تعني جهالة بالقراءة والكتابة ، وهذه النقطة عالجناها بتوسع .

الثاني : إن جبرائيل كلم النبي ، وقال له (اقرأ) ، فكان ذلك دليلاً بنظر الحريري ، لإثبات معرفة النبي بالقراءة .

الثالث : بأن عاطفة أبي طالب نحو النبي ، وتعلقه المعروف به ، لا يمكنانه حرمان ابن أخيه العلم ، وتمكينه لولده علي .

أما وقد ناقشنا الأمر الأول ، فما علينا إلا مناقشة الأمرين الآخرين .

بالنسبة لطلب جبرائيل إلى النبي أن **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾**[1] هذا

(١) سورة العلق ، الآية/ ١.

الأمر يدفعنا للحديث عن كيفية ظهور جبرائيل على النبي ، أكان روحياً أم مادياً ؟

وبالتالي ، أكان طلب القراءة إليه بمعناه الروحي ، أي بمعنى اسمع يا محمد ، وردد ، واستوعب باسم ربك كلام ربك الذي أحمله إليك ؟ أم بمعناه المادي ؟ أي بمعنى أن يكون جبرائيل قد حمل إلى النبي صحفاً مكتوبة ، دسها إليه ، ثم طلب إليه أن يقرأها باسم ربه .

وهذا مستبعد تماماً ، لأنه لو كان الأمر كذلك ، لكان بإمكان الناس جميعاً رؤية جبرائيل بأعينهم ، كما رآه محمد .

فالمنطق والعقل السليم يدفعان باتجاه اليقين ، بأن يكون الوحي قد نزل على النبي روحياً ، والقراءة المطلوبة من النبي كانت بمعنى فهم ، واستيعاب ، وترديد كلام الله ، المنقول إليه بواسطة جبريل ، بمعناه الروحي أيضاً .

ولا دخل لها بمعرفة محمد بالقراءة والكتابة ، أو عدمها ، كما لم تعد والحالة هذه معرفة النبي بهما شرطاً ، لكي يقرأ أو يستوعب الوحي الإلهي .

الدكتورة ناديا شريف العمري عرفت الوحي ، فقالت :

«الوحي ، بمعنى إلقاء الله تبارك وتعالى الكلام ، أو المعنى في نفس الرسول بخفاء وسرعة ، وظاهرة الوحي مرافقة للنبوة ، وهي خارقة للعادة»[1] .

وعليه فإن استناد **صاحب اللقيط** على تفسيره المغلوط للآية ، وجهل مقاصدها الحقيقية ، لا يكفي لإثبات معرفة النبي بالقراءة والكتابة ، ورفض معجزة أميته .

بقي الأمر الثالث ، وهو أن أبا طالب من حبه لمحمد ، وتعلقه به ، لا يقبل أن يجعل العلم ممكناً لولده علي ، ويحرمه لابن أخيه محمد .

---

(١) أضواء على الثقافة الإسلامية : ص ٧٨.

لمناقشة هذا الأمر ، لا بد لنا من العودة إلى طفولة النبي ، إلى الجو العائلي ، والفكري ، والاقتصادي ، والاجتماعي الذي عاش وسطه ، وإلى البيئة العائلية القلقة التي قضى طفولته وسطها ، متنقلاً من كنف إلى كنف ، ومن يد إلى يد ، ومن بيت إلى بيت ، حتى كاد لا يعرف من كان فعلاً ولي أمره في طفولته ، وظل أمره كذلك حتى صار يافعاً فشاباً .

ثم نتساءل بعدها : هل أن أمية محمد وسط هذه الطفولة المضطربة ، وحياته القلقة مستبعدة ومستغربة ؟ لقد أبصر النبي النور وعيناه لم تبصرا والده ، الذي مات قبل أن تلده أمه .

وماتت أمه آمنة ، وهو لا يزال طفلاً ، فعهد به إلى مرضعة ترضعه ، رفضته بداية لفقر أهله ، ثم أرضعته حليمة لا لأجل كسب مادي ، وأهله لا حيلة لهم على الدفع السخي المغري ، وإنما شفقة وعطفاً ، ثم كفله جده عبد المطلب ، الذي كان في عمر بدأت شمسه بالمغيب .

وعندما مات الجد ، كان النبي لا يزال صبياً صغيراً ، فتعهده عمه أبو طالب ، المعروف بفقره ، وكثرة عياله ، وعندما أصبح النبي يافعاً ، كان فقر عمه دافعاً له أن يشتغل في رعاية الإبل والغنم ، ولا نعرف كم من الوقت قد رعى .

وعندما أصبح النبي في السنة الثالثة عشرة من عمره ، صحبه عمه أبو طالب إلى الشام ، ليساعده في التجارة ، وبعدما رجع النبي من الشام بسنوات قليلة ، صمم أن يتحمل عن عمه بعض أعباء عائلته الكبيرة ، فعمل عند خديجة ، وكان عمره آنذاك لا يتعدى العشرين سنة .

وكان ابن عمه علياً لا يزال طفلاً صغيراً ، وعندما اشتد الفقر على أبي طالب ، وعض العوز بأنيابه على عياله ، اجتمع الأقربون من بني عبد المطلب وقرروا مساعدة كبيرهم أبي طالب ، فتوزعوا أولاده فيما بينهم ، فكان علي من نصيب محمد ، ومذّاك عاش معه وتربى في كنفه .

وعندما تزوج النبي من خديجة ، وتحسنت أوضاعه المادية ، انتقل علي

الأمر يدفعنا للحديث عن كيفية ظهور جبرائيل على النبي ، أكان روحياً أم مادياً ؟

وبالتالي ، أكان طلب القراءة إليه بمعناه الروحي ، أي بمعنى اسمع يا محمد ، وردد ، واستوعب باسم ربك كلام ربك الذي أحمله إليك ؟ أم بمعناه المادي ؟ أي بمعنى أن يكون جبرائيل قد حمل إلى النبي صحفاً مكتوبة ، دسها إليه ، ثم طلب إليه أن يقرأها باسم ربه .

وهذا مستبعد تماماً ، لأنه لو كان الأمر كذلك ، لكان بإمكان الناس جميعاً رؤية جبرائيل بأعينهم ، كما رآه محمد .

فالمنطق والعقل السليم يدفعان باتجاه اليقين ، بأن يكون الوحي قد نزل على النبي روحياً ، والقراءة المطلوبة من النبي كانت بمعنى فهم ، واستيعاب ، وترديد كلام الله ، المنقول إليه بواسطة جبريل ، بمعناه الروحي أيضاً .

ولا دخل لها بمعرفة محمد بالقراءة والكتابة ، أو عدمها ، كما لم تعد والحالة هذه معرفة النبي بهما شرطاً ، لكي يقرأ أو يستوعب الوحي الإلهي .

الدكتورة ناديا شريف العمري عرفت الوحي ، فقالت :

«الوحي ، بمعنى إلقاء الله تبارك وتعالى الكلام ، أو المعنى في نفس الرسول بخفاء وسرعة ، وظاهرة الوحي مرافقة للنبوة ، وهي خارقة للعادة»[1] .

وعليه فإن استناد **صاحب اللقيط** على تفسيره المغلوط للآية ، وجهل مقاصدها الحقيقية ، لا يكفي لإثبات معرفة النبي بالقراءة والكتابة ، ورفض معجزة أميته .

بقي الأمر الثالث ، وهو أن أبا طالب من حبه لمحمد ، وتعلقه به ، لا يقبل أن يجعل العلم ممكناً لولده علي ، ويحرمه لابن أخيه محمد .

---

(١) أضواء على الثقافة الإسلامية : ص ٧٨.

فالأمية كانت متفشية في مكة ، لدرجة أنها كانت السمة التي تجمع بين شباب كل العائلات ، حتى أن العرب عرفوا بهذه الأمية ، وعرفت بهم حسبما زعم المؤلف .

لقد كانت الأمية أمراً طبيعياً ، وظاهرة معروفة في شباب مكة ، وكانت الطبيعة الصحراوية ، والحياة القبلية ، وأنماط العلاقات القائمة آنذاك بين الناس ، كلها تساعد على بقاء الأمية سائدة مقبولة ، بحيث لم يكن الناس في المجتمع البدوي يشعرون بالحاجة للعلم ، أو معرفة قيمته ، أو الحرج من الجهل . . أمستغرب بعد ذلك أن ينشأ النبي أمياً ؟ والأمية تحيط به من كل جانب ؟

أمستهجن أن يشب محمد على غير العلم ، والعلم في زمانه مكلف وقليل ونادر ؟ وهو المتنقل من يتم كامل إلى كفالة متتابعة ، في بيوت يجمع بينها الفقر والعوز ؟

كل الظروف التي عاشها النبي منذ طفولته وحتى نبوته ، تعزز اليقين ، وتقوّي القناعة ، بأن أميته أو جهله القراءة والكتابة ، أمر لا شك فيه ولا ريب .

وقد أقر درمنغام بأمية النبي حين قال :

«إن أبا طالب حين كفل محمد بعد وفاة جده ، لم يكن غنياً ، فلم يتح له تعليم الصبي ، الذي بقي أمياً طوال حياته»[1] .

وتحدث ديورانت حول أمية النبي ، فقال :

«يبدو أن أحداً لم يعن بتعليمه القراءة والكتابة ، ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب في ذلك الوقت ، ولهذا لم

---

(١) من كتاب ماذا حول أمية محمد : ص ٢٠ .

يكن في قبيلته قريش كلهـا ، إلا سبعة عشـر يقرؤون ويكتبون ، ولم يعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه»[1] .

أمر آخر يفيدنا بحثه ، في سياق معالجتنا لأمية النبي ، ذلك أن النبي ظل يبشر بدعوته ، ويناضل في سبيلها مدة ٢٣ سنة ، وطيلة هذه المدة كان يكتب الوحي ، ورسائله إلى الملوك ورؤساء القبائل ، وعهوده ، ومواثيقه ، وقراراته ، بواسطة كتبة معروفين ، كان يكلفهم بهذه المهمة على مسمع ومرأى من أقرانه بالعمر والمعايشة ، والنبي طيلة حياته كان يتصرف في جميع شؤون الدعوة ، على أساس أنه أمي .

فلو كانت أميته ادعاء وزعماً كما ذكر الحريري ، لافتضح أمره على الأقل بين أترابه وأقرانه ، الذين كانوا ولا بد يعرفون أن أميته مزعومة ، وكلهم كان حي يرزق ، عاش وإياهم قبل النبوة ، وعاش وإياهم بعدها .

فكان ذلك كفيلاً أن يفقده ، وإلى الأبد مصداقيته أمامهم .

وكان هذا سيفضحه أمام من علمه القراءة والكتابة ، أمام أهله وذويه ، أمام صحابته وأقربائه ، ومن منهم بعدها سيصدقه في باقي أمور دعوته برمتها ؟

هذا بالإضافة إلى فضحه أمام أعداء الإسلام ، بحيث يكون ادعاؤه الأمية مناسبة طيبة ، وفرصة مؤاتية ، وشاهداً للتشكيك برسالته ، والطعن بمصداقيتها ، وهم يفتشون على مثلها . ولكن الغريب أن شيئاً من هذا كله لم يحدث .

أمر آخر يستدعي الانتباه ، هو أنه لو كان موضوع أمية محمد قد طرح بعد وفاته بزمن طويل ، لكان بالإمكان الشك به واعتباره مدسوساً ومختلقاً .

ولكن الأمر مختلف جداً ، فأمية النبي أمر ذكره القرآن في عدة آيات ، واطلع عليه صحابته ، وأنصاره ، وأعداؤه ، والكارهين له .

---

(١) قصة الحضارة : ج ١٣ ص ٢١.

فلم يحدث أن اعترض عليه صديق ، أو شكك بصحته عدو ، مع سهولة اكتشافه وفضحه .

وإذا كان الحريري ، قد استند في رفضه أمية النبي ، إلى تفسيره المغلوط لآية من آيات القرآن ، إلا أن في القرآن آية واضحة النص ، صريحة المعنى ، تؤكد أمية النبي وتثبتها .

فلماذا لم يفطن لها ولم يتذكرها ؟

والآية هي :

﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾[1] .

---

(١) سورة العنكبوت، الآية/ ٤٨ .

شعائر الإسلام يردها الحريري إلى نصرانية وهمية

في الصفحة ٤٣ من كتابه يفند الحريري بعض برامج (الجامعة الورقية) فذكر منها :

الزهد ـ الانقطاع عن الناس ـ التحنث والتحنف ـ الصيام ـ أعمال البر والإحسان ـ شهر رمضان ـ ثم الطواف في البيت .

والغريب ، أنه اعتبرها عادات نصرانية .

وذلك عندما قال :

«وكلها عادات نصرانية ، لم يكن بوسع محمد أن يكتشفها وحده ، لولا تدربه على يد مرشد خبير كالقس ورقة» .

للتدقيق بهذا الزعم ، لا بد أن نجيب على تساؤلين بتجرد ووضوح .

الأول : هل حقاً كان ورقة بن نوفل «الخبير المرشد» الذي درب النبي على هذه العادات ؟

والثاني : هل هذه فعلًا كانت عادات نصرانية ؟

لقد سبق وعالجنا بتفصيل واف علاقة النبي بورقة ، وأثبتنا بالدليل القاطع ، أن محمداً لم يعرف ورقة في حياته ، إلا في عمر كان ورقة فيه قد أصبح لا يصلح لشيء .

أما حول زعمه ؛ بأن تلك الأمور الروحية والخلقية هي عادات نصرانية ، فإننا نرى أنه لا بد من التوسع في البحث بعض الشيء ، لكي نفي الموضوع حقه .

لا نريد الادعاء ، بأن كل هذه الشعائر إسلامية خالصة ، بمعنى أن الإسلام أوجدها جميعها ، ولم تكن موجودة قبله ، لأن بعضها قديم ، رافق الإنسان في رحلته الطويلة نحو التقدم والحضارة ، صعوداً وهبوطاً ، وتفاوت التمسك بها أو ببعضها ، بين مجتمع وآخر ، وإن كنا نستطيع التأكيد ، أن الإسلام أثبتها ، ونظم ممارستها ، وأوجب التمسك بها ، دون غيره من الأديان ، فالصوم كان في صلب عقيدة الأحناف ، التي سبقت الديانات الثلاثة بزمن بعيد .

كما كان من الشعائر اليهودية المقدسة ، وربما كان الصوم النصراني ، من الإرث اليهودي في النصرانية ، حتى أن الجاهليين عرفوا الصوم بأشكال مختلفة[1] .

وعندما جاء الإسلام ، أقره وأمر به ، واعتبره من صلب العقيدة الإسلامية ، فكيف يكون من العادات النصرانية ؟

الزهد ، والانقطاع عن الناس ، وأعمال البر والإحسان .

هذه من الأمور التي نعدها من الأعراف ، والأخلاق ، والسلوك الاجتماعي ، ولا يمكن ردها إلى دين معين ، لأنها تدخل في صلب مسلكية الإنسان ، الفردية ، والاجتماعية ، يمارسها ، بمعزل عن أي نظام أو عقيدة عامتين ، طالما أنها ليست أحكاماً ، ولا قوانين ، ولا شرائع ، كما لم تكن في يوم من الأيام عادة خاصة ، أو طقس خاص ، في أية ديانة حصراً ، بل كانت في توجه كل الديانات التي تأمر بالخير وتنهى عن الشر .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ٦ ص ٣٤٢.

وعليه ، فلا يمكن ردها إلى ديانة دون أخرى .

وأكثر الذين عرفوا بهذه الخلقية من الزهد ، والانقطاع عن الناس ، والتأمل ، وسواها ، هم الحنفاء ، وممارسة النبي لهذه المسلكية ، كانت على الأغلب بتأثير الحنيفية عليه ، التي كانت تشغل أفكاره ، وتثير إعجابه .

وما هذه العادات ، إلا بعض هذه الحنيفية ورافد من روافدها .

وإلى ذلك أشار اليعقوبي عندما قال :

كانت قريش وعامة ولد معن بن عدنان ، على بعض دين إبراهيم ، يحجون البيت ، ويقيمون المناسك ، ويقرون الضيف ، ويعظمون الأشهر الحرم ، وينكرون الفواحش.[1]

والغريب المستهجن ، أن **الحريري** اعتبر الطواف عادة نصرانية أيضاً .

نسأله :

إذا كان الأحناف قد طافوا حول كعبة ، بناها إبراهيم وإسماعيل صاحباً ديانتهم ، وإذا كان الجاهليون قد قلدوهم ، فطافوا حول الكعبة نفسها ، بعدما ملؤوها بالأصنام ، فحول ماذا كان النصارى يطوفون ؟

فالطواف كما هو معروف ، ارتبط باسم إبراهيم ، وقد مارسه الجاهليون بطرق مختلفة .

واعتبر الطواف في الإسلام من مناسك الحج الواجبة ، ولكن لم يعرف إطلاقاً أن النصارى عرفوه أو مارسوه ، ليصبح عادة نصرانية .

التحنث أو التعبد والتقرب إلى الآلهة : مارسه الجاهليون بأشكال مختلفة ، وربما أخذوا هذه الطريقة في العبادة مما وصل إليهم من ديانة إبراهيم ، ولقد كان النبي يتحنث تيمناً بتعاليم الدين الحنيف ، شهراً من كل

(١) تاريخ اليعقوبي : ج ١ ص ٢٥٤ .

سنة ، يطعم أثناءه من جاءه من المساكين ، ثم يدخل الكعبة ، فيطوف بها سبعاً قبل أن يدخل بيته[1] .

وفي القرآن آيات تؤكد تيمن النبي بدين إبراهيم ، في ممارسة هذه العبادة .

أما التحنف ، أو الميل إلى الحق الذي اعتبره المقنع عادة نصرانية ، فهو من صلب ديانة إبراهيم ، وركيزة من ركائزها ، وبالتالي فهو من صلب العقيدة الإسلامية ، طالما أن الإسلام هو دين إبراهيم الحنيف ، ولا علاقة للنصرانية به من قريب أو بعيد ، فكيف يكون عادة نصرانية . . . ؟

(١) الطبري: ج ٢ ص ٣٥٠.

ما يبحث عنه حقيقة هو : تقويض الإسلام

في الصفحة ٥٠ من كتابه يفاجئنا بقوله :

«كان محمداً أحسن من درس وتعلم من العرب الكتاب ، الذي بعثه الله إليه ، ومعرفة محمد بهذا العلم ، لا تقلل من دوره الرسولي ، لأن الله إذا ما اختار إنساناً لرسالة ما ، وفر له المعطيات البشرية المناسبة لأداء هذه الرسالة» .

والواضح أنه يتخبط بتناقض مفضوح ، فهو في محاولته المحمومة لتحطيم معجزات النبي ورفض نبوته ، نراه يعترف بهذه النبوة ، ويؤكد سماوية الرسالة من حيث لا يقصد . عندما قال :

«أحسن من تعلم من الكتاب الذي بعثه الله إليه» .

إلا أنه لم يوضح عما قصده (بالمعطيات البشرية) هل قصد بها الإمكانات والطاقات الذاتية ، التي امتلكها النبي ، فمكنته من تحمل أعباء الرسالة ؟

أم قصد بها ورقة وخديجة ، اللذين كانا وراء نبوته ورسالته ؟ فمدّاه **(بالخبرة والحنكة والدهاء ، والمال ، والجاه ، والجمال كما زعم؟)** .

في الصفحة ٥١ قال :

«لم يخف القس مقاصده ، فيما دبر لمحمد ، منذ أن تعرف عليه .

ولم يخف كتاب السيرة مقاصد القس هذه ، لقد أدركوها وعرفوا ما أدركوا وحاولوا تجنب خطره ، وما تجنبوه كان إثباتاً خطيراً لما نبحث عنه .

لقد حاولوا إثبات نبوة محمد ، بينما هم في الحقيقة يثبتون نبوة القس ، حاولوا إرجاع كل شيء إلى الله ، وهم في الواقع يثقون بقدرة القس ثقة عمياء .

بحثوا في علاقة محمد بالله ، فإذا هم يعلقون محمد بالقس .
وأنت تدرك ذلك ، عندما تسمع الإعلان تلو الإعلان ، يطلقه القس على محمد ونبوته العتيدة .
وعندما تسمع تنبؤات القس على مستقبل محمد ، تظن أن كتبة السيرة يطلقون ذلك للدلالة على قدرة القس ودوره الخطير ، فيما هم يظنون التدليل على نبوة محمد ، ولا غرابة في الأمر والقس قادر على كل شيء ، في كل حال» .

وقبل مناقشة هذيانه لا بد من طرح بعض الأسئلة .

قال :

«لم يخف القس مقاصده ، فيما دبر لمحمد ، منذ أن تعرف عليه» .

نسأل: ماذا عنى بذلك ؟ هل جهر ورقة لمحمد بمقاصده نحوه ؟ أم أنه كاشف آخرين بها ؟ ومن هم هؤلاء ؟
قال :

«لم يخف كتاب السيرة مقاصد القس هذه»

ولكنه لم يورد اسماً واحداً من كتاب السيرة أو المؤرخين ، على اختلاف

مذاهبهم وميولهم ، تحدث عن مقاصد ورقة المزعومة نحو النبي .

فخارج استشارة خديجة لورقة ، بشأن العوارض التي كانت تنتاب النبي ، هذا إذا كانت حدثت فعلاً ، ودخول ورقة بناء لتكليف خديجة وسيطاً لدى والدها ، في موضوع زواجها من النبي ، خارج هذين الأمرين ، لم يتحدث أهل الأخبار عن أية علاقة أو دور لورقة ، في نبوة محمد ورسالته .

فكيف يكون أهل السيرة على علم بالمقاصد المزعومة ؟

قال :

«حاولوا تجنب خطره ، وما تجنبوه كان إثباتاً خطيراً لما نبحث عنه ، لقد حاولوا إثبات نبوة محمد ، فيما هم في الحقيقة يثبتون نبوة القس» .

أولاً : المؤلف لم يوضح ، والقارىء يجهل هذا الذي (يبحث عنه) فجل ما يعرف القارىء ، أن الحريري يبحث عن ثغرة في جدار الإسلام ، ليدخل منها ناشباً أظافره في جسد الإسلام تهشيماً ، شاغلاً معول حقده في ركائزه تهديماً ، ليتمزق الجسد ، ويتقوض البنيان ، فيرتاح ويطمئن . .
هذا هو ما يبحث عنه ولا سواه ، ولا أظنه إلا فاشلاً .

ثم لم يفسر

«الخطر الذي تجنبه كتاب السيرة»

هل هو ورقة ، أم أمراً اخراً ؟

كما لم يبين لنا كيف وقع كتاب السيرة بغبائهم في المحظور ، فأثبتوا نبوة القس ، فيما هم يحاولون إثبات نبوة محمد .

والمضحك هنا هو الصورة الدرامية التي رسمها لكتاب السيرة ، فبينما هم يحاولون بأية وسيلة تسليط الأضواء على نبوة محمد ، دون ورقة ، كانت أنوار القس تلاحقهم وسحره (الإلهي) يتابع مؤامراتهم ، فيفسد عليهم الخطط ، مما

جعلهم بالنهاية يلجأون إلى حيلة للتخلص من مأزقهم ، سرعان ما اكتشفها الحريري ، فعابهم بها ، بعدما ضبطهم متلبسين . .

فباتوا حائرين مذهولين . . فشر البلية ما يضحك فعلاً .

وقال :

«حاولوا إرجاع كل شيء إلى الله ، وهم في الواقع يثقون بقدرة القس ثقة عمياء ، وبحثوا في علاقة محمد بالله ، فإذا هم يعلقون محمد بالقس» .

وما عناه هنا ، بأن محاولة المؤرخين تجاوز دور ورقة ، في سياق بحثهم عن طريقة لإيجاد علاقة بين الله ومحمد ، مستقلة عن ورقة ، باءت بالفشل ، لأنهم تأكدوا آخر الأمر ، أن أية علاقة مع القدرة الإلهية ، يجب أن تمر بورقة .

فالسماء لها أبوابها ، ومفاتيح السماء بيده ، والحكمة تقول : لا تدخلوا البيوت إلاّ من أبوابها .

وفي الصفحة ٥٢ قال متباهياً مفاخراً :

«وللناس ثقة بقدرة القس ، وأمثاله من القسيسين والرهبان» .

ثم استشهد على ذلك بالآية التالية :

﴿واتخذهم الناس أرباباً من دون الله﴾ .

علماً بأن هذه الآية ، نزلت في باب التهمة والاستنكار ، وليس في باب الثناء ، والإعجاب ، والتأييد . والمقنع كعادته ، اقتطع من الآية بعضها وفسره على هواه ، بينما الآية الكاملة هي :

﴿قالت اليهود عزير ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم

أرباباً من دون الله . والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون»[1] .

أورد تفسيرها سيد قطب فقال :

«فالآية تقرر ، أن أهل الكتاب لم يعودوا على دين الله بشهادة واقعهم ، بعد شهادة اعتقادهم ، وأنهم أمروا أن يعبدوا الله وحده ، فاتخذوا أحبارهم ـ اليهود ـ ورهبانهم ـ النصارى ـ أرباباً من دون الله .
كما اتخذوا المسيح ابن مريم رباً ، وأن هذا منهم شرك بالله ، تعالى الله عن شركهم .
فهم إذن ليسوا مؤمنين بالله اعتقاداً وتصوراً ، كما أنهم لا يدينون دين الحق واقعاً وعملاً»[2] .

والفارق واضح بين تفسير الحريري للآية وتفسيرها الصحيح .

وقال :

«واستغل القس ورقة اعتبارات الناس ، وراح يدبر له خليفة يخلفه في مهمته ، فكان محمد خيرَ من دبر»[3] .

ورغم أنه لم يوضح طبيعة (اعتبارات الناس) التي استغلها ورقة ، إلاّ أن الواضح أن النبي بنظره ، ليس إلا شخصية دبرها ورقة ليكون خليفته ، ولكن على أي منصب ؟ أعلى النبوة ؟ أم القسوسية ؟ أم على زعامة العرب ؟ أم عليها كلها ؟ وهو الأرجح .

---

(١) سورة التوبة، الآيتين/ ٣٠ـ ٣١.
(٢) في ظلال القرآن: ج ٤ ص ٢٠٢ .
(٣) قس ونبي : ص ٥٣.

وأضاف :

«أما الذين تعاونوا مع القس ، وسمعوا نداءه ، وذهلوا بتدابيره ، فأهمهم وأولهم خديجة ، وأبو طالب ، وأبو بكر ، ووالد خديجة ، وأخوها عمر ، وكلهم انصاعوا لتدابير الله على يد قسه ، ووكيله في مكة ، وبارك الراهب بحيرا ، والراهب عداس وسلمان الفارسي هذه التدابير ، وساعدوا القس فيما أراد[1] .

ولو سألناه كيف دخل كل هؤلاء على خط تدابير (الله) على يد وكيله في مكة ، ومنهم من كان في الشام (بحيرا) وفي اليمن (عداس) وفي فارس (سلمان) وفي الحجاز (عيصا) فكيف جمعهم ورقة ، أو بالأحرى الحريري لما حار جواباً .

ولكن الغريب في الأمر ، أن نصف الناس على علم بوضع محمد ومستقبله ، والوحيد الذي كان لا يعرف شيئاً عن هذا المستقبل ، هو محمد نفسه .

وأضاف المقنع قائلاً :

«فتوالت التنبؤات عن مستقبل محمد ، ولم تبخل كتب السيرة عن ذكر الكثير منها ، والبعض ينبىء عن الكثير منها ، مما حدث ، وما كنا ندري شيئاً مما حدث ، لولا القس يفسر لنا ما حدث[2] .

ولا نبالغ إذا ما قلنا : إننا في أحيان كثيرة ، نقف عاجزين عن فك أحاجي الحريري ورموزه . فنحن مثلاً لا ندري قصده من قوله :

---

(١) قس ونبي : ص ٥٣.

(٢) قس ونبي : ص ٥٣.

وما كنا ندري شيئاً مما حدث ، لولا القس يفسر لنا ما حدث[1] .

فما هو الذي حدث ؟ وما هو الذي كان لا يدريه المؤلف مما حدث ، ففسره له ورقة ؟ وكيف ومتى ؟

في الصفحة ٥٤ قال :

«لا بد لنا أن نسأل ، لا عن حقيقة نبوة محمد ، بل عن حقيقة نبوة ورقة» .

أصبح علينا قبل أن نهتم ونسأل عن نبوة محمد أن نهتم ونسأل عن نبوة النبي الأصيل ، ورقة بن نوفل ، نترك المقنع يجلس سعيداً إلى جانب (نبي الله) ورقة على عرش النبوة لنسأله : إذا كان ورقة ، كما تعتبره الكنيسة المسيحية خوارجي من طائفة منشقة مهرطقة ، تنكر للمبادىء المسيحية ، فتنكرت الكنيسة له ولمعتقداته ، فكيف يسمح الحريري المزيف لنفسه أن يعلن ، أن قساً بهذا الوضع المشبوه ، يمكن أن يكون محط ثقة القدرة الإلهية ، ويقبله الله ليكون وكيله في مكة ؟

أما في الصفحة ٥٥ ، فكان بانتظارنا عينة من هرجه الرخيص ، إذ قال :

«وللحال أعلنت خديجة هي العارفة بمشيئة الله» .

وأضاف قائلاً :

«لا بد لنا أن نسأل ، لا عن نبوة محمد ، بل عن نبوة خديجة ، التي أعلنت لزوجها نبوته ، والتي عرفت مشيئة الله» .

---

(١) قس ونبي : ص ٥٣.

ثم نراه يتساءل بذهول المأخوذ قائلاً :

«فمن أين لها معرفة أسرار الغيب ؟ أمن الله ، أم من ابن عمها ورقة ؟ والله أعلم» .

أولاً كلمة (الله أعلم) هذه أدهشتنا ، لأن الحريري ولأول مرة ، يعترف بأن شيء ما في هذا الكون لا يعرفه ، ويرى نفسه مضطراً لإحالته إلى القدرة الربانية لمعرفته ، إذ أنه كما نعرف ما جهل يوماً أمراً .

كلمة حول خديجة ، التي يكن لها المسلمون احتراماً وتقديراً كبيرين ، كونها زوج النبي وشريكته في جهاده ، وأول من آمن به ، وليس لكونها نبية ، أو عالمة بالغيب ، أو عارفة بأسرار القدرة الإلهية ، كما ثرثر المؤلف حولها ، ليسيء إلى شخصها الكريم ، وإلى مقامها الرفيع ، وذلك عندما قال :
علينا أن نسأل عن نبوة خديجة ، قبل أن نسأل عن نبوة محمد .

مما يجعلنا نسأله ، وقد اختلط حابل النبوة بنابلها ، فأشكل علينا كثرة الأنبياء ، فمن أصبح النبي بالنتيجة ، ورقة ، أم خديجة ، أم محمد ، أم كلهم أنبياء ؟ . .

الكل في المسيحية يحيي الموتى

في معرض تشكيكه بصدق نبوة محمد ، يتساءل المؤلف في الصفحة ٦٢ من لقيطه قائلاً :

«وهل يحتاج نبي الله ، إلى من يبرر له نبوته ويدافع عنها؟».

كان من المفروض أن يعرف صاحبنا ، أن من العبث والسذاجة ، الإعتقاد أن دعوة كالإسلام ، يمكن أن تشق طريقها في مجتمعات مشككة ضالة ، بدون صعاب ولا عوائق ، أو أن يتقبلها مجتمع وثني ، أتت لدك معالمه ، وإزالة وجوده ، بدون صراع ، ولا مقاومة .

ودعوة النبي ، ليست الوحيدة التي تألبت عليها قوى الشر لمحاربتها ، فهب المؤمنون بها ، للدفاع عنها بأفكارهم وأرواحهم ، فلقد ناضل كل الأنبياء ، وجاهد كل المصلحين للدفاع عن رسالاتهم ومبادئهم ، وتعددت أساليب النضال ، وطرق الكفاح ، من نبي إلى آخر ، ومن دعوة إلى أخرى .

فلماذا يجد الحريري في نصرة المسلمين لدينهم ونبيهم ، ضد قوى الشر والفساد ، أمراً فريداً مستهجناً ، ولا يجدها كذلك بالنسبة للمسيحيين ؟

وإيمانه كما نعرف قائماً ، على أساس أن عيسى في سبيل وصاياه ، قد تقدم من جلاديه اليهود نحو صليبه ، وهو مؤمن بأن رسالته تستحق منه هذا العطاء الكبير وبعده الحواريون والتلامذة من أتباعه ، ممن ساروا على نفس الطريق ، ولقوا نفس المصير .

ولو كان المسيح والمسيحيون في وضع عسكري يومذاك يمكنهم من الرد على جلاديهم والدفاع عن دينهم والذب عن حياتهم ، لما تأخروا أبداً ، ودفاعهم هذا حق مشروع بل واجب مفروض . وها هو المسيح ، وحملة اليهود، والوثنيون تشتد عليه وعلى أتباعه وتتفاقم ، يبدأ بالإحساس أكثر فأكثر بالحاجة الملحة للدفاع عن نفسه ، وعن دعوته واتباعه ، فيطلب من هؤلاء التسلح ، وضرورة اقتناء أدوات الدفاع عن النفس ، ويطلب إلى كل من ليس عنده سيفاً منهم أن يشتريه ، ولو باع ثوبه تأميناً له .

جاء في إنجيل لوقا قول المسيح لتلاميذه :

«من لم يكن عنده سيف ، فليبع رداءه ويشتره»[1] .

إن أيّة ديانة هدفها انتصار الحق والخير على قوى الشر والفساد ، في أي مجتمع ظهرت ، لا بد لها أن تلاقي من تلك القوة مقاومة شرسة ، مما يحتم على المؤمنين بها أن يحاربوا على جبهتين :

١ ـ فكرية ، لترسيخ مبادىء الدعوة وتعاليمها ، وضرب الوثنية وكل أفكار الشرك والفساد .

٢ ـ وعسكرية ، قد يضطر المؤمنون إليها ، دفاعاً عن مصير دعوتهم ومستقبلها .

وقد لا تجد أية ديانة ، موطىء قدم لها تقف عليه ، وتنطلق منه في هذا العالم المشرك الكافر ، بدون أن تخوض المعركتين الفكرية والعسكرية على السواء .

والنبي محمد ، والمسلمون معه ومن بعده ، خاضوا المعركتين ببسالة وإيمان نادرين ، مكناهم من الانتصار المبين .

ففي معركته ضد الوثنية والشرك ابتدأ النبي بنفسه ، فرفض عبادة الأصنام ، وكفر الوثنية وكل ألوان الشرك ، ودعا إلى عبادة الله الواحد ، ونادى بالعدل ،

---

(١) لوقا: ف ٢٢ـ ٣٧.

والمساواة ، والتآخي ، بين البشر ، ونهى عن الخمر ، والميسر ، وحرم أكل ذبائح الأوثان ، وأمر بالبر ، والتقوى ، والإحسان ، والصدق ، والأمانة ، وحارب الوأد ، وحض على تحرير العبيد ، ومنع الاسترقاق وغيرها ، فكان في حياته قدوة فذة ، ومدرسة رائدة متقدمة ، لقد بدأ النبي بنفسه ، ثم بمجتمعه ، فحمل الكلمة لنشر تعاليم دينه ، قبل أن يحمل السيف . وناضل بالهداية ، والفكر ، والموعظة ، قبل أن يناضل بالمعارك ، والعسكر ، والسيف .

بفكره النير حاول تعليم المجتمع ، وبرؤياه السليمة أراد هداية الناس إلى الحق والصواب ، وظل النبي ثلاث عشرة سنة في مكة ، في خضم جهاده الفكري السلمي ، يناضل ، ويكافح من أجل مبادئه ودينه ، يحاول ويحاول ، حتى لاقى أثناءها ، ومن أجلها صروف القهر ، وألوان العذاب والاضطهاد ، فما أضعف الاضطهاد عزيمته ، ولا أوهن القهر إرادته ، فاستمر يناضل لنشر راية الإيمان والتوحيد ، إلى أن أصبح اضطهاد الكفار له ولأصحابه القلائل يومذاك أمراً لا يطاق ، والتجني عليه وعليهم بلغ حداً لا يحتمل ، فوجد أن بقاءه في مكة أمر غير معقول ، فتركها إلى المدينة ليبشر منها بدعوته .

ولا يتصورنّ أحداً ، أن النبي قد فشل في مكة ، رغم الصعوبات التي لاقاها ، بل على العكس ، فقد استطاع من هناك ، أن يبني أول لبنة في بنيان انتصارات الإسلام .

وفي مكة بالذات ، دق الإسلام أول مسمار قاتل في نعش الوثنية والشرك .

وعندما لاحقته جحافل الكفار إلى المدينة ، للقضاء عليه وعلى دينه ، لم ير بداً حفاظاً على دعوته ، وصوناً لدينه ، من أن يأمر بالجهاد العسكري ، بعدما ثبت له أن اختراق جدار الوثنية السميك ، بالفكر ، والكلمة ، والموعظة وحدها ، أمر مشكوك بنجاحه ، إن لم يكن مستحيلاً .

وحول قوله :

«ولخوفهم ـ يقصد كتبة السيرة ـ من ألاّ يكون محمد نبياً ،

ارجعوا الأدلة إلى زمن آدم ، وقرأوا اسمه في السماء تحت سدرة المنتهى ، وسمعوا الأحبار ، والرهبان ، والكهنة ، والسحرة ، والجن ، والشياطين ، تعلن نبوته»[1] .

نقول :

عندما ذكر المؤرخون وكتّاب السيرة الدلائل والمعجزات ، وتحدثوا عن البراهين والظواهر الدالة على صدق نبوة محمد ، لم يكن ذلك بدافع خوفهم ، من ألا يكون محمد نبياً ، لأن إيمانهم بصدق نبوته ثابت لا يتزعزع ، أكده المؤمنون بها باستشهادهم في سبيلها ، وجهادهم المظفر لرفع رايتها ، ولكنهم كانوا بإعلان هذه الدلائل ، وإظهار تلك البراهين ، يحاكون الفئة الباغية التي في قلوبها مرض .

والعجيب ، هو أن يكون عجيباً ومستغرباً أن يكون لنبوة محمد دلالات ، وظواهر ، وشواهد ، وبراهين ، تشد من إيمان المؤمن ، وتكون حجة على المتردد ، وصفعة للرافض الهادم والمشكك ، في وقت ليس مستغرباً ولا عجباً ، أن يكون للمسيح وقبله موسى الأكثر من المعجزات والظواهر ، المعقول منها وغير المعقول ، والمؤلف يعرف ، أنه جرى تسخير آراء السحرة ، والجن ، والإنس ، والشجر ، والبقر ، وكل ناطق وجامد في هذا الكون الفسيح ، لإثبات المسيح في وضع من اثنين ، ألوهية مزعومة ، أو بنوة لله موهومة ، فهل عيسى إلهاً كان كما يعتقد المسيحيون ، أم نبياً كما يؤمن به المسلمون ؟ هل كان بحاجة لكل تلك الشواهد والبراهين وعشرات المعجزات ، لإثبات وضعه وموقعه ؟

وكلها مكدسة ، تعج بها الأناجيل والكتب المسيحية القديمة منها والمعاصرة ، أم أن الذي يجوز لنبي لا يجوز لنبي آخر ؟ وما هو مقبول وطبيعي لنبي ، مستغرب ومستهجن لنبي آخر ؟

والخوارق والمعجزات في الإيمان المسيحي ، لم تقتصر على المسيح

(١) قس ونبي : ص ٦٢.

نفسه ، وإنما شملت الرسل وتلاميذه أيضاً ، فتتالت المعجزات على أيدي كل منهم بعد المسيح ، بأشكال مختلفة ، مجتمعين وفرادى ، بدأت بنزول الروح القدس على الرسل جميعاً ، لتتلبسهم القداسة ، فصاروا قديسيون ، حسبما جاء في الكتاب المقدس :

أعمال الرسل ٢ ـ ١ ـ ١٣

إلى بطرس يشفي مقعداً :

أعمال الرسل ٣ ـ ١ ـ ١٠

إلى رسل بالجمع يجرون معجزات بالجملة والمفرق :

أعمال الرسل ٥ ـ ١٢ ـ ١٦

إلى بطرس يعود إلى مهنته شفاء المرضى بمعجزاته :

أعمال الرسل ٩ ـ ٣٢ ـ ٣٥

ثم بطرس نفسه يحيي طابيثا في يافا

أعمال الرسل ٩ ـ ٣٦ ـ ٤٣

ومن بطرس ومعجزاته وخوارقه ، إلى بولس يتقدم هو أيضاً فيحيي ميتاً في طرواس

أعمال الرسل ٢٠ ـ ٧ ـ ١٢

وها هو حزقيال يدلي بدلوه في عالم المعجزات والخوارق ، فيحيي ألوفاً من الأموات وهي رميم ، بحسب الاصحاح السابع والثلاثين من كتاب حزقيال .

ولم يقصر إيليا أيضاً من ناحيته (بمهنة) إحياء الموتى ، فقام بواجبه على أكمل وجه ، كما يصرح بذلك في الاصحاح السابع عشر من سفر الملوك .

وغيرها وغيرها ، مما لا يقبله عقل ، ولا يرتاح له ضمير ، ولا يطمئن له قلب .

جاء في سفر أعمال الرسل ما يلي :

وبينمــا ابلس في قـورنتس ، وصــل بـولس إلى افسس ،
بعدما جاز أعالي البلاد ، فلقي فيها بعض التلاميذ ، فقـال
لهم : (هل نلتم الروح القدس حين آمنتم ؟) قالوا : (لا ،
حتى أننـا لم نسمع أن هنـاك روح قـدس) فقـال : (فـأيـة
معمودية اعتمدتم ؟) قالوا : (معمودية يوحنا) .
فقال بولس : (إن يوحنا عمـد معموديـة التوبـة ، طالبـاً من
الشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده ، أي بيسوع) .
فلمـا سمعوا ذلـك اعتمدوا بـاسم الـرب يسـوع ، ووضـع
بولس يديه عليهم ، فنزل الـروح القدس عليهم ، وأخـذوا
يتكلمون بلغات غير لغتهم ويتنبأون ،ف ١٩-١

وفي مكان آخر ، نقرأ في نفس السفر ، ما يدعو للدهشة والاستغـراب أكثر فأكثر :

فكـان الله يجري عن يـدي بولس معجـزات نـادرة ، حتى
صـار الناس يـأخذون مـا مس بدنـه من مناديـل أو مـآزر ،
فيضعونها على المرضى ، فتزول الأمراض عنهم ، وتذهب
الأرواح الخبيثة ف ١٩ـ ١١ـ ١٢ .

جاء في كتاب «نظرات حديثة في الكتاب المقدس» للواعظ فوزدك ، ما يلي :
«روى غـريغوريـوس الكبيـر ، بـابـا رومـة واحـد الأربعين
المقدمين في الكنيسة الغربية ، أن راهبـة أكلت خسة دون
أن ترسم إشارة الصليب ، فابتلعت شيطاناً ، وعندمـا تقدم
قـديس وأمره بـالخروج منهـا ، أجابـه الشيـطان ليس اللوم
عليّ فـإنني كنت جالسـاً على الخسة ، وإذ أكلت السيـدة
الخسة دون رسم إشارة الصليب ابتلعتني معها»[1] .

---

(١) نظرات حديثة في الكتاب المقدس: ص ١٥١ .

وإذا كانت رواية البابا غريغوريوس غريبة عجيبة ، إلّا أن أعجب مـا فيها ، إيمان الشيطان الرجيم بمقام الصليب ، وقدسيته .

بحيث يتساءل الإنسان أمام ذلك ، كيف يظل هذا شيطاناً ، وفي قلبـه هذا «الإيمان» الكبير بفضل الصليب وبركته ؟ .

الفصل الثالث

١ ـ جولة في هيكل الإيمان المسيحي

٢ ـ نظرة المسيحي إلى أناجيله

٣ ـ بعض تناقضات الأناجيل

٤ ـ من هنا بدأت ألوهية المسيح

٥ ـ فجّر بولس البركان ولما يهدأ بعد

٦ ـ من عقائد الوثنيين أتى بولس بالتثليث

٧ ـ أصحاب عقيدة التثليث عاجزون عن فهمها

٨ ـ الديانة التي اختيرت في مؤتمر

٩ ـ ماذا كان حصاد المسيحية في نيقية

١٠ ـ في المسيحية يتدرج الله نحو كماله

١١ ـ المسيح نفسه يرفض عقيدة التثليث

١٢ ـ والعلم يرفضها أيضاً

١٣ ـ ومن المسيحيين من رفضها ونادى بالتوحيد

١٤ ـ للرؤيا في الإيمان المسيحي دور فعال

١٥ ـ موضوع الروح القدس في الإيمان المسيحي

جولة في هيكل الإيمان المسيحي

وضعنا الحريري بتجنيه على الإسلام ، وتلفيقه الظالم ضده ، وافتئاته على الحقيقة ، أمام عتبة مشوار ، إن لم نقل نفق طويل ، نرى أن لا بد لنا من ولوجه ، ومخر عباب ضبابه .

نفق قد تطول جولتنا بداخله ، ولا ندري كم من الوقت يلزمنا للخروج إلى طرفه الآخر ، بحيث سنبدو وكأننا نسينا الحريري وكتابه ، أو تخلينا عن مهمتنا بفضح أباطيلهما ، وكشف دسهما الرخيص ضد الإسلام .

لأننا سنكون مضطرين أن نجمد مؤقتاً مشوارنا المتعب معهما ، لندخل والقارىء الكريم هيكل الإيمان المسيحي ، فنجول فيه زاوية فزاوية ، وبيدنا شموع البحث والتدقيق والاستقصاء ، علنا ننير ظلام الهيكل على من هم في داخله وخارجه ، فنقدم خدمة متواضعة للمسيحية ، والإسلام ، والحقيقة على السواء .

في ص ٦٣ من كتابه قال :

> «ما من نبي في التاريخ احتاج للدفاع عن نبوته ، كما هو الأمر مع محمد» .

والواضح أنه يعني أن نبوة محمد ، كانت مثار أخذ ، ورد ، وجدل ،

وتساؤل ، ورفض وقبول ، أكثر من أية دعوة أخرى . ولأنها كذلك ، فهي أكثر من غيرها من الدعوات حاجة لمن يدافع عنها ، ويقف إلى جانبها ، لإثبات صدقها ، وتأكيد صحتها .

فهل هذا الزعم صحيح يا ترى ؟

ولا نرى إلّا المقارنة سبيلاً لكشف الحقائق ، فهي الفيصل ، وبها الجواب الحاسم ، والرد القاطع .

المقارنة بين رسالة محمد من جهة ، وبين المسيحية ، نشأة ، وعقيدة ، من جهة أخرى . مع ما سجل التاريخ لكلتا الدعوتين في سجله من نقاط ، سلبية ، وإيجابية .

ولا بد لنا لكي نصل إلى مقارنة موضوعية عادلة ، بين المسيحية والإسلام ، من أن نحصر بحثنا في نقاط محددة ، نلامس بها لب المواضيع ، وجوهر الأمور ، لا بهوامشها وقشورها .

وذلك لن يتأتى ، إلّا عبر الإجابة الصريحة ، المتجردة ، الهادفة ، على الأسئلة التالية :

١ ـ كيف نشأت المسيحية وتطورت ، وما هو محور خلافها الأساسي مع الإسلام ؟

٢ ـ ما هي طبيعة الخلاف المسيحي ـ المسيحي ؟ وكيف استقر وضع المسيحية ، بعد أن هدأ بركان خلافاتها ؟

٣ ـ هل شكلت التعاليم المسيحية ، عبر تاريخها كله ، عوامل توحيد بين المسيحيين ؟

٤ ـ أين هي المسيحية اليوم ، في حياة المجتمع والإنسان المسيحيين ؟

٥ ـ كيف نشأ وتطور الإسلام ؟ وما هو جوهر الخلاف الإسلامي ـ الإسلامي ؟

٦ ـ أين هو الإسلام اليوم ، في حياة المجتمع والإنسان المسلمين ؟

٧ ـ ما هي الخلقية العملية ، التي سادت تصرف كل من المسيحيين والمسلمين ، أثناء وقوع الصدام العسكري بينهما في أمكنة متفرقة من هذا العالم ؟

ونبدأ رحلتنا الشاقة ، ومهمتنا الصعبة ، مهمة البحث عن الحقيقة ، من باب السؤال الأول :

ما هو محور الخلاف الأساسي بين المسيحية والإسلام ؟

للمسيحية والإسلام وجهات نظر مختلفة حول بعض الأمور ، ومتفقة حول بعضها الآخر ، ولا يمكننا في مجمل الأحوال ، أن نناقش هذا الخلاف برمته ، لأن ذلك يتطلب أبحاثاً موسعة ، ليست واردة في سياق بحثنا الحاضر .

ولذلك رأينا ، أن نركز البحث ونحصره في أهم نقاط الخلاف بين الديانتين ، لنعالجها ونسلط عليها الأضواء .

وأهمها على الإطلاق موضوع : التوحيد . تحدث الدكتور جورج قرم ، عن واقع المسيحية في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام ، فقال :

«كانت مسيحية شبه الجزيرة العربية ، قد انحطت على نحو لا يخلو من خطورة إلى عبادات تثليثية ، لا يمكن وصفها بأنها قويمة .

وقد ورد بها في القرآن تنديداً . أضف إلى ذلك إن ما لم يمكن للإسلام أن يطيقه أو يقبله ، هو افتراض المسيحية بأن الله اتخذ له ولداً ، وهذا بدوره الهاً في ثالوث .
بينما المنطلق الأول للإسلام ، هو توحيد الله ، وأن لا إله إلا الله»[1] .

---

(١) تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ٢٢٦ .

إذاً ، أهم ما يباعد بين الإسلام والمسيحية ، هو نظرة كل منهما إلى : موضوع الله ، أو بالتحديد نظرتهما المختلفة حول وحدانية الله .

فالإسلام لهذه الجهة متشدد لا يلين ، ولا يهادن ، ولا يساير ، ولقد أكد في أكثر الآيات القرآنية تمسكه بمبدأ التوحيد ، وإمكانية تساهله في أمور سواه ، والآية :

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾(1)

واضحة القصد والغاية .

وإذا كان من نقطة خلاف أساسية بين الديانتين الأهم في العالم ، فهي حول هذا الموضوع بالذات ، ولقد قال أكثر من مؤرخ وباحث ، أنه لو أزيلت من طريق الوفاق المسيحي الإسلامي عقبة التوحيد الكأداء ، لما بقي من خلاف يذكر بين الديانتين ، فالإسلام واضح ، واثق من نظرته لموضوع وحدانية الله ، يعلنها المؤذنون خمس مرات يومياً من على مآذن المسلمين في كل مكان من العالم فيه مسلمون .

آمن بها هؤلاء حقيقة لا تقبل الجدل ، بسيطة لا تعرف التعقيد ، صافية صفاء السماء الزرقاء . التوحيد في الإسلام هو المنطلق ، وهو الأساس ، هو البداية والنهاية ، ولولاه لما كان إسلام ولا مسلمون .

وإذا كان التوحيد أساس الإسلام ، وركنه ، وحصنه ، فكيف تنظر المسيحية إليه ؟ وما هو موقفها منه ؟ بل ما هي نظرة المسيحية أساساً لموضوع الله ؟ .

الإسلام عبر عن إيمانه بالله : بالواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لا شريك له ولا ولد ، لا إله إلا الله .

---

(1) سورة النساء ، الآية/ ٤٨ و ١١٦ .

فماذا قالت المسيحية حول هذا الأمر ؟ وكيف عبرت عـن إيمانها بالله ؟ بالأحرى كيف رأت المسيحية الله في إيمانها ؟
الغريب أن المسيحيين يقولون : إن ديانتهم تقول بالتوحيد أيضاً .
ولكنه في الحقيقة ، توحيد من مفهوم آخر ، مختلف كلياً .

لقد قالت المسيحية بالتوحيد المركب لله ، وهي نظريـة عجيبة ، معقـدة ، مركبة ، حاكتها المسيحية حول نفسها ، فباتت أسيرة خيوطها ، وحبيسة أليافها .

فما هو هذا التوحيد الذي نادت به ؟

للجواب على هذا السؤال ، ينبغي أن نتدرج إلى الوراء ، لنصـل إلى نشأة المسيحية ، ومن ثم نتابع سير قطارها عبر التاريـخ ، الذي كـان يتوقف عنـد كل محـطة تاريخيـة ، ليضيف إلى حمولتـه المثقلة بالأفكـار ، والتعاليم المتضـاربـة المتناقضة حملاً جديداً ، يزيد في هموم تناقضاتها ، وتضارب تعاليمها .

فالمسيحية كفكر وشرائـع ، لـم تكن ضمن حقبة تـاريخية محـددة ، ليجوز لنـا أن نعتبر ، إنهـا بدأت من هنـا ، واكتملت هنـاك . كمـا هـو الأمـر بـالنسبـة للإسلام :

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[1] .

إذ أنها الديانة الـوحيدة التي ولـدت بالتقسيط ، وعلى مـراحل ، والـديانـة الوحيدة التي نشأت وتطورت ، بغياب صاحبهـا الذي سجلت بـاسمه ، فيمـا هو في الحقيقة لا يعرفها ، وأكثر الظن أنه لم يتقصد إيجادها ، على الأقل أن تكـون كما هي .

تحدث الأستاذ عبد الكريم الخطيب عن هذا الأمر ، فقال :

---

(١) سورة المائدة، الآية/ ٣.

«إن المسيحية إلى ما بعد القرن الرابع ، لم تكن قد استكملت حقيقتها بعد ، وما زال موقف المسيح متأرجحاً بين الإله والإنسان»[1] .

وقال هـ . ج . ويلز . في كتابه (ملخص التاريخ) :

«إن السيد المسيح ، لم يبشر بالديانة المسيحية المعروفة اليوم ، لأن هذه التعاليم إنما أحدثها بولس المتعلم بالإسكندرية ، وأن بولس أخذ تعاليمه من وثنية الإسكندرية»[2] .

فيما ذكر جورج قرم هذا الأمر ، فقال :

«كان من الصعب على مدى ثلاثمئة سنة على الأقل ، رسم حد فاصل دقيق بين المسيحيين ، والمسيحيين - اليهود»[3] .

وإلى ذلك قصد الدكتور جواد علي ، فقال :

«ليس في استطاعة أحد الزعم ، بأن هذه النصرانية التي تركزت وتثبتت على هذه الصورة التي نشهدها ، هي النصرانية التي جاء بها المسيح ، وكان عليها الناصريون ، أي أقدم أتباع المسيح ، فالنصرانية هي سلسلة تطورات ، وأفكار ، وآراء ، وضعها البارزون من الآباء»[4] .

فالمسيحية تكونت بطرق غامضة ، لا يمكن رسم بداياتها ؛ ولا حدود

(١) المسيح في القرآن: ص ٢٥١ .
(٢) انظر التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام : ص ١٨٤ .
(٣) تعدد الأديان وأنظمة الحكم: ص ٢١٩ .
(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام جزء ٦: ص ٦٢٤ .

لنهاياتها ، كما لا هويات محددة ، مؤكدة لأشخاصها .

ونستطيع القول بثقة تامة ، أن المسيحية الحالية منسوبة إلى المسيح ، لأنها تحمل اسمه فقط .

والكلمات القليلة التي رددها ، والوصايا المبهمة التي نطق بها ، خلال السنوات الثلاث التي عاشها قبل صلبه أو غيابه ، لا يمكن اعتبارها ، شرائع ، وقوانين ، وأحكاماً محددة واضحة ، يمكن أن تكون حلاً لمشاكل المجتمعات والإنسانية .

بل كانت عبارة عن وصايا لها طابع خلقي ، مسلكي طوباوي ، نقلها عنه بعض تلامذته ، أو في الحقيقة نسبت إليه ، أو إليهم .

إلى ذلك بالذات أشار ول ديورانت ، صاحب موسوعة قصة الحضارة بقوله :

«كان عدم اهتمامه بالشؤون الاقتصادية ، وبالفقر ، وبشؤون الحكم ، وتفضيله العزوبة على الزواج ، وأمره الناس بأن يتخلوا عن جميع الروابط العائلية ، لم تكن هذه قواعد للحياة العادية . بل كانت نظاماً ، يكاد يماثل نظم الأديرة ، يهيىء الرجال والنساء ، لأن يختارهم الله لمملكة مرتقبة . لن يكون فيها شريعة ، ولا زواج ، ولا علاقات جنسية ، ولا فقر ، ولا حرب .

وقد أثنى يسوع ، على الذين تركوا بيتاً ، أو والدين ، أو أخوة ، أو امرأة وأولاداً . بل أثنى أيضاً على الذين خصوا أنفسهم ، لأجل ملكوت السموات .

وما من شك في أن هذه التعاليم قد وضعت ، لتسير عليها أقلة دينية ورعة ، ولم توضع لمجتمع دائم ، لقد كانت

هذه مبادىء أخلاقية ضيقة في أغراضها»[1] .

ويتساءل ديورانت قائلاً :

«ترى ، هل كانت هذه المبادىء الأخلاقية جديدة ؟» .

ثم يجيب على السؤال بقوله :

«ليس ثمة شيء جديد إلا الترتيب ، وأن الفكرة الرئيسية التي تدور حولها عظات المسيح ـ فكرة يوم الحساب وملكوت الله ـ لهي من الأفكار التي وجدت عند اليهود ، قبل ذلك الوقت بمائة عام»[2] .

وإذا كان محمد ، قد ترك للمسلمين قرآناً واضحاً متماسكاً ، ليسيروا على نهجه وهديه ، فإن من البحاثة والمفكرين ـ وجلهم مسيحيين ـ من يعتقد أن المسيح ، لم يترك للمسيحيين إنجيلاً ، أو على الأقل إنجيلاً مكتوباً .

إلا أن المسلمين يؤمنون ، بأن النبي عيسى قد ترك للبشرية إنجيلاً سماوياً .

وأن أتباعه أضاعوه في زحمة أناجيلهم المتعددة .

وأن أنصار التثليث ، قضوا قضاء مبرماً على كل أثر لهذا الإنجيل ، بعدما أحلو محله نظريات بولس ، وعليه فإننا نرى ، أن من العبث التفتيش عن إنجيل المسيحية الحقيقي ، بعدما غاب إلى الأبد بغياب صاحبه .

هذه حقيقة لا جدال فيها ولا مواربة .

حقيقة أخرى لا بد من ذكرها ، وهي أن المسيح بدأ يتكون بذهن جماهيره

---

(١) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٢٩ .

(٢) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٢٩ .

وأتباعه ، ليس بدءاً من أول كلمة قالها ، أو أول وصية نطق بها ، وإنما من آخر لحظة لفظ بها أنفاسه الأخيرة على خشبة صليبه ، بحسب الإعتقاد المسيحي عن موضوع الصلب .

فصورة المسيح بدأت تأخذ شكلاً ما في ذهن الناس ، كشخصية غير عادية ، ليس بسبب ما قدمه للبشرية من تعاليم وشرائع ، وإنما بسبب ما تخيله هؤلاء ، عما تحمله يسوع عنهم من آلام الصلب .

فلم تخلد المسيح وصاياه ، وإنما آلام صلبه ، ولولا الصلب والآلام لما كان المسيح ولا المسيحية .

منذ ذلك اليوم ، وصورة المسيح في ذهن أتباعه لم تستقر ولم تهدأ ، فكانت دائماً في تبدل وتغير مستمرين لقرون عدة .

حقيقة ثالثة لا بد من الاعتراف بها ، وهي أنه لم يكن في ذهن عيسى ذاك الوقت ، أن يكون نبياً خارج الديانة اليهودية .

وقد عبر ديورانت عن هذه الحقيقة بقوله :

«ظل المسيح زمناً طويلاً ، لا يرى في نفسه إلاّ أنه أحد اليهود ، يؤمن بأفكار الأنبياء ، ويواصل عملهم ، ويجري على سنتهم ، ولا يخطب إلاّ في اليهود»[1] .

وكما أنه لم يفكر بهداية غير اليهود ، فهو أيضاً لم يتصور أن تتخطى مبادؤه ووصاياه ، عتبة الديانة اليهودية والشعب اليهودي .

ولقد عبر المسيح نفسه عن هذه الحقيقة ، عندما قال لأتباعه :

---

(١) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٢٢٩.

«إلى طـريق أمم لا تمضـوا ، إلى مـدينـة السـامـرة لا تدخلوا ، لم أرسل إلا لخراف إسرائيل الضالة»[1] .

وقوله للأبرص الذي شفاه :

«اذهب وقدم القربان الذي أمر به موسى»[2] .

وعندما عرض على يسوع أن يعدل في شريعة اليهود ، رفض بشدة قائلاً :

«لا تـظنوا إني جئت لأنقض النـاموس والأنبيـاء ، مـا جئت لأنقض بل لأكمل ، وزوال السماء أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس»[3] .

ومعـروف أن يسـوع لم يصـطدم باليهـود ، إلّا بعـد فتـرة من الـزمن ، وبالتحديد عندما بدأ يتنازل عن رفضه وتردده ، لإعلان نفسه المسيح المنتظر .

أكثر من ذلك فإن كثيراً من نصوص الأناجيل الأربعة الرسمية ، تجعـل أي بـاحث يقف ، متأمـلاً ، متسائـلاً ، عند نقـطة مهمـة ، هي أن عيسى طيلة فتـرة وجوده القصيرة بين أتباعه ، كان متهيباً ، متردداً في الإعلان عن نفسـه : المسيح المنتظر .

فنراه يتدرج للكشف عن حقيقته بتردد ووجل ، وكأنـه غير واثق من أهليتـه لهذا المنصب الخطير الذي يتجه إليه ، كمن يسير في حقل ألغام .

والملفت للنظر أيضاً ، أن موقع عيسى كمسيح منتظر ، يبدو بحسب بعض نصوص الأناجيل مجهولاً حتى من أقرب تلامذته من الـرسل إليـه ، وظل كـذلك إلى ما بعد التبشير بدعوته .

---

(١) متى ف ١٥ : ٢٤.

(٢) متى ف ٨: ٤ .

(٣) لوقا ف ١٦: ١٧.

فكان هؤلاء يلجأون في تعريفه ومناداته إلى تسميات متعددة ، لم يستقروا على واحدة منها ، فكان تارة : المعلم ، وتارة أخرى : المخلص ، وطوراً : ابن الإنسان . . .

ورغم إلحاح أخوته وتلاميذه عليه ، وطلبهم المستمر إليه كي يفصح على الأقل لهم ، عما إذا كان هو المسيح المنتظر أم لا ، رغم ذلك ، ظلت شخصية يسوع الحقيقية ، مبهمة ، قلقة ، غامضة ، على الجميع ، لم يكشف عنها إلا بعد فترة طويلة ، وتحديداً إلى ما بعد موت يوحنا المعمدان .

جاء في إنجيل يوحنا : ٧ ـ ٤ : ٥

«قال له إخوته : اذهب من هنا وامض إلى اليهودية ، حتى يرى تلاميذك أيضاً ما تعمل من الأعمال ، فلا أحد يعمل في الخفية ، إذ أراد أن يعرف ، وما دمت تعمل هذه الأعمال ، فاظهر نفسك للعالم» .

والغريب أن يسوع نفسه كان يساعد في عملية هذا التجهيل أو التعتيم ويطلبها . وإن حدث «وحزر» بعض تلاميذه حقيقة موقعه ، نجده ينهاهم أن لا يخبروا أحداً .

جاء في إنجيل متى : ١٦ـ١٣ : ١٤ : ١٥ : ١٦ : ٢٠ ما يلي :

«ولما وصل يسوع إلى نواحي قيصرية سأل تلاميذه : من ابن الإنسان في قول الناس ؟
فقالوا : بعضهم يقول : هو يوحنا المعمدان ، وبعضهم يقول : هو إيليا ، وغيرهم يقول : هو ارميا ، أو أحد الأنبياء .
فقال لهم : ومن أنا في قولكم أنتم ؟
فأجاب سمعان بطرس : أنت المسيح ابن الله الحي» .

وفي لوقا : أنت مسيح الله دون ذكر كلمة (ابن الله) ٨ـ٢٩ : ٣٠

وفي مرقص : أنت المسيح٨ ـ ٣
وفي يوحنا : لا أثر لها .

وسؤاله لتلاميذه من أنا في قولكم أنتم ؟ يدل بـوضوح أن هؤلاء التـلاميذ ، كانوا يجهلون أنه : المسيح المنتظر .

وعنـدما «حـزر» بطرس مـوقع عيسى ، كـافـأه يسـوع فـوراً ، فعينـه رئيس الكنيسـة ، معتبراً أن من مكن بـطرس من كشف الحقيقة ، ليس لسـانه ، وإنمـا الوحي من الله .

فنقرأ في إنجيل متى ١٥ ـ ٢٣ :

«فأجابه يسوع ، طوبى لك يا سمعان ، فليس اللحم والدم كشفا لك ، بل أبي الذي في السموات . سأعطيك مفاتيح ملكـوت السـمـوات ، فمـا ربـطه فـي الأرض ربط في السموات .
ثم أوصى تلاميذه بألا يخبروا أحداً أنه المسيح» .

والمؤسف أن بـطرس ، ما كـاد يتسلم مفـاتيـح ملكـوت السمـوات ، حتى فاجأه انقلاب سريع من المسيح ضده ، انتهى بعزله وجعله شيطان مريد .

فلنقرأ ما جاء في إنجيل متى نفسه ١٦ ـ ٢٣ .

«فـالتفت المسيح وقـال لبطرس : اذهب عني يـا شيطان ، فـأنت لي حجر عثرة ، لأن أفكارك ليست أفكـار الله ، بل أفكار البشر» .

ولكن روايـة إنجيل يـوحنا حـول هذه الحـادثة مختلفـة كليـاً ، إذ يفهم من يوحنا ، أن يسوع قصد بالشيطان : يهوذا الاسخريـوطي ، وليس بطرس . يـوحنا فصل ٦ : ٧.

والمـلاحظ أيضاً أن يسـوع ، كان يلجـأ أحيانـاً إلى إخفاء حقيقتـه ، تحت

أثواب إيليا ، أو يوحنا ، متحدثاً عن معجزاتهما ، لا عن معجزاته ، وعن موقعيهما ، لا عن موقعه ، مما فرض بالنتيجة على واضعي الأناجيل ، أن يلجأوا إلى الادعاء ، بأن أحاديث عيسى عن إيليا ويوحنا ، إنما كان يرمز بها للحديث عن نفسه ، دون أن يبرز هؤلاء برهاناً واحداً على صحة هذا الادعاء .

جاء في إنجيل متى ١٧ : ١٩ مرقص ٩ : ٨ لوقا ٩ : ٣٦ ما يلي :

«وبينما هم نازلون من الجبل ، أوصاهم يسوع قال : لا تخبروا أحداً بهذه الرؤيا ، إلى أن يقوم ابن الإنسان من بين الأموات .
فسأله التلاميذ : فلماذا يقول الكتبة أنه يجب أن يأتي إيليا أولاً ؟
فأجابهم : إن إيليا آت وسيصلح كل شيء» .

وهنا بصيغة المستقبل ، ولكن المستغرب ، أن يسوع أكمل حديثه إليهم ، فقال : في الآية الثانية مباشرة إنما بصيغة الماضي :

«ولكن أقول لكم : أن إيليا قد أتى ، فلم يعرفوه ، بل صنعوا له كل ما أرادوا ، وكذلك ابن الإنسان سيعاني منهم الآلام .
ففهم التلاميذ ، أنه عنى بكلامه يوحنا المعمدان» .

نسأل : كيف وعلى أي أساس آمن به تلاميذه والناس ، وجميعهم يجهلون حقيقته وموقعه وشأنه ودعوته ؟

والغريب أن تستر المسيح بدعوته ، ورغبته الملحة بإخفاء حقيقته عن الجميع ، لم يبلغها إلى تلاميذه فحسب، وإنما نقلها إلى الأرواح النجسة أيضاً .

وهو ما نقرأه في إنجيل مرقص ف ٣ ـ ١١ : ١٢

«وكانت الأرواح النجسة ، إذا رأته ترتمي على قدميه ، وتصيح أنت ابن الله ، فكان ينهاها بشدة عن كشف أمره» .

والخبر غني عن التعليق .

وإن كان سؤالاً ، ملحاحاً ، لجوجاً ، يظل يطرق باب عقل الإنسان ، هو :

كيف تكون هذه الأرواح «نجسة» وهي ترتمي بخشوع خالص عند قدمي المسيح ، وتعرف أنه «ابن الله» وسره مؤتمن لديها ، برضى صاحبه وطلبه ؟ . . . لنترك هذا الأمر جانباً ، ونسأل : هل كان خوف يسوع من مصيره الأسود على يد اليهود ، سبباً لإخفاء حقيقته ؟

ولكن هذا الخوف يجب أن لا يكون وارداً ، طالما أن صلبه أو مصيره المأساوي المعروف ، كان قراراً من الله الأب ، ينفذه الله الابن ، من ضمن خطتهما لإنقاذ البشرية من الخطيئة الأصلية ، بحسب الإيمان المسيحي .

كما أن هذا الخوف والتردد ، يجب أن لا نجدهما في خطى نبي ، أتى لهداية البشرية وإرشادها . ويندر أن نجدهما ، حتى في مواقف أي مصلح اجتماعي .

فكيف نستسيغ وجودهما في مسيرة الأقنوم الإلهي الثاني ، أو الله الابن ؟

إننا ، وإن كنا لا نرى سبباً واضحاً لهذا الموقف ، المتهيب ، المتردد ، من المسيح ، إلاّ أننا نعتقد أن ذلك عائد إلى أمرين :

الأول : إن يسوع ـ ويوحنا المعمدان حي يرزق ، والناس تتجه إليه ، وتؤمن به ـ كان يعاني من شعوره بفوقية المعمدان عليه ، يدلنا على ذلك أن التهيب والتردد ، ظلا رفيقا يسوع طيلة وجود المعمدان حي يرزق ، حتى إذا ما مات يوحنا في سجنه ، بدأت تنحل عقدة لسان يسوع تدريجياً ، وبدأ

التلميح يتحول إلى تصريح . . حتى كان صدامه المعروف باليهود .

جاء في إنجيل متى ف ١١ ـ ١١ قول المسيح :

«الحق أقول لكم ، لم يظهر في أولاد النساء أكبر من يوحنا المعمدان ، ولكن الأصغر في ملكوت السموات أكبر منه» .

والثاني : في ذهابه إلى يوحنا ، ليتعمد عن يده وإصراره على ذلك ، رغم أن الأناجيل أوجدت فذلكة كلامية ، بقصد إخراج يسوع من فوقية يوحنا عليه ، وتأكيد فوقية المسيح على يوحنا .

عندما أوردت على لسان الأخير قوله :

«وأما الذي يأتي بعدي ، فهو أقوى مني ، وإني لست أهلاً لأخلع نعليه» .

متى ف ٣ ـ ١١ .

ورغم أن يوحنا لم يذكر أن «الآتي بعده»هو يسوع بالذات ، مع أنه كان معاصراً له وابن خالته ، فتحدث عن هذا «الآتي بعده»بصيغة المجهول ، إلاّ أن المسيحيين يصرون ، أنه كان يقصد يسوع بالتحديد ، وأن يوحنا كان على علم مسبق بأن يسوع هو المسيح المنتظر .

عالج البروفسور بنجامان كلداني هذه النقطة بالذات معالجة دقيقة ، فطعن بمقولة المسيحيين بفوقية عيسى على يوحنا ، معتبراً أن العكس هو الصحيح ، وأن موقف الأناجيل من هذه المسألة مناف للعقل والمنطق ، وأن ما جاء فيها حولها يناقض بعضه البعض .

قال :

«إن نفس كلمة (بعد) تستبعد عيسى بكل وضوح من أن يكون هو المبشّر به ، لأن عيسى ويوحنا ولدا في سنة

واحدة ، وعاصر أحدهما الآخر ، وكلمة (بعد) هذه تدل على مستقبل غير معلوم بعده وبلغة النبوءة ، فهي تعبر عن دورة أو أكثر من دورات الزمن» .

وأضاف كلداني قائلاً :

«فلو كان عيسى حقيقة هو الشخص الذي تنبأ به المعمدان ، على أنه أقوى منه لدرجة لم يكن «أهلاً للانحناء وحل سيور حذائه» لاتبع المعمدان عيسى وخضع له كتلميذ وكتابع ، ولما كان هناك ضرورة أو معنى لتعميده في النهر ، على يد شخص أقل منه ، ومثله مثل أي يهودي»[1] .

وإذا ما اعتمدنا رواية إنجيل متى ، أن يوحنا عند سماعه بأعمال يسوع كان في السجن ، وأنه بعث من سجنه باثنين من أتباعه لاستطلاع الخبر ، متى . ف ١١-٢ : ٣ ، وإذا ما تذكرنا أن يوحنا المعمدان لم يخرج من سجنه حياً ، بل جثة هامدة مقطوعة الرأس ، كما أخبرنا القديس مرقص ف. ٦-٢٥-٢٩ ، لأصبح الشك بحصول اللقاء بين المعمدان وعيسى ، بعد تبشير المسيح بدعوته ، له ما يبرره .

وإلى هذه الحقيقة أشار ول ديورانت بقوله :

«لما سجن يوحنا ، أخذ عيسى يقوم عنه بعمل المعمدان ، وإذ عرف أن يوحنا قد قتل ، وأن أتباعه كانوا يبحثون عن زعيم جديد ، تحمل يسوع العبء وما يستتبعه من خطر»[2] .

---

(١) محمد في الكتاب المقدس : ص ١٧٢- ١٧٣ .
(٢) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢١٨ .

والسؤال : ماذا لو لم يسجن يوحنا ولم يقتل ، هل كـان عيسى بدون ذلـك سيتقدم من الناس ، ليعلن لا ألوهيته المزعومة ، بل نبوته ودينه الجديد ؟

أما الأمر الثاني : فهو أن يكون سبب هذا التردد والتهيب ، هو خوف عيسى الفعلي من أذى اليهود له ، وهو خوف له ما يبرره ، بحيث كانت مـأساة يـوحنا ، وإعدامه بقسـوة بالغـة ، على يد هيـرودوس ، مع مـا كان يمثله يوحنا في أذهـان الجماهير ، لا تفارق مخيلة يسوع ، وكانت «الفزاعة» التي جعلته يفكـر بالمصيـر ذاته ، على أيدي الناس أنفسهم ، فيتصرف من منطلق هواجسه ومخاوفه منها .

والواضح أن خشية يسوع من اليهود ، لم تكن على حياتـه فحسب ، وإنما خشيتـه من رفضهم له ، لا كـابن الله التي لم يكن ليفكر عيسى بهـا ، ولا كملك لليهـود ، وإنما كخليفـة ليوحنـا المعمدان ، وهـو أقصى ما كـان يطمـح للوصول إليه .

والحقيقـة أن ما قضى على كـل أمل ليسـوع ، بكسب ود اليهـود ، وتليين مـوقفهم العنيد منـه ، كان في رفض هؤلاء لأي تعليـل لولادتـه الفريـدة ، سـوى اعتباره ابناً غير شرعياً من أب مجهول .

قال ول ديورانت :

«إن اليهـود رأوا ، أن من العار أن يقـال ، أن إلهاً قـد ولـد في كهف أو اصطبل ، في إحدى قراهم»[1] .

بالمقابـل ، فإننـا لا نجد لمثـل هذا التهيب والتـردد أثراً في مـواقف النبي محمد ، عندما أعلن للإنسانية نبوته ، وأظهر على الناس دعوته في مجتمـع وثني مشرك ، فنادى بهما بكل صراحة وجرأة وإقدام ، ونـاضل في سبيلهمـا ، وتحمل من أجلهمـا ألـوان الاضـطهـاد ، وصنـوف الأذى والعـذاب ، حتى كـان النصـر العظيم .

---

(١) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٤٥.

وبينما ظهر عيسى في مجتمع ـ رغم عيوبه ـ يعرف الله ويؤمن بوحدانيته ، وكان ينتظر ظهور نبي من بين صفوفه ، ظهر محمد في مجتمع جاهل ، يستحيل عليه التخلي بسهولة عن شركه ، ووثنيته ، ومستعد للتضحية في سبيلهما بالغالي والرخيص . . . وهو ما حدث فعلاً .

وهكذا يتبين ، أن عيسى لم يكن يفكر أن يكون هو المسيح المنتظر ، بدليل جوابه عندما سئل :

هل أنت المسيح المنتظر ؟

فأنكر كل ادعاء بأنه من نسل داوود .

فكيف يمكن أن يفكر والأمر كذلك ، بأنه ابن الله ، أو شريكه ، أو هو الله ؟

وإلى ذلك أشار ديورانت بقوله :

«لم يقل المسيح في الأناجيل المتشابهة ، متى ، مرقص ، لوقا ، أنه هو والأب إله واحد ، أو يسوي نفسه به . فقد سأل أحد أتباعه : لماذا تدعوني صالحاً ، ليس أحداً صالحاً إلاّ واحد ، وهو الله»[1] .

ولكن إذا كان عيسى نفسه ، لم يفكر بهذه الألوهية التي ألصقت به فيما بعد ، فمن أين أتته هذه الفرية يا ترى ؟

للإجابة على هذا السؤال ، لا بد لنا من اللجوء إلى مصادر الإيمان المسيحي ، لعلنا نجد عندها الجواب الصحيح ، وهي كما هو معروف :
الأناجيل الأربعة : متى ، مرقص ، لوقا ، يوحنا .

رسائل بولس ، الأسفار ، رسالة يعقوب ، رسائل يوحنا ، رسالة بطرس ، رسالة

---

(١) قصة الحضارة ج ١١ ص ٢٣٢ .

يهوذا ، رؤيا يوحنا ، نبؤات ، أعمال الرسل . وهي ما اتفق على تسميتها بالعهدين ، القديم والجديد .

بعد أن أسقطنا من الحساب عشرات الأناجيل ، التي عرفتها المسيحية في قرونها الأولى ، والتي جرى إعدامها وإبادتها جماعياً وعلى فترات متقطعة .

ومن الطبيعي أن نبدأ مهمة التدقيق والبحث بخبايا كتب :

العهد القديم

لا نتجنى إذا ما سقنا حقيقة لا تقبل التأويل ولا الجدل ، وهي أن أسفار العهد القديم برمتها قد تعرضت للتحريف ، والزيادة ، والنقصان ، على مدى قرون عديدة .

ومن الباحثين من يعتقد ، أن التوراة الأصلية لم تعد موجودة ، بعدما ضاعت أو أحرقت .

وقد يكون هذا الإعتقاد صحيح ، لما نراه في الأسفار القديمة التي بين أيدينا من تعاليم ، لا يمكن لعقل إنسان أن يصدق أنها منزلة من عند الله ، لما فيها من ثغرات ، وتناقضات ، لا يجوز ردها إلى الله . فهناك مواقف كثيرة ، يبدو فيها الإله أشبه بالإنسان ، في أحوال ضعفه وقوته ، وفي ضلاله ورشده ، وفي حلمه وجهله ، حتى لكأن الإلّه قد اتخذ له خيمة مع اليهود ، وعاش بينهم .

ولا بأس من أن نعرض بعض الشواهد على ما نقول ، أخذناها من التوراة بالذات :

١ - قال الرب لموسى :

اذهب انزل ، لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر ، زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به ،

صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له ، وذبحوا له ، وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل ، التي أصعدتك من أرض مصر[1] .

رأيت هذا الشعب ، وإذ هو شعب صلب الرقبة ، والآن اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم ، فأصيرك شعباً عظيماً .

فتضرع موسى أمام الرب إلهه وقال : لماذا يا رب يحمي غضبك على شعبك ، الذي أخرجته من مصر بقوة عظيمة ، ويد شديدة ؟

لماذا يتكلم المصريين : أخرجهم بخبث ، ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن الأرض ، ارجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر لشعبك .

فندم الرب على الشر الذي قال أنه يفعله بشعبه[2] .

فهل يليق بعظمة الله وجلاله ، أن يأمره موسى بالرجوع عن غضبه والندم عليه ؟ فيندم ويتراجع ، ليس عن غضبه فحسب ، وإنما عن شره أيضاً .

فماذا تركنا لكمال الله ، بعدما جعله الكتاب المقدس شريراً ، يتراجع عن شره ويندم عليه ؟ وها هو الله في سفر الملوك الأول : يُصرَخ بوجهه ويتعرض للتقريع والتوبيخ ، من نبيه إيليا ، فنقرأ فيه :

وصرخ إيليا إلى الرب قائلاً :

أيها الرب أيضاً إلى المرأة ، التي أنا نازل عندها ، قد

(١) سفر الخروج : ٣٢.
(٢) سفر الملوك الأول : ١٧.

أسأت بإماتتك ابنها[1] ؟

وفي مكان آخر من التوراة ، يدخل الرب مع اليهود ، في مؤامرة سلب وسرقة وخيانة ، فنقرأ في سفر الخروج :

> يقول الرب لموسى ، وقد بعثه إلى فرعون ، ليستنقذ بني إسرائيل :
> ولكني أعلم أن ملك مصر ، لا يدعكم تمضون ، ولا بيد قوية ، فأمر يدي وأخرب مصر بكل عجائبي التي أصنع فيها . وبعد ذلك يطلقكم ، وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين ، فيكون حينما تمشون أنتم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها ، أمتعة وفضة وأمتعة ذهب وثياباً ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، لتسلبوا المصريين[2] .

فهل هذا يليق بالإله الخالق ، الذي يبعث رسله لهداية الناس ، ولإقامة الحق والعدالة بينهم ؟ ولكن الأغرب من هذا كله ، نجده في حديث التوراة عن النبي هارون ، بأنه صنع لبني إسرائيل عجلاً من ذهب ، على أنه الإله المعبود .

فقد جاء في سفر الخروج ، الاصحاح ٣٢ :

> ولما رأى الشعب ، أن موسى أبطأ في النزول من الجبل ، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له ، قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر ، لا نعلم ماذا أصابه . فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم ، وبنيكم ،

---

(١) سفر الخروج : ٣.
(٢) سفر الخروج : الاصحاح ٣٢.

وبنـاتكم ، وأتوني بهـا ، فنزع كـل الشعب أقراط الـذهب التي في آذانهم ، وأتوا بها إلى هارون .

فـأخذ ذلـك من أيديهم ، وصـوره بالإزميـل وصنعه عجـلاً مسبوكاً فقالوا هـذه آلهتك يـا إسرائيـل التي أصعدتـك إلى مصر .

أيعقـل هـذا المنكـر ، من نبي أرسله الله لإنقـاذ النـاس من الضـلال ، ودعوتهم إلى عبادة الله ؟ فإن صدقنا التوراة ، لأنكـرنا نبـوة هارون ، وإن صـدقنا وآمنا بنبوة هارون ، لأنكرنا ما جاء عنه في التوراة ، واعتبرناه مدسوساً موضوعـاً ، وهي الحقيقة .

لننتقل إلى سفر نشيد الإنشاد ، فماذا نجد فيه ؟

غزل من أدب شهواني مكشـوف ، يفصل القـارىء أو المستمع لـه عن كل شعور ديني ، يبعث على الاستقامة والتقى .

غـزل يغـرق قـارئـه وسـامعـه ، في طـوفـان من الأحـاسيس الشهـوانيـة ، الرخيصة ، المهيجة ، للجانب الحيواني في الإنسان .

غزل ماجن خليع ، أين منه غزل ابن أبي ربيعة ، أو بشار ، أو أبو نواس ، أو نزار قباني ؟

فلنسمع بعضه :

في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي .
طلبته فما وجدته
إني أقوم وأطوف في المدينة ، في الأسواق والشوارع . .
أطلب من تحبه نفسي
طلبته فما وجدته ، وجدني الحرس الطائف في المدينة
فقلت : أرأيتم من تحبه نفسي ؟
فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي .

فـأمسكتـه ولم أرخـه ، حتى أدخلتـه بيت أمي وحجـرة من حبلت بي .
ليقبلني بقبلات فمه ، لأن حبك أطيب من الخمر ، لرائحة ادهـانـك الـطيبـة أسمى ذهن مهـراق ، لـذلـك أحبتـك العذارى ، اجذبني وراء فنجري .
حبيبي لي ، بين ثديي يبيت .
شماله تحت رأسي ، ويمينه تعانقني .
في الليل على فراشي ، طلبت من تحبه نفسي .
ها أنت جميلة يا حبيبتي ، ثدياك كحشفة ظبية .

أنا نائمـة وقلبي مستيقظ ، وصوت حبيبي قـارعاً افتحي يـا أختي ، يا حبيبتي ، يا حمامتي ، وقد خلعت ثـوبي فكيف ألبسه . .

فتى كالأرزة ، حلقه حلاوة ، وكله مشتهيات ، هـذا خليلي وحبيبي يـا بنات أورشليم ، مـا أجملك ومـا أحـلاك أيتهـا الحبيبـة باللذات ، قـامتك هـذه شبيهة بـالنخلة ، وثديـاك بالعناقيد .

إني أصعد إلى النخلة ، وأمسك بعنقودها ، وتكون ثديـاك كعناقيد الكرم ، ورائحة أنفـك كالتفـاح ، ووصلك كأجـود الخمر .

تعال يا حبيبي ، لنخرج إلى الحقل ، ولنبيت في العـرى ، هناك أعطيك حبي

ليتك كأخ لي الـراضع ثـدي أمي ، فأجـدك في الخارج ، وأقبلك ولا يخزونني .
وأقودك وأدخل بك بيت أمي .

فأسقيك من الخمر الممزوجة ، من سلاف رماني

شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني . . .[1]

وإذا كان مستغرباً ومستنكراً أن نقرأ في كتاب مقدس ، منسوب إلى الله ، كلام ليس إلّا عبارة عن قصائد ، ماجنة ، خليعة ، عن الثدي والجسد ، والجنس والشهوة .

أقلّه مسيئاً لعظمة الله سبحانه ، وللنبي سليمان بنفس الوقت .

إلّا أن الأكثر استغراباً ، أن نجد في التوراة وأسفارها صوراً مشوهة لكل الأنبياء ، والرسل ، وسلوكاً مضطرباً وأفعالاً مشينة ، يتقزز منها كل ذي مروءة وخلق .

فها هي التوراة تتحدث عن إبراهيم ، كمحتال كذاب .

ففي سفر التكوين[2] ، وردت القصة التالية :

جرى جوع في الأرض ، فانحدر إبرام «إبراهيم» إلى مصر ، ليتغرب هناك ، لأن الجوع في الأرض كان شديداً ، ولما قرب أن يدخل مصر ، قال لساراي امرأته : إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رآك المصريون ، أنهم يقولون هذه امرأته ، فيقتلونني ويستبقونك .

قولي : إنك أختي ، ليكون لي خير بسببك ، وتحيا نفسي من أجلك . .

فلما دخل إبرام مصر ، رأى المصريون المرأة أنها حسنة جداً ، ورآها رؤساء فرعون ، ومدحوها لدى فرعون ،

(١) سفر نشيد الانشاد ٢ ـ ٣ ـ ٤ .

(٢) سفر التكوين ١٢ـ ١٣ .

فأخذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى ابرام خير بسببها ، وصار له غنم ، وبقر ، وحمير ، وعبيد ، وجمال .

فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة ، بسبب ساراي امرأة ابرام .

فدعا ابرام وقال له : ما هذا الذي صنعته بي ، لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟

لماذا قلت لي هي أختي ؟ حتى أخذتها لتكون زوجتي ، والآن هوذا امرأتك خذها واذهب .

فكم سقطة وكم زلة وقع فيها إبراهيم ؟ في هذا القول الذي تقوله عنه التوراة .

لقد كذب ، فقال عن امرأته أنها أخته .

ثم حرض زوجته ساراة أن تكذب .

ثم باع امرأته ، لقاء الخير الذي كان يرجوه من الإتجار بحسنها وجمالها .

ثم قبض ثمن هذا ، فصنع له خير بسببها ، وصار له غنم ، وبقر ، وحمير .

أيرضى إنسان من الناس له مروءة وخلق ، أو بقية منهما ، أن يبيع امرأته ويتجر بحسنها وجمالها ؟ .

فكيف بنبي من أنبياء الله ؟

وإذا كان الأنبياء ، هم الأسوأ قدوة للناس فيما يأتون ، وما يدعون من أعمال ، فهل من حرج على الناس إن هم فعلوا هذا ؟

وإذا كان إبراهيم في التوراة ، قد تاجر بجمال زوجته ساراة ، إلا أن صورة لوط في التوراة ، كانت أكثر تشويهاً وبشاعة ، وله فيها زلة أكبر وسقطة أعظم .

فلنسمع أخبار هذا النبي ، كما جاءت في سفر التكوين :

وصعد لوط من صوغر ، وسكن في الجبل وابنتاه معه ،

لأنه خاف أن يسكن في صوغر ، فسكن في المغارة . .
وقالت الكبرى للصغرى ، إن أبانا قد شاخ وليس في الأرض رجل ، ليدخل علينا كعادة أهل الأرض . . هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً .
فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة .
ودخلت الكبرى واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها .
وحدث في الغد ، أن قالت الكبرى للصغرى ، إني قد اضطجعت البارحة مع أبي ، فهلم نسقيه خمراً الليلة أيضاً ، وقامت الصغرى واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها .
فحملت ابنتا لوط من أبيهما[1] .

ويعلق صاحب السيف الصقيل على هذه الحكاية فيقول :

«لو فرضنا صدق هذه الحكاية المحال وقوعها ، وأنها صادرة عن علم موسى ، فما الحامل له على ذكرها ؟ وما الغرض ، وما الفائدة من بثها ، مع أنه لم يلحقها بوعيد عذاب ، ولا شديد عقاب» .

وهل يعقل أن إنساناً يسكر حتى يفقد الوعي فقداناً كاماً حتى يأتي هذا الفعل المنكر ؟ دون أن يحس ويشعر أو يذكر شيئاً حتى بعد صحوه ، ثم يكرره في الليلة التالية ؟

وإذا كان إبراهيم قد تاجر بجمال زوجته ، ولوط ضاجع ابنتيه فحبلتا منه ،

---

(١) سفر التكوين : الاصحاح ١٩ .

وسليمان في أناشيده أثار مكامن الشهوة ، في كل إنسان وإنسانة .

إلا أن سفر التكوين ، وفي الإصحاح الثامن والثلاثين بالذات ، قد تحدث عن يهوذا وقد زنا بكنته ثامارا ، فولدت له ولدين توأمين أحدهما «فارص» الذي كان من نسله داوود ، وسليمان ، وعيسى .

فلنقرأ حكايته أوردها سفر التكوين :

وأن يهوذا زوج ابنه بكره عير امرأة اسمها ثامارا ، وكان عير بكر يهوذا رديـاً بين يدي الرب فقتله الرب ، وقال يهوذا لابنه (أونان) ادخل على امرأة أخيك وكن معها ، وأقم زرعاً لأخيك ، فلما علم أونان أن الخلف لغيره ، كان إذا دخل إلى امرأة أخيه ، يسفد في الأرض ، لئلا يكون زرعاً لأخيه .
فظهر ذلك منه سوء أمام الرب لفعله هذا ، وقتله الرب ، فقال يهوذا لثامارا كنته اجلسي أرملة في بيت أبيك ، حتى يكبر «شيلا» ابني ، ثم اعلموا ثامارا قائلين :
هوذا حموك صاعداً ليجز غنمه ، فطرحت عنها ثياب الترمل ، وأخذت رداء وتزينت ، وجلست في قارعة الطريق فلما رآها يهوذا ظن أنها زانية ، لأنها كانت قد غطت وجهها ، لئلا تعرف .
ودخل عندها وقال لها : دعيني أدخل إليك ، لأنه لم يعلم أنها كنته .

فقالت له : ماذا تعطيني ، لكي تدخل علي ؟
فقال لها : إني أرسل لك جدي معزى من الغنم
فقالت له : أعطني رهناً حتى ترسله .
فقال لها يهوذا : أي شيء أعطيك رهناً ؟
فقالت : خاتمك ، وعمامتك ، وعصاك التي بيدك ،

فأعطاها لها .
ودخل عليها ، فحبلت منه .
فلما كان بعد ثلاثة أشهر ، خبروا يهوذا قائلين : زنت ثامارا كنتك ، وهو ذا من حبلت من الزنا .
فقال يهوذا : أخرجوها لتحرق .
وإذا هم أخرجوها ، أرسلت إلى حميها قائلة :
من الرجل الذي هذه له حبلت أنا .
فاعرف لمن هو الخاتم والعمامة والعصا ، فعرفها يهوذا وقال : تبررت هي أكثر مني[1] .

والحادثة في غنى عن التعليق .

هذه صور من أسفار العهد القديم ، يقف الإنسان أمامها مذهولاً ، لا يصدق أن دفتي كتاب مقدس منزل من عند الله ، يمكن أن تحتويها وتلمها .

صور ماجنة من الشذوذ الجنسي ، مشينة بحق كل أنبياء الله ورسله .

ولم تكتف التوراة برسم هذه الصورة المخجلة عن الأنبياء ، وتلفيق القصص المخجلة عنهم ، إلا أن ما جاء فيها من الأحاديث ، حول إيمان موسى بتعدد الآلهة ، يجعل تعدد الآلهة عند البشر العاديين أمراً هيناً طالما أن نبيه يتحدث عنه بحرارة وإيمان .

تقول التوراة عن لسان موسى :

من مثلك بين الآلهة يا رب[2] .

وتقول عن لسانه أيضاً :

الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة[3] .

---

(١) سفر التكوين
(٢) خروج : ١٥ .
(٣) خروج : ١٨ .

وعن لسان سليمان :

إلّهنا أعظم من جميع الآلهة[1] .

وعن موسى أيضاً :

وقال الرب لموسى عند موته ها أنت ترقد مع آبائك ، فيقوم هذا الشعب ويفجر وراء آلهة الأجنبيين في الأرض ، التي هو داخل إليها فيما بينهم ، ويتركني وينكث عهدي الذي قطعته معه[2] .

ولكن ، إذا كانت هذه هي صورة الأنبياء في أسفار العهد القديم ، فكيف هي صورة الله فيها يا ترى ؟ بلسان موسى نراه شاك سلاحه ، قابضاً على سيفه :

الرب رجل حرب

بلسان داوود ، مدرب قتال :

الذي يعلم يدي القتال . .

في سفر التكوين حزيناً نادماً متأسفاً :

فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض ، وتأسف في قلبه . . . فقال الرب : امحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته ، لأني حزنت أني عملتهم .

وفي نفس السفر الرب «لاعناً» «ناقماً» في سره ، وكأنه يخاف أن يفصح عن مكنونات صدره .

وقال الرب في قلبه . .

لا أعود ألعن الأرض من الإنسان ، لأن تصور قلب

---

(١) تثنية : ٣١.

(٢) تثنية : ٧٦.

الإنسان شرير من حداثته ، ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت.

وفي تكوين ١١ ـ يبدو الله حسوداً متآمراً حانقاً وهو يتجول في المدينة ، فيرى النعمة ظاهرة على البشر :

تنزل الرب لينظر المدينة والبرج ، اللذين بنو آدم يبنونهما .
وقال الرب : هو ذا شعب واحد ، ولسان واحد ، لجميعهم ، وهذا ابتداؤهم بالعمل ، والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه .
هلم ننزل ونبلبل لهم لسانهم ، حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض .

ثم نكتشف أن الأنبياء في التوراة ، يكذب بعضهم بعضاً .

جاء في تثنية ١٣ ـ

إذا قام وسطك نبي ، أو صاحب رؤيا ، وأعطاك آية ، أو أعجوبة ، فلا تسمع لكلام ذلك النبي ، أو صاحب الرؤيا ، إن دعاك إلى آلهة أخرى ، لم تعبدها ، ولم تعرفها ، ولو صنعت الأعجوبة أو الآية .

وتقول على لسان «ارميا» :

من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق الأرض ، فلا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبئون لكم .

فهل يعقل أن تكون هذه المقولات «المقدسة» التي جاءت في أسفار العهد القديم كلاماً منزلاً من عند الله ؟

فصارت أساس الإيمان اليهودي ؟ ومصدراً من مصادر الإيمان المسيحي ؟

هل هذه الأعمال المشينة ، التي نسبتها التوراة إلى أنبياء الله ، والصفات المهينة التي ألصقتها بالله ، والآلهة المتعددة التي تحدثت عنها ، كلاماً من عند الله لهداية البشر ؟

هل لنا أن نؤمن به كلاماً من عند الله لهداية البشر ، ثم ترتاح إلى هذا الإيمان قلوبنا ، وتطمئن ضمائرنا ، وتقتنع عقولنا ؟

فلنسمع رأي القرآن بواقع التوراة وبما آل إليه حاله :

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً . فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾[1] .

ولماذا لا نترك الحرية للأقلام المسيحية ، تتحدث عن شكها المرير بصحة التوراة وملحقاته ؟

فهذا هو أيوب صبري يقول :

أثبت مئات من محققي التاريخ ضياع التوراة .

وهذا «جاغل» يقول :

إن نسخة التوراة الأصلية ونسخ العهد العتيق ، ضاعت من أيدي عسكر بختنصر .

ثم دكتور «كانتي» قال :

نسخ العهد العتيق الموجودة الآن كتبت ما بين ١١٠٠ و ١٤٠٠ وأن جميع الكتب ، التي كانت كتبت في المئة السابعة والثامنة ، أعدمت بأمر محفل شورى اليهود ، لأنها تخالف اعتقادهم مخالفة كبيرة» .

وكان للمحقق «ولثن» نفس الموقف تقريباً .

---

(١) سورة البقرة ، الآية/ ٧٩.

القس نورتين في تاريخه المطبوع ١٨٣٧ قال :

إن التوراة جعلية يقيناً ، ليست من تصنيف موسى .

القس هنري قال :

إن اليهود قد حرّفوا النسخة العبرانية ، وأن المتن المقدس حرف تحريفاً لا ريب فيه .

فيما القس آدم كلارك قال :

كان اليهود في عهد يوسيفوس ، يريدون أن يزينوا الكتب المقدسة ، باختراع الصلوات والغناء ، واختراع الأقوال الجديدة .

فيما قال العالم المسيحي «كريزاستم» في تفسير إنجيل متى :

انمحى كثير من كتب الأنبياء ، لأن اليهود ضيعوا كتباً ومزقوا بعضها ، وأحرقوا بعضها[١] .

فشهادات هؤلاء حول واقع التوراة وملحقاتها كافية كما نعتقد ، لجعل كتب العهد القديم برمتها ، وهي مصدر رئيسي من مصادر الإيمان المسيحي ، تدخل دائرة الشك ، والريبة ، والإتهام . وتجعل ثقتنا بسلامة الفكر المسيحي نفسه ، من خلال شكنا بمصادره ومنطلقاته ، أمراً طبيعياً . ولا ندري فعلاً كيف يمكن للمسيحيين أن يوفقوا بين إيمانهم بقدسية نظريات بولس ، والتثليث عمادها وركيزتها وبين إيمانهم بما جاء في التوراة وملحقاتها ، والتناقض بين بولس وأسفار العهد القديم حول وحدانية الله قائم قاعد .

فالتوراة ، رغم ما طرأ عليها من زيادة ونقصان ، لا تزال تتمسك بوحدانية الله ، فيما الشرك في عقائد بولس لا يمكن ستره ولا لفلفته .

والعجيب الغريب ، أن المسيحيين مؤمنين بهذه وبتلك بنفس الوقت .

---

(١) انظر المسيح في القرآن : ص ١٠١ـ١٠٢ .

نظرة المسيحي إلى أناجيله

أما وقد تحدثنا عن غرائب كتب العهد القديم ، وهي إحدى مصادر الإيمان المسيحي كما نعرف ، وبيّنا أن جل ما جاء فيها كان مسيئاً للعزة الإلّهية ، لا يليق بكمال الله ، ولا يجوز نسبته إليه ، مما يجعل الشك المتواتر ، بأنها كتب جرى تأليفها على مراحل تاريخية ، بعد موسى بعدة قرون ، يقيناً ساطعاً . فإننا ، وقبل أن ننتقل إلى صفحة الأناجيل الأربعة ، لندقق بتعاليمها ، ونفضح تناقضاتها ، لا بد لنا من أن نتحدث عن مصدر آخر من مصادر الإيمان المسيحي ، وهو ما اتفق على تسميته :

سفر أعمال الرسل

فنقرأ في مقدمة الإنجيل المقدس ، وفي باب «مدخل إلى أعمال الرسل» ،النص التالي :

> إن سفر أعمال الرسل ، شأن الإنجيل الثالث ، من تأليف لوقا رفيق بولس ، وقد روى أحداثاً عرفها معرفة جيدة ، ومؤلفه الرسولي هذا جزء من الكتب المقدسة ، لهو إذاً قاعدة حق وإيمان[1] .

---

(١) العهد الجديد ص ٤٥٥ مدخل إلى أعمال الرسل.

ومن هذا النص يتبين ، أن سفر أعمال الرسل ، له مكانة الإنجيل بنظر المسيحيين ، فيقرأونه أثناء القداس مكان الإنجيل ، أو إلى جانبه .

ونقرأ أيضاً في نفس المصدر من هذا السفر :

إن إثبات نص أعمال الرسل مسألة معقدة ، فمعظم نسخ هذا النص تبدو في صيغتين رئيسيتين :
النص السوري الإنطاكي
والنص المصري أو الإسكندري .
ومع ذلك ، فلا مانع من جمعهما تحت اسم «النص الشائع» لشدة التقارب بينهما إذا قورنا بصيغة ثالثة تسمى «الغربية» ويبدو أن هذه القراءات «الغربية» المختلفة ، لا تمثل عموماً نص أعمال الرسل الأصلي .
غير أن قدمها وانتشارها في الشرق والغرب أمران بارزان ، وكذلك فائدتها التاريخية واللاهوتية[1] .

ويفهم هنا من هذا النص ، أن هناك أكثر من نسخة من هذا السفر ، متناقضة ، مختلفة ، متباعدة ، ارتضى أو توافق المسيحيون بآخر الأمر ، كرضوخ للأمر الواقع ، أن يؤمن كل فريق منهم بصحة ما عنده منها ، أسوة بكل مصادر الإيمان المسيحي المختلف عليها ، والمتوافق على تجميد أوضاعها كما هي ، هذا رغم أن النص في مقدمة الإنجيل حول هذا الخلاف ، حاول تمييع التناقض بين النسخ ، وتضييق شقة التباعد بينها ، وتصغير حجم التعارض القائم فيها ، إلا أنه بالنتيجة لم يستطع ستره ولا لفلفته ، والحقيقة أن العجب يأخذنا ، ونحن نقرأ هذا الاعتراف الصريح ، مثبتاً في الإنجيل المقدس ، حول وضع هذا السفر الذي يؤكد ، بأن نصف العالم المسيحي ، وتحديداً في الغرب ، حيث مركز القرار المسيحي ، يحمل سفراً مزوراً ، لا يمثل النص الأصلي للسفر .

---

(١) العهد الجديد ص ٤٥٥ مدخل إلى أعمال الرسل .

والغريب ، أن المسيحيين رغم معرفتهم بوضعه ، أحلّوه مرتبة القداسة ، ومكانة العصمة ، فأصبح لقداسته ، غير قابل لنقد ، ولا خاضع لإعادة نظر .

وحول هذا السفر تحدث ديورانت ، فقال :

المُرجح أن هذا السفر ، قد ضُمت إليه أجزاء أخرى ، كتبها مؤلف آخر ، جاء بعد مؤلفه الأول . وقد ضمت في القرن الثاني عدة «أعمال» ورسائل مختلفة ، مشكوك فيها تحتوي على عدد من القصص الخرافية ، تروي حياة الرسل بعد المسيح .

> وينزع النقاد إلى الإعتقاد ، بصحة معظم ما جاء في إحدى الرسائل السبع ، الواردة في العهد الجديد ، أما باقي الرسائل فيرفضونها ، لأنهم يشكون بصحتها[1] .

بالمقابل نرى المسلمين خارج القرآن ، لم يطرحوا القداسة ، ولا العصمة ، لأي من مصادر إيمانهم ، حتى الأحاديث النبوية المسند منها وغير المسند ، تركوها خاضعة للنقد ، والغربلة ، والشك ، والتدقيق ، من قِبل أي باحث عن الحقيقة ، دون أن يشكل ذلك بالنسبة لهم عقدة أو انتقاصاً من قيمة كلام النبي ومكانته .

فمن غرائب كتب العهد القديم ، وعلامة الاستفهام العريضة ، المرسومة حول سفر أعمال الرسل ، نجد أنفسنا أمام تفسخ جديد ، في حائط الإيمان المسيحي المتصدع ، بدأت رياح الشك والريبة والبلبال تتسرب منه إلى فكر كل باحث .

الأمر الذي بات يدفعنا ، لمزيد من البحث والتدقيق ، في خبايا وأعماق

---

(١) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٢٤١ .

الديانة المسيحية ، وتسليط مزيد من الأضواء على بقية مصادرها ، وهذه المرة سنسلط أضواءنا على :

«الأناجيل الأربعة نفسها»

نقطة لا بد من إيضاحها ، وأسئلة لا مناص من الإجابة عليها ، قبل أن ندخل نفق الأناجيل ، نعني بها نظرة المسيحيين إلى أناجيلهم .

فماذا تمثل بالنسبة لهم هذه الأناجيل ؟ وهل هي وحي من السماء ؟ أم كتب عادية لها ما لكل كتاب عادي ، وعليها ما عليه ؟

بصورة أدق ، هل كلام الأناجيل من الله ؟ أم من «ابنه» المسيح ؟ أم من الرسل ؟ الحقيقة ، أن وضع الأناجيل بالنسبة للمسيحيين ، يختلف عن وضع القرآن بالنسبة للمسلمين .

فالقرآن واحد ، والأناجيل أربعة .

القرآن واضح المصدر والمضمون ، فيما الذي يفصل ويباعد بين الأناجيل ، أكثر من الذي يربط بينها ، وجميعها تفتقد إلى وضوح المصدر والمضمون .

القرآن لا خلاف بين مسلم ومسلم حوله ، فيما الخلاف بين المسيحيين ، أساسه خلافهم حول أناجيلهم ، ولكن رغم ذلك ، فالمسيحي يعتبر أن ما جاء في الأناجيل ، هو كلام إلّهي مقدس معصوم ، باعتباره كلام المسيح ابن الله ، موحى به منه إلى الرسل ، بواسطة الروح القدس ، الذي تلبسهم فجعلهم قديسين معصومين . .

جاء في كتاب (البرهان)[1] المنسوب إلى عمار البصري ،تحقيق الأب ميشال الحايك ، تأكيداً لموقع الأناجيل في الإيمان المسيحي قوله :

---

(١) كتاب البرهان : تأليف عمار البصري . تحقيق ميشال الحايك ص ٤١/ ٤٥ دار المشرق بيروت ١٩٨٦ .

«إن الإنجيل كتاب الله ، يلزم العالم الإيمان به ، والخضوع له ، وقبول جميع ما فيه ، مما وضح وغمض من الأشياء» .

وفي مكان آخر قال :

«الإنجيل كتاب الله الذي ثبت بآياته ، وعجائبه ، فقد لزم العالم كله قبوله والإيمان به» .

ولكن رغم هذه الهالة من القداسة والعصمة ، التي يضفيها الكاتب حول الأناجيل ، فإن الملاحظ ، أن المسيحي لمجرد أن تحرجه غرابة نصوص أناجيله ، أو تناقضاتها ، أو غموض مصادرها ، نراه بسهولة يخلع عنها أثواب القداسة والعصمة ويقول :

. بأن الأناجيل ليست وحياً من الله ، ولا هي ملزمة لنا وإنما هي عرض لوجهات نظر الرسل الشخصية في المسيح ، وانطباعاتهم عنه .

وكأنه يقول : إننا أحرار أن نؤمن بقداستها أو لا نؤمن ، كما أننا نختار لإيماننا منها ما يناسبنا ، ولسنا ملزمين بالباقي ، ولو قلنا له : إن ما جاء في الأناجيل ليس صورة عن المسيح فحسب ، وإنما كلامه بالذات ، بصفته الله كما يعتقدون ، فكيف يكون وضعها والأمر كذلك مائعاً غامضاً ، متأرجحاً بين القداسة وعدمها ؟ لما حار جواباً .

وإذا كان عمار البصري ، بلسان الأب الحايك ، قد اعتبر ألوهية الأناجيل أمراً لا يقبل جدلاً ، فإن لباحث مسيحي آخر في المسألة نفسها ، رأياً آخر مناقضاً ، هو الواعظ الأميركي المعروف «هري أمرسن فوزدك» الذي قال :

«إن استعمال الكتاب المقدس في نظر الكثيرين من خدام الدين ، لغز يصعب عليهم حله . والبعض منهم يتولاهم الارتباك ، والحيرة ، عندما يحاولون بحث بعض المشاكل المتعلقة بالكتاب المقدس ، كالعجائب مثلاً ، فإنهم

يقلقون ، ويطلبون منافذ متعددة للتخلص من هذه المشاكل .

والبعض الآخر يحلون هذه العقدة ، بأن يجعلوا الكتاب المقدس وحي أفكارهم ، فلا يستعملونه أو يشيرون إليه ، إلّا بطريقة مموجة ، قصد تبيان مغزى أدبي ، أو تزيين رواية ما»[1] .

ويخلص هذا القس الأميركي ، إلى المصارحة والمجاهرة برأيه قائلاً :

«إنني لا أفشي سراً ـ ربما كثيرون يودون أن يحفظوا الأمر سراً ـ عندما أقول : أن الكتاب المقدس في نظر كثيرين من خدام الدين ، مشكلة لا تزال تطلب حلاً»[2] .

وها هو الباحث ول ديورانت يقول :

«تعرضت الأناجيل الأربعة ، ولمدة قرنين ، بعد كتابتها ، إلى أخطاء في النقل ، وربما لتحريف مقصود» .

وقال :

«النقاد يميلون إلى أن إنجيل متى ، هو من تأليف أتباع متى» .

وقال :

«يناقض إنجيل يوحنا الأناجيل الأخرى ، في كثير من التفاصيل» .

وقال أيضاً :

«إن ثمة تناقضاً كبيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وأن فيها نقاط تاريخية مشكوك بصحتها ، وكثيراً من

---

(١) نظرات حديثة في الكتاب المقدس : ص ٦.
(٢) المصدر نفسه: ص ٧.

القصص الباعثة على الريبة والشك»[1] .

ويحاول فوزدك في كتابه «نظرات حديثة في الكتاب المقدس» أن يجد حلاً للتناقض القائم بين الأناجيل ، فيقترح للخروج من المأزق العودة إلى «إنجيل المسيح» وإلى «الأفكار السامية التي تضمها»

فيقول : «يجب أن نعرف أين تبتدىء الأفكار الرئيسية في الكتاب المقدس ، ونتتبع سيرها ، فنرى الطريق التي سار عليها «إنجيل المسيح» بهذه الأفكار إلى الدرجة السامية ، حتى قال :

«ما جئت لأنقض ، بل لأكمل» وهذه تنقذنا من تلك الورطة ، وهي محاولة التوفيق بين الفصول المتناقضة في الكتاب ، إذ نحاول أن نجعله يتكلم بلسان واحد ، بغية أن نظهره وحدة غير متنافرة الأجزاء ، في حين أن هذه الوحدة المصطنعة متوترة الروابط»[2] .

أليس في ذلك دعوة صريحة ، ومناشدة واضحة ، للعودة إلى إنجيل عيسى ، وإلى ينابيع رسالته السامية ، الحقيقية ، التي جاءت متممة لتعاليم الأنبياء السابقين ، لا ناقضة لها ، شأن كل الأنبياء المرسلين ؟

نسأل :

ماذا بقي للأناجيل من أسباب العصمة، بعدما صار التشكيك بها وإعلانها «مشكلة لا تزال تتطلب حلاً»لسان حال أكثر رجال الدين المسيحي كما نرى ؟

الأمر الذي جعل المسيحي يعيش في دوامة حيرته ، وبلبلة أفكاره ، إذ أن عدم إيمانه بقدسية أناجيله ، يعني نسفاً خطيراً لكل قواعد وأسس إيمانه ، بينما

---

(١) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٢٠٧ـ ٢٠٨ـ ٢٠٩ .

(٢) نظرات حديثة في الكتاب المقدس : ص ٣٧.

عصمتها وقداستها يجعلانه يعيش في شك دائم ، وهروب مستمر من تبعات تناقضاتها المحرجة ، وفي الحالين ، ضياعه ، ومأزقه ، وأزمته .

وإلى هذا الواقع المرير أشار فوزدك ، حين قال :

«ها نحن نرى الشبان المفكرين الأذكياء يهجرون الكنيسة ، فتخسرهم كأعضاء مفيدين»[1] .

وقال :

«نجد عدداً كبيراً بعيدين جداً أن يكونوا متمسكين بمعتقدهم تمسكاً متيناً ، فهؤلاء نراهم تائهين ، محيّرين في تفكيرهم الديني .
ومع أنهم قد تربوا على الطريق القديمة في معتقدهم الديني ، فإنهم ثاروا عليه الآن وطرحوه جانباً»[2] .

---

(١) نظرات حديثة في الكتاب المقدس: ص ٨٥.
(٢) نظرات حديثة في الكتاب المقدس: ص ١٠.

بعض تناقضات الأناجيل

أول مـا يلفت النـظر في الإيمـان المسيحي ، هـو رجـوعـه في جـزء من منـطلقـاتـه ، ليس إلى إنجيـل واحـد ، وإنمـا إلى أربعـة أنـاجيـل ، هي متى ، مرقص ، لوقا ، يوحنا .

وهي التي فـازت بـطريقـة الاختيـار والتصفيـة ، من بين أكثـر من سبعين إنجيلاً ، سميت بالكاذبة ، جرى إعدامها عام ٣٢٥ م، في مجمع نيقيه الشهير .

وبديهي أن يتساءل أي إنسان : لماذا لم يوحد مجمع نيقيه هـذه الأناجيـل الأربعة في إنجيل واحد ؟ وما هي الموانع التي حالت دون ذلك ؟

ثم لماذا لم تلتفت كل المجامع المسكونية الأخرى ، على مدى ستـة عشر قرناً إلى هذا الموضوع الحساس ؟ إننـا لا ندري بـالضبط ، ما هي الأجـواء التي سادت مجمع نيقيه ، فمنعت المؤتمرين من فـرض إنجيل واحـد للمسيحية بـدلاً من أربعـة ، مـع العلم أن هـذا المجمـع ، قـد ملك نفسـه من الصـلاحيـات ، والقـدرة ، والحقوق ، مـا مكنه من تحـديد معـالم الديـانة المسيحيـة بـرمتهـا ، والتلاعب بأسس تعاليم النبي عيسى تبديلاً وتجديداً وتحريفاً . .

وقد تكون العقبة كامنة بموازين التيارات داخل المؤتمر آنذاك ، التي كانت تؤيـد هذا الإنجيـل أو ذاك ، ممـا فرض هـذا التوافق المعـروف في كل قضـايـا المسيحية . .

وربما كان أيضاً للتناقضات التي تباعـد بين إنجيل وآخـر ، وتمسك أنصـار

كل إنجيل بما عندهم ، دور بالغ الأثر في هذه النتيجة .

هـذه التناقضـات ، وإن كانت لا تـدخل في صلب بحثنـا ، إلا أن المرور عليها ، ولو بإيجاز ، قد يعجل خطانا للوصول إلى النفق المظلم ، الذي أدخلت المسيحية منه إلى ظلمات التثليث ، والتأليه ، وما شابه ، وهو هدفنا بالطبع .

ويفترض أن نبدأ جولتنا داخل النفق المسيحي بإنجيل ـ متى ـ وهو الإنجيل الأول . . . اختلف الباحثون والنقاد حول هذا الإنجيل ، وتضـاربت آراؤهم فيه ، فمنهم من اعتبر أن القديس متى هو مؤلفه بالفعل ، ومنهم من قال بأنـه من تأليف أحد أتباعه ، وإلى ذلك أشار ديورانت حين قال :

«النقاد يميلون إلى القول : بأن هذا الإنجيل من تأليف أحد أتباع القديس متى»[1] .

حتى أن بعضهم اعتبـر ، أن لإنجيـل مـرقص وليس لمتى ، الأسبقيـة في الزمن على سائر الأناجيل . ولكن الإعتقاد الذي ساد بالنتيجة ، أن القـديس متى ألف إنجيله بين عـامي ٦٥ـ٧٠ م . وإن كنـا لا نـدري ، إذا كـان متى قـد قصـد بإنزال إنجيله إلى الجماهير المسيحيـة ، لملمة الـوضع المسيحي المتـردي ، أم أنه ألّفه أسوة بالعشرات من الأناجيـل المنتشرة آنـذاك ، ثم تبعه القـديس مرقص بإنجيله ، وهو الثاني بين الأناجيل الأربعة .

وما يميز إنجيـل متى عن إنجيل مـرقص ، هو أن متى قـد قصد من إنجيله هداية اليهود معتمداً أكثـر من سواه من المبشـرين على المعجزات ، التي تعـزى إلى المسيح ، مع حـرصه الشـديد ، إرضـاء لليهود ، أو تهـدئة لخـواطرهم ، أو ممالأة لهم ، بأن يثبت أن كثيراً من نبوءات العهد القديم ، قد تحققت على يدي المسيح .

وبعد متى ومرقص ، تقدم القديس لوقا ، ليدلو بدلوه ، فأنزل إلى السـاحة

---

(١) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٠٨ .

المسيحية إنجيله ، معلناً بأنه يهدف إلى هداية الكفرة لا اليهود ، وهذا على عكس ما جاء في إنجيل متى . . والملاحظ أن في إنجيل لوقا ، من الفقرات والنصوص التي توجد في إنجيل متى ، ولكنها غير موجودة في إنجيل مرقص ، إلا أن ما نراه أمامنا من آراء مشوشة ، وأفكار متباينة ، وأبحاثاً مبهمة ، متعارضة ، سادت آراء ومواقف ، كل الباحثين والنقاد حول الأناجيل الثلاثة ، سواء لجهة مؤلفيها ، أو مضامينها ، أو ظروف تأليفها ، أو تناقضاتها ، ما يجعلنا نضع علامة استفهام عريضة حول هذه الأناجيل ، وهي المصدر الرئيسي للإيمان المسيحي .

وإلى هذا الأمر أشار الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، عندما قال :

«بين الأناجيل الأربعة خلافات كثيرة في المضمون والمفهوم ، الأمر الذي لا يستقيم معه أن تكون مستقاة من مصدر واحد ، أو أن يجتمع بعضها إلى بعض ، فتكون إنجيلاً واحداً»(١) .

وبسبب هذا وذاك ، بات في عقول الناس وقلوبهم قناعة راسخة ويقين ثابت ، بأن هذه الأناجيل بأوضاعها ، لا يمكن أن يكون الله مصدرها ، ولا أن يكون ما فيها من نصوص ، متناقضة ، متباينة ، وعقائد مختلفة ، كلام من الله معصوم .

من هنا بدأت البلبلة ، ومن هنا بات الطريق إلى النفق المسيحي ، هدفاً لكل باحث وناقد ، فكثر الباحثون ، وازداد المنقبون ، والكل عاد من رحلة النفق ، وفي عقله شك أكبر ، واطمئنان أقل ، ليظل السؤال عن حقيقة المسيحية قائم ، بلا رد ولا جواب .

ونثبت هنا بعض هذه المتناقضات ، التي نجدها في الإنجيل الواحد :

---

(١) المسيح في القرآن : ص ٧٨ .

ففي إنجيل «متى» مثلاً ، وهو عمدة الأناجيل الأربعة ، عشرات من هذه المتناقضات ، ويكفي أن نشير إلى بعض منها من غير تحيز .

يقول السيد المسيح لبطرس أحد الحواريين الاثنى عشر :

> أنا أقول لك : أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي ، وأبواب الجحيم لن تقدر عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات .

هذا هو بطرس على لسان السيد المسيح ، كما نرى صورته في إنجيل متى ، وفي الاصحاح السادس عشر منه ، ثم لا تكاد العين تتملى من هذه الصورة العظيمة لبطرس ، حتى تلقاها صورة أخرى مضادة لها ، تمسخ هذا الحواري مسخاً ، وتحيله من إنسان إلهي إلى شيطان مريد .

وأين ذلك ؟

في إنجيل متى نفسه ، وفي نفس الاصحاح ، وبعد آيتين فقط من كلمات السيد المسيح ، المبشرة له بهذا الوعد الكريم .

> يقول متى : من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه ، أنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيراً من شيوخ ورؤساء الكهنة ، ويقتل ويقوم في اليوم الثالث .
> فانفرد به بطرس وجعل يعاتبه فيقول : حاشى لك يا رب ، لن يصيبك هذا .
> فالتفت المسيح إلى بطرس وقال : اذهب عني يا شيطان ، فأنت لي حجرة عثرة ، لأن أفكارك ليست أفكار الله ، بل أفكار البشر .

فكيف يتفق هذا وذاك ؟ وكيف يقبل أن يكون السيد المسيح ، هو الذي

يضع بطرس في هذه المنزلة الرفيعة ، ويعده لحمل الرسالة من بعده ، ثم يهوي به إلى هذا الدرك الأسفل ، وينزله منازل الشياطين ؟ ثم أن الرواية التي نقلها متى في إنجيله حول موضوع قيامة يسوع من القبر ، لا تتوافق ورواية إنجيل مرقص لها ف ١٦ـ٥ ، ولا مع رواية إنجيل لوقا ف ٢٤ـ١ .

أمر آخر مستغرب ، نجده في الأناجيل ، لا بد من المرور عليه والتدقيق به .

ذلك هو : التناقض الحاد بين الأناجيل ، حول حديث المسيح ليلة اعتقاله ، وحول دور بطرس في أحداث تلك الليلة .

فلنترك للأناجيل نفسها مهمة الكشف عن هذا التناقض .

جاء في إنجيل متى ، ف ٢٦ـ٥١ : ٥٢ ما يلي :

فدنوا وبسطوا أيديهم إلى يسوع وأمسكوه ، وإذا واحد من الذين مع يسوع ، قد مدّ يده إلى سيفه فاستله ، وضرب عبد عظيم الأحبار فقطع أذنه .

فقال له يسوع : اغمد سيفك ، فكل ما يأخذ بالسيف بالسيف يهلك ، أو تظن أني لا أستطيع أن أسأل أبي ، فيمدني الساعة بأكثر من اثني عشر فيلقاً من الملائكة ؟

ولكن كيف تتم آيات الكتب التي تقول إن هذا ما يجب أن يحدث .

هذا في إنجيل متى ، أما في إنجيل مرقص ، فلا أثر البتة لهذا الحديث الطويل على لسان المسيح ، وما نجده فيه هو قول آخر للمسيح ، هو :

أعلى لص خرجتم تحملون السيوف والعصي ، لتقبضوا علي ، كنت كل يوم بينكم أعلم في الهيكل ، فلم

تمسكوني وإنما حدث هذا لتتم الكتب ، فتركوه كلهم وهربوا ـ يقصد تلاميذه ـ.

مرقص ١٤ ـ ٤٦ : ٤٧ .

وفي لوقا يختلف الحديث أيضاً عن متى ومرقص ، فنجده كالتالي :

فلما رأى أصحابه ما أوشك أن يحدث قالوا : يا رب أنضرب بالسيف ؟
وضرب أحدهم عبد عظيم الأحبار ، فقطع أذنه اليمنى ، فأجاب يسوع : دعوهم ، كفى ، ولمس أذنه فأبرأه .

لوقا ٥٠ ـ ٥١ .

ولكن حديث يسوع في الإنجيل الرابع ، يختلف كلياً عن الأناجيل الثلاثة الأولى ، فأورده كالتالي :

وإذا كنتم تطلبوني أنا ، فدعوا هؤلاء يذهبون ، فتمت الكلمة التي قالها : إن الذين وهبتهم لي ، لم أدع أحداً منهم يهلك ، وكان سمعان بطرس يحمل سيفاً ، فاستله وضرب عبد عظيم الأحبار ، فقطع أذنه اليمنى ، فقال يسوع لبطرس : اغمد السيف ، أفلا أشرب الكأس التي ناولني أبي إياها ؟.

يوحنا ١٨ ـ ١١ .

وقراءتنا لرواية الأناجيل الأربعة المختلفة ، المتباينة ، حول كلام المسيح ، كافية لكشف التناقض ، وفضح التعارض فيما بينها .

كان هذا في اختلاف الأناجيل ، حول حديث يسوع ليلة اعتقاله ، ولكن ما نراه أمامنا من التناقض بينها ، حول دور بطرس في تلك الليلة ، يجعلنا ندقق بهذا الدور قليلاً ، فماذا نجد ؟

في إنجيل متى ومرقص ولوقا ، لا نجد ذكراً لأي دور «عسكري» لبطرس ليلة الاعتقال . سوى إجماعها على مقولة نكران بطرس للمسيح ثلاث مرات ، كان آخرها عند صياح الديك ، تحقيقاً لنبوءة المسيح .
متى ٢٦ ـ ٥٢ مرقص ١٤ ـ ٧ لوقا ٢٢ ـ ٥٢ .

أما في إنجيل يوحنا ، فصورة بطرس تختلف تماماً ، إذ نجده يتقدم بسيفه ، فيقطع أذن عبد عظيم الأحبار ، دفاعاً عن المسيح ، وتحديداً الأذن اليمنى .

ولشدة تأكد يوحنا من هذا الأمر ، ذكر أن اسم العبد المقطوع الأذن كان ملخس .
يوحنا ١٨ ـ ١٢ .
والسؤال هنا مفروضاً : كيف يكون بطرس هو المتنكر الوحيد ليسوع في ساعة ضيقه حسبما بشر بها المسيح في الوقت الذي كان هو الفارس الوحيد ، الذي تقدم يدافع عن يسوع بسيفه ، بغير تهيب ولا وجل ، معرضاً نفسه لأشد الأخطار ، ثم لاحقاً ـ من شدة إخلاصه ـ بالمسيح والجند ، إلى باب دار عظيم الأحبار .
مع العلم أن إنجيل مرقص قال :
إن تلامذة المسيح : تركوه كلهم وهربوا .
مرقص ف ١٤ ـ ٥٠ .
دون أن يستثني بطرس ، أو سواه من الهرب .

وما تكاد صورة بطرس المقدام ، الشجاع ، المدافع عن المسيح بسيفه وحياته ، تلتصق وتستقر في أذهاننا ، وفي وقت كانت دماء أذن الجندي ملخس ، لا تزال تلمع حمراء على شفار سيفه ، بحسب رواية إنجيل يوحنا ، حتى تتقدم الأناجيل الأربعة ، فتمسخ صورة هذا القديس ، وتقدمه لنا واقفاً خارج دار عظيم الأحبار مرتعداً ، مرتجفاً يتنكر من يسوع ثلاث مرات متتالية .

وأكثر ما يبعث في النفس الدهشة والاستغراب ، ليس قدوم بطرس إلى دار

عظيم الأحبار بنفسه ، رغم قطعه أذن جندي ، ولا تفرد بطرس بالبقاء إلى جانب المسيح ، رغم هرب رفاقه ، وإنما قدرته على إخفاء شخصيته عن كل من أشار إليه ، ودل عليه ، بأنه من تلاميذ يسوع ، بمن فيهم «ضحيته» الجندي المقطوع الأذن ، ودون أن يتعرض لأي استجواب ، على الأقل عن مسؤوليته بقطع أذن جندي من جنود السلطة وتحديه لها .

والعقل والمنطق يفرضان أن نعتقد ، أنه يترتب عن عمل كهذا مسؤولية كبيرة ، كان أقلها أن يهتم عظيم الأحبار بالأمر ، فيأمر بملاحقة الفاعل لينال جزاءه .

فكيف والفاعل قد مشى برجليه إلى دار السلطة ، ويقف ببابها بتحد سافر . . ؟

والقارىء ، من هذه المسألة المختلف عليها بين الأناجيل ، أمام خيارات عدة ، بعضها :

١ ـ أن يكون بطرس ليلة الاعتقال بين الهاربين أسوة برفاقه ، كما أخبرنا مرقص ، الذي عمم الهرب على الجميع ، فلم يستثن منهم أحداً ، وهو الأرجح .

لتصبح قصة قطع الأذن «وبطولة» بطرس ، ولحاقه بالمسيح ، إلى دار السلطة ، لا أساس لها .

٢ ـ وأما أن يكون بطرس ، قد حاول فعلاً الدفاع عن المسيح بشكل من الأشكال ، أقصاه مناقشة الجند قرار الإعتقال ، والإعتراض عليه ، فمنعه المسيح ـ بحسب رواية مرقص ـ دون أن تصل القضية ، لا إلى تجريد سيف ، أو قطع أذن ، وفي ذلك تفسيراً معقولاً لتمكن بطرس من اللحاق بالجند والمسيح ، من بعيد لبعيد لمراقبة النتيجة ، دون أن يثير نقمة الجند عليه .

ليكون ذلك أيضاً ، على حساب مصداقية ما جاء في الأناجيل ، حول هذه المسألة .

٣ ـ وأما أن نأخذ بقصة الأناجيل كما أوردتها ، مع ما شابها من التعارض ، والتناقض ، والاختلاف ، ليكون ذلك على حساب حق العقل ، والمنطق ، والإدراك السليم علينا .

وكل الخيارات كما نرى توصلنا إلى طريق واحدة ، هي الشك بعصمة الأناجيل ، وبمصداقية ردها إلى الله . وللباحث ول ديورانت شهادة «مرموقة» حول «شجاعة» بطرس ، حيث قال :

«بطرس هذا شخصية بشرية لحماً ودماً ، هياب ، يصل به الوجل في بعض الأحيان إلى حد الجبن ، الذي لا يسع الإنسان إلا أن يعفو عنه»[1] .

ومع ذلك ، فالقديس يوحنا يصر علينا في إنجيله ، بأن بطرس قطع بسيفه أذن جندي روماني ، ووقف بباب السلطة متحدياً . . . وهنا المفارقة .

صورة أخرى من صور التناقض بين الأناجيل ، أوردها الشيخ الداري ، صاحب السيف الصقيل ، فقال :

«في الأصحاح الرابع عشر من إنجيل لوقا ، يقول على لسان السيد المسيح :
إن كان أحد يأتي إلي ، ولا يبغض أباه ، وأمه ، وامرأته ، وأولاده ، وإخوته ، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» .

وهل يعقل أن يكون هذا الأدب العجيب من كلام السيد المسيح ؟ وهو الذي قال :

«إن الله أوصى قائلاً : أكرم أباك وأمك ، ومن يشتم أباً أو أماً ، فليمت موتاً» .

---

(١) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٢٣ .

وأضاف صاحب السيف الصقيل قائلاً :

«من قابل نسب المسيح ، المدرج في الاصحاح الأول من إنجيل متى ، ببيان النسب المندرج في الاصحاح الثالث من إنجيل لوقا ، وجد فيها خمسة وجوه مختلفة :

الأول : يعلم من متى ، أن يوسف النجار ابن يعقوب ، ومن لوقا أنه ابن هالي .

الثاني : يعلم من متى ، أن المسيح من نسل سليمان بن داود . ويعلم من لوقا ، أنه من نسل ناثان بن داود .

الثالث : يعلم من متى ، أن شالتئيل بن يكينا ، ومن لوقا أنه ابن نيرى .

الرابع : يعلم من متى ، أن اسم ابن زربابل أبيهود ، ومن لوقا أن اسمه ريا ، وقد عرف أن أسماء أولاد «زربابل» مصرح بها في الاصحاح الثالث من سفر الأيام الأول ، وليس فيها أحد باسم أبيهود ولا ريا .

الخامس : يعلم من متى ، أن من داود إلى المسيح ستة وعشرين جيلاً . ويعلم من لوقا ، أنهم واحد وأربعون جيلاً .

وينتهي الشيخ الداري إلى القول :

«فلو كان ملتقى هذه الأناجيل عن وحي ، لما كان ممكناً أن يقع فيها مثل هذا الخلاف البعيد»[1] .

خلاف آخر بين الأناجيل . . . وما أكثره .

نجده حول حديث يوحنا المعمدان والمسيح يوم العمادة .

---

(١) انظر المسيح في القرآن: ص ٨٩.

فإنجيل متى أورد محادثة بينهما ، يستشف منها معرفة المعمـدان بشخصية يسوع ، كمسيح منتظر . فنقرأ فيه :

«ظهـر يسوع ، وقـد أتى من الجليل إلى الأردن ، قـاصـداً يوحنا ليعتمد عن يده ، فجعل يوحنا يمانعـه ، فيقول : أنـا أحتاج إلى الاعتماد عن يدك ، أو أنت تأتي إلي . . . ؟
فأجابه يسوع : دعني الآن وما أريد ، فكهـذا يحسن بنا أن نتم كل بر ، فتركه وما أراد» .

متى ف ٣ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ .

أما في إنجيل مرقص ، فلا أثر لهذه المحادثة بين يوحنا ويسوع ، وكل مـا جاء فيه :

«جاء يسوع من نـاصرة الجليـل ، واعتمد عن يـد يوحنـا ، وبينما هو خارج من الماء ، رأى السموات تنشق ، والروح ينـزل عليـه كـأنـه حمــامـة ، وحــدث يقـول : أنت ابني الحبيب ، عنك رضيت» .

مرقص ١ ـ ٩ : ١١ .

وفي لوقا أيضاً ، ليس فقط لا أثر لهذا الحديث بين يـوحنا ويسـوع ، وإنما لا أثر فيه ولا حديث البتة عن يوحنا ولا ذكر لاسمه ، ولا تنويه عن أي دور له في عمادة المسيح .

فجاء فيه :

«ولمـا اعتمد الشعب كله ، واعتمـد يسـوع أيضـاً ، وكـان يصلي ، انفتحت السمـاء ، ونزل الـروح القدس عليـه في صورة جسم كأنه حمامـة ، وأتى صوت يقـول : أنت ابني الحبيب ، عنك رضيت» .

لوقا ٣ ـ ٢١ ـ ٢٢ .

حيث غيب إنجيل لوقا وجود يوحنا بالمرة عن شاشة عمادة المسيح ، وكأن

لا معمدان يعمد ، ولا مسيح تعمد عن يده .

أما في الإنجيل الرابع ، فالرواية ليست مختلفة عن الأناجيل الثلاثة فحسب ، وإنما نجد في سرد يوحنا لها تناقضاً مع نفسه أيضاً .

فيبدو يوحنا المعمدان في جملة ، يعرف يسوع وموقعه معرفة دقيقة ، فيرحب به ما أن رآه آتياً ، قائلاً :

«هو ذا حمل الله الذي يحمل خطيئة العالم ، هذا الذي قلت فيه يأتي بعدي رجل قد تقدمني ، لأنه كان قبلي» .

يوحنا ف ١ ـ ٢٩ : ٣٠ .

وفي الجملة الثانية مباشرة ، يبدو يوحنا لا يعرف يسوع ، ولا فكرة لديه عن شأنه وموقعه ، فنقرأ فيه قول المعمدان :

«ولم أكن أعرفه ، ولكني ما جئت أعمد في الماء ، إلاّ لكي يظهر أمره لإسرائيل ، ولم أكن أعرفه ، ولكن الذي أرسلني أعمد في الماء ، هو قال لي أن الذي ترى الروح ينزل فيستقر عليه ، هو ذاك الذي يعمد في الروح القدس ، وأنا رأيت وشهدت أنه هو ابن الله» .

يوحنا ف ١ ـ ٣١ : ٣٣ : ٣٤ .

في الجملة الأولى يرحب المعمدان بقدوم : حمل الله الذي قلت فيه يأتي بعدي رجل قد تقدمني لأنه كان قبلي ، فبدا يوحنا بها ، على معرفة أكيدة ، وعلم مسبق ، بشخص يسوع ، وموقعه ، وتمايزه عليه .

ولكن يوحنا بدا في الجملة الثانية لا يعرف يسوع ، ويجهل موقعه ، وفوقيته عليه ، وينتظر أن يتعرف عليه بواسطة الحمامة ، التي ينتظر أن تنزل على رأس أحد الناس ، ليكون هو الذي يعمد في الروح القدس .

أيضاً وأيضاً ، في إنجيل يوحنا ، المعمدان ، لم يكن على معرفة من

شخصية عيسى ، حتى بعد تعميده .

يوحنا ف ١ ـ ٣٠

بينما يقول لنا القديس لوقا ، أن المعمدان ـ وهو ما يزال جنيناً في رحم أمه ـ كان يعرف عيسى ويعبده . لوقا ١ ـ ٤٤ تناقض آخر . . .

يروي إنجيل متى ١١ ـ ١٤ ، أن المسيح أعلن أن يوحنا المعمدان ، كان تجسيداً جديداً للنبي إيليا .

فنقرأ فيه :

«حتى يوحنا ، فإن شئتم أن تفهموا ، فهو إيليا المنتظر» .

بينما ينفي يوحنا المعمدان نفسه صحة هذا الأمر ، فيبلغ الوفد اليهودي :

«أنه لم يكن إيليا ، ولا المسيح ، ولا ذلك النبي» .

بحسب إنجيل يوحنا ف ١ ـ ٢٠ : ٢١ : ٢٢ .

ومع ذلك ، فكلا القولين المثبت والمنفي ، وارد في الكتاب المقدس عند المسيحيين .

تعارض آخر نجده بين إنجيلي متى من جهة ، ومرقص ويوحنا من جهة ثانية ، ولوقا من جهة ثالثة ، حيث اختلفت هذه الأناجيل حول مسألة مشي القديس بطرس على الماء .

فجاء في إنجيل متى :

«فنزل بطرس من السفينة ، ومشى على الماء آتياً يسوع» .

متى ف ١٤ ـ ٢٩ .

بينما يتجاهل كل من مرقص ويوحنا ، هذه المعجزة لبطرس ، مؤكدين أن من

مشى على الماء هو المسيح ، دون أي ذكر لبطرس حول هذا الموضوع .

في يوحنا :

> «فاضطرب البحر ، وبعدما جذفوا نحو خمس وعشرين غلوة ، رأوا يسوع ماشياً على البحر» .

يوحنا ٦ ـ ١٩ : ٢٠ .

وفي مرقص :

> «جاء إليهم يسوع عند آخر الليل ماشياً على البحر ، وكاد يتجاوزهم» .

مرقص ف ٦ ـ ٤٩ : ٥٠ .

بينما لا ذكر لهذه المعجزة البتة في إنجيل لوقا ، لا بالنسبة للمسيح ، ولا لبطرس .

فماذا نجد في هذه النصوص الأربعة حول موضوع واحد ، سوى ما يزيد الشك في أذهاننا ، والبلبلة والغموض في عقولنا .

وآخر وآخر أيضاً ، جاء في إنجيل متى : ف ١٠ : ٣٤ ما يلي :

> «لا تظنوا أني جئت لأحمل السلام إلى الأرض ، ما جئت لأحمل سلاماً، بل سيفاً ، جئت لأفرق بين المرء وأبيه ، والبنت وأمها ، والكنة وحماتها ، فيكون أعداء الإنسان أهل بيته» .

وإذا كانت صورة المسيح في متى : فارس يحمل السيف لا السلام ، وينشر الفرقة والبغضاء بين المرء وأبيه ، ليكون عدو الإنسان في بيته .

فإن صورته في لوقا نجدها أكثر قسوة ، وأشد جفوة ، وأعظم خشونة ، ولا ندري ما هي الأسباب التي جعلت يسوع في الأناجيل ، يتحول من داعية محبة ، وصفح ، وتسامح مطلق ، قائلاً :

«من ضربك على خدك الأيمن ، فدر له الأيسر» .

إلى داعية سيف ، وقوة ، وغطرسة ، وجبروت ، ومناد بـالفرقـة والتنابـذ ، بين أفراد البيت الواحد . . .

فنقرأ فيه :

«جئت لألقي على الأرض ناراً ، وما أشـد رغبتي أن تكون قـد اشتعلت ، أتـظنـون أني جئت لأجـل السـلام في الأرض ؟ لا ، أقول لكم ، لا ، بل الانقسام ، فيكون بعد اليـوم خمسة في بيت واحـد ، منقسمين ثـلاثـة منهم على اثنين ، واثنـان على ثلاثـة ، سينقسم النـاس فيكـون الأب على ابنـه ، والابن على أبيـه ، والأم على بنتهـا ،والبنت على أمها والحماة على كنتها ، والكنة على حماتها» .

لوقا ١٢ : ٤٩ .

تعارض آخر نجده بين دفتي إنجيلين : متى ومرقص .

ففي الاصحاح الثامن والعشـرين من إنجيل متى ١٩ : ٢٠ ، نقـرأ كلمات المسيح التالية :

«اذهبـوا وتلمذوا جميـع الأمم ، وعمـدوهم بـاسم الأب ، والابن ، والروح القدس ، وعلموهم بأن يحفظوا جميع ما أوصيتكم» .

ولكن هذه الكلمات ، لا نجدها عينها في إنجيل مـرقص ، بل نقـرأها في الاصحاح السادس عشر ١٥ ـ ١٦ كالتالي :

«اذهبـوا إلى العالم أجمـع ، واكـرزوا بـالإنجيـل للخليقـة كلها ، من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدن» .

حيث لا نجـد في مـرقص أي ذكـر لـلأقـانيم الثـلاثـة : الأب ، والابن ، والروح القدس . . . وهو مناقض لما جاء في إنجيل متى .

ول ديورانت ، وهو من أهم الـذين تعاطـوا مسألـة الأناجيـل ، يدلي بـرأيه حولها فيقول :

«إن الأناجيل الأربعة التي وصلت إلينا ، هي البقيـة الباقيـة من عـدد أكبر منهـا بكثير ، كـانت في وقت ما منتشـرة بين المسيحيين ، في القـرنين الأول والثاني ، ولعلهـا تعرضت لأخطاء النقل والتحريف ، المقصود بـه إيراد التـوفيق بينها وبين الطائفة ، التي ينتمي إليها الناسخ»[1] .

وقال :

«إن الأناجيل يناقض بعضها بعضـاً ، وإن أهم ما تتفق فيـه أنها أبعد ما تكون عن العقل ، فإنجيـل يوحنـا يختلف كل الاختـلاف عن الأناجيـل الثلاثـة الأخـرى ، في روايتهـا ، وفيما تحتويه من أصول الدين»[2] .

وهذه شهادة هارب آخر من النفق المسيحي ، هو الأب البروفسور بنجامـان كلداني ، الذي قال :

«هل في وسع المرء استخلاصاً من هذه الأناجيل ، الحافلة بالأقوال المتناقضة ، المتضاربة ، أن يتـوصل إلى استنتـاج صحيح ؟ هل يستطيع الإنسان أن يعرف الحقيقة ؟»[3] .

هذا غيض من فيض ، وقليل من كثير ، آثرنا أن نلامس به بعض ما تعج به الأناجيل من التناقضات الكثيرة ، والاختلافـات المتعددة ، تـاركين مهمة التـوسع بها وتفصيلها بصورة أعم ، إلى الكتب والأبحاث التي تعـاطتها ، فـأشبعتها بحثـاً

---

(١) قصة الحضارة: ج ١٣ ص ٢٠٦ .

(٢) قصة الحضارة: ج ١٣ ص ٣٥.

(٣) محمد في الكتاب المقدس : ص ١٦٩ .

وتدقيقاً ، فأجمعت بأنه ، بات معها لا يجوز الادعاء بعصمة هـذه الأناجيـل ، أو ردها إلى الله كلاماً منزلاً ، لا شك فيه ولا ريب .

ومن أراد أن يستـزيد معـرفة لهـا ، فما عليـه إلا دخول النفق بـاحثاً مفتشـاً مـدقـقاً ، لـيعـود بعدهـا إما هـارباً إلى أحضـان الإسلام ، كمـا فعـل الكثيـر من المسيحيين ، وإما ليقضي بقية عمـره ، في دوامة الشـك والحيرة والبلبـال ، وهو حال الكثرة منهم اليوم .

فكيف لا يـأخذنـا العجب ، ولا تتملكنـا الـدهشـة والشـك ، ونحن نـرى التناقض صريحاً واضحاً بين نصوص الإنجيل الواحد ، حول الموضوع الواحد ، أو بين إنجيلين معروفين بتقارب نصوصهما ، حـول نفس الموضـوع ؟ حتى بات الإنسان لا يعرف ، أي من الأناجيل يصدق وبأيهما يشك .

هدفنا بالأساس كما نعرف ، هو التفتيش عن الباب الـذي أدخل منـه النبي عيسى نفق البنوة لله ، أو الشراكة معه ، أو التأليه .

ولا نـظن بعد هـذه الرحلة داخـل النفق المسيحي ، إلاّ وقد أصبحنـا على خطوات قليلة منه .

من هنا بدأت ألوهية المسيح

للإنصاف فإننا نقول : بأن نظرية أبوة الله للمسيح ، لم نجد لها في الأناجيل الثلاثة الأولى ، إلا آثاراً غامضة ، مهزوزة ، مشوشة ، وأن ألوهيته بشكلها النافر الحاد ، الذي تطور إليها وضع المسيح واستقر عندها ، ليس لها أساس واضح فيها أيضاً .

الأمر الذي لم يبق أمامنا سوى الإنجيل الرابع ، إنجيل يوحنا ، لنتوقف عنده وندقق فيه ، فلربما تكون رحلة المسيح نحو التأليه ، وابتعاد المسيحية عن الإيمان بوحدانية الله ، التي آمن وقال بها عيسى ، قد بدأتا منه . . . فإلى إنجيل يوحنا .

يرجع بعض النقاد سفر الرؤيا إلى يوحنا ، ويعتقدون بأنه كتب هذا السفر والإنجيل الرابع ، في فترة نفيه ، في إحدى جزر بحر إيجه .

والواضح أن سفر الرؤيا ، هو سفر يهودي قلباً وقالباً اعتمد في كتابته ، على رؤى النبوءات الرمزية ، وهو أسلوب كان يلجأ إليه يهود ذلك العصر ، في كثير من الأحوال ، وللتثبت من يهودية هذا السفر ، رأينا أن نورد مقطعاً منه يبصر به يوحنا في عدة رؤى متتابعة ، ما يلي :

«سوف يحل بروما والإمبراطورية من ضروب العقاب ، سترسل عليها أسراب من الجراد ، تظل خمسة أشهر تعذب سكانها أجمعين ، ما عدا المائة ألف والأربعة

والأربعين ألفاً ، من اليهود الذين يحملون على جباههم خاتم المسيحية»[1] .

فماذا يفسر ويعني استثناء اليهود من العذاب المنتظر ، سوى الإعتقاد إلى حد اليقين ، بأن يوحنا رغم مسيحيته كان لا يزال مشدوداً ، إلى يهوديته التي عاش بين أحضانها ، قبل أن يتمسيح ، ويحاول ديورانت أن يوجد ليوحنا العذر في هذا الموقف المريب ، فقال :

«وقديبدو من غير المعقول ، أن يكون كاتب سفر الرؤيا هو نفسه كاتب الإنجيل الرابع ، ذلك أن سفر الرؤيا سفر يهودي ، وأن الإنجيل فلسفة يونانية .

ولعل الرسول يوحنا ، كتب تلك الرؤى في سورة غضب ، التي أعقبت اضطهاد نيرون للمسيحيين ، كما هو معروف ، ثم كتب الإنجيل في أيام نضجه ، وشيخوخته ، ونزعته الميتافيزيقية عام ٩٠م ، وربما كانت ذكرياته عن السيد المسيح ، قد ذهب بعضها[2] .

ومن حقنا أن نسأل ديورانت ، وقد دافع عن يوحنا ما استطاع ، رغم أنه دق إسفين الشك في مصداقية رد سفر الرؤيا إلى يوحنا ، هل أن غضب يوحنا من اضطهاد نيرون للمسيحيين ، يسمح له بتبرئة اليهود من دم المسيح ؟

لدرجة سمح بها هذا القديس لنفسه ، أن يستثنيهم من العذاب المنتظر ، في وقت كان جسد المسيح لا يزال معلقاً فوق صليبهم ، كما يعتقد المسيحيون . . وهي مصيبة حقاً .

أما المصيبة الأدهى ، فهي في أن تكون فعلاً ذاكرة يوحنا عن السيد

---

(١) سفر الرؤيا: ٧٧

(٢) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٢٧٤.

المسيح عندما كتب سفره ، قد ذهب بعضها ، كما قال ديورانت .

ليصبح بهذه الحالة الإنجيل الرابع برمته موضع شك وشبهة ، بكل ما جاء فيه ، خصوصاً وأن النقاد ، يعتقدون أن الإنجيل والسفر ، قد كتبهما يوحنا في وقت واحد ، وما ينسحب على السفر ، ينسحب على الإنجيل أيضاً .

بدأ يوحنا إنجيله بعملية تعريف جديدة للمسيح ، لم يسبقه إليها واحد من الأناجيل الثلاثة السابقة ، فقال :

«في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان ، فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس ، والكلمة صار جسداً وحل بيننا»[1] .

فالواضح من النص ، أن يوحنا قصد أن الكلمة هي الله ، والله هو الكلمة الذي صار جسداً وحل بيننا في شخص المسيح .

وبذلك تبدأ عملية فصل واضحة للمسيحية عن اليهودية ، وهو ما كان قد بدأه قبله بولس برسائله الشهيرة ، وعملية الفصل هذه بالشكل الذي أتت به ، كافية لتقطع آخر خيط يوصل بين المسيحية والتوحيد ، بعد ما وضعت عيسى على سكة الألوهية ، أو الشراكة مع الله .

ومعنى ذلك أيضاً ، أن يوحنا وهو يكتب إنجيله ، كان يضع نصب عينيه هدفاً يجاهد كي يؤمن له مقومات وحيثيات ، بحيث تأتي حياة المسيح ، لتكون ترجمة وتحقيقاً لكل بشارات العهد القديم ، ولذلك نراه يتجاهل كل أخبار الأناجيل الثلاثة الأولى ، ويتخطاها ليسير باتجاه هدفه الذي كان بالنسبة له قضية أساسية ، ألا وهي تجلية شخص المسيح باعتبارات ثلاثة ، وهي : أنه كلمة

---

(١) انجيل يوحنا فصل: ١ : ١ .

الله ، وخـالق العالم ، ومنقـذ البشريـة ، واضعاً بـذلك الإيمـان المسيحي برمتـه بوضع جديد ، وواقع جديـد ، لم يعرفهمـا واحد من أصحـاب الأناجيـل الثلاثـة الأولى قبله .

من هنا بدأت مسيرة المسيح نحو ألوهيتـه ، أو بالأصـح من هنا بـدأ يوحنـا بترحيل المسيح نحو الألوهية ، ومع هذه العملية بدأت مراجل البـركان المسيحي بالغليان من الداخل ، مهددة بانفجـار تنطلق منـه حمم الشكوك ، والتسـاؤلات ، والخـلافات ، في الكيـان المسيحي ، وهو مـا حدث فعـلاً ، وعن هذا الإنجيـل تحدث ديورانت ، فقال :

«إنجيل يوحنا هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية ، بـوصفه كلمـة الله ، وخالق العـالم ومنقذ البشـريـة ، وهـو ينـاقض الأناجيـل الأخـرى في كثيـر من التفـاصيـل ، وفي الصورة العامة التي رسمها للمسيح .

وأن ما يصطبغ به من نزعة قـريبة من نـزعة القـائلين ، بأن الخلاص لا يكون بـالإيمان ، بـل بالمعـرفة ، ومـا فيه من آراء ميتـافيزيقيـة ، قد جعـل الكثير من البـاحثين في الدين المسيحي ، يشكون في أن يكون واضعه هو الرسول يوحنا نفسه»[1] .

ولكن رغم أن ما جاء في إنجيـل يوحنـا ، قد أبعـد المسيحية عن التـوحيد أشواطاً ، وغير مسار الـدعوة المسيحيـة تغييراً عميقـاً ، إلا أن المسيح لم يصبـح إلٓهاً ، أو بعض إلٓه بوضعه الحالي ، إلا بعد أن أصبحت رسائل بـولس الشهيرة ، أساس الإيمان المسيحي وركيزته .

تلك الـرسائـل ، التي كانت المسؤول الحقيقي عن هـذا الـدفـع الخـطيـر

---

(١) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٢٠٩.

بالفكر المسيحي ، نحو الضياع والبلبلة ، والإنحراف .

وهي اليـد التي سقت المسيحية الكـأس المرة ، التي لا زالت تتـرنـح في دوخـانها من آثـاره . رسائـل بـولس ، هي التي أوقعت الإيمـان المسيحي ، في شباك الشرك من جديد .

ولا يزال هذا الإيمـان من يومهـا ، يناضـل ، ويكافـح عبثاً ، للخـروج من مـأزقـه دون جـدوى . ممـا جعله مضــطراً أن يكيف وضعـه بشتى الـوسـائـل والأساليب ، على أساس بقائه حبيس هـذا الوضـع البائس ، الشـاذ ، ليبدو رغم تعاسته ، وكأنه في عيشته راضياً مرضياً .

فإلى رسائل بولس وغرائبها .

فجّر بولس البركان ولما يهدأ بعد

صورة الأناجيل الأربعة ، بكل ما حفلت بـه من تناقضـات واختلافـات في مضـامينها ومفـاهيمهـا ، تـركت في ذهن القـارىء بلبلة ، وحيـرة ، وغمـوض ، وزرعت في عقله حـولها بـذرة شك وريبـة ، شأنهـا في ذلـك شـأن كتب العهـد القديم ، وسفر أعمال الرسل ، وباقي مصادر الإيمان المسيحي .

وسحب الغـطاء عن الأناجيـل ، بات يفـرض علينـا أن نتقـدم من رسـائـل بولس ، لنفض غلافاتها ، ونفتح صفحاتها ، ونقرأ مضامينها ، وندقق ، ونمحص بها .

إذ أن في تلك الـرسائـل ، يكمن سر المـرض المسيحي العضال ، وإليهـا تعود مشاكل المسيحية المستعصية ، المتراكمة على مدى عشرين قرن ونيف .

وقبل أن نتحدث عن تلك الـرسائـل ، لا بد لنـا من أن نلم ببعض جوانب شخصيـة كاتبهـا لنتعرف إليهـا ، تلك الشخصيـة ، الغـامضـة ، المتقلبـة ، التي حملت في ذاتهـا كل التنـاقضات ، إذ كـان بولس في حقبـة من عمـره في منتهى القسوة ، وفي حقبة أخرى في منتهى البساطة والوداعة .

فما هو معروف عن هذا اليهودي ، أنه تزعم أكبر عمليـة اضطهـاد تعرضت لهـا المسيحية في بـدء انتشارهـا ، إذ كان يشـرف بنفسه على عمليـات القمـع ، والقتل ، والتشريـد ، لكل من يشتبـه بأنـه اعتنق المسيحية ، أو احتقـر النامـوس اليهودي .

ولكنه انتهى بعد ذلك ، ليصبح من أقدر الساعين إلى نشر الديانة المسيحية ، حتى أنه وصل في النهاية ليعلن أن عيسى هو ابن الله .

فيفجر بوجه المسيحية أكبر مشكلة عرفها تاريخها ، ولا يزال النقاش والجدل حولها قائمين بين مؤيد ومعارض ، أما كيف حدث هذا الانقلاب في حياة هذا اليهودي المتشدد ، فبعد أن كان يهودياً فظاً متعصباً انقلب فجأة إلى مسيحي متطرف متشدد ؟ .

فهذا الأمر تحدث عنه ديورانت فقال :

«كان الجو اليوناني الذي يحيط ببولس في طرسوس ، يتحدث عن منقذ ينتشل البشرية ، كما كانت علوم بني جنسه من اليهود ، تتحدث عن مسيح منتظر ، فلقد فكر بولس ، ولم لا يكون يسوع صاحب الشخصية الفذة ، العجيبة ، الغامضة ، هو ذلك المسيح المنتظر ؟

وبعد أيام وعلى أثر شفائه من وجع في عينه ، بفضل مسح أحد الرهبان عليها ، دخل بولس مجامع دمشق ، وقال للمجتمعين أن عيسى هو ابن الله»[1] .

أما كيف أهدى بولس لله ابناً ؟ وكيف اكتشف لعيسى أباً في السماء غير يوسف النجار ، الذي تؤمن به المسيحية أباً للمسيح ؟ فهذا أمر لا يزال الجدل قائم حوله .

وأضاف ديورانت قائلاً :

«لقدعثر بولس في خبايا الشريعة اليهودية على حلم يصور لليهود فلسفة الحشر والنشر ، فحرره ، ووسع نظامه ،

---

(١) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢١٨ .

واستطاع أن يمزج مبادىء اليهود الأخلاقية بعقائد اليونان فيما وراء الطبيعة ، وأوجد طقوساً خفية جديدة ، ووضع مسرحية للحشر جديدة ، استوعبت كل ما سبقها من مسرحيات تصور هذه العقيدة .

فانتقلت الطقوس اليونانية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة ، وساعدت عدة مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية ، على احداث هذه النتيجة الغامضة .

فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ، ويوم الحساب ، وأبدية الثواب والعقاب ، وخلود الإنسان ، ومنها أيضاً عبادة أم الطفل والاتصال الصوفي .

ومن مصر أيضاً ، استمدت الأديرة نشأتها ، والصورة التي تسحب على منوالها . .

ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى ، ومن سوريا أخذت تمثيلية أدونيس ، وربما تراقيا هي التي بعثت للمسيحية طقوس دينوشيس ، وموت الإلّه ونجاته .

ومن بلاد فارس ، جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمة الأرض» .

وينهي ديورانت حديثه عن المسيحية ، فيقول :

«إن المسيحية كانت آخر شيء عظيم ابتدعه العالم الوثني القديم ، وأن المسيحية لم تقض على الوثنية ، بل تبنتها»[1] .

---

(١) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٦٩ .

وهكـذا نجـد أمـامنـا غمـوض ، يحيط بتحـول بـولس من اليهـوديـة إلى المسيحية .

وغموض حول الأسباب والدوافع الحقيقية ، التي كـانت وراء هذا التحـول المستغرب .

وغموض أيضاً حول نظرياته التي تركها للمسيحيـة ، وحول المصـادر التي استقى منها تلك النظريات ، ثم شك يحيط بمصداقية رد هذه الرسائل إلى بولس بالذات .

ولكن مـاذا حملت رسـائـل بـولس للمسيحيـة ، حتى أحـدثت فيهـا هـذا الانقلاب الرهيب ، وخلفت لها الإرث البائس من الخلافات ، التي كلفتها أنهاراً من الدماء المسيحية ، أهرقت على مذبح الإيمان بها ومعارضتها ؟ .

الحقيقـة أن الثمن الأكبر الـذي دفعته المسيحيـة ، بسبب إيمانهـا بمبادىء بولس ، كان طلاقها النهائي للتوحيد ، وابتعادها عنه تلك المسـافات الشـاسعة ، واستبدالها إياه بتوحيد مركب معقـد ، هو في الـواقع شـرك مبطن ، لا يغـطيه إلاّ رداء شفاف فاضح من التوحيد .

والغـريب أن بولس ، رغم أنـه وضـع رسـائله في وقت مبكـر بعـد غيـاب المسيح ٤٥ ـ ٤٧ م . وقبل كتابة أول الأناجيل الأربعة بعقدين من الـزمن ، إلا أن معاصريه لم يشعروا بـأثره في المسيحيـة إلا بعد قـرن كامـل ، الأمر الـذي جعل أحاديثه الشفهية تضعف في ذاكرة الناس .

والظاهر أن نظرياته لم تلق في البداية استجابة سريعة من الناس ، كما كان يأمل ، مما جعله يشعر بمرارة قاسية ، عبّر عنهـا في رسالتـه إلى أهل غـلاطية ، الذين كما يبدو تركوه ليتبعوا سواه ، فأرسل لهم قائلاً :

«إني أعجب من أنكم أسرعتم بالإنتقـال ، عمن استدعـاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر ، وهو ليس إنجيل ، بـل أن

معكم قوم يلقون البلبلة بينكم ، وبغيتهم أن يبدلوا بشارة المسيح» .

ولم يلجأ المسيحيون إلى رسائل بولس ، إلا عندما أخذ العقل المسيحي يضطرب بمئات من عقائد البدع ، وبعد أن تكاثرت الأناجيل ، التي زادت من حدة الضياع الفكري ، وفاقمت في أزمة التمزق الإيماني خصوصاً بعد ما كشفت تلك الأناجيل عن عجزها ، في أن تكون السد الواقي لحماية الأرض المسيحية ، من طوفان البدع والهرطقات .

عندها لجأ المسيحيون إلى بولس ، فأضحت رسائله بعد قرنين ونيف إطاراً لمجموعة من العقائد ، أضفت على الجماعات المتفرقة اتزاناً ، وألّفت منها كنيسة واحدة .

قال ديورانت في بولس :

«بقي الرجل الذي فصل المسيحية عن اليهودية من حيث الجوهر ، يهودياً في قوة خلقه وصرامة مبادئه»[1] .

فما هي النظريات ، التي تضمنتها رسائل بولس يا ترى ؟

ترك بولس للمسيحية أربعة عشر رسالة ، أرست نظريات جديدة للكنيسة ، تبنتها بعد موته بثلاثة قرون تقريباً ، لتصبح قاعدة الإيمان المسيحي ومنطلقه ، تلك النظريات التي فرضها أتباع بولس ، عبر قرارات المجامع المسكونية وسبل تطبيقها المعروفة ، بالقوة والإكراه .

ويلاحظ أن هذه الرسائل تكاد تأخذ نمطاً واحداً في ابتدائها وخواتيمها ، فهي تتحدث بنعمة الله الآب ، والرب يسوع .

أولى رسائله كانت إلى أهل رومة ، وفيها وضع بولس أهم المداميك في

---

(١) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٢٧٠ .

بنيان نظرياته حول المسيح ، معلناً أن للمسيح طبيعتين ، طبيعة إنسانية وطبيعة إلٓهية .

وفيها نادى بولس بنظرية التجسد والصلب والقيامة ، التي انطلقت منها وارتبطت بها كل نظريات الأناجيل الأربعة ، المتعلقة بموضوع المسيح بنسب متفاوتة .

ونستطيع القول ، أن الصدام يومذاك بين بولس واليهود ، بدأ من هذه الرسالة بالذات . فاليهود لم يكونوا ينتظرون سوى نبياً ، وموسى لم يبشر شعبه بمنقذ ، نصفه بشر ونصفه إلٓه .

جاء في سفر أعمال الرسل :

«قال موسى : سيقيم لكم الرب الإلٓه من بين إخوتكم نبياً مثلي ، فاسمعوا له في جميع ما يقول لكم ، ومن لم يستمع لذلك النبي يستأصل من بين الشعب».٣ : ٢٣ .

وفي رسالته إلى أهل رومة ، ساوى بولس بالخطيئة بين اليهود والوثنيين ، وفيها طعن بأول وأهم مبادىء الناموس اليهودي وهو : الختان ، معتبراً أن الختان هو ختان القلب ، وليس ختان الجسد ، وفيها أعلن أن الخلاص هو بالإيمان بالمسيح ، وليس بالأعمال وفق الناموس اليهودي .

وفيها أيضاً كشف بولس بصراحة ووضوح عن نظريته القائلة ، بأن عيسى هو ابن الله ، وأنه تجسد وصار إنساناً مثلنا في كل شيء ما عدا الخطيئة .

إن مجمل مبادىء ونظريات بولس الأساسية ، نجدها في هذه الرسالة تقريباً ، وما جاء في الرسائل الأخرى ، ما كان إلا تأكيداً أو شرحاً لها . .

في رسالته إلى أهل رومة قال :

«نعمة لكم ، وسلام من أبينا الله ، والرب يسوع» .

ولكنه في رسالته الثانية إلى قورنتوس أضاف :

«مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح» .

حيث أدخل بولس أبوة الله للمسيح ، أو بنوة المسيح لله ، على خط الإيمان المسيحي ، ولأول مرة . ومن رسالته إلى أهل قورنتوس يتضح لنا ، أن الصراع داخل الصف المسيحي ، وعلى مستوى الرسل ، كان آنذاك على أشده ، بين فئة يتزعمها القديس بطرس ، كانت تنادي بالحفاظ على بعض الناموس اليهودي ، على الأقل في موضوع الختان ، إضافة إلى التعاليم المسيحية .

وفئة أخرى بزعامة بولس ، دعت بإصرار إلى فصل تام بين اليهودية والمسيحية ، وعلى كافة الصعد .

وفي رسالته إلى غلاطية ، قال بولس :

«من بولس وهو رسول ، لا من قبل الناس ، ولا باختيار إنسان ، بل باختيار يسوع المسيح ، والله الآب الذي أقامه من بين الأموات» .

والمسيح في هذه الرسالة في وضع مبهم غامض ، حيث أنه كائن غير بشري ، وإن كان قد ظل ذاتاً مستقلة عن الله ، وفيها أعلن بولس بشكل حاد بطلان شريعة موسى ، مفجراً بذلك أهم تناقض حاد بينه وبين المسيح نفسه .

عندما قال :

«شريعة موسى كالمؤدب ، تعد الناس لمجيء السيد المسيح ، كان بالناس حاجة إليها لتورطهم بالخطيئة ، أما وقد جاء المسيح ، فلا حاجة إلى المؤدب ، ولذلك بطلت الشريعة وزالت» .

ف ١ ـ ١٩ ـ ١٠ .

وفي رسالته إلى أهل غلاطية قال :

«لقد انقطعتم عن المسيح ، يا أيها الذين يلتمسون البر من الشريعة» .

غلاطية ف ٥ ـ ٤ .

وقال :

«إن دعاة العمل بأحكام الشريعة لعنوا جميعاً» .

ف ٣ ـ ١٠ .

بينما المسيح أعلن بصراحة وحزم :

«لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء ، ما جئت لأبطل بل لأكمل ، الحق أقول لكم ، لن يزول حرف أو نقطة من الشريعة ، حتى يتم كل شيء ، أو تزول السماء والأرض ، فمن خالف وصية من أصغر تلك الوصايا ، وعلم الناس أن يفعلوا مثله ، عد الصغير في ملكوت السموات ، وأما الذي يعمل بها ويعلمها ، فذاك يعد كبيراً في ملكوت السموات»[١] .

المسيح يوصي بأن لا يزول حرف أو نقطة من الشريعة ، فيما بولس يعلن بطلان الشريعة بكاملها . فمن نتبع ؟ وإلى من نصغي ونستمع ؟ .

والسؤال نوجهه للقديس بولس بات مفروضاً : هل انتهى تورط الناس بالخطيئة ، بعد مجيء المسيح ؟ وهل تطهر العالم من ذنوبه وخطاياه ، بعد عملية الصلب المدروسة ؟

---

(١) متى ف ٥ ـ ١٧ : ١٨ : ١٩ .

وإذا كان نعم ، فبماذا يفسر القديس ، ويصنف تلك الجرائم الفظيعة ، المستمرة بشتى أشكالها ، على مستوى الكرة الأرضية ، منذ صلب المسيح ، وحتى اليوم ؟

نقطة أخرى لا بد من ملامستها ، من يقرأ رسائل بولس يلاحظ دعوة صاحبها ، وحماسه للعمادة ، حتى أنه كان يرفض قبول إيمان أي مسيحي ، تعمد على يد يوحنا المعمدان ، فيصر على تعميده من جديد ، ونراه يهدد بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، وبينها جهنم وبئس المصير ، لكل من لا يتعمد . فيما نجده ثورة عارمة وحرباً شعواء ضد الختان ، مع العلم أننا لو قارنا بين موضوعي العمادة والختان ، لوجدنا أنفسنا أمام طقسين .

ختان يهودي ينفع ولا يضر .

وعمادة تعود بأصولها إلى عمق الطقوس الوثنية ، لا تنفع ولا تضر ، فأيهما أفضل وأوجب ؟ وأكثر الظن أن تشدد بولس ضد الختان ، ما كان في الحقيقة إلا موقفاً شخصياً وانعكاساً طبيعياً لصراعه المحموم آنذاك ، مع بطرس وجماعته من جهة ، ومع اليهود من جهة أخرى ، والذي كان موضوع الختان ، يعتبر مركز الدائرة في ذاك الصراع ، وإذا كان اليهود ، يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار ، وأن لهم درجة على الشعوب الأخرى ، فبولس في رسالته إلى أهل غلاطية ، يعلن أن لأتباع عيسى درجة على اليهود ٥ ـ ١ ـ ١٢ .

ومن يقرأ رسالة بولس إلى أهل غلاطية ، يتأكد أن أفكار بولس هي المسؤولة عن الخلل الرهيب ، الذي نجده في الإيمان المسيحي حول الإنسان ، أو بالأحرى حول موضوع الجسد والروح .

ففي هذه الرسالة ، يعلن بولس ، أن التوفيق في المسيحية بين حاجات الروح ، وحاجات الجسد مستحيلاً ، وأن المصالحة بينهما معدومة ، وأسباب الوفاق والتعايش مقطوعة .

وعلى الإنسان المسيحي ، بموجب أفكار بولس ، أن يعيش في دوامة هذا العداء المستشري ، بين جسده وروحه .

فإن عاش بروحه فعدواً لجسده ، والعكس يجعله عدواً لروحه ، وديانته .

وهكذا بات المسكين يعيش محشوراً بين نار عدوين ، كل منهما عزيز عليه ، غال عنده ، فلا هذا يرحمه ، ولا ذاك يرأف بحاله ، وكم يتمنى المسكين لو أن ديانته سمحت له بالتوفيق بينهما ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، وباني مداميك ديانته ، يعلن بالفم الملآن :

«اسلكوا سبيل الروح ، ولا تقضوا شهوة الجسد ، لأن الجسد يشتهي ما يخالف الروح ، والروح يشتهي ما في الجسد»[1] .

وينقطع آخر خيوط الأمل في نفس المسيحي ، بالتوفيق بين مطالب جسده وروحه ، عندما يقرأ قرار قديسه الحازم قائلاً :

«إن الذين هم خاصة المسيح ، قد صلبوا جسدهم وما فيه من شهوات» .

غلاطية ١٦ ـ ١٧ ـ ٢٤ .

والويل الويل للمسكين ، إذا ما مالت عينه مرة إلى جسده

وكم كنا نتمنى لو أن القديس المتشدد ، يعود للحظة واحدة إلى الحياة الدنيا ، ليرى بأم عينيه ، ماذا فعل تشدده اللامعقول بحال اتباعه ، فيجدهم في مواخير الجسد والشهوات أفواجاً أفواجاً . فيما الروح المسكين ، وتعاليم قديسهم جميعها ، أصبحت مطرودة منفية من حياتهم ، تندب حظها .

في رسالته إلى افسس يقول :

«مبارك الله أبو ربنا يسوع» .

---

(١) رسالة بولس إلى أهل غلاطية : ف ٥: ١٦ـ ١٧.

أما في رسالته إلى قولوس قال :

«إن كنتم قد قمتم مع المسيح ، فاطلبوا ما فوق ، حيث المسيح جالس عن يمين الله» .

وبهذه الرسالة رفع بولس المسيح إلى مرتبة الألوهية ، ليجعله إلى يمين الله .

وقد يكون ذلك مقدمة منه ، لتركيز الروح القدس فيما بعد على يسار الله ، لتكون بداية اكتمال صورة الأقانيم الثلاثة المعروفة في المسيحية . .

والملاحظ في رسالته إلى أهل افسس ، إن هذا القديس أضاف إلى ألقابه ، التي كان يغدقها على نفسه ، لقباً جديداً هو :

«حامل سر المسيح» .

دون أن يوضح شيئاً عمن أقامه على هذا المنصب الخطير ، وهو الأمر الذي لم يشر إليه واحد من تلامذة المسيح الآخرين الذين عايشوه ، وبولس كما نعرف ليس واحداً منهم . وفي هذه الرسالة ، يصدمنا موقف مريب ومستهجن لبولس من موضوع الرق ، موقف ما هو في الحقيقة ، إلا تنصل واضح من قضية تحريرهم .

فها هو يطلب إلى أولئك العبيد ، الخضوع الأبدي للأسياد قائلاً :

«إن إطاعة أسيادكم وخدمتهم بطواعية وإخلاص ، هو واجبكم وقدركم المقدس» .

٦ـ ٥ : ٦ : ٧ .

والملاحظ أن بولس ، لم يأت بذكر للروح القدس بمعنى كونه اقنوم إلّهي ثالث ، إلا في رسالته إلى افسس ، التي كتبها عام ٦٢ م أي بعد خمس سنوات من رسالته الأولى إلى أهل رومة ، تلك التي أعلن فيها اكتشافه الأقنومين الإلّهيين الأولين ، الإلّه الآب ، والإلّه الابن .

ولا ندري تعليلاً لهذا الأمر الغريب ، إلّا أن تكون صورة الثالوث الإلهي المقدس ، لم تكتمل في مخيلة بولس ، إلا على مراحل ، فكان أن جاء اكتشاف الأقنوم الثالث «الروح القدس» على يديه ، متأخراً خمس سنوات عن الأقنومين الأولين .

والسؤال هنا مفروض : هل كان إيمان الإنسان المسيحي سليماً ، قبل أن يكتشف له بولس أقنومه الإلهي الثالث ؟ ويستخرجه له من خبايا أفكاره ؟

وفي حالة أن يكون أقنوم الروح القدس ، متمماً فعلاً لحقائق الإيمان الصحيح ، فمن كان المسؤول عن تغييبه عن أذهان المسيحيين كل هذه المدة ؟ أليس المسؤول عن ذلك هو المسيح نفسه ؟ باعتباره الوحيد القادر على معرفته ، واطلاع تلامذته وأتباعه على سره ؟ وهو الأمر الذي لم يفعله المسيح ، فبماذا نفسر سكوته عن هذا الموضوع الخطير ؟ ثم ماذا كان سيحدث لو بقي بولس يهودياً ، ولم يهتد إلى المسيحية بعد شفاء عينيه من رمدهما في الشام ؟ أما كان من الجائز أن تبقى الحقيقة طي الكتمان ، وصورة الأقانيم الإلهية ناقصة تنتظر من يتقدم لملأها بالروح القدس ، توأمها الثالث ؟

أما في رسالته إلى أهل فيلبي ، فإن بولس يطالعنا بأمر خطير ، عندما يعلن المساواة المطلقة بين المسيح وبين الله ، لا بل فيما نقله بولس لنا ، يبدو المسيح زاهداً بهذه المساواة ، وغير متحمس لها .

ولنتأكد من الأمر فلنقرأ :

> «فمع أنه في صورة الله ـ يقصد المسيح ـ لم يعدّ مساواته لله غنيمة ، بل تجرد من ذاته متخذاً صورة العبد ، وصار على مثال البشر ، وظهر بمظهر إنسان ، فوضع نفسه وأطاع حتى الموت ، الموت على الصليب» .

ف ٢ ـ ٦ : ٧ : ٨.

إذاً بحسب بولس ، فالمسيح ليس فقط لم يعتبر مساواته لله غنيمة

فحسب ، فبدا متردداً بقبول هذه المساواة ، بل إنه في هذا النص تقدم باختياره «وقراره» «وإرادته» ليظهر بمظهر الإنسان ، ويتخذ صورة العبد ، ويصلب نفسه بقراره وحده ، بحيث بدا الله في النص بعيداً ، معزولاً ، لا دور له ، لا في قرار المسيح ، ولا في تنفيذ القرار .

في رسالة بولس إلى أهل قولسي ، نستطيع التأكيد ، أن المسيح لم يعد الابن الوحيد ، ولا المصلوب بأمر الله الآب .

وإنما الله بالتمام والكمال ، بعد أن أسبغ عليه بولس كل ما يقال لله ولله وحده .

وما علينا لكي نتأكد ، إلا أن نقرأ بعض سطور هذه الرسالة :

«هو صورة الله الذي لا يرى وبكر الخلائق كلها ، ففيه خلق كل شيء مما في السموات ومما في الأرض ، مما يرى ومما لا يرى ، كل شيء خلق به وله ، كان قبل كل شيء ، وبه قوام كل شيء» .

ف ١ ـ ١٥ .

وهكذا صار عيسى هو الله ، والله هو عيسى ، بكل ما في الكلمة من معنى .

في رسالة بولس إلى طيموتاوس ، موقف متجن من المرأة ، إذ يتهمها أنها :

«هي وليس آدم سبب الغواية والمعصية ، وأن لآدم بالأساس عند الله درجة على حواء ، بدليل أنه ولد قبل حواء» .

ولا ندري كيف تسنى لبولس ، أن يتأكد من هذا الأمر .

وفي هذه الرسالة عودة من القديس بولس إلى موضوع الرق ، حيث نجد لمؤسس المسيحية الحالية ، من هذا الموضوع الإنساني الدقيق ، موقف

غريب ، وقول مستهجن ، فهو ليس فقط لا يأمر ، أو لا يوصي أسياد العبيد بوجوب تحريرهم ، بل إنه على العكس ، فهو يوصي العبيد بتعظيم أسيادهم ، ومضاعفة خدمتهم لهم . والأدهى من ذلك ، أن بولس يعتبر هذا الموقف من صلب العقيدة المسيحية ، وأن عدم خضوع العبد لسيده ، هو تجديفاً من العبد على الله والعقيدة . .

ولكي نصدق ، فلنقرأ ما جاء في رسالته الأولى إلى طيموتاوس الفصل ٦ ـ ١ حيث قال :

«على جميع الذين في ربق العبودية ، أن يحسبوا سادتهم أهلاً لأعظم اكرام ، لئلا يجدف باسم الله والعقيدة ، أما الذين لهم سادة مؤمنون ، فلا يستهينوا بهم لأنهم أخوة ، بل عليهم أن يزيدوهم خدمة» .

هذا الموقف المريب من قضية الرق ، يضيفه بولس إلى موقفه ذاته من نفس الموضوع ، الذي عبر عنه في رسالته إلى أهل افسس ، حيث اعتبر بها هذا القديس ، إن طاعة العبد لسيده واجبة ومساوية لطاعة العبد للمسيح نفسه ، إذ قال :

«أيها العبيد أطيعوا سادتكم في هذه الدنيا ، بخوف وتوقير ، وقلب صاف ، كما تطيعون المسيح»

افسس ف ٦ ـ ٥ .

وهكذا وضع بولس ، حلولاً مشرقة ، لمشكلة الرق برمتها ، بأن أمر العبيد ، بمزيد من الخدمة ، وبتعظيم أكبر للأسياد ، ونعم الحل بالطبع . . .

وفي رسالته إلى العبرانيين يركز بولس المسيح عن يمين الله ، وينقل لنا محادثة جرت بين الله وابنه الوحيد .

فلنقرأها :

«قال الله له يوماً : أنت ابني ، وأنا اليوم ولدتك» .

وقال أيضاً :«سأكون له أباً ، ويكون لي ابناً» .

والله كـما يبدو هنا يحدث نفسه. ثم يعلن بولس أن الله أصدر أوامره ، «لتسجد له جميع ملائكة الله» .

وعاد الله «الآب» (نعم . . يفترض التخصيص حتى لا نضيع بين الله الآب والله الابن) عـاد إلى حديثـه مع ابنـه الوحيـد ، ليـطمئنـه إلى ثبـات عـرشـه أبـد الدهور .

قال لابنه : «إن عرشك اللهم ثابت أبد الدهور ، وصولجان الاستقامة صولجان ملكـك ، أحببت البر ، وأبغضت الإثم لــذلـك ، اللهم مسحــك إلّهــك بــزيت الابتهــاج دون أصحابك .

وقـال أيضاً ، رب أنت أسست الأرض منـذ البـدء ، والسموات من صنع يديك ، إنهـا زائلة وأنت باق ، وكلهـا تبلى كالثوب ، تطويها طي الرداء فتتغير ، كأنها ثوب وأنت أنت لا تنتهي سنوك» .

ولـم يكتـف بولس بنقل هذا الحديث الصبـاحي بين الله وابنه الـوحيد ، بـل إنه لكي يزيدنا إيماناً نراه يسأل :

«فمن من الملائكة قال الله يومـاً ؟ اجلس عن يميني ، حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك ؟» .

لا نـريد منـاقشة مـا سمعناه من المحـادثة «الإلّهيـة» ولا التعليق على الأمر بشيء ، فهذه متروكة للقارىء الكريم ، ليقرأ ، ويمحص ، ويحكم .

ولكن سؤالاً واحـداً من حقنا طـرحـه ، هـو ، كيف تسنى للقـديس بـولس معرفة هذا الحديث السماوي ، وبهذه الدقة ، حتى قام بنقله لنا ؟

ومن حقنا أن نقول إنـه ، وحتى يتبين لنا العكس ، سنـظل نعتقد أن الأمـر

كله من بنات الخيال ، ليس إلا .
في تلك الرسالة وهي الأخيرة قال :

«الله بعدما كلمه الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة ، كلمنا هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء ، الذي به أيضاً عمل العالمين ، الذي هو بهاء مجده ورسم جوهره ، نحيط كل شيء بقوة كلامه ، ولما طهر العالم من الخطايا ، جلس عند يمين ذي الجلال في العلى ، فكان أعظم من الملائكة بمقدار ما للإسم ، الذي ورثه من فضل على أسمائهم» .

فالمسيح بحسب هذه الرسالة ، قد تدرج من يسوع، إلى ابن الرب ، إلى إعلان سعادة الرب بأبوته له ، إلى وارث كل شيء ، إلى خالق العالمين ، إلى بهاء مجد الله ورسم جوهره ، إلى مطهر الخطايا ، وأخيراً إلى جالس في الأعالي إلى يمين الله مفضلاً على الملائكة .

فمن رسالة العبرانيين وما سبقها من رسائل ، دخل المسيح إلى الله ، وهو الأمر الخطير الذي نسف كل الجسور بين المسيحية والتوحيد ، وجعلها تتوه وتضيع في متاهات جدلية فلسفية ، لا مجال لإثبات صحتها وإظهار أساس لها .

وحول هذه النقطة بالذات تحدث ديورانت ، فقال :

«لقد أنشأ بولس لاهوتاً لا نجد له إلا أسانيد غامضة أشد الغموض في أقوال المسيح ، ولقد أضاف بولس إلى اللاهوت الشعبي بعض آراء صوفية غامضة ، كانت قد ذاعت بين الناس ، بعد انتشار سفر الحكمة وفلسفة فليمون» .

من ذلك قول بولس ، إن المسيح هو :

«حكمة الله ، ابن الله الأول ، بكر كل خليقة ، فيه خلق الكل ، والكل به وله قد خلق ، الذي هو قبل كل شيء ، وفيه يقوم كل شيء ، هو الكلمة الذي سينجي الناس كلهم بموته .

وإن المسيح قد قتل ، ليفتدي بموته العالم ، الذي استحوذ عليه الشيطان ، بسبب خطيئة آدم . وقد استطاع بولس بهذه التفسيرات كلها ، أن يغض النظر عن حياة يسوع الواقعية ، وعن أقواله التي لم يسمعها منه مباشرة»[1] .

يبقى أن نقول : أن بعض الملاحظات استوقفتنا في رسائل بولس ، لا بد من المرور عليها ، فبالإضافة لغرابة نظرياته حول الله «وابنه الوحيد» وسواها ، نلاحظ أولاً أنه لم يأت في كل رسائله بذكر لمريم أم المسيح ، وكأني به ، وهو الذي وضع عيسى في مرتبة الإله ، كان لا يطيق أن يتذكر ، أن لهذا الإله الابن أماً على الأرض ، أسوة بباقي البشر ، مما قد يهز الصورة التي بناها له في مخيلته ومخيلة أتباعه ، فآثر نسيانها أو تناسيها .

والأخطر من ذلك كله ، هو في أن يكون تجاهل بولس لمريم ، نابع عن موقف منها ، ومن موقعها ، ليصبح تناقضه مع باقي المسيحيين أشمل وأعم .

وإلا فبماذا نفسر هذا التجاهل الغريب ؟

والملاحظة الثانية : أن التطرف ، بل أشد حالات التطرف ، نجده رفيق بولس في كل رسائله ، ويبدو تطرفه واضحاً في طريقة حبه للمسيح ، وتعلقه به ، لدرجة أنك وأنت تقرأ رسائله ، تكاد تنسى صورة الله الأب ، فيما صورة الله الابن تظل مسيطرة طاغية ، وهو موقف ورثه المسيحيون عن قديسهم ، حيث

---

(١) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٦٤ .

نراهم اليوم يعبدون في الواقع المسيح ، أو «الله الابن» بعدما طمست صورته الإلّهية في أذهانهم ومخيلتهم صورة «الله الأب» .

الملاحظة الثالثة : أن اسم المسيحية والمسيحيين ، لا النصرانية والنصارى ، هو الذي تداوله بولس في كل رسائله ، وهذا يعزز اعتقادنا بأن طغيان اسم المسيحية على النصرانية ، كان بتأثير طغيان أفكار بولس ، في كل شأن من شؤون الدعوة النصرانية ، وأن اسم المسيحية والمسيحيين قد شاع ، بعدما صارت أفكار بولس في نيقيه أساس الديانة المسيحية .

الملاحظة الرابعة : هي أن الوفاق بين الرسل الأوائل كان معدوماً ، لا بل أن ما كان سائداً بينهم ليس إلاّ أجواء التعارض ، والتناقض ، والخلافات ، خصوصاً بين محوري بولس وبطرس .

أما **الملاحظة الخامسة** : **فهي** غياب أي ذكر للعجائب والخوارق والمعجزات من رسائل بولس ، سواء تلك المنسوبة للمسيح أو للرسل ، رغم ما لها من أهمية في الإيمان المسيحي ، تلك المعجزات التي أطنبت الأناجيل الثلاثة الأولى بالحديث عنها ، وإهمال بولس لها ، وهو المغالي بحب المسيح لدرجة تأليهه ، أمر مستغرب لا يبدو له في الحقيقة تفسير واضح .

ذهب ول ديورانت في حديثه عن خلافات الرسل فيما بينهم ، ومطامعهم الشخصية ، إلى جعل أولئك الرسل يجاهرون المسيح نفسه بحقيقة مطامعهم ، ومطالبتهم له بمعرفة منافعهم المنتظرة ، من جراء وقوفهم إلى جانبه ، فقال :

> «يصعب علينا أن نقول : أن أولئك الرسل ، كانوا من طراز الذين يختارون ليبدلوا أقوال العالم ، فالأناجيل تظهر ما بين اختلافهم من اختلاف واقعي ، وتكشف عيوبهم كشفاً صريحاً ، فهم لا يخفون مطامعهم ، ولما أراد عيسى أن يهدىء من هذه المطامع ، وعدهم بأنهم سيجلسون في

يـوم الحساب ، على اثني عشـر كرسيـاً ، يدينـون أسبـاط إسرائيل الاثني عشر»[1] .

وهذه الخلافـات أكدتهـا سائـر الأناجيـل ، فتحدث القـديس متى عنها في إنجيله ف ١٩ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ، وذكرها القديس مرقص أيضاً ف ـ ١٠ ـ ٤٢ ـ ٤٣ .

أما القديس لوقا ، فقال في إنجيله :

«وجـرت بينهم ـ أي التلاميـذ ـ مبـاحثـة فيمن تـراه الأكبـر فيهم ، فعلم يسوع ما يباحثون في نفوسهم» .

ف ٩ ـ ٤٦ ـ ٤٧ .

وإذا كـانت المسيحية قـد تحصنت في فترة فـوضاهـا الفكـريـة بنـظريـات بولس ، وتمترست وراءها بوجه عوامل التآكل والزوال ، التي كانت تسير إليهما ، فاستطاعت بذلك على المـدى الآني القصير ، أن تحـافظ على بعض وحدتهـا ، وعلى شكل من أشكال تماسكها ، إلا أن هذه النظريات ، كما أثبتت الأيـام فيما بعد ، كانت نقمة على المسيحيين ، ومصيبة كبرى على وحدتها ، وعامـلاً رئيسياً بتفككها وانشقاقهـا ، وسبباً لكـل الكوارث والمصـائب ، التي لاقتها طيلة سبعـة عشر قرناً من تاريخها .

واعتماد نظريـات بولس ، قـاعدة لـلإيمان المسيحي ، كـان بمثابـة انتصار لبولس ، على حساب كل الأناجيـل الأخرى ، وطعنـة نجلاء في كبـد الحقيقة ، والعقل ، والمنطق .

نظرية التثليث ، مبادىء جعلت للشرك فلسفة وتعليلاً ولإلغـاء وحدانيـة الله فذلكة وتبريراً .

يبقى سؤال ، لا بد من الإجابة عليه ، وهو :

---

(١) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٢٢ .

هل كانت رسائل بولس حقيقة تاريخية لا شك حولها ؟ أم أنها دخلت هي الأخرى دائرة الشك والاتهام ، أسوة بكل مصادر الإيمان المسيحي ؟

الحقيقة المرة ، تقضي أن نذكر بأن حقيقة هذه الرسائل التاريخية ، لم تسلم من الشك والإرتياب ، إن لم يكن كلها ، فبعضها على الأقل ، وهذا ما عبر عنه الباحث الكبير ، صاحب قصة الحضارة ول ديورانت ، حيث قال :

«بعض هذه الرسائل لا يعرف كاتبها معرفة أكيدة ، ومنها عدة رسائل تؤرخ بعام ٦٤ م ، ولكنها في الحقيقة كتبت بعد ذلك التاريخ»[(١)] .

وفي عام ١٨٣٦ هاجم فرديناند كرسيتيان بور

رسائل بولس وقال :

«إنها كلها مدسوسة عليه ، عدا رسائله إلى غلاطة وكورنتوس ورومية»[(٢)] .

وللواعظ الأميركي المعروف «هري ارسن فوزدك» من رسائل ونظريات بولس ، موقف سلبي صريح ، حيث قال :

«عندما يرخي بولس العنان لخياله في بحث يوم القيامة ، يرجع إلى ما انغرس في نفسه وهو يهودي ، إلى ما تعلمه من آراء المعلمين اليهود عن الموضوع ، قبل أن عرف يسوع بزمن طويل»[(٣)] .

---

(١) قصة الحضارة : ج١١ ص ٢٠٥ .

(٢) المصدر نفسه : ج ١١ ص ٢٠٤ .

(٣) نظرات حديثة في الكتاب المقدس : ص ١٤٥ـ ١٤٦ .

من عقائد الوثنيين أتى بولس بالتثليث

أما وقد أصبحنا عند ميناء التثليث ، حيث رسى القارب المسيحي البائس بقيادة بولس ، فلا يسعنا إلا أن نفتش ونبحث ، علنا نجد المصادر والأسس التي استمد منها هذا اليهودي العتيق نظرياته الغريبة .

فمن أين أتى بولس بنظرية التثليث الإلهي ؟ وأين وجدها ؟ .

الثابت من دراسة عقائد الوثنيين في الهند ، ومصر القديمة ، والإغريق ، إنها أصل العقائد المحرفة عند المسيحيين ، ومن هذه الوثنيات تسربت بدعة التثليث الشهيرة ، إلى تعاليم بولس الرسول أولاً ثم إلى تعاليم المجامع المقدسة ثانياً .

وإذا ما عرفنا ، أن بولس قد تعلم في الإسكندرية ، لعرفنا أن خيوط الثالوث المقدس ، قد حيكت في مخيلته هناك .

وأن آلهة المصريين الثلاثة :

أوزيروس «الأب»

وحوريس «الإبن»

وإيزيس

قد استحالت عند بولس إلى الأب ، والإبن ، والروح القدس .

كما أننا نجد لعقيدة التثليث آثاراً في عقائد الهنود ، الذين كانوا يقولون

بثلاثة أقانيم ، أو ثلاث حالات يتجلى فيها الإلّه «براهما» في حالة الخلق والتكوين .

«وفشنو» في حالة الحفظ والقوامة .

«وسيفا» في حالة الإهلاك والإبادة .

وفي هذه العقيدة أن : فشنو الإبن المنبثق ، والمتحول عن اللاهوتيه في «براهما» .

ولقد كان الأشوريون يؤمنون بالكلمة ويسمونه «مردوخ» ويعتقدون أن «مردوخ» هذا هو ابن الله البكر ، أيضاً كان الإغريق يقولون بالإلّه المثلث الأقانيم .

وإذا شرع كهنتهم في تقديم الذبائح ، يرشون المذبح بالماء ثلاث مرات .

ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ، ويرشون المجتمعين حول المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات ، إشارة إلى التثليث .

وهذه الشعائر هي التي أخذتها الكنيسة ، بما وراءها من العقائد الوثنية ، وضمتها للنصرانية .

وإلى هذه الحقيقة أشار الأستاذ عبد الكريم الخطيب بقوله :

«وبهذه المعتقدات ، التي ورثتها المسيحية ، من تصورات الفلاسفة ، ومعتقدات الشعوب الوثنية ، قطعت على العقل السبيل إلى الله ، إذ مثلته إلّهاً في صورة إنسان وإنساناً في ذات الله ، وجعلته إلّهاً في ثلاثة ، وثلاثة آلهة في إلّه»[1] .

---

(١) المسيح في القرآن: ص ٣٣٠.

أصحاب عقيدة التثليث عاجزون عن فهمها

فلسفة التثليث عضو غريب أدخل إلى جسد المسيحية المريض ، نتيجة تشخيص مغلوط من طبيب فاشل ، فإذا به يزيد الجسد اعتلالاً ، ويبعث فيه بدل الانتظام والصحة ، فوضى واضطراباً ، ليصبح علته ، وعالة عليه ، يحمله الجسد العليل ، فينوء بحمله ، فلا هو ملفوظ منه ، ولا هو مقبول فيه . فلسفة التثليث أوقعت العقل المسيحي في حيرة دائمة ، بمقولاتها عن الله ، حين جعلت هذه المقولات أساس العقيدة ، التي لا يكون المسيحي مسيحياً إلا إذا اعتقدها وآمن بها .

والحقيقة أن هناك ألوفاً مؤلفة من النصارى ، تستبطن الريبة في عقيدتي الثالوث والفداء ، أو تستشعر التبرم الخفي بهما ، وتود لو تخلصت منهما ، كما يتخلص الحمال المثقل من عبء أبهظ كواهله . وإذا كان للمسلم نظرته الرافضة لهذه الفلسفة العجيبة ، انطلاقاً من رفض القرآن لها أولاً ، ورفض العقل والمنطق لها ثانياً ، فحري بنا والموقف الإسلامي من هذه الفلسفة ثابت ومعروف أن نتجاوزه ، فنستعرض رأي رجال الدين المسيحي أنفسهم ، الذين كان لهم أمر هذه الأسرار الكنسية .

لنتبين من خلال الغبار الكثيف ، والعاصفة الهوجاء التي هبت على المسيحية ، مع رياح التثليث، بعضاً من الأفكار المتضاربة ، والتصورات المختلفة المتناقضة حولها ، وكلها آراء مسيحية لجهابذة من رجال الدين المسيحي ،

وسيكون ذلك كافياً ليدلنا على مدى الحيرة والاضطراب ، اللذين يركبا عامة المسيحيين ، ممن ليس لهم علم هؤلاء الأعلام ، ولا سعة عقولهم ومداركهم . .

ذكر الأستاذ الخطيب كوكبة منهم ، فقال :

«يقول سابيلوس ، الذي كان أسقفاً لباطليماس :
الأب والإبن وروح القدس ، ليسوا بأسماء أقانيم ، بل أسماء ظهورات «تجليات» لأقنوم واحد .
سمي «الآب» لأنه الخالق
والابن ، لأنه الفادي
والروح القدس ، لأنه المقدس»[1] .

وقال بولس ، الذي كان أسقفاً لساموسطا في القرن الثالث :
«الكلمة والروح ، صادران من الله أزلاً» .

وقال آربوس في القرن الرابع :

الأب وحده ، هو الإلّه الأصلي الواجب الوجود .

«أما الإبن وروح القدس ، فهما كائنان خلقهما الله في الأول ، لكي يكونا وسيطين بينه وبين العالم ، وهما مشابهان له في الجوهر ، ولكن ليس واحداً منهما فيه» .

وقال آموري بين في القرن الثالث عشر :

الأقانيم الثلاثة ، ليست هي الله ، بل هي كائنات سامية خلقها الله أولاً . . لتقوم بتنفيذ أغراضه[2] .

---

(١) المسيح في القرآن ٣٣٢.
(٢) المسيح في القرآن: ٣٣٣.

وهكـذا نرى أن العقـل ، الذي يـرفض أن يكون الـواحد ثـلاثة ، والثـلاثة واحداً هو الذي حمل هؤلاء الفلاسفة من رجال الكنيسة وقادتها ، على أن يبحثوا عن تفسير ملائم يجد فيه العقل بعض الطمأنينة ، إلى عقيـدة التثليث التي فرض عليه الإيمان بها .

فكان من هذه التفسيرات ما رأينا :

الكلمـة والروح القـدس صادران من الله أزلاً ، أي أن الله هـو الذي تفـرد وحده بالوجود ، ثم كان أول ما صدر عنه الكلمة والروح القدس .

أما آموري ، فقد عزل الأقانيم الثلاثة عن الله عزلاً تاماً ، إذ جعلها كائنات سـامية خلقهـا الله أزلاً لتقوم بتنفيـذ أغراضـه ، وبهذا يكـون الله وحده ، ويكـون الثالوث في خدمته .

ويقول بوهمي في القرن السابع عشر :

«الله في ذاته أب ، وابن ، وروح قدس .
فالأب إرادة وقوة .
والإبن ، هو موضوع إرادة الأب وقدرته .

فـالأب بدون الإبن ، هـو إرادة وقـوة بـدون مـوضـوع ، أو بتعبير آخر هو هاوية وموت ولا وجود . ولذلك ، فالإبن هو النور الذي ينير الوجود الإلّهي .

أمـا الروح القـدس ، فهـو الإشعـاع المتصـل بـالإبن ، أو بالحري المتصل بالنور» .

ويقول «كانت» في القرن الثامن عشر :

«الأب ،والإبن ، والروح القدس ثلاث صفات أسـاسية في اللاهوت ، وهي القدر والحكمة والمحبة ، أو ثلاثة فواعل

هي : الخلق ، والحفظ ، والضبط» .

وقال «سويدنبرغ» في القرن التاسع عشر :

«يطلق الثالوث على المسيح وحده ، فلاهوته هو الأب ، وناسوته هو الإبن ، ولاهوته الصادر عنه هو الروح القدس» .

وقال «اكلمنيص» مدير مدرسة اللاهوت بالإسكندرية ، في القرن الثاني :

«ليس كل أقنوم عين الآخر ، ومع ذلك فإن الأقانيم ليسوا ثلاث ذوات ، بل هم ذات واحدة ، لأن جوهرهم واحد وهو اللاهوت» .

ويقول القديس «ايريناوس»، أسقف ليون في القرن الثاني :

«الإبن والروح القدس أزليان كالأب تماماً ولا فرق بين أقنوم وآخر في الجوهر ، أو الخصائص ، أو الصفات على الإطلاق ، لأنهم هم الله الواحد» .

نسأل : إذا كانت هذه الأقانيم الثلاثة متساوية تماماً في كل شيء ، في الجوهر ، وفي الخصائص والصفات ، فبماذا ، أو لماذا تكون ثلاثة ؟

بل كيف تكون ثلاثة ؟ ثم تكون واحداً ؟

ويقول القديس «ديونسيوس» بطريرك الإسكندرية في القرن الرابع .

«الأب، والإبن ، والروح القدس هم الله ، لأن الله لا ينقسم أو يتجزأ على الإطلاق . . لذلك لا ينفصل أقنوم عن الآخر ، بأي حال من الأحوال . . »[1].

---

(١) انظر المسيح في القرآن: ص ٣٣٤.

ونسـأل أيضاً : ولمـاذا هذا الفصـل ؟ ولماذا كـان الله ثلاثـة ؟ وكيف يتميز أقنوم عن أقنوم إذا لم يكن منفصلاً ؟

ويقول القديس اثناسيوس الرسولي (القرن الرابع) .

إن كل أقنوم غير الآخر ، لكن الأقـانيم الثلاثـة معاً هم الله الواحد . لأن جوهرهم ، وهـو اللاهـوت واحد ، ليس في الثالوث أول وآخر ، ولا أكبر ولا أصغر . .
فالأب هو الله ، والإبن هو الله ، والروح القـدس هو الله ، وكلهم هو الله» .

ونسأل أيضاً وأيضاً :
ألسنا نرى هنا ثلاثة آلهة ؟
الأب وحده هو الله .
والإبن وحده هو الله .
والروح القدس وحده هو الله .
والثلاثة معاً هم الله .

الله يتفرق ، فيكون ثلاثة ، ويجتمع فيكون إلّهاً واحداً
فأين العقل الذي يقبل هذا ؟ أو يحتمل هذا ؟

وفي دفاعه عن التثليث ، وأنه عقيدة التـوحيد الخـالصة لله ، يقـول الأستاذ الحداد . .

«النصرانية منذ كانت هي دين التوحيد(؟) مع قولهـا بعقيدة التثليث في الـطبيعة الإلّهيـة الواحـدة ، فالتثليث المسيحي الصحيح ، لا يعدد ولا يجـزىء اللاهـوت الواحـد في الله الأحد .

فالنصرانيـة أولاً وأخيراً تؤمن بـإلّه واحـد ، كما ينص عليـه مطلع دستور إيمانها ، الذي هو شهادتها تحت السماء» .

ثم يقول :

«ومن ثم، فالإيمان في ألوهية عيسى لا في تأليهه ، وفي تأنسه وتجسده لا يزيد شيئاً ، ولا ينقص من طبيعة الخالق الواحدة .

فالمسيح عيسى بن مريم ، هو كلمة الله الذاتية ، ألقاها إلى مريم روحاً منه ، والكلمة صار من مريم جسداً وحل فيما بيننا ، هو الكلمة الذي كان في البدء. . .»[1] .

ونورد للأستاذ الخطيب رداً على ذلك حيث قال :

«آمنا أن المسيحية لا تقول بالتثليث الذي يجعل الله ثلاثة ، ولكن كيف الإيمان بالمسيح إلّهاً ؟ وكيف الإيمان بإلّه ، يُحبل به في بطن امرأة ، ويولد من رحم امرأة ، ويرضع من ثدي امرأة ، ويربى في حجر امرأة ، وتغذوه ، وتكسوه ، وتقوم على حاجاته امرأة .

كيف يليق بجلال الله وعظمته ، أن يمر بهذه الأدوار كلها ، ويخضع وجوده لضرورات الأجنة والطفولة ليعلن نفسه للناس»[2] ؟

هذه آراء ونظريات مجموعة من المسيحيين الأعلام ، حول موضوع التثليث والأقانيم ، وطبيعة المسيح وسواها . . فلنتأمل ونتبصر . . فماذا نجد سوى الاختلاف ، والتناقض ، والتعارض ؟ لندقق في آرائهم . . فهل من رأيين متطابقين ، في آراء هذه الكوكبة من رجالات الكنيسة المسيحية ، حول موضوع التثليث ؟

---

(١) انظر المسيح في القرآن : ص ٣٣٦.
(٢) المسيح في القرآن: ص ٣٣٧.

هل اتفق اثنان منهما على تحديد واحد ، وفهم واحد لطبيعة المسيح ، وموضوع الأقانيم ، ونظرية التثليث ؟

أم أن آراء الجميع كانت مختلفة متنافرة ، اختلاف خيوط البصمات في أصابع البشر ؟

هل اتفق هؤلاء على ربهم . . أم أن الكل يتوه في الضياع ؟

ولن يتخلص المسيحيون من الحيرة ، والضياع ، والصراع مع ذاتهم ، والتخاصم مع عقولهم ، إلا إذا طردت بدعة التثليث من ديانتهم ، وعادت وحدانية الله إليها ، لتكون أساس إيمانهم ، وركيزته ، وعماده ، وبدون ذلك ، فلا دواء ينفع ، ولا شفاء يرتجى .

الديانة التي اختيرت في مؤتمر

لم يمض وقت طويل على انتشار رسائل بولس ونظرياته في الفكر المسيحي ، حتى تفجرت الخلافات المسيحية كما كان منتظراً ، وبدأت المسيحية تحصد العواصف التي زرع ريحها بولس قبل ثلاثة قرون ، وانهار نظام التلزيق والترميم ، الذي كان يؤجل انهيار البنيان المسيحي على رؤوس أصحابه ، وخرج الخلاف هذه المرة إلى العلن ، منطلقاً من القس الإسكندري آريوس ، فيما يشبه ثورة فكرية بكل ما في الكلمة من معنى ، قادها آريوس بنفسه ، عندما جاهر برأي جديد في المسيح ، فرفض ألوهيته وبنوته لله قائلاً :
«أنه مخلوق» .

مطلقاً نظرية جديدة في المسيح مفادها :

«أن الرب وحده هو الله الفرد ، والإبن مخلوق مصنوع» .

وهي نظرية وضعت نظريات بولس برمتها ، والفلسفة المسيحية المبنية على أساسها على المحك ، والظاهر أن نظرية آريوس المعارضة ، سرعان ما وجدت لها أتباعاً وأنصاراً ، فتفشت في المجتمع المسيحي بسرعة مذهلة ، وتعاظم شأنها ، وقويت شوكتها .

وإن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على أن نظريات بولس المعقدة ، لم تكن تشكل في أذهان الناس قناعة حقيقية ، ولا إيماناً ثابتاً في عمق إدراكهم . .

بدليل انقلابهم عليها ، وهجرهم لها ، عند أول فرصة سنحت لهم . .

وهذا ما فهمه أهل الكلمة والرأي في المسيحية آنذاك ، إذ رأيناهم يتنادون بسرعة وارتباك ، إلى غقد مجمع مسكوني ، لدراسة الوضع ولملمته .
وقبل الحديث عن هذا المجمع ، لا بد من كلمة حول أفكار آريوس .

فلا يظنن أحد أن نظريات هذا المعارض المسيحي ، تعني إيمانه بوحدانية الله ، فهي رغم خلافها مع أنصار بولس ، في نظرتهم المعروفة في الله والمسيح ، إلا أن الأريوسيين ليسوا موحدين بالمعنى المفهوم من دين الله الحق .

فهم يقررون أن المسيح ليس أزلياً كالله ، وهذا حق ، ولكنهم يخلطون فيقررون في الوقت نفسه ، أنه الإبن ، وأنه مخلوق من الرب قبل خلق العالم .

وهذا ليس من التوحيد الحقيقي في شيء .

ما إن فجر أريوس قنبلته ، حتى تحرك الملك قسطنطين ، فبعث إلى جميع البلدان ، فجمع البطاركة والأساقفة ، فاجتمع في مدينة نيقية عام ٣٢٥ م ، ٢٠٤٨ أسقفاً .

لم يكن يجمعهم في المسيح رأي واحد ، ولا عقيدة واحدة ، بل على العكس ، فلقد توزعوا شيعاً وأحزاباً ، وكل له حول المسيح رأي مختلف ، وعقيدة مستقلة .

فما أن بدأ المجمع جلساته ، حتى تفجرت الخلافات ، وتضاربت الآراء ، وتصادمت النظريات ، فمنهم من قال :

المسيح ومريم إلَهان من دون الله ، وهم المريمانية .

ومنهم من يقول : إن المسيح من الأب ، بمنزلة شعلة نار ، تخلقت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى لإيقاد الثانية منها ، وهي مقولة سبارنيون وأتباعه .

ومنهم من قال : لم تحمل لتسعة أشهر ، وإنما مر نور في بطن مريم ،

كما يمر الماء في الميزاب . لأن كلمة الله دخلت من أذنها ، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها . وهي مقولة اليان وأشياعه .

ومنهم قال :

أن المسيح إنسان خلق من اللاهوت ، كواحد منا في جوهرة ، وأن ابتداء الإبن من مريم ، وأنه اصطفي ليكون مخلصاً للجوهر الأنسي ، صحبته النعمة الإلهية ، فحلت فيه المحبة والمشيئة ، فلذلك سمي ابن الله .

ويقولون إن الله جوهر واحد ، واقنوم واحد ، يسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ، ولا بالروح القدس .

ومنهم من قال : بثلاثة آلهة صالح وطالح وعدل بينهما . وهي مقالة مرقيون وأشياعه .

ومنهم من قال : ربنا هو المسيح ، وتلك هي مقولة بولس الرسول .

تلك كانت أهم النظريات ، التي سادت أجواء المجمع آنذاك ، ولما اشتد الخلاف ، وتعمق الانقسام ، وبدا أن المجمع سائر إلى الفشل الأكيد ، خصوصاً بعدما انسحب معظم أعضائه ، بادر الملك قسطنطين ، إنقاذاً للموقف ، للتدخل بوسائل مختلفة ، تفاوتت بين الإقناع ، والترغيب ، والترهيب ، ولقد تحدث الأستاذ الخطيب عن هذا الأمر ، فقال :

> فلما سمع قسطنطين الملك مقالاتهم ، عجب من ذلك ، وأخلى لهم داراً ، وتقدم لهم بالإكرام والضيافة ، وأمرهم أن يتنافروا فيما بينهم ، لينظر من معه الحق فيتبعه .
>
> فاتفق منهم ٣١٨ أسقفاً على دين واحد ، ورأي واحد ، فناظروا بقية الأساقفة ، فأفلجوا عليهم حججهم ، وأظهروا الدين المستقيم(١) .

---

(١) المسيح في القرآن : ص ٢٤٦ .

بينما للدكتورة ناديا العمري حول هذه النقطة رأي آخر ، إذ قالت في كتابها (أضواء على الثقافة الإسلامية) :

> إن قسطنطين الملك ، من خلال رغبته بالقضاء على الفتنة ، أرغم القسيسين المؤتمرين ، على الوقوف عند تصور يرضي الجميع كحل وسط ، فكان هذا الحل الذي قسم المسيح بين الألوهية والبشرية ، فهو بشر اله[1] .

لقد كان مجمع نيقيه مفصلاً رئيسياً في تاريخ المسيحية ، لا بل هو المفصل الأهم في تاريخها ، إن لم نقل أن هذه الديانة بدأت به ، ومنه يبتدىء تاريخها ، ولأنه كذلك ، فإن لنا حوله وقفة طويلة ، متبصرة ، مدققة ، هادفة ، بدونها لا يمكن لنا الوصول إلى الحقيقة أبداً .

ولا بد من طرح أسئلة تدور في أذهاننا تفتش عن جواب :

الأول: ماذا كان سيحدث ، لو صادف واتفق ٣١٩ أسقفاً آخرين ، على رأي واحد آخر ، مخالف لما اتفق عليه الـ ٣١٨ أسقفاً الذين أقروا عقائد الديانة المسيحية ؟
أما كانت المسيحية بهذه الحالة قد تبدلت تبديلاً وتغيرت تغييراً ، ولربما كانت قد أمست خلافاً لما هي عليه اليوم ؟

الثاني: ألاتجعلنا قرارات مجمع نيقية نعتقد ، أن الإيمان المسيحي برمته ، ما هو إلّا تدبير بشري ، لا علاقة للإرادة الإلّهية به ، لا من بعيد أو قريب ؟
بدليل ، أنه كان امام المؤتمرين في نيقية عدة خيارات ، متناقضة ، متضاربة ، كان يمكن لكل واحد منها أن يكون أساس الديانة المسيحية ، وقاعدة الإيمان المسيحي ، لو أنه حاز على قبول أكثرية بشرية داخل المؤتمر ؟

---

(١) أضواء على الثقافة الإسلامية : ص ١٦١ .

أليس هـذا هو مـا حدث بـالضبط ، عندمـا فازت نـظريات بـولس ، على حساب النظريات الأخرى ، بعدما تأمن لها أكثرية مؤيدة داخل المؤتمر ؟ فكانت الديانة المسيحية كما نراها اليوم ؟

والثالث: أيمكننا بعد أن نعتقد، أن المسيحية الحاضرة بتعاليمها وأناجيلها ، شرائع من الله ، وتعاليم من السماء ، وهي من صنع البشر ؟

وهل يمكن أن تكون سماوية ، إلّهية ، مقدسة ، معصومـة ، تلبس أثواب الكمال المطلق ، ديانة اتفق عليها اتفاقـاً واختيرت أفكـارها اختيـاراً ، من بين مجموعات عديدة من العقائد سواها ، كانت مرشحـة للفوز بـالمنصب نفسه . . لولا . .

نستطيع القول بثقة ، أن مسيحية اليوم بدأت فعلياً لا من المسيح وما نسب إليه من أقوال ، ووصايا ، بل من مجمع نيقية بالذات .

ولعمري ، فما هو دور المسيح الباقي ، بالنسبة لهذه الديانـة ؟ بعدمـا بدا بعد نيقية وكأنه رئيس «فخري» لنادي المسيحيين في العالم ، الذي يحمل اسمه فقط .

ماذا كان حصاد المسيحية في نيقية ؟

لا بـد لنـا أن نقتحم على المؤتمـرين خلوتهم ، لننقـل وقـائـع الجلسـة المصيرية الأخيرة ، التي غيرت مجرى التاريخ ، ونفتح صفحات التاريـخ ، لنقرأ منها مقررات ذاك المجمع التاريخي . فنعـرف ، كيف تمت ولادة مسيحية اليـوم بغد مخاضها العسير . .

أهم القرارات ، التي توافق عليها الـ ٣١٨ أسقفاً في نيقية كان :

«جعل المسيح رباً هو ابن الله ومساوياً لله في جوهره» .

أما صيغة القرارات ، فكانت كما يلي :

«نؤمن بـإلّه واحـد ،وأب ضـابط الكـل ، خـالق السمـوات والأرض ، كـل ما يـرى ولا يرى . وبـرب واحـد ، يسـوع المسيـح ابن الله الـوحيـد ، المـولـود من الأب قبـل كـل الـدهور ، نـور من نور إلّـه حق من إلّه حق ، مـولـود غيـر مخلوق ، مساوٍ للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء ، الذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خـلاص نفوسنـا ، نزل من السماء ، وتجسـد من الروح القـدس ، ومن مريم العذراء وتأنس (أي صار إنساناً) وصلب في عهد بيـلاطس النبـطي ، وتألم ، وقبـر ، وقام من بين الأمـوات في اليـوم الثالث ، كما في الكتب .

وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب ، وأيضاً يأتي في مجده ، ليدين الأحياء والأموات ، الذي ليس لملكه انقضاء» .

علق الأستاذ عبد الكريم الخطيب على قرار المؤتمر هذا ، فقال :

«إن هذا القرار اعتبر تفسيراً مقدساً لما كان يضمره المسيح في نفسه عن حقيقته ، وحقيقة الألوهية المثلثة الأقانيم»[1]. . .

والجدير بذكره هنا أن مقررات مجمع نيقية ، كانت إلى حد ما توفيقيه ، إذ حرصت على إرضاء كل الأناجيل تقريباً . . . وسايرت كل الاتجاهات النافذة في المؤتمر ، فأخذت من كل إنجيل آية ، ومن كل تيار موقف ، ومن كل سفر كلمه .

ولأن بحثنا بالأساس ، محصور بموضوع الخلاف المسيحي الإسلامي حول وحدانية الله ، فإنه لن يكون بإمكاننا التطرق إلى مناقشة فعل الإيمان المسيحي ، المستمد من مقررات نيقية ، ومآخذ العقل والمنطق على جوهره ، ومنطلقاته ، طالما أن ذلك لا يدخل في سياق بحثنا الحالي . . ولكن ما نستطيع قوله بثقة ، أن ما انتهى إليه مجمع نيقية ، كان بحق بمثابة توقيع معاملات الطلاق النهائي بين المسيحية والإيمان بوحدانية الله . .

رغم أن أكثر من مفكر مسيحي حاول معالجة هذا الإشكال الخطير ، وسد هذه الثغرة ، عن طريق إلباس قواعد الإيمان المسيحي ثياب التوحيد ، إلّا أن الحظ لم يحالف أحدهم في مسعاه ، لأن الشرك المستتر المتلبس في عمق التعاليم المسيحية ، كان يطل كل مرة من وراء ستائر التوحيد المزعوم الشفافة ، فيفسد على الساعي سعيه .

---

(١) المسيح في القرآن : ص ٣٣٥.

وإذا كـان بولس قـد استمد فلسفـة التثليث من العقائـد الـوثنيـة المصـريـة والهندية كما بينا ، فإن مقررات مؤتمـر نيقية أيضـاً ، لم تكن هي الأخرى ببعيـدة عن عقائد الوثنيين ، والهندية منها بالذات .

ولكي نتـأكد من أن أصـل العقيدة الجـديدة للمسيحيين ، التي أقـرها لهم مؤتمر نيقية ، منقول برمتـه عن عقيدة الهنـود والقدمـاء ، في الشمس التي كانـوا يعبدونها ، ما علينا إلاّ أن نقـرأ ما قـاله «مـالفير» في كتـابه المـطبوع عـام ١٨٩٥ وترجمه إلى العربية «نخلة شفوات» عام ١٩١٣ م ، فنجد ما يلي :

لقد ذكر في الكتب الهندية القـديمة التي تـرجمت إلى الإنكليزيـة شارحـة عقيدة الهنود القدماء ما نصه :

نؤمن «بسافستري» أي الشمس ، إلّـه واحد ضـابط الكل ، خالق السموات والأرض ، وبإبنه الوحيد «آتي» أي النـار ، نـور من نور ، مـولود غيـر مخلوق ، تجسد من «فـايو» أي الروح في بطن «مايا» العذراء .

ونؤمن «بفـايـو» الـروح الحي ، المنبثق من الأب ، والابن الذي هو مع الأب ، والإبن ، يسجد له ويُمجد[1] .

وهكذا نجد أن الثالوث الهندي القديم وهو :

بسافستري : الشمس أي الأب السماوي
وآتي أي الإبن : النار وهو النار المنبثقة من الشمس
وفايو : نفخة الهواء أي الروح

الذي كان أساس المذاهب عند الشعوب الأربـانية ، أي الهنـود القدمـاء ،

---

(١) انظر التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام: ص ١٠١ .

والثالوث الإلّهي المصري المعروف ، نجدهما قد عادا إلى الحياة من جديد ، بعدما تقمصا روحاً وجسداً الثالوث المسيحي :

الآب السماوي
والمسيح الإبن
والروح القدس .

وبهذا ، لن يجد بعد الآن أي مدقق ، ومتبصر ، وباحث ، أي صعوبة في سعيه لرد الإيمان المسيحي إلى أصالته ، ومنطلقاته ، ومنابعه .

ليصبح حل لغز التثليث العجيب ، الذي فرض على المسيحيين الإيمان به كأساس لديانتهم ، أمراً سهلاً وميسوراً .

كان هذا هو حصاد المسيحية في نيقية ، فهل كان حصاداً مباركاً ؟ أم أن العكس هو الصحيح ؟

لنترك تقييمه لقلم رائد في معرفة المسيحية هو البروفسور دافيد بنجامان كلداني ، حيث قال :

> «سيكون من قبيل الجهد الضائع ، محاولة العثور على حكمة واحدة ، أو وحي ، أو أية رسالة مرفوعة إلى يسوع المسيح بلغته الخاصة ، ويجب أن يتحمل مجمع نيقية إلى الأبد ، مسؤولية جريمة ضياع الإنجيل المقدس بلغته الآرامية الأصلية ، وهي خسارة لا تعوض . .»[1] .

أما الواعظ الأميركي فوزدك ، فقد أعلن بصراحة ووضوح ، فشل الأجيال المثقفة المسيحية بتقبل مقررات نيقية ، فقال :

---

(١) محمد في الكتاب المقدس: ص ١٥٠.

«حـاول الإنجيليـون أن يـوفقـوا بين الكتـاب المقـدس والكنيسة ، وبين الكتاب والـلاهوت التقليـدي ففشلوا ، إذ لا يمكن لعقل مثقف أن يعتقد بأن المسيح يفسره اللاهوت النيقي» .

وقال :

«نعـرف نحن المسيحيين ، أن عقيدة الثـالوث ظهـرت بعد أن بدأت الكنيسة تفكـر في معنى يسوع ، وأمـا آباؤنـا فقد وجدوها في ثنايا العهد القديم»[1] .

---

(١) نظرات حديثة في الكتاب المقدس: ص ١٦ .

في المسيحية يتدرج الله نحو كماله

إن الطريقة التوفيقية ، التي صيغت بها مقررات نيقية ، إرضاء لكل الاتجاهات ، لم تنه المشكلة كما يبدو ، إذ تبين فيما بعد ، أن القصة لم تتم فصولاً بعد ، وما زال هناك فجوات تنتظر مجامع مقدسة أخرى لتملأها بكلمات ، تلتقطها من شتى الصفحات في الأناجيل والرسائل .

ففي عام ٤٣١ ، خرج من صفوف الكنيسة متمرد جديد ، ثائر آخر ، هو بطريرك القسطنطينية «نسطور» الذي أعلن :

> «إن العذراء لم تلد إلّهاً متأنساً بل ولدت إنساناً عادياً ساذجاً ، ثم حل فيه الإلّه بإرادته ، لا بالإتحاد ، فهو لهذا ذو طبيعتين واقنومين» .

وما كاد نسطور يفجر قنبلته ، حتى انقسم الأساقفة والقساوسة المسيحيون إزاء هذا الرأي ، بين مؤيد ومعارض ، على حين وقف كثيرون موقف الحيرة والتردد .

وهكذا عادت الأرض المسيحية لتشتعل من جديد ، بحيث شمل الإنقسام رجال الكنيسة ، وقاعدتها البشرية على السواء .

وللملمة الوضع المتأزم دعا الملك «تاوديوس» الصغير ، ملك القسطنطينية ، إلى عقد مجمع مقدس جديد ، حضره نحو مئتا أسقف .

وبعد مناقشات طويلة وشاقة ، انتهى الرأي إلى القول :

بتجسد الكلمة واتحاد الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية ،
بدون اختلاط ، ولا امتزاج ، ولا استحالة .

وهكذا خرج المؤتمر بثلاث مقولات عن : العذراء ، والمسيح ، والثالوث . والغريب أن الطريقة التوفيقية التي سادت في نيقية ، نراها واضحة في مؤتمر افسس . وها هي المقررات كما أصدرها مجمع افسس ، من كل إنجيل كلمة ، ومن كل سفر جملة .

أوردها الأستاذ الخطيب ، فقال :

١ ـ حول : **تطويب العذراء**

نعظمك :	لوقا ٤٨
يا أم النور الحقيقي :	لوقا ١ : ٤٣ (١ : ٩)
ونمجدك :	مزمور ٩١ : ١٥
أيتها العذراء القديسة :	(اشعيا ٧ : ١٤) لوقا ١ : ٣٧
لأنك ولدت لنا مخلص العالم كله:	لوقا ٣ : ١١
أتى وخلص نفوسنا :	لوقا ١٩ : ١٠

٢ ـ حول : **تمجيد السيد المسيح**

المجد لك يا سيدنا	اشعيا ٤٣ : ٨
وتملكنا المسيح	لوقا ١ : ٣٣
فخر الرسل	غلاطيه ٦ : ١٤
إكليل الشهداء	اشعيا ٣٨ : ٥
تهليل الصديقين	يوحنا ٨ : ٥٦
ثبات الكنائس	يوحنا ١٥ : ٣٤
غافر الخطايا	متى ٩ : ٣[١]

---

(١) المسيح في القرآن : ص ٢٥٥ .

٣ ـ حول : **التبشير بالثالوث الأقدس**

نكرز ونبشر	١ عبرانيين ١٠ : ٤٣
بالثالوث الأقدس	متى ٢٨ : ١٩
لاهوت واحد	يوحنا ٥ : ٧
نسجد له ونمجده	متى ٤ : ١٠
يا رب ارحم ـ يا رب ارحم	مزمور ٣٢ : ١
يا رب بارك آمين	لوقا ٣٤ : ٥١

بركان رهيب فجرته في المسيحية عقيدة بولس التثليثية ، ولا أحد يعلم إلا الله متى يخمد ، ويهدأ ، ويستكين .

ولنا أن نسأل :

بعد نيقية ، وافسس ، وانتصار نظريات بولس ، وكل دعاة التثليث فيهما ، وبعد أن أصبح العرش الإلٓهي مضموناً للمسيح ، وبعد أن تدرج المسيح في سلم المناصب الإلٓهية ، فانتقل من :
إنسان يشبه يوحنا المعمدان
إلى إنسان فوق الملائكة
إلى كلمة الله .
إلى ابن الله ، ثم ابن الله البكر ، ثم وارثه وخالق العالم .
إلى الرب المتجسد ، إلى الرب المصلوب على خشبة اليهود تكفيراً لخطايا البشرية ، إلى القائم من بين الأموات ، الباقي على وجه البسيطة أربعون يوماً ، كان مجهول الإقامة أثناءها ، إلى العائد إلى عرش السماء ، حيث كرسيه عن يمين أباه الله .
إلى شريك الله في كل شيء إلى الله الأقنوم .

ثم أخيراً في نيقية ، وبقرار من ٣١٨ أسقفاً إلى . . الله بكل ما في الكلمة من معنى .

نسأل : هل بعد هذا كله من دور للتوحيد ، أو أثر منه في الديانة المسيحية ؟

وإذا كانت غريبة عجيبة فلسفة المسيحية حول الله ، في تخيلها له إلّهاً في صورة إنسان ، وإنساناً في ذات إلّه وجعلها له إلّهاً في ثلاثة ، وثلاثة آلهة في إلّه .

لكن الأغرب ، هو نظرتها القائلة بتدرج الله نحو كماله ، وتطوير ذاته من حالة إلى حالة .

المسيح نفسه يرفض عقيدة التثليث

إذا كنـا قد استنـطقنا كـوكبة من أهـل الفكر المسيحي ، حـول مـوضـوع التثليث ، فكـان تناقضهـم ، وتعـارض آرائهم ، واختلاف اجتهـادهم فيه فـاضحاً واضحاً . فلماذا لا نزيد البحث غنى ، فنحـاول أن نتعرف إلى رأي يسـوع نفسه بالموضوع ، عله يكون الفصل والحكم ؟ .

وما علينا إلا أن نفتح إنجيل مرقص ، ونقرأ فيه الحوار التـالي ، بين يسوع وأحد علماء إسرائيل ، لنتأكد منه أن المسيح قـال وآمن بوحـدانية الله المـطلقة ، وكل النظريات سواها ، أدخلها المسيحيون بعده إلى ديانتهم ، ونسبوها إليه زوراً وبهتاناً .

سأل اليهودي يسوع : ما الوصية الأولى فـ [illegible] ايا كلها ؟

فأجاب يسوع :

> «الوصية الأولى هي: اسمع يا إسرائيل ، إن الرب إلّهنا هو الـرب الأحد . فـاحبب الرب إلّهـك ، بكل قلبـك ، وكل نفسك ، وكل ذهنك ، وكل قوتك» .

فقال الإسرائيلي :

> «حسن يا معلم ،فقد أصبت إذ قلت إنه الوحيـد ، ولا آخر سواه»[1] .

---

(١) العهد الجديد: مرقص ١٢ : ٢٨ـ ٣٤ .

واضح من هذا النص أن المسيح لم يشرح قضية الألوهية ، ولم يتعرض لذات الله ، ولا لما يقال من أقانيم فيه ، وإنما تحدث عن إلّه واحد ، لا شريك له ، ولا تعدد لذاته .

فلو كان التثليث من صميم العقيدة النصرانية ، فكيف ساغ للمبشرين بها في العهود المسيحية الأولى ، وقبل مؤتمر نيقية أن يحجبوا عن الناس هذه الحقيقة ؟ وأن يحدثوهم عن الله الواحد ، دون أن يطلعوهم على الله ذي الثلاثة أقانيم ؟

وكيف صح إيمان من آمنوا بالله الواحد ، دون أن يعرفوا أقانيمه الثلاثة ؟

وكيف صح إيمان الحواريين والرسل ، الذين لم يكن لهم نظر إلى هذه الوجوه الثلاثة ، من ذات الله ؟ بل كيف كان إيمان المسيح نفسه ، الذي ما نطق لسانه بكلمة أقنوم ، ولا وجه وجهه إلى الله وخاطب فيه هذه الأقانيم الثلاثة ؟

إننا ولا شك أمام طلاسم وألغاز ، ليس من اليسير على العقل فك رموزها وأسرارها .

والعقل في مواجهة هذه الطلاسم ، في موقف لا يحسد عليه ، إذ أنه محمول على أن يقبل معادلة غريبة تعتبر أن الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحداً .

والعلم يرفضها أيضاً

إني وإن ذكرت ، بأن البحث سيظل محصوراً ، بموضوع الخلاف المسيحي الإسلامي حول التوحيد ، وأن مناقشة العقيدة المسيحية بتوسع ، أمر خارج موضوعنا ، إلا أن ملامسة بعض الأمور فيها ، أمر قد يفيد بحثنا ويغنيه ، وأعني بها تلك التي لموضوع التوحيد علاقة بها .

إن أكثر من مفكر مسيحي ، حاول أن يثبت بأن الإيمان بعقيدة التثليث ، لا يلغي في المسيحية وحدانية الله ، بل على العكس ، فإنها باعتناقها لمبدأ التثليث ، أصبحت أقرب إلى التوحيد أكثر من أي وقت مضى .

ولكن العوائق كانت كبيرة ، والموانع عظيمة ، أكبر من رغبته ، وأقوى من نواياه الحسنة ، ذلك لأن موضوع التثليث ، وقضية التوحيد ، خطان متعارضان ، لا يلتقيان ، ولا يمكن لأحدهما أن يبقى ويستمر ، إلا على حساب وجود الآخر .

ولقد استوقفتنا حولها آراء ، لبعض أهل الفكر المسيحي والإسلامي ، نرى تعميماً للفائدة إيراد بعضها .

الدكتور وهيب عطا الله جرجس ، ممثلاً الكنيسة الأرثوذكسية بالإسكندرية في المؤتمر المسيحي العالمي بالقدس ، في نيسان ١٩٥٩ قال :

«إن الإيمان الأرثوذكسي كما تعترف به كنيستنا ، هو أن ربنا

يسوع المسيح كامل في لاهوته ، وكامل في ناسوته ، ومع ذلك لا نجرؤ على القول بأنه إلّه وإنسان معاً ، لأن هذا التعبير ينطوي على الشرك ، وإنما نقول أنه الإلّه المتجسد»[1] .

ويحاول الدكتور وهيب أن يجد لهذه المتناقضات وجهاً أو وجوهاً من الأعذار ، فيقول :

«ولكن كيف صار هذا الإتحاد ؟ كيف يكون بطبيعة السيد المسيح الواحدة صفات اللاهوت ، وصفات الناسوت معاً ، بدون اختلاط ، وبدون امتزاج ، وبدون تغيير ؟
وكيف يكون للسيد المسيح صفات الطبيعتين ، ولا تكون له الطبيعتان؟» .

ويجيب الدكتور وهيب على كل هذه الأسئلة ، التي تغلي بها مراجل الحيرة والبلبال ، بكلمة واحدة ، هي قوله :

«هذا ما لا نعرف»[2] .

وإذا كان الدكتور عطا الله ، قد نفض يده من معرفة حل اللغز المسيحي ، فقال :

«هذا ما لا نعرف»

قالها وارتاح ، ومن قال لا أدري فقد أفتى .

إلا أن الأستاذ عوض سمعان في كتابه «الله . . . بين الفلسفة والمسيحية» رفض أن يقف نفس الموقف العاجز ، فيقول كزميله : «هذا ما لا نعرف» بل

---

(١) المسيح في القرآن : ص ٢٥٧ .
(٢) (الله بين الفلسفة والمسيحية) انظر كتاب المسيح في القرآن : ص ٢٥٩ .

فضل أن يتعاطى مع اللغز لحله ، وشرح أحاجيه وطلاسمه ، فقال بإصرار العارف في شرح لموضوع الأقنوم :

«الأقانيم مع تميز أحدهم عن الآخر في الأقنومية ، هم واحد في الجوهر بكل صفاته ، وخصائصه ، وميزاته» .

ولكننا لو سألناه : أين هو التمايز إذن بينهم ؟ لما كان عليه أن يجيب هو الآخر ، إلا بـ «هذا ما لانعرف» .وفي مقدمة كتابه الآخر

«الله . . ذاته وموضوع وحدانيته»

نرى الأستاذ عوض يكابر ويعاند لإثبات وحدانية الله في الإيمان المسيحي فيقول :

«إن الكتاب المقدس ، لا ينبيء عن وحدانية الله فحسب ، بل إنه ينبيء أيضاً عن كنه ذاته ، التي تسمو فوق العقل والإدراك ، سمو لا حد له ، فهو لا ينبئك فقط أن لا شريك له ، ولا يظهر أنه لا أجزاء فيه ولا تركيب ، بل ينبيء كذلك أنه ليس أقنوماً واحداً ، بل ثلاثة أقانيم .

وحقيقة وحدانية الله ، يطلق عليها التوحيد .
وحقيقة كونه ثلاثة أقانيم ، يطلق عليها التثليث .

وقد حاول كثيرون من رجال الفكر والفلسفة ، توضيح إعلانات الكتاب المقدس عن ذات الله ، أو بالحري عن ثالوث وحدانيته ، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً ، لأنهم انحرفوا عن أقواله ، واعتمدوا على عقولهم وحدها»[1] .

---

(١) الله ذاته وموضوع وحدانيته: انظر « المسيح في القرآن » ص ٢٥٨ .

نسأل : إذا كان الفلاسفة والمفكرون ، قد عجزوا عن فهم إعلانات الكتاب المقدس ، فمن يقدر يا ترى بعد أن يفهمها ؟ وإن لم نفهمها ، فكيف نؤمن بها ؟

ثم إذا كان فشل هؤلاء ، في فهم إعلانات الله ، سببه انحرافهم عن أقواله ، وما انحرافهم عن أقواله ، إلاّ لأنهم لم يفهموها ، بعدما اعتمدوا على عقولهم .

فعلى ماذا كان عليهم أن يعتمدوا ، سوى عقولهم وسيلة لفهم إعلانات الله ؟ التي لم يجدوا سبيلاً لفهمها بغير عقولهم ، وبها لم يفهموها ، فما العمل ؟ وما السبيل لفهمها ؟ أبالأفئدة العمياء ؟

ولا أعتقد إلاّ أن إيمان الأستاذ عوض ، كإيمان الأسقف الفيلسوف ترتليان ، الذي عاش في القرن الثالث كرجل لاهوت ، والذي قال :

«إذ آمن إيمان عجز واستسلام» .

ومن أقواله الشهيرة :

«لقد مات ابن الله ، ذلك شيء معقول لا لشيء ، إلاّ لأنه مما لا يقبله العقل ، وقد دفن المسيح ، وقام من بين الموتى ، وذلك أمر محقق لأنه مستحيل»[1] .

حصيلة القول ، أن من حاول من المفكرين المسيحيين ، أن يشرح ألغاز التثليث المسيحي ، بقصد مسح شائبة الشرك عن العقيدة المسيحية ، فشل فشلاً ذريعاً ، لا بسبب عجزه وقصوره ، وإنما لاستحالة الدفاع عن شرك ، لا مجال لنكرانه ، ولا إمكانية لستره .

فعوامل الشرك في المسيحية قائمة واضحة ، طالما أن عقيدة التثليث فيها

---

(1) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٣٠٨.

قائمة معتمدة ، وقد يكون الباحث المعروف «زاليان ج . ويد جيري» قد قصد هذه الحقيقة ، عندما قال :

«إن المسلمات الأساسية في العقيدة المسيحية ، مع أنها مفارقة للعقل ، تجعل من الممكن إجراء عرض للحياة والتاريخ ، يضم جميع الوقائع وجميع التناقض»[1] .

وقوله أيضاً :

«يجب أن يدخل في حسباننا ، بأن المعرفة التاريخية لحياة يسوع وشخصيته ، بعيدة عن أن تكون عوناً للدين ، بل قد يمكن أن تكون إهانة له»[2] .

ثم في مكان آخر حول التثليث ونكران التوحيد في المسيحية ، قال :

«تصور الله كأنه ثالوث بشكل وحده : الأب ، والإبن ، والروح القدس ، هذه العقيدة تكوّن الفرق من حيث الأساس ، بصورة حاسمة بين المسيحية وبين النظرات التوحيدية الأخرى»[3] .

عالم آخر كان من أعلام المسيحية ، هو البروفسور القسيس دافيد بنجمين كلداني ، الذي أصبح بعد إسلامه معروفاً باسم البروفسور عبد الواحد داوود ، عالج موضوع بطلان التثليث ومجافاته لكل مدارك العقل والمنطق ، بموضوعية خالصة ، فقال :

«الإعتقاد بأن الله هو الأب ، والله هو الإبن ، والله هو الروح المقدسة ، هذا الإعتقاد كفر صريح بوحدانية الله ، واعتراف متهور بثلاث كائنات ناقصة .

---

(١) المذاهب الكبرى في التاريخ : ص ١٦٩ .
(٢) المذاهب الكبرى في التاريخ : ص ١٦٥ .
(٣) نفس المصدر: ص ١٤٢ .

والرياضيات كعلم إيجابي ، تعلمنا أن الوحدة ليست أكثر من واحد ولا أقل .

وأن واحداً ، لا يمكن أن يساوي : واحداً + واحداً + واحداً .

وبعبارة أخرى ، فإنه لا يمكن أن يكون الواحد مساوياً لثلاثة ، لأن الواحد هو ثلث الثلاثة وقياساً على ذلك ، فإن الواحد لا يساوي الثلث .

وبالعكس فإن الثلاثة لا تساوي واحد .
كما أنه لا يمكن للثلث أن يساوي الوحدة .

والوحدة: هي أساس جميع الأعداد ، وهي معيار للمقاييس والأوزان ، من جميع الأبعاد والمسافات والكميات والزمن .

والحقيقة ، فإن جميع الأرقام هي حاصل جمع الوحدة ، والعشرة هي حاصل جمع عشر وحدات متساوية من نفس النوع .

والذين يقولون بوحدانية الله في ثالوث من الأشخاص ، إنما يقولون لنا ، أن كل شخص هو إلّه قدير ، موجود ، دائم ، أزلي ، وكامل .

ولكنه لا يوجد ثلاثة آلهة قديرين ، وموجودين ، ودائمين ، وأزليين ، وكاملين ، ولكنه إلّه واحد قدير . وإذ لم تكن هناك سفسطة في المنطق المذكور أعلاه ، فإننا سنطرح

---

(١) المذاهب الكبرى في التاريخ : ص ١٦٨ـ ١٦٩ .
(٢) المصدر نفسه : ١٤٢ .
(٣) محمد في الكتاب المقدس: ٤٧ .

«اللغز» الذي تقدمه الكنائس ، ويكون طرحنا له بـالمعادلـة التالية :

إلّه واحد = إلّه واحد + إلّه واحد + إلّه واحد .

كذلك ، فإن إلّهاً واحداً = ثلاثة آلهة .

وأضاف كلداني يقول :

«**أولاً**: لا يمكن لإلّـه واحد أن يسـاوي ثـلاثـة آلهـة ، بـل يساوي واحداً منها فقط .

ثانياً : بمـا أنك تسلم ، بـأن كل شخص إلّـه كامـل مثـل قرينية ، فـإن استنتاجـك بأن : ١+١+١=١ ليس استنتـاجاً رياضياً ، بل هو ضرب من السخف» .

ويضيف هـذا العالم الكبيـر إلى تشريحـه العلمي نصيحة ، أو لنقـل نـداء مخلصـاً إلى المسيحيين للرجـوع عن عقيـدتهم في التثليث ، إلى وحـدانيـة الله قائلاً :

«وفي الختام لا بد لي من تـذكير النصـارى ، بأنهم مـا لم يؤمنوا بوحدانية الله المطلقة ، وينبـذوا الإيمان بـالأشخاص الثلاثة ، فإنهم يكفرون قطعاً بالإلّه الحقيقي»[١] .

وأشار الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه «المسيح في القرآن» إلى هذه الحقيقة الرياضية ذاتها ، عندما قال :

«تقـوم المسيحيـة على هــذه الكلمـات الثـلاث : الأب ـ الإبن ـ والروح القدس ، لتجعل منها إلهاً واحداً هو الله .

---

(١) المسيح في القرآن: ص ٢١٠ .

وأنت ترى بادىء ذي بدء ، أن وضع هذه القضية في معادلة رياضية ، أمر لا يقبله منطق العقل ولا يصدقه . وإن جلبت له الحيل من كل وجه ، فالثلاثة لا تكون واحداً ، والواحد لا يكون ثلاثة أبداً ، ومع هذا فتلك هي القضية»[1] .

وللواعظ فوزدك موقف مماثل من قضية التثليث ، حيث قال :

«لنتأمل عقيدة الثالوث ، التي تحير عدداً كبيراً ولا لوم عليهم .

فعقيدة الثالوث كما نعظ بها في الكنائس الإنجيلية ، ليست سوى معادلة حسابية عن ثلاثة في واحد ، أو واحد في ثلاثة ، وإنه لمن العدل أن نقول ، إن الآباء الأولين ، الذين أدخلوا هذه النظرة الفلسفية في الثالوث إلى الكنيسة ، لم يعلقوا الأهمية على الوجهة الحسابية من العقيدة ، أي ثلاثة أشخاص في شخص واحد»[3] .

ولكن كيف عالج أهل الرأي في المسيحية هذا التعارض الخطير ، بين مقولتهم بالتثليث ، ومنطق العلم الذي يرفضها ؟

ليس بغير المكابرة والمعاندة ، والتمسك بما عندهم ، رغم اعترافهم الصريح أحياناً ، بمجافاة العقل لعقيدتهم ، وبعدها عن الإدراك ، وما علينا لنتأكد من موقفهم الغريب ، إلّا أن نسمع صاحب كتاب : «الله : ذاته ونوع وحدانيته» يقول :

---

(١) الله . . ذاته ونوع وحدانيته : انظر (المسيح في القرآن) : ص ٢١١ .
(٢) الله . . ذاته ونوع وحدانيته : ص ٢٤٣ .
(٣) نظرات حديثة في الكتاب المقدس : ص ٢٤٣ .

«إننا لا ننكر أن التثليث يفوق العقل والإدراك ، ولكنه يتوافق مع كمال الله كل التوافق»[1] .

ولكنه لم يشرح لنا منطقه الغريب هذا ، كيف يتوافق أمراً لا يقبله عقل ، ولا يقره إدراك مع كمال الله ؟

ولا أظنه إلّا عاجزاً ، لأنه في الحقيقة لا يفهمه ، باعتباره من ضمن اللغز المسيحي العجيب ، الذي يجهل واضعه نفسه حل رموزه ، وشرح طلاسمه ، وتلك هي المفارقة وهي السؤال .

قال ديورانت :

«احتفظ الدين الإسلامي وهو أقل غموضاً في عقائده من الدين المسيحي ، بشعائر أبسط ، وأنقى ، وأقل اعتماداً على المظاهر المسرحية من الدين المسيحي ، وأقل منه قبولاً لنزعة الإنسان الغريزية نحو الشرك»[2] .

وقال كلداني :

«لا يستطيع المرء أن يقدر قيمة الإسلام وأهميته ، كدعامة فريدة ضد الوثنية والشرك ، ما لم يتم التسليم المخلص بوحدانية الله المطلقة»[3] .

---

(١) الله ذاته ونوع وحدانيته : ص ٢٤٣ .

(٢) قصة الحضارة: ج ١٣ ص ٣٨٣ .

(٣) محمد في الكتاب المقدس: ص ١٣١ .

ومن المسيحيين من رفضها ونادى بالتوحيد

نسجل بكل أسف ، أن في تاريخ المسيحية ذكراً لحركات موحّدة لله ، ناضلت ، وجاهدت لتثبت إيمانها بوحدانية الله ، ولكنها كانت بالنهاية تقمع بشدة وقسوة ، حتى يتم القضاء عليها في كل مرة ، بحيث لم تترك وراءها إلا ظلالاً باهتة تدل عليها ، وكثيراً ما نجد في الإنجيل نفسه ، وفي بعض رسائل الرسل ، بما فيها رسائل بولس نفسه ، نصوص وكلمات ، وفلتات لسان موزعة ، مبعثرة ، عبر بها أصحابها ، أن في أعماق صدورهم إيمان دفين ، مكبوت ، بوحدانية الله ، ضاعت جميعها ، أو جرى تجاهلها في زحمة التصفيق الحاد ، لمبادىء التثليث .

جاء في إنجيل مرقص ، عن لسان السيد المسيح قوله :

لا صالح إلا الله وحده .

وفي رسالة القديس يهوذا نقرأ :

للقادر على أن يصونكم من كل زلل ، ويحضركم لدى مجده مبتهجين ، لا عيب فيكم للإله الواحد .
ف ٢٤ ـ ٢٥ .

وفي رسالة القديس بولس إلى أهل رومة ، نقرأ النص التالي :

كما أمر الله الأزلي ليدينوا له بالإيمان ، لله الحكيم وحده
ف ١٦ ـ ٢٧ .

أما في رسالته إلى أهل افسس ، فلقد قال :

هنـاك إلّه واحـد لجميع الخلق ، وفـوقهم جميعـاً ، يعمـل فيهم جميعاً وهو فيهم جميعاً .

ف ٤ ـ ٦ .

وفي رسالته الأولى إلى أهل قورنتس ، نجد قوله :

نحن نعلم ، أن الـوثن ليس بشيء في العالم ، وأن لا إلّـه إلا الله الأحد .

ف ٨ ـ ٥ .

تحدث البروفسـور كلداني ، حول وجـود موحـدين قدمـاء في المسيحية ، قضي عليهم قضاء مبرماً بعد نيقية ، فقال :

«لقد قام حول «المسيح كلمة الله» جـدل حـامي الوطيس ، بين أبناء الكنيسة الأوائل ، ولا سيما في الشـرق ، واستمر الجـدل إلى أن تم القضاء على المـوحدين قضـاء مبرمـاً ، وأتلفت كتاباتهم» .

وقال :

«بعد قرارات مجمع نيقية ٣٢٥ م ، وإعـلان مبدأ الثـالوث ، وتعرض المسلمون المـوحدون إلى مـزيد من الاضـطهاد ، بصورة أشد من ذي قبل ، على يد أنصار التثليث»[١] .

وفي أواخـر القرن الثـاني ، ظهر تـوبيتوس ، وبعـده بولس السمسيـاطي ، وقـالا بوحـدانية الـذات الإلّهية ، ولكن أقـوالهما ظلت مجـرد آراء بـلا أنصـار ، فضاعت بالنتيجة في زحمة الصياح الكثيف ، لإثبات ألوهية المسيـح بعدمـا قمع أصحابها .

---

(١) محمد في الكتاب المقدس : ص ١٤٠.

رغم أن القول «بوحدانية الذات الإلٓهية» ليس بمرتبة الإيمان القاطع البسيط بالتوحيد المطلق ، إلا أنه بالقطع ، خروج طيب على نظريات التثليث الشركية ، وخطوة إيجابية باتجاه الطريق ، نحو معرفة وحدانية الله الخالصة النقية .

ومن يومها لم يقم للموحدين في المسيحية قيامة ، حتى كان القرن الخامس عشر ، حين ظهر في اسبانيا المصلح «سرفيتوس» الذي جاهر برأيه في خطل التثليث ، فكان أن اقتيد إلى السجن ، ثم أعدم حرقاً عام ١٥٥٣ م . ليتبادل رجال الدين التهاني بعد حرقه .

واستعاد الموحدون نشاطهم ، فظهروا في إيطاليا ، وألفوا طائفة انشقت على الكنيسة ، وعرفت «بالصوصنية» وأظهر هؤلاء مبادئهم ، التي تتلخص في إنكار ألوهية المسيح ، ونسبة الربوبية إلى الله وحده .

ولكن سرعان ما شنت الكنيسة حربها عليهم ، ورمتهم بالهرطقة ، مما اضطرهم للفرار إلى سويسرا ، حيث الكنيسة البروتستانتية كانت بانتظارهم ، ليكون لها دور في قمعهم .

فتركوها إلى بولندا ، حيث أعلنوا من هناك عقيدتهم ، القائمة على مبدأ التوحيد ، ولكن سرعان ما طاردتهم الكنيسة في بولندا ، ففروا إلى ألمانيا وهولندا ، حاملين معهم عقيدتهم ، ومبشرين بالحرية العقلية ، والتسامح الديني . هذه سطور قليلة من صفحات طويلة لتاريخ الكنيسة ، وإذا كان الإسلام قد نهض على أساس فذ ، هو توحيد الله ، فهل في تاريخ الكنيسة أن هذا الأساس منح حق البقاء يوماً ؟ أو اعترف بأصحابه كمؤمنين مخلصين ، لهم حرية المعتقد والبقاء ؟

للرؤيا في الإيمان المسيحي دور فعال

لا مندوحة أمام أي باحث أو مدقق ، في مصادر الإيمان المسيحي ومنطلقاته من أن يتوقف عند موضوع الرؤى ، لتأخذه الدهشة والعجب ، وهو يرى أن لهذه الرؤى شأناً كبيراً ، لا بل أساسياً ، في تقرير أهم قضايا هذا الإيمان ونظرياته .

بحيث تبدو في أكثر الأحيان ، وكأنها المحرك الفعلي لأمور مهمة ، وصاحبة القول الفصل في مواضيع دقيقة ، منها ما له علاقة بصلب الإيمان المسيحي .

وإذا كان بإمكاننا أن نرد موضوع الرؤيا «المقدسة» إلى أسباب نفسية ، واجتماعية ، وفكرية ، جرى استغلالها ، من قبل المستفيدين منها ، على أساس المفهوم القائل ، بأن أي إنسان نائم ، قد يتراءى له في نومه حدث ما من ماضيه أو حاضره ، يبثه له عقله الباطن ، وأن تصبح هذه الرؤيا ، لشدة تطابقها وذاك الحدث ، لصيقة أفكار صاحبها ، ومدار اهتمامه ، فتكتسب مع الوقت حالة من الإيثار لديه ، تجعله يعتبرها أو يعلنها ملهمة له ، أو موحى بها إليه من قوة أخرى . . دائماً تكون الله ، خصوصاً إذا ما كان هذا الرجل يشغل موقعاً دينياً أو اجتماعياً مميزاً ، كحال أنبياء اليهود ، أو رسل النصارى . ويعيش في مجتمع تعود الناس فيه أن يتقبلوا بسهولة ، تحويل مثل تلك الرؤى إلى رؤى «مقدسة» «معصومة» .

إلا أننا لا نستطيع بأي شكل من الأشكال ، أن نصدق أن تلك الرؤى كانت إلهاماً ـ إلهياً ، أو وحياً مقدساً . وتطل الرؤى «المقدسة» على الباحث ، بدءاً من أول الأناجيل ، لتصحبه إلى آخر الأسفار «المقدسة» ومعظم النبوءات ، التي ما هي في

الحقيقة ، إلاّ نوعاً من أنواع الرؤى ، ثم إلى رسائل القديسين وأهمها طبعاً رسائل القديسين ، بولس ، وبطرس ، ويوحنا .

فتكاد لا تخلو واحدة من هذه المصادر من رؤى ، أو رؤيا ، تساعد في بعث حدث جديد ، وتحريك أبطال جدد ، يمثلون قصة جديدة ، على مسرح التاريخ والفكر المسيحيين .

ولبعض تلك الرؤى أدوار متفاوتة في حسم المواقف ، من بعض المسائل الجدلية ، أو التشريعية الكبيرة ، سلباً أم إيجاباً ، كرؤيا بطرس المعروفة على ظهر باخرة ، حول المائدة السماوية الضخمة ، التي أنزلت إليه ، فكان أن حلل القديس بطرس على أساسها ، كل ما كان المسيح قد حرمه من المأكولات ، بحسب الناموس اليهودي .

أو رؤيا بولس الشهيرة في دمشق ، التي اكتشف فيها هذا اليهودي العتيق ، أن عيسى هو «ابن الله الوحيد» وأن لله ولداً وحيداً على الأرض ، فآمن بالمسيحية على أساسها ، لتصبح هذه الرؤيا ، منطلق الإيمان المسيحي برمته فيما بعد .

وأكثر الظن ، أن موضوع الرؤى في المسيحية ، هو من جملة الإرث اليهودي فيها ، فمما هو معروف ، أن كتب التوراة وأسفارها ، تعج بمثل هذه الرؤى «المقدسة» التي كانت في أحيان كثيرة ، تأخذ شكل نبوءة ، كان كل نبي من أنبياء اليهود ، يلجأ إليها ، ويستعين بها ، إما لتقوية مركزه ، وإما لتمرير أمر له فيه مصلحة ، فكانت الرؤى جاهزة للإستعمال والاستغلال ، وهالة القداسة في متناول يده ، وبذلك كثرت الرؤى بكثرة المستفيدين منها ، ومع الوقت صارت تلك الرؤى شرائع مقدسة ، بعدما صار أصحابها أنبياء مقدسين .

ومتى تذكرنا ، أن المسيحية قد عانت من ضبابية الفكر لفترة طويلة بعد المسيح ، فكانت مضطرة بحكم هذا الواقع ، أن تمد يدها تارة إلى ما لدى الوثنيين من أفكار تتماشى وظروفها ، وطوراً وفي أغلب الأحيان إلى الفكر اليهودي ، تأخذ منه وتعود إليه ، ليكون عونها في أزماتها الفكرية ، لوضحت لنا أسباب تمركز هذا

الإرث اليهودي الثقيل من الرؤى ، في عمق الديانة المسيحية . .

وهذا وضع طبيعي ، يلازم كل من ينطلق من فراغ ، فيلجأ إلى ملء خزانته الخاوية من عنديات الآخرين ، معتبراً أن «غناه» في «الكمية» التي يجمعها من هنا وهناك ، ومن هذا وذاك ، دون أن يملك الجرأة ، أو الحق بمراجعتها ، أو التدقيق بمصادرها وأصالتها .

وهكذا صار التعامل بالرؤى في المسيحية تقليداً متبعاً ، شائعاً بين الرسل المسيحيين الأوائل ، الذين درج خلفهم على منح شهادة العصمة والقداسة لسلفهم ، إلى أن أصبح الجميع بالنتيجة ، معصومين ، وقديسين . أمام هذا الواقع الفريد في المسيحية ، كان لا بد أن نتصدى بالبحث لهذه الظاهرة ، التي لا نجد لها مثيلاً في الإسلام أبداً .

وإذا كان ليس من حقنا أن نرفض تاريخية تلك الرؤى ، على اعتبار أن من حق أي إنسان ، قديساً كان أم غير قديس ، أن يحلم ، ولا أن نناقش بسلبية أحداث الرؤيا ، لأن أي حدث فيها مهما «كان غريباً» يبقى الحلم به ممكناً وجائزاً ، إلّا أن من حقنا أن نسجل دهشتنا وتحفظنا ، على جعل هذه الرؤى أساساً لشرائع ، لها علاقة مباشرة في حياة البشر ، ومسيرة الإنسانية .

ومع عجزنا عن رفض الرؤيا كحدث مجرد ، للأسباب التي ذكرنا ، إلا أننا قادرون على الأقل أن نبسطها أمام القارىء ، لكي يحكم لها أو عليها ، وربما ليشاركنا بالنتيجة ، دهشتنا وتحفظنا الشديدين حولها ، مكتفين منها بما وجدناه في الأناجيل الأربعة ، وسفر أعمال الرسل ، دون أن نتعرض لتلك التي تعج بها باقي الأسفار .

بدأت الرؤى بلعب دور مهم في الإيمان المسيحي ، مع ظهور أعراض الحمل على مريم ، وشكوك خطيبها يوسف النجار بأمر مسلكها ، مما جعله يعزم على طلاقها .

فإذا برؤيا تحمل له ملاك الرب ، ليقول له :

«يا يوسف ابن داوود ، لا تخف أن تأتي بامرأتك مريم إلى بيتك ، إن الذي كوّن فيها هو من الروح القدس» .

فكان أن انصاع يوسف ، إلى صوت الملاك ، وعاد عن قرار الطلاق . والأرجح أن مأزق مريم ، وضرورة تبرير وتفسير حملها العجيب ، قد فجّر في خيال أتباع عيسى الأوائل ، بركان الحلول والنظريات ، وكان موضوع الروح القدس ، من أفضل الحلول المطروحة لتلك المشكلة العويصة .

ولكن الملفت للنظر ، أن الروح القدس لم ينته دوره عند هذا الحد ، بل رأينا رسل المسيحية الأوائل ، يحتفظون به للأزمات والملمات الصعبة ، فكان ملجأهم في شتى مآزقهم . . وحل أية معضلة ، نجده في جعبة الروح القدس ، ورهن إشارته . .

الرؤيا الثانية كانت من نصيب يوسف أيضاً ، فبعد ما نام على حرير الإطمئنان ، على طهارة خطيبته مريم ، وارتضى بالتعليل والتفسير المطروحين أمامه ، جاءه الحلم ليحدد له جنس المولود واسمه ، فإذا هو عمانوئيل .

متى ـ ١ ـ ٢٣ .

ونجد في الإنجيل ما يشبه الرؤيا ، أو أكبر منها ، إلا أنه مثيراً للدهشة والعجب ، نورده كما جاء في إنجيل متى :

«لما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية ، في أيام الملك هيرودوس ، إذا مجوس قدموا أورشليم من المشرق ، وقالوا : أين ملك اليهود الذي ولد ؟ فقد رأينا نجمه في المشرق ، فجئنا لنسجد له» .

متى ٢ : ١ ـ ٢

والسؤال هنا جائز : من أين للمجوس وهم سكان فارس ، أن يعرفوا مولد «ملك لليهود الذي ولد»حتى رأيناهم يقطعون الفيافي على وجوههم إلى فلسطين ، ليسجدوا له ؟

وهل يمكن أن نصدق قصة النجم ، الذي هداهم ؟

وفي حاشية الإنجيل ، نقرأ محاولة لتفسير الأمر الغريب ، بدت فيها حراجة أصحاب القرار المسيحيين من هذا الموضوع مريرة ، لأن ما جاء في الحاشية زاد الأمر غموضاً وبلبلة ، نقرأ :

«كان المجوس أناساً يرقبون النجوم ، فجاءوا للسجود له» .

فهل كل ملك يهودي كان نجمه يسطع عند المجوس لدى ولادته ، أم هذا الأمر تفرد به المسيح ؟ ثم لماذا المجوس بالذات ، وهم عبدة النار كما هو معروف ؟ ، لماذا هم دون سواهم من البشر عرفوا مولد «ملك اليهود» فطفشوا للسجود له ؟

ولماذا لم تكن هذه النبوءة لليهود مثلاً ، والمسيح واحد منهم ، والموضوع ولادة ملكهم المنتظر ؟ أسئلة تغلي مراجلها في مخيلة كل باحث ، ولن يجد لها جواباً قاطعاً مهما فعل .

والغريب ، أن الرؤيا ظلت تلاحق أولئك المجوس ، حتى أنها أخيراً ألهمتهم ألّا يرجعوا إلى هيرودس :

«فانصرفوا في طريق آخر إلى بلادهم» .

متى ٢ - ١٢

رؤيا جديدة تفاجىء يوسف لتبلغه :

«قم فخذ الطفل وأمه ، واهرب إلى مصر ، وأقم هناك حتى أعلمك» .

متى ١٢ - ١٣

ثم الرؤيا ذاتها تدق باب يوسف ، وهو في مصر ، لتقول له :

«قم فخذ الطفل وأمه ، واذهب إلى إسرائيل» .

متى ٢ ـ ١٩

«وعندماالخاف يوسف أن يذهب إلى إسرائيل ، تدخلت الرؤيا فأمرته :
أن يسكن في الناصرة ، ففعل» .

متى ٢ ـ ٢٣

إذاً الحلم أعاد الوئام بين يوسف ومريم ، والحلم أمن للطفل اسماً ، والحلم أبعده عن دائرة الخطر إلى مصر ، والحلم أعاده من مصر إلى الناصرة .

وربما «الحلم» أيضاً أتى بالمجوس إلى فلسطين ، ليسجدوا للمولود الجديد ، وما على عقول الناس إلا أن تصدق دون سؤال . وها هي رؤيا شاوول ـ بولس ـ تمكنه من أن يكتشف لله ابناً وحيداً على سطح الأرض ، هو عيسى ، لتشكل حيثيات هذه الرؤيا منعطفاً تاريخياً كبيراً ، في حياة المسيحية .

ثم رؤيا بطرس الشهيرة حول المائدة السماوية ، التي أحل بها هذا القديس من على ظهر الباخرة ، كل ما حرمه المسيح على أتباعه من المأكولات .

ثم الرؤيا ذاتها تهاجم بطرس من جديد ، إنما هذه المرة على اليابسة ، وليس فوق سطح سفينة كالمرة الأولى ، حاملة له كما نعرف الوعاء نفسه ، الهابط عليه من السماء .

«كسماط عظيم فيه من جميع ذوات الأربع ، والزحافات ، وطيور السماء» .

فازداد بطرس بذلك إيماناً على إيمان ، بضرورة تحليل مأكل كل ما دب على الأرض وتحرك .

وها هي الرؤيا تدفع ببولس للرحيل إلى مقدونيا ، فيرحل حسبما جاء في أعمال االرسل .

١٦ ـ ٩٩

ورؤيا أخرى تجعله يتغلب على خوفه ، فيبقى في إحدى المدن سنة ونصف

متى ١٨ ـ ٩

ولن ننسى بالذكـر ، رؤيا القـديس يوحنـا الطويلة ، التي أخـذت من الإنجيل المقدس أربعة وخمسون صفحة ، ومن يقرؤها ، يظن أن صاحبهـا القديس يـوحنا ، ظل نائماً لمدة شهر كامل ، وهو في حلم متواصل حتى أكملها .

وتتملك القـارىء الـدهشـة والاستهجـان ، وهـو يتتبـع أحـداث هـذه الـرؤيـا متسائلاً ، كيف أجازت الكنيسة لنفسها ، اعتبار مثل هذه الرؤيا بكل غرائبها ، مصدراً من مصادر تعاليمها وإيمانها ، ومن يقرأ لا بد أنه سيشاركنا نفس الدهشة والتساؤل .

موضوع الروح القدس في الإيمان المسيحي

لا بد لنا والحديث يدور حول الرؤى والنبوءات في المسيحية ، من أن نعرج ببعض التفصيل على موضوع آخر ، له أثره ودوره في الإيمان المسيحي ، نعني به موضوع الروح القدس ، الذي نراه ـ الروح هنا مذكر ـ يتلبس ببساطة مستغربة الرسل وغير الرسل ، الكبير والصغير من المسيحيين والوثنيين .

ثم نراه ـ الروح ـ بعد أن يتلبسهم ، يتحول ليمكنهم من الإتيان بأنواع المعجزات وشتى الخوارق ، التي يستحيل تصديق نسبة أي منها ، لغير الله والأنبياء المرسلين ، كإحياء الموتى ، أو السير على الماء ، أو التنبؤ بالأمور الغيبية ، وهي أمور نجد الأناجيل الأربعة وسواها من الأسفار ، تتزاحم وتتبارى لإثبات قدرة الكثيرين من الناس العاديين ، على التمكن منها والإتيان بها .

الأمر الذي يجعل ضمير الإنسان ، ينوء بشتى عوامل الشك والريبة ، بصحة منطلقات الإيمان المسيحي ومصادره ، وما هو عسير على فهم الإنسان ، هو السهولة التي يتلبس بها هذا الروح أناسه ، فنراه في الأناجيل ، كما في سفر أعمال الرسل يفاجىء زبونه بزيارة خاطفة ، وهو في الطريق إلى بيته ، أو يطب عليه وهو في حقله ، أو ينقض عليه ليبلغه على عجل رسالة «إلهية مقدسة» حتى ولو فوق سطح سفينة وسط الأنواء ، أو نراه في بعض المواقع ، يقتحم السجون ، ويخترق أسوار المعتقلات ، ليفك قيد قديس ، أو يفرج عن موقوف ، كما حدث للقديس بولس ، عندما كان مسجوناً .

إلى غير ذلك من حالات التلبس المتنوعة ، التي تمتلىء بها صفحات الأناجيل والأسفار .

وإذا كان بالإمكان إرضاء النفس ، بقبول التفسير الذي أوردناه في موضوع الرؤى رغم علاته ، إلا أننا في حالة الروح القدس ، في حالة أن يتلبس الإنسان روح أو قوة غامضة مجهولة ، فتتدخل بأمور حياته الخاصة والعامة ، فالأمر مختلف كلياً ، ولا نستطيع ، بل لا يحق لنا تمريره دون تسليط المجهر عليه . .

فالإنسان في موضوع الروح القدس ، أمام أمر لا يجد له مع العقل مكان لصحبة ، ولا في عمق الوجدان موضع لقناعة ، وهو أمام خيارين لا ثالث لهما :

إما أن يتقبل حقيقة وجود ودور هذا الروح ، بالشكل الذي جاء في الكتاب المقدس ، ليكون عليه أن يكتم أنفاس عقله ، ويكم بصيرته ، ويلغي كل حق للمنطق عليه .

وإما أن ينتصر لعقله ووجدانه ، ليكون مجبراً على رفض تاريخية ودور مثل هذا الروح أصلاً وفصلاً ، في حياة القديسين وسواهم . ونحن في الحقيقة من هذا الموضوع إلى عقولنا أميل وأقرب .

ولا يحرجنا أبداً ، عجزنا عن مناقشة موضوع الروح القدس ، ودوره المزعوم في حياة هؤلاء الناس ، بأكثر من تسجيل تحفظنا على مصداقية وجوده ، أو رفض الاعتراف بحقيقته التاريخية أصلاً وفصلاً ، طالما أن من تحدث عنه واخترع حيثياته ، لم يثبته أبداً بأكثر من حديثه عن وجوده ، دون دليل ولا برهان .

ولكي يكون لشكنا مبرراً ، ولرفضنا أساساً ، لا بد من أن نستعرض الحالات المتعددة ، التي تدخل بها هذا الروح ، في حياة وقرارات المسيحيين ، حتى العاديين منهم ، حسبما وردت في الأناجيل وأسفار العهد الجديد .

بدأ تدخل الروح القدس في حياة المسيحيين والقضايا المسيحية ، بعد غياب المسيح مباشرة .

نقرأ في متى : ف ٢٨ ـ ٣

«. . مـلاك الـرب ، نـزل من السمـاء وجـاء إلى الحجـر ، فدحرجه عن القبر وجلس عليه» .

في أعمال الرسل :

«كانوامجتمعين ـ أي الـرسل ـ فـانطلق من السمـاء بغتة دوي كريح عاصفة ، وظهرت لهم ألسنة كأنها نـار ، فامتـلأوا ـ أي الرسل ـ جميعاً من الروح القـدس ، وأخذوا يتكلمـون بلغات غير لغتهم» .

ف ٢/٢ ـ ٣ ـ ٤

بطرس يشفي مقعداً :

«قال بـطرس للمقعـد ، بـاسم يسـوع المسيـح النـاصـري : امشي ، فقام وثباً ، وأخذ يمشي» .

ف ٣ ـ ٧

نقرأ في أعمال الرسل :

«بعد أن صلوا ، زلزل المكـان الذي اجتمعـوا فيه ، وامتـلأوا جميعاً من الروح القدس» .

ف ٤ ـ ٣١

«الروح القدس ، تكشف لبطرس كذب رجل وامرأته» .

ف ٥ ـ ١ .

«وليست الـروح حكـراً على القـديسين، وإنمـا يمكن أن يمتلىء بـه المـواطن العادي مثلنا»

ف ٦ ـ ٥ .

الروح القدس تحرر المساجين . جاء في أعمال الرسل :

«غير أن ملاك الرب ، فتح أبواب السجن ليلاً وأخرجهم» .

٥ ـ ٧

جاء حول الشهيد المسيحي الأول اسطفانوس وهو يرجم :

«فحدق إلى السماء ، وهو ممتلىء من الروح القدس ، فرأى مجد الله ويسوع قائماً عن يمين الله» .

٧ ـ ٥

أعمال الرسل ، يكشف عن معجزات فيليبس :

«كانت الجموع تصغي إلى ما يقول فيليبس ، لما سمعت به وشاهدته ، من المعجزات يجريها ، إذ كانت الأرواح تخرج من كثير من الممسوسين ، وهي تصرخ صراخاً شديداً ، وشفي كثير من المقعدين والكسحان» .

٨ ـ ٧ .

في موقع آخر من أعمال الرسل :

«يمكن إيصال الروح بالصلاة ، وبوضع يد المصلي على «طالب» الامتلاء من الروح» .

٨ ـ ١٦ .

بطرس ويوحنا يرفضان مال سمعان ، الذي عرضه عليهما قائلاً :

«أعطياني أنا أيضاً هذا السلطان ،لكي ينال الروح القدس من أضع عليه يدي» .

٨ ـ ١٧ .

الروح القدس يدفع فيليبس نحو الجنوب ، ثم بعدها يأمره :

«تقدم فالحق هذه المركبة» .

٩ ـ ٣.

ثم فجأة نجد أن الروح القدس ، وبدون تعليل مقبول ، ينقض على فيليبس ويخطفه .

أما في حال بولس ، وكان اسمه يومذاك شاوول ، فالأمر أكثر دقة وخطورة :

«نور من السماء ينزل في دمشق ،تبين أنه يسوع نفسه ، نزل ليتفاهم وشاوول على حل ، لقساوته واضطهاده» .

ف ٩ ـ ٣ ـ ٤ .

ليس هذا فحسب وإنما «الرب يسوع» بذاته ، يتحادث في دمشق أيضاً مع تلميذ اسمه حننيا ، ويرسله إلى شاوول ـ أي بولس ـ ليمتلىء بالروح القدس .

ف ٨ ـ ١٨ .

الروح القدس ، يمكن بطرس من أن يشفي مقعداً في اللد ، قال له :

«قم واصلح فراشك بيدك ، فقام من وقته» .

٩ ـ ٣٤

ثم الروح القدس أيضاً ، يمكن بطرس من بعث الأموات ، جاء في أعمال الرسل :

«جثابطرس إلى الجثمان وقال: طابيثا قومي . ففتحت عينها ، وعادت حية ترزق .

ف ٩ ـ ٤١ .

في موضع آخر نرى الروح القدس ، ينزل على الوثنيين كما على المختونين .

ف ١٠ ـ ٤٥

غابس يوحى إليه أيضاً من الروح القدس ، يتحدث عن :

«مجاعة في المعمور كله في أيام قلوديوس» .

ف ١١ ـ ٢٨

ثم نفاجأ بالروح القدس يدخل السجن ويضرب بطرس على جنبه - ضربة تحبب طبعاً - ويقول له :

«قم على عجل ، ثم يخرجه من السجن» .

وها هو الروح القدس يطلب من مجتمعين :

«أن يفردوا برنابا وشاوول ، للعمل الذي دعوتهما إليه» .

دون أن يوضح طبيعة هذا العمل .

ف ١٣ - ٣

وأثناء نقاش ديني بين بولس وساحر يهودي ، وبعدما «زادها» الساحر ، دعا عليه بولس :

«فهبطت عليه من وقتها ظلمات حالكة» .

١٣ - ١١

بولس من جديد يقول لمقعد :

«قم فانتصب على رجليك ، فوثب يمشي» .

١٤ - ١٠

والروح القدس لحكمة ما :

«تمنع بولس وطمبورتاوس ، من التبشير بكلمة الله في آسية ، فيذعنان للأمر طبعاً» .

١٥ - ٦

يتقدم بولس ، فيأمر روح عراف أن تخرج من أحشاء فتاة قائلاً :

«آمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها ، فخرج من وقته» .

١٦ - ١٨ .

والروح القدس يعود من جديد إلى عمل عسكري حاسم ، فيقتحم أحد

السجون ، يفتح الأبواب ، يفك قيود السجناء ، ولكن دون أن يهرب سجين واحد ، ولا ندري لماذا .
١٦ - ٢٦ .

ويبدو أن الإمتلاء بالروح القدس ، هو من اختصاص بولس وحده .
١٩ - ١ .

بولس يحيي ميتاً . . ف ٢٠ - ١٠

بولس يشفي بالروح القدس ، حاكم الجزيرة بيبلوس من الحمى ، والزحار ، بمجرد وضع يده عليه ٢٨-٩. لم نتعرض بكلمة واحدة في هذا السياق ، لمعجزات وخوارق عيسى ، باعتبارها من معجزات نبوته ، إلا ما أضيف إليها ، أو بولغ في البعض منها .

ولكن الملاحظ ، أن الروح القدس ، كان يلاحق اثنين من القديسين بالذات ، دون باقي القديسين المسيحيين ، هما بولس وبطرس ، مع وجود درجة لبولس على بطرس فيه ، فيما نراه يحرم باقي القديسين من نعمة اهتمامه ، فنحن لا ندري مثلاً ، لماذا هاجم الروح القدس السجن لإنقاذ بولس ، فيما ترك الشهيد اسطفانوس يلقى حتفه مرجوماً ، على أيدي اليهود ، وبحضور بولس نفسه ، قبل أن يتمسيح ؟

وهذا بالطبع يطرح علامة استفهام عريضة ، بالنسبة لباقي الخوارق ، والمعجزات ، التي نراها أمامنا ، فإن صدقنا بعضها مكرهين ، فإننا ملزمون أمام عقولنا برفض البعض الآخر ، وهو الكثير .

وهذا ما يزيد في مداميك الشك ، حول مضامين سفر أعمال الرسل برمتها .

للبروفسور كلداني موقفاً من موضوع الروح القدس ، ذكره في كتابه «محمد في الكتاب المقدس» حيث قال :

«المفهوم النصراني للروح القدس ، يختلف كلية عن المفهوم

الإسلامي واليهودي عنه. فالروح القدس ليس شخصاً إلهياً، ذا صفات إلهية ووظائف لا تمت بصلة إلى هذا أو ذاك من الأشخاص المقدسين الآخرين لإله ثلاثي.

وإله الإعتقاد النصراني القائل: أن نفس روح القدس هذا، أو «الاقنوم» الثالث المقدس، ينحدر من عرشه السماوي طوع إشارة أي قسيس، أثناء احتفاله اليومي ببعض الطقوس، من أجل تقديس عناصره، وتغيير جوهرها، وخصائصها، إلى بعض عناصر أخرى فوق الطبيعة، إن هذا الإعتقاد أمر مناف للعواطف الدينية، لكل موحد يهودياً كان أم مسلماً.

ولا يوجد شيء يهز مشاعر المسلم، أكثر من الإعتقاد بأن الروح القدس - بإيعاز من أحد القسس يغيّر دائماً ماء المعمودية - إلى دم - إله مصلوب، ويمحو ما يسمى بالخطيئة الأصلية، أو كالإعتقاد بأن العملية السحرية، التي تجري على العناصر المادية للقربان المقدس، تحولها إلى دم وجسد إله متجسد، هذه الإعتقادات، كانت معاكسة تماماً لتعاليم العهد القديم، وهي تزوير للعقيدة الحقيقية ليوحنا وعيسى»[1].

ومن حقنا أن نسأل: إذا كان هذا الروح الذي يظهر للنصارى المعمدين ويملؤهم، هو الله نفسه، لأن هذا هو اعتقادهم في الاقنوم الثالث من الثالوث، أليس من حق جميع النصارى، أن يدعوا أنهم مقدّسون أو مؤلّهون؟

وما دمنا قد فتحنا صفحات الكتاب المقدس، على موضوع الرؤى والروح

---

(١) محمد في الكتاب المقدس: ص ١٩٨.

القدس في الإيمان المسيحي ، فلا مندوحة أمامنا ، من أن نعرج ببعض التفصيل ، على نقطة هامة لها شأن ملحوظ في صلب تلك الديانة ، وهي موضوع العجائب والمعجزات في الأناجيل ، التي نجد بصماتها واضحة على مجمل الفكر المسيحي .

وإذا كنا حيال المعجزات ، التي نسبت في الأناجيل إلى السيد المسيح ـ رغم تحفظنا على أكثرها ، من خلال تحفظنا على رد هذه الأناجيل إلى المسيح ـ قد قررنا أن نسقط مناقشتها ، وفتح ملفها ، احتراماً لاسم من نسبت إليه ، وتقديراً لمشاعر المؤمنين بها .

إلّا أننا بالنسبة للمعجزات ، التي نسبت إلى القديسين وبعض عامة الناس ، والتي تعج بذكرها كتب الكنيسة قديمها وحديثها ، نرى أن من حقنا ، وحق أي باحث مناقشتها ، والطعن بحقيقتها التاريخية ، حتى ولو أحلوها مرتبة العصمة والقداسة ، ما دامت مجانبة للعقل والإدراك السليم .

ومما هو معروف ، أن العجائب والمعجزات في الإيمان المسيحي ، هي من جملة الإرث اليهودي في المسيحية ، وحلقة من حلقاته ، وإذا ما استعرضنا مسلسل المعجزات في الأسفار اليهودية ، لوجدنا أن ما جاء منها في الأناجيل ، ليس إلّا تتمة لها ، واقتباساً منها .

فمعجزات إنجيل مرقص ، وأعمال الرسل ، وباقي الأناجيل ، ليست ببعيدة عن معجزات إيليا ويوشع ، وسائر أنبياء اليهود وقادتهم ، وكلها تدور حول شفاء المرضى ، وإحياء الموتى ، ومحاربة الشياطين .

ولكن الملاحظ أن ذكر هذه العجائب والمعجزات في الأناجيل ، يتفاوت بين إنجيل وآخر ، فإنجيل مرقص امتاز بكثرة عجائبه ومعجزاته ، بينما أهمل متى ولوقا ذكر بعضها . .

أما عجائب الإنجيل الرابع ، إنجيل يوحنا ، فقد اختلفت هي الأخرى ، عن تلك التي في الأناجيل الثلاثة الأولى .

ولكن الحشد الهائل من المعجزات والخوارق ، نجده في سفر أعمال الرسل . حيث بدا وكأن هذا السفر ، قد وضع خصيصاً ، ليكون منبراً للحديث عن معجزات الرسل ، وخوارق أعمالهم . فحوى ما هب ودب من المعجزات ، التي شكك بصحتها أكثر من باحث ، وناقد ، وكلهم مسيحيون .

فها هو الواعظ الأميركي المعروف «هري امرسن فوزدك» في كتابه «نظرات حديثة في الكتاب المقدس» يقول كلمته القاطعة حول عجائب الروح القدس ، ومعجزات الرسل ، طالباً من معلمي الدين المسيحي التمثل به ، ليتكلموا بحرية وصراحة ، ويعلنوا شكوكهم الدفينة حولها ، وزيبتهم المكبوتة من صحتها ، خدمة للحقيقة والمسيحية على السواء .

فيقول :

«إنه لما يدعو إلى الدهشة والأسف الشديد ، أن معلمي الدين ، يأبون أن يتكلموا بحرية ، عن موضوع العجائب ، ويهابون الإسهاب فيه .

ولقد مضى زمن المواربة والتهرب ، في بحث موضوع العجائب ، إذا كان قد وجد زمن كهذا ، فعلى الكنيسة إلاّ إذا كانت تود أن ترضي نفسها بأن تتخذ موقفاً تعصبياً ضيقاً أعمى يبعد عنها كل عقل مفكر نير . أن تجابه موضوع العجائب ، بصراحة ليس بعدها صراحة ، فتروى الصعوبات بإسهاب ، كما يرويها أعداء الكنيسة ، وأن تعالجها بحرية وإخلاص في تأييد الحق»[1] .

وقال :

«قد وقع الشك أولاً على عجائب الكنيسة ، ثم وقع الشك

---

(١) نظرات حديثة في الكتاب المقدس : ص ١٧٢ .

ثانياً على عجائب زمن الآباء ، وبالنتيجة وقفت عجائب الكتاب وحدها ، وأصبحت العجائب الوحيدة ، التي يعتقد بها المسيحيون ، ولكن أخذ هذا الموقف بالسقوط تجاه الحملات العنيفة ، التي شنها عليه هيوم وأمثاله ، فوقع الشك أخيراً على عجائب الكتاب نفسه .

وأصبح القوم ، بعد أن كانوا يدافعون عن المسيحية بصحة العجائب ، يدافعون عن العجائب بصحة المسيحية»[1] .

كان هذا موقف رجل دين مسيحي معروف ، وواعظ مشهود له، من قضية المعجزات ، وليس ببعيد عن موقف باحث آخر ، من نفس المسألة ، هو صاحب موسوعة «قصة الحضارة» ول ديورانت حيث قال :

«يكثر في سفر أعمال الرسل ، ذكر خوارق مختلفة ، ورسائل مشكوك فيها ، تحتوي على عدد من القصص الخرافية ، تروي حياة الرسل بعد المسيح ، وكانت هذه الأعمال ، بمثابة الروايات التاريخية الخيالية لذلك العصر»[2] .

---

(١) نظرات حديثة في الكتاب المقدس: ص ١٩٧ـ ١٩٨ .
(٢) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٢٤١ .

الفصل الرابع

١ ـ استمرت مشاكل المسيحية بعد نيقية
٢ ـ بدأت البدع في المسيحية قبل نيقية
٣ ـ وبعد نيقية استمرت البدع
٤ ـ لم ينفع الترقيع فاستمر التشقق
٥ ـ الخلاف طال كيفية تفسير الإنجيل
٦ ـ كل المجامع المسكونية فشلت حتى بالترقيع
٧ ـ يحرم المسيحي من دينه. إذا..
٨ ـ ويحرم من حياته . إذا..
٩ ـ اعترض لوثر .. فحرم ..
١٠ ـ واستمرت محاكم التفتيش ... معقودة
١١ ـ لأنها شاذة فهي بنظرهم صحيحة مقدسة
١٢ ـ شكهم طال حقيقة وجود المسيح نفسه
١٣ ـ أين أصبحت المسيحية اليوم؟

استمرت مشاكل المسيحية بعد نيقية

ـ ماذا بعد نيقية؟

ـ هل ارتاحت المسيحية من همومها ، وتخلصت من مشاكلها ، وهدأ بركانها ؟

ـ واقتنع الجميع بالديانة ، التي أنعم عليهم بها ٣١٨ أسقفا ، بضغط ، أو وساطة ، أو حفاوة الملك قسطنطين؟

كنا نتمنى ، لو كان الأمر كذلك ، ولكن المؤسف، أن الحقائق والوقائع ، كانت على عكس ما رجاه وتمناه المؤتمرون .

وقد لا نجد لهذه الأسئلة أجوبة ، مرضية ، مقنعة ، إلاَّ إذا فتحنا صفحات التاريخ ، واستقرأنا منها الأحداث والوقائع ، التي مرت بها المسيحية بعد نيقية ، ففيها ولا شك الجواب القاطع ، والرد الصحيح .

وإذا كان من المفترض ، أن لا يتوهم أحداً ، بأن قرارات مجمع نيقية ، قد أوجدت لمشاكل المسيحية حلولاً ، نهائية ، ناجعة ، فالمفترض أيضاً أن لا يظن أحد ، أن هذه المشاكل كانت طارئة عليها ، أو أن المسيحية ، كانت قبل هذا المؤتمر الشهير موحدة الإيمان ، متماسكة العقيدة ، مرصوصة البنيان ، قيادة وقاعدة .

فمشاكل هذه الديانة ، كانت قبل مجمع نيقية ، كما استمرت بعده ، بدأت مع ظهور المسيحية ، واستمرت تواكبها وتتنكبها ، كيفما اتجهت ، عبر كل القرون والأزمان ، باعتبارها ليست مشاكل ، وخلافات هامشية ، وإنما هي

حصيلة صراع مرير ، وخلاف مزمن ، حول لب ديانتهم ، وجوهر تعاليمها بالذات .

تحدث عنها كتاب مسيحي صدر أخيراً ، بإيحاء من جامعة الكسليك في لبنان ، وهو من ضمن سلسلة من الكتب ، دأبت هذه الجامعة أن تصدرها ، خصوصاً في الآونة الأخيرة ، للتهجم على الإسلام ، والتشكيك بتعاليمه ، والإساءة لنبيه ، متسترة بأسماء مؤلفين مستعارة .

عنوان الكتاب ، يدل على مضمونه :

« الإسلام بدعة نصرانية »

مؤلفه الظاهر : الياس المر والمستتر : جامعة الكسليك[1].

جاء في الصفحة ٥٩ منه ، وتحت عنوان :

«مأساة الكنيسة المسيحية» .

ما يلي :

«لم تلاق عقيدة دينية ، من الخلاف والنقاش في جوهر مؤسسها ، كما لاقت العقيدة المسيحية .

فقد مرت عليها قرون سبعة منذ تأسيسها ، وهي في حالة حرب مستمرة مع نفسها ، ومع مؤيديها .

وكانت ذات الله التي تأنست ، فصارت إنساناً ، وصلبت على عهد بيلاطوس النبطي ، مشكلة المشاكل ، إذ لم يتقبل العقل البشري ، ولا المنطق اللغوي قبول : الواحد في ثلاثة أقانيم وغير المنقسم .

ولم يستطع الإنسان أن يؤمن ، أن الله، الأب، الخالق،

---

(١) الإسلام بدعة نصرانية: ص ٥٩.

ـفـادر، هـو نفس الله الابـن، الـذي أسلمـه يـهـوذا الاسخريوطي، إلى الجـلادين اليهود، فعـذبوه، وصلبـوه، وهـو نفسـه الـروح القـدس، الـذي أرسله الله الابن إلى الرسل، فحل فيهم، فنطقوا بكل لغة قوم دخـلوا أرضهم .

ولعل السبب الأول في هذا الإشكـال ، الذي حيـر العامـة والخـاصة، كـان المسيح نفسـه في تعاليمـه وإنجيله ، فهو ينطق مرة بلسـان الأب ، ويتكلم مرة بلسـان البشر ، وهـو حسب المعتقد الكاثوليكي بطبيعتين ومشيئتين» .

« ليس كـل من يقول لي : يـا رب يا رب يـدخـل ملكـوت السموات، بل الذي يعمل إرادة أبي الذي في السموات».

«كثيرون سيقولون لي في ذلك اليـوم : يا رب ، يـا رب ، ألم نكن بإسمك قد تنبأنا ، وبإسمك قد أخرجنا الشيـاطين وبإسمك صنعنا عجائب كثيرة؟» .

« إمـا ذلك اليـوم وتلك الساعـة ، فلا يعلمهمـا أحد ، ولا مـلائكة السمـوات ، ولا الإبن ، إلاَّ الأب وحده ، يـا أبتاه إن أمكن فلتجـز علي هـذه الكـأس ، ولكن ليس مـا أريـد أنا ، بل ما تريد أنت » .

ويضيف كتاب الكسليك قائلاً :

«هذه آيات من الإنجيـل، أوردناهـا على سبيل المثـال، لا على سبيل الحصر، وفيها يظهر المسيح مرة هو الله : ليس كل من يقول لي يا رب يا رب .

ومـرة، وما إن تنتهي من الجملة ، حتى يتحـول إلى إنسان عادي ، بل الذي يعمل إرادة أبي الذي في السموات» .

وأضاف الكتاب قائلاً :

«أمام هذا الكلام ، الذي يترك المجال لألف تأويل وتأويل ، قام الكثيرون من رجالات الكنيسة ، يحاول كل منهم خلق تشريع جديد ، ونظرية جديدة في هيكل الكنيسة .

فظهرت بدع عديدة ، منها ما انطوى ، ومنها ما بقي حتى اليوم ، له مؤيدون ، وفلاسفة ، ومفكرون» .

انتهى كلام الكسليك .

نص أوردناه ، كما جاء في كتاب مسيحي ، صادر عن أهم مراكز القرار المسيحي ، يبين أن خلاف المسيحيين في دينهم عميق شامل ، وأن التناقض في الأمور الجوهرية موجود في أناجيلهم ، ليس بين إنجيل وآخر ، بل في الإنجيل الواحد ، وبين آية وآية منه .

ولحرج أهل الرأي فيهم ، لجأوا في محاولة يائسة ستراً لهذا العيب ، ورتقاً لهذا الخرق، إلى تحويل كل تناقض في ديانتهم إلى فلسفة مقدسة ، وكل بدعة إلى عقيدة ربانية ، وكل هرطقة إلى مبدأ إلّهي ، مدعين ـ لتمريرها ـ بأنها من الله ، وباعتبارها كذلك ، أصبح من غير الجائز مسها ، أو رفضها ، أو مناقشتها ، أما دليلهم على قداستها ، وبرهانهم على أنها من الله ، فليس إلاّ لأنها أمور فوق العقل ، وأسمى من الإدراك .

وحيطة للأمر منهم ، قاموا بعزلها سلفاً عن أية مناقشة ، وأبعدوها عن أية عملية تدقيق وتمحيص ، قائلين بأنه ليس للعقل أن يدركها ، أو أن يلم بها ، أو أن يطمح إلى إدراكها ومعرفتها .

وإن تعارضت معه ، فالغلبة لها ، والحق بجانبها ، وعلى كل العقول أن تتعطل ، وكل الأفواه أن تكم . جعلوا لله شريكاً ثم فلسفوا الأمر ، فقالوا : إنه ليس بشريك .

وأوجدوا له ابناً وحيداً ووريثاً ، وفذلكوا الأمر فزادوه إبهاماً وتعقيداً .

ووزعوا الله إلى أب ، وابن ، وروح قدس ، في أقانيم ثلاثة ، كل اقنوم وحده هو الله ، ثم جمعوا الأقانيم الثلاثة في واحد ، وقالوا أنه التوحيد .

وبعدما جعلوا من المسيحية فلسفة معقدة ، يصعب على العقل فهمها وإدراكها ، ادعوا أنهم يعلنون ما يظنون ، أن المسيح كان يريد أن يعلنه عن حقيقته .

أما كيف عرفوا ظنه ؟ كيف اكتشفوا سره ؟ كيف ألموا بخواطره ؟ وهو لم يترك لهم غير ظنونهم فيه ، وحيرتهم حوله ، فأمر يدعو للحيرة والبلبال . . .

فعلوا ذلك ، ثم طلبوا من مفكريهم أن يؤمنوا دون سؤال ، وأن يوقنوا دون استفسار ، وعندما اعمل هؤلاء العقل والتفكير ، كفروهم وعاقبوهم بالحرمان .

وطلبوا من عامتهم الإيمان على العمى ، ومن يسأل منهم فزنديق ، ومن يعترض فمارق ، ومن يرفض فمتمرد وسيف محاكم التفتيش ينفع كل الرقاب .

ولو اعدنا على آذانهم سؤال القرآن : ﴿ **اءِلَه مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾[1] لما وجدوا غير الصمت جواباً .

---

(١) سورة النمل ، الآية/ ٦٤.

بدأت البدع في المسيحية قبل نيقية

صارع المسيحيون لأجل المسيح ، وتصارعوا لأجله ، به كان وفاقهم ، وفيه كان خلافهم ، حولوه إلى سر غامض ، وطلسم مبهم ، ولمعرفة الحل ظهرت عشرات الحلول ، ومئات الآراء . اختلف المسيحيون حول تجسد المسيح وألوهيته ، برغم اعتقادهم العام ، بأن الله نزل من سمائه، وظهر في جسد إنسان ، ، ليفدي البشر من الخطيئة ، ويحمل عنهم الآلام .

وتشعبت الآراء حول تصور هذا التجسد وتضاربت ، وظهرت بنتيجة ذلك بدع كثيرة ، ومذاهب كبيرة ، بدأت بالقرن الأول لميلاد المسيحية .

فكان أول المبتدعين :

سيمون الساحر، وبدعته[1] :

١ ـ إن النفوس بعد موت الجسد ، تنتقل إلى أجساد أخرى ، أي ما يسمى بالتقمص مباشرة بعد الموت .

٢ ـ لا حرية للإنسان ، والأعمال الصالحة ليست بلازمة للخلاص .

٣ ـ إن الملائكة هم الذين خلقوا العالم .

ميندوس، وبدعته :[2]

---

(١) سوسنة سليمان: ص ١١٥.

(٢) سوسنة سليمان: ص ١١٦.

نفس بدعة ومبادىء سيمون الساحر ، ولكنه أضاف ، أن من يعتمد بمعمودية سيمون ، لا يدركه الموت ولا يشيخ .

أبيون ، وبدعته:[1]

إن المسيح كان بشراً، ولده يوسف ومريم ، لكنه أحرز الفضائل ، فاختاره الله ابنا له يوم عماده .

ساتورنينوس، وبدعته:

سفسطائية.

باسيليدي:

بدعة من نظريات سيمون الساحر.

أما بدع القرن الثاني ، فقد بدأها :

شردون ، وبدعته:

إن الله ليس أبا ليسوع المسيح .

أنكر أن المسيح ولد من العذراء، وأنه نزل من السماء.

أنكر جميع الأناجيل ، إلاَّ انجيل لوقا .

النتينوس، بدعته :

حاول الجمع بين مذهبي الوثنية والمسيحية .

التوفيق بين أقاصيص الآلهة الوثنية ، وما جاء في الاسفار المقدسة .

تاسيان: بدعته:

أسقط عن المسيح نسبه إلى داوود.

حرّم الزواج ، واعتبره بمنزلة الفساد .

منتانوس : بدعته:

حرّم الزواج ، وجعل نفسه البارقليط ، الذي وعد المسيح الرسل به.

---

(١) سوسنة سليمان: ص ١١٧.

أما بدع القرن الثالث فلقد افتتحها :

بولس السميساطي ، بطريرك انطاكية عام ٢٦٢ م، وكان يصطحب معه انى رحل امرأتين جميلتين .

بدعته :

١ ـ أن المسيح لم يكن من الأزل .
٢ـ المسيح ولد من العذراء، كأي طفل عادي، ثم حل فيه الله بعد ولادته .
٣ ـ إن في المسيح اقنومان وابنان لله ، أحدهما بالتبني والآخر بالطبيعة .

المانوية، بدعته :

١ ـ وجود آلهين ، إلّه للخير وإلّه للشر .
٢ـ دعا نفسه المسيح ، واختار لنفسه ١٢ تلميذاً ، كما فعل المسيح نفسه .
٣ـ إن الجسد خلق من المادة ، والمادة خلقها الإلّه الشرير ، لذلك لم يكن المسيح ذا جسد حقيقي ، بل خيالي ، ولم يمت ، ولم يقم حقيقة .

براكسا واسيماخوس ، بدعتهما:

إن الأقانيم الثلاثة في الله أقنوم واحد ، كما هي ذات واحدة .

كيرنثوس، قال في المسيح : إنه إنسان عادي ، لم يكن إلّهاً ، بل كان إنساناً ولد بالطبيعة[1].

فالينتوس :

قال : إن المسيح نزل في جسم خيالي من السماء ، ومر في بطن مريم .
وقال آخرون : إن الكلمة لم تتخذ جسده من مريم العذراء ، بل أتى به معه من السماء .
وقال آخرون أيضاً : بعبادة مريم العذراء ، قائلين إن فيها شيئان ،

---

(١) قصة الديانات: ص ٣٨٢.

اللاهوت أثر حلول الروح القدس عليها ، وتجسد الكلمة فيها .[1]

ومن هنا يتبين أن البدع والمسيحية توأمان ، بدءا كذلك ، واستمرا متلازمين ولا يزالان ، وما كانت تلك البدع في المسيحية لتكون ، لو أن انجيل النبي عيسى الحقيقي كان موجوداً، فتسير المسيحية على هديه ، وتستنير بنوره ، فيصونها من الضياع ، ويحفظها من التمزق ، ويصوب نظرتها إلى أمور الكون والحياة .

لقد جعلت هذه البدع من المسيحية جزراً صغيرة ، مقطعة الأوصال ، مفككة الأواصر ، لا يجمع بينها سوى الذي تفرقت فيه ، أعني السيد المسيح ، جزر انفصلت عن أرض بركانية ملتهبة ، كل منها مهيأ للإنفجار كل لحظة وحين .

والواقع ، أن الإنفجار المرتقب في البركان المسيحي ، لم يطل انتظاره ، إذ سرعان ما وقع، فمادت الأرض المسيحية تحت أقدام المؤمنين بها ، والهزة كانت من أرض الفراعنة ، ومن الأسقف آريوس بالذات ، الذي أدت نظرياته إلى عقد مجمع نيقية الشهير كما أسلفنا .

وإذا كنا قد تحدثنا بتوسع وتفصيل ، عن مقررات هذا المجمع من الناحية العقائدية ، إلاَّ أننا نرى ضرورة الحديث عن القرارات الأخرى ، التي اتخذها المجمع ، لإلزام المسيحيين بقبول قراراته ، وفرض الإيمان بها .

أقر المؤتمرون وقسطنطين الملك ، إتباع طريقتين أو إجراءين ، اعتبروهما ضروريين لصيانة الوحدة المسيحية وضمان تنفيذ مقررات المؤتمر ، كانتا في الحقيقة سبباً لكل الكوارث والمصائب التي نزلت بالمسيحية فيما بعد .

الأولى :

الحرمان الكنسي المعروف ، وهو طريقة مبتكرة ، فريدة ،

---

(١) الإسلام بدعة نصرانية : ص ١٩٦ .

من طرق الإرهاب الفكري ، التي أساء البابوات فيما بعد استعمالها أيما إساءة .

والثانية :

تجريد السيف بوجه كل معارض ، مسيحياً كان أم غير مسيحي .

وتحت هذا الشعار الرهيب ، سقطت ملايين الرؤوس ، وتدحرجت آلاف الرقاب المؤمنة وأزهقت أرواح وأرواح ، بأبشع صور التعذيب ، والقتل ، والتنكيل .

فبالطريقة الأولى حرم آلاف المسيحيين المعارضين من دينهم .
وبالثانية حرم الباقون من حياتهم .

وبعد نيقية استمرت البدع

كان في تصور أرباب الرأي في المسيحية ، أن تكون مقررات نيقية رغم عيوبها ، هي الفصل الأخير في المأساة المسيحية ، ولكن ما كان يتصوره الناس ، كان مجرد خيال سرعان ما تبخر .

فمؤتمر نيقية ، استطاع أن يشد فرامل العربة المسيحية فيجمدها ، ويمنعها من التقهقر إلى الوراء لفترة قصيرة ، ولكنه فشل بدفعها إلى الأمام .

فبعد ٧٥ سنة مضت على عقده، عادت الخلافات بين المسيحيين حول المسيح ، لتطل برأسها من جديد ، وعادت معها الأرض المسيحية إلى حالها الأول ، تهتز وتميد ، وعادت تنبت من جديد بدعا ، وتفرخ هرطقات ، والخلاف الدائم هو هو : المسيح ، وطبيعته ، ودعوته .

افتتح افتيخوس بازار البدع هذه المرة ، وهو رئيس دير بضواحي القسطنطينية ، مركز القرار المسيحي ، وكان ذلك في مطلع القرن الخامس ، أما بدعته فهي :

> نادى بوحدة الطبيعة في المسيح ، ولكنه أنكر أنه إنسان ، وادعى امتزاج واختلاط إحدى الطبيعتين بالأخرى ، حتى استحال الناسوت ، وتلاشى اللاهوت[1].

---

(١) سوسنة سليمان : ص ١١٦ .

وما إن أخرج افتيخوس بدعته إلى العالم المسيحي ، حتى بادر البابا اثناسيوس لملاقاته إلى منتصف الطريق ، شاهراً سيف الحرمان الكنسي ، بوجه كل من اعترف ، بأن جسد المسيح نزل من السماء ، ولم يقل إنه من مريم العذراء ، وقال أن اللاهوت استحال إلى الناسوت .

وهكذا بدأ البابوات باستعمال سيف الحرمان ، خدمة للدين طبعاً ، ولسيدنا المسيح بالذات ، فيما كان الملوك على الجبهة الأخرى ، يخدمون الدين والمسيح بحرمان من نوع آخر ، هو حرمان كل مسيحي معارض من الحياة برمتها .

بدأت البدع باكراً في القرن الخامس ، وكان أولها على يد راهب بريطاني يدعى بيلاجوس ، وكان له أتباع كثيرون ، أما بدعته فهي :

١ - إن الله خلق آدم وحواء مائتين ، ولم يضرر اثمهما بذريتهما ، بل بنفسيهما لا غير [١].

وهذا يعتبر نقضاً للخطيئة الأصلية ، التي فرضت المسيحية العماد ، لأجل التخلص منها ، والتي تجسد المسيح ، وصلب ومات ليخلص البشرية من آثامها .

٢ - إن نعمة الله ليست ضرورية للإنسان ، ليعمل بوصايا الله ، بل تكفيه حريته الشخصية .

٣ - إن الانقياد للشهوات ، ليس إثماً ولا شراً ، وإن الفضائل هي مواهب طبيعية ، لا دخل لنعمة الله فيها .

٤ - إن الأطفال يموتون ، لعلم الله المسبق بالخير أو الشر ، الذي يصنعونه لو بقوا أحياء[٢].

---

(١) سوسنة سليمان : ص ١١٧ .

(٢) نفس المصدر: ص ١١٧ .

وللإنصاف نقول : إنه رغم ظهور بعض البدع بعد نيقية ، إلا أننا نعترف بأن هذا العدد يبقى قليلاً ، لا يتناسب وخصوبة الأرض المسيحية وطيب مناخها وملاءمة أجوائها الصالحة ، المهيأة دائماً لعطاء أكبر وأكبر من البدع والهرطقات .

وقد يكون لقرارات الحرمان الكنسي ، وسيف قسطنطين ومن خلفه من الملوك ، دور في التخفيف من هذا الاخصاب . وظلت الأمور مقبولة معقولة ، حتى جاء نسطور عام ٤٢٨ م .

ونسطور شخصية أغنى من أن تعرف ، إذ أنه ترك بصمات له في الإيمان المسيحي ، لم يستطع الزمن محوها ، ولكننا ننقل شيئاً من أخباره .

ولد نسطور في نواحي انطاكية ، وعرف عنه علمه وفصاحته وورعه ، رشحه الملك تواد وسيوس الصغير للكرسي البطريركي وفاز بها .

حارب البدع والهرطقات ، على أنه ظهر فيما بعد ، إنه لم يفعل ذلك، إلا ليخلي الطريق لبدعته .

وفي إحدى خطبه قال :

> كيف يكون لله أم ؟ فإن مريم لم تلد إلهاً ، إذ لا يلد الجسد إلا جسداً ، وأما ما يلده الروح فهو روح ، لا تستطيع الخليقة أن تلد الخالق، بل ولدت إنساناً هو .

أما أهم أفكار البدعة النسطورية، فهي :

- إن الإنسان الذي تجسد في أحشاء العذراء ، هو غير كلمة الله الوحيد .
- ما التجسد إلاَّ حلول كلمة الله في ذلك الإنسان ، بمنزل هيكل له .
- إن الله لم يلد ، ولم يولد ، ولم يتألم ، ولم يمت .
- إن العذراء، لا تدعى أم الله ، بل أم المسيح .
- إن الله أرسل إلى العالم رسولاً المسيح ، كأحد الرسل

والأنبياء ، ويكون استحقاقه ، ومحبته ، ووساطته بين الله والبشر متناهية وعادية .

وقد انتشرت هذه البدعة انتشاراً عظيماً ، وكان لها مؤيدوها ، ومفكروها ، ومدافعون عنها . والسؤال : هل اكتفت المسيحية بعد نسطور بما أنجبته من البدع؟ فتوقف تدفق المواليد الغريبة من رحمها ؟ هل أصيبت بعد نسطور بالعقم ، فتوقف انجابها ؟

يبدو أن الأمر على عكس ذلك ، إذ لا زالت تختزن في رحمها العديد من المواليد . فما إن أخذت النسطورية مقعدها في القطار المسيحي المكتظ بالبدع ، وارتاحت فيه ، وهدأت زوابعها ، حتى ظهر مولود جديد .

كان هذه المرة على يد راهب آخر ، هو رئيس دير في القسطنطينية ، هو الراهب: أوطيخا ، والملاحظ أن جميع المنتفضين على الفكر المسيحي ، الثائرين بوجه التثليث ، كانوا من كبار المفكرين المسيحيين، ومن رجال الدين المسيحي بالذات ، الذين كانت لهم مراكز مرموقة في الكنيسة .

والغريب أن هذا الراهب أيضاً ، كان يحاجج النسطوريين ويدافع عن الكنيسة في بداية الأمر ، ولكنه ما لبث أن وقع في المحظور نفسه ، فأخرج للمسيحية بدعة جديدة ، كان المسيح بها كالعادة حجر الرحى ومركز الدائرة . فقال :

إن الطبعين الإلّهي والبشري في المسيح امتزجا ، فكان فيه طبيعة واحدة ، واقنوم واحد وعليه فلم يعد إنساناً كاملاً ، فكان عند التجسد ذا طبيعتين ، وأما بعد فصار ذا طبيعة واحدة ، لأنه اعتقد أن طبيعة المسيح الإلّهية سيطرت تماماً على طبيعته البشرية ، فاستحالت طبيعة واحدة .

وعلى هذا رفض أوطيخا أن يكون المسيح مساوياً للناس في جوهر الناسوت ، كما هو مساو لله في جوهر اللاهوت .

ومما يجدر ذكره أن أوطيخا مات عام ٤٥٥ م . بعدما نفاه الملك مرقيان إلى مكان قفر لا ماء فيه ولا إنسان ، طبعاً بعد أن قام البابا « بالواجب الديني » المناط به . . . فحرمه من دينه .

انتهى القرن الخامس ، وأطل السادس ، وحال المسيحية لا يتغير ، بل هي تنتقل من سيء إلى أسوأ ، والقضية دائماً هي هي ، والمعضلة نفسها والمشكلة ذاتها . . . المسيح وطبيعته ودعوته . فلم يبق شيء في المسيح ، لم يختلف عليه المسيحيون ، لأنهم بالأساس لم يتفقوا على شيء فيه .

لم ينفع الترقيع فاستمر التشقق

أقفلنا الباب على بدع القرن الخامس ، على أمل أن تكون نهاية المأساة المسيحية الطويلة ، ولكن ما إن أطل القرن السادس ، حتى تقدم يعقوب البردعي ليفتتح معرض البدع في المسيحية عام ٥٤١ م ببدعة جديدة .

والغريب أن الآخر كان راهباً في دير الرها ثم أسقفاً .

مختصر بدعته :

نفس أفكار أوطيخا ، القائلة بطبيعة المسيح الواحدة .
ولكنه زاد عليها أنه ما دام للمسيح طبيعة واحدة، فهو لا شك يملك مشيئة واحدة. ودعيت بدعته باليعقوبية .

ثم انشطرت كنيسته شطرين :

١ ـ انطاكية ، وهي التي صارت فيما بعد اليعقوبية .

٢ ـ اسكندرية ، وهي التي دعيت فيما بعد بالقبطية .

وفي أواخر القرن السادس تشعب عن المونوفيزيقية ، أي الكنائس المؤمنة بالطبيعة الواحدة في المسيح مذاهب صغيرة عديدة ، أهمها :

١ ـ مذهب الخياليين ، الذي ابتدعه اسقف مدينة ليفيا من آسيا الصغرى ، المدعو يوليانوس عام ٥٤٥ م وتبعه الأرمن .

وبدعته :

إن جسد المسيح كان من طبعه منزهاً عن قبول الآلام والفساد .

وآخرون قالوا :

إن جسد المسيح هو إلّه وليس إنسان .

وغيرهم قالوا :

هو إنسان وليس إلّه.

وقبل أن نختتم استعراض البدع المسيحية ، لابد أن نذكر رأيان آخران حول تجسد المسيح وألوهيته ، أحدهما قال به الكاثوليك بروما :

باتحاد طبيعتي المسيح لفظاً ، وفصلهما فعلاً .

٢ ـ نادى به الأسقف ليو الأكبر ، في رسالته إلى مجمع أفسس الثاني في القرن الخامس ، إذ قال بها :

حقاً يأتي المسيح الإثنان الإلّه والإنسان ، وإن الأول يبهر المعجزات ، والآخر ملقى للإهانات .

ونجد هذا الرأي في إقرار مجمع خلقيدون الذي قال :

إن المسيح إلّه تام، وإنسان تام، مولود بحسب اللاهوت من الأب ، وبحسب الناسوت من مريم البتول والدة الإلّه . ومعروف واحداً بطبيعتين متحدتين ، بلا اختلاط ، ولا ابتدال ، ولا إنقسام ، ولا إنفصال .

فيما كان للأرثوذكس رأياً آخراً هو :

اتحاد طبيعتي المسيح لفظاً وفعلاً.

ويطلق عليه تعبير آخر هو :

وجود طبيعة واحدة للكلمة المتجسدة .

ونرى أن نترك الحديث ، عما آلت إليه أوضاع المسيحية في أواخر القرن السادس، إلى الأستاذ الياس المر المنسوب إليه كتاب « الإسلام بدعة نصرانية »

الذي قال :[1].

«صارت المجمعات الكنسية تعقد فقط ، أما لرمي الحرم على أسقف وبطريرك ، وأما لرفع الحرم عنه ، ولعل الفترة ما بين ٦٠٤ـ ٦٥٠ كانت من أقسى الفترات التي مرت على الكنيسة ، لدرجة أن أحد المؤرخين قال :

إذا كنت في هذه الفترة تذهب إلى بقال أو سمان في القسطنطينية لتسأل شيئاً لبيتك ، كان يجيبك عن تساؤلك : هل تعرف أن للمسيح مشيئة واحدة ؟

وقصة الجدال البيزنطي المعروف ، حول طبيعة الملائكة ، إذا كانوا ذكوراً أم إناثاً ، هو أصدق مؤرخ لتلك الفترة ، التي ضاع فيها الناس حول طبيعة المسيح ، ونحو طبيعته السياسية التي لا ترحم .

فجاء ـ يقصد الإسلام ـ من قضى عليهم وعلى هرطقاتهم» .

ويساعد البروفسور كلداني برسم الصورة المسيحية على حقيقتها فيقول :

«لقد انعقد أكثر من ستة عشر مجمعاً كنسياً، لتحديد وتعريف دين المسيحية ، ولم يكن ذلك إلا ليكتشف مجمع الفاتيكان في القرن التاسع عشر ، إن أسرار العصمة والحمل بلا دنس ، كانتا من التعاليم الرئيسية ، وكلا المسألتين لم تكن معروفة للرسول بطرس ولمريم العذراء .

وإن أي دين ، يعتمد على مداولات وقرارات المجامع العامة ، المؤمنة ، أو الملحدة ، هو دين مصطنع»[2] .

---

(١) الإسلام بدعة نصرانية : ص ٧٤.

(٢) محمد في الكتاب المقدس: ص ٢٠١.

الخلاف طال كيفية تفسير الانجيل

لم تقتصر خلافات المسيحيين على طبيعة المسيح ، وتجسده ، وصلبه ، وقيامته ، ولا على نصوص الأناجيل فحسب ، بل تعدت ذلك إلى خلافهم حول فهم تلك النصوص ، وكيفية تفسيرها . ومن أجل ذلك قامت نزاعات ، وأهرقت دماء ، وظهرت مدارس مختلفة ، وعقائد متصادمة . وإذا كنا عاجزين عن الخوض في تفاصيل تلك المدارس وعقائدها ، لتشعب وتشابك مواضيعها ، إلا أننا في الحديث عنها ، نستطيع أن نختصر على الأهم منها ، وحصرها بالمدارس الثلاث التالية :

١ ـ **المدرسة الرمزية** : وأهم روادها ومنظريها كان أورجينوس ، وهو أحد كبار آباء الكنيسة في القرن الثالث الميلادي .

وهذه المدرسة أجازت إلى آباء الكنيسة ، اللجوء إلى التفسير الرمزي للكتاب ، إذا ما تغيرت الظروف في مجتمعاتهم ، ونشأت فيها فلسفات جديدة ، ومشاكل أدبية ، ومثل ، وأفكار دينية لم توجد قبلاً . . . بشيء تصبح تلك المجتمعات في عصر جديد ، فيه من عناصر التفكير ما لا يتفق مع ما في كتبها ، عندها يحق للكنيسة أن تلجأ إلى التفسير الرمزي ، أي أن يدور الأباء وراء المعاني الظاهرة في الأقسام التي لا يفهمونها ، أو التي يعترضون عليها ، فيلبسونها معنى جديداً يريدونه ويوافقهم ، في حين أن ذلك المعنى ، لم يكن ليخطر ببال كاتب السفر .

وهذه الطريقة كانت شائعة في كل الديانات ، التي كانت تعاني من سهولة تجاوز الزمان ، والمكان ، والمتغيرات في حياة وأفكار المجتمعات ، لمعتقداتها وتعاليمها ، فوجدت أنه ليس بغيرها وسيلة للحاق بقطار المتغيرات ، والتعويض عن تقصيرها ، وسد الثغرات المفتوحة في جدران تعاليمها .

وأول من لجأ إليها ، كان المفكرون الهنود القدماء ، عندما حاولوا إدخال إصلاحات عصرية على المعتقد الهندي القديم ، في الوقت الذي كانوا فيه يريدون الحفاظ على إخلاصهم للأسفار الهندية القديمة . فأخذوا القصص ، التي تروي الحوادث الغرامية ، بين آلههم كرشنا وبين البنات الراعيات ، وهي قصص فطرية أولية ، وادعوا أنها ترمز إلى شوق النفس إلى الاتحاد مع الله .

وهو ما فعله اليونانيون بأشعار هوميروس ، عندما قالوا بأنه لا يعني ما يظهر من حرفية كلماته ، إنما يعني شيئاً باطنياً، مرموزاً إليه بالكلمات الظاهرة .

واستعمل حاخامات اليهود التفسير ، الرمزي ، لاخراج أسفارهم من مأزق واقعها ، وكان الحاخام « أكينة » من أهم روادهم في هذا الحقل ، فقد استطاع أن يلقي على سفر « نشيد الإنشاد » معنى غير معناه الحقيقي ، معنى صوفياً باطنياً هو : حب الله لإسرائيل .

ثم جاء المسيحيون ، فقالوا : حب المسيح للكنيسة .

وهكذا ، وعلى هذا الأساس دخل هذا السفر في الكتاب المقدس .
وعندما نحول انظارنا إلى التقاليد ، والعقائد ، والتعاليم المسيحية ، نجدها واقعة تحت هذه القاعدة ، فقد استخدم أورجينوس التفسير الرمزي ، ليوجد تفسيراً جديداً للنص الذي أوردته الأناجيل ، عن الأتان التي كانت مربوطة وجحشها معها اللذان أرسل السيد المسيح ليحلاهما ويجلباهما إليه .

فقال :

« إن الأتان ، هي الحرف في العهد القديم ، والجحش هو الحرف في العهد الجديد ، وكانا كلاهما مربوطين ، ولكن

الرسل جاؤوا ليحلوهما ويجلبوهما إلى يسوع »[1]. .

واستعمل أوغسطينوس نفس الأسلوب في التفسير ، فقال :

« إن جنة عدن هي الكنيسة ، وأنهارها الأربعة هي الأناجيل الأربعة ، وأشجارها المثمرة هي جماعة القديسين ، وأثمارها أعمالهم ، وشجرة الحياة هي يسوع »[2].

وفي مرة أخرى اعتبر أن الأنهار الأربعة هي :

« الفطنة ، والاعتدال ، والاستقامة ، والعدل»[3] .

وبدا في وقت من الأوقات ، أن التفسير الرمزي هو الحل الوحيد ، للخلاص من الصعوبات التي واجهها العالم المسيحي ، في تفسير الكتاب المقدس .

فقد زال من الكتاب بهذا التفسير الباطني ، كل قول غير لائق عن الله ، وكل شريعة لا يمكن تطبيقها ، وكل عادة مستهجنة ، وكل مخالفة أو تناقض ظاهر .

وقد استخدمت الكنيسة القديمة والمتوسطة التفسير الرمزي استخداماً متواصلاً ، وكان من أشد المتحمسين له في القرن الرابع عشر ، المصلح الديني الإنكليزي « ويكلف » ، وتبعه فيه في القرن الخامس عشر المصلح الديني « جان هص » والمصلح الإيطالي « سافونا رولا » .

وظل التفسير الرمزي سيد الموقف ، والملجأ ، والملاذ للكنيسة طيلة قرون عديدة ، إلى أن تبين فيما بعد ، أن تأثير هذه الطريقة على الوعظ والتعليم

---

(١) نظرات حديثة في الكتاب المقدس: ص ١٠٣ .

(٢) نظرات حديثة في الكتاب المقدس، ص ١٠٥ .

(٣) نظرات حديثة في الكتاب المقدس: ص ١٠٧ .

في الكنيسة ، لا يمكن حصره أو المبالغة فيه ، إذ أنه متى بدأ الإنسان باستعمالها ، فلا حدود توقفه ولا حواجز ، لأن الصفحة المكتوبة لا قبل لها بإيقاف المفسر عند حد ما ، إذ يمكنه أن يتصور معاني كثيرة .

فكان إن حملت طائفة من الآباء لواء المعارضة لهذا الأسلوب في تفسير الكتاب المقدس ، داعية إلى التوقف عن استعماله وإبطاله ، بزعامة « يوحنا كلفن » الذي أرسى على أنقاض التفسير الرمزي بنيان مدرسته الجديدة وهي :

التفسير الحرفي المقيد للكتاب :

فكان « كلفن » يعتقد ، أن لكل مجموعة من الآيات في الكتاب المقدس ، معنى واحداً حقيقياً، قلّده التفسير الرمزي تقليداً سخيفاً .

وقد بلغ به احتقاره للتفسير الرمزي درجة الحدة والغضب ، فكان ينعته بأشد النعوت تحقيراً له . .

ورغم العاصفة التي خلقتها نظريات كلفن في الفكر المسيحي ، والمعارضة التي لاقتها من بعض آباء الكنيسة البارزين ، إلّا أنها بالنتيجة استطاعت أن تسود ، وتسيطر ، وتفرض نفسها ، وكان لوثر نفسه من أنصار كلفن ، فكان يقول :

> « إن تفاسير أورجينوس الرمزية ، لا تساوي كمية صغيرة من الأوساخ . وأن التفسير الرمزي غير لائق ، وغير معقول ، وشيء متكلف ، وقديم ، وبال »[1].

وما إن عم التفسير الحرفي المقيد ، الضيق ، الخانق ، حتى بدأ الناس يتململون تحت وطأته ، ويشعرون بالضيق منه ، فصار الفرد في بعض الأحيان ،

---

(١) نظرات حديثة في الانجيل المقدس: ص ١١٤ .

يتمنى لو خرج الواعظ إلى جو التفسير الرمـزي الذي كـان على الأقل يفسـح في المجال للتفكير الروحي والخيال .

وهكـذا عادت البلبلة إلى أوسـاط الكنيسة ، وتـوزع آباؤهـا وقاعـدتهـا بين التفسيرين ، الرمزي ، والحرفي ، ولكل منهما أنصاره وجنوده .

وظلت الفوضى مسيطرة حتى بروز عصر الإصلاح بقيادة أتباع لوثر ، الذين لم يقروا لا التفسير الرمزي ولا التفسير الحرفي .

وأعلنوا للناس فشل التفسيرين . . لتعـود المشكلة مطروحـة للحل ، وبعـد مناظرات بلغت حد المهاترة والمعارك ، تقدم رواد عصر الإصـلاح بتفسير جـديد للكتاب المقدس ، أساسه التوفيق بين التفسيرين الـرمزي والحـرفي ، وذلك بـأن أدخلوا في التفسير الجديـد أهمية العـامل التـاريخي ، معتبرين أن في ذلـك حلاً للمشكلة العالقة .

ودعيت طريقتهم :

التفسير العصري للكتاب.

ولكن من المؤسف القول ، أن جهودهم الـدؤوبة ومحـاولاتهم المخلصة ، انتهت بالنتيجة إلى الفشل الذريع ، والإخفاق التام .

وعن هذه النتيجة السالبة تحدث « فوزدك » فقال :

« إن كل هذه المحـاولات باءت بـالفشل ، فعمليـة التوفيق كلها خطأ من حيث المبدأ ، أو مستحيلة عملياً »[1].

وعليـه يتبين أن لا التفسير الـرمـزي ، ولا التفسيـر الحـرفي ، ولا التفسيـر العصري ، قد حل مشكلة الأناجيل ، واستحالة تفسيرها وفهمها .

---

(١) نظرات حديثة في الكتاب المقدس: ص ١٢١ .

والسبب كما يراه «فوزدك» :

« إن العقدة في مشكلتنا ، إننا لا نقدر أن نستعمل التفسير الرمزي ونرتاح إليه ، ولا التفسير الحرفي ، ولا الطرق الزائفة المنحرفة ، التي تستخدم في عصرنا الحاضر للتوفيق بين الكتاب القديم والعصر الجديد ، أي التوفيق بين أمرين لا يتفقان ».

ثم يقول هذا الواعظ الأميركي بأحباط ويأس واضحين :

« إن أفضل التفاسير لا يفيد شيئاً ، فمعظم السر لا يزال باقياً »[1].

وهكذا تبقى مشكلة الأناجيل معلقة ، وأسرارها مغلقة ، وطلاسمها عسيرة على الفهم والتفسير ، تنتظر من يتقدم بالحل السحري لها .

والتاريخ يحدثنا ، كم كلفت المسيحيين من أرواح وضحايا خلافاتهم حول تفسير الكتاب المقدس ، أهمها وأشدها فظاعة تلك التي سقطت في المعارك ، بين الكنيسة وأتباع كلفن في القرن الخامس عشر .

---

(١) نظرات حديثة في الكتاب المقدس: ص ١٢٧ .

كل المجامع المسكونية فشلت... حتى بالترقيع

أما والمسيحية تسير في رحلتها الشاقة ، من عثرة إلى عثرة ، ومن سقطة إلى أخرى ، ومن تشقق إلى تشقق ، تتنازعها البدع ، وتتآكلها الهرطقات ، وينخر جسدها سوس التناحر والتذابح ، فالسؤال الذي بات يطرح نفسه هو :

أمام هذا الواقع البائس ، ماذا فعلت الكنيسة لوقف هذا النزف ؟
وماذا اتخذت من إجراءات للحد من هذا التدمير الذاتي ؟

والحقيقة تقال : إن الكنيسة هي الأخرى كانت في ضياع ، وعندما تدخلت بقصد لملمة الوضع ، وستر الفضيحة ، وإصلاح ذات البين ، كان تدخلها إما متأخراً ، وإما عبر قرارات خاطئة مرتجلة ، كان الضرر منها أكثر من النفع ، وكان ناتجها تدميراً أكبراً ، وتفسخاً أشداً فباءت كلها بالفشل .

ذلك لأن المشكلة في حقيقتها كانت أكبر من قرارات الكنيسة ، وأقوى من إجراءاتها . المشكلة تكمن في جوهر المسيحية وعقيدتها ، والمعضلة موجودة في صلب الإيمان المسيحي بالذات والمداواة يجب أن تتوجه إلى اللب والجوهر ، إلى العقيدة المسيحية برمتها ، لا إلى الهوامش والظواهر ، ومع ذلك ، فلقد سارعت مراكز القرار في المسيحية ، متمثلة تارة بالكنيسة ، وتارة أخرى بالأباطرة المسيحيين ، وطوراً بهما مجتمعين ، إلى معالجة الوضع المتردي بسبل شتى وأساليب مختلفة ، بدأت بالتنادي لعقد المجامع المسكونية المتتالية ، وانتهت بتجريد السيف ، وقطع الأعناق ، ودحرجة الرؤوس، فلم ينفع

في ذلك كله شيئاً ، لأن المداواة كانت منصبة على أطراف المريض ، بينما الداء العضال ينهش قلبه . . .

ولا بد من أن نستعرض أولاً المجامع المسكونية ، التي عقدت على مدى عشرين قرناً ، وكان على جدول أعمالها موضوع واحد ، قضية واحدة ، تلك هي طبيعة المسيح ، وتجسده، وألوهيته ، ودعوته ، لنعرج بعدها إلى استعراض السيوف التي جردت ، والرؤوس التي دحرجت « خدمة » لله والمسيحية والمسيح[1] .

المجمع المسكوني الأول :

هو المجمع النيقاوي عام ٣٢٥ م ، بأمر قسطنطين الأول ، لبحث نظريات آريوس ، خرجت بنتيجته الديانة المسيحية التثليثية الحالية .

المجمع المسكوني الثاني :

هو المجمع القسطنطيني عقد عام ٣٨١ م ، بأمر ثيود وسيوس الملك ضد المكدونيين ، تثبيتاً للاهوت الروح القدس ، وبأن المسيح ذو جسد حقيقي ونفس حقيقية ، وأنه إلّه تام ، وإنسان تام ، وتثبيتاً لدستور نيقية . وزاد فيه لفظ الروح القدس المنبثق من الأب وكمله .

المجمع المسكوني الثالث :

هو المجمع الافسسي عام ٤٣١ م ، بأمر ثيوديوسيوس الثاني ، انعقد لدحض تعاليم نسطور وبيلاجوس ، فحكم هذا المجمع :

بوجود اتحاد جوهري بين الطبيعتين في المسيح ، وبأن الإلّه والإنسان في المسيح هما واحد ، وبأن مريم والدة الإلّه .

---

(١) سوسنة سليمان : ص ١١٩- ١٢١- ١٢٣ .

وعام ٤٤٩ ، عقد مجمع بين الثالث والرابع دعي :

مجمع اللصوص :

بأمر ثيود وسيوس الثاني أيضاً ، انتهت أحكامه إلى :

إن المسيح ذو طبيعة واحدة ، وتثبيت تعاليم افتيخوس .

وبعد نهايته ثار الرهبان على فلافيانوس بطريرك القسطنطينية ، وضربوه حتى مات .

المجمع المسكوني الرابع :

هو المجمع الخلقيدوني بأمر الملك مرسيانوس . عقد عام ٤٥١ م والغريب أن انعقاده كان ضد افتيخوس ، الذي أثبت مجمع اللصوص نظرياته .

وأثبت هذا المجمع بأن :

الطبيعتين في المسيح غير ممتزجتين ، وغير منفصلتين ، وأن المسيح هو واحد في طبيعتين ، وليس من طبيعتين .

المجمع المسكوني الخامس :

هو المجمع القسطنطيني الثاني بأمر الملك بوستيانوس . عقد عام ٥٥٣ م ، ضد أوريجانوس ، وضد معلمي الطبيعة الواحدة ، ولقد نتج عن هذا المجمع ، انفصال القبط ، والأرمن ، واليعقوبيين ، عن الكنيسة الشرقية الملكية .

المجمع المسكوني السادس :

هو المجمع القسطنطيني الثالث بأمر الملك بوغوناتوس . عقد عام ٦٨٠ م، تثبيتاً :

لوجود مشيئتين في المسيح .

وحرماناً للبابـا هنوريوس ، وستة بطاركة كانوا يؤيدون رأي «المنوتوليين» علماً أن هذا البابا في ذلك الوقت كان . . ميتاً .

وعام ٦٩٢ م ، عقد مجمـع بين السادس والسـابع في القسـطنطينيـة يدعى الخامس ـ السادس ، وهو لا يزال موضوعاً للاختلاف بين الشرقيين والغربيين .

وعام ٧٥٤ م عقد مجمع ثان بين السادس والسابع في القسطنطينية ، بـأمر الملك قسطنطين الخامس وفيه :

حرموا اتخاذ الصور والتماثيل في العبادة والذخائر ، وطلب الشفاعة من العذراء المباركة في جميع الكنائس الشرقية .

ومما يجدر ذكره هنا أن الملك قسطنطين ، كان يضاد الأيقـونات ، وعبـادة الصور والتماثيل .

وكذلك كان الملك ليون والملك قسطنطين الرابع ، ولكن هذا الأخير كان سيء الحظ إذ قتلته أمه IRENE وملكت عنه ،

وأرجعت عبادة الصور والذخائر .

والجدير ذكره أيضاً : أن كنيسة رومية رفضت أحكام هذا المجمع .

ولكن مجمـع جنتيلي عـام ٧٦٧ ، ومجمـع فـرانكفـورت ٧٩٤ حكمـا من جديد ضد :

عبادة الأيقونات ، والصور ، والذخائر ، والتماثيل .

المجمع المسكوني السابع :

هو المجمع النيقاوي الثاني بأمر الملكة IRENE انعقد عام ٧٨٧ ضد :

مكسري الايقونات .

رومية قبلت به ، بينما رفضته كنيسة فرنسـا ، وفي إنكلترا عقـد مجمع ضـده عام ٧٩٤ .

المجمع المسكوني الثامن :

التأم في القسطنطينية ، وهو في الحقيقة مجمعان متضادان أولهما :

اللاتيني الغربي

المنعقد عام ٨٦٩ ، وفيه :

تثبت كون الانبثاق من الأب والابن .

وكان قبله بسنتين ان حرم نقولا بابا رومية فوتيوس بطريرك القسطنطينية ، فعاد فوتيوس وحرم البابا نقولا المذكور .

أما المجمع الثاني ، فكان انعقاده عام ٨٧٩ وهو : الشرقي اليوناني .

وفيه جرى تثبيت فوتيوس بطريرك القسطنطينية ، وحكم هذا المجمع :

بأن الانبثاق من الأب وحده ،

وتم الانشقاق بين الشرق والغرب .

المجمع المسكوني التاسع :

هو المجمع اللاتيراني الأول ، انعقد عام ١١٢٣ في رومية ، عززت فيه سلطة البابا على حساب صلاحيات الأساقفة .

المجمع المسكوني العاشر:

هو المجمع اللاتيراني الثاني ، انعقد عام ١١٣٩ في رومية ، في محاولة لإرجاع الوحدة بين الكنيستين الغربية والشرقية .

وفي طريقه قام هذا المجمع بحرمان الالبنجيسيين وأرنولد .

المجمع المسكوني الحادي عشر :

هو المجمع اللاتيراني الثالث ، انعقد عام ١١٧٩ لأجل إصلاح التأديب الكنسي .

المجمع المسكوني الثاني عشر:

هو المجمع اللاتيراني الرابع ، انعقد عام ١٢١٥ تجدد فيه حرم الالبنجيسيين وتثبيت الاستحالة والغفرانات .

المجمع المسكوني الثالث عشر :

هو المجمع اللاتيراني الخامس ، انعقد عام ١٢٤٥ في ليون ، بأمر البابا آفيوسنت الرابع لأجل عزل ملك فرنسا فردريك وحرمه .

المجمع المسكوني الرابع عشر :

وهو مجمع ليون ، انعقد في ليون عام ١٢٧٤ وبحث فيه أمر «الانبثاق»ومحاولة توحيد الكنيسة ، ولكن : **دون نتيجة** .

المجمع المسكوني الخامس عشر :

وهو مجمع فيينا ، انعقد عام ١٣١١ بأمر البابا اكليمندوس الخامس ، ألغيت فيه رتبة : «فرسان الهيكل» .

وعام ١٤٣٩ انعقد مجمع آخر في فلورنسا ، لإعادة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، من **دون نتيجة**، بسبب **انشقاق** حصل في الكنيسة الشرقية بين الأرثوذكس والروم الكاثوليك ، **وانشقاق آخر** حصل بين الأرمن الكاثوليك ، والسريان الكاثوليك .

المجمع المسكوني السادس عشر :

انعقد من عام ١٤١٤ إلى ١٤١٨ في كونستانس بطلب من أساقفة فرنسا ، لإصلاح حال البابوات رفضته **رومية** ، وقبلته **فرنسا**، وحكم:

بإحراق يوحنا هوس مصلح كنيسة بوهيميا ورفيقه جيروم .

فأحرق هوس في ٦ تموز عام ١٤١٥ ، **وجيروم** في ٣٠ أيار عام ١٤١٦ ، وحكم بعزل البابا يوحنا الثاني والعشرين ، وبأن البابوات هم تحت أوامر المجامع وسلطانها . .

المجمع المسكوني السابع عشر :

انعقد في باسيل عام ١٤٣١ ، دام إلى ١٤٣٩ تأييداً لسلطات المجامع على البابوات .

المجمع المسكوني الثامن عشر :

انعقد في رومية عام ١٥١٢ ، دام إلى ١٥١٨ بأمر البابا يوليوس الثاني ، لأجل الغاء شروط الحرية التي انعقدت مع كنيسة فرنسا عام ١٤٣٨ ، رفضه اكليروس فرنسا .

المجمع المسكوني التاسع عشر :

انعقد في تديدنتو ، ودام من ١٥٤٢ إلى ١٥٦٣ ، غايته الرد على آراء البروتستانت التي طرحها لوثر .

المجمع المسكوني العشرون :

انعقد في رومية عام ١٨٦٩ ، ولا زال مفتوحاً لم تنته جلساته إلى الآن ، وكان انعقاده بأمر البابا بيوس التاسع ومن مقاصده : إثبات عصمة البابوات ، وقد نشأ عن ذلك انقسام في الطوائف الكاثوليكية .

تلك هي المجامع المسكونية ، التي دعت إليها الكنيسة المسيحية أو ملوكها ، على مدى عشرين قرنا من الزمن ، لمعالجة وضعها المتأزم ، وواقعها المتفجر ، وكلها كما يلاحظ انصبت على خلافات المسيحيين ، وآرائهم المتعارضة ، حول طبيعة المسيح ، وتجسده ، وألوهيته ، وبالأحرى حول عقيدة التثليث ، أو لنقل حول نظريات بولس ، بقصد إيجاد حلول لها .

وإذا كان الهدف الأساسي من عقدها ، هو إيجاد سبيل لتوحيد الكنيسة

المسيحية ، وتوحيد إيمان المسيحيين بالمسيح ، وإذا كانت النتائج هي مقياس الفشل أو النجاح ، فإننا لا نتجنى إذا ما قلنا ، أن المجامع كلها قياساً على النتائج قد فشلت فشلاً ذريعاً ، واخفقت اخفاقاً فاضحاً .

فلا الكنائس توحدت ، ولا المسيحيين المختلفين ، المتذابحين ، المتناتفين ، بسبب خلافهم حول الله والمسيح توحدوا ، أو وجدوا إيمانهم الموحد المنشود .

وإن لم نقل ، أن المجامع نفسها كانت سبباً في تعميق الانقسام ، وتجذير الفرقة والخلاف ، فإنها على الأقل لم تفعل شيئاً أكثر من ذر الرماد فوق الجمر الأحمر لتغطيته، ودهن المرض العضال ببعض المسكنات المهدأة .

وحول طبيعة هذه المجامع ومناخها ، تحدث كل من : سال دابادي في كتابه «المجامع المسكونية في التاريخ» وسورينا في كتابه «شرق المسيحيين الأوائل» .

فقالا :

> معلوم أن المجامع ما كانت تنعقد على الدوام ، في شروط مثلى من الديموقراطية ، وإن العنف والتخويف ما كانا مستبعدين من الاجتماعات وطرائق اتخاذ القرارات[1].

وقالا :

> بدءاً من المجمع الخلقيدوني ، وعلى مدى مئة عام ، اتسمت حياة الكنيسة بسينودوسات مجامع زائفة ،

(١) انظر تعدد الأديان وأنظمة الحكم لجورج كرم: ص ١٤٨ ـ دار النهار عام ١٩٧٩ـ بيروت .

بمنشورات وإعلانات دعائية ، بمشاجرات في الشوارع ، بل بمعارك أحياناً .

فبطرس الأباتي ، وهو أسقف يناصر عقيدة طبيعة المسيح الواحدة ، فتك في مضيق جبلي بثلاثمائة راهب خلقيدوني ، كانوا يزعمون أنهم في طريق الحج إلى مقام القديس سمعان .

يحرم المسيحي من دينه. . . إذا

إلى جانب تلك المجامع المسكونية المتتالية ، جرّدت الكنيسة مدعومة من ملوكها سلاحاً آخراً . كان له أثراً سلبياً في تاريخها وسمعتها ، وفي زعزعة إيمان المسيحيين وثقتهم بكنيستهم ، ومصداقية قراراتها .

ذلك هو سلاح الحرمان من الدين .

وهو أفظع أنواع الارهاب الفكري ، الذي مارسه أنصار بولس ، بحق كل من أجاز لنفسه الرفض ، أو الاعتراض .

فما هي قصة هذا الحرمان ؟ ومتى يحرم المسيحي من دينه ؟

ما إن فجر نسطور قنبلته فوق الأرض المسيحية الرخوة ، حتى بعث في الكنيسة الهلع والتوتر ، فدعا الملك ثيودوسيوس الثاني ، إلى عقد المجمع المسكوني في أفسس عام ٤٣١ م ، الذي بدأ جلساته برئاسة البابا الاسكندري كيرللس ، ثم برئاسة يوحنا الانطاكي ، بعدما تألب المجتمعون على كيرللس وعزلوه ، ثم أعلنوا حرمانه من الدين .

وهكذا بدأ في المسيحية تطبيق قانون الحرمان الشهير .

والمفارقة الغريبة المضحكة ، أن هذا السيف كانت تجربته الأولى برقبة البابا نفسه ، الذي وضع مبادىء هذا القانون العجيب وأصوله ، هذا إذا كان من مبادىء تراعى أو أصول يؤخذ بها .

وقبل أن نتحدث بتوسع عن « قواعد » القانون العجيب ، لنترك الاستاذ نصري سلهب يحدثنا عن واقع المسيحية المرير ، في تلك الحقبة من تاريخها .

قـال :

في أثناء الصراعات اللاهوتية ، سوف نرى رهبان مقاطعة بأسرها ، يلجأون إلى تجنيد فعلي عام ، وإلى السلاح لمجابهة أمير المقاطعة ، لخلافهم معه على هذه الطبيعة أو تلك من طبائع الثالوث المقدس .

وسوف نرى أيضاً جماهير صاخبة، تندفع على أساقفة وتذبحهم كما حصل في الإسكندرية ذات خميس فصح عام ٤٥٧ م.

وأضاف الأستاذ سلهب قائلاً :

ولم يخل هذا التاريخ من فصول مضحكة ، كذلك الدخول الحافل إلى الكنيسة ، الذي قام به بطريرك انطاكية أكاس الهرطوقي ، المنشق عن الكنيسة والمحروم من قبل البابا ، وفي مؤخرته قرار الحرم الذي علقه له في الغفارة أحد الرهبان الدهاة .

وتابع سلهب موضحاً الصورة أكثر فأكثر :

أما الحادث المشجي ، فكان ذلك الذي كانت أفسس مسرحاً له عام ٤٤٩ م ، ففي أحد المجامع راح الأحبار يحرمون بعضهم بعضاً ، ويهدد الواحد منهم بقطعه إربا ، ويخلعون بعضهم بعضاً ، إلى أن اشتبكوا بالأيدي ، واستدعوا الشرطة ، وسرعان ما تبع هؤلاء كل رعاع المرفأ ، وبالنتيجة انقضوا على بطريرك انطاكية القديس

فلافيانوس وعذبوه حتى الموت[1].

وسط تلك الأجواء ، وفي مثل هذه المناخات من تاريخ المسيحية ، كان سيف الحرمان لا يكل ولا يهدأ .

والسؤال : ما هي المقاييس التي اعتبرها أصحاب القرار المسيحي ، وحملة سيفه موجبة لحرمان المسيحي من دينه؟

نحيل هذا السؤال إلى البابا كيرللس الأسكندري نفسه ، إلى المحروم الأول الذي صاغ قرار الحرمان من الدين ، وكأن الإيمان الديني ترخيص تنعم به جهة ما على المؤمن ، لتسحبه منه متى شاءت وكيفما شاءت .

وإن كنا لا ندري كيف يمكن لها أن تسحب إيمانه من قلبه ، وعقله ، ووجدانه .

تحدث الاستاذ سليمان مظهر عما اعتبره الباباوات أسباباً موجبة لحرمان المسيحي من دينه ، فقال[2]:

> عمد البابا كيرللس معاصر نسطور ، إلى تفصيل العقيدة حول تجسد المسيح في إثني عشر بنداً ، وإعلان الحرمان على كل من يخالفها .
> فسرى قانون الحرمان على قوم كثيرين ، فقد أصبح محروماً :
>
> ١ - من لم يعترف بأن المسيح إلّه حقيقي ، وأن العذراء والدة الإلّه .
>
> ٢ - من لم يعترف بأن المسيح واحد فقط مع جسده ، وهو إلّه ، وهو إنسان .

---

(١) في خطى محمد : ص ٧٥ - ٧٦.
(٢)، قصة الديانات: ص ٣٨٣.

٣ ـ من فرق المسيح إلى اقنومين ، ولم يحسن أن يوحدهما بوحدانية طبيعته .

٤ ـ من ميز الأصوات المذكورة في الكتاب المقدس ، وفرزها إلى اقنومين ، فجعل بعضها لإنسان وبعضها لإلّه .

٥ ـ من تجاسر وقال : أن المسيح الذي يستعمل السلطان الإلّهي إنسان ساذج ، ولم يحسن أن يقول أنه إلّه بالحقيقة .

٦ ـ من قال أن كلمة الأب هو رب المسيح ، ولم يحسن أن يعترف بأن المسيح هو نفسه ـ إلّه وهو إنسان .

٧ ـ من قال: أن الله الكلمة ، كان يفعل في الإنسان يسوع .

٨ ـ من تجاسر وقال : أنه ينبغي أن يسجد للإنسان الذي أصعد إلى السماء مع الله ، وأن يمجد معه أو يسمي معه إلّهاً كأن هناك إثنين .

٩ ـ من قال أن المسيح كان ممجداً من قبل الروح القدس ، بقدرة غريبة منه ، كأن يتم بها الآيات اللاهوتية في البشرية ، ولا يقول أن الروح خاصة للمسيح ، وإن كان يفعل به آيات اللاهوت .

١٠ ـ من قال : إن كلمة الله ليس هو الذي صار رسولاً ، وتجسد وصار إنساناً ، وإن المسيح قرب نفسه من الأب لأجل نفسه ، ولم يحسن القول أنه قرب نفسه لأجل خلاص البشر .

١١ ـ من لم يعترف بأن جسد الرب شاف محيٍ ، ولم يحسن القول بأنه معطي الحياة ، لأنه صار لكلمة الله خاصة الذي هو قادراً أن يحيي الكل .

١٢ - من لم يعترف بأن الله الكلمة تألم في الجسد ، وصلب في الجسد ، وذاق الموت ، وأنه يكبر الأموات .

ولعمري . . هل بعد هذه القرارات الجائرة ، إرهاباً أكبر من هذا الإرهاب ؟ ، وظلماً أفظع من هذا الظلم ؟

وهل لجأ أصحاب السلطة في الدولة الإسلامية ، إلى حرمان مسلم من دينه ، بحجة معارضتهم بالرأي ، أو مخالفتهم في معتقد؟

أبداً . . . إن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل على العكس ، فإن ما طبقه الإسلام في مسيرته كلها كان أعلى درجات الديمقراطية وأسماها .

ولقد اثبتنا في الفصول السابقة هذا الأمر بالتفصيل .

فما هو ثابت في التاريخ ، أن المسلمون لم يلجأوا بكل عهودهم إلى مثل هذه الأساليب الظالمة ، بحق أي من أهل الكتاب ، لخلافهم معهم في الدين والمعتقد .

ولا منعوا أي منهم من ممارسة حقه المشروع في حرية العقيدة ، والتعبير ، والرأي ، ولو كان مخالفاً للإسلام ، معارضاً له .

ولا فرضوا دينهم على الناس بالقوة ، والعنوة ، والإكراه .

وهذه شهادة مسيحي عريق ، تحدث عن ديمقراطية الإسلام ، وعدل الإسلام ، واخلاقيات الإسلام ، هو الكونت هنري دي كاسترو ، في كتابه « الإسلام سوانح وخواطر » فقال :

«لقد درست تاريخ النصارى في بلاد الإسلام ، فخرجت منه بحقيقة مشرقة ، وهي أن معاملة المسلمين للنصارى ، تدل على لطف في المعاشرة ، وترفع عن الغلظة ، وعلى

حسن مسايرة ، ورقة ، ومجاملة، وهذا إحساس لم يؤثر عن غير المسلمين .

فإن الشفقة والحنان ، كانا يعتبران لدى الأوروبيين عنواناً على الضعف ، وهذه ملاحظة لا أرى وجهاً للطعن فيها .

ولا يفوتني أن أذكر حادثاً عرض للكنيسة الأندلسية ٨٥١ ، فقد تخيل رجالها أنهم مضطهدون، على حين كان المسيحيون عامة يقيمون شعائر دينهم في قرطبة ، ولا يشكون من حكم الإسلام شيئاً . وغاية ما هنالك ، أن فريقاً من القسس والرهبان، الذين يتميزون غيظاً من إنتشار الإسلام ، قام فيهم قس متحمس يدعى « ايلوغوا » وكان شاباً احتاج في كسر ثورة نفسه ، إلى قهرها بالصوم والسهر .

ثم ظل يعقد الاجتماعات بمبغضي الإسلام ، حتى أهاج ثائرتهم بقوة بيانه ، فهاجوا جميعاً يطلبون الموت فداء لدينهم .

فبينما كان القاضي المسلم في مجلسه بقرطبة . . إذ دخل عليه راهب اسمه اسحاق ، يعمل كاتباً لأحد امراء العرب ، وكانت تبدو على الراهب سمات التهيج العقلي . فلما اقترب من القاضي قال له : حضرت لأعتنق الإسلام .

فأمره القاضي أن ينطق بالشهادتين .

فاندفع الراهب يسب النبي والدين سباً شنيعاً .

فظنه القاضي سكران أو أحمق ، فلم يحكم عليه بشيء .

إلاّ أن الراهب اسحاق بعد أن ظفر بنجاته ، لم يقلع عن عمله الطائش ، بل عاود الرجوع إلى القاضي وتكرار شتائمه القبيحة ، مما اضطر القاضي أن يحكم عليه بالموت .

والغريب أن طلاب التطهر ومحبي الاستشهاد من أجل النصرانية ، لم يجدوا باباً لإرضاء المسيح ، ونيل غفرانه ، إلاّ بهذه الطريقة البذيئة .

فقتل أحد عشر شخصاً في شهرين بهذه الجريمة . مع أن القضاة كانوا يصمون آذانهم ، حتى لا يحكموا على أحد ، وطالما أوعزوا إلى الحجاب أن يمنعوا من الدخول أمثال أولئك السفهاء .

وقد ندد عقلاء النصارى بهذا المسلك ، ورأوه انتحاراً شائناً .

غير أن « ايلوغوا » ورفقاءه من القساوسة الحاقدين على الإسلام ، حسبوا ذلك انتصاراً لدعوتهم ، وتدعيماً لكنيستهم ، ورموا مخالفيهم بخيانة المسيحية ، وألحوا على رعاياهم بضرورة سب محمد ودينه، حتى أشاعوا الهياج في كنائس الأندلس كلها .

فطلب الخليفة عبد الرحمن الثاني الإجتماع برؤساء القسس ، كي يستفتيهم فيما هو حاصل من اتباعهم ، فسكتوا عما وقع في الماضي ، وتعهدوا بالكف عن مثله في المستقبل .

ورأى الخليفة ألاّ يحضر أمام القاضي مسيحي في مثل هذه الأحوال ، إلاّ إذا رفع أمره إليه ليبت فيه بنفسه ،

رغبة منه في حقن دماء المخبولين من أولئك النصارى المتعصبين»[1] .

وأضاف دي كاسترو قائلاً :

ومع هذا النبل الرائع ، فقد ظلت خواطر النصارى مهتاجة حتى عام ٨٥٩ ، وهذه هي فتنة أيلوغوا .

ذكرها جورج قرم فقال :[2]

شملت استفزازات المسيحيين للمسلمين ، حرق المصاحف ، أو شتم النبي في الساحات العامة ، وهذا بالتحديد في عصر، كان فيه التسامح الإسلامي الديني ، على أوسع وأرحب ما يكون .

---

(١) أنظر التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام : ص ٢١٠ .
(٢) تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ١١٥ ـ دار النهار ـ بيروت ١٩٧٩ .

ويحرم من حياته . . . إذا

يبقى أن نسأل :

هل المجامع المسكونية العشرين ، التي عقدتها الكنيسة المسيحية لحل مشاكلها ، وقانون الحرمان الشهير الذي دعمت به مواقفها ، بوجه المعارضين ، والمنتقدين ، والمنتفضين ، كانا الإجراءين الوحيدين اللذين اعتمدتهما سبيلاً لإنجاح مشروعها ؟ أم إن هناك سواهما ؟

نعم كان في جعبتها ، ما هو أكثر من المجامع وقرار الحرمان فعالية ، وفي جيدها سيف سحبته مرة من غمده ولم يعد إليه ، لقد جردت المسيحية في حربها مع ذاتها ومع الآخرين ، سلاحاً أكثر رهبة ، وأشد مضاء ، وأفظع بطشاً ، سلاحاً دافعه الإفلاس ، والعجز ، والإحباط .

به رؤوس تدحرجت ، وأرواح أزهقت ، وضحايا سقطت ، إنه سلاح : محاكم التفتيش الرهيبة .

وما أدراك ما محاكم التفتيش ؟؟ . . .

ولكي لا يتهمنا صاحب « قس ونبي » الذي كدنا في خضم البحث أن ننساه بالتحيز والتجني ، فإننا لن نتحدث بأنفسنا عن هذا الأمر الفظيع ، ولن نمد يدنا ، لنفتح صفحات قرنين من التاريخ المسيحي الأسود الرهيب ، بل سنترك هذه المهمة لأصابع مسيحية ، تمتد لتقلب تلك الصفحات السوداء .

سنترك الدور لأقلام مسيحية ، كي تتحدث عن القصة المخيفة المرعبة ،

لتحكي حكاية السيف الثالث ، حكاية الدم المهراق ، والضحايا المتناثرة ، والرؤوس المقطوعة ، بموجب « عدالة » محاكم التفتيش الكنسية المسيحية « المقدسة » .

والقصة بدأت ، عندما نهض البابا أينوسنت الثالث ، ليقاوم الكاناري ، وهي طائفة اعتبرها الباباوات كاملة الالحاد ، بعد أن أنكر أعضاؤها ، أن الكنيسة كنيسة المسيح ، وقالوا أن بطرس لم يأت قط إلاَّ روحاً ، ولم يؤسس الباباوية ، وأن رؤساء الأساقفة ذوي الأملاك الواسعة ، والقساوسة الدنيويون ، والرهبان ، هم الفريسيون القدماء الزنادقة ، قد عادوا إلى الحياة من جديد .

وفي سنة ١٢٢٩ اجتمع رجال الكنيسة الكاثوليكية في تولوز لأول مرة ، أيام البابا جريجوريوس التاسع ، وكان هذا الاجتماع تمهيداً لتقرير إنشاء محكمة ، يقدم إليها كل من أتهم في دينه « الكاثوليكي »، وكل من كان على دين أو عقيدة غير « الكاثوليك » ، سواء كان من اليهود ، أو البروتستانت ، أو من جماعة المفكرين ، والأحرار ، والمسلمين ، الذين كانوا في أوروبا في ذلك الوقت ، وفي إسبانيا والبرتغال بوجه خاص ، وكل من يتهم بالإلحاد والزندقة في مسيحيته الكاثوليكية .

ولكن البابا غريغوريوس ، لم يقرر إنشاء الديوان بطريقة رسمية إلاَّ عام ١٢٣٣ م ، وعندئذٍ صدرت الأوامر إلى كل الكنائس الكاثوليكية ، بتعيين كاهن يختص بالبحث عن المشتبه فيهم وتقديمهم للمحكمة الباباوية الخاصة ، وأطلق على هذه المحكمة اسم الديوان المقدس أو التفتيش المقدس ، وخول كاهن التفتيش الاستعانة بمن يراه لازماً لمعاونته من الجواسيس ، أما هؤلاء الجواسيس فما كانوا يكشفون عن شخصياتهم قط ، بل أخفيت شخصياتهم ، ووعدوا بغفران خطاياهم ، وأحل لهم ارتكاب الجرائم مهما كان نوعها .

وكان المتهم يسأل أمام المحكمة ، ليقرر ما يراه عن الكنيسة ، ورأيه صراحة في الدين المسيحي، فإذا أبى ألقي به إلى زبانية التعذيب .

وكانت أمثلة ما يحدث مع هؤلاء المعذبين ، رهيبة ، غاية في القسوة .

ولكي نمكن القارىء من تكوين فكرة عن الأساليب الوحشية الرهيبة ، التي كانت تتبع بحق الضحايا البريئة في تلك المحاكم « المقدسة » ولكي يرى أي نوع من المحاكم كانت ، وأية « عدالة » كان « القضاة المؤمنون » يطبقونها في محاكمهم الكنسية البابوية ، بحق الضحايا البريئة .

ما علينا إلا أن ننقل صورة واحدة من آلاف الصور المتكررة ، عن محكمة جرت لضحية بريئة نفذ بحقها القضاة « المؤمنون » عدلهم الشهير ، في قاعة المحكمة « المقدسة » بالذات ، وبأمر ، وعلى مسمع ومرأى قضاة العدل المسيحيين . وقائع جلسة نقلها لنا الأستاذ سليمان مظهر في كتابه قصة الديانات، فقال :[1]

«جيء بواحد من هؤلاء أمام المحكمة ، ولم يكد يصل حتى أمر رئيسها جنود التفتيش بوضع الحديد في أصابعه ، وعندما انتهوا طلب رئيس المحكمة أن يوقفوه ، وأجابه الجنود أنه لا يقوى على الوقوف ، فقال القاضي ، إذن ضعوه في التابوت ، فإنه يقف فيه .

وكان التابوت الذي وضعوه فيه عبارة عن صندوق مربع فيه مسامير من الداخل ، فاضطر المسكين أن يقف رغم ما به من إعياء وضعف .

ثم رفعوا الكمامة التي كانت على فمه ، ليتمكن من الإجابة على الأسئلة ، وعندما تنفس الرجل الصعداء طويلاً ، أمر رئيس المحكمة أن يسقوه قليلاً من الخمر ، فلما شرب قليلاً منها تفتحت عيناه ، وحدث عنده شيء من الانتعاش .

---

(١) قصة الديانات: ص ٤١٥ .

وفحصه الطبيب حتى علم أنه قادر على الوقوف والإستجواب ، فأبلغ ذلك هيئة المحكمة ، ودار هذا الحوار بين رئيس المحكمة والضحية :

ما اسمك؟

أنا مسلم مغربي

كلا، بل اذكر اسمك المسيحي الجديد

صموئيل فرناندنس

إن صموئيل هذا اسم يهودي

لقد كان المسيح يهودياً أيضاً

ما الذين تفكر فيه الآن ، وما هو تأثير المحاكمة عليك ؟

تأثير داخلي .

وماذا يقول لك الصوت الداخلي ؟

لا أدري ، فإني الآن لا أدري ماذا أقول .

قل ما فكرت فيه بصوت مسموع .

لا أقدر على الكلام ، لأني متألم جداً من الضغط على صدري ، والكلام لا يكون حسب الأمر ، بل حسب الإستطاعة .

ستنظر ذلك جيداًجداً .

أيها الحرس ، أظن إن ضرب وجهه بالسوط يمكنه من الكلام .

وسرعان ما جذبه أحد رجال التعذيب ، وجعل يجلده على وجهه بجلدة سميكة مبللة بالماء ، فأحمر جلد وجهه ، وكاد يخرج منه الدم ، وجعل يتلوى من الألم . .

وعاد رئيس المحكمة يسأله :

أين أبوك وأمك ؟

ليس لي أب ولا أم . . ماتا

وأين ماتا؟

في سجون ديوان التفتيش

أحرقا؟

بل تعذيباً حتى تهرأ جسداهما، فماتا من شدة العذاب .

هل لك أخوة؟ وأين يقيمون؟

بل قل أولاً ، أين ماتوا ، وأين قبورهم ؟

يظهر أنك تريد أن ينفذ صبرنا معك ، فسنبدأ بتعذيبك .

يسؤني هذا

إذن أنت لا تريد أن تدلنا على البقية الباقية من أخوتك ، ولا عن مكان إقامتهم ، إن الديوان المقدس لا يخفي عليه أن لك أخوة على قيد الحياة ، وأنهم يصلون في مساجد خفية ، ألا تعلم أين هم ؟

لا أعلم .

أنت تسكن مع امرأة، فمن تكون؟

زوجتي

يجب عليك أن تسلمها إلى ديوان التفتيش ، نحن نأمرك ، فأين هي ؟

إذا كنتم تأمرونني ، فأولى بكم أن تقتلوني ، وهذا ما يمكن أن تفعلوه ، وعندئذٍ سوف تصلي زوجتي من أجلي .

سوف تساق إلى التعذيب ، فأولى لك الإقرار .

لا يعنيني العذاب، فإن جسمي مخدراً لا يشعر .

ثم اقترب منه أحد المعذبين وهو يتصنع الرقة والعطف ، وقال بصوت متكلف :

أعلم يا بني إننا لا نرمي من وراء تعذيبك ، إلاَّ إلى الإقرار عن بقية أهلك الذين تحبهم ، وبذا تنجي نفسك ونفوسهم ، ونصعد بكم إلى السماء .

أجاب الرجل : إذا صعدنا نحن إلى السماء ، فمن يهوي بكم أنتم إلى الجحيم ؟

وعندئذٍ

أشار أحد رؤساء المحكمة بيده إشارة سريعة إلى المعذبين الواقفين أمام آلات التعذيب ، فهجموا عليه وأخذ البعض منهم يضع الحبال في يديه وصدره معاً ويلفها لفاً . وراح آخرون يربطون رجليه بحبل دقيق .

ثم وضعوه على مائدة خاصة ، وأعادوا ربطه عليها ربطاً وثيقاً ، وتقدم أحدهم وهو يحمل جرة ملأى بالماء وتقدم آخر وفي يده قمع وأدخله في فمه ، وراح المعذب يصب الماء داخل القمع شيئاً فشيئاً ، والطبيب إلى جوارهما يراقب التعذيب ، ليرى إلى أي حد يمكن للمسكين أن يحتمل العذاب ، الذي يؤدي إلى قتله خنقاً .

ولكن الرجل هذا لم يعترف قط ، وراح المعذبون يزيدون في سكب الماء ، ولكن دون جدوى . وظل بطن الرجل ينتفخ ، وجحظت عيناه ، ثم مات خنقاً بالماء» .

لقد استعملت تلك المحاكم أشد وأقسى وسائل القتل والتعذيب وحشيةً في التاريخ . فكانت ولا تزال وصمة عار وخزي في تاريخ الكنيسة المسيحية . ولقد زخر التاريخ في سجلاته بقصص الموت الرهيب ، الذي يندى له جبين الإنسانية . ولذلك نلاحظ ، أن أكثر المؤرخين والباحثين المسيحيين ، يمرون على تلك الحقبة مروراً سريعاً ، ونراهم يتحاشون بكل الأساليب ، الحديث عنها

أو التوسع بتفاصيلها .

على أن الصورة قد تبدو مكتملة ، عندما يتصور المرء آلات التعذيب الرهيبة ، التي كان يستخدمها رجال التعذيب .

أبرز الأستاذ مظهر عينة منها، فقال :

كانت قاعة التعذيب عبارة عن غرفة مظلمة ، جدرانها سوداء ، ثبتت فيها مسامير ناتئة قد صدأت ، يغلق عليها باب من الحديد السميك ، وفي أرضها سلاسل ضخمة مشدودة إلى حلقات في الأرض ، وكانت تلك السلاسل لربط المذنبين حين تعذيبهم ، وإلى جانب ذلك توجد مجالد من الجلد المعقود على رصاص ، ودواليب ، وسحابات ذات مسامير حادة صدئة لتمزيق الأجساد .

وعضاضات حديدية لعض اللحم ، ثم أكاليل حديدية ذات رؤوس حادة ، ومسامير ناتئة من الداخل تطوق بها جبهة الضحية .

ثم يأخذ المعذب في تضييقها شيئاً فشيئاً ، بواسطة مفتاح يدور بلولب ، حتى تغرز المسامير في الرأس ، ثم هناك كلاليب ذات رؤوس حادة ، لسحب أثداء النساء من الصدور ، وآلات لسل اللسان من أصله ، وأخرى لتكسير الأسنان ، وأحذية حديدية تحمى لدرجة الإحمرار يلبسونها لمن ساء حظه ، ووقع في يد تلك الوحوش .

ثم أحذية أخرى حديدية ذات مسامير من الداخل ، يضعونها في رجل السجين، ثم يأخذ الموكل بالتعذيب في تضييقها شيئاً فشيئاً .

وتوجد مشنقة معلقة أيضاً في السقف ، لكي تشنق

المعـذب نصف شنق ، فلا هـو حي يرجى ، ولا هـو ميت يوارى . ثم سلاسل ضخمة وأثقال حديدية معلقة في نواح مختلفة من السقف ، ليربط فيها السجين ، وبينها فتتجاذبه وتمـزق أعضاءه ، وهنـاك تابـوت ، هـو عبـارة عن خـزانـة حديدية يقف فيها المعـذب ، وفي بابهـا ست من الحراب القصيـرة المثبتة ، فـإذا ما أغلق ذلـك البـاب بقـوة دخلت حربتان في عيني المعذب، فتنفذان من مؤخرة الجمجمة . وكان يوجد في وسط القاعة ما يسمى بـالجحش الخشبي ، فكان السجين يربط إليه لإزهاق روحـه ، بواسـطة التضييق على رئتيـه ، فكانـوا يطوقـون صدره بـآلـة حـديـديـة ، ثم يأخذون في تضييقها بواسـطة لوالب ، حتى تنقـطع أنفاس المعذب المسكين[1].

ذكـر جورج قـرم حادثـة من حوادث الإرهـاب ، التي كانت تمـارس بحق المواطنين الأبرياء ، فقال :

في عـام ١٧٦٦ صدر في فـرنسا حكم الإعدام على أحـد الأشخاص ، ونفذ فيه ، لأنه لم يقف ليؤدي التحية لموكب ديني[2].

استعملت هـذه الآلات الرهيبـة ، وبالأسـاليب الوحشيـة التي لا يصـدقهـا عقل ، ولا يتقبلها ضمير ، بحق آلاف من المسيحيين وأهل الكتاب ، يهودا كانوا أم مسلمين ، ومن المخجـل إيراد حقيقـة قاسيـة هي أن هذه الجـرائم كانت تتم بقرار وإشراف أعلى السلطات الروحية في الكنيسة المسيحية .

---

(١) قصة الديانات: ص ٤١٥ .

(٢) تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ٢٤ـ دار النهار ـ بيروت ١٩٧٩ .

ساعدنا أيضاً الأستاذ نصري سلهب في كتابه « في خطى محمد » برسم الصورة الحقيقية للإرهاب المسيحي الأحمر ، فقال :

ظاهرة أخرى تميز ذلك المجتمع المعوج ، هي قساوة العذاب ، والعقوبات التي كانت تفرض على المحكومين، ليس فقط في الشرع العام ، بل على الخصوص في المنازعات اللاهوتية ، بحيث بات مألوفاً قطع الأنف، والأذنين، واللسان، وفقء العين ، والبتر ، بأشنع الأساليب ، وغدت الإعدامات ملهاة شعبية متكررة في عهد يوستنيانوس الثاني[1].

ولكي لا نحصر الحديث عن الإرهاب المسيحي في حقبة زمنية واحدة ، فما علينا إلا أن ننقل الصورة إلى القرن السادس عشر ، ونمركز آلات التصوير في شوارع فرنسا بالذات ، لنشاهد ما تقشعر له الأبدان ، ويندى له الجبين خجلاً . ينقل لنا صورة تلك الأحداث الرهيبة البروفسور روبس في كتابه « تاريخ الكنيسة » فلنسمعه يتحدث :[2].

يجب أن نسلم بدون أن نقع في ابتذال الدعاية المضادة للاكليروس ، بأن تلك الأساليب لا تروق لكاثوليكي ، والصورة التقليدية التالية ، التي تستغل غالباً ضد الكنيسة ، ليست من مخيلة المؤرخين الملحدين :

الموكب الرهيب للمحكومين بالإعدام ، مرتدين حلة الموت ، ترافقهم حشود الشمامسة ، والرهبان ، والمحرقة ، حيث يلقون حكم الإعدام ، والجماهير المتسارعة بلؤم

(١) في خطى محمد : ص ٧٦.
(٢) في خطى محمد: ص ٢١٨.

للتفرج على هذا المشهد ، وأخيراً ذلك الدخان المتصاعد في الجو ينشر رائحة اللحم البشري المحروق .

ويعقب الكاتب على الأمر الفظيع فيقول :

هذه الفظائع كافية لتقلق الضمير المسيحي ، وتلوث الدين بعدوى السياسة ، الذي أدى إلى مثل تلك النتائج ، ليس حديثاً ، بل قديماً .

وها هو الكاتب نفسه يشهد على الأرهاب المسيحي بحق المسلمين ، فبعد إجبارهم على ترك دينهم بالقوة والإكراه ، يجرونهم إلى المحرقة الجماعية ، لا لشيء ، إلاّ لأن مسيحيتهم المكرهين على اعتناقها باتت موضع شك ، فحكم عليهم بالإعدام ، قال البروفسور روبس :[1]

فئتان من المحكومين كانتا ضحية أساليب الحكم المريعة تلك ، أولئك المسلمون القدامى المرتدون بالقوة ، المسيحيون ظاهراً والمسلمين في الحقيقة ، فبعدما تم إجبارهم على جحد معتقداتهم السرية، انقضوا عليهم ، فأسروا البالغين ، واختطفوا الأولاد ، وكان الأضطهاد العنيف الذي لا يهدأ .

وإذا كانت الصورة قاتمة بالنسبة للمسلمين الذين أصابهم من « العدل المسيحي » بعض أحكامه « العادلة » فأبيدوا عن بكرة أبيهم فعزاؤنا أن « العدل » نفسه جرت « أحكامه العادلة » على بعض حملة الصليب أنفسهم ، فأبادوا بعضهم بعضاً بصورة وحشية ، لا تصدق ، ولا تعقل .

البروفسور روبس يحدثنا عن معارك رهيبة متبادلة جرت في شوارع فرنسا

---

(١) في خطى محمد : ص ٢١٩ .

وإسبانيا بين أطراف مسيحية متصارعة بسبب خلافها المعهود حول المسيح ، وألوهيته ، وتجسده .

قال :

في تلك الصورة الرائعة لفرنسا ، المتألقة ، المتنعمة ، الباعثة الجمالات ، نرى اللوحات الكبرى الدامية للقتل الجماعي باسم الأديان ، فكنت ترى القتل الجماعي ، وإزهاق الجرحى ، وذبح السكان بعد احتلال المدن من كلا الجانبين .

يحدث مونولوك، وهو مارشال فرنسي عن المذابح ، التي أباد فيها أتباع كلفان في غويانا، فقال : كانوا يعرفون من أين مررت ، لأنهم كانوا يجدون على الأشجار في الطريق آثار المشنوقين . وعندما علم ، أن سكان مدينة تروب يؤوون كفرة ، أرسل إليهم فرقة ، وأمرها بقتل كل من كانوا هناك ، وقد نفذ الأمر بحذافيره ، وعندما قتل الجميع ألقيت الجثث في بئر عميقة ، فامتلأت لدرجة أنه كان بالإمكان لمس الجثث باليد .

ويضيف روبس قائلاً :

فيما كان في الجنوب الشرقي البارون دازادريه ، الزعيم « الكلفيني » يقترف من الفظائع ما أهلته لحمل لقبه المعروف « الوحش الهائج » فبعد أن احتل مدينة مونبريزون ، أجبر الذين كانوا يدافعون عنها ، بأن يرموا بأنفسهم من أعلى الأسوار على رؤوس حراب جنوده[1].

---

(١) في خطى محمد : ص ٢٢٢ .

كانت تلك المعارك بين الكاثوليك وأتباع مذهب كلفينوس ، أي الكلافنة .

ولكن مشاعر الحزن والاستنكار تنتاب الإنسان، وهو يقرأ ما ذكره نفس البروفسور المسيحي ، عن المذابح التي جرت للبروتستانت في فرنسا ، على يد حماة المسيحية الكاثوليك ، الذين أبادوا ثلاثين ألف مسيحي، خلال ثلاثة أيام فقط .

يعلق الأستاذ نصري سلهب على هذه الفظائع ، فيقول :

> هذه المقاطع وهي لكاتب غربي مسيحي ، عرف بتعصبه للكنيسة الكاثوليكية ، تغني عن كل تعليق ، أوردناها بحرفيتها ، لنعطي القارىء المسيحي بصورة خاصة ، فكرة صحيحة ، ومجردة ، عما هم عليه البشر في كل زمان ومكان[1].

وبالمقابل وعلى الطرف الإسلامي ، نجد المساواة تعم ، والتسامح الديني يسيطر ، والتعايش الأخوي بين الأديان قائماً ثابتاً ، وعن هذا الوضع المشرق تحدث بعض النقاد والمستشرقين .

فأرنولد قال :

> من الحق أن نقول : أن غير المسلمين نعموا في ظل الحكم الإسلامي ، بدرجة من التسامح ، لا نجد معادلاً لها في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة[2].

فيما غوبينو في كتابه « أديان آسيا الوسطى وفلسفاتها باريس ١٨٦٥ قال :

> أقول إلى حد الجزم ، بأن لا دين يضاهي الإسلام في التسامح[3].

---

(١) في خطى محمد : ص ٢٢٣ .
(٢) تعدد الأديان وأنظمة الحكم : جورج قرم ص ٥٣٧ .
(٣) نفس المصدر: ص ٢٣٨ .

اعترض لوثر ... فحرم

لقد استمر نظام محاكم التفتيش الدامي مئتي عام ، قتل خلالها آلاف البشر ، بأبشع صور الموت والتعذيب ، فكان الناس يحرقون أحياء على نار هادئة ، أو توضع على أجسادهم أثقال هائلة حتى الموت، أو يمزقون إرباً إرباً بأدوات وحشية رهيبة ، وعلى مسمع ومباركة الكنيسة ، وظل الوضع يزداد قسوة ووحشية في أوروبا ، حتى نهاية القرن الخامس عشر ، عندما ولد مارتن لوثر . ومن موقعه كقسيس كاثوليكي كان يعرف أكثر من سواه عيوب الكنيسة ومساوئها .

فاعترض في بداية الأمر على محاكم التفتيش ، وهذه جرأة نادرة سجلها له التاريخ ، فكان يقول :

لا يستطيع أن يأمر أو يكره أحداً بالقوة على اعتقاد معين .

ولم يستطع لوثر أن يفهم ، كيف أن البابا ، أو أي أحد من أتباعه ، يكره رجلاً على اعتناق المسيحية كما يعلمونها ، إذا لم يكن هذا الرجل مؤمناً بها ؟

وشعر لوثر بأكبر خيبة أمل ، عندما وصل إلى مقر البابا الذي كان يعيش في قصر محاطاً بالثراء ، ويخاطبه الناس على أنه ملك ، فيجثون أمامه ، ويقبلون قدميه ، ويلتمسون رضاه ، والبابا ظل الله في أرضه ، يبيع بركته بالثمن .

وفي عهد البابا ليو ، تعممت صكوك الغفران وقرارات الحرمان أيضاً ، ولم يستطع لوثر أن يفهم كيف يمكن لمجرم أن يقتل إنساناً ، ثم يشتري صك

الغفران من سماسرة البابا ، فيصبح بهذا بريئاً أمام الرب . وفي ٣١ تشرين أول عام ١٥١٧ ، سمّر لوثر على باب كنيسة القصر في وتمبورج ، مخطوطاً طويلاً باللاتينية من خمسة وتسعين بنداً ، كلها تسفه قرارات البابا ، وخصوصاً صكوك الغفران .

وجاء في بعضها [1] :

١ ـ إن البابا لا يستطيع أن يرفع عن الإنسان قصاص الخطيئة ، وإنما يعلن فقط أن خطايانا مغفورة من الله .

٢ ـ القول بأنه في اللحظة التي ترن فيها الدراهم في صندوق الجمع ، تخرج النفس من المطهر ، قول ليس فيه ذرة من الحقيقة .

٣ ـ كل مسيحي يترك خطاياه ويتوب عنها توبة قلبية صادقة ، تغفر له خطاياه ، ويكتب اسمه في سفر الحياة ، ولا حاجة إلى خطابات توصية من البابا .

٤ ـ من يتكلم ضد دعاة شراء الغفران وصكوكه ، أولئك الدعاة الحمقى ، فليكن مباركاً .

ثم أعلن لوثر مشروعاً إصلاحياً جريئاً ، من سبعة وعشرين بنداً ، أهمها ستة بنود، هي :

١ ـ يجب على الشعب الألماني أن يرفض دفع الضريبة السنوية للبابا ، لأنه بدلاً من أن يصرفها في أعمال البر والإحسان ، يستعملها لإشباع شهواته الدنيئة .

---

(١) قصة الديانات: ص ٤٢٢ للاستاذ سليمان مظهر دار الوطن القومي -الطبعة الأولى ١٩٨٤ .

٢ ـ لا مانع من أن تكون الأمور الروحية الدينية من اختصاص البابا ، ولكن على البابا ألاّ يتدخل في الأمور الزمنية ، التي هي من اختصاص السلطات الدنيوية .

٣ ـ يجب أن يمتنع الباباوات عن الانغماس في المتع والملذات، وأن يقللوا من مظاهر الأبهة والعظمة ، فمن التناقض العجيب أن يدعي البابا ، أنه راعي كنيسة المسيح على الأرض ، وخليفة القديس بطرس ، بينما يحيا حياة العز والأبهة ، غير متمثل بالمسيح الذي ولد وعاش ومات فقيراً .

٤ ـ ليس للبابا سلطان على الامبراطور ، إلاّ مسحه وتتويجه ، فلا يجب أن نستسلم لكبرياء البابا ، وخبثه ، وأوامره ، التي تقضي بأن يقبل الإمبراطور قدمي البابا ، أو يمسك بلجام بغلته إذا ركبها ، أو يقسم له يمين الولاء والطاعة ، وغير ذلك من الحقوق التي يدعيها الباباوات ، بلا خجل أو حياء .

٥ ـ الناس يجترأون على الله بتقبيل قدمي البابا ، وإذا كان المسيح يغسل أرجل تلاميذه ويمسحها بمنشفة ، لكي يؤكد لهم أنه جاء ليخدم لا ليُخدم ، فكيف يتجاسر البابا أن يأمر الناس بتقبيل رجليه ، مع أنه بين من يقبلون قدميه من هم أكثر نقاوة وطهارة من البابا .

٦ ـ تحريم قانون الكنيسة الرومانية الزواج على الكهنة خطأ ، لأنه جعل الكثير من الكهنة يندفعون اندفاعاً مخيفاً إلى الفسق والفجور .

واعتبر بحق مشروع لوثر ، وسط ظروف القمع السائدة ، وأساليب البطش

المستعملة يومذاك ، مشروعاً بالغ الجرأة والمغامرة ، فهزت اعتراضاته ومشروعه الإصلاحي عرش البابوية ، ومادت الأرض تحت قدمي البابا ، خصوصاً عندما تحركت الجماهير بتأثيرها في كل مكان ، بعد أن طبعت مبادؤه وترجمت إلى أكثر من لغة ، ووزعت خلال اسبوعين في أوروبا كلها ، وكان بنتيجة ذلك أن هبط بيع الصكوك ، وعندها أحس البابا بالخطر الفعلي ، فتحرك بإصداره أمراً بطرد لوثر من سلك رجال الدين ، وعندما وصل الأمر إلى لوثر أحرقه علناً .

وكان هذا هو الحد الفاصل بين لوثر وكنيسة روما .

واستمرت محاكم التفتيش معقودة

تلك صورة من الصور التي كانت تجري في محاكم التفتيش الكنسية ، على يد قضاة من رجال الكنيسة ، وبأمر أكبر المراجع فيها .

ورب معترض محتج قائل : أن هذه أمور حدثت منذ سبعة قرون ونيف ، حيث كانت المسيحية تمر في أحلك عصور ظلامها وتأخرها ، وهي حقبة سوداء من تاريخها مرت ولم تتكرر .

إلى هذا المحتج الطيب القلب ، السليم النوايا ، نسوق شهادة جديدة دامغة ، ودليل قاطع ، لا من حكايات قرون الظلام السوداء « المبررة » وإنما من أحداث ما بعد إنشاء محاكم التفتيش بستة قرون ، حكاية من تاريخ الكنيسة القريب ، وتحديداً من القرن التاسع عشر .

لنثبت بها ، أن المسيحية وحتى أوائل القرن العشرين لم تتغير ولم تتبدل ، لا ذهنية ، ولا أسلوباً . شهادة جديدة ، تثبت بأن محاكم التفتيش التي يستنكرها المسيحيين اليوم ، لا زالت مستمرة ، وأبوابها مفتوحة ، وأقواسها معقودة ، وقضاتها جاهزون ، ولن يرتاحوا إلاّ بعد أن يحكموا « بالحق والعدل »، بدحرجة كل الرؤوس ، فقيرها ، وغنيها على السواء ، فقيرها إذا ما انتفض لحق ، وغنيها إذا ما قلّ عطاؤه. فإلى من يشكك ، ويستفظع ، ويستعظم ، نسوق له هذا التقرير ، الذي أورده الدكتور علي مظهر في كتابه « محاكم التفتيش » كتبه

الكولونيل « ليمونكي » أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا ، قال :[1]

كنت سنة ١٨٠٩ ملحقاً بالجيش الفرنسي ، الذي يقاتل في إسبانيا . وكانت فرقتي بين فرق الجيش ، الذي احتل مدريد العاصمة ، وكان الإمبراطور نابليون أصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية ، غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة الحربية ، والإضطرابات السياسية التي سادت وقتئذٍ ، وصمم رهبان الجزويت ، أصحاب الديوان الملغى ، على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم ، انتقاماً من القرار الصادر ، وإلقاء للرعب في قلوب الفرنسيين ، حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد ، فيخلو لهم الجو .

وبينما أسير في إحدى الليالي ، اجتاز شارعاً يقل فيه المرور ، إذ اثنان مسلحان قد هجما عليّ ، يبغيان قتلي ، فدافعت عن حياتي دفاعاً شديداً ، ولم ينجني من فتكهما إلاَّ قدوم سرية من جيشنا ، مكلفة بالتطواف في المدينة ، وهي كوكبة من الفرسان ، تحمل المصابيح ، وتبيت الليل ساهرةً على حفظ النظام .

فما إن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب ، وتبين لنا من ملابسهما ، أنهما من جنود ديوان التفتيش ، فأسرعت إلى المارشال «سولت» الحاكم العسكري لمدريد ، وقصصت عليه النبأ فثار غضبه وقال : لا شك بأن من يقتل جنودنا كل ليلة ، إنما هو من صنع أولئك الأشرار . ولا بد من معاقبتهم وتنفيذ حكم الامبراطور بحل ديوانهم .

---

(١) انظر التعصب والتسامح : ص ٣١١ للاستاذ محمد الغزالي دار الكتب الحديثة ـ القاهرة سنة ١٩٦٥.

والآن خذ معك ألف جندي وأربعة مدافع ، وهاجم دير الديوان ، واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة ، وفي الرابعة صباحاً ، ركبت على رأس تلك الحملة ، ثم قصدنا إلى دير الديوان ، وهو على مسافة خمسة أميال من مدريد. فلم يشعر الرهبان ، إلاّ والجنود يحيطون بديرهم ، والمدافع تصوب إليه فوهاتها، وكان هذا الدير عبارة عن بناء ضخم أشبه بقلعة حصينة ، وأسواره العالية تحرسها فرقة من الجنود اليسوعيين ، فتقدمت إلى باب الدير ، وخاطبت الحارس الواقف على السور ، وأمرته باسم الإمبراطور أن يفتح الباب ، وظهر لي أنّ الحارس التفت نحو الداخل ، وكلم أشخاصاً لا نراهم .

ولما انتهى من حديثه عاد وأخذ بندقيته ، وأطلق علينا الرصاص ، ثم انهال علينا الرصاص من كل جهة ، فقتل بعض رجالي وجرح آخرون .

ولكني أمرت جنودي أن يقتحموا الدير عنوة ، واعتبرت اطلاق الرصاص من الجزويت علامة رفض ، وأنهم لا يفتحون الباب إلاّ بالقوة . . .

وأخذنا نطلق المدافع على أسوار الدير ، وعلى الباب الموصد ، واستخدم جنودنا ألواح الخشب السميك تقيهم رصاص الحرس ، الذي كان ينهمر علينا كالمطر الغزير .

وبعد نصف ساعة، استطعنا أن نفتح ثغرة واسعة في الحائط ، نفذ الجيش منها إلى داخل الدير ، وكنت مع بعض زملائي طليعة الداخلين .

وأسرع الرهبان اليسوعيون إلى لقائنا مرحبين بنا ، ووجوههم باشة .

وهم يستفهمون عن سبب قدومنا على هذا النحو ، وكأن لم يدر بيننا قتال ولم تنشب معركة ، ثم استداروا إلى جنودهم وأنهالوا عليهم تعنيفاً وتأنيباً وقالوا :

إن الفرنسيين أصدقاؤنا فمرحباً بهم .

إلاَّ أن هذا النفاق الخبيث لم ينطل علينا ، فأصدرت الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعاً ، وعلى جنودهم ، ثم أخذنا نبحث عن قاعات العذاب المشهورة ، وطفنا بغرف الدير فراعنا ما بها من أثاث فاخر ، ورياش ، وكراسي هزازة ، وسجاجيد فارسية ثمينة ، وصور نادرة ، ومكاتب كبيرة .
وكادت جهودنا تذهب سدى ، ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب . إننا فحصنا غرف الدير ، وممراته، وأقبيته كلها، ولم نجد شيئاً يدل عليها .

فعزمنا على الخروج ، يائسين من اكتشاف بغيتنا ، مقتنعين بتقديم أولئك الرهبان إلى المجلس العسكري . وكانوا في أثناء بحثنا يقسمون ويؤكدون ، أن ما شاع عنهم وعن ديرهم ليس إلاَّ تهماً باطلة ، وأنهم يحتملون هذه الأكاذيب في سبيل الله .

وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافت ، وهو خاشع الرأس توشك عيناه أن تطفر بالدمع .

فأعطيت الأوامر بالإستعداد لمغادرة الدير .

ولكن « اللفتنانت دي ليل » استمهلني قائلاً : أيسمح لي الكولونيل أن أخبره ، بأن مهمتنا لم تنته بعد؟ قلت له : قد فتشنا الدير كله ، ولم نكتشف شيئاً مريباً ففيم ترغب ؟

قال : إني أرغب في فحص أرضية هذه الغرف ، وأدقق في امتحانها ، فإن قلبي يحدثني بأن السر تحتها .

وعند ذلك نظر الرهبان بعضهم إلى بعض نظرات قلقة ، وأذنت للضابط بالبحث .

فأمر الجنود برفع الأبسطة فرفعت ، ثم أمر أن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة ، ففعلوا، وكنا نرقب الماء ، فإذا بالأرض تبتلعه في إحدى الغرف ، ويتسرب إلى أسفل فصعق الضابط دي ليل من شدة الفرح وقال : هوذا الباب ، انظروا فنظرنا ، فإذا بالباب قد انكشف وهو قطعة من أرض الغرفة ، يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة ، وضعت إلى جوارها رجل مكتب الرئيس .

وأخذ الجنود يكسرون الباب المسحور بقحوف البنادق ، والتفت فرقة من الجنود حول عصابة الرهبان، الذين اصفرت وجوههم وكستها غبرة .

وفتح الباب وظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض ، فأسرعت إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر واحد كانت تضيء أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين .

ولما هممت بالنزول وضع راهب يسوعي يده على كتفي متلطفاً ، وقال لي :

يا بني لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال ، لأنها شمعة مقدسة .

فقلت له : يا هذا إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء ، وسنرى من فينا النجس ؟ ومن القاتل السفاك ؟

وهبط على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود

شاهرين سيوفهم ، حتى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة هي عندهم قاعة المحكمة ، في وسطها عمود من الرخام ، به حلقة حديدية ضخمة ، ربطت بها سلاسل ، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة .

وأمام ذلك العمود عرش الدينونة كما يسمونه ، وهو عبارة عن دكة عالية يجلس عليها رئيس الديوان ، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً ، معدة لجلوس القضاة .
ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية، وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض ، قد رأيت بها ما يستفز نفسي ، ويدعوني إلى التقزز ما حييت .

رأينا غرفاً صغيرة في حجم الإنسان ، بعضها عمودي وبعضها أفقي .
فيبقى سجين الأفقية ممدداً بها حتى يموت ، ويبقى سجين العمودية واقفاً على رجليه حتى يقضى عليه . وتبقى الجثة في السجن الضيق ، حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم .
ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية ، تفتح كوة صغيرة إلى الخارج . وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية ما زالت في أغلالها سجينة .

والسجناء كانوا رجالاً ونساءاً ، تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين .

واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء ، وتحطيم أغلالهم ، وهم على آخر رمق من الحياة .

وكـان فيهم من جن لكثـرة مـا لاقى من عـذاب ، وكـان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم ، حتى اضـطر جنودنـا أن يخلعـوا أرديتهم ويستـروا بهـا لـفيفـاً من الـنسـاء السجينات .

وقـدمنـا السجنـاء إلى النـور تـدريجيـاً ، لئـلا يؤثـر النـور المفاجىء على أبصارهم .

وكانوا يبكون فرحاً ، وهم يقبلون أيدي الجنـود وأرجلهم ، الذين أنقذوهم من العذاب وأعادوهم إلى الحيـاة ، وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا مـا تقشعر لـه الأبدان ، عثـرنا على آلات لتكسير العظام وسحق الجسم .

وكـانوا يبـدأون بسحق عظام الأرجـل ، ثم عـظام الصـدر ، والرأس ، واليدين ، وذلك كله على سبيل التـدريج ، حتى تأتي الآلة على البدن المهشم ، فيخرج من الجـانب الآخر كتلة واحدة .

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً ، يـوضع فيه الرأس المعذب ، بعد أن يربط صاحبـه بالسـلاسل في يديه ورجليه ، فلا يقوى على حركة .

وتقـطر على رأسه من ثقب في أعلى الصنـدوق نقط المـاء البارد ، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة .

وقـد جن الكثيرون من ذلـك اللون من العـذاب ، قبـل أن يحملوا بـه على الإعتـراف ، ويبقى المعـذب على حـالـه حتى يموت .

وعثرنا على آلة ثالثـة للتعذيب ، تسمى بـالسيدة الجميلة ، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة ، مصنوعـة على هيئة الإستعداد لعناق من ينام معهـا ، وقد بـرزت من جـوانبها عـدة سكاكين حـادة ، وكـانـوا يـطرحـون الشـاب

المعذب وتقطعه إرباً إرباً .

كما عثرنـا على جملة آلات لسل اللسـان ، ولتمزيق اثـداء النسـاء وسحبها من الصـدور بـواسـطة كـلاليب فـظيعـة ، ومجالد من الحـديد الشـائك لضـرب المعذبين وهم عـرايا يتناثر اللحم عن العظام .

وصـل خبر الهجـوم على دير ديـوان التفتيش إلى مدريـد ، فهب الألوف ليروا ما حدث .

وخيل إلينا من شدة الزحام ـ أننا في يوم القيامة .

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب الجهنميـة ، جن جنـونهم وانـطلقـوا كمن بـه مس ، فـأمسكـوا بـرئيس اليسوعيين ، ووضعوه في آلـة تكسير العـظام فدقت عـظامه دقاً وسحقتها سحقاً .

وأمسكـوا كاتم سـره وزفوه إلى السيـدة الجميلة ، وأطبقـوا عليهما الأبواب .

فمزقته السكاكين شر ممزق .

ثم أخـرجوا الجثتين وفعلوا بسـائر العصـابة وبقيـة الرهبـان كذلك .

ولم تمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشـر راهباً ، ثم أخـذ ينهب ما في الـدير وقـد عثرنـا على أسماء ألوف الأغنيـاء في سجلات الـديوان السـرية ، وهم الـذين قضى الـرهبـان بقتلهم كي يبتـزوا أمـوالهم ، أو يضـطروهم إلى كتـابـة إقـرارات تحـول ثـروتهم إلى اليسوعيين ، ويمكنني القول : بأن ذلك اليوم هو أعظم يوم شهدته بعد هدم الباستيل .

وبهـذه الوسيلة « المشـرقة » أصبحت الكـاثوليكيـة هي الدين الـوحيـد في

أوروبا . ولا أدري ، ما هو جدوى تغنينا بالمحبة ونحن نطعنها بالصميم ؟ وما معنى التغزل بالتسامح ، وسيوفنا تقطر دماً من أجساد أخوتنا في الدين ، وأجساد أهل الكتاب على السواء؟

وماذا يبقى من الدين سوى النصوص الجامدة ، إذا لم نحيه بأعمالنا قبل أقوالنا ؟

بل ما هي ضرورة الدين برمته ، وموجب وجوده في حياة البشر ، إذا ما أسقط هؤلاء عن كاهلهم واجب تطبيق تعاليمه ، وأخلاقياته، وأحكامه ، ليصبح بدون ذلك مجرد شعارات مستهلكة فارغة .

ومن المؤسف القول أنه قياساً على ما يزخر به التاريخ المسيحي من عنف وإرهاب ، فإننا لا نستطيع إلاَّ الإقتناع بأنهم باتوا من تعاليم دينهم ، ووصايا نبيهم الكريم عيسى ، على طرفي نقيض .

لأنها شاذة فهي بنظرهم صحيحة مقدسة

كل شيء في المسيحية غريب وشاذ ، كل أمر فيها معقد غامض ، لا دور للوضوح فيها ولا مكان ، وجهابذة المسيحية يفتخرون بأن ديانتهم مخالفة لكل الشرائع ، مناقضة لكل الأديان ، أتت بنظريات ، كل قيمتها - بنظر أصحابها - إنها جديدة ، مستحدثة ، لم يفكر بها قبل المسيحيين مخلوق ، ولا خطرت على بال كائن .

وكونها كذلك ، فهي فريدة ، وفي فرادتها ميزتها ، وتميزها على باقي الديانات ، ولقد ظل المسيحيون لقرون طويلة يقاومون الشك الدفين ، المتفاعل بعنف في عمق وجدانهم ، بصحة هذه النظريات وصلاحها ، التي بدت لأكثرهم بعيدة عن العقل والمنطق ، وكأنها وضعت لغير سكان الأرض ، وقد لا تكون صالحة لسكان السماء أيضاً .

وها هو أحد هؤلاء الجهابذة ، يتقدم مفاخراً، متباهياً ، مأخوذاً ، بسحر هذا الواقع المسيحي الشاذ ، باسطاً أمام الأجيال عشرة من « فرائد » نظريات ديانته ، وجميعها تتعلق بنظرة المسيحيين إلى ولادة المسيح من أمه مريم ، وحملها به ، وصلبه ،وألوهيته ، وسواها .

كل ذلك لكي يطرح سؤالاً على البشرية هو :

من تجرأ وأتى قبل المسيحية بمثل هذه النظريات على غرابتها ؟ ومع

ذلك ـ يريد القول ـ فإن لها من يصدقها .

جاء في كتاب « البرهان » المنسوب إلى عمار البصري ، حققه الأب ميشال الحايك ما يلي :[1].

إني رأيت دين النصرانية مخالفاً لذلك كله ، وذلك أن الدعاة إليه دعوا إلى أشياء ، وأخبروا بأخبار لا يخترعها رأي ، ولا ترتفع في فكر ، ولا تخطر ببال ، ولا يتوهمها عقل ، فنحن مختصرون منها عشرة أخبار ، نثبت فيها ما تقدم من قولنا ـ إن شاء الله تعالى :

أولها : في ابتداء أخبارهم أنهم قالوا :يعني المسيحيون ـ أن جارية عذرى وجدت حبلى ، بغير مباضعة ولا زرع ، وذلك مما لم يشاهد في العالم .

والثاني : أنهم قالوا : إنها ولدت من غير انتقاض عذرتها ، فهي والدة مرضعة ، وهي بكر عذرى، وهذا متناقض في العقول .

الثالث : إنهم قالوا : إن هذا الغلام ابن الله ، وذلك منكر عند عامة الأمم المتوحدة لله بالإنفراد والوحدية .

والرابع : إنهم قالوا : ان ابن الله هذا صلب ومات ودفن ، وذلك في الظاهر ـ إذ نسبوه إلى القوة ، ثم وضعوه بالذلة ، متناقض .

والخامس: أنهم قالوا : أنه بعد موته ودفنه، انبعث وقام من القبر حياً، وذلك ما ليس في فطر العقول معرفته .

---

(١) كتاب البرهان : ص ٢٦ـ ٢٧ تحقيق الأب ميشال الحايك .

والسادس: إنهم قالـوا إنه بعـد قيامتـه من القبر ارتفـع إلى السماء ، وذلك أبعد من القبول

والسابع : إنعم قالوا : إنه بعد صعوده إلى السماء ، ينـزل إلى الأرض ليقيم المـوتى ، ويصرف الأخيـار إلى النعيم ، ويصيِّر الفجار إلى الجحيم ، وذلـك لم يخطر ببـال أهـل العالم .

والثامن: أنهم دعوا إلى عبادة مصلوب ، ولو يوجبوا بإجابة النـاس إياهم إلى ذلـك مع ما فيه من الـذلـة والشنـاعـة ، وخلاف الشهوة واللذة .

والتاسع : إنهم دعوا إلى عالم آخـر ، لم يعدوهم شيئـاً ، يعـرفون لـذته ممـا شاهـدوه في هذا العـالم ، بل أمـروهم بخلع هـذا العالم ، والإستخفـاف بلذاته ، من الـطعـام ، والشراب، والنكاح وغيره ، ودعوهم إلى عالم آخر أيضاً ، أعلمـوهم أنهم لا يـأكـلون فيـه ، ولا يـشـربـون، ولا يتزوجون ،فحظروا عليهم ما يعرفونه لذيذاً عندهم في هـذا العالم ، وفي ذلك الآخر .

والعاشر : الذي هو جملة هـذا كله ، وتمامـه ، وكمالـه ، إنهم دعوهم إلى الإيمان بإلّه هو أب ، وابن وروح قدس . وذلك ما لا يرتفع في فكر ، ولا يخترعه رأي .

والـواضح كمـا نرى أن مؤلف الكتـاب ومحققه الأب الحـايك ، مـأخوذين بنشوة الفخار ، يعتـرفان أن كـل ما في المسيحيـة بما فيهـا عقائـدها الأسـاسية ، مجاف للعقل ، غريب عن المألوف ، بعيد عن المنطق ، يفترض أن لا يأخذ بـه إنسان ، ولا يقره مخلوق .

ومع ذلك ـ يريدان القول ـ نرى المسيحيون متمسكون بديانتهم على غرابتها ، مؤمنين بها ، مناضلين في سبيلها ، ولو كان ذلك على حساب العقل ، والإدراك ، والمنطق ، والمألوف .

وفي ذلك بحسب مؤلف « كتاب البرهان » يكمن البرهان ، ويبرز الدليل على صحة وسلامة هذه الديانة .

فهل أغرب من هذا المنطق ، يا ترى ؟ . . .

شكهم طال حقيقة المسيح نفسه

من الشك الذي يتنكب عقل المسيحي وقناعاته ، بصدق مقولة ديانتـه ببنوة عيسى لله وألوهيته ، إلى شكه بصحة أناجيله ، وسلامة مصادرها ومضامينها .

إلى شكـه بوضـع رسله الذين تلبسهم الـروح القـدس ، فصـاروا قـديسين يوحى إليهم من السماء .

إلى شكـه بالـطقـوس المسيحيـة المتبعـة ، ومـا يـراه في كنـائسـه من تمـاثيـل ، وزخارف ، وصلبان ، تبدو عليها مسحة الوثنية ظاهرة للعيان .

إلى خجله المقيت الذي يحسه في أعماق نفسه ، كلمـا قرأ عن الإرهـاب الأحمر في التاريخ المسيحي ، إلى شكه الأكبر بحقيقة وجود المسيح ذاتـه كحقيقة تاريخية .

تحـدث عن هذا الأمـر الباحث الكبيـر ول ديورانت في مـوسوعتـه « قصـة الحضارة » فقال :

« هــل وجـد المسيــح حقـاً ؟ أو أن قصــة حيــاة مؤسس المسيحيـة ، وثمرة أحـزان البشريـة ، وخيالهـا ، وآمـالهـا أســطورة من الأسـاطيــر ، شبيهـة بخـرافـات كـرشنـا ، وأوزريس ، وأتيس ، وأدونيس ، وديونيشيس ، ومتراس ؟ لقد كان بـولنجنبرك والملتفـون حولـه ، وهم جماعـة أرتاع لأفكارهم فلتير نفسـه ، يقولـون في مجالسهم الخـاصة أن

المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق .

ولقد كان أعظم ميادين نشاط العقل الإنساني في العصر الحديث ، وأبعدها أثراً في ميدان « النقد الأعلى » للكتاب المقدس ـ التهجم الشديد على صحة وصدق روايته .

وكان الذي أدارها هو هرمان ريمارس HERMANN REIMARUS استاذ اللغات الشرقية في جامعة همبرج ، فقد ترك بعد وفاته في عام ١٧٦٨ مخطوطاً عن حياة المسيح ، يشتمل على ١٤٠٠ صفحة، حرص على ألاّ ينشره في أثناء حياته ، وبعد ست سنين من ذلك الوقت نشر جتهولد لسنجGOTTHOLD Lessing أجزاء من هذا المخطوط .

ويقول ريمارس: أن يسوع لا يمكن أن يعد مؤسس المسيحية ، أو أن يفهم هذا الفهم ، بل يجب أن يفهم على أنه الشخصية النهائية الرئيسية في جماعة المتصوفة اليهود . القائلين بالبعث والحساب ، ومعنى هذا أن المسيح لم يفكر في إيجاد دين جديد ، بل كان يفكر في تهيئة الناس لاستقبال دمار العالم المرتقب ، وليوم الحشر الذي يحاسب فيه الله الأرواح عما قدمته من خير أو شر»[1].

وجهر فلني VOLNEY بهذا الشك نفسه ، في كتابه خرائب الإمبراطورية ، الذي نشره في عام ١٧٩١ م .

---

(١) قصة الحضارات: ج ١١ ص ٢٠٤ـ ٢٠٥ .

وفي عام ١٧٩٦ م ، أشار هاردر إلى ما بين مسيح متى ، ومرقص ولوقا ، ومسيح يوحنا من فوارق ، لا يمكن التوفيق بينها .

ولما التقى نابليون في عام ١٨٠٨ بفيلاند WILELAND ، العالم الألماني ، لم يسأله القائد الفاتح سؤالاً تافهاً في السياسة أو الحرب ، بل سأله هل يؤمن بتاريخية المسيح ؟

وفي عام ١٨٢٨ لخص هنريخ بولس Heinrich Palus حياة المسيح في ١١٩٢ صفحة ، وعرض تفسيراً عقلياً للمعجزات ، أي أنه آمن بوقوعها ، ولكنه عزاها إلى علل وقوى طبيعية .

ثم جاء دافيد استروس David Strauss ١٨٣٥- ١٨٣٦ في كتابه « حياة المسيح » فرفض ما حاوله بولس من توفيق بين المعجزات والعلل الطبيعية ، فقال :

> « إن ما في الأناجيل من خوارق طبيعية ، يجب أن يعد من الأساطير الخرافية ، وأن حياة المسيح الحقيقية ، يجب أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر أياً كانت صورها »[1].

وفي عام ١٨٤٠ بدأ برونو بور Bruno Bauer سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية ، يبغي أن يثبت بها أن يسوع لا يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير .

وفي عام ١٨٦٣ أخرج أرنست رينان Ernest Renan حياة يسوع ، الذي روع ملايين الناس باعتماده فيه على العقل ، وقد جمع رينان في هذا الكتاب نتائج النقد الألماني ، وعرض مشكلة الأناجيل على العالم المثقف كله .

وبلغت المدرسة الفلسفية ، صاحبة البحوث الدينية ذروتها في أواخر القرن

---

(١) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٢٠٦ .

التاسع عشـر ، على يد الأب Loisy الـذي حلل نصوص العهـد الجديـد تحليلاً بـالغ من الصـراحة حـداً ، اضطرت معـه الكنيسة الكـاثوليكيـة إلى إصدار قـرار بحرمانه هو وغيره من المحدثين .

وفي هذه الأثناء وصلت المدرسة الهولندية مدرسـة بيرسن Pierson ونـابر Naber ومتثـاس Matthas بالحـركة إلى أبعـد حدودهـا ، إذ أنكرت بعـد بحوث مضنية : حقيقة المسيح التاريخية .

وفي ألمـانيا عـرض آرثر دروز Arthur Druis هـذه النتيجة السـالبة عـرضاً واضحاً محدداً عام ١٩٠٦ .

وفي انكلترا أدلى و. ب. سمث W. B. Smith وج. م. روبرتسن J. M. Roberts بحجج من هذا النوع انكرا فيها وجود المسيح .

هـذا بعض ما كـان يراود مخيلة كبـار المفكـرين المسيحيين ، من شكـوك حول حقيقة المسيح التاريخية ، فألفوا من أجلها كتباً ومجلدات ، دافعوا بهـا عن صحة شكوكهم وسلامة ريبتهم ، فكادوا يهزون بها قناعـات العالم المسيحي كله بالمسيح ذاته .

وبدا أن الجدل الذي دام مائتي عـام ، سينتهي إلى أفناء شخصيـة المسيح أفناء تاماً .

وهكـذا لم يبق في المسيحية أمـر لم يطالـه الشـك ، ولا معتقـد لم يلتف حول عنقه حبل الريبة والإبهام .

أين أصبحت المسيحية اليوم؟

وقبل أن نقفل الملف المسيحي القديم ، لابد لنا من أن نلقي نظرة إلى واقع المسيحية في أيامنا هذه ، فنتبصر بما آلت إليه أوضاعها ، بعدما استعملت كل أسلحتها المعهودة ، من مجامع مسكونية ، وقانون الحرمان الشهير ، وسلاح التصفيات الجسدية ، بقصد لملمة شتاتها ، والوصول إلى وحدتها ، وفرض إيمان موحد على أتباعها .

بعد هذا كله نسأل :

هل وفقت المسيحية إلى تحقيق أهدافها ؟

هل توحدت كنائسها ، واتفق الجميع على حل لمعضلة المعضلات ؟- أعني طبيعة المسيح ، وتجسده، وصلبه، وقيامته ، وسر الفداء والخلاص ، وغيرها من الطلاسم والأحاجي - أم لا تزال تعاني من التشرذم ذاته ، والإنقسام نفسه ، لتصبح كل الدماء التي أهرقت هباء وهدراً ؟ . . .

لنلق نظرة على واقع المسيحية اليوم ، ففيه ولا شك الجواب الصحيح ، والقول المصداق ، لن ندخل في التفاصيل ، ولن نتعرض لعقائد المذاهب بتوسع ، وسنكتفي بسرد اسماءها ، مع لمحة خاطفة عن التعارض المبدئي الحاصل بينها .

ينقسم المسيحيون اليوم بعد صراعهم الطويل إلى :

١ ـ تقليديين وإنجيليين[1].

ولكن التقليديين لم يشكلوا في وقت من الأوقات كنيسة واحدة ، موحدة والمفاهيم ، وإنما انقسموا على أنفسهم أيضاً ، فصاروا :

كنائس مختلفة متباعدة .

فالكنائس التقليدية تقسم إلى عدة فروع أهمها :

اللاتينية الكاثوليكية، واليونانية الأرثوذكسية ، واليعقوبية بطوائفها المتعددة من أرمن ، وقبط ، وسريان ، ونسطوريين ، وكلدان .

فالكنيسة اللاتينية الكاثوليكية :

تؤمن كما هو معروف بالتثليث ، والتجسد ، والصلب ، والقيامة ، والعذراء .

أما الكنيسة الأرثوذكسية :

فهي تنكر على الكنيسة الكاثوليكية :

١ ـ إيمانها بانبثاق الروح القدس من الإبن والمطهر.
٢ ـ إيمانها بجواز التقديس على الفطير .
٣ ـ إيمانها بسعادة القديسين الكاملة ، معتبرة أن سعادتهم لا تكتمل إلاّ بعد القيام والدينونة الأخيرة .
٤ ـ تلومها لمنعها الشعب عن مناولة الكأس في الأفخارستيا ، كما أنكرت عليهم أكل الدم والمخنوق ، أكل رهبان اللاتين دهن الخنزير .

أما الكنائس الإنجيلية : لوترانية ـ كلوينية ـ انكليكانية .

جميعهم متفقون على مجرد ما في الكتاب المقدس فقط .

---

(١) سوسنة سليمان : ص ١٢٤ للاستاذ نوفل جرجس الطرابلسي دار لحد خاطر ١٨٧٦ .

ينكرون على التقليديين :

١ ـ الرياسة العامة المنظورة في الكنيسة
٢ ـ الصلاة إلى القسيسين وطلب شفاعتهم .
٣ ـ اتخاذ الصور، والتماثيل في الكنائس، والمطهر، والغفرانات ، والصلاة لأجل الموتى ، والتبرير بالأعمال الوفائية .
٤ ـ الصلاة بلغة غير مفهومة من السامعين .

غير أنه توجد فرق أخرى ، لا يخلو بعضها من الأهمية ، منها ما هو متشعب من: الكنيسة اللاتينية .

ومنها ما هو متفرع من : الكنيسة اليونانية .
ومنها ما يعزى إلى : الكنيسة الإنجيلية .

ولتفصيل ذلك نقول: بأن أصحاب البدع القديمة ، الذين قطعتهم الكنيسة اليونانية من شركتها بحكم المجامع ، لم يزل حتى الآن يوجد منهم بقايا ، تعتبر نظير طوائف مستقلة في كنائس خصوصية ، وهذه تقسم إلى نوعين :

النوع الأول : موحدو الطبيعة :

ويختلفون عن الروم واللاتين ، وغيرهم من باقي الطوائف المسيحية في قضايا كثيرة أهمها :

ـ إيمانهم بأن طبيعتي المسيح الإلَهية والإنسانية ، قد اتحدتا اتحاداً عظيماً حتى صارتا طبيعة واحدة .

إلَّا أن طبيعة المسيح ، مع أنها واحدة ، هي مركبة ، ومزدوجة ، وينكرون امتزاج الطبيعتين ، والتباس أحدهما بالأخرى ، ويطلق عليهم اسم يعقوبيين ، نسبة إلى يعقوب البرادعي ، وهو من رجالات الكنيسة في القرن السادس .

وهؤلاء أيضاً بدورهم ينقسمون إلى قسمين :

آسيويين وأفريقيين .

- فالأسيويين يرأسهم بطريرك السريان : وهؤلاء أيضاً منقسمين إلى ثلاث طوائف ، ثم خرجت منهم طائفة أخرى ، هي الطائفة المونولوتية ، التي رفضت الإيمان بوحدة الطبيعة ، وسلموا مع الروم بأن في المسيح طبيعتين ولكن إرادة واحدة .

- أما الإفريقيين : يرأسهم بطريرك القبط المقيم في مصر : وهؤلاء أيضاً منقسمين إلى : أقباط أصليين ، وحبش .

ومع أن الأرمن يعتقدون مثل ذوي الطبيعة الواحدة ، إلَّا أنهم يختلفون عنهم في آراء وطقوس كثيرة .

أما النوع الثاني : فهو النساطرة ويسمون بالكلدان :

اعتقادهم بأنه لم يكن في المسيح طبيعتان فقط ، بل اقنومان أيضاً ، وأن هذين الإقنوميين وهاتين الطبيعتين قد التصقتا، حتى صار منهما رؤية واحدة .

وهناك فرق خرجت من الكنيسة اليونانية ، لا تزال لها بقايا موجودة في عالم اليوم ، نكتفي بذكر أسمائها فقط :

الصابئون : يحسبون أن الديانة المسيحية تقوم بكثرة تطهيرات الجسد ، التي يمارسها كهنتهم بطقوس معينة .

اليزيدية : بدو رحل يسكنون جبل سنجار بأرض الجزيرة ، عندهم الختان والمعمودية ، ويعتقدون بالتناسخ ، ويسجدون للشمس الطالعة ثلاث ركعات عند أول ظهورها فوق الأفق .

رافضي عماد الأطفال : يعتقدون أن البتولية ، شرط ضروري للدخول إلى ملكوت الله .

أما الطوائف الصغيرة المنتشرة في أنحاء العالم اليوم ، فنذكر بعضها ، مبتدئين بتلك التي « ولدتها » الكنسية الروسية فقط :

في روسيا وحدها ٢٠٠ طائفة قوامها ١٥ مليون نسمة ، حسب التقرير

الرسمي المتقدم لدولة روسيا في القرن التاسع عشر ، نذكر بعضها :

الإسبرانيكي :

تؤمن بأن القسيس إذا شرب خمراً ، لا يصلح لتعميد الأطفال ، وللنصراني أن يقتل نفسه في حب المسيح .

البوبوفتشيون :

تختلف عن الكنيسة إيماناً وعبادة .

المميتون :

يحرقون أنفسهم ، لكي يتطهروا بعمودية النار .

أصحاب الختان :

يلتزمون بالختان وتجريح أنفسهم .

الجلادون :

يرقصون رقصاً دينياً ، ويقطعون ثدي بنت من بناتهم ، يكرسونها لحياة دينية إكراماً للعذراء .

الخرس :

شيعة كل من ينضم إليهم يصمت ولا يعود إلى الكلام بصوت مسموع .

عبدة نابليون :

جماعة في روسيا تعبد نابليون ، وتعود عبادتها له إلى ١٨١٢ .

المرتينيون

هذا هو المتوافر ، من أخبار بعض الطوائف الموجودة في القرن التاسع عشر ، المنفصلة عن الكنيسة اليونانية .

أما الطوائف التي أنتجتها الكنيسة الكاثوليكية ، فكثيرة وكثيرة جداً ، نذكر

بعضها دون التوسع بذكر معتقداتها ، ومنها :

الولدنسيين :

في فرنسا ، انكار رياسة البابا ، يرفضون الإعتراف بخطاياهم للكهنة .

الجنسيين :

يعتقدون ، أن كل من يثبت أن يسوع كفّر بآلامه وموته عن خطايا جميع البشر ، فهو مخطىء .

الكاثوليك القدماء :

يرفضون الغفرانات ، والصلاة إلى القديسيين ، وابطلوا الإلتزام بأوامر البابا .

جمعية الإتحاد الإنجيلي :

ينكر اتباعها التثليث ، وألوهية المسيح .

الكويكرس :

يعتقدون بالنور الباطني ، أي أن الله قد أعطى لكل إنسان نوراً كافياً لخلاصه ، أن استعمله حق الاستعمال ، لذلك ابطلوا الوعظ الكنسي ، انكروا القسوسية ، والعشاء الرباني ، والمعمودية .

السويدبترجيون :

تعتقد أن الله واحد ، وهو إنسان إلّهي ، ومحبة جوهرية .

الدربيون :

أجمعوا على فساد الإنسان كلياً ، ولزوم التجديد بالروح القدس ، والفداء بآلام المسيح .

الارفنكيون :

هذا هو حال المسيحية وواقعها في القرن العشرين ، استمرار في التفسخ ، والتشرذم ، والضياع . عشرون قرناً مرت على ظهورها ، والخلافات لا زالت هي هي ، والمشكلة المزمنة المستعصية ، لا تتغير ، ولا تتبدل .

سموا كنيستهم الكاثوليكية الرسولية وغايتهم العظمى هي الرجاء بمجيء المسيح سريعاً .

ابتدأت بالمسيح ، وطبيعته ، وألوهيته ، وإنجيله ، وأمه ، وتعاليمه ، وكل ما يحيط به ، ولا زالت هي ذات المعضلة ، ونفس المشكلة .

عشرون قرناً مرت والخلافات مستمرة ، فنراهم وقد أصابهم اليأس ، ودب فيهم القنوط ، استسلموا إلى واقعهم ، وكأنه قدر محتوم ، وقبلوا بتشرذمهم ، وكأنه المكتوب المفروض ، فتوزعوا كنائس وجماعات ، لكل كنيسة كتاب ، ولكل جماعة يقين ، وتصور ، وإيمان مختلف متناقض .

وجل ما تغير في أمرهم ، أنهم باتوا يعيشون انقساماتهم وتفسخهم ضمن مناخ من المهادنة المفتعلة ، والمسالمة والموادعة المصطنعتين ، رغم القطيعة الدائمة والمزمنة ، المعروفة بين باباواتهم .

الفصل الخامس

١ ـ الخلاف الإسلامي ـ الإسلامي بحجمه الحقيقي .
٢ ـ كيف بدأ الصراع الإسلامي ـ المسيحي
٣ ـ بهذه الخلقية انتصر المسلمون على الروم .
٤ ـ وبهذه الخلقية رد المسيحيون الجميل في فلسطين .
٥ ـ وبهذه الخلقية عاملهم صلاح الدين.
٦ ـ وبها انتصر المسلمون في إسبانيا .
٧ ـ وبهذه الخلقية رد المسيحيون الجميل في إسبانيا .
٨ ـ اليهود في كنف الإسلام واليهود تحت حكم المسيحية .
٩ ـ المسيح العظيم براء من أعمالهم .
١٠ ـ الخلافة في الإسلام والبابوية في المسيحية .

الخلاف الإسلامي ـ الإسلامي بحجمه الحقيقي

إذا كان غيابنا القسري عن الحريري المزيف قد طال ، بسبب توغلنا الاضطراري داخل النفق المسيحي ، فإن غيابنا عنه في رحلتنا إلى استكشاف الحقائق الإسلامية ، لن يطول كثيراً ، طالما ان الطريق إليها أمامنا معبدة ، والزوايا مضاءة .

استعرضنا بتجرد وموضوعية واقع المسيحية ، منذ نشأتها وحتى اليوم ، ولن ننسى استعراض الأوضاع الإسلامية ، بنفس الذهنية من التجرد ، والحياد ، والموضوعية .

قلنا ان الخلاف المسيحي المسيحي ، بدأ حول طبيعة المسيح ، وألوهيته ، وتجسده ، وصلبه ، وقيامته ، وتوسع ليطال أمه مريم ، التي تعددت هي الأخرى منها المواقف والآراء .

وكما سقط بسبب الخلاف حول المسيح آلاف الضحايا ، كذلك ازهقت من أجل أمه أرواح مسيحية كثيرة . كان ذلك على الجبهة المسيحية .

ولكن ماذا على جبهة الإسلام ؟ وما هي طبيعة الخلاف الإسلامي الإسلامي ؟

بشر محمد برسالته في جو يعبق بالشرك والوثنية ، وفي مناخ اجتماعي معقد ، مشبع بروح العائلية ، والقبلية والتخلف ، فكانت مهمته والوضع كذلك صعبة للغاية ، إن لم نقل مستحيلة .

فتغيير مجتمع بكل ما يشمل التغيير من آفاق ومناحي ، وبكـل ما يعنيـه من تبـدل في هيكليته بـرمتها ، وقلب أوضـاعـه رأسـاً على عقب ، مجتمـع محـدود الثقافة ، متمسك بعاداته وتقـاليـده البدائيـة أيما تمسـك ، ليس بالأمـر الهيّن أو السهل .

ومـع ذلك فلقـد شقّ النبي طريق دعـوتـه ، وسط العـوائق ، والصعـاب ، والعـراقيـل ، وعـانى في سبيـل ذلـك مـا عـانـاه ، ولاقى مـا لاقـاه من القهـر ، والإذلال ، والملاحقة، ولكن النجاح كان بالنتيجة حليفه ، والإنتصار كان خاتمـة المطاف الطويل .

ثـلاث وعشرون سنـة بين نبوتـه ووفـاتـه ، قضـاهـا في الجهـاد الـديني ، والفكـري ، والسيـاسي ، والإجتمـاعي، والتنـظيمي ، والإداري ، وبعضهـا في الجهاد العسكري .

وعنـدما وافتـه المنيـة ، كـان الإسـلام قـد أصبـح حصنـاً منيعـاً ، ووحـدة متمـاسكـة ، عميق الجـذور ، راسـخ البنيـان في المجتمـع ، كمـا في قلوب المؤمنين به ، يكسب كل يوم مؤمنين جدداً ، وأرضاً إسلامية جديدة .

آمن به الجميع طريقاً للهداية ، وسبيلاً للرشاد ، مـا عدا قلة منهم اسلمت بفعل هزيمتها العسكرية ، ولكن لم يدخل الإيمان قلوبها ، فنزلت بها الآية :

﴿ قـالت الأعراب آمنـا قل لم تؤمنـوا ولكن قولـوا أسلمنـا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾[1].

هذه القلة تجاوزتها قافلة الإسلام ، في سيرها المظفر نحو هدفها الكبيـر ، ألا وهـو دك معالم الشـرك والوثنيـة من حياة البشـرية ، وإرسـاء قـواعـد الإيمـان الراسخ بوحدانية الله ، في النفوس قبل النصوص .

ولم يحـدث في حياة النبي أي تصـدع يذكـر في البنية الإسـلامية ، أو أي

---

(١) سورة الحجرات، الآية/ ١٤ .

خلاف بين المسلمين حول أسس ديانتهم ، باستثناء بعض الخلل الذي حدث بسبب موضوع الإسراء والمعراج ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ، إذا ان موضوعاً كهذا لفرادته، كان يفترض أن يثار حوله جدل ، ويقع بسببه خلاف ، وتحصل لأجله بلبلة .

ولكن سرعان ما أعيدت الأمور إلى مجاريها ، والحال إلى طبيعتها ، وأكمل الإسلام مسيرته بقيادة ، متماسكة، مدركة، قيادة النبي وصحابته المؤمنين .

وبعد وفاة النبي ، لم يترك الإسلام ولا المسلمون في مهب الضياع ، عرضة للحيرة ، والفوضى ، والإنقسام .

بل ترك النبي لهم حصناً منيعاً ودرعاً واقية ، وملاذاً أميناً ، ترك لهم القرآن واضحاً، جلياً ، كاملاً، مرجعاً نهائياً ، وحكماً حاسماً ، في كل أمر وشأن .

قرآن لم يشكك بآية منه مسلم ، ولم يختلف في صدقه اثنان ، ولقد حدثت بعد النبي ، بعض الردة عن الإسلام إلى الوثنية في بعض الأماكن ، سرعان ما عولجت وانتهى أمرها إلى غير رجعة ، لتعود قافلة الإسلام في سيرها إلى الأمام ، كل يوم إلى نصر جديد .

ويفترض أن نقف عند أول قطوع خطير مر على الإسلام ، عند أول تجربة قاسية مر بها الدين الجديد ، ونعني بذلك غياب ربان السفينة عن قيادتها ، غياب النبي نفسه عن ساحة الإسلام ، بعدما غيّبه الموت . كان الحدث خطيراً وبالغ الخطورة ، فالنبي كان بالنسبة للمسلمين كل شيء ، والإسلام كان لا يزال طريّ العود ، حديث العهد ، والروح القبلية والعائلية لم تتطهر بعد كلياً من النفوس ، كانت الصدمة كبيرة على المسلمين ، وبين قادتهم ممن عرفوا برباطة الجأش ، وقوة الشكيمة كعمر بن الخطاب ، من أضاعتهم الصدمة ، وأخرجهم الحدث عن جادة الصواب ، حتى أن عمراً أنكر الخبر ، ورفض أن يصدق موت النبي .

لكن الإسلام تخطى الأزمة بسلام ، وخرج من الإختبار العسير أكثر ثباتاً ،

وأعظم تماسكاً وصلابة ، لأن له ما كان يحفظه من الخلل ، ويدرأ عنه اخطار التفسخ والزوال ، إنه القرآن .

فبالقرآن كانت وحدة المسلمين مصانة ، ووحدة العقيدة التي تجمع بينهم مضمونة ، به كان يتدرع المسلمون ، وبه كان الإسلام يخرج من الأزمات والأحداث ، أقوى وأمنع .

مات النبي وأتى الخليفة الأول ، وبعده الخليفة الثاني ، والإسلام يتعزز ويقوى ، وأعلامه تجد كل يوم أرضاً جديدة ترفرف فوقها .

ثم ذهب عمر إلى جوار ربه ، مقتولاً بخنجر مجوسي ، فما اهتز للإسلام موقع ، ولا اختل فيه توازن، في وقت دقيق كانت الجيوش الإسلامية تدق أبواب الإمبراطورية البيزنطية من كل جانب . ثم امسك بقيادة السفينة ، الخليفة الثالث عثمان .

ومن هنا بدأ الخلاف داخل الصف الإسلامي، من هنا بدأت الصراعات الحزبية والسياسية بين المسلمين ، وإليها مرادنا الوصول .

الفارق كبير جداً بين طبيعة الخلاف المسيحي المسيحي، والخلاف الإسلامي الإسلامي، فالأول كان خلافاً حول الله ، والإنجيل ، والمسيح ، أي خلافاً حول الجوهر والأساس ، فيما كان الثاني برمته خلافاً سياسياً ، وليس دينياً .

كان خلافاً على المراكز والقيادة ، ولم يكن أبداً ليمس جوهر الدين وأسسه .

فانتقادات المعارضة ضد عثمان ومآخذهم عليه ، لم تكن أبداً لأن عثمان مثلاً : شكك بصحة القرآن ، أو أخرج بدعة في الإسلام ، أو طعن بنبوة محمد وتعاليم دينه .

كانت مآخذ المعارضة على عثمان سياسية بالخالص ، تدور حول طريقته

بإدارة الحكم ليس إلاّ ، واستئثار بعض ذويه ببعض السلطة والمنافع .

وإذا درسنا بتجرد ما كان معتبراً من عثمان خطايا يومذاك ، لوجدناها بمنظار اليوم ، وفي أرقى دول العالم ، اخطاء صغيرة بسيطة ، يشك أي إنسان أنها كانت تستحق من المعارضة هذا الموقف ، المتشدد ، المتصلب ، من الخليفة الثالث . ولكن الذي حدث ، أن عثمان استلم الخلافة بعد خليفتين متشددين في تطبيق أحكام الإسلام ، فكان عدلهما ، وزهدهما ، وقسوتهما على نفسيهما وعائلتيهما ، مضرب المثل ، تكاد لا تصدق .

نكبة عثمان ، أنه أتى مباشرة بعد عمر وأبي بكر ، والناس لحاكمهم مراقبين ، يعدون عليه انفاسه ، ويحسبون خطواته . كان المسلمون لا يزالون قريبين من عهد النبي وصحابته ، وكان الصفاء العقائدي ، والنقاء المبدأي ، لا يزالان يسحبان تأثيرهما على توجه الناس وسلوكهم ، وأقل خطأ ، أو اعوجاج ، أو تجاوز ، خصوصاً من الحاكم، كان بنظر الناس مستفظعاً مستنكراً .

بهذه الأجواء النقية ، الصافية ، استلم عثمان الحكم ، وهي اجواء كانت تتطلب منه الدقة ، والحذر ، والإنتباه، وهذا ما لم يفعله ، أما لتقدمه في السن ، أو لطيبة قلبه ، أو لضعف في شخصيته ، مما كوّن لدى المعارضين أسباباً لمعارضتهم ، ومآخذ عليه . .

وهكذا دب الخلاف في الصف الإسلامي ووقعت الكارثة ، بعدما قتل الخليفة الثالث ، لتبدأ مرحلة من الخلافات السياسية الحادة في التاريخ الإسلامي .

ورغم أن الخلاف قد تشعب ، وامتد ، وتوسع ، وطال، ورغم خطورته وانعكاساته السلبية على انطلاقة الإسلام ، إلاّ أن الأمر الثابت ، إن هذا الخلاف رغم كل شيء ، ظل محصوراً بالإطار السياسي ، ولم يتعداه أبداً ليمس جوهر الدين واسسه .

فمن نادى بعلي بن أبي طالب خليفة على المسلمين ، فلأنه اعتبره أقدر ،

وأكفأ ، وأجدر من سواه ، لقيادة المسيرة الإسلامية على هدى القرآن وتعاليم الإسلام ، وكذلك فكّر وقدّر من عاداه ، وناصر معاوية بن أبي سفيان .

لقد اختلف القادة المسلمين على الشأن السياسي ، واختلفت القاعدة لخلافهم عليه أيضاً ، فتوزعت بولائها السياسي بين هذا وذاك .

ولكن القرآن ظل كتاب الجميع ، والقاسم المشترك ، والعامل الموحّد بين كل الأطراف المتصارعة ، على اختلاف ميولها ومواقفها .

ولكي نتبين ما كان للقرآن في نفوس المسلمين وقلوبهم ، من تأثير فعال في تلك الحقبة المتفجرة من تاريخ الإسلام ، ما علينا إلاَّ أن نقف عند حادثة لها دلالة كبيرة ، وشأن مهم وخطير في تاريخ الإسلام ، فعندما التحم جيشا علي ومعاوية ، في صفين في معارك عنيفة محمومة ، رأينا كيف أن سحر القرآن والإيمان به ، والتمسك بأحكامه ، والميل إلى الإحتكام إليه ، كان لها أثر بالغ في تبريد حرارة المعركة الطاحنة وإيقافها ، وذلك عندما رفع احد طرفي النزاع القرآن ، مطالباً ، بوقف القتال ، والاحتكام إليه ، والتقيّد بتعاليمه ، حتى وإن كانت خدعة من معاوية يومذاك ، أملتها عليه ظروف المعركة العسكرية ، التي كاد يخسرها ، فإن ما يعنينا من الأمر ، ليس بحث موضوع نزاع علي ومعاوية ، أو تقييمه ، طالما أن ذلك لا يدخل في نطاق بحثنا ، وإنما الإستدلال بالحادثة لإظهار وإثبات أمرين :

الأول : مدى تعلق المسلمين بالقرآن وتأثيره في نفوسهم ، حتى في أحلك ساعات الصراع فيما بينهم .

الثاني : أن الخلاف رغم حدّته ، لم يكن إلاَّ خلافاً سياسياً بدأ كذلك واستمر هكذا .

فمجرد التلويح بالقرآن ليكون الحكم ، كان كافياً لإرباك جيش الإمام علي ، وإحداث بلبلة في صفوفه ، وتصدع في قيادته ، وإيجاد تيار داخله

معارض لإستمرار القتال ، يقول بالإنصياع إلى حكم القرآن ، إذ طالما ـ بنظره ـ أن القرآن سيكون الحكم ، فما المبرر للقتال ؟ ، وهكذا توقفت المعركة .

نستطيع أن نقول بثقة : أن رفع القرآن في صفين ، غيّر مجرى التاريخ السياسي الإسلامي برمته ، وربما لولا القرآن وتعلق الناس به ، لما كان معاوية كما كان ، ولا أمويون كما كانوا . ولا ندري ماذا كان يمكن أن يكون الحال ، ولا كيف كانت قد تطورت الأحوال . .

وكما قفزنا فوق قرون عديدة من تاريخ المسيحية ، لنرى بعد تمزقها المعروف ، أين رست قواربها، وأين حطت رحلها في القرن العشرين ، كذلك نفعل بالنسبة للإسلام .

إذ لا بد لنا من أن نلقي نظرة متفحصة على واقع إسلام اليوم ، لنرى هل تغيّر الخلاف السياسي بين المسلمين وتطور ، ليصبح في وقت من الأوقات خلافاً على العقيدة وأسس الدين ؟

أم إنه لا يزال كما بدأ ، بعيداً عن أساسيات الدين وجوهر العقيدة ؟

نختصر لنقول : أن تعلق المسلمين على اختلاف طوائفهم بالقرآن الواحد الموحد ، والإيمان المطلق الصافي بنبوة نبيهم محمد ، وصدق تعاليم رسالته ، أمور تجعلنا نجزم ، بأن الخلاف الإسلامي كان ولا يزال محصوراً بشكليات وهوامش القضايا السياسية الإسلامية ، وربما يكون للخلاف السياسي القديم بين قادتهم التاريخيين ، بعض آثاره على فرقة المسلمين اليوم ، وتوزعهم إلى طوائف متعددة ، إلّا أن هذا الخلاف لم يتعد يوماً الشأن السياسي على الاطلاق ، وهذا بالطبع يختلف كلياً عن طبيعة الخلاف المسيحي ، الذي بدأ خلافاً حول جوهر الدين ، واستمر كذلك ، ولا يزال ، ولا مجال للمقارنة بين الوضعين .

هذه حقيقة اعترف بها أكثر من باحث ومفكر ، بينهم الباحث الأوروبي

الكبير اندريه ميكيل في كتابه « الإسلام وحضارته » حيث قال :

« فالمسلمون مسلمون قبل أن يكـونوا سنيين ، أو شيعـة ، أو خوارج ، وبصرف النظر عن خلافـاتهم المذهبيـة ، فهمْ في نفس الارتباطات الأساسية لإيمانهم[1]» .

---

(١) الإسلام وحضارته: ص ٨٣.

كيف بدأ الصراع الإسلامي المسيحي

نصل إلى السؤال الأخير :

كيف بدأ الصراع المسيحي الإسلامي ؟ وكيف قيّمه المؤرخون ؟

منذ ظهور الإسلام ، والنبي كان حريصاً أن يمد يد التعاون والتآلف لأهل الكتاب ، وخصوصاً المسيحيين منهم .

معتبراً ، أن رسالته متمّمة للرسالتين السماويتين اليهودية والمسيحية .

والآيات حول ذلك عديدة وصريحة :

الآية : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون ﴾[1].

والآية : ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسّيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية/ ٦٤.

(٢) سورة المائدة ، الآية/ ٨٢.

والآيـة : ﴿ إن الـذين آمنـوا والـذين هـادوا والنصـارى والصابئين من آمن بالله واليـوم الآخر وعمـل صالحـاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1].

والآيـة : ﴿ ولا تجادلوا أهـل الكتاب إلا بـالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وأنزل اليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾[2].

ورغم هـذا الموقف الإيجـابي من الإسلام تجـاه المسيحيـة والمسيحيين ، فإن موقف هؤلاء من الإسلام منذ ظهوره ، كان مغايراً معادياً .

والواضح أن القرآن ، اشترط أن يكون الإيمان بتـوحيد الله أسـاس التعاون بين الأديان ، وإلاّ فلا . وهو موضوع لا يزال الخلاف حوله بين الديانتين قائماً ، إن لم نقل أن خلافهمـا كله محصور بـه بالـذات ، فبينما يـزداد الإسلام تمسكـاً بالتوحيد ، وإيمانـاً به ، نـراه في المسيحية على العكس ظـلّ يضعف ويضعف ، إلى أن تلاشى بالنهاية وغاب عن ساحة إيمانها ، بعدما سددت لـه فلسفة التثليث ضربة قـاضية ، فكـان من الطبيعي أن يكـون للقرآن من هـذا الموضـوع الخطيـر موقف حاسم ، عبرت عنه الآيات التالية خير تعبير .

الآيـة : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ومـا من إلٰه إلاّ إلٰه واحد ﴾[3].

الآية : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلٰه إلاّ إلٰه واحد ﴾[3] .

---

(٣) سورة البقرة، الآية/ ٦٢.
(٢) سورة العنكبوت ، الآية/ ٤٦ .
(٣) سورة المائدة ، الآية/ ٧٣.
(٤)) سورة المائدة : الآية/ ٧٥

والآيـة : ﴿ أأنت قلت للنــاس اتخــذوني وأمي إلٰهين من دو ن الله ﴾[1].

والآيـة : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾[2].

إذاً من ألوهية عيسى ، ورفض التوحيد المطلق ، بدأت خلافات المسيحية والإسلام ، ومنهما بدأ التشنج والتوتر يزدادان بينهما يوماً بعـد يوم ، إلى أن وقـع الصدام العسكري الأول بينهما ، على أرض الدولة البيزنطية نفسها ، لتكر سبحة المعارك بين الطرفين ، في أماكن متعددة ، وأوقات مختلفة .

وهدفنا من استعـراض هذا الصـراع العسكري ، ليس تـأريخه ، ولا تقييم أسبابه أو جوانبه العسكرية ، وإنما رفع الستـار عن الجانب الخلقي ، الـذي ظهر في سلوكية كل منهما خلال هذا الصراع ، وما حفظه التـاريخ لهمـا من خلالـه ، وبسببه من مآثر أو مخازي .

وفي تتبعنا للمنحى الخلقي ، والحضاري ، والإنسـاني ، لدى الـطرفين ، في تلك المعـارك العسكريـة وما بعـدها، سنلجـأ دائمـاً لـلإستشهـاد بـالمصـادر المسيحية ، لكي نحرر صاحب « قس ونبي » من عقدته المعروفة اتجاه كل ما هو مسلم ، ونحـرر أنفسنـا بـالتـالي من تهمـة التحيّـز والمحـابـاة ، التي يلصقهـا المسيحيـون عـادة بكـل من يقـول كلمـة حق وانصـاف ، لا تتمـاشى وأهـوائهم ومآربهم ، سواء كان مسلماً أم غير مسلم . حديثنا سنحصره بالمفاصـل الرئيسيـة من الصراع الإسلامي ـ المسيحي .

فنبحثه على الشكل التالي :

١ ـ معـارك المسلمين ضد الـروم ، ومعاملة : المسلمين المنتصـرينللمسيحيين المغلوبين في سوريا ، وفلسطين، ومصر .

---

(١) سورة المائدة، الآية/ ١١٦ .

(٢) سورة الحديد ، الآية/ ٢٧ .

٢ ـ معارك الصليبيين لاحتلال فلسطين ، ومعاملة : المسيحيين المنتصرين للمسلمين المغلوبين .

٣ ـ معارك المسلمين لاسترجاع فلسطين ، ومعاملة : المسلمين المنتصرين للمسيحيين المغلوبين .

٤ ـ دخول المسلمون إلى إسبانيا ، ومعاملة : المسلمين المنتصرين للمسيحيين المغلوبين .

٥ ـ استرجاع المسيحيون للأندلس ، ومعاملة : المسيحيين المنتصرين للمسلمين المغلوبين .

هدفنا من ذلك كما قلنا أن نعرف ، أين كانت الديانة المسيحية في سلوكية القائد الروحي ، والزمني ، والعسكري ، والجندي المسيحيين .

وأين كانت تعاليم الإسلام في سلوكية القائد الروحي ، والزمني ، والعسكري ، والجندي المسلمين ، خلال تلك المعارك وبعدها ، أي في زمان الحرب وزمان السلم .

بهذه الخلقية انتصر المسلمون على الروم

لقد كان للظلم الذي مارسه الروم على رعاياهم ، والتنكيل الوحشي الطائفي ، الذي كان يتم تحت ستار الدفاع عن الدين والمسيح ، وخصوصاً ذلك الذي مورس ضد النساطرة واليعاقبة ، دور فعّال في هزيمة الروم أمام المسلمين ، إذ تبين من مجريات الأمور ، أن الشعب كان ينتظر من يتقدم لإنقاذه من هذا الظلم والجور ، حتى يمد له يد التعاون ، ويقدم الدعم والمساعدة .

ولكن الفضل الأكبر ، والدور الأهم في انتصار المسلمين على الروم ، يبقى للإيمان الروحي العظيم ، والمعنويات العالية التي كان يتمتع بها القائد ، والمقاتل المسلم .

وما يهمنا من الأمر ، ليس الإنتصار العسكري الذي حققه العرب بحد ذاته ، وإنما الممارسة الخلقية ، والمسلكية الحضارية العالية ، التي اختطهما المسلمون لأنفسهم ، بعد انتصارهم ، وساروا عليهما ، فعاملوا عدوهم المغلوب ضمن ضوابطهما ونهجهما ، ونستطيع القول بثقة : أن انتصار المسلمين الحقيقي الكبير ، إنما كان بعد الصراع ، بعد المعركة العسكرية ، من خلال التزامهم الرائع بالقواعد الخلقية ، والمناقب النبيلة ، والنهج القويم ، الذي ميزهم عن كل فاتح منتصر آخر .

كان انتصارهم العظيم بتطبيق سياسة العقل ، والحكمة ، والتسامح تجاه سكان البلاد التي افتتحوها ، فلم يضع بريق الإنتصار صوابهم ، ولا أفقدتهم

نشوة النجاح بصيرتهم ، فتركوا للتاريخ والأجيال مبادىء وقيماً عاملوا الناس على أساسها وهي :

١ ـ احترام حرية الآخرين في القول ، والتعبد ، والعمل ، أياً كان دينهم ومعتقدهم ، شرط عدم المساس بالخير والمصلحة العامين .
٢ ـ مساواة الناس جميعاً بالحقوق والواجبات أمام القانون والعدل الإسلاميين .
٣ ـ منع الاضطهاد، والتنكيل ، والإرهاب، بكافة أشكالها بحق أي مواطن ، بغض النظر عن انتمائه الديني .
٤ ـ البعد عن تطبيق سياسة الغالب والمغلوب بين المواطنين ، في كافة الوجوه والمجالات .
٥ ـ تمكين العديد من أهل الكتاب ، من العمل في وظائف الدولة الإسلامية ، وفي مراكز حساسة كل حسب كفاءته واختصاصه .
٦ ـ اتباع سياسة الأعمار والإصلاح ـ لا النهب والسرقة ـ للبلاد التي فتحوها ، مما مكنها من أن تنعم بالإزدهار والعمران ، اللذين لم تعهدهما من قبل .

هذه هي المبادىء السامية ، التي طبّقها المسلمون عملياً في كل أماكن فتوحاتهم ، والتي لا زالت دروساً، وعبراً مضيئة ، في تاريخ الإنسانية .

وقد يكون لمؤلف قس ونبي عذر أن يطلب شهود عدل على ذلك . . فلنترك الدكتور غوستاف لوبون يدلي بشهادته .

فيقول :

كان محمد كثير المسامحة لليهود والنصارى ، خلافاً لما يظن .

وأن القوة لم تكن عاملاً بانتشار القرآن ، فقد ترك العرب المغلوبين احراراً في أديانهم ولم ينتشر الإسلام بالسيف، بل بالدعوة وحدها .

وقال أيضاً :

كانت الطريق التي يجب على الخلفاء أن يسلكوها واضحة فعرفوا كيف يحجمون عن حمل احد بالقوة على ترك دينه ، وعرفوا كيف يبتعدون ، خلافاً لمزاعم الكثيرين ، عن أعمال السيف فيمن لم يسلم .

وقال :

يثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس ، مقدار الرفق العظيم ، الذي كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة .

وقال أيضاً :

لم يكن سلوك عمرو بن العاص بمصر ، أقل رفقاً من ذلك ، فقد عرض على المصريين حرية دينية تامة ، وعدلاً مطلقاً ، واحتراماً للأموال ، فأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم إيما إقبال .

وقال :

كانت المساواة في عهد الخلفاء الراشدين تامة ، وكانت الشريعة للجميع على السواء[1].

ومن حق الحريري أن يطلب مزيداً من الشهود ، فليسمع شهادة الراهب ميشو ، في كتابه « رحلة دينية في الشرق » قال :

---

(١) حضارة العرب : ٥١٩.

من المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين ، التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم ، واحترام عقائد الآخرين ، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة[1].

وقال ميشود في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية ».

إن الإسلام الذي أمر بالجهاد ، متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، فقد اعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وحرم محمد قتل الرهبان على الخصوص ، لعكوفهم على العبادات ، ولم يمسّ عمر بن الخطاب النصارى بسوء ، حين فتح القدس[2].

وقال روبرتسون في كتابه « تاريخ شاركلن » :

إن المسلمين وحدهم ، هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم ، وروح التسامح نحو اتباع الأديان الأخرى ، فهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم ، تركوا من لم يرغبوا فيه احراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية[3].

وقال ول ديورانت صاحب قصة الحضارة :

لم يكن أعداء الإسلام من أهل الكتاب ، يخيّرون بين الإسلام والسيف ، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية .

وقال :

أصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية ،

---

(١) حضارة العرب : ١٧٠.
(٢) المصدر نفسه: ١٧١-١٧٣.
(٣) تاريخ شاركلن : حاشية حضارة العرب ١٦٢ .

والذين كانوا يلقون صوراً من الإضطهاد على يد بطاركة القسطنطينية ، وأورشليم ، والإسكندرية ، وانطاكية ، أصبح هؤلاء أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين .

وقال :

بلغت العلاقة بين الدينين في وقت من الأوقات درجة من المودة ، تبيح للمسيحيين الذين يضعون الصلبان على صدورهم ، ان يؤموا المساجد ، ويتحدثوا فيها مع أصدقائهم المسلمين .

وقال :

كانت طوائف الموظفين الرسميين في البلاد الإسلامية ، تضم مئات من المسيحيين ، وقد بلغ عدد الذين رقوا إلى المناصب العالية في الدولة من الكثرة ، درجة أثارت شكوى المسلمين .

وقال :

كان المسيحيون في بلاد الشرق ، يرون أن حكم المسلمين ، أخف وطأة من حكم بيزنطية وكنيستها .

وقال :

إن المسلمين كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين ، احفظ منهم للعهد ، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين ، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون[1].

---

(١) قصة الحضارة : ٧٣/ ١١ ١٣٢/ ١١ ١٣٣/ ١١ ٣٨٣/ ١١.

وهذا دانيال روبس في كتابه « تاريخ الكنيسة » يشهد على حقيقة الخلقية الإسلامية ونهجها المتسامي ، فيقول :

> إن أعمال التخريب الكبرى التي نسبوها للإسلام كتخريب مكتبة الإسكندرية، ليس لها أي أساس تاريخي ، وفي بعض المناطق يبدو ثابتاً ، إن ملوكاً مسلمين ساعدوا في اعادة بناء كنائس[1].

وهذا المطران ناوفيطوس يقول :

> لم يدر في خلد النبي قط ، أن يفرض شريعته على أمة أخرى ، وذلك إجلالاً منه للوحي المتقدم النزول ، وتوقيراً لمشيئة الله الذي أراد أن تتنوع الأديان[2].

---

(١) تاريخ الكنيسة : ٢٨٤/ ٣ ترجمة نصري سلهب: ص ٢١٦

(٢) انظر تعدد الأديان وأنظمة الحكم: ص ٢١١ .

وبهذه الخلقية ردّ المسيحيون الجميل في فلسطين

ربما كان النهج الحضاري القويم ، الذي اختطه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، لنفسه ، وقواده ، وجنوده في فلسطين ، هو الخط، والنهج ، والسياسة الرشيدة ، التي اتبعها احفاده في كل مكان دخلوه وفتحوه .

دخل ابن الخطاب فلسطين ، وهو يرفض أن يجعل البطريرك صفرونيوس ، يشعر بأنه مغلوب على أمره ، فأبى أن يدخل معه سوى عدد قليل من أصحابه إلى المدينة .

وما إن رأى على قوّاده المنتصرين مظاهر الأبّهة والعظمة ، من ثياب مزركشة ، وخيول مطّهمة، حتى أنبهم ، وقرعهم ، وطلب من البطريرك أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة .

وأعطى الأهالي الأمان ، وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم ، وبتحريم العبادة على المسلمين في كنائسهم ، ونفذ ما وعد به .

وطبق العرب بعد عمر سياسة التسامح ، والعدل والمساواة الرشيدة نفسها بين الناس ، فعمّ الوئام ، وسادت الألفة ، وظل التعايش السلمي ، يطبع الحياة المشتركة بين المسلمين ، والمسيحيين، واليهود في فلسطين ، طوال القرون التي حكم العرب بها تلك البلاد ، حتى ظهور السلجوقيين الأتراك في العالم العربي ، فاستلموا مقدرات الحكم ، واستولوا على سوريا ، وأحلّوا التعصب محل التسامح العربي .

فنهـوا النصارى عن القيـام بشعائـر دينهم ، وجـاروا على حجيجهم ، فاضطربت أوروبة وثارت، وقد كان لمواعظ وخطب بـطرس الراهب ودعـوة البابـا أوربان Urbain ، الثاني ، دور كبير بتهييج وإثـارة أوروبا ، التي جـردت حملتها الأولى عام ١٠٩٥ م التي انقضت على فلسطين واستولت عليها . وهكـذا بدأ في فلسـطين الصراع المسيحي الإسـلامي ، الـذي اصـطلح النـاس على تسميتـه : بالحروب الصليبية . وما يهمنا من تلك الحروب ، ليس تاريخها ، ولا أسبـابها ، ولا نتائجها العسكـرية ، والسيـاسية ، والاجتمـاعية ، وإنمـا رسم صورة جليـة ، صادقة ، عن معاملة الأطراف المتحاربة لبعضها البعض ، لتكون صالحة كأساس للمقارنة بين نهجين ، وفكرين ، وذهنيتين ، وحضارتين : المسيحيـة والإسلام ، وهما الأبرز في العالم .

وإذا كنا قد رأينا كيف تصرف الخليفة عمر بن الخطاب ، والحكام العـرب المسلمـون بعـده ، ومعـاملتهم للسكـان المسيحيين ، بـالـرحمـة ، والمحبـة ، والعدل ، طيلة حكمهم لفلسطين ، فـلابد من أن نـرى بالمقـابل ، كيف بـادلهم المسيحيون الصليبيون ، الزاحفون على فلسطين ، بأوامـر أعلى سلطة روحية في العالم المسيحي ، معاملتهم ومسلكهم ؟

لنترك الأقلام المسيحية نفسها ، ترسم صورة الأحداث والوقائع بـريشتها ، وتحدثنا عن المخازي التي يندى لها جبين الإنسانية والتاريخ .

غوستاف لوبون قال :

كان بطرس النـاسك ، على رأس أهم العصـابات الـزاحفة إلى الشرق ، ولكنها لم تكد تصل إلى بلغاريا ، حتى بـدأ أفرادها ينهبون القرى ، ويذبحون أهاليها ويـأتون مـا يفوق الـوصف من الأعمال الـوحشية ، فكـان من أحب ضـروب اللهـو اليهم ، قتل من يـلاقونهم من الأطفـال المسلمين ، وتقـطيعهم إرباً اربـاً وشيهم ، كما روت « آن كـومنين ابنة قيصر الروم ».

وقـال :

حـاصـر الصليبيـون مدينـة ازنيق ، الـواقعـة في آسيـة الصغرى ، وهزمـوا جيشاً تـركياً ، وقـطعوا رؤوس جـرحى الترك ، وربطوها بسروج خيولهم .

وقـال :

دبت الفـوضى في مفـاصـل الجيش الصليبي ، وشـاع التجسس فيـه ، فـأمـر يـوهيمـنـد بتقـطيـع الجـواسيس وطهيهم ، وإطعامهم للجنود الجائعين .

وقـال :

يـدل سلوك الصليبيين في جميع المعـارك ، على أنهم من أشـد الوحـوش حماقـة ، فكانـوا لا يفرقـون بين الحلفاء ، والأعـداء ، والأهـالي العـزّل ، والمحـاربين ، والنســاء ، والشيـوخ ، والأطفـال ، فيقتـلون وينـهبـون عـلى غيـر هدى[1] .

ولكن لنتـرك الدكتـور لوبـون ، ونستمع إلى الـراهب روبرت يحـدثنـا عن سلوك « ورقي » وخلقية الجيش الصليبي عندما استولى على القدس ، قال :

كـان قومنـا يجوبـون ، كاللبـوات التي خطفت صغـارها ، الشـوارع والميادين وسـطوح البيـوت ، ليـرووا غليلهم من التقتيل ، فكانـوا يذبحـون الأولاد ، والشبان ، والشيـوخ ، ويقطعوهم إرباً إرباً ، وكـانوا لا يستبقـون إنسانـاً ، وكانـوا يشنقون اناساً كثيرين بحبل واحدة بغية السرعة .

(١) حضارة العرب : ص ٣٩٨.

وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه ، فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية ، فيا للشره وحب الذهب ، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث ، ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية ديناً .

ثم أحضر بوهيمند جميع الذين اعتقلوا في برج القصر ، فأمر بضرب رقاب عجائزهم ، وشيوخهم ، وضعافهم ، وبسوق فتيانهم وكهولهم إلى انطاكية ، لكي يباعوا فيها[1].

وأضاف الراهب روبرت ، واصفاً تلك المجازر الرهيبة فقال :

حدث قتل المسلمين في يوم الأحد المصادف ١٢ ديسمبر ، وإذ لم يمكن إنجاز كل شيء في ذلك اليوم ، قتل قومنا ما بقي من أولئك في اليوم التالي[2] .

كيف يمكن أن يكون شعور الإنسان أمام هذه المجازر الرهيبة ، التي يأنفها الحيوان في الغابات ؟ وبماذا يمكن أن يعبر عن حقيقة شعوره ، أمام أعمال برابرة أتوا جحافل وجحافل بتحريض من باباوات المسيحية ، وبقيادة رهبانها؟ بماذا بغير الاحتقار العظيم يمكن أن يصف إنسان ما أولئك الغزاة؟ وهذا ما عبّر عنه الشاعر الفارسي الكبير سعدي، بقوله:

لا يستحق أولئك أن يسموا بشراً .

---

(١) أنظر حضارة العرب : ص ٣٩٩.

(٢) أنظر حضارة العرب : ص ٤٠٥.

لندع مشاعرنا جانباً ، ولنتابع أنهـار الدمـاء التي كانت تتـدفق من أقدام الصليبيين أينما ساروا، وكيفما اتجهوا في مسيرتهم المقدسة فوق الأرض المقدسة .

فلنسمـع أخبـارهم المشينـة من كـاهن آخـر ، هـو كـاهن مـدينـة لـوبـوي « ريموندو راجيل » الذي قال :

> حدث ما هو عجيب بين العرب ، عندما استولى قومنا على أسـوار القدس وبـروجهـا ، فقـد قـطعت رؤوس بعضهم ، فكـان هـذا أقـل مـا يمكن أن يصيبهم ، وبقـرت بـطون بعضهم ، فكانوا يضـطرون إلى القذف بـأنفسهم من أعلى الأسـوار ، وحرق بعضهم بـالنار ، فكـان ذلك بعـد عذاب طويل ، وكان لا يُرى في شوارع القدس وميـادينها، سـوى أكداس من رؤوس العرب ، وأيديهم ، وأرجلهم ، فلا يمر المـرء إلاَّ على جثث قتـلاهم ، ولكن هـذا لم يكن سـوى بعض ما نالوه[1].

ولنسمـع هذا الكـاهن يروي لنـا كيف ذبح جنـود « المحبة » الصليبيـون ، عشرة آلاف مسلم في مسجد عمـر ، الذي علّم العـالم كله ، كيف يكون العفـو عند المقدرة ، وكيف يكون الإيمان بالدين طريقاً للتسامح والعدل بين البشر .

قال الكاهن ريموندو :

> لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان ، فكانت جثث القتلى تعوم في السـاحـة هنا وهنـاك، وكانت الأيـدي والأذرع المقبـورة تسبح ، وكـأنهـا تـريـد أن تتصـل بجثث غريبة عنها .

---

(١) انظر حضارة العرب: ص ٤٠٢ .

فإذا ما اتصلت ذراع بجسم ، لم يعرف أصلها ، وكان الجنود الذين احدثوا تلك الملحمة ، لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلاَّ بمشقة[1].

ولم يكتف الفرسان الصليبيون « الأتقياء » بما فعلوه، فعقدوا مؤتمراً اجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين ، واليهود ، وخوارج النصارى ، الذين كان عددهم حوالي ستين ألفاً ، فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم لا إمرأة ولا طفلاً ولا شيخاً . وهكذا ظل العدوان يلحق بالعدوان ، والحملات الصليبية تتالى ، والحرب المقدسة التي أشعلها رجال الكنيسة المسيحية تشتعل وتزداد ، والجرائم والآثام تتفاقم .

وبركة البابوات ينالها كل من قطع من رؤوس المسلمين عدداً أكبر .

تحدث الدكتور جورج قرم عن موقف الكنيسة المسيحية من الحملات الإستعمارية، فقال :

كان البابوات لأمد طويل من الزمن ، من أشد المتحمسين للحملات الإستعمارية الكبرى[2].

هذه خلقيتهم في فلسطين ، وهي نفسها في إسبانيا ، وهي صورة واضحة جلية ، لا تحتاج إلى تدقيق طويل . المبشر غاردنر تحدث عن الهدف الأساسي من الحروب الصليبية ، فقال :

لقد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين ، ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي ، والحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه

---

(١) حضارة العرب : ص ٤٠٣ .

(٢) تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ١٣١ دار النهار بيروت ١٩٧٩ .

المدينة ، بقدر ما كانت لتدمير الإسلام[1].

ولكن إذا كان غاردنر قد تحدث بصراحة عن أهداف الحروب الصليبية، وأعلن حسرته لفشلها، فإن الأب اليسوعي مييز Milliez، لا يعترف بهذا الفشل ، بل على العكس فهو يعلن أن الحروب الصليبية على الإسلام ، لا زالت مستمرة وإن بشكل هادىء، إذ قال:

إن الحروب الصليبية الهادئة ، التي بدأها مبشرونا في القرن السابع عشر ، لا تزال مستمرة إلى أيامنا[2].

(١) التبشير والاستعمار: ص ١١٥.
(٢) التبشير والاستعمار : ص ١٢٧.

وبهذه الخلقية عاملهم صلاح الدين

لمعالجة الكارثة ، والوقوف بوجه الهجمة الصليبية البربرية ، كان تحرك المسلمين على خطين : الأول سياسي ، تمثل بتناسيهم السريع جميع عوامل الإنقسام ، الذي كان سبباً لفرقتهم ، وضعفهم ، وهزيمتهم، فأغضى سلطان القاهرة عن منافسته لخليفة بغداد ، فتبادلا الرسائل والسفراء ، للبحث في عمل ما يجب لتلافي الكارثة ، وكان لهذا التنسيق واستنهاض الهمم بين المسلمين ، وترك النزاعات الإسلامية جانباً ، دور كبير في نهاية المأساة الإسلامية في فلسطين .

والثاني عسكري : تمثل بتجهيز صلاح الدين الأيوبي جيشاً عظيماً عدة وعدداً تقدم به إلى القدس ، حيث دارت رحى معارك شرسة ، كان النصر بنهايتها حليف القائد العربي ، الذي دخل على أثرها مدينة القدس عام ١١٨٧ ، وأسر ملك القدس الأسيف دولوز ينسيان . ولابد لنا هنا من وقفة متأملة، لنر كيف تصرف القائد المسلم المنتصر في القدس ؟

كيف رد صلاح الدين وهو في أوج انتصاره ، على جرائم الصليبيين ؟

دخل صلاح الدين القدس منتصراً ، لكنه لم يقتل مسيحياً ، لم ينكل بإنسان ، لم يشرد عائلة ، لم ينتقم من بريء ، لم يقتص من مدني أو أعزل ، بل على العكس ، فلقد أعطى الأمن والأمان للجميع ، في وقت كانت فيه دماء المسلمين ، لما تجف بعد من شوارع المدينة .

تصرف صلاح الدين بهذا النبل ، ككل عظيم يحمل في نفسه أخلاق العظماء ، تضبط خطواته شريعة نيرة ، وتحدد توجهاته ديانة راقية سامية ، فلم يسمح لغرائزه الحيوانية أن تقود نهجه ومسلكه ، كما كان الأمر ، بالنسبة « للمؤمنين » حملة الصليب ، وقوادهم ، ومحرضيهم . ولكن هل نبل صلاح الدين وشهامته ، أوقفا المجازر والعدوان؟

يبدو أن شيئاً من هذا لم يحدث ، إذ أن الحملات الصليبية ظلت تتدفق إلى فلسطين ، في محاولات يائسة بائسة لاسترجاع القدس ، حتى بلغت ثمانية ، كان أهمها الحملة الثالثة ، التي كانت بقيادة ملك انكلترا ريكاردوس قلب الأسد .

وعند سيرة هذا القائد الصليبي ، يفترض أن نتوقف قليلاً ، لأن له مع صلاح الدين لقاء معروفاً ، لقاءً بين مجرم سفاح مهزوم ، وقائد شهم منتصر ، علماً أن قلب الأسد هذا ، هو نفسه الذي اقترف بحق آلاف المسلمين جرائم وحشية ، فاقت تلك التي اقترفها أسلافه رجال الحملة الصليبية الأولى .

تحدث عن جرائم هذا القائد الصليبي الدكتور غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب ، فقال :

> كان أول ما بدأ به ريكاردوس ، ان قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير مسلم ، سلموا أنفسهم إليه بعد أن قطع لهم عهداً بحقن دمائهم ، ثم أطلق لنفسه العنان في اقتراف أعمال القتل والسلب[1].

كان لهما لقاء عسكري انتصر فيه القائد العربي الكبير ، ولقاء من نوع آخر ، هو في الحقيقة بين خلقين انتصرت فيه أيضاً خلقية عمر بن الخطاب ،

(١) حضارة العرب : ص ٤٠٧ .

ونهج المسلم في صلاح الدين ، على خلقية العدوان التي كان بابوات المسيحية وأساقفتها ، يحرضون على نهجها وأتباعها .

انتصر صلاح الدين ، بسيفه ، وأخلاقه، فرأيناه رؤوفاً، بأعدائه ، حليماً بهم .

تحدث لوبون عن صلاح الدين، فقال :

ليس من الصعب أن يتمثل المرء درجة تأثير تلك الكبائر في صلاح الدين النبيل ، الذي رحم نصارى القدس ، فلم يمسهم بأذى ، والذي أمدَّ فيليب أوغست وقلب الأسد ريكاردوس ، بالأزواد والمرطبات، في أثناء مرضهما . فقد أبصر الهوّة العميقة بين تفكير الرجل المتمدن وعواطفه ، وتفكير الرجل المتوحش ونزواته ، فأدرك أنه لا يجوز أن يعامل أولئك الحمقى ، بغير ما تعامل به الوحوش الضارية[1].

وقف صلاح الدين منتصراً ، وسيفه مسلط فوق عنق عدو مجرم مهزوم ، لو كان بموقعه لما رحمه ، فما انتقم ولا تشفى ، بل على العكس رأيناه يمد عدوه بما يشفيه من مرض ، ويقدم له ما يجعله يتغلب على الموت ، معبراً بذلك للإنسانية والتاريخ ، أن أخلاق الإسلام تنهاه عن الانتقام فانتهى ، وتعاليمه تحثه على العفو فعفا ، وشريعته السمحاء تدعوه إلى الصفح فصفح . تحدث ول ديورانت صاحب « قصة الحضارة » عن مناقبية صلاح الدين ، فقال :

إن صلاح الدين أنبل من اشترك في الحروب الصليبية[2].

وذكره الدكتور جورج قرم، فقال :

إن صلاح الدين ، أبقى على حياة المسيحيين جميعاً، يوم

---

(١) حضارة العرب : ص ٤٠٩ .

(٢) قصة الحضارة : ج ١٣ ص ١٤١ .

أعـاد فتح القـدس، كما أذن للغـربيين بالـرحيل ، مقـابل أدائهم رسماً . . بينما ثبت الشرقيين في وضعهم كذميين ، وصان لهم أملاكهم[1].

رأينـا المسلم في فلسطين ، يـزرع البلاد محبـة ، وعدلاً، وأمنـاً، وعلماً، وعمـراناً، فيحصـد الشعب كله بكل فئـاته دون استثنـاء ولا محابـاة ، الإزدهار ، والاستقرار، والبحبوحة، والسلام .

ورأينـا المسيحي يدخلهـا ، بخلقية بـطرس الـراهب وبـابـواتـه ، الآمـرين بالعدوان ، المحرضين عليه ، فإذا بالرؤوس وراءه مقطوعة ، والأجساد مهشمة ، والضحايا مقتولة ، والأرض خرابا منهوبة محـروقة . تلك كـانت خلقية المسلم ، وهذه خلقية المسيحي ، والصورتان واضحتان ، ولنا أن نتأمل ونتبصـر ، متمثلين ما قاله الدكتور غوستاف لوبون بعدما رأى أبعاد الصورتين ، فقال :

لو صح أن يكون للأديان ما يعزى لها من التـأثير ، لـوجب ان نقول أن القرآن أفضل من الإنجيل ما بدت أمم الإسلام أسمى أخلاقاً من النصرانية[2].

---

(١) تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ٢٣١ .

(٢) حضارة العرب : ص ٥١٩.

وبها انتصر المسلمون في اسبانيا

كان هذا تقويم أقلام مسيحية شريفة للنهج الإسلامي الحضاري ، الذي سار عليه الحكم الإسلامي ، في شتى المناطق المسيحية من بلاد الروم .

فكيف كانت معاملتهم للمسيحيين في اسبانيا؟

وكيف تركوا تلك البلاد بعدما فتحوها؟

وكيف عوملوا عند خروجهم منها؟

للحديث عن هذا الأمر ، سنترك أيضاً الأقلام المسيحية تتحدث وتشهد ، وتسرد الوقائع والحقائق . الدكتور غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » قال :

لم يكد العرب يتمّون فتح اسبانيا عام ٧١١ م ، حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها ، فاستطاعوا في أقل من قرن ، أن يحييوا ميت الأراضي ، ويعمروا خراب المدن ، ويقيموا فخم المباني ، ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى ، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ، ويترجمون كتب اليونان واللاتين ، وينشؤون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوروبة زمناً طويلاً .

وقال :

أنشأ العرب في كل ناحية ، المدارس ، والمكتبات ،

والمختبرات ، وترجموا كتب اليونان ، ودرسوا بنجاح العلوم الرياضية ، والفلكية ، والطبيعية ، والكيماوية ، والطبية .

وقال :

استطاع العرب أن يحولوا إسبانيا مادياً وثقافياً في بضعة قرون ، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوروبية ، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانيا على ذينك الأمرين ، بل اثروا في أخلاق الناس أيضاً ، فهم الذين علموا الشعوب النصرانية ، وإن شئت فقل حاولوا أن يعلموها التسامح ، الذي هو أثمن ما تصبو إليه الإنسانية .

ويلغ حلم عرب إسبانيا نحو النصارى مبلغاً كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية في إشبيلية وقرطبة .

وقد أسلم كثير من النصارى ، ولكنهم لم يسلموا طمعاً في شيء وهم الذين استعربوا ، فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين ، قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة .

وقال :

كان عرب اسبانيا خلا تسامحهم العظيم ، يتصفون بالفروسية المثالية ، فيرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ، ويقفون عند شروطهم[(١)].

وقال العالم الكبير « سيديو » .

---

(١) حضارة العرب : ٣٣٧ ـ ٣٤٢.

كان العرب يفوقون النصارى كثيراً في الأخـلاق ، وكان من طبائعهم الإخلاص والرحمة، والحفاظ على الشرق[1].

وقال ول ديورانت صاحب قصة الحضارة :

أما اسبانيـا في عهد العـرب ، فقد وصلت إلى الـذروة في تاريخ الحضارة .

وقال :

عامل الفاتحون أهل البلاد معاملة لينة طيبـة ، وأطلقوا لهم من الحرية الدينية مـا لم تتمتع بـه اسبانيـا ، إلا في أوقات نادرة[2].

تلك كانت معاملة المسلمين للمسيحيين في اسبانيا ، طيلة حكمهم لها .
وبهذه الخلقية النبيلة المتحضرة ، عاملوا البلاد وأهلها .

وبهـذا الفهم الحضاري الـراقي ، آخوا بين المسلم والمسيحي ، وسـاووا بينهما .

وبهـذه النفسية الصـادقة ، سهـر المسلمـون على تـأمين وتعـزيـز التعـايش السلمي الأخوي ، بين المسلم والمسيحي ، قولاً وعملاً ، طيلة ثمانية قرون .

فعمروا البلاد ، وبعثوا فيها الإزدهـار ، والطمـأنينة ، والمحبـة ، والعدل ، والأمان ، والمساواة . هكذا كان نهج المسلمون ، فكيف كان نهج المسيحيين ، بعد أن دارت الأيام على العرب، واستتب الأمر لغيرهم؟

وكيف بادل المسيحيون الاسبان خدمات العرب ومواقفهم؟

---

(١) هامش حضارة العرب : ٣٤٧ .
(٢) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٦٢ـ ٢٨٢ .

وبهذه الخلقية رد المسيحيون الجميل في اسبانيا

من المؤسف القول : أن المسيحيين الأسبان ، بتحريض من أعلى المراجع الكنسية ، بادلوا من علمهم الرقي والحضارة ، بقطع الرؤوس ، وحرق الأحياء ، والقتل الجماعي ، الذي لم يفرق بين بريء ومذنب ، ورجل وامرأة ، وطفل ورضيع ، ولم يوفر سلوكهم « الحضاري » مكتبة ولا كتاب . ذكر لوبون هذا الأمر، فقال :

> ظن رئيس الأساقفة الإسباني أكزيمنيس ، أنه بحرقه مؤخراً ما قدر على جمعه من كتب أعداء دينه « ثمانين ألف كتاب » محا ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد ، فما درى أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانية ، يكفي لتخليدهم إلى الأبد[1].

ولشد ما تزداد الصورة قتامة وسواداً عندما نتذكر ، أن من كان يرعى تلك المجازر ويدعو إليها راهب وكاردينال ، وأسقف .

معروف أن دولة العرب في اسبانية دامت نحو ثمانية قرون ، ولم يكن سبب زوالها الغارات الأجنبية عليها ، بقدر ما كان انقسامها وتفسخها الداخلي .

---

(١) حضارة العرب : ص ٣٣٩.

كان عام ١٤٩٩ هو عام نهاية الوجود العربي في اسبانيا ، عام المأساة .

ومعروف أيضاً أن فرديناند ، عاهد العرب على منحهم حرية الدين ، واللغة ، والأمان ، ولكن تبين أن وعوده لم تكن إلاّ خدعة ، دفع العرب بسبب تصديقهم لها ثمناً باهظاً .

لنترك الدكتور لوبون ، يحدثنا عن أحداث تلك الحقبة المظلمة من تاريخ اسبانيا المسيحية ، فقال :

لم تكد تحل سنة ١٤٩٩ ، حتى حل بالعرب دور الإضطهاد والتعذيب، الذي دام قروناً والذي لم ينته إلا بطرد العرب من اسبانيا .

كان تعميد العرب عنوة ، فاتحة ذلك الدور ـ

أي فرض الدين المسيحي عليهم بالقوة والإكراه ـ

ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بحرق كثير من الإسلام المعمدين[1].

ولم تتم عملية التطهير بالنار إلاّ بالتدريج ، لتعذر حرق الملايين المسلمين دفعة واحدة . ونصح كاردينال طليطلة الذي كان رئيساً لمحاكم التفتيش ، بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساء ، شيوخاً وولدانا .

ولم ير الراهب الدومينيكي بيلدا الكفاية في ذلك، فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ، لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى ، فيدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم ، وأيده في ذلك الأكليروس .

(١) حضارة العرب : ص ٣٣٦.

ولكن الحكومة الاسبانية رأت بدلاً من ذلك ، اجلاء العرب عن اسبانيا عام ١٦١٠ م . فقتل أكثر مهاجري العرب في الطريق في أثناء هجرتهم . فأبدى الراهب بيلدا ارتياحه ، وهو الذي قتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة ، كانت مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم ، كانت متجهة إلى افريقية .

ويقدر كثير من العلماء عدد المسلمين ، الذين قتلوا ، وذبحوا ، وأحرقوا منذ دخل فرديناند غرناطة ، وحتى أجلائهم الأخير بثلاثة ملايين مسلم .

ولا يسعنا سوى الاعتراف، بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين ، من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل، كتلك التي اقترفت ضد المسلمين في اسبانيا .

وإذا كان المسيحيون قد نعموا طيلة الحكم الإسلامي في اسبانيا ، بالمساواة ، والحرية ، والعدالة والطمأنينة ، مع أخوانهم المسلمين، فإن حال المسلمين في ظل الحكم المسيحي، كانت على عكس ذلك تماماً ، بعد أن أصبح المسلم معتبراً مولى للمسيحي يطلق عليه اسم « المدجّن » .

تحدث عن هذا الواقع المرير بولياكوف في كتابه « تاريخ اللاسامية » فقال :

أصبح المدجّن يطلق على المسلم ، الذي أصبح مولى للمسيحيين بعد سقوط الأندلس[١].

(١) انظر تعدد الأديان وأنظمة الحكم للدكتور جورج قرم ص ١٦٩ دار النهار بيروت ١٩٧٩ صفحة ١٧٥ .

فيما تحدث الدكتور جورج قرم عن تمسك المسلم بدينـه ، رغم الإرهاب الذي مارسته عليه السلطات المسيحية في اسبانيا .

فقـال :

لا يملك المـرء إلا أن يعجب بآخـر مسلمي اسبانيـا ، لمـا أبدوه من تشبث يائس بعقيدتهم .

اليهود في كنف الإسلام واليهود تحت حكم المسيحية

تبقى أمامنا مسألة لابد من المرور عليها ، لنستكمل بها رسم الصورة الحقيقية ، الدقيقة ، الواضحة ، لمسيرة المسيحية العملية ، والخلقية ، عبر تاريخها الطويل المطلي بالموت والدماء .

فبعد معاملتهم لأهل الكتاب من المسلمين ، وقد رأيناها على حقيقتها ، كيف كانت معاملتهم لأهل الكتاب من اليهود؟ .

إننا وإن كنا نسلط الضوء على الجرائم ، التي اقترفتها أيدي المسيحيين بحق المسلمين ، إلا أننا لا يمكن أن ننسى جرائم اليهود البربرية ، ومؤامراتهم ، وعدوانهم بحق كل الناس ، وعموم الأديان ، خصوصاً المسلمين منهم ، وهي ماثلة أمامنا للعيان على ارض فلسطين السليبة ، تلك الجرائم والآثام ، التي بدأت بالنسبة للمسلمين ، بتآمر اليهود على النبي والإسلام قبل ١٥ قرناً ، وصولاً إلى تشريد شعب مسلم من أرضه واغتصابها ، والتنكيل به وطرده ، ولما ينته بعد على الإسلام عدوانهم .

قد يكون من أسباب العداء المسيحي لليهود ، ما هو عائد لصلب المسيح ، أو لعزل اليهود أنفسهم عن الآخرين ، في المجتمعات المسيحية التي يعيشون فيها ، أو لتمييز انفسهم عن باقي الناس ، كونهم « شعب الله المختار » كما يزعمون ، ولكن معظمها في الحقيقة كان بسبب المنافسة الإقتصادية المسعورة بين الطرفين .

ونكرر هنا أننا لسنا بوارد بحث العداء اليهودي المسيحي ، ولا الغوص في أسبابه وخلفياته ونتائجه ، لأن ما نريده ليس إلا تتبع خط الدم النازف من ضحايا السيف المسيحي ، أياً كانوا ضحاياه ، حتى ولو كانوا يهوداً ، فاقت جرائمهم جرائم حلفائهم المسيحيين .

لقد مرت على اليهود أيام سوداء قاتمة في أوروبا ، على أيدي المسيحيين الذين قادوا حملة إبادة جماعية رهيبة ضدهم، كانت تتم أحياناً بتحريض أكبر القادة المسيحيين، ومنهم من كان يشغل مناصب كنسية عالية .

كيف بدأت تلك المجازر ، وكيف انتهت؟

بدأت متاعب اليهود بعهد قسطنطين في فلسطين ، الذي فرض عليهم قيوداً ومطالب كثيرة، وحرم على المسيحيين الاتصال بهم ، ونفى عام ٣٣٧ أحبارهم ، وأتى جالوس أخو قسطنطين ليزيد في فرض الضرائب والمضايقة عليهم .

فقتل الآلاف منهم واستعبد كثيرين ، حتى اضطر أخيراً حاخامهم هلل الثاني ، أن يتنازل عن كثير من حقوق اليهود في مجالات عديدة .

وإذا كانت متاعب اليهود في فلسطين ، قد خفّت نسبياً بعد ارتقاء يوليان عرش الإمبراطورية، إلاَّ أن هذه المتاعب في أوروبا كانت مستمرة بشكل اشمل وأعم ، لأنه كان للكنيسة دور فعّال في بعثها وإدارتها وازديادها .

فقانون ثيودوسيوس عام ٤٣٩ م ، ومجلس كليرمنت عام ٥٣٥ م ، ومجلس طليطلة عام ٥٨٩ م ، القاضي بتحريم المناصب أيّاً كانت على اليهود ، وقرار مجلس أورليان عام ٥٣٨ م ، القاضي بألّا يخرج جميع اليهود من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس ، كانت كلها لا تزال سارية المفعول معمولاً بها .

وفي عام ١٠٩٥ م ، تبدلت نوعية الموقف السلبي المسيحي من اليهود في أوروبا ، فبدلاً من أعمال المضايقة ، والحرمان ، والمقاطعة ، وسواها ، المتبعة

بحقهم ، صارت أعمال العنف ، والقتل ، والنهب ، هي المعروفة ، وهي المتبعة بحقهم . .

ففي ٣ أيار ١٠٩٦ م ، وفيما كانت الجيوش الصليبية الزاحفة إلى فلسطين ، قد وصلت إلى أسبير في المانيا ، قام الجنود بقتل ١١ يهودياً رفضوا التعميد .

وفي منيز قتل الصليبيون ألف وأربعة عشر يهودياً ، أختبأوا في أحد السراديب ، وفي العام نفسه قتلوا مئتي يهودياً في كولوني، وفي وورمز هاجم الصليبيون جموعاً هاربة من اليهود ، أبادوهم عن بكرة أبيهم ، فبلغ من قتل في مذبحة وورمز ١١٠٠ يهودياً .

وحدثت مذبحة مشابهة في متز ، وأخرى في رتجز برج ، وثالثة في براغ .

وطلب القديس بطرس المبجل رئيس دير كلوني ، من لويس السابع ملك فرنسا ، أن يجعل اليهود يقاسون من العذاب أشد ألوانه ، وأن يجعلهم يعيشون أمَرَّ من الموت . ودعا راهب فرنسي يدعى رودولف ، إلى ذبح اليهود في ألمانيا ، فما لبث الجنود أن قتلوا شمعون التقي ، وبترت أطرافه ، وعذبت أمرأة حتى الموت .

وقتل الصليبيون في بيت كبير أساقفة منيتز مئات من اليهود ، جاءوا يطلبون من الأسقف حمايتهم ، وفي ورزبرج قتل المسيحيون عشرين يهودياً بعدما مثّلوا بهم .

واستمرت مضايقة أوروبا المسيحية لليهود تشتدّ وتخفّ من حين إلى آخر ، حتى كان مجلس لاتران LATERAN عام ١١٧٩ ، الذي حرم على القابلات أو الممرضات المسيحيات أن يخدمن اليهود ، ورد مجلس افنيون عام ١٢٠٩ على قوانين الطهارة اليهودية ، بتحذير اليهود والعاهرات كما أسماهم مجلس افنيون ، من لمس الخبز والفاكهة المعروضة للبيع .

وأعاد القوانين الكنسية الصادرة ، بتحريم استئجار اليهود الخدم

المسيحيين . وحذر المؤمنين المسيحيين من تبادل الخدمات مع اليهود ، وأمر بتجنبهم لنجاستهم . وأعلنت بعض المجالس ، إلغاء كل زواج بين المسيحيين واليهود .

وأصدر مجلس لاتران الرابع عام ١٢١٥ م ، قراراً يحتم على اليهود والمسلمين ، أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم بلبس أثواب خاصة ، ووضع هذا المجلس المبدأ القائل ، بأن اليهود على بكرة أبيهم قد فرضت عليهم العبودية الأبدية ، لأنهم صلبوا المسيح .

وفي عام ١٢٢٢ م ، أُحرق شماس على القائمة الخشبية ، لأنه اعتنق الدين اليهودي وتزوج بيهودية ، وندّد مجلس بيزيير عام ١٢٤٦ ، باستخدام المسيحيين أطباء من اليهود .

وجرت مذبحة رهيبة في بادن عام ١٢٣٥ م .

وفي عام ١٢٤٣ م، أقدم المسيحيون على ارتكاب جريمة بشعة ، إذ أحرقوا جميع اليهود في يلتز القريبة من برلين .

وفي عام ١٢٨٣ قتل المسيحيون عشرة من اليهود .

وفي عام ١٢٨٥ أحرق المسيحيون ١٨٠ يهودياً بأجمعهم .

وعام ١٢٨٦ قتلوا أربعين آخرين .

وفي عام ١٢٩٨ جرى حرق كل يهودي في روتنجن ، دون تمييز بين رجل وامرأة وطفل . وفي ثوربرج وبتحريض من البارون رندفلشخ ، ذبح المسيحيون ٦٩٨ يهودياً ، وفي منتصف ١٢٩٩ محا المسيحيون ١٤٠ كنسياً يهودياً .

وفي عام ١٢٥٥ هاجمت عصابات مسيحية مسلحة مقر اليهود ، وقبضت على من كان رئيساً للإحتفال ، فشدوه إلى ذيل جواد وجروه في الشوارع ، ثم شنقوه .

ثم جرى شنق ١٨ يهودياً آخرين ، هذا كان في ألمانيا ، أما في فرنسا فالوضع بالنسبة لليهود كان لا يقل سوءاً ومأساوية .

فلقد انتقلت عدوى ذبح اليهود إلى هناك ، فذبح في يوم واحد ١٥٠ يهودياً في كارنتان، ورامرو، وسلي ، وفي تولـوز أرغم اليهود أن يبعثـوا بممثل لهم إلى الكنيسة ، في يوم الجمعة الحزينة من كل عام ، ليتلقى صفعة على أذنـه بمثابـة تـذكـرة لهم خفيفـة بخـطيئتهم الأبـديـة . ورأى الملك فيليب اغســطس ١١٨٠ الفرصة مـلائمة ليبتـز من اليهود المـال ، فأمـر بسجن جميع من في مملكتـه من اليهـود ، بحجة أنهم يسممـون آبار المسيحيين ، ولم يـطلق سراحهم إلا بعـدمـا أفتدوا انفسهم بأموال طائلة .

وفي عام ١١٩٠ م . قتل ثمانون يهودياً بأمر من الملك .

وفي عام ١٢٣٦ م ، دخل الصليبيون المسيحيون انجـو ، بواتـو ، بوردو ، انجوليم ، وأمروا بأن يعمد اليهود جميعاً ، فلمـا رفضوا أخـذت خيول الصليبيين تدوسهم بحوافرها ، حتى قتل ثلاثة آلاف يهودي .

وعـام ١٢٥٤ م ، طرد اليهـود من فـرنسـا بعـدمـا صـودرت كـل أمـلاكهم وأموالهم، وكان عددهم يربو على مئة ألف .

ورغم أن وضع اليهود في كل من بريـطانيا وإيـطاليا كـان أقل سـوءاً إلاَّ أنه كان لا يخلو من المآسي ، والدماء، والنهب، والتدمير .

ولقد ذكر ديورانت هذا الأمر ، فقال :

> كـانت أيام السـلام مليئة بخـوف اليهود من خـطر المذابـح الذي لا ينفك يهـددهم ، وكان على كـل يهودي أن يحفظ عن ظهـر قلب ، الدعـاء الواجب عليـه أن يتلوه في سـاعـة الإستشهاد[1]

---

(١) قصة الحضارة : ج ١٤ ص ٩٤.

تحدث الدكتور جورج عن أوضاع اليهود في أوروبا المسيحية ، فقال :

بالمقارنة مع المذابح والمجازر الجماعية ، التي طغت بعد عـام ١٠٩٦ ضـد اليهـود في الـديـار المسيحيـة ، نعمت الطوائف اليهودية في ظل الإسلام بدرجة من الأمان تحسد عليه[1].

---

(١) تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ٢٦٠ .

المسيح العظيم براء من أعمالهم

لابد لنا أخيراً ونحن نستعرض مسيرة الدم المسيحية ، من أن أذكر حادثة هزت مشاعري ، وأقشعر لها بدني ، واهتز لها كياني .

اتخيلها كيفما اتجهت ، واتمثلها أينما كنت .

حدثت على أثر انتفاضة شعبية ، قامت بها جماهير مطالبة بالحكم الجمهوري في روما ، ضد البابا بونيفاس عام ١٣٩٩ .

ذكرها ول ديورانت في موسوعته « قصة الحضارة » فقال :

« استطاع البابا بونيفاس سحق التمرد ، وزج بواحد وثلاثين من أركان الانتفاضة في السجن ، وما كان من هذا البابا إلاَّ أن وعد واحداً منهم بالعفو عنه ، والإبقاء على حياته ، إذا رضي أن يكون جلاد الباقين ، فرضي السجين بهذا العمل ، وشنق الثلاثين الباقين ، ومنهم أبوه وأخوه بحضور البابا نفسه»[1].

فهل لإنسان أن يتصور عملاً رهيباً كهذا ، يدفع إليه ويدبره ويسهر على تنفيذه أعلى مرجع في الكنيسة المسيحية ، ولا يكفر بالدين والمتدينين ؟

---

(١) قصة الحضارة : ج ٦ ص ٢٥ .

هـل يمكن أن يحتفظ مسيحي ببقية إيمـان في قلبه ، وعـطف في نفسـه ، ورقـة في وجدانـه ، وإنسانيـة في مسلكه، إذا مـا سار على خـطى رائـد كنيستـه الأول ، وحامي حمى دينه ؟

فماذا ترك هذا البابا بعد للإنسان العادي ؟ ولماذا يـلام هذا إذا مـا أجرم أو قتل ؟ وهو يرى أن مثله الأعلى وقدوته يدفع الأخ إلى أن يشنق أخاه ، والإبن إلى أن يلف حبل المشنقة حول رقبة أبيه ، ويشده برجليه كي يزهق له روحه ، فيلفظ الأب أنفاسه بيد ابنه ؟

فيما كان يتلذذ البابا بـالمشهد « الفتـان » ومن أجل مـاذا كل هـذا الإجرام البشع ؟ مـن أجل كرسي زائل ، ومجد فان !!.

وكأني بسيدنا المسيح ، كان يعني أمثال هذا البابا بالذات ، حين قال :

« ويل لكم أيها الفريسيون المراؤون ، لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة ، تظهـر من خارج جميلة ، وهي من داخـل مملوءة عـظام أموات ، وهكـذا انتم أيضـاً من خـارج ، تـظهـرون للناس أبرار ، ولكنكم مشحونون رياء دائماً . . »[1].

حادثة أخرى تدلنا على مدى القسوة ، والشراسة والحقد ، التي تعامل بهـا المسيحيون فيما بينهم، لـدرجة أنهم أجـازوا قتل بعضهم البعض ، ومـارسوه في قاعات الكنائس والأديرة ، ذكرها ديورانت ، فقال :

« ذهب المسلمون في حماية المسيحيين إلى أبعد حد ، إذ عين والي انـطاكيـة في القـرن التـاسـع الميـلادي حـرسـاً خاصاً ، ليمنـع الطوائف المسيحيـة المختلفة من أن يقتـل بعضها بعضاً في الكنائس »[2].

---

(١) قصة الحضارة : ج ١٢ ص ١٣٢ .

أخيراً نقول : إذا كان المسيحيون ، قد خاضوا حربهم ضد أنفسهم ، وضد أهل الكتاب من المسلمين واليهود ، وضد كل موحد في التاريخ ، فإن معارك المسلمين استهدفت أولاً وأخيراً الوثنيين ، والمشركين ، والكفار ، بعدما عجزت سبل الهداية عن هدايتهم ، فكان ذلك أمراً مفروضاً لابد منه ، ولا خيار سواه ، ولا بديل عنه .

وما إن تاب هؤلاء عن ضلالهم وأعلنوا إسلامهم ، حتى اعطوا الأمن ، والأمان والحرية ، وحفظ لهم حقهم بالعيش الكريم ، ولم يخض المسلمون معارك ضد أهل الكتاب ، إلاَّ وكان لها طابع الدفاع عن النفس ، أما من مؤامرة حيكت ضدهم ، أو من حرب أعلنت عليهم ، ومعاركهم ضد أهل الكتاب كانت تنتهي دائماً بانتهاء أسبابها ودوافعها ، ليعود المسلمون بعدها إلى خططهم المعهود ، ونهجهم المعلن ، دعاة تعاون ، ووئام ، وسلام بين الأديان .

تحدث الدكتور جورج قرم عن هذا الأمر ، فقال :

> إن أهل الكتاب وبخاصة النصارى منهم ، خصهم القرآن بوضع مميز ، والجهاد في الإسلام لا يلزم بنشر راية الإسلام بالقوة ، بل يلزم بالذود عن حياضه ضد من يتعدى عليه[1].

فعذراً من القارىء الكريم إن كنا قد أطلنا عليه ، فما كان بودنا ، ولكن ما كان أمامنا الاَّ ردّ الظلامة عن الحق ، ودفع الفرية عن الحقيقة ، ولا أظننا إلا كنا منصفين .

وكان لابد لنا من أن نجعل المقارنة بين الإسلام والمسيحية لا تقتصر على المبادىء والتعاليم فحسب، بل تطال وتشمل المسلكية ، والخلقية ، والذهنية ، التي سجلها أتباع كل من الديانتين في مسيرتهم عبر التاريخ الطويل . .

---

(١) تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ٢٢٦ .

فهذه هي تعاليم الإسلام واضحة كالشمس ، لا لبس فيها ولا غموض ، ولا خلاف حولها بين المسلمين ولا صراع .

وهذه هي مبادىء المسيحية كما وصلت إلينا غامضة ، قلقة مضطربة ، كان العالم المسيحي في خلاف حولها ولا يزال .

وهذه هي خلقية الإسلام ، عبرت عنها مسلكية المسلم ، قائداً كان أم جندياً ، في زمن الحرب وزمن السلام ، مارسها تجاه العدو والصديق على السواء .

وتلك كانت خلقية الإنسان المسيحي ، عبر عنها قادتهم الروحيون والزمنيون ، طيلة تاريخ طويل من العنف والإرهاب ، مارسوها نحو بعضهم البعض ، ونحو المسلم واليهودي على السواء . ولنا بعد هذه المكاشفة الموضوعية ، وهذه المقارنة الدقيقة المتجردة ، أن نسأل الحريري المزعوم هل لا يزال عند قوله :

> ما من نبي احتاج للدفاع عن نبوته وتبريرها ، كما هو الأمر مع محمد؟

قلنا إن المقارنة ، هي الجواب ، وهي الرد ، وهي الفيصل ، وللقارىء ان يتبصر ، ويتأمل ، ويدقق ، ويحكم .

الخلافة في الإسلام والبابوية في المسيحية

يفترض بنا والحديث يدور حول مسألة العنف في المسيحية ، أن لا نتغاضى عن مظاهر العنف التي لازمت مسلك بعض خلفاء الإسلام ، الذين اعتلوا سدة الخلافة بعد الخلفاء الراشدين .

وللوصول إلى تقييم عادل ، وبحث موضوعي منصف حول هذه المسألة ، لا بد لنا من أن نلقي نظرة مدققة إلى :

موضوع الخلافة في الإسلام ، ودور الخليفة فيها .

وموضوع البابوية في المسيحية ، ودور البابا ، وسلطاته ، وموقعه .

فمنذ كان الإسلام دين ودولة ، كانت الخلافة فيه سلطة دينية وزمنية بنفس الوقت . وبالنسبة للخليفة ، فهي مهمة دينية ، ووظيفة زمنية .

والخليفة ـ الموظف ، ليس إلا قيماً على تنفيذ الإسلام ، وتطبيق تعاليمه ، وشرائعه ، يختاره المسلمون بطريقة الشورى الديموقراطية ، وهي الوسيلة الشرعية الوحيدة ، التي تتم ضمن إطارها مسألة الخلافة وتفاعلاتها .

والمجتمع المسلم ، هو الشخص المعنوي الوحيد ، الذي يحق له تعيين الخليفة ، وإقالته ، ومقاضاته ، ومناقشته الحساب .

وكما أن الخليفة مسؤول أمام ربه وضميره ، فهو مسؤول أيضاً أمام الناس . وإذا كان له عليهم حقاً في طاعته ، فللناس بالمقابل حق عليه في

مراقبته ومحاسبته على كل كبيرة وصغيرة ، وعليه طاعتهم بحدود الحق والـدين ، أي إلزام نفسه بالرجوع الدائم إلى أحكام الشريعة الإسلاميـة ، والوقـوف في كل قضية وشأن عند حدود تعاليم الإسلام ، قولاً وعملاً .

وبذلك يكون الحكم في الإسلام ، حكماً ديموقراطياً ، أي حكم الجماعة لا حكم الفرد ، وهو من ميزات الإسلام العظيمة .

ومحـاسبة المسلمـون لخلفائهم في عهـد الراشـدين ، كـانت تتفـاوت بين التذكير ، والنصـح ، والإعتراض ، كمـا كان يحـدث أحيانـاً للخليفة الثـاني ابن الخـطاب ، وبين المحاسبـة الخشنة القـاسية ، كمـا حـدث في محنتي الخليفـة الثالث عثمان ، والرابع الإمام علي .

ذكر ول ديورانت حادثة جرت للخليفة الثاني عمر ، تصح أن تكون نموذجاً من نمـاذج النقد الـذاتي الرائـع ، الذي كـان يمارسـه الخلفـاء الـراشـدون على أنفسهم ، وتشددهم مع أنفسهم ومع الناس في تطبيق عدل الإسـلام وأحكامـه ، وذلك عندما انصاع هذا الخليفة إلى تظلم أحد العبيد من تصرف الخليفـة معه ، فقال :

> يحكى عن عمـر أنه ضـرب بدويـاً عن غير حق ، ثم ألـح عليه ـ دون جدوى ـ أن يكيل له البدوي من الضربات بقدر ما كاله هو له[1] .

وعن إشاحة هذا الخليفة عن مغريات الـدنيا والسلطان ، وتمسكـه الشديـد بأهداب الإسلام ، فقال :

> لم يكن لعمـر إلا قميص واحد ، وجلبـاب واحـد ، رقعـه عدة مرات ، وأنه كان يعيش على التمر وخبز الشعير ، ولا

---

(١) قصة الحضارة : ج ١٣ ص ٧٥.

يشرب غير الماء ، وأنه كان ينام على سرير من جريد النخل ، وهو لا يكاد يكون أقل صلابة من قميص الشعر .

ويقال أن أحد ولاة الفرس ، جاء إلى عمر يعرض عليه ولاءه ، فوجد فاتح الشرق نائماً على عتبة جامع المدينة[1] .

الخليفة في الإسلام ليس معصوماً ، ولا منزهاً ، ولا قديساً ، ولا يجوز له التحصن بأية حالة من حالات القداسة ، أو العصمة ، أو اعتبار نفسه فوق الشبهات ، أو فوق مستوى الإنسان العادي ، سواء في الحقوق ، أو في الواجبات .

وبهذه الوضعية فهو معرض في كل لحظة وحين ، إلى تأدية الحساب أمام الناس ، كل الناس ، عن أي خطأ قد يقترفه ، أو أي زلل قد يقع فيه .

حول هذا الأمر نقل الدكتور جورج قرم عن الشيخ محمد عبده قوله :

إن السلطان أو الخليفة ، ليس بالمعصوم ، ولا هو مهبط الوحي ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة .

وليس في الإسلام سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، والتنفير من الشر ، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين ، يقرع بها آنف أعلاهم .

كان هذا هو شأن الخلافة في الإسلام الأول ، أي في عهد الخلفاء الراشدين ، وهو النهج الإسلامي الأكثر صفاء ، والنموذج الأشد نقاء .

---

(١) تعدد الأديان وأنظمة الحكم: ص ٢٢٤ .

وفي حالة هذه الخلافة بالذات ، لا يمكن أن تكون البـابوية في المسيحية شبيهة لها ، وذلك لأن البابوية منذ أن وجدت ، كانت عبارة عن :

حكم زمني تغلفه مظاهر دينية .

وخير شبيه للبـابوية بشكل عـام ، هو حـال الخلافـة ، التي تـوالت على الإسـلام بعد عهـد الراشـدين ، والتي تحـولت من حكم ديني ، إلى حكم زمني مطلي بمظاهر دينية .

ذكر ول ديورانت هذا الأمر ، فقال :

> استحالت الجمهوريـة الدينيـة ، وهي الحكومـة التي كانت قائمة أيام الخلفاء الراشدين ، إلى ملكية دنيويـة وراثية في عهد الأمويين وما بعدهم [1].

ولكن مـا يجب ذكره والتـأكيد عليـه ، هـو أنـه رغم تحـول الخـلافـة بعـد الراشدين من جمهـورية ، ديمـوقراطيـة ، دينية ، إلى ملكيـة ، وراثية ، زمنيـة ، والخلفـاء إلى ملوك زمنيين بمظاهـر د ينية ، فـإن الخليفة في الحـالين ظـل غيـر معصوماً ولا قديساً .

وكانت قدرة الناس على معارضتـه ، ومناقشتـه حساب الخـطأ والصواب ، تتفاوت بين خليفة وآخر ، وعهد ، وعهد .

وهو أمر نجده معكوساً في البابـوية المسيحيـة ، بحيث يبدو الخـلاف بينها وبين الخلافة الإسلامية حـول موضـوع العصمة ، جـوهريـاً وعميقاً ، فـالبابـوات الذين تربعوا على عرش البابويـة ، كانـوا يتمتعون بميـزتين مهمتين ، فريـدتين ، أساسيتين ، لم يتمتع بهمـا أو بواحـدة منهما خليفـة مسلم على الإطلاق ، مهمـا كان مسلكه ، هما : العصمة والقداسة ، وتحت هذين الشعارين ، ومن أجلهمـا

---

(1) قصة الحضارة: ج ١٣ ص ٧٥.

خاضت المسيحية حروباً ، وأزهقت أرواحاً ، بين أنصار عصمة البابوات ومعارضيها .

ومعروف أن الكنيسة لإثبات هذه العصمة ، عقدت عدة مجامع مسكونية ، كان آخرها المجمع العشرون ، الذي انعقد في روما عام ١٨٦٩ ، بأمر البابا بيوس التاسع خصيصاً لإثبات عصمة البابوات ، والذي لا زال مفتوحاً لم تنته جلساته إلى الآن .

فسلاح العصمة والقداسة بيد أي بابا ، هو سلاح قوي ماض ، كان ولا يزال سبيله إلى إصدار القرارات ، وتنفيذ أي نوع من الأحكام ، ولو كانت جائرة ، ظالمة ، متعسفة ، متسلطة ، لا تمت إلى روح المسيحية بصلة .

فبواسطة عصمته هذه ، كان أي بابا قادراً على أن يخرج من أية معركة مع منتقديه منتصراً ، وكان بها يستطيع دائماً ، أن يلزم الكنيسة بتبني قراراته ، وحمل أوزار أعماله .

ومعروف أن إيمان المسيحيين في بابواتهم ، قائم على أساس أن هؤلاء هم امتداد للمسيح على الأرض ، ومن عصمته وقداسته اكتسبوا عصمتهم وقداستهم ، وبذلك بات كل خارج عليهم خارجاً على المسيح ، وكل رافض لعصمتهم رافضاً لعصمة المسيح ، وكل منتقد لهم مجدفاً على ديانة المسيح .

ومن هذا المنطلق ، أصبح على جميع المسيحيين ، أن يطيعوا بابواتهم طاعة عمياء وهم صامتون ، إذا ما أرادوا رضى المسيح وملكوته السماوي ، ومن يتجرأ ـ وكثيرون فعلوا ـ على النقد ، والإعتراض ، والمعارضة ، فمصيره يتراوح بين الحرمان الديني ، والتعذيب ، والتصفية الجسدية .

إن عصمة البابوات ، هي المصيبة الكبرى التي حلت بالمسيحية ، على امتداد تاريخها الطويل ، وهي السبيل الذي أمّن للبابوات حرية واطمئنان مطلقين ، في حال الخطأ وحال الصواب ، فكانوا يتصرفون دون خوف من سؤال ، أو رهبة من حساب .

نقول هذا ونحن لا ننكر ولا نخفي وجود مظاهر وحوادث عنف في مسلك بعض الخلفاء ـ الملوك ، وهي كثيرة وكثيرة ، ولكن ما يجب التأكيد عليه ، هو أن هؤلاء الخلفاء ، يتحملون وحدهم مسؤولية خطاياهم أمام الله وأمام الجماعة ، وخطاياهم هذه غير مبررة ولا مدعومة ، لا بعصمة ولا بقداسة .

تلك الجماعة التي كان يحدث أن تكون مجبرة أحياناً على السكوت مؤقتاً عن ظلم خليفة ـ ملك ، بفعل ظروف قاهرة ، ربما يكون العنف ، والإكراه ، والتسلط على الرقاب بعضها ، إلا أن هؤلاء الخلفاء الظالمين ، لم يكونوا يحملون من حاضرتهم الدينية ومراجع الفتوى فيها صكوك براءتهم ، ولا شهادات عصمتهم ، ولا إثبات قداستهم المنزلة إليهم بالوراثة من السماء ، كما هو حال البابوات .

في الإسلام : الخليفة الظالم ينتظره الحساب العسير من ربه في آخرته ، ومن المسلمين المؤمنين في دنياه .

ومقارعة الخليفة الظالم في الإسلام واجب ديني مقدس ، ملقى على عاتق المسلم، المسؤول عنه أمام الله .

والمسلم في هذه الحالة مجبور على الجهاد ضد الظلم ومثاب عليه ، كما أنه مسؤول عن تقاعسه ومعاقب عليه .

أما في حالة المسيحيين ، فالأمر مختلف كلياً .

فكون البابا معصوماً ، وكونه قديساً من الله ، انتفى عنه وجود الخطأ والزلل ، وصار الانتفاض عليه ظلماً واعتداء ، لا عليه فحسب ، وإنما على الإرادة السماوية أيضاً . البابا في المسيحية دائماً على حق ، دائماً بريئاً ، دائماً فوق الشبهات ، ودائماً فوق المسؤولية والحساب ، وهو شأن كل معصوم وقديس .

في حالة البابا هذه ، صار المسيحي على عكس المسلم ، مجبوراً ومثاباً على سكوته الدائم ، ومعاقباً ومسؤولاً عن أي خرق لقواعد السكوت الأبدي .

وعليه صار على المسيحيين ، لكي يتخلصوا من وطأة بابا ظالم ، أن ينتظروا قدوم مغامر طامح إلى التربع فوق الكرسي الوثيرة ، فيساعدوه ليمكنوه .

ولكن المصيبة تستمر أحياناً ذاتها ، والمعضلة تراوح مكانها .

إذ ما أن يتمكن الجديد من الجلوس مكان القديم ، حتى يلوح للناس بشهادة عصمته ، وحقوق قداسته عليهم ، لتعود المشكلة مطروحة بانتظار الحل ، وهيهات أن تجد الحل ، طالما أن العصمة وهي أساس المشكلة ، ولب المعضلة ، مستمرة ، راسخة .

إنها حقائق مرة من حقائق التاريخ المسيحي ، لا يمكن نكرانها ولا تجاهلها .

ولكي لا يتهمنا صاحب «قس ونبي» بالتجني والتجريح ، فإننا نترك الحديث حول أوضاع البابوية ومسيرتها ، في حقبة وجيزة فقط من تاريخها الطويل ، إلى البحاثة الكبير ول ديورانت ، حيث قال وتحت عنوان «البابوية في الحضيض» (٨٦٧ ـ ١٠٤٩) ما يلي :

> في عام ٨٩٧ ، أمر البابا استيفن السادس بأن تخرج جثة البابا فورموسوس FORMOSUS (٨٩١ـ٨٩٦) من قبرها ، وترتدي الملابس الأرجوانية ، وتحاكم أمام مجلس كنسي بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة ، ثم يحكم بإدانتها ، وتجرد من ثيابها الكهنوتية ، وتبتر بعض أعضائها ، وتلقى في نهر التيبر .

وقال :

> ظل كرسي البابوية عدة سنين بعد ذلك الوقت ، لا ينال إلاّ بالرشوة ، أو القتل ، أو رغبات النساء ذوات المقام السامي ، والخلق الدنيء .

وقال :

> استطاعت مروزيا ، وهي ابنة أحد الموظفين في قصر

البـابا ، أن تنجـح في اختيـار عشيقهـا سـرجيـوس الثـالث لكـرسي البابـوية (٩٠٤ـ٩١١) ، كمـا أفلحت زوجـة هـذا المـوظف ثيـودورا في تنصيب البـابـا يـوحنـا العـاشـر (٩١٤ـ٩٢٨) ، وكان عشيقاً لها[١] .

وقال :

أصبح حفيد مـروزيا هـو البابـا يوحنـا الثاني عشـر ، الذي امتازت مدة ولايتـه بضروب من التهتـك والدعـارة في قصر لاتيـران LATERAN ، واتهم هذا البـابا من قبـل مجلس كنسي ، بـأنه حصـل على رشوة نـظير تنصيب الأسـاقفة ، وأنـه عين غلامـاً في العاشـرة من عمره أسقفـاً ، وأنـه زنى بخليلة أبيـه ، وضاجـع أرملته ، وابنـة أختها ، وأنـه حـول قصر البابا إلى ماخور للدعارة[٢] .

وقال

بعد مقتل بنـدكت السادس (٩٧٣ـ٩٧٤) ، نصب بنيفـازيو فـرنكون BONIFAZIO FRANCONE نفسـه بابـا شهراً من الزمن ، ثم فرّ إلى القسـطنطينيـة ومعه كـل ما استـطاع حمله من كنوز البابوية ، ثم عـاد بعد تسـع سنين من فراره وقتل البابا يوحنـا الرابـع عشر (٩٨٣ـ٩٨٤) ، وجلس على كرسي البابوية مرة أخرى[٣] .

وقال حول الصراع الدمـوي على كرسي البـابويـة ، الذي نشب بين البـابا جريجوري الخامس ويوحنا السادس عشر عام ٩٩٧ ما يلي :

---

(١) قصة الحضارة: ج ١٤ ، ص ٣٧٨.

(٢) قصة الحضارة : ج ١٤، ص ٣٧٩.

(٣) قصة الحضارة : ج ١٤، ص ٣٨٠.

أعاد كرسنتيوس الجمهورية وخلع جريجوري ، فما كان من جريجوري إلا أن أصدر قراراً بحرمانه ، ولكن كرسنيتوس سخر منه ، وعمل على أن يختار يوحنا السادس عشر بابا ، ولكن الامبراطور آتو عاد مرة أخرى ، وخلع يوحنا ، وسمل عينيه ، وقطع لسانه ، وجدع أنفه ، وأمر أن يطاف به في شوارع رومة ، على ظهر حمار ووجهه نحو ذنبه[1] .

وقال واصفاً حال البابوية في مطلع القرن الحادي عشر :

عادت البابوية سيرتها الأولى من الضعف والانحلال بعد جربرت ، فأخذ أعيان تسكيولوم TUSCULUM والأباطرة الألمان ، يشترون مناصب الأساقفة ، ويبيعون البابوية ، وكان بندكت (١٠٣٢-١٠٤٥) الذي عين بابا في الثانية عشرة من عمره ، دنس منصبه بحياة الفحش ، إلى حد جعل الشعب يثور عليه ويخرجه من روما ، غير أنه عاد مرة أخرى بتأييد من تسكيولوم ، ولما أتعبه منصب البابوية ، باعها إلى جريجوري السادس (١٠٤٥-١٠٤٦) بألف (أو ألفي) رطل من الذهب[2] .

وتحت عنوان «إصلاح الكنيسة (١٠٤٩-١٠٥٤) قال ول ديورانت :

ثلاث مشاكل داخلية ، كان يضطرب بها قلب الكنيسة في ذلك الوقت ، وهي :

١ ـ المتاجرة بالمناصب في محيط البابوية والأسقفية .

---

(١) قصة الحضارة : ج ١٤، ص ٣٨٠.

(٢) قصة الحضارة: ج ١٤ ، ص ٣٨٢.

٢ ـ الزواج أو التسري بين رجال الدين من غير الرهبان .
٣ ـ وجود حالات متفرقة من الدعارة بين الرهبان أنفسهم[1] .

إن ما نريد الوصول إليه من حديثنا عن هذه الوقائع ، ليس فضح المستور ، ولا تكشيف المغطى المطمور من قضايا البابوية ، الحافل بمثلها سجل التاريخ .

وإنما غايتنا هي الوصول ، إلى طرح سؤال هام وأساسي يتعلق بموضوع عصمة البابوات ، وهو :

كيف يمكن أن يكون من يقترف هذه الأعمال والخطايا ، معصوماً ، منزهاً ، قديساً ؟ وما هو عسير علينا فهمه ، هو عودة الكنيسة بعد كل تلك الأعمال المشينة ، التي اقترفها أكثر من بابا على مدى التاريخ الطويل ، إلى طرح موضوع عصمة البابوات من جديد ، وعقدها من أجل هذا الأمر المجمع المسكوني العشرين عام ١٨٦٩ ، والذي لا يزال مفتوح الجلسات وعلى جدول أعماله مسألة عالقة هي :

إثبات عصمة البابوات .

نسأل : فهل من مجيب ؟!

---

(١) قصة الحضارة : ج ١٤ ، ص ٣٨٤.

الفصل السادس

١ ـ كما رسالة المسيح مكملة لا ناقضة ، فالإسلام كذلك
٢ ـ وجود الإنجيل العبراني ، ليس إلاّ وهماً زائفاً
٣ ـ الفرضية العجيبة
٤ ـ التزوير على المكشوف
٥ ـ يؤاخذ الإسلام بما لم يأت به
٦ ـ وحدة الأديان هدفنا ، والدس هدفهم
٧ ـ أين هي المسيحية في سلوكية المسيحي ووجدانه ؟
٨ ـ فشلت ، فحيدوها من حياتهم
٩ ـ المسيحي محروم في الدنيا ، ومحروم في الآخرة
١٠ ـ طلب حق أريد باطل

كما رسالة المسيح مكملة لا ناقضة فالإسلام كذلك

في سياق بحثنا المفصل حول بعض الأمور المسيحية والإسلامية ، كنا مضطرين أن نجمد متابعتنا لمناقشة محتويات الكتاب الباقية ، مما جعل القارىء يتصور أن بحثنا المذكور ، قد قطعنا عن مهمتنا الأساسية حوله .

مع العلم أن ما فصلناه في الفصلين الرابع والخامس من هذا الكتاب ، ما هو في الحقيقة إلّا لخدمة هذه المهمة ، وسعياً للوصول إليها من أقرب الطرق ، وأوضح المسالك .

وها نحن نعود إلى متابعة طريقنا الهادف إلى دفع الفرية عن الحق والحقيقة ، فنلتقي الحريري عند الصفحة ٦٢ من كتابه مزبداً ، هائجاً ، وهو يردد :

> من أين للقس أن يعلن محمد نبياً ؟ ولئن صح إعلان القس لنبوة محمد ، يكون القس مخبولاً ، ويكون النبي فيما صدق من القس صاحب جنة وغرور .

نذكره ، بأنه هو وليس أحداً سواه ، من زعم بأن ورقة قد تنطح لهذه المهمة . فقال في ص ٣١ من كتابه :

> ورقة تولى ، إعلان نبوة محمد على العرب .

ومن قرأ من المسلمين قوله ليس بغير الرثاء قابل هذيانه . ومن حقنا أن نسأله :

إذا كان ورقة مخبولاً لأنه اعترف ، أو أعلن نبوة محمد حسبما زعم ، فما ذنب محمد لكي يكون صاحب جِنّة وغرور ؟.

ومن حقنا أيضاً دفاعاً عن النبي أن نضرب له مثلاً ، علنا نكون به أكثر دقة وإنصافاً .

فلنفترض ـ لا سمح الله ألف مرة ـ أن التاريخ اكتشف يوماً حقيقة الحريري المزيف ، ورفع عن وجهه «الصبوح» القناع ، وجذبه إلى دائرة الضوء والنور ، فعرفه الناس على حقيقته : مزوراً للحقائق ، مزيفاً للوقائع ، باذراً للفتنة ، محرضاً على الفرقة والشر ، فعلى من يا ترى تكون بهذه الحالة لعنة التاريخ ؟ وبوجه من ستكون بصقة الزمن ؟ أللقارىء الضحية ؟ أم للمقنع الجاني ؟. أكمل المؤلف هذيانه ، فقال :

> في ظني أن نية القس كانت غير ذلك ، ووعي محمد كان هو الآخر في بدء أمره غير ادعاء النبوة ، والذي بدل المقاصد والنوايا هو مصحف عثمان ، وكتبة السيرة .
> وكان قصد النبي ـ يقصد ورقة ـ أن يعلن محمداً خليفته على جماعة مكة النصرانية[1] .

نقف عند قوله :

> كان قصد النبي ورقة .

لنقول : أن في ذلك إعلاناً صريحاً عن نبوة ورقة الفعلية ، يؤمن بها الرجل ويعلنها بالفم الملآن ، وهو الذي هجم علينا في الصفحة ٦٢ من كتابه ، وفي معرض مقاتلته لنبوة محمد والمؤمنين بها ، بقوله :

> إن الله وحده الذي يختار أنبياءه .

---

(١) قس ونبي : ص ٦٣.

فمن اختار ورقة بن نوفل نبياً ؟ حتى يعلن إيمانه بنبوته أهو الله ؟ وكيف ؟

في ص ٦٤ ، قال :

> بوفاة القس خشي محمد أن يتركه الله وينساه ، إذ فتر الوحي مدة من الزمن تتراوح بين سنتين وثلاث سنوات ، وعاوده بعد ذلك مع كثير من التغيير في المواقف ، والتبديل في التعاليم والشرائع ، بما يناسب شخصية محمد واستقلاله عن معلمه .

إن ما أسماه الحريري تغييراً في الوحي ، ليس إلا انتقالاً من حقل هداية اكتملت معالجته ، إلى حقل آخر بدأت معالجته ، وهذا ليس تغييراً ، لأن التغيير يعني تبديل حكم ما بآخر يلغيه ، أو ينقضه ، وهذا تناقض وتعارض يسيئان إلى الكمال الرباني ، أما الانتقال ، فهو أمر يفرضه بلوغ التشريع ، حول جانب من جوانب الحياة ، مرحلة الاكتفاء والنضوج ، فيصار للإنتقال إلى جوانب أخرى . ولو تبصرنا في القرآن ملياً ، لوجدنا أن الوحي في بدء الدعوة الإسلامية ، قد تركز على تأكيد ومعالجة ثوابت وقواعد الإيمان الأساسية ، من وحدانية الله ، ورفض الشرك ، وتكفير عبادة الأصنام ، وموضوع العقاب والثواب ، والجنة والنار ، والخير والشر ، ثم انتقل بعدها إلى جانب آخر من هداية البشر ، فعالج أموراً تتعلق بواجبات الإنسان نحو ربه ، ودينه ، ومجتمعه وأخيه الإنسان .

ثم إلى مرحلة التشريع بكافة حقوله وجوانبه ، وصولاً إلى مرحلة الحديث عن قصص الأنبياء ، وسيرة الرسل ، لتكون عبراً ومواعظ لبني الإنسان .

فهل في هذا تبديل ، وتغيير ، وتناقض ؟ أم على العكس : تسلسل ، وتناسق ، وانسجام ؟ وقوله :

> الإسلام في بدء أمره ، لم يكن دعوة إلى دين جديد ، بل كان تعاليم من التوراة والإنجيل[1] .

---

(١) قس ونبي : ص ٦٤.

المسلمون أنفسهم مؤمنون بأن الإسلام ليس دعوة جديدة إلى دين جديد بالمعنى المطلق ، فهم على يقين بأن الشريعة الإسلامية جاءت لتكمل ، وتتم ، وتختم تعاليم الرسالات السماوية التي سبقتها ، وتقوّم الاعوجاج والانحراف اللذين طرءا على شرائع موسى وعيسى . دليلنا على ذلك ما نجده من التوافق حول بعض الأمور بين القرآن ، والذي تبقى سليماً من آيات التوراة والإنجيل . .

وهل نسي الحريري أن المسيح نفسه ، رفض أن يعتبر نفسه أتى بدين جديد ، بل أعلن أنه أتى مكملاً شريعة موسى التي سماها بالناموس ؟ .

فقال :

> لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء ، ما جئت لأنقض ، بل لأكمل[1] .

فما الفرق بين كون الإسلام مكملاً متمماً للديانتين السماويتين اليهودية والمسيحية ، لا ناقضاً لهما ، وبين موقف عيسى عندما جعل تعاليمه ووصاياه مكملة ، متممة لليهودية ، لا ناقضة لها ؟ .

فلماذا الأمر مستهجن بالنسبة للإسلام ، وطبيعي بالنسبة للمسيحية ؟!

وقوله :

> لم يكن في نية محمد أن ينزل وحياً من السماء ، أو أن يدعي معرفة خزانة الله وعلم الغيب[2] .

يريد القول : أن النبي كان في بادىء الأمر صادقاً مع الحقيقة ، ومع الناس ، ومع نفسه ، فما كان في باله أن يدعي لنفسه أمراً لا علاقة له به ، ولا أن ينسب لنفسه نزول وحي سماوي عليه ، لا أساس لصحته . مقاصده واضحة .

---

(١) العهد الجديد: متى ٥/ ١٧ : ١٨ : ١٩.

(٢) قس ونبي : ص ٦٤.

ولذلك نقول : لم يدّع النبي يوماً معرفته المسبقة باحتمال نزول الوحي عليه قبل نزوله ، وكان نزوله عليه مفاجأة أذهلته في البداية واضطرب لها ، بدليل ما كان يصيبه قبيل فترة الوحي من عوارض كانت تخيفه ، لظنه أنها عوارض مرضية .

وعليه فإن محمداً ، لم يكن يعرف شيئاً عن نبوته قبل الوحي .

ثم أن النبي لم يدّع مرة معرفة خزائن الله وعلم الغيب ، بل على العكس رأيناه يحرص دائماً على نفي معرفته بعلم الغيب ، أصلاً ، وفصلًا ، باعتباره علماً ربانياً ، وشأناً إلهياً ، لا يعرفه إلا الله وحده ، وهذا ثابت في آيات عديدة في القرآن :

الآية :

﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ، إلا ما شاء الله﴾[1] .

والآية :

﴿لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن اتّبع إلاّ ما يوحى إليّ قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾[2] .

والآية :

﴿قل : ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾[3] .

كان هذا موقف النبي الصادق من موضوع علم الغيب ، بينما نرى الحريري المزعوم برعونة مبتذلة ، يسمح لنفسه أن يوزع شهادات معرفة علم

---

(١) سورة الأعراف ، الآية/ ١٨٨ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية/ ٥٠ .
(٣) سورة الأحقاف ، الآية/ ٩ .

الغيب على الرهبان والقسيسين ، بسخاء غريب .

ولقد جاء في سفر أعمال الرسل نص يعلن ويؤكد ، أن الوحي والتنبؤ لم يكونا في المسيحية مختصين بالمسيح ، ورسله ، وتلامذته فقط ، بل تعدياهم ، ليصبحا مشاعاً ميسوراً ، وأمراً ممكناً ، للوثنيين أيضاً وسائر الناس ، لمجرد أن يتعمدوا ويصبحوا مسيحيين .

نقرأ في هذا السفر :

وبينما أبلّس في قورنتس ، وصل بولس إلى أفسس بعدما جاز أعالي البلاد ، فلقي فيها بعض التلاميذ ، فقال لهم : هل نلتم الروح القدس حين آمنتم ؟ قالوا : «لا حتى أننا لم نسمع أن هناك روح قدس» .

فقال : «فأية معمودية اعتمدتم ؟» قالوا : «معمودية يوحنا» فقال بولس : «إن يوحنا عمّد معمودية التوبة ، طالباً من الشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده ، أي بيسوع» .

فلما سمعوا ذلك اعتمدوا باسم الرب يسوع ، ووضع بولس يديه عليهم ، فنزل الروح القدس عليهم ، وأخذوا يتكلمون بلغات غير لغتهم ويتنبأون ، وكان عدد الأشخاص كلهم نحو اثني عشر رجلاً(١) .

قال الحريري :

جل ما في الأمر ، أن القس يريد خليفة له على مكة النصرانية ، فكان محمد بن عبدالله يتيم قريش قساً على مكة(٢) .

---

(١) الإنجيل المقدس ـ أعمال الرسل . ف ١٩ـ ١: ٢: ٣: ٤: ٥: ٦: ٧.

(٢) قس ونبي : ص ٦٥.

طارت هذه المرة نبوة محمد بالكامل .

نقول : ما دام الأمر كذلك ، ما دام لا نبوة لمحمد ولا من يحزنون ، وجل ما في الأمر أن ورقة بن نوفل احتاج لمن يعينه خليفة له قساً على مكة ، فكان محمد يتيم قريش .

نسأل : كيف طار الوحي الإلهي ، الذي عاود النزول على محمد بعد انقطاع ؟ ثم كيف نسي قوله في ص ٥٥ من كتابه :

> تكاثرت الشهادات على نبوة محمد من الأرض ، والسماء ، وخديجة ، والقس ؟ .

وكيف لحس قوله في ص ٦١ :

> والنبي استسلم لإرادة الله ، والله إذا أراد اختيار أنبيائه ، هيأ لهم الظروف المناسبة لنجاح مهماتهم الصعبة ؟ .

وجود الإنجيل العبراني ليس إلا وهماً زائفاً

لاقانا الحريري عند الصفحة ٦٩ وهو يطرح الأسئلة التالية :

قال :

ما هو الإنجيل بالعبرانية ؟ ما هي تعاليمه ؟ هل وجد فعلاً في التاريخ ؟ من يحدثنا عنه غير القس ؟

وأضاف محاولاً الإجابة على تساؤلاته قائلاً :

الجواب على هذه الأسئلة عند آباء الكنيسة ومؤرخيها ، فهم خير شاهد على تراث الكنيسة وكتبها المقدسة ، وبالفعل نرى عندهم الكثير من الإشارات على ما يسمى في تاريخ الكنيسة بالإنجيل ، بحسب العبرانيين ، وعلينا أن نعرضها ونقابل بين إنجيل ورقة وبين تعاليمها ، وإذا صحت المقابلة نكون قد اكتشفنا قصة اللوح المحفوظ ، الذي نزل القرآن منه .

نسأله أولاً : أين هو إنجيل ورقة ، حتى يقارن بينه وبين التعاليم ؟

ثم كيف يتسنى له أن يقابل بين إنجيل مفقود ، جل ما وجد منه مجرد إشارات ، ادعى أنها قد تدل عليه ليس إلا ، وبين كتب الكنيسة المقدسة الزاخرة «بالإشارات المقدسة» ؟ .

لنترك هذا الأمر جانباً ونعود إلى أسئلته ، التي قال أن الإجابة عليها تجعله

يكتشف قصة اللوح المحفوظ ، الذي نزل القرآن منه . . وهو الأمر الذي بات يشغل بالنا . .

فإذا كان موضوع الإنجيل لا يهمنا بشيء ، لأننا نربأ بأنفسنا ملاحقة إشاعة ، إلا أننا من بين التواقين لمعرفة سر اللوح المحفوظ .

قال :

ما هو الإنجيل بحسب العبرانيين ؟ هل وجد فعلاً في التاريخ ؟.

إننا وقياساً على ما سمعناه منه ، وهو يتحدث عبر صفحات كتابه عن هذا الإنجيل ، وحرارة الخشوع والإيمان تنبعث من « حلقه » وكلماته كلما ذكره ، جعلنا نعتقد أنه إنما يقرأ من نصوصه ، ويغرف من معينه ، ويقلب صفحاته بين يديه .

فعجباً وهو مكتشفه يسأل :

هل وجد حقاً في التاريخ ؟

حسناً لنسر وإياه إلى اللوح المحفوظ :

فالمؤلف يريد أولاً ، أن يثبت وجود إنجيله المغيب كحقيقة تاريخية عبر إشاراته المكتشفة وبعدها يجري بنا إلى اللوح المحفوظ .

قال أن :

١ ـ أوسابيوس قال :

عن نقل أشياء من إنجيل عبراني ، كونه إنجيل متى .

٢ ـ أوسابيوس قال :

الإنجيل العبراني ، هو الأهم بنظر العبرانيين .

٣ ـ أوسابيوس قال :

الأبيونيون ، استعملوا فقط الإنجيل العبراني .

٤ ـ أوسابيوس قال :

المسيح ذكر شقاقاً في نفوس العائلات ، كما جاء بالإنجيل العبراني

٥ ـ أوسابيوس قال :

الأبيونيين يحفظون السبت ، والعادات اليهودية ، وشريعة موسى .

٦ ـ أوسابيوس قال :

من يقبل الإنجيل العبراني ، يجد الآية أن أمي الروح القدس خطفني بشعرة من رأسي

٧ ـ كليمنضوس قال

في هذا الإنجيل قول للمسيح : من يعجب يملك ومن يملك يستريح .

٨ ـ أبيفان قال :

الإنجيل بحسب العبرانيين ناقص ، محرف .

٩ ـ أوريانوس قال :

حاملوا الإنجيل العبراني ، لا يعتقدون الإعتقاد الصحيح بالرب

١٠ ـ جيروم قال :

يعقوب حلف أنه لا يأكل خبزاً ، من الساعة التي شرب فيها كأس الرب[١] .

هذه هي الإشارات ـ المنائر التي قال : بأنه لو قابل بينها وبين إنجيل ورقة (؟) وكتب الكنيسة (؟) «المقدسة» لاكتشف قصة اللوح المحفوظ ، الذي نزل منه القرآن .

---

(١) قس ونبي : ص ٦٩ .

هذه إشاراته موسعة ومختصرة ، فليقارنها بما يشاء ، بالموجود والمفقود ، بالجديد والقديم عند الكنيسة ، وليقل لنا ما هي العلاقة التي وجدها بينها وبين القرآن واللوح المحفوظ ؟ الذي تحدث عنه بسخرية وهزء ، بدت بهما سماجته طاغية على غروره وادعائه الفارغين .

ثم نسأله : أين أصبح إنجيل ورقة ؟ وماذا وجد منه ؟

الثابت أن الإشارات في «الكتب المقدسة» لم تؤمن له من هذا الإنجيل سوى الغلاف . . والباقي لا يزال مفقوداً .

فهل يعتقد صاحبنا أن القارىء بهذا الغباء ، ليصدق أن هذه النتف الهزيلة ، التي بالكاد دبرها من بطون كتب وهمية ، هي أساس القرآن ومنبع تعاليمه ؟ .

الفرضية العجيبة

في الصفحة ٧١ من كتابه ، نرى الحريري يتأوه ويتحسر قائلاً :

> والجدير بالذكر أنه لم يبق من نصوص هذا الإنجيل إلا الشيء القليل ، في بعض كتابات الآباء والمؤرخين .

وفي الصفحة ٧٢ أضاف أنيناً أكثر مرارة ، عندما قال :

> وفي جميع الأحوال أنه ـ أي الإنجيل العبراني ـ تحريف واضح لإنجيل متى الآرامي .

وفي الصفحة ٧٣ نراه يزداد تظلماً وحسرة ، يلعن نفسه وأمثاله ، معتبراً أنهم لا يستحقون رحمة التاريخ . ولكن لماذا هذه القسوة على النفس يا ترى ؟؟! فلنسمعه يشرح الأمر قائلاً :

> بقي علينا أن نعرف شيئاً عن الترجمة العربية نفسها ، لكن هذا منوطاً حقاً برحمة التاريخ ، ولولا نستحق هذه الرحمة ، لاكتشف المنقبون في آثار مكة ، وتحت رمالها الظالمة تلك الترجمة الثمينة .

وقبل أن ننسى ، نسأله : وهل في آثار مكة وتحت رمالها الظالمة ، كان «جماعته» يدفنون أناجيلهم ؟ ولماذا ؟ . نكمل معه وهو يشرح مأساته قائلاً :

> إلا أن الظلم أودى بالترجمة وبصاحبها إلى الأبد .

نقاطعه أيضاً لنسأل : ماذا عنى بالظلم ، ومن هو المظلوم ، ومن هم الظالمون ؟

ثم أضاف :

وبقي عندنا حسرة على كليهما إلى الأبد . . .

ومع هذا يفيدنا النظر فيما تبقى من أيام القس من أثر ، وقد يكون القرآن العربي هو هذا الأثر ، فلننظر إليه مجدين ، واضعين نصب أعيننا ما تبقى من نصوص الإنجيل العبراني ، وما وصل إلينا من عقيدة الأبيونيين .

وهكذا وصل صاحبنا إلى غايته الحقيقية من كل فتله ودورانه ، إنما بطريقة رخيصة هزيلة ، تبعث على السخرية والرثاء ، مفادها أنه : طالما لم يستطع أن يكتشف رغم جهوده المضنية من هذا الإنجيل إلا «إشارات» .

وطالما أنه لم يستطع أن يكتشف الترجمة العربية للإنجيل الضائع المزعوم ، بانتظار رحمة التاريخ لاستخراجها من آثار مكة ورمالها الظالمة ، حيث كان أجداده قد أودعوها .

وطالما أنه بحاجة إلى أية بدعة أو هرطقة ، ليربط القرآن بها .

فلقد توصل إلى الإعلان عن فرضية عجيبة مستهجنة ، على أساسها رأى أن يتسلط على القرآن ، ويدب سخطته وفجوره عليه ، فيدعي أنه هو الأثر الباقي من إنجيل ورقة البائد .

وعلى من يعترض ، أو لا يصدق ، أو يريد إطلاق القرآن من قفص هذه التهمة ، أن يثبت العكس ، أي أن عليه أن يفتش ويفتش ، ليجد الإنجيل المفقود ، ولو في بطون رمال مكة الظالمة ، وإلا فسيبقى القرآن حبيس التهمة . تماماً كمن يدعي حقاً موهوماً بذمة آخر ، ثم يقيم شاهده ميتاً ، وعلى الآخر إما الإعتراف بالحق الموهوم وإما العودة بالميت حياً ، ليشهد بالحقيقة وينقذه من الفجور .

التزوير على المكشوف

في ص ٧٤ من كتابه ، مستعيناً بتحريف لتفسير الآية :

﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان . . . وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[1] .

قال :

لم يكن محمد يدري ما الكتاب وما الإيمان ، لولا وجود من يهديه إليهما ، ليكون على الطريق القويم .

وباعتقاده أن من كان يهدي محمداً إلى الطريق القويم ، ليس الله ، وإنما ورقة بن نوفل . نقول كمسلمين : بأننا من وحي الآية ذاتها ، نؤمن بأن محمداً فعلاً ما كان يدري قبل الوحي والنبوة ما الكتاب ، وإن كان بحسبه الداخلي وتكوينه الذهني ، وبمسلكه الاجتماعي والخلقي ، كان يعيش الإيمان والهداية .

ولا بد من أن نورد تفسير الآية حسبما أورده سيد قطب ، فقال .

وهكذا يصور الله نفس رسول الله وهو أعلم بها ، قبل أن تتلقى هذا الوحي ، وقد سمع رسول الله عن الكتاب وعن الإيمان ، وكان معروفاً في الجزيرة العربية ، أن هناك أهل

---

(١) سورة الشورى، الآية/ ٥٢.

كتاب وأن لهم عقيدة ، فليس هذا هو المقصود ، إنما المقصود ، هو اشتمال القلب على هذه الحقيقة ، والشعور بها ، والتأثر بوجودها في الضمير ، وهذا ما لم يكن قبل هذا الروح من أمر الله ، الذي لابس قلب محمد[1] .

ثم أورد الحريري آية أخرى هي :

﴿فسئل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾ .

قائلاً :

يوم يشك محمد بما يعلم ، ما عليه إلاّ أن يسأل من عنده علم الكتاب .

هذه الآية نجد أكثر الكارهين للإسلام يوردونها ، في معرض هجومهم على الإسلام ، مستعملين كل أساليب الدس والتشكيك في تفسيرها ، معتبرين أنها كوة يمكن تسريب رياح الشك بالإسلام من خلالها :

رد سيد قطب والطبرسي على هذا الافتراء، ففسرا الآية بما يأتي :

الرسول لم يكن في شك مما أنزل الله إليه ، لكن هذا التوجيه كان وراءه من شدة الموقف وتأزمه بعد حادث الإسراء ، وقد ارتد بعض من أسلموا لعدم تصديقه ، واشتداد الأذى على رسول الله ومن معه ، وبعد تجمد الدعوة في مكة تقريباً ، بسبب موقف قريش العنيد ، كل هذه ملابسات تلقي ظلالها على قلب الرسول ، فيسري عنه ربه بهذا التأكيد ، والرسول مأذوناً أن يسأل إن كان يشك ، ثم هو لا يسأل ولا يشك ، فهو إذن على يقين مما جاء به أنه الحق (٢) .

---

(١) في ظلال القرآن : ج ٢ ص ٣٠٨.

(٢) سورة يونس : الآية : ٩٤ .

(٣) المصدر نفسه : ج ٢ ص ٥٢٠.

نقرأ في ص ٧٦ من «قس ونبي» ما يلي :

لئن تصرف القرآن العربي بتفصيل آيات الكتاب الأعجمي ، بحسب مقتضى الظروف والأحوال . . إلا أنه يبقى مصدقاً للكتاب الأصل ، نستنتج : أن التوراة والإنجيل أو بعضاً منها ، كان بين يدي محمد يفصلها بالحق ، ويتصرف بها لتيسير الذكر ، وينقلها بالصدق .

نلاحظ هنا أن النقل والتصريف من التوراة والإنجيل إلى القرآن ، هو من عمل محمد ، فيما كان قبلها من عمل القس ورقة ، ومتى تذكرنا أن الإنجيل والتوراة ، وصلا إلى الناس باللغتين السريانية والعبرية ، وأن النبي باعتراف الحريري نفسه ، لم يكن يعرف أية لغة أجنبية ، لأخذتنا الدهشة والحيرة من هذا التناقض ، وهذا الهرج الرخيص .

ولإثبات «اكتشافاته» و«استنتاجاته» لجأ إلى ذات الأسلوب ونفس الطريقة ، آيات من القرآن يجتزؤها ويحرف تفسيرها ، فاقتطع من آية :

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾[1] .

نصفها ، بينما الآية بحسب نزولها على النبي هي :

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب ، كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾[2] .

ومعروف أن هذه الآية نزلت في باب التهمة ، والتقريع ، والاستنكار ، وليس في منزلة الثناء والإعجاب .

---

(١) سورة البقرة، الآية/ ٨٩ و١٠١.
(٢) سورة البقرة، الآية/ ١٠١.

قال في تفسيرها سيد قطب :

> هذا مظهر من مظاهر نقض فريق لكل عهد يعاهدونه ، فلقد كان ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم ، أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه .
>
> فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدقاً لما معهم ، خاسوا بذلك العهد ، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، يستوي في هذا النبذ كتاب الله الذي معهم والذي يتضمن البشرى بهذا النبي ، وقد نبذوه ، والكتاب الجديد مع النبي الجديد ، وقد نبذوه أيضاً[1].

ثم بنفس الأسلوب نراه يستعين بآية أخرى من القرآن مجتزءاً بعضها أيضاً ، وهي :

﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ .

بينما الآية كاملة هي :

﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون﴾[2].

هذه الآية في الحقيقة ، تنقل كلام عيسى لبني إسرائيل في حواره معهم ، ولا تقصد النبي محمد أو رسالته مباشرة بشيء ، قال في تفسيرها الطبرسي وسيد قطب أنها :

> تكشف عن طبيعة المسيحية الحقة ، فالتوراة التي تنزلت على موسى ، إنما هي معتمدة في رسالة المسيح ، وجاءت رسالته مصدقة لها ، مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم[3] .

---

(١) في ظلال القرآن ؛ ج ١ ص ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية/ ٥٠.

(٣) في ظلال القرآن: ج ١ ص ٥٩٠.

ويكفي أن نقارن بين التفسيرين لـلآيات ، ونتـأمل طـريقة صـاحب اللقيط بإيراد الآيات مجتزأة مشوهة ، لنتبين المستوى الرخيص المكشـوف ، الذي نـزل إليه هذا الرجل في تلفيقه ، وافترائه على الإسلام .

«حقيقة» جديدة طالعنا بها في ص ٨٠ من كتابه ، فقال :

الحقيقة تقضي أن نقول : أن محمد لم يعرف لغة أجنبية ، وأظن أن المـذهـولين يقبلون ذلـك دون صعـوبـة ، لأنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك ، أي إلى جهـل محمد بـالقرآن نفسه .

نقاطعه لنسأل : أليس الذين نعتهم بـالمذهـولين ، وهـم العارفـون لربهـم ، المـوحدون لـه ، العابـدون إياه ، بـأفضل حـالاً ، وأهدأ ضميـراً وبالاً ، ممن لا يـزالون منـذ عشرين قـرناً يتـذابحون على طبيعـة ربهم ، بعدمـا جـزأوه وجمعـوه وصلبوه ثم من بين الأموات أقاموه ؟ .

يكمل :

فإذا كان محمـد يجهل ذلـك ، فليس هو إذن الـذي فصّل الكتـاب العبـراني ، وليس هـو من بيّن آيـاتـه ، وليس هـو الذي يسره بلسان عربي مبين .

أرأيتم هذه العبقرية ؟ بها أحرجنا فكاد يخرجنـا ، نقاطعـه لنسأل : مَنْ من «المذهولين» آمن بـوجود عـلاقة بين القـرآن وما سمـاه : «بالإنجيـل العبراني» . حتى يعـاتبهم ، وكـأن ليس من خـلاف معهم حـول هـذا الإنجيـل إلا على دور محمد فيه ؟! .

يؤاخذ الإسلام بما لم يأت به

قبل أن نودع هذا الفصل ، لا بد من إلقاء نظرة على لائحة الأسماء والنعوت ، التي أطلقها الحريري المزعوم على القرآن بقصد الإساءة إليه ، بدأت التسميات بـ :

مصحف عثمان

القرآن العربي

القراءة العربية للكتاب العبراني

القراءة المفصلة للكتاب الأعجمي

القراءة المصدقة للكتاب العبراني

وأخيراً : القراءة الميسرة للكتاب العبراني .

والحبل على القارب .

في ص ٨١ يعود الحريري إلى تساؤله المرير ، وحيرته ، ولهفته ، لتنسم أخبار إنجيله المفقود ، فيقول :

أين هو الكتاب السابق ، الذي إعتمد عليه القس والنبي ؟
ما هو ، وما هي تعاليمه ؟ أهو التوراة والإنجيل معاً ؟.

عجباً !! أما رأيناه بعد عجزه عن الجواب ، وعجز القارىء عن مساعدته ، يسلم أمره لله ، فيطوي صفحة أحزانه على ضائعه ، بانتظار أن يرحمه التاريخ وأمثاله «الجواني» ، ويسحب ضائعهم من تحت رمال مكة الظالمة ؟.

فما باله عاد متفجعاً متسائلاً ؟ .

نسجل عجبنا . . وإن كنا نعرف أن للمحزون عذراً إذا هذى .

في ص ٨١ قال :

ولكننا نجد في القرآن العربي ما لا نجده في الإنجيل العبراني ، فما الحجة إذن ؟

والغريب في أمر هذا الرجل ، ليس في كونه لم يفصل التعارض المزعوم ، الذي وجده بين القرآن وإنجيله المغيّب فحسب ، وإنما لأنه يقوم بمقارنة وهمية ، ناقصة ، مستهجنة ، بين كتابين :

أحدهما لا زال في عالم الضياع ، والتكهن ، والتخمين ، لا يملك من نصوصه سوى الاسم والغلاف .

وفي ص ٨٢ يطالعنا عنوان جديد هو :

استمرار الوحي والتنزيل .

قال :

لقد كان محمد ـ وعلامة استفهام (؟) لصقها بجانب اسم محمد للتشكيك ـ يعي استمرارية الوحي وعياً كاملاً ، فهو لم يأت بوحي جديد من لا شيء ، لقد كان الوحي عليه هو ذاته الوحي على الأنبياء السابقين ، ولكن إذا كان الوحي على محمد كالوحي على النبيين السابقين ، فإن الوحي المحمدي تابع لا محالة إلى الوحي السابق ، كما أن كتاب محمد هو من كتاب سابق كان قبله .

ما قاله هنا في الحقيقة ليس جديداً ، وإنما تكراراً لما ردده .

ولكن جديده فيه ، هو اعترافه بالوحي الذي نزل على النبيين السابقين ، أما بالنسبة للوحي على محمد ، فالموضوع مختلف ، فهو بنظره عبارة عن نقل

لوحي سابق من كتاب سابق .

مختصر قوله : أن وحي الأنبياء صحيح ، بينما وحي محمد فمنقول عن وحيهم ، ولا يجوز اعتباره وحياً سماوياً مباشراً من الله لمحمد ، كتب الأنبياء منزلة مصدقة ، أما كتاب محمد فمنقول عن كتبهم ليس إلّا .

اكتشاف جديد يزفه المقنع للبشرية ، قال عنه :

> محمد من جهة لا يعلم الغيب ، ومن جهة ثانية يوحى إليه من الغيب ، وهذا التناقض الظاهر هو دليل على أن الغيب السابق هو المصدر الثابت لغيب محمد (١) .

يلاحظ أن عيار التفلسف الأجوف في هذا الاكتشاف جاء ثقيلاً .

يريد القول : أن محمداً طالما لا يعرف الغيب وطالما أن الله أنزل إليه تعاليم وشرائع هي بحد ذاتها من الغيب كما يراها الحريري ، فذلك يعني أن الله أنزل إليه غيباً وهذا تناقض لا يجوز حدوثه ولا الإعتقاد به .

ولما كان الحريري شغوفاً بالله ومتيماً بحب محمد ، فلقد أبت عليه شهامته أن يتركهما يقعان في مثل هذا التناقض ويستمران فيه ، دون أن يتدخل ، مما جعله يسارع إنقاذاً للموقف بتحليل عجيب غريب ، اعتبره مخرجاً يليق بكمال الله وكرامة محمد ، مفاده القول : بأن إمكانية الوحي من الله إلى محمد مستحيلة ، وإلا أوقعنا الله في محظور التناقض ، وما يصح قوله والإيمان به ـ بنظره ـ كمخرج من المأزق ، هو أن محمداً نقل وحي الآخرين وعزاه إلى نفسه .

ولكننا نسأله : لماذا حصر حديثه بالغيب وليس بالوحي ؟

فالمفروض وهو يتحدث عن وحدة الوحي ، أن يحدثنا عن الوحي وليس

---

(١) قس ونبي : ص ٨٣.

عن الغيب . وهو يعرف أن الوحي والغيب أمران مختلفان كلياً ، فالوحي هو تبليغ تعاليم الله لنبي من أنبيائه بواسطة رسول من عنده هو جبريل ، لتكون سبيلاً لهداية الإنسانية وخيرها .

أما الغيب فهو المعرفة المسبقة بأمور المستقبل ، وبمجريات وأحداث القادم من الأزمان قبل حدوثها ، وهذا علم رباني ، وشأن من اختصاص العزة الإلهية وحدها ، حرص النبي على نفيه عن نفسه في أحاديثه ، وفي العديد من آيات القرآن ، أوردناها في مكان سابق من هذا الكتاب .

وما من مسلم آمن بأن نبيه كان يعلم الغيب ، أو أن ما أنزله الله عليه كان غيباً .

وللكارهين للإسلام ، أن يناقشوا المسلمين بالذي يؤمنون به ، وليس بما لا يؤمنون . ثم لماذا اعتبر الحريري ، أن مجرد نفي النبي عن نفسه معرفة علم الغيب ، هو بمثابة ترخيص له لنفي نزول الوحي عليه أيضاً ؟

فهو بهذه الحالة يضعنا أمام فرضيتين :

فإما أن نؤمن معه ، بأن محمداً قد نقل رسالته من كتب الآخرين من الأنبياء ، إنقاذاً لله من محظور التناقض المزعوم ، وهذا ما يثلج قلب المؤلف ويبعث الرضى في نفسه .

وإما أن نؤمن بصدق نبوة محمد ، وبحقيقة نزول الوحي الإلهي عليه بواسطة جبريل ، رغم تحذيره الملح لنا ، بأن ذلك من شأنه أن يوقع القدرة الإلهية في محظور التناقض .

وإن كنا في الحقيقة لا نجد لمثل هذا التناقض الموهوم سبباً مفهوماً ، إلاّ في مخيلة المؤلف

وحدة الأديان هدفنا والدس هدفهم

في معرض حديثه الديماغوجي ، المرتبك المشوش ، عن وحدة بين الأديان طرحها بشكل صبياني ، وحدة لا نصيب لها بأي حظ من النجاح ، بالشكل الذي طرحه بها ، لأنها في الحقيقة تصلح أن تكون أساس فرقة وتصادم ، لا نواة وحدة ووفاق .

بدأ حديثه عنها ، بوحدة الوحي ووحدة التنزيل ، فقال :

> القرآن ، وهو يعرف أهله النصارى ، حاكاهم ، وهو يعتبرهم أعلم الناس بحاله ، وأدركهم بوضعه ، ولذلك فلقد اتجه إليهم وهم على علم بما فيه[1] .

إلا أنه لم يوضح طبيعة هذه الحركة من القرآن نحو «أهله» النصارى .

ولكننا رأيناه يهجم على القارىء ببعض الآيات القرآنية ، ليثبت بها حقوق النصارى ، «أهل القرآن» في «قرآنهم» .

الآية :

> **﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾[2] .**

---

(١) قس ونبي : ص ٨٤.

(٢) سورة الأنعام ، الآية/ ١١٤ .

ثم الآية :

﴿والراسخون في العلم﴾[1] .

ونراه إلى جانب الآية الأخيرة يدحش كلمة «النصارى»للتدليل بأنهم من عناهم القرآن بالراسخين بالعلم دون سواهم ، ويضيف كلمة «والمؤمنون»من الآية ، ثم يدحش إلى جانبها كلمة «العرب»للتدليل بأن هؤلاء يمكن أن يكونوا مؤمنين بقلوبهم وعواطفهم العمياء ، لأن الإيمان يمكن حصوله بدون العلم والمعرفة ، وبدون الفهم العقلي ، وهو حال العرب كما يريد القول .

ومن وحدة الوحي والتنزيل ، ينقلنا الحريري إلى «وحدة الكتاب» .

والمؤسف أننا رغم كل «الوحدات» التي جرجرنا إليها ، لم نستطع رغم حسن استعدادنا أن نتوحد معه ، ولو في واحدة ، ولسنا المسؤولين عن هذا الفشل ، لأن الوحدة مع كل الأتقياء الشرفاء من أهل الكتاب ، بالنسبة للإسلام والمسلمين مطلباً وهدفاً ، بينما نراها بالنسبة له ولأمثاله شعاراً يمارسون من خلاله الدس والفرقة .

لم يتوقف بنا قطار الحريري عند محطتي «وحدة الكتاب» و «وحدة الشريعة» ،لأنه كما يبدو لم يجد الكثير ليقوله عنهما ، سوى ترديد قديمه الفارغ ، فأكمل باتجاه محطة «وحدة المؤمنين» .

وفيما نحن نتصور ، أن سير قطارنا نحو كل وحدات المؤلف ، سيظل إلى النهاية هادئاً مقبولاً ، إذ بالعربة تهتز وتقف عند مطب واجهته عند . . «وحدة المؤمنين» .

وذلك عندما قال :

بيد أن فرقاً بين سنة محمد وسنة من سبقه ، يقوم هذا

---

(١) سورة آل عمران، الآية/ ٧.

الفرق على خفة الشريعة المحمدية ، وقد أرادها الله كذلك لضعف الإنسان ووهنه[1] .

نقف قليلاً عند كلمة «وأرادها الله» لنسأل : ألا يعني ذلك اعترافاً بأن هذه الشريعة كانت بفعل إرادة الله ، الذي أوجد لها خصوصية معينة ، ولو كانت : خفة ؟. حسبما زعم المؤلف ، أم أنها زلة لسان ؟ وما أكثر زلات لسانه !!

ونسأل : ماذا يقصد «بخفة» الشريعة المحمدية ، التي ميزتها عما سبقها من الشرائع ؟ لم يوضح هذا الأمر رغم أهميته ، وما علينا إلا أن نستنتجه بأنفسنا .

قطعاً لم يقصد أنها بسيطة خالية من التعقيد ، يستطيع أي إنسان أن يستوعب تعاليمها ، ويفهمها ، ويتأقلم بمناخها الفكري ، رغم شمولية نظرتها ، وعمق إدراكها ، نحو قضايا الإنسان ، والكون ، والحياة . لنستبعد هذا التفسير ، لأنه بحدود معينة إطراء للإسلام ، وتيسير حسنة له .

لم يعودنا الحريري على مثلهما ، ولا يجوز لنا انتظارهما منه .

فما قصده بخفة الشريعة في الحقيقة ، هو خلوها من عمق الفكر ، والفلسفة ، والشمولية ، وبعدها عن الإلمام الدقيق بقضايا الإنسان ، والحياة ، والكون ، المعقدة ، الشائكة .

من هذه الوجهة ، اعتبر أن الشريعة الإسلامية أتت ، لتكون متناسبة ومحدودية فكر الإنسان العربي ، وعقله العاجز ، وذهنيته الخاملة المعطلة .

هذا الإنسان الذي كانت الشريعة من أجله ومن أجله فقط . .

والحريري هنا يعتبر ، أن هذه الشريعة التي أتت لتكون مناسبة لظروف

---

(١) قس ونبي : ص ٨٥ـ ٨٦.

وخصائص المجتمع العربي ، وعلى مقاس ذهنيته ومشاكله ، ليست بالضرورة أن تكون مناسبة لظروف وخصائص المجتمعات الأخرى ، وهذا ما يفقد الإسلام طابعه الإنساني وشموليته الإنسانية .

ولكن بماذا استدل الرجل على الخفة المزعومة في الشريعة المحمدية ؟! .

ليس خارج القرآن برهانه بالطبع ، وتحديداً الآيات التالية :

الآية :

﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾[1] .

والآية :

﴿ويريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[2] .

والآية :

﴿ويريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾[3] .

إذاً من هذه الآيات اكتشف صاحبنا بالشريعة الإسلامية خفتها .

أما ماذا وجد فيها ليكون أساساً لاستنتاجه فأمر غير واضح فعلاً .

ولكن يبدو أنه وجد في الآية الأولى كلمة : خفف .

وفي الآيتين الباقيتين كلمة : ضعيفاً ،فكان ذلك كافياً ليعتبر أن في الشريعة خفة ، وفي الإنسان العربي ضعفاً .

وقبل أن نرد على هذا الزعم ، لا بد لنا من الاستئناس برأي أهل الاختصاص في تفسير القرآن ، حول مقاصد هذه الآيات . . فيتبين لنا أمراً عجباً ، إذ نجده أورد بعض كلمات من الآيات ، وأغفل الباقي .

---

(١) سورة الأنفال، الآية/ ٦٦.

(٢) سورة البقرة ، الآية/ ١٨٥.

(٣) سورة النساء ، الآية/ ٢٨.

فالآية الأولى كاملة هي :

﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ .

وهي واضحة لا تقبل نقاشاً ولا تأويلاً ، نزلت إثر شعور بعض المسلمين بالوهن والضعف أمام أعدائهم الكثر ، مما جعل بعضهم يفرّ من المعركة ، فنزلت الآية تحضهم على قتال الكفار ، وتستنهض هممهم ، وتطمئنهم ، بأن الإنسان المؤمن يستطيع بصبره وإيمانه ، أن يكون أقوى من عدوه بأضعاف كثيرة ، طالما كان سلاحه الصبر والإيمان ونصرة الله .

ولنسمع الطبرسي وسيد قطب يفسراها ، فيقولا :

إن هذه الآية تتضمن أمر الذين آمنوا ألاّ يفر الواحد منهم من عشرة في حالة القوة ، ولا يفر من اثنين بحالة الضعف ، والراجح أن الآيات ، إنما تتضمن حقيقة قوة المؤمنين في مواجهة عدوهم في ميزان الله ، وهو الحق ، إنها تعريف للمؤمنين بهذه الحقيقة ، لتطمئن قلوبهم ، وتثبت أقدامهم ، وليست أحكاماً شرعية[1] .

أما الآية الثانية : **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾** .

أورد الحريري أيضاً من هذه الآية مقطعاً وأهمل الباقي ، ومتى قرأنا الآية كاملة يتبين لنا الفارق الشاسع بين التفسير الحقيقي وتزوير المقنع لتفسيرها ، فالآية كاملة هي :

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات

---

(١) في ظلال القرآن : ج ٤ ص ٥٩ .

من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر . يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ .

وكما هو واضح ، فالآية تعالج موضوع الصائم وجواز إفطاره ، أو عدمه ، واجتزاء مقطع منها لا يغير من الحقيقة بشيء ، ولا ندري كيف استطاع أن يستنبط من آية نزلت بحالة معينة ، الخفة المزعومة في الشريعة ؟! .

أما الآية الثالثة :

﴿ويريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ .

شرحها الطبرسي وسيد قطب ، فقالا :

اللمسة الأخيرة في التشريع تتولى بيان رحمة الله بضعف الإنسان ، فيما يشرعه له من منهج وأحكام ، والتخفيف عنه عمن يعلم ضعفه ، ومراعاة اليسر فيما يشرع له ، ونفي الحرج ، والمشقة ، والضرر ، والضرار[1] .

فإرادة التخفيف تبدو كذلك واضحة ، بمراعاة فطرة الإنسان وطاقته ، وحاجاته الحقيقية ، وإطلاق كل طاقاته البانية ، ووضع السياج الذي يقيها التبدد وسوء الاستعمال .

هذه هي الآيات واضحة كاملة ، فليقرأها المؤلف من جديد ، وليسأل فيها

---

(١) في ظلال القرآن : ج ٢ ص ٣٢٣.

من هم وراءه ووراء لقيطه ، وليقل أين وجد «الخفة» في الشـريعة الإسـلامية من خلالها ؟ .

على كل ، لن نكتفي بما أوردنـاه من رد على مزاعمـه ، بل نـرى أن نترك دائرة البحث والتدقيق تتوسع ، لتصبح مقارنة تطال جـوانب الشريعتين الإسـلامية والمسيحية .

علنا بذلك نستكشف الحقائق دون مسايرة ، ولا ملاينة .

لنتبين أيتهمـا كانت حـلاً لمشاكـل الإنسانيـة ، ونبـراسـاً يضيء دروبهـا ، وأيتهما فشلت في المهمة ، وتعثرت في المسيرة ، وسقطت في الامتحان .

أين هي المسيحية في سلوكية المسيحي ووجدانه

كان يمكن للحريري المزعوم أن يسدي لنا وللحقيقة خدمة ، لو أنه حدّد في لقيطه مواضع «الخفة» التي يراها في الشريعة الإسلامية ، لكان بإمكاننا أن نحدد في مناقشته حولها ، إطاراً محدداً للبحث والنقاش .

أما أن يعمم الرجل التهمة ، لتشمل كل جوانب الشريعة ، فذلك أمر يفرض علينا مهمة تكاد تكون مستحيلة ، هي أن نتحرى بأنفسنا ، النقاط التي يمكن أن يكون جنابه قد قصدها ، أو عناها ، أو رأى من خلالها الخفة المزعومة في الشريعة الإسلامية .

وعلى هذا صار يفترض بنا أن نتصور ، أن تكون رؤيته للخفة في الشريعة الإسلامية ، مستمدة مما يراه بين يديه من الشرائع والتعاليم المسيحية ، التي يرى بها ميزة العمق والشمولية ، الفكرية ، والفلسفية ، والحضارية ، بشيء جعله يكتشف الخفة في الإسلام ، كلما قارن بينهما .

وعليه فإننا نرى ضرورة طرح الموضوع على بساط البحث والتمحيص ، والمقارنة بروح من التجرد والموضوعية ، لعلنا بذلك ندفع عن ديننا التهمة والتجني ، ولا نخرج بنفس الوقت عن جادة الحق والإنصاف . بديهي أن يكون مقياس الخطأ والصواب في أية شرائع أو تعاليم ، دينية كانت أم وضعية ، هو في مدى نجاحها أو فشلها ، بمعالجة مشاكل الإنسان والمجتمع ، وحل قضاياهما الشائكة .

وهذا الاختبار لن يتم ، إلا إذا أنزلنا هـذه الشرائـع من أبراجهـا النظريـة ، إلى ساحة الاختبار العملي داخل المجتمعات ، وقياساً على النتائج يكون الحكم عليها أو لها .

فعلى كل شريعة أن تثبت ذاتها في أمرين :

الأول : أن تستمـر كفعل إيمـان حي فاعـل ، في مسلك ووجدان الإنسـانيـة مـا استمرت الحياة .

والثاني : أن تثبت بنجاح ، أنها هي النهج العملي السليم ، وخط السيـر الفعلي الصحيح لمسيرة الإنسـانية ، نحـو رقيها ، وخيـرها ، وسعـادتها ، عبـر كل العصور والأزمان .

وعلى قاعدة هذا الفهم ، يمكن أن يكون بحثنا بناء ، وتدقيقنا بـالشريعتين المسيحية والإسلامية ، هادفاً ، ومنصفاً .

وعلى قـاعدة هـذا الفهم أيضاً ، يفتـرض أن تكـون الأجـوبـة على الأسئلة التالية :

١ ـ أين نجحت كل من المسيحية والإسـلام في رحلة تطبيقهمـا العملي في حياة البشرية ؟

٢ ـ من أثبت منهمـا ، بالفعـل ، والممارسـة ، والتطبيق ، أنـه الحـل الصحيـح لمشاكل وهموم البشرية ؟

٣ ـ أين هي المسيحية في مسلك وضمير المسيحي اليوم ؟

٤ ـ وأين هو الإسلام في مسلك وضمير المسلم اليوم أيضاً ؟

ونبدأ بالإنسان المسيحي :

إن من يلقي نظرة على واقع الإنسان في المجتمعات المسيحيـة ، يرى كم يعاني هذا الإنسان من وضع قلق بائس ، في حياته العائلية والاجتماعية ، رغم ما يغـطي هذا الـوضع من طـلاء التمويـه ومساحيق المـظاهـر ، التي لم تستـطع أن تخفي ما وراءها من الحقيقة المرة ، والواقع الأليم .

فواجبات وحقوق كل فرد في أسرة ما نحو الفرد الآخر ، أو نحو الأسرة بكاملها ، لا تحددها أبداً وحدة الدم ، والمصير ، والقربى ، والحياة المشتركة ، والعواطف المتبادلة ، والأحاسيس ، لأن هذه انعدمت منذ زمن طويل .

وإنما ترسمها وحدة المصالح ليس إلاّ ، وتنظمها القوانين الوضعية .

فالأهل مثلاً : تنتهي واجباتهم نحو أولادهم ، متى بلغ كل منهم الثامنة عشرة من العمر ، ويحدث أحياناً أن تتأخر الإبنة بعد بلوغها هذا السن ، عن جمع حقائبها ، لتبدأ رحلتها نحو المجهول منفردة ، فيقوم الأهل بتذكيرها به ، معتبرين أنهم ارتاحوا وتحللوا من همّ ومسؤولية ، ألزمتهم بهما القوانين فقط . والإبنة بدورها حرة أن تتذكر أهلها بعد بلوغها السن برسالة ، أو بطاقة معايدة ، ترسلها لهم من مكان ما في هذا العالم الواسع ، أو بزيارة تأتيهم بها ومعها صديق ، تعيش معه بضيافة الأهل عيشة الأزواج ، وما هما بزوجين .

والأبناء أيضاً ، قد يكون فيما ألزمهم به القانون من الواجبات نحو أهلهم ، أن يكون عليهم الاتصال بأقرب مأوى للعجزة ، لنقلهم إليه بحال شيخوختهم ، أو أن يرسلوا لهم بطاقات معايدة كل عام ، أو أن يتقبلوا التعازي بهم ساعة الدفن ، فيفعلون لا بدافع عواطفهم نحوهم ، ولا بدافع شعورهم بالواجب ، بل بدافع مشيئة تلك القوانين وما فرضته عليهم ، ما عدا ذلك ، فلا شيء ولا شيء فعلاً .

أما ما بين الزوجة والزوج ، فالصورة أكثر بشاعة وسواداً ، فلا قدسية ، ولا احترام ، ولا حرمة للروابط الزوجية بينهما ، وكل شيء مباح أمام شهواتهما الحيوانية .

وبإمكان الزوجة أن تخون زوجها مع من تشاء ومتى تشاء ، وعلى مسمع ومرأى من الزوج أحياناً ، ولا حق له بالإعتراض أو التذمر ، طالما أن القوانين قد حفظت له نفس الحقوق ، وعلى الزوجة نفس الواجبات .

إنها حياة الحيوانات في الغابة .

فالعائلة ما هي إلا مجموعة من الآلات ، جمعت في مركز واحد ليس إلاّ .

هذا إذا لم نتحدث عن التوافق الغريب ، على نوع من الحياة الحسابية بين الزوجين ، يعيشونها بدقة مستهجنة ، تبعث في النفس مشاعر القرف والتقزز ، فأحدهما يصبح مديناً للآخر ، إذا دفع ليرة واحدة زيادة عن الآخر في مصروف البيت ، ومطالب كل ساعة بسدادها . ومن حياة الأسرة المفككة المنهارة في المجتمعات المسيحية ، إلى صورة الحياة الاجتماعية الشاذة السائدة هناك . فلا العواطف الإنسانية ، ولا الصداقة ، ولا مشاعر الأخوة بين الناس ، ولا الإحساس بمصائب الآخرين أو أفراحهم ، لا الحزن عند الموت ، أو السرور عند الولادة ، لا احترام الجوار ، ولا الشعور بواجب إغاثة ملهوف ، أو لملمة دمعة محتاج ، ليس لهذه كلها ، ولا لواحدة منها أثر ووجود في حياة الإنسان المسيحي في أوروبا .

ولو أنك عشت عشرات السنين في بناء يعج بالجيران ، فإنك لن تزار ، وإن زرتهم ففعلتك مستنكرة مستهجنة . لا زيارات اجتماعية ، لا علاقات عائلية ، لا روابط أسرية ، لا لقاءات إنسانية بين الناس ، إلا ما يتم منها خلال حفلات الجنس والمجون ، أو عبر سبل الكسب المادي .

حتى الشعور الوطني في نفس الإنسان المسيحي ، ليس له حساب ولا اعتبار ، فالإنسان هناك يقوم بعمله إذا ما طلب منه بآلية مثيرة للأعصاب ، دون أن يشكل عمله بذهنه إحساساً بالواجب ، أو شعوراً بمسؤولية وطنية .

حتى إحساسه الإنساني المسؤول ، ككائن يعيش على سطح الكرة الأرضية ، لا أثر له في مسلكه .

الإنسان في المجتمعات المسيحية أصبح آلة ، وآلة بالفعل .

ورب معترض يسأل : وما ذنب المسيحية في ذلك كله ؟

نسأله بدورنا : وما دورها إذن في حياة شعوبها ؟ وما مبرر وجودها ؟ طالما

أنها لم تعد موجودة ، لا في أخلاق الناس ، ولا في مسلكهم ؟ .

ونستطيع القول بثقة وتجرد ، أن المسيحية لا تعيش في قلوب المسيحيين كفعل إيمان ، ولا في عقولهم كشريعة صالحة لحل معضلات الحياة ومشاكلها . بل على العكس ، فهي تعيش خارج هموم المجتمع ، وعلى هامش قضايا الإنسان ، وخارج وجدانه .

أمام هذه الصورة القاتمة ، يقف الإنسان مشدوهاً متسائلاً : من المسؤول عن هذه النهاية المحزنة ؟ . عن هذا الفشل الذريع ؟ أهي المسيحية ، أم المسيحيون ، أم كلاهما ؟ ولماذا كان الطلاق الأبدي بينهما يا ترى ؟

لا بد لنا من أن نعترف بحقيقة مرة ، هي أن الفشل ليس في الإنسان المسيحي ، وإنما يكمن في طبيعة التعاليم المسيحية ذاتها ، فلو كانت هذه التعاليم قد تمكنت فعلاً ، خلال مسيرتها التاريخية الطويلة ، من الوصول إلى عمق قناعات الإنسان المسيحي وإيمانه ، بدرجة جعلته يؤمن بعقله وقلبه ، ببصيرته وعواطفه ،إنها هي السبيل إلى سعادته ، والطريق إلى خيره واستقراره ، لما انكفأ عنها ، ولما طلقها إلى غير رجعة .

لقد جربت المسيحية في الشرق لقرون عدة ، وبعدها في أوروبا ، طيلة حقبة طويلة من الزمن ، كانت الكنيسة أثناءها في حياة الإنسان والمجتمع ، هي كل شيء ، وتعاليمها كانت هي الطريق والنهج ، فماذا كانت النتيجة ؟ .

فشل يتلو فشل ، وخيبة تلي خيبة ، وحركات جماهيرية رافضة للكنيسة وتعاليمها ، تتكرر وتتكرر ، كانت تقمعها مراكز القرار الكنسية بالقهر والنار ، لتترك وراءها برك الدم الأحمر ، ورائحة القبور المفتوحة دائماً وأبداً .

ولا نغالي إذا ما قلنا ، أن الإنسان المسيحي بعد ذلك الرصيد الهائل من التجارب الفاشلة المكلفة ، أصيب باليأس والقنوط ، فارتد عن مسيحيته ، ونفض يده منها ، وأسقطها من حسابه .

إن مأزق المسيحية الحقيقي أنها :

تعاليم بلا شرائع ، ووصايا بلا أحكام .

ومع ذلك ، فهي ترفض الاعتراف بهذه الحقيقة ، بل على العكس نراها تبني تصرفها على غير أساس حقيقتها وواقعها ، فالمجتمعات بحاجة إلى شرائع وأحكام ، تنظم حياتها ، وتضبط مسيرتها ، وتحل مشاكلها .

وأية ديانة تفتقر إلى هذه الأساسيات ، هي غير صالحة لقيادة المجتمعات ، وبالتالي فإنها تدفع بالمجتمعات الحاملة اسمها ، المحسوبة عليها ، إلى اختيار شرائع وقوانين بديلة ، لتسد هذا النقص الكبير ، أما من عندياتها ، أو تسعى للإستعانة بتدبيرها ولملمتها من عنديات الآخرين .

وهذا ما حصل فعلاً في المجتمعات المسيحية .

وهذا النقص الفاضح في التشريع والأحكام المسيحية ، كان يدفع بالمسيحيين في أحيان كثيرة ، وحتى حقبة متقدمة من الزمن ، امتدت إلى ما بعد القرن التاسع ، إلى التقاضي فيما بينهم وفقاً للشرائع الإسلامية ، مما كان يثير حفيظة الكنيسة عليهم ونقمتها .

تحدث الدكتور جورج قرم عن هذا الموضوع ، فقال :

> غالى رؤساء المسيحية مغالاة مسرفة في نظام شخصية القوانين ، فأنزلوا الحرم بمن يطلب من رعاياهم التقاضي أمام قاض مسلم .

وقال :

> في عام ٨٠٥ أمر تيموثادس الأول جثليق النساطرة ، باستكمال التشريع الديني المسيحي ، لقطع الجسور على المسيحيين ، الذين يلجأون إلى المحاكم الإسلامية ، متعللين بعدم كفاية التشريع الكنسي[1] .

---

(١) تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ٢٥٨ـ ٢٢٠ ، دار النهار ، بيروت ١٩٧٩ .

وقد يكون بسبب ذلك ، افتقاد المجتمعات المسيحية في عصرنا الحالي إلى عنصر التجانس ، والانسجام ، والاستقرار ، بحيث أصبحت فسيفساء عجيبة غريبة من المفاهيم ، وطرق الحياة ، وأنماط التفكير .

كما هي في تبدل مستمر ، وتغيير دائم ، تفتيشاً عما يناسب ظروفها ، ويوافق أحوالها ، ويحل مشاكلها ، ولما تجدها بعد كما يبدو . تحدث الباحث الكبير شبلي شميل في كتابه : «فلسفة النشوء والإرتقاء» عن طبيعة التعاليم اليهودية والمسيحية والإسلامية ، فقال :

شريعة القرآن ، هي الشريعة الوحيدة العملية المستوفاة ، التي ترمي إلى أغراض دنيوية حقيقية .
وأما شريعة موسى فهي مادية عملية ، ولكنها غير مستوفاة .
وشريعة عيسى ، وإن كانت حكماً ومواعظ ، إلا أنها نظرت في جملتها إلى العالم الروحاني ، أكثر من الحياة الدنيا ، بخلاف شريعة محمد ، فإنها نظام اجتماعي ، عملي ، مادي ، قانوني ، حقيقي[١] .

ولامس ول ديورانت هذه الحقيقة عندما قال :

لقد ظل القانون المسيحي يستخدم طريقة التحكيم الإلهي ، بالقتال ، أو بالماء ، أو النار ، في الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية ، تضع فيه طائفة من المبادىء القانونية الراقية ، ينفذها قضاة مستنيرون[٢] .

---

(١) فلسفة النشوء والارتقاء .
(٢) قصة الحضارة: ج ١١ ص ٣٨٣.

فشلت فحيدوها من حياتهم

والسؤال المطروح هو : لماذا فشلت المسيحية في أداء مهامها ودورها ، في حياة الفرد والمجتمع المسيحيين ؟

إن الجواب على هذا السؤال ، يكمن في مجموعة النظريات التي أخرجتها المسيحية للعالم ، طيلة تاريخها المديد ، التي كان الإنسان المسيحي يعافها ، ويخرجها من حياته الواحدة تلو الأخرى ، بعدما يتبين له إفلاسها وفشلها ، بمجرد وضعها تحت مجهر التجربة والعمل .

ولقد كان لفشل هذه النظريات نتائجه المدمرة في حياة الشعوب المسيحية ، نرى آثارها واضحة في أمراض المجتمعات المسيحية المستعصية .

فخارج إطار الإيمان المسيحي المعقد ، وألغاز التثليث المستعصية وطلاسمه ، وطبيعة المسيح المختلف عليها ، منذ كان المسيح ، خارج هذه الأمور الروحية ، وضعت المسيحية لمجتمعاتها قوانين وتشريعات ، ظانة أنها قد تكون أساساً صالحاً لتنظيم حياة الإنسان الفردية والاجتماعية ، الخلقية والمسلكية . . وبمجرد وضعها موضع التنفيذ ، كان . . الفشل الذريع ، وكانت الكارثة .

وهذه عينة منها :

فنبدأ بموضوع : الزواج والطلاق :

ظل مبدأ جواز الطلاق وتعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية رغم

ضوابطه ، وروادعه ، وأصوله ، وشروطه المعروفة ، موضع انتقاد وتجريح ، يحاب به المسلمون طيلة قرون وقرون ، من قبل المسيحيين الذين كانوا يرون في قوانين الزواج الكنسية الحل الأمثل ، والنظرية الأصح .

فيما كان المسلمون بدورهم يعيبون في نظريات الزواج المسيحي غربتها عن الواقعية ، وبعدها عن الموضوعية ، وتجاهلها لدور العواطف ، والمشاعر والأحاسيس ، المتقلبة ، المتغيرة أحياناً في حياة الإنسان .

فبدت لهم تلك القوانين الكنسية جامدة ، متحجرة ، وكأنها وضعت ليس لمجتمع إنساني متحرك ، بل لمجتمع مومياءات ، لا أحاسيس فيه ولا عواطف .

وظل قانون الزواج الكنسي يتخبط صعوداً وهبوطاً ، ويتأرجح بين الفشل والنجاح ، وظل الأمر سجالاً بين النظريتين المسيحية والإسلامية حول موضوع الزواج ، حتى كان مطلع القرن الحالي .

فإذا بنا نفاجأ بالعالم المسيحي ، ينعي إلى الكون قوانين الزواج الكنسية ، معترفاً بفشلها وإفلاسها الكاملين ، معلناً طلاقها الأبدي من حياته .

وعندما حاولت الكنيسة التحرك والاعتراض ، بقصد لملمة هيبتها المنهارة ، وترميم وجودها المتصدع ، قامت الجماهير الرافضة بدفع الكنيسة خارج الحلبة ، لتصبح في موقع هامشي من حياة المجتمع لا تحسد عليه ، حتى تحولت بالنهاية إلى واقع استعراضي فولكلوري ، وقوانينها من موجودات المتاحف الجامدة بعدما حصر دورها كله ، بإسداء النصائح ، وإطلاق العظات ، وتوزيع البركات التي قلما تجد من يسمعها ، أو يهتم بها ، رغم جو المهابة المسرحي ، التي تحرص إحاطة نفسها به ، وهو كل ما تبقى لها . والكارثة الكبرى ليست هنا ، ليست بتقليص دور الكنيسة في حياة الناس ، ولا بفشل قانون الزواج الكنسي ، بل الكارثة الحقيقية هي في البديل ، الذي رمت المجتمعات المسيحية نفسها بين أحضانه الماجنة . الكارثة الكبرى بقانون الزواج المدني ، الذي حل سعيداً محل القانون الكنسي المطرود ، وهو معروف فلا داعي لحديثنا عنه .

وهكذا يكون المسيحي ، قد انتقل بردة فعل صاخبة ضد قوانين كنيسته ، من أقصى التشدد والتزمت ، إلى أقصى التفلت والتحلل ، نقلة حادة من أقصى التطرف الإيجابي، إلى أقصاه السلبي المدمر، ولولا ذاك ما كان هذا . ويمكننا القول هنا ، أنه تحت مجهر التجربة والممارسة ، أثبت التشريع الإسلامي أنه الحل العقلاني الواقعي ، وأنه السبيل الصحيح لمعالجة مشاكل الإنسان ، وتنظيم حياته الشخصية ، والأسرية ، والاجتماعية .

ومن نظريات الطلاق والزواج الكنسية المهجورة إلى :

نظريات المسيحية حول الإنسان نفسه .

من الغريب ، أن المسيحية أوجدت للإنسان حول نفسه ، فلسفة شاذة غريبة ، ونظريات مستهجنة ، ظلت بكافة الوسائل والأساليب تحاول دحشها في أذهان أتباعها ، وتفرضها على عقولهم ، إما بالإقناع ، أو بالإكراه ، ولكن دون جدوى .

فلم يتقبلها ذهن ، ولا اقتنع بها عقل . لقد رأت المسيحية في الإنسان نصفه فقط ، رأت فيه الجانب الروحي ، وأنكرت فيه الجانب الجسدي، أكبرت فيه الروح ، وأعابت عليه وظائف جسده وحقوقه . وبعد أن ألصقت الآثام والخطايا بهذا الإنسان ـ الجسد ، فرضت عليه ، لينال رضاها ، ويتحاشى عقابها ، أن يختار بين الله ورضاه ، وبين جسده وحقوقه ، وكلاهما صعب ومستحيل .

فوضعته بذلك في موقف لا يحسد عليه ، واقفاً في نقطة شد وتجاذب بين الله من جهة ، وجسده من جهة أخرى . وفي ساعة ضعف ويأس ، اختار هذا الكائن الضعيف حقوق جسده ، ليطرد الله من حياته ، معتبراً أن تعاليم ديانته أحرجته فأخرجته .

والكارثة أيضاً ليست هنا ، ليست في انحياز الإنسان نظرياً لحقه الطبيعي ، الذي منحه الله إياه ، فتفلسفت نظريات كنيسته لحرمانه منه ، بحجة خدمته وتأمين رضى الله عنه ، بل الكارثة الحقيقية هي في ردة فعل هذا الإنسان

عملياً ، الذي بادل التشنج في ديانته بتشنج أقسى وأفظع ، فكانت الكارثة دامية ، نراها بالواقع المحزن المقيت السائد في المجتمعات المسيحية ، التي أفلت فيها مارد الجنس من القمقم ، فباتت تعيش في فوضى رهيبة من الفلتان الخلقي ، والانحطاط الغرائزي ، والتحلل من ضوابط الشرف والقيم ، كالحيوانات في الغابات .

والكنيسة المطرودة ، تقف جانباً تندب حالها وحال أبنائها الضائعين التائهين .

وقد يكون نظام الرهبنة المعمول به في الكنيسة المسيحية ، مظهر من مظاهر هذه الفلسفة الشاذة الفاشلة ، وبقية من بقاياها .

فإلى موضوع الرهبنة في المسيحية :

لسنا بوارد بحث مفصل عن منشأ نظرية الرهبنة في المسيحية ، ولا عن أسباب دخولها إليها ، وإن كان أكثر الباحثين الذين تعاطوا هذه المسألة ، يردونها إلى مفاهيم وعادات وثنية ، ورثتها المسيحية عنها ، بعدما قامت بتطويرها ، وتأمين إطار فلسفي لها ، لتدافع به عنها ، لأن ما يهمنا هنا هو تتبع خطى الرهبنة العملية نجاحاً وفشلاً .

وقد تكون الرهبنة ، أو نظرية قهر الجسد ، عن طريق قتل الطبيعة فيه ، مظهراً من مظاهر فشل التشريع المسيحي حول الإنسان ، ليس لكونها نظرية ضد قوانين الطبيعة ونواميسها فحسب ، مبنية على موقف غير عادل ، قوامه تعذيب الجسد وقهره ، تكفيراً عن آثام وخطايا لم يقترفها ، ولا أظن أن هذا الظلم هو السبيل لمرضاة الله وبركته .

وإنما أيضاً لأن فشلها أثبتته بصورة عملية ، بالحوادث الجنسية الفاضحة ، التي لا تعد ولا تحصى ، التي حدثت على مدى التاريخ كله ، في أكثر من دير وأكثر من كنيسة ، وفي أهم وأعلى مراكز الكنيسة المسيحية ، حتى بين البابوات أنفسهم . وليس من باب التجني والتجريح ، إذا ما قلنا أن التاريخ قد تحدث

عن حوادث مخجلة ، شارك فيها بعض الباباوات والكرادلة أنفسهم .

تحدث ديورانت عن بعض هذه الحوادث ، فقال :

> ظل كرسي البابوية عدة سنين بعد ذلك ، لا ينال إلا بالرشوة أو القتل ، أو رغبات النساء ذوات المقام السامي والخلق الدنيء ، واستطاعت مروزيا ابنة أحد كبار الموظفين في قصر البابا ، أن تنجح في اختيار عشيقها سرجوس الثالث لكرسي البابوية عام ٩٠٤ـ٩١١ م .
>
> كما أفلحت زوجته ثيودورا ، في تنصيب البابا يوحنا العاشر ٩١٤ـ٩٢٨ ، الذي اتهم بأنه كان عشيقاً لها ، ثم رفعت مريوزا يوحنا الحادي عشر ٩٣١ـ٩٣٥ إلى كرسي البابوية ، وكان معروف أن البابا المذكور ، هو ابن غير شرعي من سرجيوس الثالث[1] .

وأضاف ديورانت قائلاً :

> وفي عام ٩٦٣ ، اتهم الكرادلة البابا يوحنا ، بأنه حصل على رشاوي نظير تنصيب الأساقفة ، وأنه عين غلاماً في العاشرة من عمره أسقفاً ، وأنه زنى بخليلة أبيه ، وضاجع أرملته وابنة أختها .
>
> وقد وجهت التهمة ضد البابا بندكت الثامن ١٠١٢ـ١٠٢٤، بأنه دنس منصبه بحياة الفحش .

والجدير ذكره هنا ، أنه كان لهذا البابا من العمر ١٢ سنة ، عندما عين على عرش الكنيسة المسيحية ، يدير شؤونها ويرعى مسيرتها .

---

(١) قصة الحضارة : ج ١٤ ص ٣٧٦ .

ويضيف ديورانت قائلاً :

كانت المشكلة الأخلاقية بين رجال الدين العاديين ، تتأرجح بين الزواج والتسري ، وكان زواج القساوسة في القرنين التاسع والعاشر أمراً مألوفاً ، وكان البابا هدريان الثاني متزوجاً(١) .

ثم يزيد ديورانت الصورة جلاء عندما يقول :

لا ننكر أنه كان في أماكن متفرقة رجال شواذ ، يندى من فعالهم الجبين ، فها هو الأسقف بونيفاس يشكو إلى البابا زخارى عام ٧٤٢ م، أن الأسقفيات تعطى للشرهين من غير رجال الدين وللزانين من القسيسين ، وأن بعض الشمامسة يحتفظون بأربع سراري أو خمس ، فيما اتهم بيد Bid الموقر في القرن ذاته ، أن الأساقفة يحيون حياة الملذات والفسق (٢) .

وها هو الراهب الإيطالي بطرس داميان ١٥٥٧ ـ ١٥٧٢ ، يعرض على البابا كتاباً يصف فيه ما يرتكبه القساوسة من رذائل .

وفي مكان آخر قال :

كانت عدة مجالس كنسية ، قد طالبت بفرض العزوبية على القساوسة وكان واحد منها قد عقد في بافيا عام ١٠١٨ قد أصدر قراراً يفرض فيه العبودية الدائمة والحرمان

---

(١) قصة الحضارة: ج ١٤ ص ٣٨٥ .

(٢) قصة الحضارة: ج ١٤ ص ٣٨٦ .

على جميع أبناء القسيسين ، ولكن رجال الدين ظلوا مع ذلك يتزوجون[1] .

الأستاذ نصري سلهب يتحدث عن هذا الأمر في كتابه في خطى محمد ، فيقول :

إن الطقوس الوثنية القديمة عادت إلى الظهور ، ولا سيما تلك التي كانت تصلح أكثر لجلسات الفجور ، وأعياد الدعارة ، والأضاحي للإلّه باخوس وعيد الربيع ، وأن السحر والشعوذة واستثمار سذاجة الشعب ، كانت أكثر انتشاراً منها في أيام الوثنيين ، لأدركنا كم كان شفافاً طلاء المسيحية ، الذي كانت حطته على ذلك المجتمع ستة أجيال من الإيمان .

وعام ٧١٧ في برغام المحاصرة من العرب ، كانت الجماهير تشرع في قتل احتفالي لمرأة حبلى ، وتتدهن بدم الضحية ، إنه زيفان غريب ، وضلال لعالم يدعي بأنه مسيحي[2] .

أما ونحن في القرن العشرين نسأل :

هل توقفت عملية هروب القساوسة ورجال الكنيسة ، من سجن نظريات كنيستهم ، الداعية إلى قتل طبائع أجسادهم ، ليربحوا محبة الله ؟ أم أن الثغرة الخفية المفتوحة في جدار تلك النظريات منذ كانت ، لا يزال هؤلاء يتسللون منها أفراداً وجماعات إلى رحاب أجسادهم وحاجاتها ؟ ليمارسوا بالخفاء حياتهم كبشر ، فيقبلون بنهم المحروم على إرضاء نزواتهم المكبوتة ، حتى ولو أصيبوا

---

(١) قصة الحضارة: ج ١٤ ص ٣٨٧.

(٢) في خطى محمد : ص ٧٧.

بعدها بالمرض الجنسي القاتل «الإيدز» الذي مات بسببه في شهر نيسان عام ١٩٨٧ الأب الأميركي مايكل بترسون ٤٤ عاماً .

ولنا بالخبر الذي نشرته جريدة السفير البيروتية ، في عددها رقم ٤٦٢٢ ، الصادر في ١٣ نيسان ١٩٨٧ ، عن تفشي الشذوذ الجنسي بين رجال الكنيسة ، وإصابة ١٢ قساً في أميركا وحدها بهذا المرض ، خير دليل وبرهان على عقم نظريات الكنيسة حول الإنسان من أساسها .

والآن هل من براهين أكبر وأدلّة أدمغ ، مطلوبة لنتأكد من فشل نظرية الرهبنة ، كونها نظريات ضد نواميس الطبيعة ، وخارج الإرادة الإلهية بلا شك ؟

وما تناقص عدد المتهافتين عليها ، الرافضين للبس ثوبها ، رغم كل المغريات الموضوعة لأجلها ، إلا دليلاً آخر على فشلها ، حتى صارت الرهبنة عملياً من نصيب من في حياتهن من مآسي وخطايا وأوضاع خاصة ، فيلجأن إلى الأديرة نشداناً للعزلة ، والتوبة ، والسكينة ، والنسيان ، وكذلك الأمر بالنسبة للرهبان .

ومن حقل فشل مسيحي إلى حقل فشل آخر .

فمن قانون الزواج المهجور ، ونظرية الرهبنة المطعونة ، إلى :

نظرية الإرث في المسيحيين :

لقد ظل ولا يزال قانون الإرث الإسلامي داخل قفص الاتهام المسيحي ، والتهمة الموجهة له : فقدان العدل والمساواة بين الورثة .

وقد يوجد حتى اليوم من لا يزال يتشدق بترديد هذه التهمة بلسانه ، ولكننا نراه وهو يوزع تركته يهمل التشريع المسيحي ، ليلجأ إلى العمل بالشرائع الإسلامية ، ينفذ أحكامها . . وهو يرميها بحجر التهمة .

إنني مقتنع وواثق ، أن المورث المسيحي وهو يوزع تركته بحسب «المساواة» المسيحية ، يقوم بذلك وليس في قرارة نفسه ، ولا في أعماق وجدانه ، قناعة وإيمان حقيقيين بأنه عدل وأنصف .

مـرة أخرى ، يثبت التشـريع الإسـلامي سلامـة نظريتـه الواقعيـة العملية ، لأمور الإنسان وحياته ومشاكله .

لقـد شرع الإسـلام للإنسـان مبادىء يعيشهـا قولاً وعمـلاً . . بينما وضعت المسيحية لأتباعها ، نظريات يهربون من العمل بها إلى القول .

فهـل من خفة الشـريعة الإسـلامية يـا ترى ، أنهـا وضعت للإنسـان قوانين وشرائع ، بروح واقعية ، وفهم عقلاني ، ونظرة موضوعيـة ، لتعالـج بها مشـاكله وقضاياه ؟

فاحترمت فيه العقل والجسد على السواء .
فيما أنكرت المسيحية على هذا الإنسان جسده ، لتزهق فيه الروح والجسد .

لقـد وضعت المسيحية إنسـانها ، في أسـر مفاهيم ونـظريات ظلت مغلقـة على فهمـه ، إذ كانت ولا تـزال بالنسبـة له بحـدود الأحاجي والألغـاز ، فعـافهـا وتركها .

يقول الدكتور جورج قرم :

إن الإسـلام لا يدعـو إلى نظام سيـاسي معين ، بل يـطلب فقط احتـرام أربعـة مبـادىء دستـوريـة عليـا : الشـورى ، والحرية ، والمساواة ، والعدالة .
وهذه المبادىء قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان .
باعتبارها مبادىء الحق الطبيعي Droit Naturel[1] .

وإذا مـا أرسينا وطبقنـا عمليـاً وفي كـل زمـان ومكـان مبـادىء المسـاواة ، والحرية ، والعـدالة ، والـديمقراطيـة الإسلاميـة ، في حياة كـل مجتمع ، أو في

---

(١) تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ٢٢٠ دار النهار بيروت ١٩٧٩ .

حيـاة الإنسانيـة جمعاء ، فمـاذا يبقى من مشـاكـل المجتمعـات دون حـل ؟ ومن معضلات الإنسانية بلا معالجة ؟

هذه هي مسيرة المسيحية عملياً ، نـراها أمـامنا بـلا مساحيق ولا رتـوش ، وهذه هي آثارها ودبيب خطاها ، ونتائج نظرياتها وتعاليمها في حياة شعوبهـا ، لا بل في حياة الإنسانية كلها .

وبـالمقابـل هـذه هي مسيـرة الإسـلام وخـطاه وآثـاره ، في حيـاة شعـوبـه والإنسـانية ، واضحـة ناصعـة ، بعدمـا وضعت تحت مجهر التجـربـة والاختبـار «بخفتها» المزعومة ، التي بشر بها المقنع في لقيطه .

فأين أصبحت المسيحية اليوم ؟ وإلى أين انتهت بعد المسار الطويل ؟

من المؤسف القـول : أنهـا أصبحت خـارج وجـدان أتبـاعهـا وخـارج مسلكهم ، طريدة مجتمعاتها ، حبيسة جدران كنـائسها ، لا أحـد يتذكـرها ، إلا من خلال دقات الأجراس الفولكلورية صباح كل أحد ، لتنتهي ذكراها من قلوبهم وعقولهم عند آخر صدى لآخر دقة جرس .

وهذا هو الإسـلام ، محرك ، فـاعل ، متجـدد ، مستمر ، في وجـدان كل مسلم وضميره ومسلكه ، يحيا في صلب قضايا المجتمع ، وفي عمق مشـاكله ، وفي خضم مسيرة الإنسان ، نحو سعادته ورقيه ، وليس على هوامشها وجوانبها ، باعتباره الهدف ، والنهج ، والطريق .

وها هو الرحالة «ثمبسن» يصف تجدد الإسـلام وتعززه ، حتى بين القبـائل الإفريقية ، فيقول :

لنرجع إلى غربي أفريقيا وأواسط السودان ، وهي بلاد أتاح لي الحظ زيـارتها ، فـإنا نعجب إذ نـرى الإسـلام ضـاربـاً سرادقه ، مكللاً بتيجان النجاح ، كأنه في بادىء بدء[1] .

---

(١) التعصب والتسامح للاستاذ محمد الغزالي : ص ٢٧٩ .

أما الباحث الكبير أندره ميكيل ، فله في قوة الإسلام وقدرته الفريدة على تجاوز الأزمات والصعاب ، شهادة أوردها في كتابه «الإسلام وحضارته» إذ قال :

«لقد كان الإسلام من القوة ، بحيث أمكنه التغلب على الصعاب ، التي تعرض لها عشية أحداث ومحن القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

فلقد كان أكثر استعداد مما أراده له الغرب ، وأكثر مما يريده له اليوم ، بل وأكثر مما يتخيله»[1] .

ولا يسعنا إلا أن نذكر تأسفاً للمفكر الفيلسوف الفرنسي «لوبون» لأنه ليس من أتباع النبي حين قال :

«إنني لم أدخل مسجداً ، من غير أن أهتز خاشعاً ، أو من غير أن أشعر بشيء من الحسرة على أنني لست مسلماً»[2] .

---

(١) الإسلام وحضارته : ص ٤٤٩ .

(٢) حضارة العرب : ص ٦٩٠.

المسيحي محروم في الدنيا ومحروم في الآخرة

أباح الإسلام للمسلم أن يتمتع في دنياه ، بكل ما هو حق طبيعي له ، ضمن ضوابط وكوابح ، الزمه أن يتقيد بها ولا يتعداها ، بعدما بين له طريق الهدى وطريق الضلال .

فلم يحرمه من حق مشروع ، ولا منع عنه بهجة مسموحة ، بل على العكس حثه أن يعيشِ حياته كلها ، بما فيها واجباته الروحية ، وحقوقه المادية المشروعة بكل حرية ، مطمئناً إياه بأن زرعه الخير في دنياه ، سيحصده سعادة وثواباً في آخرته .

وإن جنة الدار الآخرة ، سهلة المنال عليه ، طالما أطاع ربه ، ونال بالعمل الصالح رضاه .

وبذلك صار المسلم يشعر ، أن طاعته لربه وصلاح عمله ، ليسا بلا أجر ولا ثواب ، مما يدفعه للعمل الصالح أكثر فأكثر ، ابتغاء مرضاة ربه ، ونيل بركته ، حتى ولو كان طمعاً بجنته ، أو هرباً من ناره .

هذا في الإسلام ، أما في المسيحية ، فالأمر مختلف كلياً ، سواء بالنسبة لدار الدنيا أم الآخرة . الإنسان في المسيحية محروم دائماً ، ومحروم أبدا . .

يعيش الحرمان المرير بكل الوانه في دنياه ، بعدما ضيقت عليه ديانته أيّما تضييق ، وحمّلته ثقلاً ما بعده ثقل ، **فهو محروم فيها من لذة الجسد ولذة البنين .**

جاء في الإنجيل قول المسيح :

هناك خصيان ولدوا من بطون أمهاتهم على هذه الحال.
وهناك خصيان خصوهم الناس،
وهنـاك خصيـان خصـوا أنفسـهم من أجـل ملكـوت السموات[1].

وإذا كان مطلوب من المسيحي خصي نفسه من أجل ملكوت السموات في ديار الدنيا . فهو مخصي سلفاً في الدار الآخـرة ، طالمـا أنه محـروم من الزواج هناك ، بحكم قول المسيح في الإنجيل :

فـلا الرجـال في القيامـة يتزوجـون ، ولا النساء يـزوجن وإنما هم كالملائكة في السماء[2].

ومحروم من لذة التملك ، ولو كان نتيجة جهاده الشـريف ، وذلك بحسب قـول المسيح :

إذا أردت أن تكون كامـلاً ، فاذهب وبـع أموالـك وأعطهـا الفقراء ، فيكون لك كنز السماء [3].

وقوله :

كل واحد لا يتخلى عن جميع أمواله ، لا يستطيع أن يكون لي تلميذاً[4].

وقوله :

ما أعسر دخول ملكوت الله على ذوي المال[5].

---

(١) متى ١٩ : ١١ .
(٢) متى ٢٢ : ٣١ .
(٣) متى ١٩ : ٢١ .
(٤) لوقا ٣٣ : ١٤ .
(٥) مرقس ١٠ : ٢٣ .

وبحسب نص جاء في رسالة بولس الأولى إلى طيموتاوس قال فيه :

الذين يطلبون الغنى ، فإنهم يقعون في التجربة والفخ .

فـ ٦ـ ٩.

ومحروم من لذة الطعام والشراب والملبس ، بحسب قوله أيضاً :

فلا تهتموا فتقولوا : ماذا نأكل ؟ أو ماذا نشرب ؟ أو ماذا نلبس؟
فهذا كله يسعى إليه الوثنيون ، وأبوكم السماوي يعلم إنكم تحتاجون إلى هذا كله ، فاطلبوا أولاً ملكوته وبره ، تزادوا هذا كله ، لا يهمكم أمر الغد ، فالغد يهتم بنفسه ، ولكل يوم من العناء ما يكفيه[1].

أليس ذلك دعوة إلى القعود ، والخمول ، والإتكالية؟
ومحروم من لذة الشعور بالإستقرار الأسري والعائلي .
بحسب قول المسيح :

جئت لأفرق بين المرء وأبيه ، والبنت وأمها ، والكنة وحماتها ، فيكون أعداء الإنسان أهل بيته[2].

ومحروم من حبه الطبيعي المشروع للحياة نفسها، طالما أنه مدعو للتخلص من هذه الحياة ، طلباً لملكوت السموات أيضاً . وهذا ما نقرأه في الإنجيل المقدس ، عن لسان السيد المسيح قوله :

من أراد أن يتبعني فليزهد في نفسه ، ويحمل صليبه ويتبعني ، لأن الذي يريد أن يخلص حياته يفقدها، وأما الذي يفقد حياته في سبيلي فإنه يجدها[3].

---

(١) متى ٦ : ٣١/ ٣٢/ ٣٣/ ٣٤.
(٢) متى ١٠ : ٣٥/ ٣٦.
(٣) متى ١٦ : ٢٥.

وشعور المسيحي بمرارة الغربة عن هذه الدنيا ، وشخوصه الدائم المضني إلى وطنه الحقيقي في السموات ، عبر عنه القديس بولس في رسالته إلى أهل فيلبي ، حيث قال :

أما نحن فموطننا في السموات ، ومنها ننتظر مجيء المخلص يسوع المسيح ، الذي يبدل جسدنا الحقير ، فيجعله على صورة جسده المجيد .

ف ٣ـ ٢٠ .

ونفس الموقف نجده في مقدمة رسالة القديس يوحنا الأولى ، إذ قال :

من بطرس رسول يسوع المسيح ، إلى الغرباء المشتتين .

ف ١ـ ١ .

وهكذا يصبح مطلوباً من المسيحي بحكم ديانته أن يكون :

مخصياً بلا زوجة ولا ولد .

فقيراً بلا ملك .

مترهبنا بلا أسرة .

متخففاً ، إلاَّ من البالي من الثياب .

متقوتاً بالنذر اليسير من الطعام .

وأخيراً مدعوا للتخلص من حياته برمتها . .

كل ذلك من أجل ملكوت السموات . . وكأن ملكوت السموات لا يدخله إلاَّ : المخصيون ، والفقراء ، والمتبتلون ، والعراة ، والجياع ، والعطاشى ، وأخيراً الأموات .

ولم تكتف المسيحية « بإغداق » كل هذه « النعم » من الحرمان المتلون على إنسانها في دنياه الفانية ، بل الحقته به إلى حياته الثانية ، داعية إياه أن يهيّء نفسه كي يعيش في آخرته على شوكة نفسه الذي تقلب عليه في دنياه ، واعدة هذا المسكين بحياة أخرى لا تختلف بمرارتها وشقائها وحرمانها ، عن حياته الأولى .

جاء في كتاب « البرهان » لمؤلفه النسطوري عمار البصري :

إن الدعاة إلى النصرانية ، أمروا النصارى بخلع هذا العالم ، والاستخفاف بلذاته من الطعام ، والشراب، والنكاح ، وغيره ، ودعوهم أيضاً إلى عالم آخر ، أعلموهم أنهم لا يأكلون فيه ، ولا يشربون ، ولا يتزوجون ، فحظروا عليهم ما يعرفونه لذيذاً عندهم، في هذا العالم، وفي ذلك الآخر[1].

وفي ص ٣٨ من الكتاب نفسه جاء :

ليس دين تحت السماء ، أمنع لشهوة ، ولا أكسر عن لذة ، ولا أضيق أمراً ، من دين النصرانية[2].

ولعمري ، فبعد هذا الحرمان الأبدي الملتصق بالإنسان في دنياه ، والملتف حول عنقه في آخرته ، وكأنه عقاب أبدي متقدم على خطايا متأخرة ، وفي ذلك ظلم يتنزه عنه الله .

بعد هذا الحرمان « الإلهي » للإنسان ، هل بقي من مبرر لطرح موضوع الثواب والعقاب بعد الموت ، طالما أن وتيرة الحياة الجافة الخشنة ، ستستمر في الآخرة كما كانت في الدنيا ، بل ماذا يبقى والأمر كذلك ، من اختلاف بين الشقاء الدنيوي والجنة الموعودة ؟

الجنة التي لا تبدو من خلال المنظار المسيحي بأكثر من « ملطى » مقبول على علاته ، كبديل وحيد عن جهنم .

ناهيك عن ذلك ، فالمسيحية بطروحاتها وتعاليمها ، تضع إنسانها أمام

---

(١) كتاب البرهان : ص ٣٧ ـ منسوب تأليفه إلى عمار البصري .حققه الأب ميشال الحايك .دار المشرق ١٩٨٦ ـ بيروت .

(٢) نفس المصدر : ص ٣٨.

تنافض محير عجيب ، لا قدرة لهذا المسكين على معالجته ، أو معرفة أسبابه ، أو الحكمة منه .

فهي من جهة تأمره بالالتحاق بمملكة الرب ، وتحثه على نشدان الكمال ، عن طريق الاشاحة المطلقة عن كل مباهج هذه الدنيا .

ورمي كل ما في يده من متاعها .

والتخفف من كل ما يملك ، مما جنته يداه بالعمل الشريف .

وقتل كل طبائع وغرائز جسده ، عندما أمرته أن يخصي نفسه مغبة الخطيئة .

مقفلة بوجهه كل النوافذ المطلة على حياة أسرية وعائلية ، ينهد لها الإنسان بغريزته منذ وجوده . فاتحة له كل أبواب أديرتها، وصوامعها، وأماكن العزلة ، والأنطواء ، والهروب من مسؤوليات الحياة ، كي يدفن جسده فيها مرة واحدة وإلى الأبد .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى توصيه خيراً بالأطفال والزوجة . والسؤال هنا ملحاح : أين نجد الأطفال ونحن مخصيون؟

وأين نجد الزوجة وهن راهبات ونحن رهباناً ؟

إن ما نراه أمامنا في المسيحية ، ليس تناقضاً فحسب ، وإنما دعوة ساذجة خيالية إلى نظام شاذ غريب ، سيلحق ولا شك بحال تعميمه خللاً رهيباً ، في مسيرة الحياة برمتها ، وتقويضاً شاملاً في بنيان حياة البشرية ، حيث ستسير هذه بموجبه إلى الانقراض النهائي البطيء .

إذ ماذا يحدث للبشرية ، لو نشد كل ابنائها مملكة السماء ؟ والتحقوا بالأديرة والصوامع ، وخصوا أنفسهم، وتنازلوا عما يملكون ، وقعدوا ينتظرون المأكل ، والمشرب ، والملبس ، من أبيهم السماوي ، إطاعة لتعاليم ديانتهم؟

لنتخيل مجتمعاً هذا وضعه ، أليس إلى الزوال سائراً لا محالة؟

ورب قائل : إن الدعوة إلى الخصي في الإنجيل ليست عامة ، ولا تشمل

كل الناس ، نقول : إن ذلك مرفوض ، لأن من حق أي مسيحي نشدان مملكة السماء . وحتى ولو أخذنا عدم تعميم النص على كل الناس بعين الاعتبار ، فإننا لا نـدري لمن خصص الإنجيـل هـذه « النعم » ومن هم « المستفيـدون » من « خيرها العميم »؟

ليس في المسيحية إلا الشطط في الخيال ، والإغراق في التطرف ، والبعد عن الواقعية والمألوف ، والغرام المسيحي المعروف بمعاكسة كل ما يتلاءم وفطرة الإنسان ، وهيامها بتعقيد كل أمر يتطلب تبسيطاً . .

طلب حق أريد به باطل

حملت الصفحة ٨٦ من كتاب الحريري أخبار وحدة المؤمنين ، التي توسع بشرحها ، مع أنه بالنتيجة ، لم يخرج عن موقفه المعروف من خلال « وحداته » السابقة .

والغريب ، أن من يدعو إلى وحدة المؤمنين ، هو من نراه يمارس الإيمان على الصعيد الإعلامي ، عبر كتابه الداعي به إلى الفرقة والتباغض ، وزرع الأحقاد والضغائن ، تحت شعار الإيمان ووحدة المؤمنين .

فإلى حديث الإيمان ، عن وحدة الإيمان يحدثنا عنها المؤمن الأكبر ـ الحريري المقنّع ـ قال :

> « التنزيل العربي والتنزيل العبراني متلازمان ، العربي يفسر العبراني ويعتمد عليه، والعبراني أصل العربي وشاهد عليه .
> من يؤمن بواحدهما دون الآخر ، لا يكون على الصراط المستقيم .
> على بني إسرائيل ، أن يؤمنوا بالتنزيل العربي ، لأنه تذكرة للتنزيل العبراني .
> وعلى المتقين من العرب أن يؤمنوا بالتنزيل العبراني ، لأنه

أصل العربي ومصداق عليه[1].

لا نرى موجباً لمناقشة هذه العبقرية الفذة ، لأننا سمعناها مرددة في كل صفحات كتابه، أمراً واحداً نذكر به الحريري ، هو أن القرآن عارض كل ما أدخل على التوراة وكتب اليهود ، من تحريف وتزوير ، فلم يساير في خطأ ، ولا هادن في ضلال .

والعبرة كل العبرة ، تبقى بمن بصموا بأصابعهم العشرة ، موافقين ، مؤمنين ، موقنين ، بكل ما جاء في كتب اليهود من عجائب وغرائب .

حتى لو كان أقلها تجديفاً على الله ، وخروجاً عن خطه ، وإهانة لرسله ، فاعتبروا أن كتب العهد القديم برمتها وعلى علاتها ، كتبهم المقدسة ، ومصدر إيمانهم ، ومنطلق تعاليم ديانتهم .

وها هو الواعظ الأميركي « فوزدك » يجاهر بهذه الحقيقة المرة ، فيقول :

« إن المسيحيين الأولين ، قبلوا الأسفار العبرانية القديمة ، كأسفار مقدسة عندهم ، فكان عليهم إذا بحكم الضرورة للدفاع عن الأسفار القديمة ، أن يقرأوا الأناجيل في العهد القديم »[2].

ونحن لا ندري ، كيف يمكن للمسيحي أن يوفق بين إيمانه بأسفار العهد القديم ، وفيها يشوع بن نون يأمر :

لا تعف عن أحد ، بل اقتل رجلاً وامرأة وطفلاً ورضيعا .

وبين كتب العهد الجديد وفيها وصايا المسيح :

---

(١) قس ونبي : ص ٨٦.

(٢) نظرات حديثة في الكتاب المقدس: ص ٩٩.

من ضربك على خدك الأيمن فدر له الأيسر ، ومن سخرك ميلاً فسر معه ميلين.

أمن حل لهذا التناقض ، وتفسير لهذا التعارض ، يرضى عنهما العقل والوجدان ؟

في الصفحة ٨٧ من كتابه طرح الحريري الأسئلة التالية :

١ ـ كيف تعرف محمد على التنزيل السابق ؟
٢ ـ أهو الله الذي تدخل مباشرة بالنبي ،. وعلمه ما لم يكن يعلم؟
٣ ـ أم هو ملاك من الله وافى محمد ، ولقنه ما لم يكن بوسعه اكتشافه ؟
٤ ـ أم هو أخيراً أمر حدث له ، كما يحدث للملهمين في العالم؟

ثم حصر إجابته على تساؤلاته باحتمالين لا ثالث لهما ، فقال :

١ ـ أما أن يكون محمد قد اكتشف التنزيل بذاته .
٢ ـ وإما أن يكون قد تلقنه على يد خبير حكيم .

ثم عاد فاسقط الاحتمال الأول وقال بصحة الثاني ، فقال :

بقي إذن أن يكون محمد قد تعلم ما لم يكن يعلم من خبير حكيم ، ولن نجد في كتب السير والأخبار والتواريخ (؟) غير القس ورقة بن نوفل .

ثم ختم بالمسك الصفحة ٨٨ من كتابه بقوله :

وكان القرآن العربي انجيل القس بالعربية .

إنها روعة البلاغة في الإيجاز ، والإيجاز الرائع في البلاغة .

والواضح أنه وضع افتراضات شخصية على أساسها خمّن وقدّر . فزعمه

بأن لورقة بن نوفل دور في نبوة محمد ورسالته ، أمر عالجناه بتفصيل وتوسع ، وبيّنا بأن دوره المزعوم ليس إلاَّ أكذوبة ، واختلاقاً وخيالاً ، لا أساس له من الصحة ، لا في حياة النبي ، ولا في رسالته .

ومع ذلك فإننا نسأله :

- فيم ينكر على محمد نبوته ورسالته؟

- كيف امكنه أن يثبت ألوهية عيسى المستنكرة ، أو بنوته لله المستهجنة، أم تجزئة الله إلى أقانيم ثلاثة ؟

- ثم كيف تثبت من نبوة موسى، ونزول الوحي عليه من الله ، حتى صارت كتب عهده القديم مصدر الإيمان المسيحي ومنطلقه ؟

وإذا كان الجواب : بالمعجزات والخوارق ، فللنبي محمد منها الكثير الكثير ، أم إن ما يجوز لنبي لا يجوز لآخر ، وصيف وشتاء على سطح واحد؟ . .

الفَصْلُ السَّابع

١ ـ هكذا نصَّر المؤلف جدّ النبي .

٢ ـ وهكذا نصَّر والديه وعمه أبو طالب.

٣ ـ إذا كان الإسلام أبيونية يعرفها أهل مكة ، فلماذا لم يفضحوا النبي بها ؟

٤ ـ وهكذا نصَّر النبي نفسه .

٥ ـ هل يلتقي الإسلام الموحد والمسيحية المثلثة .

٦ ـ طريقة مبتكرة في توحيد الأديان .

٧ ـ من هم أهل الكتاب؟

هكذا نصّر المؤلف جدّ النبي

بشق النفس وصلنا إلى الفصل الرابع من كتابه ، وفيه أربعة أبواب هي :

١ ـ النصرانية في بيت محمد.
٢ ـ الإسلام قبل الإسلام .
٣ ـ النصرانية والحنيفية والإسلام .
٤ ـ الدين القيم .

ومن العناوين نستشف ، أن رحلتنا مع الحريري في هذا الفصل قد تكون طويلة ومتعبة بنفس الوقت .

ندخل رياض هذا الفصل من بابه الأول من :

النصرانية في بيت محمد

الغريب أن الكاتب يعود إلى هذا الموضوع رغم أنه لاكه واجترّه في جميع فصول لقيطه السابقة . ومع ذلك فلا بأس ، فلعل لديه جديداً حول الأمر .

كان لا بد له أن يبدأ بتلبيس الثوب النصراني لكبير البيت ، ليبدو طبيعياً بعدها تفصيل أثواب نصرانية أخرى ، لباقي أفراد البيت الهاشمي ، ومن بينهم النبي .

لذلك بدأ مهمة التنصير من عبد المطلب بالذات ، جد النبي مباشرة
كيف تمكن الرجل من تنصيره ، كيف جعله يفتح بـاب الكنيسة النصـ
ويدخلها ؟ فالموضوع ليس بصعب عليه ، فلنسمعه يشرح الأمر :

قال :

١ ـ إن عبد المطلب ، بين الذين رفضوا عبادة الأصـ
الجاهلية .

٢ ـ إن عبد المطلب ، قيل كان على ملة إبراهيـ
إبراهيم الحنيف ، القائل بالتوحيد ورفض الشرك

٣ ـ إن عبد المطلب ، كان من بين من حرموا الحـ
والزنا ، ووأد البنات ، كريم النفس ، من حـ
قريش وحلماؤها .

٤ ـ إن عبد المطلب كان ممن يتحنثون في غار حـ
ويطعم الفقراء ، ويطوف البيت ، ويرفع مائدته لـ
والوحوش على رؤوس الجبال .

٥ ـ هذه الصفات ـ بقول الحريري ـ تقود عبد المطلـ
لليهودية أو إلى النصرانية[1] .

أما لماذا لم تقده هذه الصفات إلى ديانة إبراهيم ، خصوصاً وأنه ذكـ
من بين مآثر عبد المطلب ، إنه كان على هذا الدين ؟ فأمر تجاهله والأسـ
واضحة . وفي ص ٩٧ من الكتاب ، لفت نظري توضيح للمؤلف يعتبر
« حجة دامغة » على سداد رأيه ، ينبغي ذكره تعميماً للفائدة .

قال :

إن تشديد كتب السير والأخبار على اهتمامه ـ أي

---

(١) قس ونبي ص ٩٥ ـ ٩٦.

المطلب ـ بالمساكين، وإطعام وحوش وطيور الصحراء، يصوبنا نحو الشيعة الأبيونية من النصرانيين، التي عرفنا عنها كما رأينا (؟) الشفقة بالمساكين وإطعام الجائعين[1].

ومن منطلق هذا المبدأ الدقيق نستطيع أن نطمئن كل من يريد اعتناق النصرانية والأبيونية بالذات، بأنه ليس عليه إلاّ أن يعتلي جبلاً عالياً حاملاً طعاماً سخياً يقدمه للوحوش، ويستحسن أن تكون هذه كبيرة، أو أن يتحول بمائدته إلى طيور أقرب صحراء يستطيع الوصول إليها، ليعود وبيده شهادة التنصير مكتوبة مصدقة، ممضية من الحريري المزعوم. إذاً صفات عبد المطلب المذكورة صوبته نحو الأبيونية، أو بالأحرى صوبت الأبيونية نحو رأسه، ولكن يبدو أن صفاتاً أكثر وبراهين أدق، مطلوب توفرها في المرشح للدخول إلى كنيستها. سردها المؤلف في ص ٩٧ من كتابه، فقال:

وما يؤكد لنا انتسابه إلى الشيعة الأبيونية.

١ ـ منادمته الأحبار والرهبان على السواء.

ـ لم يشرح طبيعة هذه المنادمة ـ

٢ ـ ذكر الكتب رحلاته إليهم، واجتماعه بهم، والتحدث معهم..

مثلاً: يقول السيوطي: وبينا عبد المطلب في الحجر وعنده اسقف يحادثه[2].

ـ ليست قليلة أبداً بالفعل ـ

ولكن السيوطي قال أن عبد المطلب تحدث إلى أسقف، ولم يقل إنه تنصر على يديه، فهل يكفي يا ترى أن يتحدث إنسان وآخر، حتى يكون

---

(١) قس ونبي: ص ٩٧.

(٢) قس ونبي: ص ٩٧.

حديثهما دليلاً على تدين أحدهما بدين الآخر ؟ على كل هذا هو المثل ، وللقارىء الكريم أمثال أخرى على شاكلته .

تأكيداً لنصرانية عبد المطلب قال :

يحدثنا العباس قائلاً : قال عبد المطلب : قدمنا اليمن في رحلة الشتاء ، فنزلنا على حبر من اليهود يقرأ الزبور[1] .

انتهى المثل - البرهان . ولنا ملاحظة نبديها فقط للإستيضاح : فهمنا بأن الذي نزل عليه عبد المطلب يهودي ، يقرأ الزبور كتاب اليهود ، فما دخل النصرانية بذلك ؟

سألنا لأن الأمر أشكل علينا ، فخشينا معه على عبد المطلب أن يصبح يهودياً أيضاً ، لأنه تحادث مع يهودي يقرأ زبوره ، أم أنه لشدة التحالف بينهم يهوداً ونصارى ، بات من يزور احدهم ولو كان في اليمن ، كأنه زار الآخر بلا فصل ، ولو كان في الشام ؟ .

نتابع أمثال الحريري وبراهينه « الدامغة » على نصرانية عبد المطلب ، فإلى المثل الرابع ، يسوقه الجوزي الذي ذكر :

إن محمد أصيب برمد ، فأخذه جده عبد المطلب إلى راهب يعالج العيون [2].

انتهى المثل . هل رأى القارىء الكريم ، كم هو دامغ هذا البرهان ؟ كم هو مفحم هذا الدليل ؟ نسأل : هل كان عبد المطلب ، سيذهب بحفيده إلى طبيب العيون هذا ، لو كان يعرف أن زيارته له ستبلوه بهذه التهمة المستنكرة ؟

أيضاً من أمثال المؤلف قال :

في السيرة الحلبية : أن عبد المطلب خرج من بيته حتى أتى عيصا[3] . انتهى المثل - البرهان .

---

(١) (٢) (٣) قس ونبي : ص ٩٧.

للإيضاح نذكّر القارىء ، بأن سكن عبد المطلب في مكة، بينما عيصا في الشام ، ومع ذلك فالسهرات الليلية بينهما متبادلة . .

حسناً لنكمل مع الكاتب أمثاله ، ولكن يبدو أن هذا صار تعباً من مشوار الأمثال الطويل ، الذي يجعله يقفز بين اليمن ، والشام ، ومكة ، فآثر أن يختصر براهينه ، وأدلته ، وثوابته ، وشواهده ، فيحصرها بمثل واحد صغير ، إنما متين ، فقال :

> مما يشير إلى الجو الذي كان يحيط بعبد المطلب إلى ارتياحه فيه (؟) وبالتالي إلى معارفه النصرانية أو إلى تنصره[1].

مفاجأة لنا وللجميع ، المؤلف قطع برامج أمثاله فجأة ، وأعلن نبأ تنصر عبد المطلب . قالها أخيراً . . فأراحنا وارتاح . تنصّر جدّ النبي على سنة الحريري ، ولم يعد واقفاً بباب الكنيسة بين علّ وعسى كما كان في الماضي .

تنصّر الرجل وانتهى الأمر ، ولكن تعميماً للفائدة ، ولندرة الحدث ، ولكي نتعلم كيف ندخل انسان ما في دين ما بخفة ولباقة ، لا تشعر معها الضحية إلّا وهي في الفخ ، نرى أن نستعرض باختصار شديد ، المهارات والوسائل التي اتبعها المؤلف في هذه العملية .

حدّد بادىء الأمر مواقف عبد المطلب التي تأهل بها ، فقال :

> ١ـ كان يرفض الأصنام .
> ٢ ـ كان على دين إبراهيم «هذه بنظره بحدود الإشاعة» .
> ٣ ـ كان يحرّم الزنا ، والخمر، ووأد البنات .
> ٤ ـ كان يتحنث في غار حراء .
> ٥ ـ كان يطعم الطير والوحوش على رؤوس الجبال ـهذه

---

(١) قس ونبي : ص ٩٧.

مهمة جداً ينبغي عدم نسيانها.

٦ ـ كان كريماً ، حليماً ، حكيماً .

ثم أمن له الشهود العدل على « فعلته » فقال :

شهد عليه أحدهم بأنه:

نادم الرهبان .

شهدت عليه الكتب بأنه:

تحدث مع النصارى.

شهد عليه السيوطي بأنه :

رآه يحادث اسقفاً.

شهد عليه ابن الجوزي بأنه:

أخذ حفيده محمد إلى طبيب عيون راهب .

شهد عليه العباس بأنه:

في اليمن زار رجلاً يهودياً يقرأ الزبور .

شهدت عليه السيرة الحلبية بأنه :

خرج من بيته وأتى عيصا في الشام.

وهكذا وقع عبد المطلب في الشباك .

وتعليقاً على شواهده وبراهينه ، نلفت النظر إلى أن واحداً من الشهود ، لم يذكر أن عبد المطلب كان نصرانياً .

أما لماذا أغفل كل هؤلاء ذكر هذا الأمر ، فيما انبرى المؤلف ليكشف السر ويفضح المستور؟ فهذا ما نجهله بالطبع ، على كل أصبح بالنتيجة عبد المطلب نصرانياً ، حفيد نصراني : قصي ، وجد لنصراني : محمد .

وطبيعي أن تصبح النصرانية بعد مماته إرثاً بين أولاده ، ومن بينهم عبدالله والد النبي . وبعدما تركنا الحرية للمؤلف يدخل عبد المطلب إلى الكنيسة

النصرانية كيفما يشاء ، لابد لنا من استطلاع رأي الآخرين به ، فماذا عن عبد المطلب في سجل المؤرخين ؟ . . . يستدل من قصة نذر عبد المطلب بنحر أحد أولاده ، فيما إذا رزق بعشرة أولاد ، ودخوله على الصنم هبل ، ثم تحوله إلى الصنمين نائلة وأساف ، اللذين ينحر الناس عندهما ، بعدما أصاب سهم القداح لعدة مرات ولده المنذور عبدالله ، يستدل من هذه القصة أن عبد المطلب كان على دين قومه ، وقد ذكرها أكثر من مؤرخ .

وإن كان في خلقه الرفيع ، من المزايا الحميدة ، والصفات الفاضلة ، وفي سلوكه الإجتماعي المعروف به، من حبه للخير العام ، والنزعة إلى الإصلاح الإجتماعي ، والعمل البناء لخير الجماعة ، ما يجعلنا نعتبره من الصفوة القليلة ، التي سارت على درب الهداية والرشاد قولاً وعملاً ، بإدراك ذاتي غير مستمد من دين معين .

وإذا كان من إعجاب ، كان يكنه عبد المطلب في نفسه لعقيدة ما ، فليس إلاّ للمبادىء الحنيفية، التي كان مناخها الفكري سائداً في الجزيرة يومذاك .

ولقد تحدثت أكثر المصادر التاريخية عن رفض عبد المطلب لعادات وثنية كثيرة ، منها عبادة الأصنام ، والوأد ، والخمر ، والميسر ، وسواها .

وهي نفس العادات التي كان الحنفاء يرفضونها ويدعون لهجرها ، مما يجعلنا نعتقد أنه كان قريباً بحدود معينة بأفكاره ومسلكه ، من أفكارهم ومسلكهم .

وليس ما يدل على الإطلاق لا في المصادر التاريخية ، ولا في نهج ومسلك عبد المطلب، ما يجعلنا نصدق زعم المؤلف بنصرانيته ، حتى أن المصادر المسيحية على اختلافها ، لم يحدث أن نزلت إلى درك هذا الهرج والتلفيق .

وهكذا نصّر والدي النبي وعمه أبو طالب

الهدف دائماً محمد ، المقصود محمد ، الغاية محمد .

فلولاه لما أنهك المؤلف نفسه بجده عبد المطلب ، ولا أتعبها بعمه أبو طالب ، ولا شغلها بزوجه خديجة ، محمد هو الأساس ، وإليه التوجه ، وعليه التركيز .

بعد تنصير جدّ النبي عبد المطلب ، صارت الاعلام النصرانية ترفرف فوق البيت الهاشمي، وصار الإيمان بالنصرانية يعمر في قلب كل هاشمي ، وبين هذا الكل والد النبي عبد الله وأمه آمنة .

ولكن لسوء حظ المؤلف ، فإن الموت كان أسرع منه « فزمط » عبد الله وآمنة من بين يديه، قبل أن تطالهما يد التنصير .

وإذا كان الموت المبكر قد خدم والدي النبي ، فأبعدهما عن شرب الكأس المرة ، إلاّ أن الحريري المزعوم ، استطاع بمهارته المعروفة ، أن يعلق بصنارة نصرانيته مربية النبي « بركة الحبشية » أو « أم أيمن » كما عرفها لنا ، فقال :

إنها حبشية نصرانية ، كانت متعلقة بمحمد ومتعلق بها[1].

---

(١) قس ونبي : ص ٩٧.

ولكنه نسي أن يذكر أنها كانت ابيونية المذهب ، وبذلك تكون « أم ايمن » واحـدة من القلائـل الذين علقـوا بشباك النصـرانية فقط ، دون أن تـطالهم صنارة الأبيونية .

ولفـرط تعلق النبي « بأم أيمن » حـدثنـا الحـريـري ، أن النبي قـام بحملة دعاية واسعة لها بين العرب بقصد تزويجها ، فكان يقول :

> من سـره أن يتـزوج امـرأة من أهـل الجنــة ، فليتـزوج أم أيمن[1].

ولا نـدري ما إذا كـانت دعايـة النبي لها قـد اعـطت ثمـارهـا ، أم أن « أم أيمن » ظلت لا تعرف الزواج السعيد .

المهم أنه جعل النبي يتنقل من حضن جدّ نصراني ، إلى مناخ نصـراني ، عاشه والداه قبل موتهما ، إلى كنف مربية نصرانية احتضنته فيما بعد .

فإلى الصفحة ٩٩ من الكتاب وعنوان جديد يصفعنـا به : وأبـو طالب على ملّة أبيه .

الرسالة تقرأ من عنوانها « وأبو طالب على ملّة أبيه » ، يعني أن أبو طـالب نصراني ابن نصراني، ومن عائلة نصرانية ، هكذا يقـول المقنع ، وهكـذا يشاء ، ومن لا يعجبـه الأمر فليبلط البحـر ، ومن لا يصـدق ، فليحضـر أبـو طـالب إلى جلسة استجواب ، وإلاَّ . . . فليسكت .

أبو طالب نصراني أبيوني ، ولشرح الأمر العجيب قال :

تدل وصيته الأخيرة لبنيه

ـ يقصد أبو طالب ـ على مدى اهتمامه وأبيونيته . اهتمامه بماذا يا ترى ؟ فالحريري لم يوضح شيئاً . ولكن لا بأس فماذا في وصيته الأخيـرة ؟ أثار فضـولنا حـولها . قال الحريري :

---

(١) قس ونبي : ص ٩٨.

قال أبو طالب وهو على فراش الموت لأولاده : أجيبوا الداعي ، اعطوا السائل ، فإن فيها شرف الحياة والممات .

آسف ، انتهت الوصية ، ولا يلام الحريري بالطبع إذ يبدو أن « الوصية » في أيام زمان كانت تلبس الثوب القصير .

بهذه الوصية القصيرة ، وبهذه الكلمات القليلة المقتضبة ، صار أبو طالب نصرانياً أبيونياً . فما رأي القارىء الكريم بهذا الإعجاز العبقري ؟

أيضاً يبدو أن هناك خبر عن أبو طالب فلنسمعه، قال :

أخبرنا خالد بن خداش قال : توجه إلى الشام ، فنزل منزله ، فأتاه فيه راهب ، فقال : إن فيكم رجلاً صالحاً . فقال خداش : إن فينا من يغري الضيف ، ويفك الأسر، ويفعل المعروف[1].

أما كيف عرف المؤلف سلفاً ، أن أبو طالب هو المقصود بالحديث ، وأنه هو صاحب هذه المزايا وحده من دون الناس ؟ فالعلم عنده بالطبع .

ثم نحن لا نفهم ، كيف يمكن أن تكون هذه القصة برهاناً على نصرانية أبو طالب وأبيونيته ، وليس فيها ما يخدم هذا الزعم بشيء .

المهم أنه ألبس ضحيته الجديدة أبو طالب ، على عجل ، وكيفما كان ، الكفن النصراني . فألف مبروك . مهلاً ، يبدو أن الأدلة والبراهين على نصرانية أبو طالب لم تنته بعد ، فهناك خبر جديد كما يبدو وصل متأخراً يبثه لنا حامله على الفور ، فقال :

إن آخر كلمة تفوه بها أبو طالب وهو يحتضر قوله : أنا على

---

(١) قس ونبي : ص ٩٩.

ملة عبد المطلب . . ثم مات[1].

أغلق الحريري بـاب خـيمة أبـو طالب عليـه بعد مـوته ، وجثمـانه مسجّى وسطها ، وحوله أولاده الكثر يبكونه ، وبينهم ابن أخيه محمد بالطبع .

ثم نسمعه في كتابه يدب الصوت على الشيعة وهـو يعرف مـركز أبـو طالب في قلوبهم ، فينبهّهم باسم الغيرة «الطاهرة» ، قائلاً :

إن السنّة عن قصد وعمد ، أماتوا أبو طالب على غير هداية وإيمان ، كراهية منهم بإبنه علي[2].

وأمله الكبير بالطبع ، أن يهب الشيعة بحمية المطعون لرد التحدي بمثله ، ليكون ضميره «مرتاحاً» وصدره منشرحاً . مات أبو طالب ومعركـة تناتفـه قائمـة ؛ بين من أماتوه مؤمناً على الإسلام ، أو على دين إبـراهيم من جهة ، أو مشـركاً ، والآن نصرانياً ، بعد ما ساق المؤلف عنه لأول مرة هذه الفرية من جهة أخرى .

وليس لنا والأمر كذلك ، إلاّ الـرجوع إلى سجـل التاريـخ ، لنرى مـاذا في صفحاته حول أبو طالب . نذكر أننا قلنا في مكان سابق ، أن أبو طـالـب دافع عن ابن أخيه النبي ، بفعل القربى والحمية العـائلية والقبليـة ، وليس دفاعـاً عن دين آمن به أو نضالاً في سبيل الدعوة .

وربما كان أبو طالب في قرارة نفسه ، يختزن حداً ما من الإعجاب والتأييد لدعوة ابن أخيه ومبادىء دينه ، ولكنه مـات وظل هـذا الموقف المفتـرض حبيس قلبه وعقله ، فلم يفصح عن إسلامه ، رغم مـا تردد عن إلحـاح ابنه الإمـام علي عليـه لإشهار إسـلامه قبيـل وفاتـه ، إلاّ أنه على مـا يبدو ظـلّ على موقفـه ومات كذلك .

أكد هذا الأمر صاحب قصة الحضارة ، فقال :

---

(١) قس ونبي : ص ٩٩.

(٢) قس ونبي : ص ١٠٠ .

لم يعتنق أبو طالب الدين الجديد[1].

وذكرت الدكتورة ناديا شريف العمري، نفس التصور عن أبو طالب فقالت :

أقرّ أبو طالب بنبوة الرسول ونباهة شأنه ، ولكنه لم يؤمن به خوف اللوم والمسبّة ، وعبّر أبو طالب عن موقفه هذا ببعض من الشعر فقال :

ودعوتني وزعمت أنك صادق ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرفت دينك لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبّة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا[2]

وذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن ، موقف أبو طالب من الإسلام عندما قدم رجالات قريش عليه ، يطالبونه بوضع حد للنبي ، الذي جاء بدين يسفه اديانهم ، فقال :

ثم انصرفت قريش عن أبي طالب ، فعظم عليه تحدّي قومه له ، وفراقهم إياه ، وعدوانهم له ، ولم يطب نفساً باسلام رسول الله ، ولا خذلانه، وبعث إلى الرسول ، فقال له : يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فابق علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق[3].

ومن هنا يتبين بوضوح قاطع ، أن أبو طالب ظلّ على دين قومه كما عبد المطلب ، وليس كما ذهب الحريري ، فجعله يموت على نصرانية لا يعرف أبو طالب حتى اسمها .

---

(١) قصة الحضارة: ج ١٣ ص ٢٨ .
(٢) أضواء على الثقافة الإسلامية : ٦٥ .
(٣) تاريخ الإسلام السياسي : ٨٤.

إذا كان الإسلام أبيونية يعرفها أهل مكة فلماذا لم يفضحوا النبي بها؟

الإسلام قبل الإسلام . .

ذلك هو عنوان الصفحة ١٠٢ من « قس ونبي » وغرابته تشدنا لمعرفة المزيد .

يبدأ المقنع هذه الصفحة بتلاوة الآيات التالية :

١ ـ ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[١].

٢ ـ ﴿ من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام[٢] ﴾ .

٣ ـ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾[٣].

٤ ـ ﴿ وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[٤].

وفي نفس الصفحة طرح مجموعة اسئلة ، فقال :

إن سؤالاً بالغ الأهمية يحتم علينا طرحه بجدية ، وهو :

١ ـ هل الإسلام دين جديد ، نشأ مع محمد ، وكان أول من دعا إليه؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية/ ١٩ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية/ ١٢٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية/ ٨٥.

(٤) سورة المائدة ، الاية/ ٥ .

٢ - هل من خلاف بين التعاليم النصرانية ، التي عاش محمد في ظلها ، وبرعاية قس مكة ، وبين تعاليم الإسلام في القرآن العربي ؟

٣ - وهل الإسلام العربي وجد من لا شيء ، أم أنه صيغة عربية نصرانية ؟

وبدا صاحبنا على ثقة أكثر من موقفه عندما قال :

إن القرآن وحده يملك الجواب ، وعلى القرآن معتمدنا ، وسوى القرآن مشكوك فيه(٥).

إنها دعوة لمناظرة ، نحن في الحقيقة طلابها ، ومن يسمعه يدعو إليها يقول : سيحرجهم فيخرجهم .

هذه الآيات بنظره : حجة على الإسلام ، وتهمة ، ومأخذ .

فهو يتهمه بأنه : يعتبر نفسه الدين الحق ولا سواه ، فيما هو يعتبره :

١ - ليس بدين جديد ، وأن محمداً لم يأت إلاَّ بما كان موجوداً قبله في الأديان الأخرى . وموقف المؤلف هذا ليس جديداً ، وإنما تكراراً نجده في كل صفحات كتابه . . ولابد والأمر كذلك من وقفة لنقول : يرى اليهود أن موسى نبي الله ، وأن بني اسرائيل شعبه المختار ، وأن عيسى ومحمداً كليهما رجلان دعيّان ، ليست لهما رسالة ، وأن أتباعهما قطعان من المضللين ، لا يقام لأديانهم وزن ، ولا يمنحون أية حرمة .

والمسيحيون في نظرهم مخدوعون ، في لقيط حملت به أمه سفاحاً .

والمسلمون في نظرهم ، مخدوعون في إعرابي جاء من الصحراء ، لا يعقل شيئاً .

---

(١) قس ونبي : ص ١٠٢.

والمسيحيون، وإن اعترفوا بموسى وتوراته ، إلاَّ أنهم ناقمون على اليهود ، افتــراء هم على عيسى وأمـه ، ولــذلـك سنــوا في معـاملتهم قـوانين الإذلال والإستئصال ، وكما نقموا على اليهود موقفهم من المسيح ، فهم كـذلك نـاقمون على الإسلام ، لأنهم يرون الإسلام ديانـة ملفقة ، جـاء بها من عنـد نفسه رجـل كـاذب في دعـواه النبـوة ، والـدين الـذي نسـخ مـا قبله ، وأنكـر مـا بعـده هــو المسيحية ، التي يجب أن تنفرد وحدها بالحياة والسيادة .

قال الدكتور جورج قرم :

إن المسيحيـة لا تتصور خـلاص الإنسان خـارج المسيح ، انطلاقاً من قول المسيح : من ليس معي فهو علي[1].

أمـا المسلمون ، فهم يؤمنـون بموسى ويـوقرونـه ، ويعتبرون التهجم على مكانته كفراً بالإسلام ، وهـم كذلك يؤمنون بعيسى ، ويكرمون مـولده ، وينـزهون نسبه ، ويرون الطعن في عفاف أمه أو شرف ابنها كفراً بالإسلام .

وهم يضمـون إلى إيمـانهم بمـوسى وتـوراتـه ، وعيسى وإنجيله ، إيمـانـاً جديداً بمحمد وقرآنه ، على أساس أن النبوة الأخيرة ، جاءت تصديقاً لما قبلها ، ومحواً للفوارق والخلافات ، التي مزقت شمل العالم أجمع .

﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلاَّ لتبين لهم الذين اختلفـوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[2] .

فالإسلام في الحقيقة هو يهودية موسى ، ونصرانيـة عيسى ، وهدايـات من قبلهما من رسل الله ٠

---

(١) تعدد الأديان وأنظمة الحكم: ص ١٣٥ دار النهار ١٩٧٩ بيروت.

(٢) سورة النحل، الآية/ ٦٤.

﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[1].

والإسلام يؤمن بأن تعاليمه متممة للتعاليم ذاتها ، التي نزلت على النبيين موسى وعيسى ، ولا خلاف ولا تناقض معها ، إلاَّ بما طرأ عليها من تحريف ، وزيادة ، وحذف ، وهنا يكمن جوهر الخلاف بين الإسلام من جهة ، والمسيحية واليهودية من جهة أخرى .

فهو يدعو إلى وحدة بين الأديان السماوية ، مشروطة بعودة اليهود والنصارى إلى تعاليم وأحكام التوراة والإنجيل ، كما نزلت على موسى وعيسى ، ما عدا ذلك ، فسيظل إيمان المسلمين قائماً راسخاً ، بأن الدين عند الله الإسلام وحده ، ما ظل الإعوجاج يتنكب المسيحية واليهودية على السواء .

﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾[2]

إذاً ، فالإسلام يطرح وحدة الإيمان ، مشروطة بالعودة إلى أحكام الله وشرائعه الصحيحة ، رافضاً أن يمالىء أو يساير في أمر ، مهما صغر أو كبر ، على حساب عقيدته وتعاليمه ، فنراه يكفر المسيحيين عندما خرجوا على تعاليم نبيهم عيسى ، فألّهوه ، أو أشركوه بألوهية الله ، أو جعلوه ابناً له .

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾[3].

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلّه إلاَّ إلّه واحد ﴾[4] .

---

(١) سورة آل عمران، الآية/ ٨٤.

(٢) سورة المائدة، الآية/ ٤٧ .

(٣) سورة المائدة ، الآية/ ١٧ و٧٢ .

(٤) سورة المائدة، الآية ٧٣ .

﴿ وما المسيح ابن مريم إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾[1].

ويفضح تحريف اليهود وتزويرهم لشرائع نبيهم موسى :

﴿ قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله إنى يؤفكون ﴾[2].

فلو كان القرآن منقولاً عن كتاب آخر كما زعم الحريري ، لوجب زوال التعارض بين المنقول والمنقول عنه ، وهذا مالا نراه بين القرآن ، والتوراة ، والإنجيل ، الحاليين .

وإذا كان المؤلف يعتقد ، أنه وجد ممسكاً على الإسلام ، لأنه رأى لبعض تعاليم التوراة والإنجيل، أو ما تبقى منهما بعد مجزرة التشويه والتبديل التي حصلت بهما، أثراً في القرآن ، فاعتبر أن ذلك مفيداً له في معركته الخاسرة ضد الإسلام ، فهو مخطىء واهم .

وإذا كان بين قدامى المسيحيين واليهود فئة رفضت قبول التزوير والتحريف الّذيْن حصلا في التوراة والإنجيل ، فاحتفظت لنفسها بمعتقدات ومفاهيم قريبة من الحقيقة ، حتى إذا ما أتى الإسلام ليصلح المسيرة ويقوم الإعوجاج سارعت إليه فتقبلته وآمنت به واعتنقت تعاليمه فذلك أمر غير مستغرب، رحب به الإسلام وشجعه واعتبره ظاهرة صحية طبيعية أثنى عليها القرآن ونوه بها بالعديد من آياته . فجاء في الآية :

﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً

(١) سورة المائدة ، الآية/ ٧٥.

(٢) سورة التوبة ، الآية/ ٣٠.

أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾[١].

فالإسلام يعتبر تعاليمه متممة لا ناقضة ، مثبتة لا لاغية متوافقة لا متعارضة ، لكل السليم من التعاليم اليهودية والمسيحية التي سبقته ، ومن هذه الوجهة ، فالإسلام ليس جديداً ، لأن كلام الله ليس فيه قديم يتجدد ، أو جديد يقدم ، وتعاليم السماء واحدة ، شاءت حكمة الله وخير البشرية أن ينزلها الله إليهم على مراحل ، وبواسطة أكثر من نبي ورسول .

فشريعة موسى قبل أن تطالها يد التزوير ، كانت ولا شك متممة لشرائع ما سبقها من الأنبياء ، والرسل . والمسيحية ، في أصالتها وحقيقتها ، قبل مرحلة الضياع التي انتهت إليها، متممة ولاشك لشرائع موسى الحقيقية ، ومنسجمة وروحها وأهدافها .

وعن هذه الحقيقة عبر قول المسيح :

ما جئت لأنقض، بل لأكمل .

ولقد جاءت الآية في القرآن لتصادق على ما قاله عيسى :

﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾[٢] .

ورسالة النبي محمد ، ليست خارج هذا الإطار ، فلقد كانت مشيئة الله أن تكون هذه الديانة خاتمة رسالاته إلى البشر ، بحيث أتت شاملة ، جامعة ، متممة ، مصدقة ، لما سبقها من الرسالات . فالتوراة والإنجيل والقرآن ، هذه الكتب السماوية الثلاث ، كانت ولابد ستشكل وحدة متجانسة رائعة ، لو أتيح للتوراة والإنجيل المضيعين أن يكونا إلى جانب القرآن ، ليكونوا جميعهم مسلمين لله ، مؤمنين بوحدانيته المطلقة . وإلى ذلك ولا شك قصدت الآية :

---

(١) سورة آل عمران، الآية/ ١٩٩.

(٢) سورة الزخرف ، الآية/٥٩.

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتب إلا بالتي هي أحسن إلاَّ الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وآلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾[1].

ومن هذا الفهم والمنطلق ، أطلت الآية على الناس لتعلن لهم :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[2].

فالأيات في الحقيقة ، تمثل فهماً راقياً نبيلاً سامياً لطبيعة الشرائع الإلّهية ، وموقفاً عظيماً من الأديان السماوية ، لم يستطع المؤلف أن يرتفع من دركِ احقاده ، ليرقى إلى سمو مستواها، فأساء تفسيرها ، وشوه مقاصدها .

أما سؤاله :

وهل الإسلام العربي وجد من لا شيء ، أم إنه صيغة عربية نصرانية ؟

معروف أن المؤلف أكّد في كتابه ، أن مكة قبل الإسلام كانت تعجّ بالنصارى ، لدرجة أنه صور للقارىء أن مناخها النصراني المسيطر ، سمح له بسهولة بتنصير جدّ النبي وعمه ، وأخيراً النبي نفسه ، وأكد أيضاً أن القرآن العربي كما يسميه ، ما هو إلاّ ترجمة للإنجيل العبراني ، وهو إنجيل الطائفة الأبيونية التي كان نصارى مكة على مذهبها ، وورقة قساً على كنيستها ، كما زعم في لقيطه. أليس هذا ما نفهمه عندما نقرأ في اللقيط ما يلي :

إن ورقة كان رئيساً على كنيسة مكة النصرانية في زمن عبد المطلب ، وفي فترة من حياة محمد ، فعليه تقوم مهمة قيادة الكنيسة ، وتعليم الناس وإرشادهم ، وتفسير الكتاب وتأويله ، وإليه يرجع الناس في مختلف أمور الدين ، العقائدية منها والتشريعية ، وعليه تقوم مهمة تفقيه رعيته

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية/ ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران، الآية/ ١٩ .

الوحي ومعاني التنزيل ، يفصل لهم آيات الكتاب ، وينقل إليهم ما عجم منه ، وييسره لهم بلسان عربي مبين ، ويثبت في إيمانهم ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم[1] .

فمن الطبيعي والأمر كذلك ، أن ورقة بحسب مهامه المناطة به ، كان يدأب على شرح آيات الإنجيل العبراني ، لهداية الناس إلى تعاليمه فيفسرها وييسرها لهم بلسان عربي . وذلك يعني أن نصارى مكة الكثر ، كانوا يعرفون جيداً مضامين هذا الإنجيل بلغة الأم ، ومترجماً إلى العربية أيضاً ، باعتبار تعاليمه مصدر إيمانهم ، وبذلك فهو ليس بغريب عليهم . هذا الأمر يجعلنا نعتقد جازمين ، أن النبي كان بمجرد إعلانه لمكة وقريش « المتنصرتين » آيات كتابهم العبراني ، التي يحفظونها عن ظهر قلب ، مدعياً بأنها وحي من الله إليه ، كان ذلك كافياً لتكون فضيحة الفضائح له بين قومه وأهله ، وعورة لا يمكن له سترها ، وثغرة في مصداقية دعوته ، كيف يمكن له سدها ؟

إذ ماذا سيكون موقف النبي يا ترى ؟ وبماذا سيجيب ، لو تقدم نصراني من الناس في مكة وقريش، ونادى بهم ، أن اسمعوا وعوا ، إن ما يدعيه محمد وحياً من السماء ، ليس إلاَّ آيات الكتاب العبراني ، التي يعلمنا إياها القسّ ورقة بن نوفل في كنيسته يومياً ، وورقة بينكم فاسألوه . أما كان ذلك كافياً ، لهدم كل بنيان محمد وإلى الأبد . . ؟

والغريب ان شيئاً من ذلك لم يحدث ، رغم أن قريش ومكة كلها كانتا كالحريري المزعوم ، تفتشان، وتنقبان بحماس موتور ، عما يعيب النبي ، ويسفه دعوته ، ويكذب نبوته ، ويثبت زيف كتابه . فكيف يحجمون ، والدليل أمامهم قاطع كالسيف ،؟ وكيف يتأخرون، والبرهان في متناول أيديهم ساطع فاضح ؟

والعجيب أن أحداً من أعداء النبي ودينه وما أكثرهم ، سواء في مكة أو خارجها ،

---

(١) قس ونبي : ص ٣٠.

في حياة النبي أو بعد مماته ، ما قبل أو فطن أن يقدم للمؤلف هذه الخدمة الجلى .

ترى، أكانوا لهذه الدرجة جميعهم سذجاً أغبياء؟

ونقول للتذكير ، بأن من النصارى أنفسهم من أسلم وحسن إسلامه ، واستشهد في سبيل الإسلام فذكر جواد علي :

إن كاهن خزاعة عمرو بن الحمق ، أسلم وصحب النبي ، وشهد المشاهد مع علي وقتله معاوية في الجزيرة[1].

الأمر يصل بنا إلى أحد خيارين :

١ ـ إما أن يجد المؤلف تفسيراً مقنعاً ، عن سرّ سكوت نصارى مكة وأعداء الإسلام المستغرب، عن عملية محمد الخطيرة المفضوحة ، ونجاحه بكمّ أفواه مدينة بكاملها ، وقدرته الفريدة على شلّ مدارك كل الناس وعقولهم ، ولا أعتقد أن للمؤلف القدرة على تفسير المستحيل .

٢ ـ وإما أن يكون حديثه من أساسه عن الوجود النصراني في مكة وقريش ، وعن الطائفة الأبيونية ، وكتابها العبراني ، وقسّها ورقة ، ومهامه ، ومراكزه ، كانت كلها خرافة وهراء ، لا أساس لصحتها .

لتصبح قصة كتابه كلها خيال وأوهام .

وهي الحقيقة المرة لسوء حظه .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٤ ص ٢٦٠ .

وهكذا نصّر النبي نفسه

بعد عملية تنصير عبد المطلب وأبو طالب المتعبة ، نجد المؤلف وقد أصابه السأم والملل ، من جراء عمليات التنصير الفردي البطيئة ، التي تطول وتنهك الأعصاب ، ولا تنتج إلاَّ قليلاً ، قد آثر كما يبدو أن يجمع مرة واحدة ، وفي وقت واحد كل أهالي مكة ، ويفتح لهم باب كنيسته ، لينالوا بركة النصرانية مرة واحدة . وبذلك يكون النبي واحداً منهم ، وهو في الحقيقة ، مبتغاه وهدفه .

وتمهيداً للأمر الجلل ، قال :

> مكة لم تكن مشركة ، ولا وثنية ، ولا جاهلة بالله ، وبالتالي لم تكن في عصر الجاهلية ، مكة كانت مؤمنة (؟) بالله الواحد الخالق ، ولكن كانت تتقرب إليه بواسطة الصور ، وشفاعة الملائكة والقديسين (؟) وبالرموز ، والتماثيل ، والصور، وقل بواسطة الأيقونات[1].

نقاطعه لنسجل دهشتنا ، « مكة مؤمنة، موحدة ، متعبدة لله الواحد »!! أتزوير أكبر من هذا التزوير ؟ وتجني « على الحقيقة أكبر من هذا

---

(١) قس ونبي : ص ١٠١ .

التجنّي » ؟ إن ذلك يجعلنا ندقق بموضوع الصنم وعبادة الأصنام ، فنحدد ، ما هو الصنم والوثن ؟ وماذا تعني عبادتها ؟ الصنم هو التمثال المصنوع من الخشب ، أو الحجر ، أو المعدن ، وله شكل مخلوق حي ، كإنسان، أو حيوان، أو طائر، أو مزيج من ذلك كله .

أما الوثن ، فلا صورة له كالحجارة والنصب ، وما إلى ذلك .

ويمثل الصنم - في نظر عبدة الأصنام ، قوة عليا هي فوق الطبيعة ، وقد يعتقدون أنها كامنة فيه . ومن روايات المؤرخين يتبين ، أن عبادة الأصنام كانت منتشرة انتشاراً واسعاً قبل الإسلام في الجزيرة العربية ، ومن العوامل والدوافع التي دفعت العرب إلى عبادة احجار ومعادن ، لا حياة فيها ، ولا نفع ولا ضر ، ما ذكره القرآن عن لسان المشركين ، في تعليلهم لعبادة الأوثان :

﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[1] .

أي أن وجود الصنم أمام المتعبد ، يساعد على تركيز الفكر ، والتعمق في التفكير ، للتقرب إلى الله ، مع أن السجود للصنم ، على أنه رمز لله ، أو القول بأن الصنم ، يقرب إلى الله ، هو باطل منطقياً ، لأن وجود الصنم أمام المتعبد في صلاته ، يصرف الفكر عن الله ، وأن التقرب إلى الله يحصل بالتوجه بالفكر رأساً إليه ، لا بواسطة جماد أو صورة .

هذا إضافة إلى أن العرب قبل الإسلام ، كانوا يعتمدون الأصنام من جملة الشفعاء ، الذين تشفع لهم لدى آلهتهم في استجابة مطالبهم .

فجاء الإسلام ليؤكد بأن الشفاعة هي من اختصاص الله وحده .

﴿ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ﴾[2].

لأن الله يتفرد بخلق الكون والتصرف فيه ، والشفاعة من بين ما يختص به .

---

(١) سورة الزمر، الآية/ ٣.

(١) سورة الزمر، الآية/ ٤٤.

ويؤكد القرآن بأن الشفاعة لا تكون لأحد من مخلوقات الله ، إلّا بعد اذن منه :

﴿ ما من شفيع إلاّ من بعد إذنه ﴾[1].

ويعيب القرآن على المشركين اتكالهم على الشفاعة ، ويبين بطلان ذلك بقوله :

﴿ يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾[2].

وعليه فنظرية الإسلام ، تقرر توحيد الله توحيداً مطلقاً في ذاته وصفاته ، والتوجه إليه توجهاً كلياً ، دون شفيع مخلوق ، ولا وسيط يشركه الإنسان بجهله ، بالذي هو من اختصاص الله وحده ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال ، أن نعتبر ما كان قائماً في مكة قبل الإسلام ، من عبادة الأصنام والأوثان غير شرك ووثنية ، والحريري حر أن يعتبره ما يشاء .

« مكة مؤمنة موحدة متعبدة لله الواحد » ، قالها بلا تهيب من صفعة الحقيقة له ، ولم يأت بذكر للأصنام الثلاثماية والستون ، التي كانت محشوة بها الكعبة .

مكة التي اشعلت نار حرب دامت أكثر من خمسة عشر عاماً ، افنت خلالها زهرة شبابها ، وخسرت صناديد أبطالها ، ودمرت اقتصادها وازدهارها ، ولم توقف حربها المدافعة بها عن شركها وأصنامها ، إلّا بعدما هزمت .

مكة هذه ، صارت بنظره مؤمنة موحدة ، طاهرة الذيل ، لا تعرف الشرك ولا الكفر ، وإنما خاشعة لله الواحد القهار ، إنه الأكثر من العهر والفجور .

---

(١) سورة يونس، الآية/ ٣.

(٢) سورة يونس، الآية/ ١٨.

ولو سألناه : أين ذهب بأصنام هذه المدينة ، وهي كما نعرف صاحبة القول في حياة ابنائها ؟ لما بغير التأتأة أجاب .

ولـو سألنـاه : دفاعـاً عن من ضحى أهل مكـة المشركـون، عبدة الأصنـام بـالغالي والنفيس ، وبـالأرواح والأمـوال ، عنـدمـا شعـروا بخـطر الإسـلام على شركهم ، وأصنامهم ، وأوثانهم ؟

أذبا عن الأصنام ؟ أم عن الصلبان ؟ أم عن الإثنين معاً ؟. لما بغير التـأتأة أجاب، ثم نسأله: هل المسيحية ترى حقاً، إن ما كان يسود مكـة هو منـاخ إيمان بالله . . ؟ أم ان القربى الحـاصلة بين طريقـة تقرب مجتمـع مكة الـوثني المشرك بـالله ، بواسـطة اللات والقـديسين والعزى ، والأيقـونات وهبـل الموزعـة داخـل الكعبة يومذاك ، وطريقة تقرب المسيحيين الحـالي بالله ، بـواسطة الأربعـة عشر صنماً، التي نراها مزروعة داخل كل كنيسة باتقان فني رفيع ، هو ما يجعل الدفاع عن أجواء مكة السالفة الذكر أمراً مفروضاً على المؤلف ؟

ولا يسعنـا إلاّ أن نتساءل مـع البروفسور المسلم دافيـد بنجـامـان كلداني ، عندما قال :

> أيهمـا أكثر طهـراً واستقامـة في نظر الله ، الشخص الـذي يعبـد خالقـه في جوف المسجـد البسيط ، أو الـذي يعبـد الأربع عشرة صورة وتمثالاً ، وهي تمثـل مناظـر الصلب ، في مبنى جدرانه ومذابحه مزينة بالتماثيـل الوثنيـة ، وأرضه مغـطاة بعظام المـوتى ، وقبته مـزخـرفـة بصـور المـلائكـة والقديسين ؟[1].

من يقـرأ ما قـاله الحـريري ، يكـاد يلوم النبي محمد لأنـه أتى بـدعـوة ،

---

(١) محمد في الكتاب المقدس : ص ٢٠٤ .

مجتمع مكة بواقعة ليس بحاجة لها . ويكاد يعتبر أن النبي بديانته « الدخيلة » قد عكر صفو تلك الأجواء الإيمانية، النقية، الطاهرة، الصافية، الخالية من كل شرك ووثنية، لائماً النبي ، متسائلاً : ما الداعي وأمر مكة كما هو لدين جديد؟

نكمل مع المؤلف، قال :

> وبيئة محمد الخاصة ، لم تكن على غير ما كانت عليه مكة ، أي على غير الإيمان والهدى .
>
> وربما منادمة محمد للرهبان ، ومعارفه لهم ، والتجأوه اليهم (؟) في ملماته وصعوباته، وأمراضه، خير شاهد لمعرفة محمد بالنصرانية، أو. . . لتنصره أيضاً[1].

إذاً، ما كنا ننتظر حصوله قد حصل ، ما كنا نتوقع وقوعه قد وقع . . . تنصر النبي ، وقضي الأمر الذي فيه تستفتيان . نصّره الحريري المزعوم ، بعدما جعلنا نعيش طويلاً على أعصابنا المشدودة ، فأراحنا وارتاح ، ذلك لأن وقوع المصيبة أفضل من انتظارها .

تنصر النبي وألبسه الحريري ثوب الرهبنة الزاهي ، ومنحه بركته ، ولم يعد بيد معترض سبيل .

ولكن إذا كان المؤلف ، قد دفع لنا ببعض الإسهاب ، فيما اعتبره براهين وشواهد على نصرانية عبد المطلب وأبو طالب ، رغم سخافتها ، إلا أنه حرمنا من هذه النعمة فيما يختص بالنبي ، فاختصر الشواهد ، لدرجة أنه لم يأت على ذكر واحد منها ، ولم نجد فيما اعتمد عليه سوى اتكاله على :.

ـ المناخ النصراني العام ـ المزعوم ، الذي قال إنه كان يشمل مكة من أقصاها إلى أقصاها ، ومن يقرأ له ذلك يكاد يتصور فعلاً ، إن الصلبان كانت

---

(١) قس ونبي : ص ١٠١ .

تنتشر في كل حي وزاوية من مكة ، وإن النصرانية فيها كانت هي الآمرة ، الناهية، المسيطرة . .

وطالما أن النصرانية كانت كل شيء في حياة مكة ، وإن الإيمان بها شعار في قلب كل مكي ومكية ، فلا ينسى الحريري بعبقريته أن يشرح لنا : هل كان الوأد ، والسطو ، والقتل ، والغزو، والثأر، والسبي، وباقي العادات البربرية الهمجية ، من ضمن مناخ الإيمان بالنصرانية ؟ وإذا كان . . كلا ، فماذا كان اذن دورها هناك ؟ أللمراقبة فقط ؟ وعد الضحايا ، وتلاوة البركات عن أرواحهم ؟ فأين هو إيمان مكة بالله الواحد يا مؤمن آخر زمان ؟

هل يلتقي الإسلام الموحد والمسيحية المثلثة؟

في ص ١٠٣ من كتابه قال :

> لقد حلا لمحمد أن يرد الإسلام إلى إبراهيم الخليل ، ويربطه بإيمانه الحنيف ، لكأن الإسلام دين سابق على اليهودية والنصرانية معاً .

ثم فسر لنا أسباب «حلا» محمد لرد الإسلام إلى إبراهيم ، فقال :

> إلاَّ أن ارتباط الإسلام بإبراهيم في نظر محمد ، لم يكن سوى تخط للخلافات العقائدية ، التي وقعت بين شيع بني إسرائيل وأحزابهم المتعددة ، التي فرقت بين الرسل وبين الأحزاب ، من أجل ذلك « طاب » لمحمد أن يثبت ديناً هو أسبق في الزمان من تلك الخلافات الدينية الطاحنة ، واعتبر أنها طريقة طريفة من محمد ، أن يربط الإسلام إلى العقيدة الأساسية في كل دين[1].

ويقصد « بالعقيدة الأساسية في كل دين » عقيدة التوحيد ، معتبراً ـ وهنا المهزلة ـ أن المسيحية هي أيضاً من الديانات الموحدة . ثم نشعر بضيقه وسأمه

(١) قس ونبي : ص ١٠٣.

خانقين ، من جراء ترديد الإسلام شعارات تؤكد وحدانية الله المطلقة . . والتركيز عليها . أما على ماذا غير توحيد الله المطلق ، كان على الإسلام أن يركز ، ليبعث السرور في قلبه ، ويبعد عن نفسه الملل ؟ فأمر لم يوضحه لنا .

وأظنه سيكون سعيداً، لو أن الإسلام نادى ، أو تغاضى ، أو مالأ نظرية تجزئة الله ، ليصبح ثلاثة آلهة ، وجمعها لتعود إلَهاً واحداً بثلاثة ، ملتقياً بذلك وديانة مقررات مجمع نيقية الشهير .

فلنسمعه ينقل اعتراضه ، ويبدي استنكاره ، ويثبت شكواه فيقول :

> وبهذه الطريقة الطريفة ، رد محمد الإسلام إلى العقيدة الأساسية في كل دين ، ألا وهي الإيمان بإلَه واحد ، والقول بالوحدانية المطلقة ، والتركيز عليها ، والأخذ بها دون سواها ، عليها بني الإسلام ولم يبن على غيرها .
>
> ولا خطيئة في الإسلام إلاّ انكارها ، وكل ذنب يغفر ما عداها ، ولم ين القرآن من التكرار الممل ، لا إلَه إلاّ الله ، ولا إلَه إلاّ هو، وما من إلَه إلاّ إلَه واحد ، وما لكم من إلَه غيره[٢].

نقول : أن من مهام الإسلام الأساسية ، تقويم الإعوجاج وإعادة إصلاح مسيرة الإنسان على الأرض ، والإمساك بيد البشرية العمياء ، لنقلها من دروب الضلال إلى الرشاد ، بعدما فشلت اليهودية والمسيحية في هذا السبيل ، بسبب ما دس فيهما من عقائد منحرفة ، أرجعت الخليقة إلى عهود الشرك الأولى .

من أجل ذلك ، كان الإسلام ، ومن أجل ذلك دخل هذا الإسلام إلى عقول الناس وقلوبهم، من باب الإيمان الصحيح ، باب التوحيد المطلق ، وعلى

---

(١) قس ونبي : ص ١٠٣.

هذا كان التركيز على وحدانية الله أمراً ضرورياً ، وطبيعياً ، ملازماً لضرورة ومبرر وجود الإسلام نفسه .

ولا نخطىء إذا ما قلنا ، إن هذه الوحدانية المطلقة لله في الإسلام ، هي في الحقيقة سبب نقمة كل أهل الشرك عليه وتصادمهم معه ، لأنها نظرية أتت نقيض ما عندهم ، فسفهت وفضحت، وكشفت عيوبهم وعوراتهم ، ونظريات الشرك المندسة في كل زوايا إيمانهم .

في ص ١٠٤ قال :

> والدليل الثاني على اسبقية الإسلام على الإسلام ، يأتي من النبي نفسه، الذي أعلن انضمامه إليه ، وقد قالها بصراحة ووضوح (؟) وأنا من المسلمين ، وإني من المسلمين ، في الوقت الذي لم يكن بعد مسلمون من العرب .

معتبراً كالعادة ، أن هذه الآيات أقوالاً لمحمد لا من عند الله .

ثم أكمل قائلاً :

> وهو أمر إلّهي أو من هو دون الله ، أن يلتحق محمد بالمسلمين وينضم إليهم ، أمرت أن أكون من المسلمين ـ أمرت أن أسلم لرب العالمين . ثم اشتد الأمر على محمد ، فدعاه الله **أو من هو دون الله** ـ إلى أن يكون رأس المسلمين .

ما استوقفنا من هذا الهذيان قوله : « أمر إلّهي أو من هو دون الله » و « دعاه الله أو من هو دون الله » فهو بالحالتين يرمي بوضوح « بمن هو دون الله » إلى جهة قائمة على الأرض، قصد بها ورقة بن نوفل ، وهذا القول ـ الهلوسة ، يجعل الاحتمال وارداً ، بين أن يكون « الأمر » أو « الدعوة » من الله ، أو من ورقة سواء بسواء ، فكما يمكن أن يكون من الله ، يمكن أن يكون أيضاً من ورقة ، والعكس صحيح .

وفي ذلك مساواة بين الله وورقة ، وهو بالطبع كفر وزندقة وتجديف على الله .

ولطمأنة صاحب قس ونبي نقول : الإسلام فعلاً بعضه كان قبل ما سماه بالإسلام العربي ، هذه حقيقة لا خلاف معه عليها ، الإسلام كان في تعاليم اليهودية قبل أن تلقى هي الأخرى نفس المصير ، على أيدي اتباعها اليهود ، والإسلام كان في ديانة عيسى الحقة ، قبل أن تطالها يد التحريف والتزوير .

والإسلام كان في ديانة إبراهيم التوحيدية ، التي فقدت بعض تعاليمها ، بفعل تباعد الأزمان ، وجهالة الإنسان الأول .

فكان لابد أن تُبعث رسالات الأنبياء من جديد ، بعدما عمّها الإعوجاج والزوغان ، فصارت طريق غواية لا هداية ، وسبباً لمصائب الإنسانية وأمراضها ، لا سبيلاً لخيرها وشفائها ، فجاء الإسلام جامعاً لكل تعاليم الأديان كما نزلت على النبيين ، مكملاً لها ، وخاتمة لرسالات المشيئة الإلّهية ، ومن قال بالإسلام سوى ذلك ، فهو أما جاهل أو منافق .

عرّف ابن تيمية في كتابه « النبوات » ص ٩٧ معنى الإسلام ، فقال :

> الإسلام هو أن يستسلم الإنسان لله لا لغيره ، فيعبد الله ولا يشرك به شيئاً ، ويتوكل عليه وحده، ويحب الله المحبة التامة ، لا يحب مملوكاً كحبه لله ، بل يحب لله ، ويبغض لله ، ويتوكل عليه وحده ، ويرجوه ، ويخافه وحده ، فمن استكبر من عباده لم يكن مسلماً ، ومن يعبد مع الله غيره لم يكن مسلماً .

في الصفحة ١٠٥ حط بنا الحريري عند مختصر لمبادئه ، فقال :

> والأجدر القول : أن النصرانية والإسلام دين واحد ، باختلاف الإسم ، أو قل إن الإسلام هو الإسم العربي للنصرانية .

مقولته إن الإسلام هو النصرانية ، والنصرانية هي الإسلام ، وهذا معرباً عن تلك ، وتلك ترجمة لهذا ، إلى آخر المعزوفة النشاز .

لم تعد غريبة ولا جديدة على مسامع القارىء ، الذي صار يعرفها جيداً ، وحافظاً لها عن ظهر قلب ، لكثرة تكرارها ، وقد يكون فيما تميز به الحريري المزعوم ، إضافة إلى جلده الغريب على الترديد والتكرار ، هو في قدرته على تجاهل شعور القارىء بالسأم والملل من جراء ثرثرته ، وقد يكون ذلك ما جعله يكمل مشوار ثرثرته إلى آخر المطاف ، بمباهاة واعتزاز .

أما أن يكون الجامع بين النصرانية والإسلام ، هو ديانة إبراهيم وملتقى إيمانهما « المشترك » بوحدانية الله ، فذلك قول غريب ، لأن ما ينقص المسيحية لإتمام مثل هذا اللقاء ، هو : الوحدانية بالذات .

نقول ذلك ، ونحن نعرف أن المؤلف يطرح آراءه ، ويلوك نظرياته ويبني اتهاماته، على أساس يقينه وزعمه ، بأن النصرانية المتهمة ، أمر آخر مختلف كلياً عن مسيحيته . . .

ولنا حول هذا الأمر في الفصل القادم وقفة طويلة ، لنؤكد له بدورنا بالبرهان القاطع ، إن النصرانية التي يتنصل منها ويتبرأ، ليست إلَّا مسيحية من مسيحياته الكثيرة المختلفة ، ووجهاً من وجوهها المتعددة ، لا يصلها بالإسلام صلة ، ولا بديانة إبراهيم قربى .

قال غرستاف لوبون :

> يختلف الإسلام عن النصرانية في كثير من الأصول ، ولا سيما في التوحيد ، الذي هو أصل أساسي ، فالإلّه الواحد الذي دعا إليه الإسلام مهيمن على كل شيء ، ولا تحف به الملائكة والقديسون وغيرهم ، ممن يفرض تقديسهم ، وللإسلام وحده كل الفخار بأنه أول دين أدخل إلى العالم التوحيد المحض .

وقـال أيضاً :

ولا شيء أكثـر وضوحـاً وأقل غمـوضاً من أصـول الإسـلام القـائلة بـوجـود إلّـه واحـد ، والمسلم بـذلـك على عكس النصراني ، الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والإستحالة وما ماثلهما[1].

يتحدث عن هذا الأمر البروفسور كلداني ، فيقول :

إذا مـا تخلى النصـارى عن محـاولتهم غيـر المجـديـة في تعـريـف جـوهـر الكـائن الأعـظم ، واعتـرفـوا بـوحـدانيتـه المطلقة ، فإن الوحدة عندئـذٍ بينهم وبين المسلمين ليست محتملة فحسب ، بل في غاية الإمكان[2].

فأين هو اللقاء المزعوم بين الإسلام والنصرانية ، عند بوابة ديانة إبراهيم ، والعقبـة الكأداء لم تـزيلها المسيحيـة من طريق هـذا اللقـاء ، وهي إزالـة أفكـار الشرك من تعاليمها ؟

ثم كيف يمكن أن تلتقي النصـرانية والإسـلام ، عند مبـدأ وحـدانيـة الله ، وهذه الوحدانية لا أثر لها ولا أساس في إيمان النصرانية ؟

ونقول بثقة أن ربط الإسلام بديانة إبراهيم التوحيدية ، إنما هو في الحقيقة وصـل منبع النهـر بمصبه ، ليلتقي النقـاء بالنقـاء ، والصفاء بـالصفاء ، فتشـرب الإنسـانية مـاء الإيمان الـزلال . هو عمليـة ناجحـة لإزالة كـل الحـواجـز ، التي وضعتهـا الأفكار الـدخيلة في اليهوديـة والمسيحية ، أمـام عقـل الإنسـان وقلبـه ،

---

(١) حضارة العرب : ١٥٨- ١٥٩ .

(٢) محمد في الكتاب المقدس: ٣٧ .

فباعدت بينهما وبين الخالق .

هـو عملية نـزع الأربطة عن عيـون البشر ، ليعـود هؤلاء بعد زمن الـظلمـة والضباب ، فيرون ربهم ببصيرتهم ومداركهم الـواعية ، وقلوبهم المؤمنـة بأنـه إلّه واحد لا شريك له ولا ولد ، وليس كما صوره لهم أهل العمى والضـلال : ثلاثـة بواحد ، أو واحد بثلاثة ، أو ثلاثة آلهة لا واحد .

طريقة مبتكرة في توحيد الأديان

عند مشارف الصفحة ١٠٦ لاقانا الحريري ، ليقدم لنا كتاب الوحدة بين النصرانية والحنيفية والإسلام قائلاً :

ما يثبت لنا أسبقية الإسلام على الإسلام العربي ، أخذ محمد بدين ابراهيم المسمى بالحنيفية ، والنصرانية هي الحنيفية ، والحنيفية صفة للنصرانية .

فإذا كانت الحنيفية توصف بالتسامح والنصرانية أيضاً ، فهذا يدل على اعتبارها ديناً واحداً بالنسبة إلى محمد . .

وبهذه البساطة ، وحّد الحريري النصرانية والحنيفية ، فصارت النصرانية هي الحنيفية . أما عناصر الوحدة التي جمعتهما فهي صفة « التسامح » المشتركة بينهما .

أما كيف وأين استدل على وجود التسامح في النصرانية ؟ فأمر لا نريد سؤاله عنه .

وأكثر الظن أنه وجده في « عدالة » محاكم التفتيش الكنسية « المتسامحة » .

وحّد صاحبنا بين ديانتين ، مشيحاً بنظره عن كل عوامل التباعد الأساسية بينهما ، والتسامح المشترك كان دليله الأول على وحدة النصرانية والحنيفية ، أما الثاني فيحدثنا عنه قائلاً :

ومما يثبت وحدة الحنيفية والنصرانية ، خلط أهل الأخبار فيما بين الحنفاء والرهبان النصارى ، فأدخلوا في الحنيفية أشخاصاً ، على أنهم من الحنفاء كما من النصرانية[1].

إذا دليله الثاني ، وجده بخلط بعض أهل الأخبار بين حنفاء ذكروهم نصارى ، أو نصارى اعتبروهم حنفاء .

ورغم أن أدلته كلها واهية كما يرى القارىء ، ورغم اننا عالجنا بتفصيل واف موضوع الحنفاء ، فلم نترك زاوية فيه إلاَّ وأضأناها ، إلاَّ أننا نضيف إلى ذلك القول ، بأن هذه الضبابية والبلبلة اللتين سادتا آراء أهل الأخبار حول بعض الحنفاء ، فخلطت في بعض الأحيان بين حنفي ونصراني ، مردهما إلى عدة أسباب أهمها :

١ ـ نقص الأخبار المدونة ، التي وصلتنا عن تلك الحقبة التي سبقت الإسلام في الجزيرة ، مما أفسح في المجال للتأويل والتخمين ، وأوجد بعض البلبلة حول انتماء بعض الشخصيات الحنيفية والنصرانية .

٢ ـ احتمال حدوث تنقل بين الأشخاص من دين إلى آخر ، بسبب عدم وضوح الرؤية عند الناس ، خصوصاً لجهة الموضوع الديني ، وإمكانية اهتزاز قناعاتهم بالنسبة للأمور الدينية ، مما يجعل عدم الثبات على دين واحد أمراً ممكناً ، لأن الناس بالنسبة للموضوع الديني، كانوا في مرحلة بحث وتدقيق في الخيارات الدينية المطروحة أمامهم .

ولذلك كان من الطبيعي أن تحدث في مرحلة كهذه غير مستقرة ، حالات ترك من دين إلى آخر بحثاً عن الأفضل ، مما قد يجعل الصورة ضبابية مبهمة ، وهذا ما كان يحدث فعلاً . فلقد بدأ مثلاً زيد بن نفيل حنيفياً ، وانتهى متمرداً على كل الديانات . والأمر نفسه حدث لأمية بن أبي الصلت ، بينما لم يعرف

---

(١) قس ونبي : ص ١٠٩ .

عن زهير بن أبي سلمى أين انتهى انتماؤه الديني ، بعدما ترك الحنيفية .

فيما نرى صورة التقلب بين أحضان الأديان ، واضحة بوضع عبدالله بن جحش ، الذي بدأ حنيفياً ، ثم نصرانياً ، ثم مسلماً، ثم مات على النصرانية في الحبشة .

فهل يمكن أن نعلن ، معتمدين على ضبابية الصورة حول بعض الأشخاص ، وحدة بين ديانتين تفارق وتباعد بينهما أمور جوهرية أساسية أعمق وأشمل ؟

إذاً الإدعاء بوجود ما سماه الحريري التسامح في الحنيفية والنصرانية ، والخلط بين حنفاء ونصارى ، كانا برهانين كافيين بنظره لإعلان وحدة بين ديانتين، تختلفان حول كل الأمور الأساسية تقريباً .

ثم أضاف قائلاً :

> ينتج من هذا ـ يقصد من البرهانين ـ ان الحنيفية لفظة سمحة ، تطلق على النصرانية كما على الإسلام ، وتعني النصرانية كما تعني الإسلام ، وتوصف بها النصرانية كما يوصف بها الإسلام ، سواء بسواء[1].

وفي قوله هذا الغاء صريح للحنيفية من الوجود ، بعدما اعتبرها صفة لدين قائم هو النصرانية، وليست ديناً بحد ذاته .

---

(١) قس ونبي : ص ١٠٩ .

من هم أهل الكتاب؟

يحاول أهل الفكر في المسيحية جاهدين ، خصوصاً آباء الكنيسة منهم ، في معرض محاولتهم المحمومة للتشكيك بالإسلام ، ورده إلى نصرانية ما ، أو إلى أية بدعة من بدع المسيحية الوصول إلى إثبات ما يلي :

أ ـ إن أهل الكتاب الذين قصدهم القرآن، هم :

اليهود ثم النصارى من خوارج المسيحية .

ب ـ إن المسيحية المثلثة ، هي خارج نادي « أهل الكتاب » المقصودين في القرآن ، وأي زج لها في مواقف هؤلاء من الإسلام موالاة ومعاداة ، هو ظلم وافتراء .

ج ـ إن كل ثناء في القرآن على أهل الكتاب ، فهو : للنصارى ، وكل هجاء فيه لأهل الكتاب ، فلليهود دون سواهم .

د ـ ولا دخل للمسيحية المثلثة ، لا في ثنائه ولا في هجائه .

هـ ـ إن الدعوة القرآنية لم تتصل بالمسيحية ولم تحاورها ، وإن القرآن لا يذكرها على الاطلاق .

جاء في كتاب « القرآن والمسيحية » للأب الحداد قوله :

القرآن يقصد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، وأهل الكتاب بالنسبة للمسيحيين، يقتصر على اليعقوبيين العرب

منهم ، ولا يتعداهم إلى غيرهم[1].

وهكذا سحب الحداد مسيحيته « الرسمية » من مقعدها بين « أهل الكتاب » مخلياً مكانها للبدعة اليعقوبية .

أما لماذا هذا التنكر المسيحي المستهجن من اعتبار القرآن لهم : أهل الكتاب؟!

لماذا هذا الذعر والتطير من وضعهم بين « أهل الكتاب »؟!

فينفرون منه نفور السليم من وباء الطاعون .

فليس له تفسيراً إلاّ :

أولاً : إنهم يريدون تهريب إيمانهم المعروف بتثليث الله ، وبنوة المسيح له ، وشراكته معه ، من أحكام القرآن وأولها . . التكفير .

هذا التثليث الذي كان ولا يزال جوهر الخلاف ، وأساس كل المشاكل ، وسبب التباعد بين المسيحية والإسلام .

مفضلين أن لا ينالهم من القران ثناء ، على أن لا يطالهم منه نقداً وتكفيراً .

ثانياً : جعل هم المسلم بدلاً من مناقشتهم الحساب عما في إيمانهم ، كيف يرد عن نفسه سهام تهمهم ، ورد الإسلام إلى نصرانية مزعومة واحدة منها .

بمعنى آخر ، أن يصبح همّ الإسلام إثبات نفسه ، وإنقاذ ما عنده من حبائل التشكيك ، وليس محاسبة الآخرين عما عندهم .

قال الحداد :

> إن من ذمهم القرآن هم اليهود فقط ، ومن أثنى عليهم النصارى ، ولا دخل للمسيحية المثلثة التي نعرفها اليوم بآيات القدح والهجاء[2].

وللخروج من مأزق السؤال التالي :

---

(1) القران والمسيحية : ص ١٧ .

(2) القران والمسيحية : ص ١٧ .

إذا كـان لا دخـل للمسيحيـة بـآيـات القـدح والهجـاء، فـإلى من تـوجهت تكفيرات سورة المائدة ؟

﴿ ولقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾[1] .
﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾[2] .
﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ﴾[3].

أجاب الحداد:

إن هذه الآيات تـوجهت بالنقـد لوفـد نجران وحـده ، وإن أهـل نجران لم يكـونوا على مـذهب المسيحيـة المثلثـة ، وإنما كانوا على مذهب اليعقوبية[4].

قـالها دون أي دليـل يثبت صحة زعمـه بيعقـوبيـة النجـرانيين ، مـع العلم وبشهـادة أكثر المؤرخين أن أهـل نجران ، كـانوا أمـا على ملة أهل الـروم ، وأما على النسطورية . ذكرهم الأزرقي في كتابه « أخبار مكة » فقال :

كانوا على دين النصرانية ، على أصل حكم الإنجيل وبقايا من دين الحواريين[5].

ويعني ذلك بوضوح ، أنهم كانوا على مذهب المسيحية الرسمية .
وأيّـد هذا الأمـر جواد علي في مـوسوعتـه « تاريـخ العرب قبـل الإسـلام » فقال :

ناقل النصرانية إلى نجران ، رجل غريب جاء إلى البلد من ديار الشام[6]

---

(١) سورة المائدة، الآية/ ٧٣.
(٢) سورة المائدة، الآية/ ١٧ و٧٢.
(٣) سورة المائدة، الآية/ ٧٧.
(٤) القرآن والمسيحية: ص ١٦ .
(٥) أخبار مكة: ج ١ ص ٨١.
(٦) تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ٦ ص ٦١١.

ونجد لابن هشام وابن سعد نفس الموقف من هوية نصرانية نجران ، فرداها إلى نصرانية الروم حيث قالا :

« الأيهم » وهو سيد نجران ، كانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ، ومولوه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات[1].

ومن الطبيعي أن لا يكرم ملوك الروم رئيس كنيسة نجران ، ويبنون له الكنائس ، ويقدمون له المساعدات، لو لم يكن على ملتهم وعقيدتهم .

أما لويس شيخو فقد رد نصرانية نجران إلى المذهب النسطوري ، فقال :

إن رئيس أساقفة النساطرة طيموثاوس ، نصب في أواخر القرن الثامن الميلادي أسقفاً لنجران وصنعاء أسمه بطرس[2].

ولكن تعليل الحداد لإخراج مسيحيته من أحكام آيات التكفير ، لا يعفي أهل التثليث من سؤال آخر هو : كيف استبعاد المسيحية من دائرة أحكام هذه الآيات ، وهي كاليعقوبية تؤمن بالتثليث ولقائهما المشترك حول صلب هذا الإيمان ليطغى على كل خلاف شكلي بينهما ، حول سبل إيصاله إلى نفوس المؤمنين ؟

فآيات القرآن عممت ، ولم تخصص ، وأعلنت موقفاً ، وأكدت مبدأ ، وأثبتت إيماناً ، وقررت حكماً قاطعاً ، يطال كل من آمن بالتثليث ، وكل من جعل لله ولداً وشريكاً ، مسيحياً « رسمياً » كان أم يعقوبياً .

ويحاول الاستاذ الحداد أن يوجد للسؤال جواباً ، فيقول :

الآيات خصصت ولم تعمم ، وهي تقصد وفد نجران

---

(١) ابن هشام : ج ٣ ص ٢٠٤ ، طبقات ابن سعد : ج ١ ص ٣٥٨ .

(٢) النصرانية وآدابها : ج ١ ص ٦٧ .

اليعقوبي وحده ، لأن أي لقاء بين الإسلام والمسيحية الرسمية لم يتم ، وأي حوار لم يحدث بينهما ، ولذلك فالآيات لم تقصدها[1].

وعلى سيرة « المسيحية الرسمية » التي تعني بالنسبة للأب الحداد دولة الروم يومئذٍ نسأل : أليس لمسيحي من مصر أو الحبشة الحق أن يقول : إن « المسيحية الزسمية » تمثلها دولته القبطية وكنيستها؟

ولمسيحي آخر في روما نفس الحق أن يرى « المسيحية الرسمية » ممثلة بالدولة الرومانية ، ولآخر في روسيا الحق بأن يعتبرها ممثلة بدولته وكنيسته ؟

فكيف للمسلم المحايد أن يقتنع ، أن هذه وليست تلك هي الممثلة للمسيحية الرسمية، وكلها مؤمنة بالتثليث ؟

وكيف له أن يعرف ، أين ومن هي بالنتيجة «المسيحية الرسمية» ، ومن يمثلها ؟ .

المهم أن الحداد استمات ليحقق « لمسيحيته الرسمية » « المكاسب » التالية :

(أ) أبعادها عن « تهمة » أي لقاء ، أو حوار ، أو معرفة ، أو اتصال بالإسلام عند ظهوره .

(ب) جعلها خارج دائرة أحكام الآيات القرآنية ، ونقدها .

(جـ) الاحتفاظ بهالتها ، متربعة في علياء أبراجها العاجية ، فيما الإسلام « المحجم » « وليد النصرانية » يحاور إحدى بدعها المطرودة من جناتها .

(د) أخيراً وهو الأهم سحبها من بين « أهل الكتاب » كي لا تظل تبدو وكأنها راضية بالجلوس على مقعد واحد ، تحيط بها يهودية ، نسخ القديس بولس ناموسها منذ ٢٠ قرناً ، وإسلام لا تعترف به ، ولا تطيق ذكر اسمه أمامها .

وهكذا ولهذه الأسباب والموجبات ، انتهى الأب الحداد إلى القول :

---

(١) القرآن والمسيحية : ص ١٦ .

إن ما كان يجري في الجزيرة العربية ، هو عبارة عن صراع بين اليهودية والنصرانية ، وقفت منه المسيحية الرسمية على الحياد ، وخرج بنتيجته من أحشاء النصرانية الإسلام ، ليساعدها على اليهودية (١).

وعندها، وكفاعل خير سارعت المسيحية « المحايدة » لتسجل في تاريخها اسم المولود الجديد ، فكان كما أخبرنا الحداد :

الإسلام النصراني ، والقرآن دعوة نصرانية (٢).

بهذه البساطة والسهولة ، أخرج الحداد مسيحيته الرسمية من نادي أهل الكتاب، وأخرجها من أحكام الآيات ، وأبعد كل نقد في القرآن عنها ، قائلاً :

إن الإسلام لم يلقاها ، لم يحاورها ، لم يعرفها ، فاذن آيات قرآنه لم تقصدها (٣) .

قالها وأعاد رأسه النعامي إلى الرمال .

وعندما لحق السائل به إلى باب داره ، بقوله : إن الآيات قد عممت يا أستاذ ولم تخصص ، وأحكامها طالت كل من آمن بالتثليث، ، فكيف تهربون؟!

أحرجه فأخرجه ، فلم يجد « أبونا » مخرجاً للمأزق ، سوى اللجوء إلى سلسلة من المزاعم ، مختصرها إن في القرآن « اقحامات » متعددة ، جنت على النصارى والمسيحيين ، وكانت هي السبب في تأزم الوضع بين القرآن والمسيحية .

فما هي تلك « الاقحامات » يا ترى؟

فلنسمعه يقول :

---

(١) القرآن والمسيحية : ص ٢٣ .

(٢) القرآن والمسيحية : ص ٢٣ .

(٣) القرآن والمسيحية : ص ١٩ .

١ ـ اقحام اسم النصارى في غير موضعه من القرآن عند جمعه لأسباب سياسية .

٢ ـ إقحام اسم النصارى في جدال القرآن مع اليهود ، لاخراج النصارى من إسلامهم .

٣ ـ إقحام النصارى في جدال القرآن مع اليهود ، وجعلهم كفاراً ظالمين .

٤ ـ أخيراً إقحام المسيحية الرسمية في كل ذلك ، والخلط بينها وبين النصرانية «المظلومة» والزجّ بها في خضم محاسبة النصرانية على كفرها المقحم عليها .

واختتم الحداد تظلمه واستنكاره بقوله :

إنه إقحام مجرم بحق القرآن وحقّ المسيحيين ، وهذا الإقحام في زمن التدوين والفتح ، كان سبب البلاء في تاريخ المسيحية والإسلام . . . والقرآن براء منه [1].

ما أودعها وأبرأ مقاصدها ، وأنعم ملمسها ، كلمته الأخيرة « والقرآن براء منه»!! بدا بها وكأن القرآن قطعة من قلبه .

ولكن الأمر يتغير عندما نرى أن « براءة القرآن » هذه بالنسبة للحداد ، تعني عملياً ضرورة إعادة النظر فيه لرفع الإقحامات « الظالمة » منه ، ويعني القبول بمقولة حصول تزوير فيه في عهد عثمان ، كما يرددها الحداد ، والحريري المزيف ، وأمثالهما .

كان هذا موقف الأب الحداد في كتابه « القرآن والمسيحية » من موضوع أهل الكتاب، ونجد أبو موسى الحريري ، الذي قد لا يكون إلَّا الأب الحداد مقنعاً ، يخطو الخطوة نفسها ، وينتهي إلى النتيجة ذاتها ، وهي إخراج المسيحية

---

(١) القرآن والمسيحية : ص ٣٦ـ ٤٦ـ ٤٨ .

الرسمية من نادي « أهل الكتاب» ، وللأول كما للثاني ، أسبابه ، ودوافعه ، وأهدافه ، التي لا تخرج بالنتيجة عن الهدف الأساسي المشترك، وهو التشكيك بالقرآن ، وتقويض الثقة بالإسلام ، وإظهار بطلان نبوة محمد . فمن الصفحة ١١٠ إلى ١١٥ من كتابه « قس ونبي » نجد الحريري مهموكاً بأمرين :

الأول : التأكيد بأن المسيحية الحقيقية كما سماها ، وهي الفئة المؤمنة بالتثليث ، وبألوهية المسيح ، وبسري القيامة والفداء ، لم يعرفها محمد ، ولذلك فهي خارج أهل الكتاب بعدما كفرها القرآن بسبب تأليه المسيح .

وعلى الهامش نسأل : كيف لم يعرفها القرآن ، وقد عالج عقائدها ، وانتهى إلى تكفيرها ؟!

الثاني: إن الإسلام عنى بأهل الكتاب ، بالإضافة إلى اليهود الظالمين ، فئة نصرانية عرفها محمد وانطلق منها .

وهو يريد الوصول بنا من كل ذلك إلى طرح السؤال التالي :

إذا كان المسيحيون المثلثون خارج أهل الكتاب ، بسبب تكفير القرآن لهم ، فمن هم أهل الكتاب إذن غير اليهود؟

وهنا يتقدم الحريري بحل اللغز ، فيقول بوجود طرف ثالث ، لا هو بالمسيحي ، ولا باليهودي، بل خارج من الإثنين معاً ، سماهم : النصارى ، لا يربطهم بالمسيحية مسيحاً ولا انجيلاً، ولا باليهودية نبياً ولا توراة .

ورب من يسأل : ما هي فائدته من هذا الزعم؟

نقول :

أولاً: ذلك يجعله يتحاشى الاعتراف المرير ، بحقيقة أن من بين المسيحيين جماعات هجرت دينها إلى الإسلام ، أما لإيمانها بصدق ما أنزل على محمد من ربه ، وأما هرباً من مقاصل المختلفين على طبيعة ربهم ، وأما للسببين مجتمعين .

وهي حقيقة ترعب قلب كل مسيحي كلما تذكرها ، أو ذكّر بها ، إذ يصعب عليه الاعتراف بها . ولا زال جهابذة المسيحية منذ ذلك الوقت ، يجهدون

أنفسهم للفلفتها ، والتقليل من حجمها وشأنها .

حتى أتى الحريري المزعوم ، فارتأى أن يقال بفصل تام بين النصارى والمسيحيين، عن طريق الفصل الحاد بين المسيحية والنصرانية ، ليزرع في الأذهان قناعة ، بأن في التاريخ ديانة نصرانية ، لا علاقة للمسيحية بها ، ومن صفوفها وحدها خرج من دخل في دين الإسلام .

ثانياً : ربط الإسلام بهذه « الديانة ـ البدعة النصرانية » تصغيراً لشأنه ، ومقدمة يهيأ بها الحريري أذهان القارىء ، ليبلغه بطلان عقيدة الإسلام ، وقرآنه ونبوة نبيه .

ثالثاً : افقاد الإسلام إنسانيته وشموليته ، وجعله متقوقعاً ، بداية ونهاية ، نشأة وانطلاقاً ، تفاعلاً وفاعلية ، من حيث المكان في الجزيرة العربية وحدها ، ومن حيث العقيدة بتعاليم بدعة من بدع المسيحية ، ليصبح على مستوى الديانات المحلية ، المنتشرة في مجاهل وأنحاء عديدة من هذا العالم .

فلا بد لنا والأمر كذلك ، من أن نتحدث عن أهل الكتاب ، فنتعرف على من قصدهم القرآن بأهل الكتاب ، بعد أن بينا في أحد فصول هذا الكتاب ، بطلان الزعم القائل بوجود ديانة نصرانية غير المسيحية في التاريخ ، وأثبتنا وجود طوائف لا ديانات مسيحية ، وإن مقولتهم بأن الإسلام لم يعرف المسيحية الحقيقية ، كما سماها الحريري ، ولم يحاورها ، ولم يلقاها ، وبحسب زعمهم ، لم يقصدها بآيات التكفير ، مقولة ساقطة بداهة ، لأن الآيات عممت أحكامها ولم تخصص ، وأحكامها تطال المسيحية قبل سواها ، طالما أن إيمانها قائم بالأساس على تثليث الله وبنوة عيسى له ، وشراكته معه .

وهو الإيمان الذي وقع عليه حكم التكفير في الآيات .

جاء ذكر أهل الكتاب في القرآن ، في أكثر من آية :

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً ما كنتم تخفون من الكتاب ﴾[1].

---

(١) سورة المائدة، الآية/ ١٥.

وفي آية اخرى مخاطباً النبي :

﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ﴾[1].

وفي ثالثة :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ﴾[2].

وهكذا نجد ، أن للقرآن ميزة على التوراة والإنجيل، هي في كونه يقرر أن الأديان كلها وحي إلهي ، أنزلها الله لهداية البشرية إلى سبل الإيمان والرشاد .

وفي أن الإسلام قد فصل في نظرته وتعامله ، بين الكفار الذين لا كتاب لهم ، وبين أهل الكتاب الذين خصهم الله بكتب سماوية سبقت القرآن ، وهم بالتحديد: اليهود حملة التوراة ، والنصارى المؤمنين بإنجيل عيسى ؛ وإذا كان القرآن قد دعا إلى تصديق ما جاء في كتب الأنبياء السابقين ، لوحدة مصدرها ، إلا أنه اشترط على أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، أن يعودوا إلى ما جاء في توراة موسى وإنجيل عيسى قبل أن تطالهما يد التحريف .

متهماً اليهود بتحريف توراتهم :

﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾[3]

أي نسوا طائفة من أصل كتاب الله : التوراة الذي انزله على نبيه موسى ، فما عند اليهود ـ يصرح القرآن ـ هو نصيب من التوراة ، أي جزء منه وليس كل الكتاب . كذلك فإن للإسلام موقفاً من الأناجيل المتعددة ، وخلافاً جوهرياً

---

(١) سورة آل عمران، الآية/ ٣ـ ٤ .
(٢) سورة آل عمران، الآية/ ٢٣ .
(٣) سورة المائدة، الآية/ ١٣ .

معها ، فهو يعتبر أن انجيلاً واحداً نزل على النبي عيسى ، هو غير الأنـاجيل التي كتبت بعده .

﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التـوراة وآتيناه الإنجيـل ـ بصيغـة المفـرد ـ فيـه هـدى ونور ﴾[1].

إنجيلاً واحداً ، لا تختلف تعاليمه في جوهرها عن توراة موسى الحقيقية ، باعتبارها متممة لما جاء فيها ومن ذات المصدر ، ولا يجب أن تختلف أيضـاً مع تعاليم القرآن للسبب نفسه .

ولكن القرآن يقرر أن المسيحيين شـأنهم كاليهـود ، نسوا طـائفة من أصـل كتاب الله الإنجيل ، فنزلت الآية بهم :

﴿ ومن الذين قالوا إنا نصـارى أخذنـا ميثاقهم فنسـوا حظاً ممـا ذكروا بـه فأغـرينـا بينهم العـداوة والبغضـاء الى يـوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾[2].

ليس هـذا فحسب ، بـل إن القـرآن يعتبـر أن المسيحيين قــد بـدلــوا في إنجيلهم تبـديـلا كليـاً ، ممـا أخــرجهم عن أهم أسس اللقـاء بين الــديـانـــات السمـاوية ، وهـو التوحيـد ، فوجـه القرآن نقـده الشديـد إلى العقيـدة المسيحيـة الحاضرة :

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾[3]
﴿ ولقد كفر الذين قالـوا إن الله ثالث ثـلاثة ومـا من إلّه إلاّ إلّه واحد ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة ، الآية/ ٤٦ .
(٢) سورة المائدة ، الآية/ ١٤ .
(٣) سورة المائدة ، الآية/ ١٧ و٧٢ .
(٤) سورة المائدة، الآية/ ٧٣ .

وماذا أسوأ من الكفر عند الله؟

ولكن رغم انتقاد القرآن للتحريف الحاصل في كل من التوراة والإنجيل، فإنه لم يقفل باب الحوار والوفاق بين الأديان الثلاثة، بل نراه داعياً اتباع التوراة، وأصحاب الأناجيل، العودة إلى الإيمان السليم، وذلك بالعودة إلى توراتهم وإنجيلهم الحقيقيين، وليصبحا والإسلام يداً واحدة، وقوة منيعة، وسداً مكيناً، بوجه الشرك والوثنية.

فخاطبهم مناشداً إياهم:

﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون ﴾[1]

وهكذا نجد، أن الإسلام يعتبر أن اليهود والنصارى، ولنقل المسيحيين المثلثين تحديداً، إذا ما تخففوا مما أضافوه أو حذفوه من توراتهم وإنجيلهم، فإنهم ولا شك بالنهاية لملتقون والإسلام، على قاعدة الإيمان بالله وتوحيده ليصبحوا جميعهم بالتالي مسلمون لله وحده.

إذاً فإن دعوة حارة إلى الإسلام، يوجهها القرآن لحاملي الكتاب، كون هدايات كتبهم الحقيقية لا تدعو إلا إلى الإسلام.

ومن هذه النظرة، شدد الإسلام على احترام مبدأ الحوار الحضاري السلمي، ليكون سبيلاً وحيداً للهداية والرشاد، موصياً المسلمين بأن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن.

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلاَّ الذين ظلموا منهم ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية/ ٦٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآية/ ٤٦.

﴿ لا إكراه في الدين ﴾[1].

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾[2].

ففي هذا الموقف الرائد ، **ديموقراطية مشرقة**، وإيمان بالحوار الحضاري ، وتصويب نحو الصراع الفكري الراقي ، لم يرق إلى مرتبته فريق آخر .

فالإسلام يضمن لأهل الكتاب حرية الجدل ، والتحاور ، والنقد ، والمعارضة ، وإبداء الرأي ، بعيداً عن أي عنف أو إكراه .

ويشترط على المسلم، أن لا يلجأ إلى الوسائل العنيفة، إلّا بحالة وقوع ظلم عليه، بحيث يكون فيها بحالة الدفاع عن النفس ليس إلّا .

وبنتيجة هذا الموقف الإسلامي الرائع من أهل الكتاب ، من اليهود والمسيحيين، انقسم هؤلاء إلى فئتين :واحدة استجابت إلى نداء القرآن ، وآمنت بتعاليمه ، واعتنقت مبادئه، وناضلت في سبيله ، فخصها القرآن بالثناء .

﴿ من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾[3].

﴿ طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل ﴾[4].

﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله ﴾[5].

وفي آية اخرى جمعتهم بالثناء يهوداً ونصارى :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجر عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية/ ٢٥٦ .
(٢) سورة الأنفال، الآية/ ٦١ .
(٣) سورة الأعراف، الآية/ ١٥٩ .
(٤) سورة آل عمران، الآية/ ٧٢ .
(٥) سورة آل عمران، الآية/ ١١٣ .
(٦) سورة البقرة، الآية/ ٦٢ .

وفئة أخرى تمسكت بباطلها ، وأشاحت بوجهها عن الحق ، وناصبت النبي ودينه عدائها، فأصابهما من دسائسها ، ومؤامراتها ، وسيوفها ، الشيء الكثير ، مما أوجب الوقوف بوجهها ، والإنتصار عليها ، وهزيمة مشروعها ، وهذا ما حدث فعلاً ، وبهذه الفئة نزلت بعض الآيات منها :

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ (١).

كتب المفسر الكبير الفخر الرازي بصدد هذه الآية في تفسيره للقرآن :

الكفار فريقان : فريق عبدة الأوثان ، وعبدة ما استحسنوا بهؤلاء ، لا يقرون على دينهم بأخذ الجزية ، ويحق قتالهم حتى يقولون لا إله إلاّ الله .
وفريق هم أهل الكتاب : وهم اليهود ، والنصارى ، والسامرة ، والصابئون (٢).

وهكذا يتبين لنا أن من عناهم القرآن بأهل الكتاب ، ليسوا سوى اليهود والمسيحيين ، وإن هؤلاء فئتين : واحدة مؤمنة اعتنقت الإسلام ، وأخرى ناصبته العداء .

وبذلك يتأكد لنا أن محاولة الحريري ، إخراج المسيحيين من بين أهل الكتاب واستبدالهم بنصرانية مزعومة ، عملية عقيمة فاشلة . تبقى حقيقة هجر المسيحيين دينهم إلى الإسلام ، فهي واقع لا يمكن محوه من صفحات التاريخ لمجرد نفي الحريري لحصوله ، أو لوجود أمنية حوله في نفسه، أو لوعة بسببه في قلبه .

---

(١) سورة التوبة ، الآية/ ٢٩ .
(٢) التفسير الكبير: ج ١٦ ص ٣١ .

إنها حقيقة لا تلغيها جرة قلم ، ولقد تحدثت عنها أقلام مسيحية ، وعالجتها كتب عديدة ، فإلى صاحب « قس ونبي » بعضها :

صاحب « قصة الحضارة » ول ديورانت قال :

> اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين ، وكثير من اليهود ، وأخلصوا له ، واستمسكوا بأصوله استمساكاً انساهم بعد وقت قصير دياناتهم القديمة[1].

وذكر غوستاف لوبون هذا الأمر، فقال :

> ساعد وضوح الإسلام ، وما أمر به من العدل والإحسان ، على انتشاره في العالم ، وبتلك المزايا نفسر سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام ، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم القياصرة ، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام .
>
> كما نفسر به السبب ، في عدم تنصر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً سواء كانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة [2].

---

(١) قصة الحضارة : ج ١٣ ص ١٣٣ .
(٢) حضارة العرب : ص ١٥٩ .

الفصل الثامن

١ ـ حقوق لا أساس لها

٢ ـ من هو القاعدة ومن هو الشواذ في حياة البشر؟

٣ ـ الإسلام لم يكره أحداً على اعتناقه .

٤ ـ في الإسلام اشتراكية عادلة تفتقدها المسيحية .

٥ ـ المقارنة الفاشلة .

٦ ـ انجيل لا أثر له ويقرأ من نصوصه . . .

٧ ـ الله في الإسلام والله في المسيحية

حقوق لا أساس لها

نحن عند محطة الفصل الخامس من الكتاب ، حيث يحدثنا مؤلفه عن حق من حقوق القس الخمسة على النبي ، مبتدئاً بـ :

حقه في المسيح ، وأمه، والروح القدس .

فقال :

موضوع المسيح وأمه ، من أهم المواضيع التي يختلف فيها الإسلام عن اليهودية ، التي تنكر نبوة عيسى ، وعن المسيحية التي تؤمن بألوهيته وبنوته لله ، بينما يتفق اتفاقاً تاماً مع النصرانية المقتصدة في عقيدتها ، وبالنسبة إلى هذا الموضوع ، نودي بالإسلام كدين سماوي ثالث مع اليهودية والمسيحية ، فيما الحقيقة جهل مطبق يتخبط العالم في ظلمته ، ورد تعاليم القرآن إلى مصادرها خير دليل[1].

ولا يسعنا إلا أن نحمد الله ، الذي يسر لهذا العالم المتخبط في ديجور ظلمته مقنع مخلص ، كي يمزق استار الظلمة التي تحجب النور عن بصيرة البشرية ، حتى ولو كان هو نفسه يقبع بالظلمة ويتستر بها .

---

(١) قس ونبي : ص ١٢٣ .

بدأ المؤلف برد تعاليم القرآن إلى « مصادرها » النصرانية، كما قال :
بالمسيح نفسه .

واضعاً جدولاً عدد في جانب منه آيات القرآن حول المسيح ، وفي جانب آخر أتى بما يتطابق وهذه الآيات من أقوال عن المسيح ، ثم أعلن فجأة أنها تعاليم العقيدة الأبيونية ، ولكنه لم يحدثنا، كيف عرف أو تأكد أنها أبيونية ، طالما أن إنجيل الأبيونية لا يزال مضيعاً .

المهم أنه قال :

المسيح في القرآن هو عيسى بن مريم ، بشر سوي ، ولد كسائر الناس ، إذ خلقه الله كما خلق آدم من تراب ، ولكن بطريقة معجزة . وهو كذلك في عقيدة الأبيونيين [1].

« طرحها » ، وما على القارىء إلاَّ أن يصدق .
ثم قال :

ويعتقد الأبيونيون ، بأن المسيح نزل على يسوع يوم عماده في الأردن ، وفارقه قبل استشهاده .
ويقولون في ذلك : أن يسوع هو الذي صلب عندما ارتفع المسيح عنه قبل استشهاده، والمسيح فارق يسوع ابن مريم ، قبل موته على الصليب .
إلاَّ أن بعض الأبيونيين يقول : بأن المسيح يتحول برضاه من صورة إلى صورة ، فقد القي في صلبه شبهة على سمعان ، وصلب سمعان بدلاً منه ، فيما هو ارتفع حياً إلى الذي أرسله ، ماكراً بجميع الذين فكروا للقبض عليه ، لأنه كان غير منظور للجميع [2].

---

(١) قس ونبي : ص ١٢٣ .
(٢)) قس ونبي : ص ١٢٥ .

إذا بحسب زعمه ، تؤمن الأبيونية : بأن المسيح نزل على يسوع يوم عماده في الأردن ، فيما لا يعترف القرآن بواجب العمـادة من أساسـه ، ولا يقر الإيمـان به .

والأبيونية تعتقد : أن المسيح فارق يسوع قبـل استشهاده ، بينمـا لا يعترف القرآن بمقولة الاستشهاد أساساً ، لأنهـا تعني بالنتيجـة موت عيسى على الصليب الذي لا يقره الإسـلام ، لأنه يعتبـر أن الصلب قد وقـع على من هو شبـه له ليس إلا ، وهذا أمر تؤكده الآية :

﴿ وقولهم أنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ومـا قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾[1].

والأبيـونية تؤمن أن لعيسى طبيعتين : نـاسوت مـات على الصليب بشخص يسوع ، ولاهوت ارتفع إلى السماء قبـل الصلب بشخص المسيح ، وهي نـظرية لا يقرها الإسلام ، ولا يعترف بها ، بل يسفه ويكفر القائلين بها .

والمسافة تصبح بين الإسلام والأبيونية أكثـر بعداً ، حـول موضـوع المسيح برمته ، عندما نقف عند إيمانهم بتحول المسيح برضاه من صورة إلى صورة .

ففي ذلك كفر صريح ، لأنه يعني الصاق حـالة من الألـوهية على عيسى ، وإشراكه بالذي هو من اختصاص الله وقدراته ، دون البشر .

فـأين هو التـطابق الـذي زعمـه بين الإسـلام والأبيـونيـة حـول المسيـح ، والتعارض بينهما قائم قاعد ، حول كل شيء فيه؟

والمصـادر التي استقى معلوماتـه منها ، واستنـد إليها ، ليست سـوى تلك الكتب البـائدة ، التي كـانت عونـه في فصول لقيـطه السابقـة ، أوريجـانـوس ، أيريانـوس ، أبيفانـوس ، ترتليـانوس ، وهي كتب مفقـودة لا وجود لهـا بين يدي الناس ، ليجري التدقيق بها والتثبت من مضامينها .

---

(١) سورة النساء، الآية/ ١٥٧.

والملفت للنظر أنه لم يورد رأياً واحداً لأي باحث ، أو مؤرخ ، أو ناقد ، من حقبة التاريخ الحجلي أو المعاصر .

ويتساءل الإنسان بدهشة ، لماذا سكت جهابذة المسيحية طيلة ١٥ قرناً من الزمن ، وبين أيديهم معلومات يملكونها لطعن الإسلام وفضحه ، وهم المتلهفون دائماً وأبداً لمثل هذا الأمر منذ كان الإسلام ، فانتظروا حتى جاد الزمان عليهم بحريري ليقوم بما قصروا به وقعدوا عنه .

ومن عيسى ينقلنا الحريري إلى :

حق القس على النبي في مريم أم عيسى[1].

ولا نرى إن ما أتاه حولها يسبب حرجاً للقرآن ، لأنه في الواقع لم يأت بجديد .

ذكر بعض الآيات القرآنية التي روت قصة مريم ، وهي معروفة ، ثم قابلها ببعض نصوص الأناجيل التالية : إنجيل لوقا ـ إنجيل يعقوب ـ سفر التكوين ـ متى ، لإظهار التطابق بين قصتها في القرآن ، وفي تلك الأناجيل .

وطالما أن القصة المروية في القرآن عن مريم ، متطابقة وقصتها في كل الأناجيل ، فبهذه الحالة يصبح التطابق المزعوم ، ليس بين القرآن وإنجيل الأبيونيين ، وإنما بينه وبين كل الأناجيل .

نقطة لابد من إيضاحها ، فالحريري قارن بقصد « فضح » التطابق بين آية من القرآن . ونص من مقدمة انجيل يعقوب حول مريم .

فجاء في الآية :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني ﴾[2].

---

(١) قس ونبي : ص ١٢٦ .

(٢) سورة آل عمران : الآية/ ٣٣ـ ٣٥.

وفي مقدمة انجيل يعقوب ما يلي :

> نقرأ في تواريخ أسباط اسرائيل الإثني عشر ، وذلك ليتبين لنا شرف انتساب المسيح وأمه مريم إلى ذرية يعقوب .

والملاحظ هنا أن الأصطفاء في القرآن كان لآل عمران ، بينما في الإنجيل لذرية يعقوب ، والأمران مختلفان ، وهذا الأمر شرحه سيد قطب ، فقال :

> بعض الروايات تذكر أن عمران من آل إبراهيم ، فذكر آل عمران إذن تخصيص لهذا الفرع لمناسبة خاصة ، هي عرض قصة مريم وقصة عيسى ، كذلك نلاحظ أن السياق لم يذكر من آل إبراهيم ، لا موسى ولا يعقوب « وهو اسرائيل » فيما ذكر آل عمران .

ومن عيسى وأمه ينقلنا إلى :

الروح القدس

ليدلنا إلى مواضع التطابق « الفاضح » بين القرآن وكتب النصارى حولها .

ولكننا نلاحظ وهو يشرح هذا الأمر ، إن الثرثرة وعدم التماسك في آرائه أبعداه عن هدفه فطاشت سهامه عن مكامن الإصابة ، فبدى مرتبكاً ، مشوشاً . .

فقال :

> يناط الوحي في اليهودية تارة بالله مباشرة ، وطوراً بالملائكة ، وكثير من نصوص التوراة يخلط بين الإثنين ، وهذا الخلط وارد في القرآن أيضاً ، ولكن بين الملاك جبرائيل والروح القدس . يقول : ﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية/ ٨٧ـ٢٥٣ .

أي روح الرب كما في التوراة . أما في الآيـات التاليـة فهو الملاك جبرائيل .

وهي : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك ﴾[1].

﴿ ونزل به الروح الأمين ﴾[2] أي الملاك جبرائيل .

﴿ انـه لقول رسـول كريم ذي قـوة عند ذي العـرش مكين مطاع ثم أمين ﴾[3].

﴿ قـل من كان عـدواً لجبريـل فإنـه نزلـه على قلبك بـإذن الله ﴾[4][5].

ولابـد أن نتسـاءل : أين وكيف خلطت الآيـات بـين الـروح الـقـدس وجبرائيل ؟

وكلها تحدثت عن جبرائيل ، سواء ذكرته الروح القدس ، أم سمته الـروح الأمين ، أم رسول كريم . .

فمعاني ومقاصد الآيات واضحة ، لا تقبل التأويل .

فجبرائيل كان في آية : الروح الأمين ، وفي أخرى : الروح القدس ، وفي الثالثة : جبرائيل ، تعددت الصفات والنعوت ، والمسمى واحد .

ساعدنا سيد قطب بإيضاح هذه الحقيقة في تفسيره لتلك الآيات، فقال :

١ ـ أيده بروح القدس : أي جبريل عليه السلام[6]

---

(١) سورة النحل ، الآية/ ١٠٢ .

(٢) سورة الشعراء، الآية/ ١٩٣ .

(٣) سورة التكوير ، الآية/ ١٩ـ ٢١ .

(٤) سورة البقرة، الآية/ ٩٧ .

(٥) قس ونبي ، ص ١٢٩ـ ١٣٠ .

(٦) في ظلال القرآن : ج ١ ص ١١٦ .

٢ ـ قل نزله روح القدس : أي جبريل عليه السلام[١].

٣ ـ الروح الأمين : أي جبريل عليه السلام [٢]

٤ ـ رسول كريم : وهو جبريل عليه السلام [٣].

ثم ينقلنا الحريري إلى ما اعتبره خلطاً في النصرانية ، بين الروح القدس ومريم أم عيسى ، كما في القرآن أيضاً .

فقال :

> نقل أورجين عن الإنجيل العبراني قوله عن المسيح : حملتني أمي الروح القدس ، ويعلق جيروم مفسراً : مما يدل على اعتقادهم ـ أي الأبيونيين ـ بأن الروح القدس هو أم المسيح ، وتعليلنا لذلك هو أن الروح باللغة الآرامية مؤنث ، وشاعت جنسية الروح وأمومته للمسيح في أوساط متنوعة[٤].

ويحاول أن يستعين بمؤرخ ما يلقي بثقل مزاعمه عليه ، لعله يشاركه الحمل أو بعضه ، فيقول :

> فنجد اليعقوبي يقول : فلما عمده خرجت الروح القدس على الماء ، كما هو مكتوب في إنجيل العبرانيين : الروح القدس يخاطب يسوع في عماده بقولها : أنت ابني الحبيب[٥].

ثم يستزيد من مثل هذه الأدلة « الدامغة » والبراهين « الساطعة » مستحضراً

---

(١) في ظلال القرآن : ج ٥ ص ٢٨١

(٢) المصدر نفسه : ج ٦ ص ٢٤٠ .

(٣) المصدر نفسه : ج ٨ ص ٤٨٣ .

(٤) قس ونبي : ص ١٣٠ .

(٥) قس ونبي : ص ١٣٠-١٣١ .

إلى الساح شاهداً جديداً هو : « أفرهات » السرياني .
فقال :

نجد أيضاً عند افرهات هذا القول : إن الرجل يحب الله أباه ، والروح القدس أمه ،

ويضيف إلى درره قائلاً :

فالروح إذن من جنس المؤنث ، وهو أم المسيح ، ويعتبره المسيحيون إلّهاً مع المسيح (١).

أما والمؤلف قد تخلى عن الاستشهاد بالأناجيل والأسفار وما حولها كما عودنا ، لدعم آرائه حول هذه المسألة ، نراه يطرح شباكه هذه المرة على الكنيسة السريانية ، مستمداً عونه منها ، ومستشهداً بأحد آبائها افرهات ، فإن ذلك يدفعنا إلى أن نسأله : هل يعتبر أيضاً أن السريانية هي ذات النصرانية التي يحدثنا عنها؟

أم أن التطابق بينهما بنظره محصور فقط حول الروح القدس ؟

ثم أضاف إلى درره قوله :

فالروح إذن من جنس المؤنث ، وهو أم المسيح ، ويعتبره المسيحيون آلهاً مع المسيح الإبن والأب ، لكن النصارى كما عرفنا (؟) يقفون عند ألوهيته . وعندما نقرأ في القرآن هذه الآية وفيها يلوم الله عيسى ، قائلاً :
﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي آلهين من دون الله؟ . . ﴾ (٢).

وعندما نعرف أن الروح القدس ، هو أم المسيح بحسب اللغة الآرامية ، نستطيع القول بأن القرآن يرد على الذين يؤلهون الروح القدس ، ويعتبرونه ثالث ثلاثة ، لا العذراء

(١) قس ونبي : ص ١٣١ .
(٢) سورة المائدة، الآية/ ١١٦ .

مريم كما يزعم مفسروا القرآن[1].

لا نظن أن القارىء بعد هذه الدويخة ، التي مرجحه المؤلف بها ، بات قادراً أن يفهم مما قاله شيئاً .

صفحتين بالكامل من لقيطه ملأهما وهو عالق بين الروح القدس أم المسيح ، وجنسية الروح القدس مؤنث أم مذكر ، والرجل يحب الله أباه ، والروح القدس خرجت على الماء ، والروح القدس تقول أنت ابني الحبيب ، إلى باقي المعزوفة النشاز ، ثرثرة يخجل بمثلها طفل في الصفوف الإبتدائية .

كل ذلك ليثبت أن الروح القدس في القرآن ، هو ذاته الروح القدس في التعاليم النصرانية ، وبعدما أثبت الحريري أن الروح القدس من جنس المؤنث ، وهي أم المسيح ، ولا ندري كيف تسنى له أن يتأكد من هذا الأمر ، نراه يقول مفاخراً بأن المسيحيون ضموه ـ الروح القدس ـ أو ضموها إلى الأقانيم الإلهية المعروفة ، فاعتبروه ثالث ثلاثة ، إلهاً مع المسيح الإبن والأب .

آيات القرآن واضحة ، والروح القدس فيها تعني جبرائيل ، فأين الخلط فيها بين الروح القدس وجبرائيل ، وهما في القرآن واحد .

---

(١) قس ونبي : ص ١٣١ .

من هو القاعدة ومن هو الشواذ في حياة البشر؟

من حق القس على النبي في المسيح وأمه والروح القدس ، إلى حقه الجديد عليه في : الفروض والعبادات وشعائر الدين.

ولقد حصرها الحريري في المسائل التسعة التالية :

١ ـ في الختان
٢ ـ في الغسل ، والوضوء ، والتطهير .
٣ ـ في تحريم الخمر
٤ ـ في تحريم لحم الخنزير
٥ ـ في تحريم التبتل ، والتحريض على الزواج
٦ ـ في الصيام
٧ ـ في الصلاة
٨ ـ في وضع المرأة وأحكام الزواج
٩ ـ في القربان والكهنوت .

في معالجتنا لهذه « الحقوق » الوهمية ، لن نهتم بدفع تهمة الترابط المزعوم بين الإسلام والأبيونية ، لسخافتها ، مفضلين أن نبحث أمر هذه الفرائض والشعائر ، من زاوية موقف المسيحية منها، وصحة هذا الموقف أو خطأه، على ضوء الحقائق والوقائع والنتائج .

غايتنا من ذلك ، أن نبين أية ديانة خرجت عن القاعدة حتى صارت

شـواذها ، وأيتهـا حافـظت على الخط مستقيماً دونمـا اعوجـاج ، وصراطـاً دونما التواء ، فظلت قافلتها تسير إلى الأمام ، دونما عثرات ولا كبوات .

فنبدأ ، بالختان. ولكن لنسمعه أولاً يتحدث عن هذا الأمر ، فيقول :

> الختـان مثلاً وهـو « العـلامـة » التي تـذكـر بعهـد الله مـع البشـر ، وتذكـر الإنسان بـانتمائـه العضـوي إلى شعب الله المختـار ، يعتبر سنـة إلّهية شـرعت لها التـوراة والأنبياء ، وهـو سنة شـائعة بين الأمم ، ولشيـوعها لـم يضـطر القـرآن العربي إلى التشريع لها .
> ومـارس النصـارى على مختلف فـروقهم هـذه السنـة . واعتبروها شرطاً أساسياً للإيمان بـالمسيح والخـلاص ، إلا أن المسيحيين أتبـاع بولس الـرسـول ، لم يخضعـوا لهـذه الشريعة ، بل رفضوها رفضاً قاطعاً[1].

نقـول :

مـارست المسيحية الختـان في عهـودهـا الأولى ، تيمنـاً بمـوقف المسيـح الإيجابي من الناموس اليهودي ، الختان ، وقالت به .

حتى جـاء بـولس ، فـرفضـه رفضـاً قـاطعـاً ، دون أن يعلل أسبـاب هـــذا الموقف ، وإن كان معروفاً ، أن وراء هـذا الموقف المتشنـج من الختان ، رغبـة بولس برفض كل ما يذكره بيهوديته ، وبتاريخه الشخصي الأسود ، الملطخ بدمـاء المسيحيين .

ومـوقف بولس هـذا ، وتقيد المسيحيين بـه ، أظهرا في الحقيقـة هـامشيـة موقع المسيح في المسيحية أكثر فأكثر ، وأكدا بالتالي أن المسيحيـة في الواقـع ، ليست تعاليم المسيح ، وإنما مبادىء بولس .

---

(١) قس ونبي : ص ١٣٢ .

فرسائل بولس الشهيرة ، لم تبق أمراً واحداً في تعاليم المسيح لم تعبث به ، لتجعلها هباء منثوراً ، وأفكاره المسيطرة في المسيحية ، لم تبق للمسيح في ديانته إلا اسمه .

فناهيك عن موضوع الختان ، ماذا ترك بولس في المسيحية أمراً لم يبدله ؟

استبدل وحدانية الله ، الذي آمن وقال بها عيسى : بنظرية التثليث المعقدة المشركة .

واستبدل البساطة ، التي كان المسيح يدعو إليها في تقربه وصلاته لربه ، بطقوس القربان ، وأصنام الهيكل ، وتماثيل الكنيسة الغريبة الشاذة .

واستورد للإيمان المسيحي من طقوس الديانات الأخرى ، كل شاذ وغريب ، حتى صارت الشعائر المسيحية فسيفساء يونانية ، فينيقية ، هندية ، مصرية ، رومانية ، يهودية ، وثنية .

والغريب العجيب ، أن المسيحيين رغم معرفتهم هذه الحقائق ، نراهم كالمخدرين ، قد هجروا المسيح إلى بولس .

ثم هل سنة الختان وحدها ، التي عارضت بها مسيحية بولس كل الأديان ، وسنن الشعوب وعادات الأمم ، النافع منها والضار؟

ولا نستبعد أن بولس كان سيقول بالختان ويفرضه ، لو وجد بين الأمم من كان يرفضه أو يحرمه .

أما الختان في الإسلام ، فهو ليس من الواجبات الدينية ، ولا من العبادات المفروضة على المسلم ، بل هو من العادات المحببة المستحسنة لفوائدها الصحية ، ليس إلا .

والأبحاث الطبية في عصرنا اثبتت هذه الفوائد ، وأكدت ضرورات الختان ، لدرجة أن الأمم الأوروبية التي هجرت نظريات بولس وعافتها ، باتت توصي به ، وتمارسه ، بمجرد ولادة الطفل .

وقد يكون الإسلام قد أخذ الختان عن اليهودية ، أو عن النصرانية ، أو عن

الجاهلية ، أسوة ببعض العادات ، التي وجدها سائدة عند ظهوره ، وفيها فائدة وخير للناس ، فأثبتها وحث على التمسك بها ، دونما تعقد أو حرج ، إلا أن من السذاجة بمكان ، إذا ما اعتبرنا أن هذه العادة حقاً نصرانياً على الإسلام، طالما أنها كانت معروفة قبل النصرانية بقرون عديدة ، ومن أكثر الشعوب الوثنية .

ومن الختان إلى حق آخر ادعاه الحريري للنصرانية على الإسلام :

فقال :

> أما الغسل والوضوء والتطهير ، فهي فرض واجب عند اليهود ، والنصارى ، والمسلمين ، شرع لها موسى في التوراة ، ومارسها اليهود في حالات كثيرة قبل الصلاة والأكل ، وكل احتفال مقدس.
>
> ويقول القرآن قولاً مشابهاً لتعاليم اليهود والنصارى ، فهو يأمر جماعته :
>
> **﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا ﴾**[1].
>
> وأباح القرآن للمسلمين احتراساً من إهمال هذا الاستعداد الضروري ، أن يتيمموا صعيداً طيباً من رمل وتراب ، كالبعض من النصارى الذين اعتاضوا المعمودية بالرمل عن الماء[2].

وإذا كان الوضوء ، والتطهر ، والغسل ، فرائض كانت تسبق صلاة اليهودي كما هي عند المسلم ، فماذا كانت تسبق عند المسيحي وهو كما هو معروف يصلي إلى ربه ، دونما حاجة إلى وضوء ، أو تطهر أو غسل، ويتقرب

---

(١) سورة المائدة، الآية/ ٦.

(٢) قس ونبي ص ١٣٣ .

إليه في كنيسة ملأى بالتماثيل يزورها نادراً ، كتقليد ليس بحدود الواجب .

فيما الحديث هنا عن وضوء واجب يسبق كل صلاة ، وعن طهارة مفروضة في كل حالة تقرب من الله، وليس عن غسل مستحب . ولا نرى ضرورة لسرد فوائد الوضوء والتطهر ، فهي معووفة ، ولكننا نرى أن نمر على جانب بسيط من فوائدها الروحية ، وما علينا لكي نتمثلها بأذهاننا ، إلا أن نتصور إنساناً يقف بين يدي ربه خمس مرات يومياً ، وهو يشعر بالراحة والطمأنينة ، لإحساسه بطهر جسده ، وقلبه ، ونواياه .

ومحاولة الحريري الباس دور للنصرانية كيفما كان في الوضوء والتطهر ، أتت مصطنعة فاشلة ، خصوصاً عندما زعم وجود تشابه لا أساس له ، ولا دليل عليه ، بين موقفي الإسلام والنصرانية في موضوع التيمم بالتراب ، الذي أباحه الإسلام بحال فقدان الماء .

ولهشاشة زعمه رأيناه عاجزاً عن تحديد أي من النصارى شابه الإسلام بالتيمم ، فجهل الفاعل عندما قال :

> كالبعض من النصارى الذين اعتاضوا المعمودية بالرمل عن الماء[1].

فالإسلام أجاز التيمم للمسلم ، كي لا يكون فقدان الماء حائلاً دون عبادته لربه ، والتقرب إليه في صلواته اليومية .

فعلى أساس ماذا أجازت النصرانية للنصراني استبدال ماء العمادة بالتراب أو الرمل ، والنهر الذي يتعمد به النصراني مرة واحدة في العمر لا ينضب ولا يفقد ؟

ومن حق النصرانية على الإسلام بالختان والوضوء ، إلى حقها عليه :

بتحريم الخمرة .

---

(١) قس ونبي : ص ١٣٣ .

فلنسمعه يشرح الأمر قائلاً :

أما تحريم الخمر ، فهو خاص بالنصارى الأبيونيين دون اليهود والمسيحيين ، والأبيونيين يحرمون الخمرة حتى في القربان ، بيد أن هذه الخمرة المحرمة على الأرض ، ستكون في الجنة حلالاً ، على ما ورد في إنجيل متى على لسان المسيح .
أقول لكم : لا أشرب بعد اليوم من عصير الكرمة هذا ، حتى يأتي يوم فيه أشربه معكم خمرة جديدة في ملكوت أبي .
وهذا هو حالها في القرآن العربي حيث الخمرة « رجس من الشيطان » وسبب « إثم كبير » توقع بين الناس العداوة والبغضاء بيد أنها في الجنة حلال حيث فيها «أنهار من خمر لذة للشاربين»[1] .

في الحقيقة لم نفهم أين وجد الحريري للنصرانية على الإسلام حقاً في موضوع الخمرة ، فالمسيح بحسب النص الذي أورده انجيل متى : قد حرّم الخمرة لمساوئها ومضارها «لا أشرب بعد اليوم من عصير الكرمة هذا» .

وأتى الإسلام ليحرمها أيضاً لنفس الأسباب ،وكل ما فعلت النصرانية أنها استبدلت الخمر بالماء في القربان الكنسي، هذا القربان الذي كفر الإسلام القائلين والمؤمنين به .
وتباعدهما حول موضوع القربان ، لأكبر من تقاربهما في موضوع تحريم الخمرة .

في شرحه لتفاصيل صلب المسيح جاء في إنجيل مرقص ما يأتي :

وقدموا له خمراً ممزوجة بمر ، فلم يتناولها .

---

(١) قس ونبي : ص ١٣٤ .

مرقص ١٥ ـ ٢٣ ، وفي متى :

ذاقها ولم يشربها .

متى ٢٤ـ ٢٧

نسأل : ألا يعني رفض المسيح لشرب قليل من الخمر ، وهو على خشبة صليبه وبأمس الحاجة لبعض منه يقاوم به الموت والألم والعطش ؟ ألا يعني ذلك تحريماً للخمر وموقفاً صريحاً للمسيح منه ، يعلنه في أدق ساعات حياته ، وأقدس لحظات البذل والعطاء؟

وإذا كان هذا لا يعني ذلك ، فقول المسيح لتلاميذه ليلة العشاء الأخير :

لن أشرب بعد الآن من عصير الكرمة هذا ، حتى ذلك اليوم الذي أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي .

كافياً أن يكون من المسيح تحريماً صريحاً للخمر في الدنيا ، على أمل أن يكون محللاً للإنسان يشربه خمراً من نوع جديداً غير مسكر ، يكون لذة للشاربين، في ملكوت الله .

المسيح يحرم الخمرة أسوة بالقرآن ، وبشهادة كل الأناجيل ، وبولس يحللها ، والسبب غامض ومبهم .

ونحن أمام خيارين : إما أن يكون إنجيل متى صحيحاً والخمرة محرمة ، ومن يحللها مخالف للمسيح وإنجيله ، وإما أن يكون بولس على حق في تحليل الخمرة ، ليدخل قول المسيح والأناجيل برمتها دائرة الشك والإتهام .

ومن ناحية أخرى ، نرى أن ندفع بالموضوع من الزاوية النظرية إلى الناحية العملية ، لنجد أمامنا ديانتين :

١ ـ مسيحية بولسية تحلل الخمرة وتبيحها ، دون أن ندري سبباً وجيهاً لهذا الموقف اللين من هذه الآفة الضارة .

٢ ـ وإسلام متشدد يمنعها ، ويحرمها ، ويلعن شاربها ، وصانعها ، وبائعها، حرصاً على الإنسان والمجتمع من مضارها وأخطارها .

وإذا كانت أسباب الإسلام في التحريم واضحة منطقية ، فإن أسباب المسيحية في التحليل مبهمة غامضة .

فأيهما في هذا الموضوع قدّر خير البشرية فأحسن التقدير ، وأيهما أخطأ إلى ذلك سبيلاً ؟

ويكفي أن نورد خبراً أوردته جريدة السفير البيروتية ، في عددها رقم ٤٦٩٤ الصادر في ٤ تموز سنة ١٩٨٧ ، مفاده :

> ان ضحايا الخمرة في فرنسا وحدها ، يصل سنوياً ٥٠ ألف ضحية.

فكم هي ضحاياها في العالم كله ؟

ليتبين لنا كم وفّر الإسلام بتحريمه الخمرة على الإنسانية من ضحايا ومآس .

ومن حقوق النصرانية على الإسلام « بالختان والوضوء وتحريم الخمرة » إلى حقها الرابع عليه :

بتحريم لحم الخنزير

تحدث الحريري عن هذا الحق فقال :

> **تحريم لحم الخنزير هو في اليهودية والنصرانية فرض واجب ، فاليهود في توراتهم يعتبرون الخنزير رجساً لهم ، والنصارى منذ البدء وفي مختلف شيعهم ساروا بموجب شريعة موسى ، وعلّموا بسبب خطايا الإنسان (؟) تحريم بعض الأطعمة ، واستبقت الكنيسة المسيحية السريانية هذا التعليم ، فقال افرهات : أنه بسبب خطاياك أعطاك الله الذبائح ، وحرم عليك بعض الطعام[1] .**

---

(١) قس ونبي ، ص ١٣٥.

نقول أن الحريري قد حرمنا من شرح « الآية الكريمة » التي نطق بها القديس افراهات والتي تقول :

« إن الله بسبب خطايا الإنسان اعطاه الذبائح ».

لعله يبين لنا ما هي علاقة خطايا الإنسان بالذبائح ، التي بسببها أعطيت له - أي الذبائح - من الله .

ورغم حرمانه لنا من هذا التنوير ، نذكره بأن أفرهات لم يذكر في « آيته الكريمة » لحم الخنزير بالذات بين الأطعمة المحرمة . فكل ما قاله هذا الرجل :

حرم عليك بعض الطعام .

ومن جهتنا نقول : أن افرهات ، ليس وحده من حرّم لحم الخنزير ، فالمسيح نفسه أيضاً ، كان له موقف منسجم وموقف الإسلام من هذا الموضوع .

ودليلنا على ذلك نجده في الأناجيل بالذات .

فبعد الحديث الذي أوردته الأناجيل الثلاثة ، الأولى ، الذي جرى بين المسيح ومجنون هائج في البراري ، حيث خاطب المجنون المسيح بقوله :

مالي ولك يا يسوع ابن الله العلي ، استحلفك بالله لا تعذبني [1].

ويكفي أن ينطلق لسان هذا المجنون بمثل هذا الكلام ، وبتعريفه المتسغرب للمسيح بشخصيته الإلّهية رغم جنونه ، فيناديه « بابن الله العلي » يكفي ذلك حتى يكون الشك - على الأقل - بحقيقة جنونه أمراً مفروضاً .

بعد هذا الحديث أوردت الأناجيل حديثاً آخر أكثر غرابة ، جرى بين المسيح والأرواح النجسة ، وانتهى أن تتوسل تلك الأرواح إلى المسيح قائلة له :

أرسلنا إلى الخنازير فندخل فيها ، فأذن لها ، فخرجت

---

(١) متى : ٨-٣١.

الأرواح النجسة ودخلت في الخنازير [1].

حتى أن الدقة أوصلت القديس مرقص ، أن يعلن أن عدد الخنازير كان الفين .

لسنا بوارد مناقشة الحدث ـ المعجزة ـ بحد ذاتها ، رغم أن لنا حولها تحفظين :

الأول : حول معرفة « المجنون » المستغربة بالمسيح وبشخصيته الإلّهية .

ولكي لا يجمع بنا الخيال ، فنتهم « المجنون الفيلسوف » بأنه ممتلىء بالروح القدس ، نسارع إلى التذكير ، بأن لا مكان لهذا الروح عند هذا الرجل ، لسبب بسيط ، هو أن جنونه أساساً كان بفعل امتلائه بروح نجس ، ومن الطبيعي أن لا يجتمع فيه الضدان .

التحفظ الثاني : حول النهاية السعيدة التي قبلها المسيح للأرواح النجسة ، فبدلاً من القضاء عليها كما هو مفروض ، وهو قادر على ذلك بالطبع ، رأيناه يأذن لها أن تدخل أجسام الخنازير وتستقر فيها .

وإلى هنا نريد الوصول ، إذ ما يهمنا من سرد هذا النص الإنجيلي ، هو طرح السؤال التالي : ألا يكفي أن تكون تلك الأرواح النجسة قد انتهت بالنتيجة ، بقبول المسيح وبأمر منه إلى أن تستقر في أجسام الخنازير ، دون غيرها من الحيوانات الكثيرة ، لتصبح هذه القصة صالحة أن تكون رمزاً حياً منطقياً ، أراده المسيح والأناجيل ، للتعبير عن نجاسة الخنازير الذاتية الدائمة ؟

ومع ذلك ، فمبادىء بولس أحلّت لحم الخنزير أسوة بما فعلته بتحليل الخمرة ، وتحريم الختان وسواها ، رغم موقف المسيح المعروف من هذه المسائل ، وهذا ليس عجيباً ولا مستغرباً . وهكذا نجد أن الوفاق حول تحريم

---

(١) مرقص : ٥ـ ١٣ . لوقا : ٨ـ ٣٣ .

لحم الخنزير ، ليس بين النصرانية التي قصدها الحريري ، وإنما هو في الحقيقة بين الإسلام والمسيح نفسه .

ثم قال :

> في حين أن المسيحيين ألغـوا كل فـارقة بين الأطعمـة ،فلا طعـام مقدس ، ولا طعـام نجس بـذاتـه ، وإنمـا الإنسـان يضفي عليه قداسة ونجاسة[1] .

لنقف قليـلاً عند هـذا الفخار والتبـاهي ، ولنـدقق بنتـائج هـذا التشـريـع المسيحي السـمـوح ، الذي جعـل الإنسان المسيحي متكـأ على المبـاح لـه في ديـانته ، قـادر أن يلتهم لحم حيوان أو طـائر أو سلحفـاة ، حتى ولو كـانت جيفـاً أمواتاً . . إن لم يمجها ذوقه .

كمـا هو قـادر أن يلعق دم جيفـة ، إذا مـا فتحت شهيتـه عليـه ، وليس من عوائق تمنعه من الضار من كل فطيس ، وميت، ومخنوق.

وهـذا يدفعنـا للتساؤل : أمـا ساوى هـذا « القانـون السماوي » بين مسلك إنسـان الكهـوف الحجـريـة ، الـذي أجـاز لـه جهله الـطيب والخبيث ، النـافـع والضار ؟ وبين المسيحي الذي أجازت له ديانته نفس الحقوق دونما استثناء؟

ولا بد من أن نفتش عن دافع لهـذا الافراط السخي الغـريب اللامعقـول ، بتحليل كل النافع والضار من المأكولات والمشروبات في المسيحية .

ولن يـطول جهـدنـا بـالتفتيش والبحث ، لأن شـرح الأمـر العجيب الـذي وجدناه في رؤيا رآها بطرس على ظهر سفينة ، وفّر علينـا هذا العنـاء ، وهو أحـد الحواريين ، نوردها. كما جاءت في « أعمال الرسل ».

> ثم في الغد ، فيما هم يسـافرون ويقتـربون إلى المـدينة ، صعـد بطرس على السـطح ـ سطح السفينـة ـ ليصلي نحـو الساعة السادسة ، فجـاع كثيراً واشتهى أن يـأكل ، وبينمـا

---

(١) قس ونبي : ص ١٣٥.

هم يهيئون له ، وقعت عليه غيبة ، فرأى السماء مفتوحة وإناء نازلاً ، مثل ملأة عظيمة مربوطة بأربع أطراف ، ومدلاة على الأرض ، وكان فيها كل دواب الأرض ، والوحوش ، والزحافات ، وطيور السماء ، وصار إليه صوت عظيم : قم يا بطرس اذبح وكل ، فقال بطرس : كلا يا رب لأني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً ، فصار إليه أيضاً صوت ثانية : ما طهره الله لا تدنسه أنت ، وكان هذا على ثلاث مرات ، ثم ارتفع الإناء أيضاً إلى السماء[1].

وبهذه الرؤيا ـ التي جاءت على جوع شديد ـ أحل بطرس والذين معه ما كان محرماً على بني إسرائيل ، وما لم يجيء المسيح بحله ، وبهذا صار كل ما دب على الأرض من هوام ، وحشرات وزحافات ، وسباع وحمير ، وخنازير ، وغيرها حلالاً أكله للمسيحي دونما اضطرار ولا مرض .

ومع ان مسؤولية رؤيا بطرس « المقدسة » عن هذا الموضوع واضحة وأكيدة ، إلا أن لبولس في هذه المسألة دور فعال أيضاً ، إذ أن أكثر رسائله حملت رغبة جامحة بتحليل كل المأكولات دون استثناء ، وربما كان ذلك بسبب رغبته الموتورة ، بقطع كل الجسور الموصولة بين الديانة اليهودية والمسيحية .

ففي رسالته إلى أهل رومة ، يسمي بولس ضعيف الإيمان ، كل من أمسك عن تناول أي لون من ألوان الطعام أو الشراب دون استثناء، فيقول :

من الناس من يجيز له يقينه أن يأكل من كل شيء ، في حين أن الضعيف لا يأكل إلا البقول .

وقال :

إن الذي يأكل من كل شيء ، فللرب يأكل وإنه ليحمد الله .

---

(١) أعمال الرسل ف ١٠ـ : ٩ـ ١٠ـ ١١ـ ١٥ .

ف ١٤ـ١ـ٦

ثم يكمل الحريري الشرح ، فيقول :

> أما القرآن فعاد إلى الشريعة الموسوية ، وإتباع التقاليد اليهودية والنصرانية ، وجعل بين الأطعمة فوارق ، فنجس بعضها وقدس بعضها الآخر ، وأعلن قائلاً : إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله[(١)].

ومن المباح المطلق الذي ناقشناه في المسيحية ، إلى المباح المشروط في الإسلام وهو ما نتوجه لمناقشته ، ولكن قبلها نقف قليلاً عند كلمة المؤلف :

> وقدس الإسلام بعضها الآخر ، أي الأطعمة .

نقول : إذا كان الإسلام قد نجس بعض الأطعمة لمضارها على صحة الإنسان ، فحددت الآية اسماءها بوضوح ، وسنبين بالبرهان القاطع ، أن الإسلام في موقفه هذا ما كان إلاَّ مصيباً ، إلا أننا لم نفهم أين « قدس » الإسلام باقي الأطعمة ؟ وما هي تلك الأطعمة « المقدسة » بنظر الإسلام؟

وكلمة « تقديس » هنا إما أنه عنى بها أمراً لم يشرحه ، وإما أنه أطلقها جزافاً للتشويه ، والأمرين سيء وأسوأ . . .

فالإسلام لم يقدس الأطعمة كما قدست المسيحية كل ما صادفت في طريقها من صور ، وأيقونات ، وتماثيل، وزخارف، خاضت حروباً وأزهقت أرواحاً لأجلها .

فالإسلام أباح للإنسان طعامه بحرية تامة ، ناصحاً إياه أن يتجنب بعضها، لمضارها المختلفة على صحته منها ، ومحرماً عليه ما يضر منها بصحته ، ويسيء إلى عقله ، وأخلاقه ، وأسرته ، ومجتمعه .

---

(١) قس ونبي : ص ١٣٥ .

ولابد من أن ندقق بالذي حرمه الإسلام على المسلمين من المأكولات ، لنرى ونتأكد : هل أصاب بتحريمه لها كبد الحقيقة أم أخفق؟

وليكن الطب ، والعلم ، والاختبار ، رواد بحثنا وتبصرنا وتدقيقنا .

﴿ حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ﴾[1].

فالميتة والدم تأباهما أولاً النفس السليمة ، فضلاً على ما أثبته الطب بعد ١٥ قرناً من تحريم الإسلام لهما ، عن تجمع الميكروبات والمواد الضارة في الميتة والدم .

فمبدأ ذبح الحيوان قبل أكله ، أثبت الطب سلامته ونفعه ، إذ أنه يسمح بخروج الدم الفاسد من جسم الحيوان المذبوح ، بدلاً من بقائه محتقناً مختزناً داخل خلايا وأنسجة لحم الحيوان . ثم نصل إلى لحم الخنزير ، الذي حرمه الإسلام ، وحللته المسيحية .

مع العلم أن عيسى في بدء دعوته ، ظل محافظاً كما هو معروف على تحريم كل ما حرمه الناموس اليهودي الذي يحرم لحم الخنزير ، ومتقيداً وداعياً للتقيد بتعاليم هذا الناموس .

وظل الأمر على هذا الحال إلى ما بعد صلب المسيح وغيابه ، وتحديداً إلى رؤيا بطرس « المقدسة » على ظهر السفينة ، حيث تغير الحال في المسيحية ، فصار الحرام حلالاً ، وبينها لحم الخنزير بالطبع .

يكفي أن تكون الأبحاث الطبية المتقدمة في عصرنا هذا ، قد أثبتت مضار لحم هذا الحيوان على صحة الإنسان ، ونصحها بالامتناع عنه ، ليصبح تحريمه في الإسلام له ما يبرره .

---

(١) سورة البقرة ، الآية/ ١٧٣ .

فبالإضافة إلى أن الخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم ، فلقد كشف الطب أن في لحمه ، ودمه، وأمعائه، دودة شديدة الخطورة « هي الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة » تسبب للإنسان مرضاً خبيثاً سماه الطب ، Trechinos.

وإذا كانت فوائد وضرورات تحريمه ، أثبتها العلم والاختبار ، فإننا لا ندري ما هي فوائد تحليله؟

نلاحظ في موضوع الختان ، والوضوء ، والخمرة ، ولحم الخنزير ، أن اليهودية والإسلام والنصرانية إذا ما وافقنا جدلاً مقولة الحريري بأنها ديانة مستقلة عن المسيحية ، كانت كلها في جهة والمسيحية في جهة مناقضة معارضة . . والسبب كامن في شرائع بولس ، وليس في تعاليم وديانة المسيح . .

لنعرج إلى الحق النصراني الخامس وهو :

تحريم التبتل ، والتحريض على الزواج .

قال :

> تحريم التبتل والتحريض على الزواج ، هما أمران واجبان في اليهودية والنصرانية .
> في البدء كانت البتولية محترمة عند « الابيونيين » النصارى ، على ما يقول أبيغان عنهم : واليوم يحرمون البتولية والإمساك عن الزواج ، كما في سائر الشيع التي تشبههم ، ويفرضون على الشباب فرضاً ، ولكن قديماً كانوا يحترمون التبتل[1].

ولكنه لم يشرح سبباً أو تعليلاً لهذا التبدل المزعوم ، في موقف الابيونيين

---

(١) قس ونبي : ص ١٣٥ .

من موضوع التبتل ، ونخشى ألَّا يكون للموضوع أساس بالمرة ، وأن يكون كله من نسج خياله ، وهي الحقيقة .

ثم قال :

«موقف القرآن من البتولية لم يكن رفضاً مطلقاً ، كما يظن معظم الناس ، فهو لم يحرم الرهبانية مثلاً تحريماً مطلقاً ، إنما يقف ضد بعض الرهبان الذين لم يرعوها حق رعايتها ، لذلك فهو يعظم تارة شأن الرهبان الحقيقيين الذين لا يستكبرون ، وطوراً يتهمهم بأكل أموال الناس وبالكبرياء .

ويضيف قائلاً :

> ويعود سب القرآن للرهبان والأحبار ، إلى آخر سورة في تاريخ النزول ، حيث راح محمد يخضع بالعنف والسيف القبائل ، دون تمييز في اليهود والنصارى والمسيحيين ، إلا أن التحريض على الزواج ، هو في القرآن أكثر وجوباً ، وأوجب مسلكاً[1].

وقفة عند قوله : « يعود سب القرآن للرهبان » .

فنراه يستعمل كلمة « سب » بدلاً من كلمات أخرى ، كالانتقاد أو المعارضة ، أو الهجاء ، فما ذلك إلَّا بقصد الإساءة للقرآن عن طريق لصق صفة « السباب » وفعل « السب » به .

وطبيعي أن لا يليق وجود « سب » في كتاب آلهي كالقرآن .

ولا ندري أين وجد الحريري هذا « السب » في القرآن ، سواء كان موجهاً ضد الرهبان كما ادعى ، أو ضد سواهم ، فأخلاقيات الإسلام مشهود لها ، وهي من أداب القرآن ونهجه ، فكيف والتهمة موجهة إلى كلام الله نفسه .

---

(٢) قس ونبي : ص ١٣٦ .

لقد عالجنا نظرية الرهبنة في فصل سابق، وبينا أنها نظريات ضد نواميس الطبيعة ، وسنة الحياة والخلق ، والثابت أن للرهبنة آثاراً في عادات بعض الشعوب القديمة ، كالمصريين ، والبابليين، والعبرانيين ، والفينيقيين ، والوثنيين ، ولربما دخلت إلى المسيحية من أحد أو بعض هذه الروافد .

والعبرة التي تركتها هذه النظرية في حياة المسيحية ، هي في فشلها الذريع المستمر ، وفي الثغرات المفتوحة دائماً في جدارها ، التي كان ولا يزال يتسلل منها الراهب والراهبة ، المتبتل والمتبتلة ، إلى رحاب حق كل منهما في الحياة الطبيعية ، من زواج وإنجاب وإتصال جسدي ، ولم يثبت أن المسيح قال أو أمر بها .

ولربما يكون للآية الثانية من الإصحاح التاسع عشر من إنجيل ، متى ، دور في تبني نظرية الرهبنة والخصي ، وقتل الطبيعة في الجسد ، التي أخذت بها المسيحية .

وقد جاء في تلك الآية :

هناك خصيان ولدوا من بطون أمهاتهم على هذه الحال .
وهناك خصيان خصاهم الناس .
وهناك خصيان خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السموات ،
فمن استطاع أن يفهم فليفهم .

والثابت أن نظرية التبتل ، وعقيدة قهر الجسد ، والغاء حقوقه ، التي نجدها متبعة شكلياً في الطقوس المسيحية الحالية، لم تكن متبعة في القرون الأولى لظهور المسيحية ، ولا وجود لها في حياة المسيحيين .

حتى أن تلامذة المسيح أنفسهم ، بمن فيهم بطرس مؤسس الكنيسة المسيحية نفسه، لم يلتفتوا بعين التقدير لهذه النظرية ، بل على العكس ، فما نجده في خطاهم العملية سوى تسفيهاً لها وإشاحة عنها ، وإهمالاً لها .

والمعروف عن هؤلاء الرسل ، أنهم كانوا يصطحبون معهم في جولاتهم

التبشيرية خارج مناطقهم نساء، ليكن لهم زوجات ومعينات في عملهم .
ذكر هذا الأمر ول ديورانت بالنسبة لبطرس الرسول ، فقال :

« أخذ بطرس يعظ في مدن سوريا ، وفعل بطرس ما كان يفعله معظم الرسل ، فاصطحب معه في أثناء تجواله « أختاً » لتكون له بمثابة زوجة له ومعينة »[1].

أكثر من ذلك فديورانت تحدث عن زواج القديس بطرس ، وعن استمراره مخلصاً لهذا الزواج حتى إعدامه ، وتحدث عن إعدام زوجته معه أيضاً فقال :

« يروي أرجن ، أن بطرس صلب ورأسه مدلى إلى أسفل ، لأنه طلب أن يعذب بهذه الطريقة ، وتقول النصوص القديمة أن زوجته قتلت معه ، وأنه أرغم على أن يراها تساق للقتل »[2].

وهذا يعني أن بطرس ظل محتفظاً بزواجه وزوجته ، حتى آخر لحظة من حياته ، ومات الرجل وهو مؤمن بشرعية هذا الزواج .

ولو كان في الأمر مخالفة لتعاليم ديانته ، لكان حرياً بهذا القديس أن يبادر إلى الانفصال عن زوجته، والعودة عن هذا الزواج ، وهو الذي لم يحصل .

وأكثر الظن أن بولس قد أورث هذه النظريات للمسيحية ، أسوة بغرائب نظرياته .

والمسيحية كعادتها انفردت دون باقي الأديان ، بتبني هذه النظريات الشاذة أسوة بتبنيها لكل ما هو غامض وشاذ ، مدعية أنها بذلك ، إنما توجد للإنسان فلسفة جديدة في حياته .

ولكن أغرب ما في هذه الفلسفة ، هو في استعصاء فهمها على مدارك

---

(١) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٤٥ .
(٢) قصة الحضارة : ج ١١ ص ٢٤٧ .

المؤمنين بها . ولذلك كان من الطبيعي أن يعارضها الإسلام ، كما عارضتها اليهودية .

ونلاحظ أن الحريري حاول تمييع موقف الإسلام من هذه البدعة ، تارة بالقول إنه لم يرفضها كنظرية بحد ذاتها ، وإنما انتقد أصحابها الذين لم يرعوها حق رعايتها ، وتارة اخرى بتصوير موقف الإسلام منها متناقضاً ، متضارباً .

إلى الحق السادس في الحقوق النصرانية ، وهو :
الصيام .

قال :

أما الصيام فهو سنة عامة في كل الأديان والمذاهب إلاَّ أن أحكامه في القرآن تشبه إلى حد بعيد أحكامه في اليهودية والنصرانية بل هي نفسها .

جاء في التلمود : أن أول نهار الصيام هو الوقت الذي يقدر المرء فيه أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأزرق .
وجاء في القرآن : ﴿ **كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود** ﴾[1] ومن أحكام الصيام أيضاً في التقاليد النصرانية ، ألا يجتمع الرجل بإمرأته كما في البدء . ولكن هذه الأحكام الغيت فيما بعد ، وقد وصلت إلى القرآن ملغاة بدليل تحليله لها . ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم** ﴾[2] .

لا بد أن نلحظ ، أن المؤلف وضع أمام القارىء افتراضات مجردة من

---

(١) سورة البقرة ، الآية/ ١٨٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية/ ١٨٧ .
(٣) قس ونبي : ص ١٣٦ .

البرهان والدليل ، لا ندري أين وجدها ، ثم وضع على أساسها مقولاته ومزاعمه .

فهو يفترض وجود تقاليد ، افترض أنها نصرانية ، تمنع اتصال الرجل بزوجته في الصيام . ثم يفترض أيضاً ، أن هذا الحكم النصراني قد ألغي في وقت ما . ثم يفترض أيضاً وأيضاً ، أن الدليل على زعمه وجده أو افترضه أن يكون في حكم القرآن ، الذي أحل اتصال الزوج بالزوجة ليلة الصيام .

أما كيف تأكد من وجود هذا الحكم ، ثم من الغائه ، في النصرانية ؟

وكيف وجد العادة النصرانية متقمصة آية من آيات القرآن ، فأمور لم يشرحها ، ونحن عن شرحها لعاجزون ، فالموضوع ليس بأكثر من افتراض بافتراض .

ثم هل الصيام هو الموضوع الوحيد ، الذي يلتقي عنده الإسلام والبقية السليمة من تعاليم اليهودية والمسيحية ؟

إن مواضيع جمة لا تزال الأديان الثلاثة تلتقي عندها . فلماذا نجيز للنصرانية حقاً في الصيام على الإسلام ، وهو حكم موجود في الأديان الثلاثة ؟ ٠

من الصيام إلى حق النصرانية على الإسلام :

في الصلاة .

قال :

الصلاة بحسب أوقاتها المحددة هي نفسها في النصرانية والإسلام ، ثلاث مرات في اليوم .

نقاطعه لنقول : إن الصلاة في الإسلام خمس مرات واجبة ، وليست ثلاث .

يكمل :

في تعاليم الرسل (؟) علينا أن نصلي ثلاث مرات في اليوم .

وحدد القرآن بقوله : يا أيها الذين آمنوا . . ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن

بعد صلاة العشاء . . وجاء في تعليم الرسل أن صلاة الليل لا تجبر أحداً ، وفي القرآن : ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك**﴾[1] .

ليس المهم في موضوع الصلاة عددها ، ولا مواقيتها ، ولا طريقة أدائها ، بقدر ما هو في مضمونها . فالمسلم يتوجه في صلواته خمس مرات يومياً إلى ربه الواحد الأحد ، الذي لا شريك له ولا ولد ، ليقف بين يديه طالباً عفوه ورحمته ، ناسياً بلقائه اطماع دنياه وشهواتها .

بها يستقبل نهاره ، وبها يودعه إلى ليله .

وإذا كانت صلاة النصارى الأوائل الموحدين مشابهة لصلاة المسلم ، فما ذلك إلا لأنها الصلاة الحقيقية، التي ناجى بها موسى وعيسى ربهما الواحد ، فرفضها أو تنكر لها اتباع ديانة بولس الحاليين .

ومعنى ذلك أن خروجاً عن خط التوحيد قد حصل في النصرانية ، فصار بنتيجته فريق منهم يتوجهون في صلاتهم إلى ثالوث إلّهي ، بدلاً من الإلّه الواحد ، الذي عرفه موسى ، وعيسى، ومحمد .

فليس الإسلام الموحد يُسأل من أين وكيف دخلته الصلاة ، وهي فيه تأكيد مستمر لإيمان راسخ بوحدانية الله ، بل تسأل المسيحية كيف دخلتها عبادة ثلاثة آلهة ، واحد منها مات فوق صليب فصار صليبه رمز صلاتهم وشعار إيمانهم ، بعدما قدسوه، وأجلوه ، ثم عبدوه .

فإلى الحق النصراني الثامن على الإسلام وهو :

المرأة وأحكام الزواج والطلاق .

فلنسمع شرحه يقول :

وفيما يخص وضع المرأة وأحكام الزواج والطلاق ، فالأمر

---

(١) قس ونبي : ص ١٣٧ .

> شديد المشابهة فيما بين النصرانية والقرآن العربي ، كما في اليهودية سابقاً . جاء في التلمود اليهودي : إن ولادة الأنثى سبب غم للأب . وفي القرآن : ﴿ **إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم** ﴾ . وفي النصرانية إن : الحياة العامة للرجال ، ويليق بالنساء أن تبقى في البيت ، ويعشن محتجبات .
>
> ويقول القرآن : ﴿ **قرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾. والطلاق حق للرجل وحده ، ومع هذا فهو مكروه ، والله يبغض الطلاق ، ولا يحق للرجال أكثر من أربع نساء . . .
>
> والطلاق في القرآن هو أيضاً حق للرجل وحده ، ومع هذا فهو مبغوض ، ابغض الحلال إلى الله الطلاق ، والزواج العدل يكونون أربع نساء[1].

قلنا في مكان سابق أن التشابه الممكن وجوده بين بعض أحكام القرآن وبعض ما في اليهودية من أحكام أمر طبيعي وبديهي .

ذلك لأن أحكام السماء ، التي نزلت على موسى ، هي ذاتها التي نزلت على محمد ، وكان يمكن أن نجدها أيضاً في إنجيل عيسى ، لو بقي هذا الإنجيل موجوداً ، وأحكام الزواج والطلاق ، ونظرة الدين إلى المرأة ، ودورها في بيتها ومجتمعها ، هي من تلك الأحكام التي تلاقت عندها تشريعات اليهودية، والإسلام والنصارى الموحدون الأوائل .

والعبرة ليست في هذا التلاقي ، حتى لو اعتبره المؤلف برهاناً بأن أحكام الإسلام منقولة عن اليهودية ، لأنه كما ان نقاط اللقاء بينهما على قلتها موجودة ، فمواطن الخلاف بين الإسلام والدخيل على تعاليم اليهودية موجودة أيضاً ، وهي كثيرة وكثيرة جداً .

---

(١) قس ونبي : ص ١٣٧-١٣٨ .

والعبرة تبقى في خروج المسيحية الحالية على كل سنن الشرائع السماوية في الإسلام ، والباقي منها في اليهودية على السواء ، خروجاً شمل الأساسيات والثانويات .

وهذه هي المشكلة الحقيقية التي يجب أن نتأمل بها ، ونقف عندها ، ونتدارسها .

فالإسلام نظر للمرأة نظرة احترام وتقدير ، وأول وأهم دور أعطاه لها ، كان دورها الطبيعي العظيم ، دور الأمومة الخالدة ، فعهد إليها تربية أجيال صالحة ومجتمع صالح .

ولقد رفع الإسلام النظرة إليها من الامرأة ـ الجسد ، الى الامرأة ـ الأم ، وهي أعلى المراتب وأسماها .

والإسلام امتاز بالواقعية في تعاطيه مع موضوع المرأة ، فلم يكبل حريتها ، ولم يحرمها من حق من حقوقها ، حتى الجسدي منها ضمن المقاييس الشرعية والأخلاقية ، التي تحفظ لها حريتها وكرامتها بنفس الوقت .

كما لم يستهن بدورها الأدبي ، والفكري ، والاجتماعي ، حتى ولا السياسي .

إلَّا أن الإسلام رفض أن تصبح حرية المرأة ، إجازة لها للتحلل من الأخلاق والكرامة ، فتصبح عبارة عن جسد معروض ، كسلعة في سوق الشهوات والنزوات .

وكما رفض سجنها في رهبانية ابتدعوها ، فكذلك رفض أن يهبط بها ، لتكون قيمتها قيمة جسدها اللدن، لا أكثر ولا أقل .

وللعالم الكبير لويون شهادة قيمة حول هذا الموضوع إذ قال :

حسن الإسلام حال المرأة، فكان أول دين رفع شأنها ، فمنح المرأة حقوقاً أرثية لا تجد مثلها في القوانين

الأوروبيـة ، وأمـر بمعـاملتهـا بـأحسن ممـا في تلك القوانين[1].

والآية الشريفة في القرآن التي ساوت بين حقوق المـرأة وواجباتهـا ، خير برهان على تقـدير المـرأة وحسن مقامهـا في الإسلام ﴿ ولهن مثـل الذي عليهن بالمعروف ﴾[2] وفي الحديث الشريف : « خيركم خيركم لأهله »[3].

وقبـل أن نتطرق ببعض التفصيـل ، إلى ما أداه الإسـلام للمرأة ، نـرى أنه لابد من أن نلقي نظرة موجزة على منزلتها عند الأمم القديمـة ، ومنها من كـان له حضارة معروفة.

في الحضـارة اليونـانية : جعلوا المـرأة من سقط المتاع ، تبـاع وتشترى ، واعتبروها رجساً من عمل الشيطان ، وحرموا عليها كل شيء ، سوى تربية الأطفال وتدبير البيت .

في شـرائع الهنـد : الوبـاء ، والموت ، والجحيم ، والسم ، والأفـاعي ، والنار ، خير من المرأة .

في التـوراة : ما هـو أمر من المـوت : المـرأة ، التي هي شبـاك ، وقلبهـا إشراك ، ويداها قيود .

بنظر رومية : رجس يجب أن لا تأكل اللحم ، ولا تضحك ، باعتبارها أداة للأغواء ، يستخدمها الشيطان لافساد القلوب .

في الفلسفـة الصينية : يجب أن تقيـد بقدميهـا ، طيلة أوقات فـراغهـا من خدمة الرجل .

في فـرنسا : عـام ٥٨٦ م عقد اجتمـاع في بعض ولاياتهـا ، كـان أسـاس

---

(١) حضارة العرب : ص ١٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية/ ٢٢٨ .
(٣) العوالي : ج ١ ص ٢٧٠ ح ٧٩.

البحث فيه عن المرأة : هل تعد إنساناً أم غير إنسان ؟ وتقرر بالنتيجة : أنها إنسان ، ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل .

في انكلترا : بناء لامر اصدره الملك هنري الثامن ، حرم على المرأة مطالعة الكتاب المقدس، علماً أنه وحتى عام ١٨٥٠ كان القانون الانجليزي ، لا يعتبر المرأة من المواطنين ، ولا حقوق لها شخصية لا في أموالها ولا في ملابسها[1] .

وفي بلاد العرب قبل الإسلام : كانت المرأة ممتهنة ، مضطهدة ، لا حقوق لها ولا اعتبار ، ولا حق لها في الحياة والبقاء .

كان هذا وضع المرأة قبل بعثة محمد .

أما في الإسلام : فقد ظفرت المرأة بأعظم حقوقها ، التي لا زالت تناضل للوصول إليها في أكثر بلدان العالم في عصرنا الحديث .

فبعد أن كانت مواطناً لا حقوق لها ، أصبحت أساساً معتبراً في الأسرة الإنسانية ، وإذا كانت الشعوب التي سبقت الإسلام كما رأينا، قد غبنت المرأة في معظم مجالات حقوقها ، فإن الإسلام قد حررها من هذا الغبن ، وصانها ، وجعلها على قدم المساواة بالرجل ، في شتى ميادين الحياة ، إلا في المواقع التي لا قدرة للمرأة مجاراة الرجل فيها ، نظراً لتكوينها الطبيعي وضعف بنيتها .

وإذا كانت الطبيعة ، قد هيأت المرأة لدور اساسي تؤديه في حياتها ، فالإسلام عزز فيها القدرة والاستعداد، لتأدية هذا الدور على أكمل وجه .

منذ ظهوره أخذ الإسلام على عاتقه القيام بمهمة نبيلة ، سامية، شاقة ، الزم نفسه بها اتجاه المرأة، فبادر قبل كل شيء لصون حياتها ، معلناً أن حقها في الحياة ، يجب أن يكون مقدساً ومصاناً ، فرفع بذلك سيف الموت المرفوع فوق عنقها دائماً وأبداً .

---

(١) عن روح الدين الإسلامي ص ٣٥٨ ـ للاستاذ عفيف عبد الفتاح طبارة ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ طبعة ٢٥/ ١٩٨٥ .

وبعدما صان لها حياتها ، تقدم ليصون لها حقوقها المختلفة في شتى ميادين الحياة ، ومنها مساواتها بالرجل ، معلناً أن المرأة نصف المجتمع ، وأن هذه المساواة بدأت منذ خلقهما الله .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾[1].

ثم قرر الإسلام أن للنساء ثواب اعمالهن الصالحة كالرجل تماماً .

﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾[2]

كما نرى الإسلام يؤكد مساواة الرجل والمرأة في حقل آخر ، هو حقل تكاليف العقيدة والأخلاق الفاضلة .

﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[3] .

ثم تقدم الإسلام أكثر فأكثر في حقل مساواتها بالرجل، فأوصلها إلى حقها المشروع في أن يكون لها دور سياسي في مجتمعها ، وهو موقف إسلامي رائد متقدم ، وذلك عندما منحها حق المبايعة أسوة بالرجل ، في وقت كانت أكثر الشعوب تحرمها من حقها في المواطنية .

جاء في القرآن :

---

(١) سورة النساء، الآية/ ١.

(٢) سورة النساء، الآية/ ١٢٤ .

(٣) سورة الأحزاب، الآية/ ٣٥.

﴿ يـا أيها النبي إذا جـاءك المؤمنـات يبـايعنـك على أن لا يشركن بالله شيئـاً ولا يسرقن ولا يـزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيـديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معـروف فبـايعهن واستغفـر لهن الله ، إن الله غفـور رحيم ﴾[1].

ومن حقـل المساواة في المبـايعة ، إلى المسـاواة بين الرجـل والمـرأة في حقل النشاطات الاجتماعية :

﴿ والمؤمنـون والمؤمنـات بعضهم أوليـاء بعض يـأمـرون بالمعروف وينهـون عن المنكر ويقيمـون الصلاة ويؤتـون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ﴾[2].

والإسلام لـم يكتف بهذه المكاسب للمرأة ، بل تخطاها إلى اعطائها حريـة المشـاركة في الحيـاة ، الثقافيـة والأدبية ، والشعـرية ، وحتى السيـاسية أيضـاً ، ونشاطات حفيدة النبي سكينة ابنة الحسين الأدبية والثقافية والشعرية ، تشهد على ذلك ، حيث كان منزلها ملتقى الأدباء والشعراء يومذاك كما هو معروف. ذكر هـذا الأمر ول ديوارنت ، فقال :

وفي المـدينة كـانت السيـدة سكينـة ابنـة الشهيـد الحسين ترأس ندوة من الشعراء ، والساسة، والعلماء، في الشريعة الإسلامية[3].

كمـا ان دور السيـدة عـائشـة زوج النبي في الحيـاة الاجتمـاعيـة في حيـاة النبي ، ومشاركتها السيـاسية المعـروفة في الـوضع الإسـلامي بعد وفـاته ، أمـور معروفة .

وبعدما أمن الإسلام للمرأة حقوقها ـ المسلمات ، من صون حياتها ، ورفع منزلتها ، ورد الاعتبار لها ، ومساواتها بالرجل ، تقدم لينصفها في مضمار آخـر ،

---

(١) سورة الممتحنة، الآية/ ١٢.

(٢) سورة التوبة، الآية/ ٧١.

(٣) قصة الحضارة : ج ١٣ ص ١٥٣.

هو مضمار حياتها الزوجية والعائلية .

فبدا هذا المضمار بتصحيح النظرة إليها ، من المرأة الجسد ، المرأة الشهوة واللذة ، إلى المرأة الأم ، المرأة الإنسانة ، بعد أن كان العرب يكرهون بناتهم على البغاء ليكسبن لهم المال ، فجاء في القرآن :

﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾[1]

تحدث صاحب قصة الحضارة عن موقف الإسلام من المرأة ، فقال :

رفع الإسلام من مقام المرأة في بلاد العرب ، وقضى القرآن على عادة وأد البنات ، وسوّى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي ، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال ، وإن تحتفظ بمالها ومكاسبها ، وأن ترث وتتصرف في مالها كما تشاء .

وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية ، من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء ، فيما ينتقل لهم من متاع[2].

أكثر من هذا وإنصافاً للمرأة ، وتحصينها بكل الحلول الملائمة لمشاكلها ، بادر الإسلام إلى جعل المساواة بين المرأة والرجل تدخل البيت الزوجي ، وتخيم فيه ، مؤكداً أن الزواج عدا عن كونه واجباً اجتماعياً واستقراراً نفسانياً ، فهو أيضاً سبيل مودة ورحمة بين الرجل والمرأة .

ومن آياته :

﴿ إن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[3].

---

(١) سورة النور : الآية ٣٣.

(٢) قصة الحضارة : ج ١٣ ص ٦٠.

(٣) سورة الروم: الآية/ ٢١.

مؤكداً أن ما يجمع بين الزوج والزوجة ، ليس البيت الواحد فحسب ، بل وحدة الشعور ووحدة المصير ، ووحدة الهدف ، مما يجعل الزوجين أكثر تمسكاً باستقرارهما الأسري ، وتعلقاً بحياتهما المشتركة ، فجاء في القرآن : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾[1].

وهكذا نجد الإسلام يهتم بكل شاردة وواردة في حياة المرأة ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة من حياتها ، ومشاكلها ، وهمومها ، إلا وتقدم ليحلها ، وينظمها ، ويحصنها ، بالإنصاف ، والعدل ، والمحبة .

نقطة لابد من المرور عليها ، كثيراً ما تشدق بها الكارهون ، منتقدين من خلالها الإسلام، غامزين من قناته ، تلك هي الواقعية التي ساوى بها الإسلام بين الرجل والمرأة ، فحفظ للرجل بحكم موقعه ، وتكوينه ، وقدراته الجسدية ، دوراً مسؤولاً أكثر من المرأة ، مما اعتبره اعداء الإسلام أجحافاً بحق المرأة ، وطعناً بمبدأ المساواة بين الزوجين . إلا أن الإسلام مع اعطائه هذا الدور الأكثر مسؤولية للرجل ، فلقد اشترط عليه العدل والنصفة والرحمة ، موصياً إياه بالعشرة الطيبة والمعاملة الحسنة :

﴿ وعاشروهن بالمعروف﴾[2].

وفي آية اخرى :

﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾[3].

وعدا عن هذا التشريع الراقي الذي وضعه الإسلام ، لتأمين حياة عائلية مستقرة ، فإنه وضع أحكاماً منطقية عقلانية رائدة ، لتنظيم الطلاق المكروه ،

---

(١) سورة البقرة، الآية/ ١٨٧.

(٢) سورة النساء، الآية/ ١٩.

(٣) سورة البقرة، الآية/ ٢٢٨.

بحال فقدان الرغبة المشتركة لدى الزوجين باستمرار الحياة المشتركة بينهما ، أحكاماً أساسها العدل والإنصاف :

﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾[1]

هذه الأحكام التي عاد العالم المسيحي إليها ، ليستلهم منها قوانينه الوضعية ، وإن بصورة مشوهة ممسوخة ، بعد أن سلخ عنها المضمون واحتفظ بالشكل ، مما جعل العلاقات الزوجية في تلك المجتمعات ، قائمة على المصلحة المتبادلة بين الزوجين ،وكأنها صفقة تجارية خالية من وحدة المشاعر ووحدة المصير ، ووحدة الأهداف الإنسانية النبيلة ، وهذا في الواقع سبب فشلها الذريع . وإذا كانت تلك هي نظرة الإسلام الرفيعة إلى المرأة ، فماذا عنها في المسيحية ؟

فيما نجد الإسلام يساوي بين الرجل والمرأة ، مساواة عادلة تامة ، نجد في الأناجيل حول المرأة ، موقفاً أقل انصافاً لها ، وأكثر اجحافاً بحقوقها ومطالبها ، وأقل اهتماماً بمشاكلها وقضاياها ، واهمالاً مطلقاً لموضوع مساواتها بالرجل .

لا بل نجد في الأناجيل تمسكاً بفوقية الرجل عليها ، وضرورة خضوعها المطلق للرجل ، حتى ولو كان هذا وثنياً ، كافراً ، جاهلاً .

ففي رسالة بولس إلى أهل قولسي قال :

> انتن أيها النساء اخضعن لازواجكن ، حتى إذا فيهم من لا يؤمنون بكلام الله . فـ ٣ـ ١ .

وفي رسالته الأولى إلى طيموتاوس ، يعلن بولس فوقية الرجل المطلقة على المرأة ، معتبراً أن هذه الفوقية مرافقة لوجودهما الأول ذاته :

---

(١) سورة البقرة، الآية/ ٢٣١ .

ليس الرجل من المرأة ، بل المرأة من الرجل ، ولم يخلق الرجل من أجل المرأة ، بل خلقت المرأة من أجل الرجل . ف ١١ـ ٩.

وفي نفس الرسالة، يعتبرها المسؤولة الوحيدة دون الرجل ، منذ وجدت الخليقة عن المعصية الأولى ، التي استمرت وستستمر تلاحقها إلى ما شاء الله ، فقال بولس :

لم يغو آدم، بل المرأة هي التي اغويت فوقعت في المعصية . فـ ٢ـ ١٣.

وأخيراً نحن عند محطة الحق التاسع والأخير من حقوق النصرانية على الإسلام ، بل من حقوق القس على النبي ، كما يقول المقنع وهو حقه في : القربان والملكوت

قال :

إن موضوع الافخار ستيا في النصرانية مختلف فيه : بعض النصوص تشير إلى وجوب إقامة القربان ، وبعضها غير واضح معناه .

وشهادة أبيغان عن الأبيونيين تقول : بأنهم كانوا يحتفلون بالخبز الفطير، وبالماء بدل الخمر ، وكان يقام مع الفصح اليهودي ، مرة واحدة في السنة ، وللذكرى فقط لا للتجديد ، ومع هذا لا شيء يدل على أنهم كانوا يعتبرون ذلك افخار ستيا أو ذبيحة شكر ، إنما هي مائدة روحية يجتمعون حولها[1] .

---

(١) قس ونبي ص ١٣٩ .

يحاول المؤلف كيفما كان أن يوجد صيغة ينفي بها وجود القربان والكهنوت في النصرانية ، وإن لم يستطع ، فيحاول تخفيف إيمان النصرانية بهما ، عن طريق القاء ظلال من الإبهام والغموض حولهما فيها ، كل ذلك ليخلق حالة من التشابه بين نظرة الإسلام والنصرانية حولهما .

فبدت محاولته سقيمة سخيفة .

أولاً : لأن شهادة أبيغان لا تكفي ، لكونها لا سند لها في التاريخ ولا مؤيد ، وهو شاهده الوحيد .

ثانياً : لان محاولته الباهتة بنفي القربان والكهنوت في النصرانية ، أفشلها اعترافه بوجودهما فيها ، عندما أكد ممارسة النصارى لهما باستثناء واحد ، هو استبدالهم الخمرة بالماء أثناء القربان .

ثالثاً : لأن الكهنوت والقربان بالأساس ، لا وجود لهما في الإسلام البتة ، فماذا يبقى والأمر كذلك من مبرر لهذه المقارنة ، أو الحديث عن تطابق لا وجود له .

وحديثه عن كيفية قيام النصارى بالفصح اليهودي ، الذي صار ارثاً للمسيحية كما نعرف ، جاء فذلكة تافهة ، خصوصاً عندما قال :

إن الفصح عندهم كان للذكرى فقط وليس للتجديد .

نسأله : ما هو البرهان أنه كان للذكرى فقط وليس للتجديد ، وكيف تأكد من ذلك ؟ . . ونسأله أيضاً : ما هو الدليل الذي مكنه أن « يطرح شهادته » بأن النصارى كانوا يعتبرون القيام بالفصح « مائدة روحية » وليس افخار ستيا أو ذبيحة شكر؟

وإذا كانت كذلك ، فلماذا إقامة « المائدة الروحية » في توقيت محدد ، هو نفس توقيت الفصح المعروف ؟

ثم ليفسر لنا معنى « المائدة الروحية » إلا إذا كانت هذه شأنها شأن « الوقعة الإلّهية » من الطلاسم التي لا تفسر .

نتابع مع الحريري قوله :

وفي القرآن لا شيء واضح : لا هو ينكرها ولا هو يقرها ، إنما يشير إليها ببالغ الأهمية ، فهي « مائدة من السماء » طلبها الحواريون من عيسى لتطمئن بها قلوبهم ، فطلبها عيسى من الله ، لتكون عيداً للأولين والآخرين ، ونزلها الله بناء لطلبه .

وادى الموقف في موضوع القربان ، إلى عدم وضوح في الكهنوت .

فلا النصرانية، ولا الإسلام يقول بالكهنوت، أو بالذبيحة التي يقوم بها الكاهن .

فالنصارى يؤمنون بأن المسيح أتى ليلغي ذبائح العهد القديم ، استناداً إلى تعاليم التوراة . وبنظر الأبيونيين ، إن المسيح أطفأ بصبغة المعمودية النار ، التي يشعلها الكاهن للخطايا . فألغى بالتالي وظيفة الكاهن ، لأن نتيجة الغاء الذبيحة والمحرقة ، تلغي الكاهن والكهنوت كفداء للخطايا ، وقد كان يوم عندهم كانت فيه الذبيحة ضرورية لذلك ، وكذلك الكهنوت[1].

في النصرانية كان جهد الحريري منصباً على نفي ما هو موجود فيها : القربان والكهنوت . وفي الإسلام فالجهد منصب على إيجاد ما هو غير موجود فيه : القربان والكهنوت . في النصرانية لم يجد سوى شاهد واحد ، توفاه الله منذ ١٨ قرناً ، يستعين به ، ويستنطقه ، ويقوله وينقل عن لسانه ، هو ابيغان . . .

---

(١) قس ونبي : ص ١٣٩- ١٤٠.

وفي الإسـلام لـم يجد سـوى آيات من القـرآن يمسخها كـالعادة، يجتـزىء مقاطع منها ، يشوه تفسيرها ، ويحرّف مقاصدها ومعانيها .

فلا وفق في مسعاه مع النصرانية ، ولن يكون مـع الإسلام أكثـر توفيقـاً . . والسبب واحد ، هو أسلوب التزوير والتلفيق الذي يتبعه في كل كتابـه ، ومعروف أن هذا الحبل قصير وقصير جداً .

وخير وسيلة لفضح أباطيله بأن نورد تفسير الآية الصحيح . .

فالآية هي :

﴿ قـال الله إني منزلهـا عليكم فمن يكفـر بعـد منكم فـإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾[1].

سيد قطب[2] والطبرسي في تفسيرها قالا :

تتحـدث الآية عن خـلاصة حـوار جرى بين عيسى وبعض حواريه الذين بعدما رأوا من معجزاته ما رأوا، طلبوا خارقـة جـديـدة ، تـطمئن بهـا نفـوسهم ، ويعلمـون منهـا أنـه صدقهم ، ويشهدون بها له لمن وراءهم . . . فسألوه : يـا عيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربـك أن ينزل علينـا مائـدة من السمـاء؟ بمعنى هل تملك أنت أن تـدعو ربـك لينـزل علينا مائدة من السماء ؟ فرد عليهم عيسى محذراً من طلب هذه المعجزة ، فقال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . ولكنهم كـرروا الطلب ، معلنين عن علتـه وأسبابـه ، وما يـرجـون من ورائه، قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أنه قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين . .

---

(١) سورة المائدة : الآية ١١٥ .

(٢) في ظلال القرآن : ج ٣ ص ٧١.

عندئذٍ اتجه عيسى إلى ربه يدعوه :

﴿ قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾[1].

واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى ابن مريم ، ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه ، لقد طلبوا خارقة واستجاب الله ، على أن يعذبهم بعد هذه الخارقة عذاباً شديداً في شدته ، لا يعذبه أحداً من العالمين ، إن طلبوا سواها . .

هذا هو تفسير الآية ، تحدثت عن حوار جرى بين عيسى وتلامذته، وليس فيها ما يشير من بعيد أو قريب إلى قربان وكهنوت ، للإسلام موقف معروف منهما .

وإن مجرد إيمان الابيونيين والنصارى عامة بالمعمودية ، كافياً لقذفهم بعيداً عن الإسلام أشواطاً وأشواطاً . وإلغاء الذبيحة والمحرقة ـ كما زعم ـ من طقوس النصارى ، مع الإبقاء على الإيمان بالمعمودية ، ليس إلا الغاء شكل من أشكال الشرك ، وليس الشرك بحد ذاته .

وتبدو صورة الضياع ، والحيرة ، والبلبلة ، جلية في آرائه ، فنراه لا يدري ماذا يقول : أيثبت الذبيحة والكهنوت عندهم ، أم يلغيهما ؟ عندما يقول :

وقد كان يوم عندهم كانت فيه الذبيحة ضرورية لذلك ، وكذلك الكهنوت .

ثم نراه يعود للقرآن فيقول :

القرآن العربي ، هو أيضاً لا يقول شيئاً عن الكهنوت ولا عن الذبيحة ، فهو لا يؤمن بالذبيحة كفداء للخطايا ، ولا

---

(١) سورة المائدة ، الآية/ ١١٤ .

بالكهنوت لإقامة الذبيحة ، ولا محل لهما فيه[1].

إنه الضياع بعينه ، كل فتله ودورانه لم يوصلاه إلا إلى هذه النتيجة المخيبة لآماله ، فلماذا الحوار ولماذا النقاش ؟

فإذا كان الغموض والإبهام جائزي الوجود في الموقف النصراني ، من موضوع القربان والكهنوت ، فأين يراهما في الإسلام .

لا شيء في القرآن عن الكهنوت والقربان .

زفرها بمرارة واحباط ، فكشف بهما كل ضلاله وبهتانه وتجنيه .

ولكن اعتراف الحريري بالفشل ، ليس بالأمر السهل ، فإذا ما جانبه الحظ مرة ، نراه يسعى إليه ولو بالتحايل على الحقيقة مرة ومرات ، فلنسمعه يوجد للأمر تعليلاً لا يبعث في النفس سوى الضحك والسخرية فيقول :

وقد يكون القرآن مقراً بهما ـ القربان والكهنوت ـ سابقاً ، بدليل استبدالهما بصبغة إلٓهية يصبغ بها الناس المؤمنين صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ، ومن يدري ما هي الصبغة الإلهية[2].

هل عرف القارىء الكريم كيف وجد صاحبنا مخرجاً لمأزقه ؟

فركب موجة الوهم والخيال ، معلناً : إنه إذا كان القربان والكهنوت لا أثر لهما في القرآن ، فلماذا لا يجيز لنفسه أن يحتمل وجودهما فيه في السابق ؟ ثم يحتمل أيضاً أنهما استبدلا بصبغة الله . مع أنه « طرحها » دون أن يوضح ظروف هذا الاستبدال ، ولا دليله عليه ، ولا تاريخ حدوثه ، ولا مصادر معلوماته حوله .

« طرحها » فلحقنا به ، إلى باب داره . .

---

(١) قس ونبي : ص ١٤٠ .

(٢) قس ونبي : ص ١٤٠ .

الإسلام لم يكره أحداً على اعتناقه

لم يترك الحريري المزعوم فرية ولا تهمة ، إلا وألصقها بالإسلام .

وتهمة العنف في الإسلام ، أو بالأحرى إكراه الناس على اعتناقه ، من بين التهم التي لاكها أعداء الإسلام .

ولا غرابة في أن يكون أكثر المتحاملين على هذا الدين ، كانوا من رجال الدين المسيحي ، بدءاً من اليسوعي لامنس ، ومروراً بكايتاني ، وصولاً إلى الكاردينال لامنجري ١٨٢٥-١٨٩٢ ، والأب الحايك ، وصاحب «قس ونبي» ، وسواهم .

وعليه ، فلا بد من وقفة عند مقولته :

> بأن النبي أخذ يخضع بالسيف والعنف ، دون تمييز بين يهودي ، أو نصراني ، أو مسيحي [1] .

نسأل : هل هذه هي الحقيقة حقاً ؟ هل صحيح أن النبي نشر دينه بالسيف ، والعنف ، والإكراه؟ . .

لا بد لنا من الرد على هذه الفرية ببعض الإسهاب ، فالفرية يجب أن

---

(١) قس ونبي : ص ١٣٦.

تفضح المفتري ، والكيد يجب أن يرتد إلى صاحبه .

ولرد التهمة ، لا بد من أن نبدأ بالقرآن ، فنقرأ بعض آياته الداعية إلى التسامح ، والعدل ، والرأفة :

١ - ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾[1] .

٢ - ﴿وأن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾[2] .

٣ - ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[3] .

٤ - ﴿لا إكراه في الدين﴾[4] .

وهكذا نجد أمامنا في قرآن الإسلام ، وصية خير بالمشركين ، فكيف بأهل الكتاب ؟

وهذا حديث للنبي ، يعني أهل الكتاب مباشرة ، فقد قال :

من آذى ذمياً فقد آذاني[5] .

وهذه وصيته إلى موفده «معاذ بن جبيل» حين انتدبه معلماً يتنقل بين البلاد ، ليرشد الناس إلى الإسلام .

فأوصاه :

إنك تأتي قوماً أهل كتاب ، فادعهم إلى شهادة ألاّ إله إلا الله ، وإني رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك ، فاعلمهم

---

(٢) سورة النحل، الآية/ ١٢٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٦ .

(٣) سورة الممتحنة ، الآية/ ٨ .

(٤) سورة البقرة ، الآية/ ٢٥٦ .

(٥) مسند أحمد ، ج ٣ ص ٥٧ .

بـأن الله تعالى افتـرض عليهم خمس صلوات في كل يـوم وليلة ، فـإن هم أطاعـوا ، فأعلمهم أن الله تعـالى افتـرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم .

فإن أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم .

واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب [1].

ومن هـذه الوصيـة نرى أن الـدين الإسلامي ، يعـرض على الناس عـرضاً مجـرداً من شائبـة ، وضغط ، وإكراه ، وأن النصـارى كانـوا مطلقي الحـريـة في إجابة داعي الله أو الإعراض عنه .

وقـد يفيـدنـا في رد هـذا التجني الـظالم على الإسـلام ، أن نـورد نص المعـاهدة التي وقعهـا الخليفة الثـاني عمر بن الخـطاب ، مع رسـل سفـرنيـوس أسقف بيت المقدس ، في وقت كانت الجيـوش الإسلاميـة في أوج انتصارهـا ، جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهـل «ايليـاء» من الأمـان ، أعـطاهم أمـانـاً لأنفسهم ، وأموالهم ، ولكنائسهم ، وصلبـانهم ، وسقيمها وبـريئهـا ، وسـائـر ملتهـا . أن لا تسكن كنـائسهم ، ولا تهـدم ، ولا ينتقص منهـا ، ولا مـن غيـرهـا ، ولا مـن جلبهم ، ولا من شيء من أمـوالهم ، ولا يكـرهـون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهـل ايليـاء أن يعـطوا الجـزيـة كمـا يعـطي أهـل المـدائن ، وعليهم أن يخرجـوا منهـا الـروم واللصـوص ،

---

(١) التعصب والتسامح : ص ١٤٦ .

فمن خرج منهم ، فإنه آمن على نفسه وماله ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل أيلياء من الجزية .

ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلي بيعهم وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم ، وعلى بيعهم ، وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن كان بها من أهل الأرض مما شاء منهم ، قعد وعليه مثل ما على أهل أيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، وأن لا يأخذ منهم شيء ، حتى يحصد حصادهم .

هذا كان عهد عمر ، وهو في أوج انتصاره ، وهو عهد الإسلام منذ كان الإسلام ، فما أروعه عهد ، وما أسماه من موقف .

وقد لا يكفيه ما جاء في القرآن ، ولا نص معاهدة التسامح العمرية ، فنورد له أوامر ابن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص قائده في جبهة فارس ، أرسل إليه يقول :

أقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم .

ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً .

فإن لهم حرمة وذمة ، ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح [1] .

(١) تاريخ الطبري : ج.٢ ص ٢٠٦ .

وإليه شهادات نصارى مثله ، فليسمعها :

ديورانت قال :

عاهد النبي المسيحيين في بلاد العرب ، وأخذ على نفسه أن يحميهم ، وأن يكونوا أحراراً في ممارسة شعائرهم [1] .

وقال :

لا يسعنا إلا أن نسلم بأن الخلفاء الأول ، من أبو بكر إلى المأمون ، كان بمقدورهم أن يصادروا كل شيء ، أو أن يخربوا كل شيء كما فعل أهل الشمال من الأوروبيين ، لكنهم لم يفعلوا هذا ، بل اكتفوا بفرض الضرائب .

وقال :

كان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين ، يفدون بكامل حريتهم وهم آمنون ، من جميع أنحاء أوروبا المسيحية إلى قرطبة ، وكثيراً ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين .

وهذا شاهد مسيحي آخر يدلي بشهادته ، فيقول غوستاف لوبون :

ساعد وضوح الإسلام ، وما أمر به من العدل والإحسان على انتشاره في العالم ، وبتلك المزايا نفسر سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام [2] .

وقال :

ترك الإسلام النصارى المغلوبين أحراراً في دينهم ، والتاريخ أثبت أن الأديان لا تفرض بالقوة ، فلما قهر النصارى عرب الأندلس ، فضل هؤلاء القتل والطرد عن

---

(١) قصة الحضارة : ٤١/ ١١-٢٦٢/ ١١-٢٩٧/ ١١.

(٢) حضارة العرب : ١٦٩.

آخرهم على ترك الإسلام[1] .

وقال :

كان عرب إسبانيا ، خلا تسامحهم العظيم ، يرحمون الضعفاء ، ويرفقون بالمغلوبين ، ويقفون عند شروطهم .

وربما اعترض المؤلف ، فقال : بأنه ليس بين الشهود آباء ، وبطاركة ، وأساقفة ، ولكي لا نحرمه من شهادتهم ، فليسمع :

روبرتسون قال :

المسلمون مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم ، تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية[2] .

ميشو قال :

الإسلام الذي أمر بالجهاد ، متسامح نحو اتباع الأديان الأخرى[3] .

البطريرك عيشويابه قال :

أن العرب ليسوا بأعداء النصرانية ، بل يمتدحون ملتنا ، ويوقرون قديسينا وقسيسينا ، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا[4] .

ميخائيل السوري بطريرك إنطاكية قال :

إن رب الانتقام ، استقدم من المناطق الجنوبية أبناء إسماعيل ، لينقذنا بواسطتهم من أيدي الرومان ، فلقد أصابنا خير ليس بالقليل ، فتحررنا من قسوة الرومان وشرورهم ، وسادت عندنا الطمأنينة[5] .

---

(١) حضارة العرب: ١٦٢ .
(٢) عن التعصب والتسامح : ص ٧١ .
(٣) عن التعصب والتسامح : ص ١٧٧ .
(٤) عن التعصب والتسامح : ص ٤٦ .
(٥) عن التعصب والتسامح : ص ١٠٩ .

المطران ناوفيطوس قال :

لم يـدر في خلد النبي قط ، أن يفرض شـريعتـه على أمـة أخـرى ، وذلك إجـلالاً للوحي المتقدم النزول ، وتوقيـراً لمشيئة الله الذي أراد أن تتنوع الأديان (١) .

غاستون فييت قال :

يبـدو ثابتـاً اليوم ، أن العـرب لم يضطهـدوا أحداً لـدوافـع دينية (٢) .

الدكتور جورج قرم قال :

لأول مرة في التاريخ ، امكن لدين مـوحد أن يجـد الصيغة شبه السوية ، التي تحث أتباعه على التمسك بحبل المبدأ العـظيم«لا إكـراه في الـدين» وعلى الإعتـراف بحقهم في الوجود ، كطوائف لها ملء الحرية في ممارسة معتقداتها ، وشعائرها ، وحياتها الجماعية(٣) .

وقال أيضاً :

إن وجود الذميين بنـظر الإسلام ، ليس مـرهونـاً بتسامـح ، ولا تحـديـد لـه ، بـل ينـدرج في إطـار الشـريـعـة الإسلامية (٤) .

وقال :

طبقاً لتعاليم القرآن ، التي تنهى عن اللجوء إلى الإكراه في الـدين ، لم تمارس الحـاضرة الإسـلاميـة قط الإضـطهـاد

---

(١) عن تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ٢١١ .

(٢) انظر تعدد الأديان وأنظمة الحكم: ص ٢٣٩ .

(٣) نفس المصدر: ص ١١ .

(٤) نفس المصدر: ص ١٢ .

الديني المباشر ، كما لم تلجأ إلى فرض الشعائر الدينية للعقيدة الرسمية ، أو إلى المواعظ الإلزامية ، بغية حث غير المسلمين على اعتناق الإسلام[1] .

فهذه هي مبادىء الإسلام ، وآيات القرآن ، وأحاديث النبي ووصاياه ، ومسلك قادته ، فأين هو السيف فيها ، وأين هو العنف ؟

وهذه شهادات مسيحيين بتسامح الإسلام ، وعدله ، وترفعه عن مزالق الإرهاب والعنف ، التي انزلق إليها سواه .

---

(١) انظر تعدد الأديان وأنظمة الحكم: ص ٢٥٤ .

في الإسلام اشتراكية عادلة تفتقدها المسيحية

نقرأ في الصفحة ١٤٨ من قس ونبي :

> إن النبي علم في بادىء الأمر فعل الخير والحسنات ، حتى إذا ما ظفر وانتصر ، انقلب على مبادئه هذه ، وصار همه القضاء على الأغنياء ، وإعلاء شأن الفقراء .

مقولة إن دلت ، فإنما تدل إما على الكثير من الجهل ، أو الكثير من التجني ، وكلاهما مصيبة . فالإسلام لم ينقلب على مبادئه ، لا في البداية ولا في النهاية ، لا في حال الهزيمة ولا في حال الظفر ، وتعاليم القرآن شاهدة بانسجامها الرائع ، وبوحدة الرؤيا فيها ، ووضوح الهدف ، على خطل التهمة وسوء المقال ، فلا تخلو صفحة في القرآن من الدعوة إلى العمل الصالح ، والأمر بالبر والتقوى ، والنهي عن الفحشاء والمنكر .

وإلى جانبها آية أخرى ، تؤكد إيمان الإسلام بمجتمع العدالة ، والكفاية ، والمساواة ، والحث على إنصاف المظلوم ، والتهجم على الجشع والاستغلال .

ولو قارنا بين التشريع الإسلامي ، وبين ما لدى الأديان الأخرى من شرائع ، مضافاً إليها كافة التشريعات الوضعية الحديثة ، الاقتصادية ، والاجتماعية ، والخلقية ، لتأكدنا من حقيقة قاطعة ، بأن الشرائع الإسلامية ، كانت ولا تزال ، هي الحل الأمثل ، والأفضل ، لخلق مجتمع الكفاية والأمان ، والحياة الكريمة والاستقرار .

كونها أخذت في الإعتبار ، جميع مشاكل الإنسان المعقدة ، فوضعت لها حلولاً ، أكدت فيها على الجانب الإنساني والخلقي لدى الإنسان ، مما لا نجده بهذه الشمولية لدى الديانات الأخرى .

شرائع الإسلام عززت في الإنسان حوافزه الفردية والاجتماعية ، وحثته على البناء المعطاء ، وكما حفظت له حقه بالتمتع بحرية تامة بثمرة جهاده ، كذلك لم تنس مسؤولياته الإنسانية ، ففرضت عليه واجباً مقدساً نحو مجتمعه ، يتناسب وقدراته وإمكاناته ، سواء كان في الشأن الاقتصادي ، أو الاجتماعي ، أو المسلكي ، محركة فيه عامل الضمير والوجدان ، ومعتمدة عليهما كلياً .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، لا نستطيع الإسهاب بشرحها ، كونها ليست هدف بحثنا ، إلا أننا نأتي بإيجاز على ذكر بعضها ، مبتدئين بموضوع : الربا .

أول وأخطر آفة ، عانى ويعاني منها الإنسان والمجتمعات في العصور القديمة والحديثة ، هي في تحول رأس المال بيد قلة من الناس ، إلى أداة احتكار وتحكم ظالمين ، على حساب القاعدة الشعبية العريضة . ومعروف أن أهم الطرق التي تسلكها هذه القلة للوصول إلى مآربها ، هي : **الربا** .

هذه الآفة التي تعاني منها مجتمعات هذا العصر ، هذا المرض الذي ينخر حياة الناس كافة ، والذي تحاول الأنظمة الحديثة جاهدة لوضع ضوابط للحد من خطورته وأضراره دون جدوى ، هذه الآفة رآها الإسلام منذ خمسة عشر قرناً ، وتحسس أخطارها ، وقدر مضارها ، وأوجد لها الدواء الناجع ، فقال باختصار رائع : **لا ربا في الإسلام** .

وفوائد هذا الدواء معروفة ، لا داعي للتوسع بشرحها .

وإذا كان الإسلام قد قال : لا ربا في الإسلام ، معتبراً أن فيها دواء لمرض فتاك من أمراض المجتمع ، فهل التفتت المسيحية إلى مثل هذا الأمر الخطير بشيء من الواقعية ، محاولة وضع العلاج الناجع له . من المؤسف القول : أننا لا نجد لها في هذا المضمار دوراً .

والإسلام عندما رفض الربا كواقع اقتصادي ظالم ، لم ينس إيجاد البديل المنطقي المعقول عنه ، فأوجد تشريعاً إنسانياً راقياً ، قائماً على المبادرة الذاتية ، والالتزام الخلقي والديني ، لدى الإنسان المسلم ، وهو ما اتفق على تسميته : **بالزكاة** .

وواجب الزكاة في الإسلام أشهر من أن يعرف .

إلا أن كلمة مختصرة حوله لا بد من قولها ، وهي أن واجب الزكاة أرسى قواعد أول اشتراكية ، عادلة موزونة ، واقعية ، في التاريخ الإنساني ، قائمة على احترام الحس الخلقي والإنساني ، لدى الإنسان المسلم .

اشتراكية طبقها الإسلام ، وينفذها المسلمون ، بمبادرة ذاتية راقية ، دون حسيب ولا رقيب إلا الله ، وضمير المسلم ، والتزامه الديني والخلقي ، دون عنف ولا زجر ولا إكراه .

اشتراكية ترفض أن يكون الفقر والحرمان أساس المساواة بين الناس ، كما هو حاصل في الأنظمة الاشتراكية الحديثة .

كما ترفض أن تكون حرية الإحتكار والجشع ، رمز سعادة الإنسان ، وطريق رخاء المجتمع ، كما هو حاصل في الأنظمة الرأسمالية المعاصرة .

اشتراكية الإسلام ، لو أحسن تعميمها وتطوير تطبيقها في المجتمع المسلم ، لعمت العدالة والمساواة كل فئاته وطبقاته ، ولما بقي فيه غني محتكر على حساب فقير محروم .

وهذا بعض عظمة الإسلام ، في وقت لا نجد في الديانة المسيحية أي تشريع حول هذا الشأن الخطير .

فهل في الدعوة إلى الخير والحسنات ، وإنصاف المحروم ، وإنقاذ الفقير من براثن شره الغني وطمع الموسر ، انقلاب على موقف ، وتنكر لمبادىء ؟ وكيف ؟ . . .

قال الحريري :

بين القرآن العربي وإنجيل العبرانيين ، أكثر من وفاق في هذا الموضوع ، بل نقل صريح ، وتفصيل واضح ، ولئن فاتتنا نصوص الإنجيل العبراني ، فإن اعتمادنا على الأناجيل الإزائية الثلاثة الرسمية ، لا يقلل من معرفتنا بالتعاليم الأبيونية في الحسنات والصدقات شيئاً .

ذلك لأن إنجيلي متى ولوقا الموصوفين بالعناية بالفقراء ، كالإنجيل العبراني نفسه (؟) يعتمدان على إنجيل متى الآرامي ، أصل كل الأناجيل بعده .

لهذا تجدر المقابلة بينهما يقصد إنجيلي لوقا ومتى - وبين القرآن العربي [1] .

يلاحظ القارىء ، وحديث الحريري يدور حول الإنجيل العبراني المغيب ، والأناجيل الإزائية الثلاثة «الرسمية» والتعاليم الأبيونية الموهومة ، وما شابه ، أن صاحبنا يتقدم بطريقة بهلوانية رخيصة ، ليدحش القرآن بين حابل هؤلاء ونابلهم ، بلا مبرر ولا موجب ، دون أن يشرح لنا ما شأن القرآن في الذي اتفقت أو اختلفت فيه الأناجيل ، ثم مطالباً بمقابلة بين إنجيلي لوقا ومتى من جهة وبين القرآن من جهة أخرى ، دون أن ندري لماذا استبعد من شركة الأناجيل الإزائية الثلاثة ، إنجيل مرقص . . . ؟

وما يبغيه المؤلف من حركته المسرحية المبتذلة ، هو أن تصل المقارنة بالنتيجة إلى نقطة تكون فيها بين الإنجيل العبراني والقرآن .

ولكن كيف ؟، موقف مضحك فعلاً .

إنجيل غير موجود ، لا أثر له ولا أساس ، نجد المؤلف الحاذق لا يعدم

---

(١) قس ونبي : ص ١٥٠.

وسيلة ، أو طريقة فريدة ، مبتكرة ، يتمكن بها من قراءة نصوصه الوهمية ، دون حرج ولا ارتباك .

والوسيلة هي : سمع أن الإنجيل العبراني ، قد أخذ عن إنجيل متى الآرامي .

وسمع أيضاً إشاعة أخرى ، أن الآرامي هذا ، هو أساس إنجيلي متى ولوقا الحاليين ، فاعتبر أن القربى بذلك قد وقعت بين الأناجيل الثلاثة ، متى ، ولوقا ، والعبراني المغيب . وهذا جعله يعتقد ، أنه إذا ما قارن بين متى ولوقا الحاليين ، وقرأ نصوصها ، فكأنه بالتمام والكمال يقرأ من نصوص العبراني الغائب .

وهكذا صار وجود هذا الإنجيل في مخيلة المؤلف ، حقيقة لا وهماً .

أكثر من ذلك ، فصاحبنا اعتقد لدرجة الإيمان ، أنه لما كان إنجيلي لوقا ومتى يتحدثان كثيراً عن الصدقات والحسنات ، فإن من المفترض أن يكون زميلهما العبراني المغيب ، هو الآخر يتحدث عن الحسنات والصدقات . ولما كان القرآن ، كتاب المسلمين ، يهتم كذلك بالصدقات والحسنات ، فصار من البديهي أن يكون بإمكان الحريري أن يقول : أن الإنجيل العبراني رغم غيابه عن ساحته ، هو : أساس القرآن .

وهكذا وقعت التهمة على القرآن وثبتت الفرية . .

ولا بد أن نذكر «مجترح المعجزات» بأن الاهتمام بالحسنات والصدقات نجده في كل دين وفي كل مذهب ، حتى أن معتقدات الوثنيين أنفسهم لا تخلو منه .

فديانة بوذا وزرادشت ، وكل الديانات المحلية المنتشرة في مجاهل إفريقيا وسواها ، كلها اهتمت بالصدقات والحسنات ، وأوصت بها ، وأكدت عليها ، كما نجد الاهتمام بها في توراة موسى ، ووصايا المسيح ، وقرآن محمد ، فالصدقات والحسنات مسائل لها طابع مسلكي وأخلاقي بحت ، نجدها في كل

الديانات ، ولا يجوز حصرها بديانة معينة ، ولا بمذهب دون الآخر .

فهل ستأخذنا الدهشة ، ويذهب بنا العجب حداً ، يجعلنا نهلوس ونهذي كالحريري ، فنتهم زرادشت بالزحف إلى إفريقيا لسرقتها ، أو موسى بالسير نحو التيبت لنقلها عن بوذا ، أو هذا عن ذاك كما ادعى المؤلف بالنسبة للنبي محمد ؟ .

ثم لماذا لا نضم تلك الديانات أينما كانت إلى عائلة الأناجيل ، متى ، ولوقا ، والعبراني الضائع ، طالما أنها مثلها تقول بالحسنات والصدقات ؟ فالدافع موجود والأسباب قائمة كافية . . .

نترك هذيانه لنقف قليلاً عند موضوع : الأناجيل الإزائية .

قال :

> ولئن فاتتنا نصوص الإنجيل العبراني ، فإن اعتمادنا على الأناجيل الإزائية الثلاثة الرسمية ، لا يقلل من معرفتنا بالتعاليم الأبيونية في الحسنات والصدقات شيئاً[1] .

إذاً من معرفته الذاتية بالأبيونية ، وهو بحد ذاته موسوعة لا يستهان بها ، بشهادته لنفسه ، ومن الأناجيل الثلاثة يستمد نصوص وآيات الإنجيل العبراني ويقرأها علينا . . نعترف سلفاً بأن لا حق لنا بالتقليل من قيمة «معرفته الذاتية» ولكننا نسأله :

كيف عرف وتأكد ، أن نصوص وآيات الأناجيل الثلاثة إزائية ، بالنسبة للإنجيل العبراني ؟ أو أن العبراني «إزائي» بالنسبة للأناجيل الثلاثة ، وبأية وسيلة تحقق من هذا الأمر ؟

---

(١) قس ونبي : ص ١٤٣ .

نقطة أخرى لا بد من ملامستها ، فبحسب المباهـاة المسيحية المعـروفة ، فإن الأناجيل الأربعة الرسمية متى ـ لوقا ـ مرقص ـ يوحنا ، هي وحدة لا تتجـزأ ، سواء من حيث المضمون أو المعنى ، أو الانسجام الروحي .

فلماذا استبعد المؤلف طيلة مراحل كتابه إنجيل يوحنا ، من دائرة المقـارنة والبحث ؟ علمـاً أن المنطق ، يفـرض أن يكون مـا يقاس بـأنـاجيـل متى ولـوقـا ومرقص ، يقاس بإنجيل يوحنا أيضاً .

أليست «وحدة» الأناجيل الأربعة ، قائمة ، ثابتة ، راسخة حول كل شيء ؟
أم أنها متفقة أحياناً ، وعلى تناقض وخلاف أحياناً أخرى ؟ . .

المقارنة الفاشلة

لم نجد في الباب الرابع من الفصل الخامس من الكتاب ما يستحق الوقوف عنده ومناقشته ، إذ أن صاحبه قد دبج عدة صفحات بما اعتبره شواهد وبراهين غلب عليها طابع الثرثرة ، ليدل بها على «الوفاق التام» بين القرآن العربي ، وما أسماه بالتقاليد النصرانية .

فأتى ببعض آيات من القرآن ، عالجت أموراً روحية إيمانية ما ورائية ، كالجنة والنار ، والقيامة والحساب الأخير ، ثم أتى بنتف من مصادر مسيحية مختلفة ، سماها «تقاليد نصرانية» .

بعضها من إنجيل متى ومن أعمال الرسل ، وقليل من نبوءات أشعيا ورؤى الرسل ، ليدلنا على التشابه القائم بين وصف القرآن لتلك الأمور ، ووصفها في «التقاليد النصرانية» .

قائلاً :

لكأن القرآن ينقل نقلاً مباشراً عن التوراة والإنجيل ، والتقاليد النصرانية .

ونرى أن نضع أمام القارىء عينة منها ، لكي يتبين أية براهين وأية شواهد أتى بها ، ليثبت أن القرآن منقول نقلاً مباشراً .

قال :

في القرآن : أن الساعة الأخيرة من هذا العالم ستأتي

بغتة ، وأنها آتية لا ريب فيها .

في النصرانية : أن المسيح يجيء بغتة لا تتوقعونها ، سيأتي كاللص ليلاً ، وفي لحظة وطرفة عين .

في القرآن : يصر القرآن أن الله وحده عنده علم الساعة ويردد بأن علمها عند «ربي» ، وعلمها عند الله .

ويضيف الحريري المزعوم متهكماً ساخراً ، فيقول :

أما محمد على قربه من الله ، فلا يعلم متى هذا الموعد .
وفي النصرانية : كذلك الأمر في النصرانية ذلك اليوم ، لا يعلمه أحد ، لا الملائكة ولا الابن ، إلاّ الأب[1] .

لا نريد الوقوف عند السخرية السمجة التي زفرها من أعماق حقده على النبي ، بقوله :
أما محمد على قربه من الله ، فلا يعلم متى هذا الوعد ، ولكننا نقول له أن محمداً قريب بالتأكيد من الله قرب كل نبي وموحد من ربه ، والإيمان الذي يقرب الموحد من ربه ، هو عكس الشرك الذي يباعد بين المشركين وبين ربهم .

نتخطى أحقاده لنسأله : القرآن قال : إن علم الساعة عند ربي ، والنصرانية حسب زعمه قالت : لا يعرفها إلاّ الأب ، فماذا تقول المسيحية يا ترى ؟

أخشى ألا يكون أمر الساعة عندها محسوماً ، أو مختلف عليه بين أتباعها ، أسوة بكل ما في تعاليمها . يملأ الحريري ثلاث صفحات من كتابه بثرثرة متواصلة ، جمع بها أوصاف القيامة في القرآن ، وأوصافها في المصادر

---

(١) قس ونبي : ص ١٥٠.

النصرانية كما صنفها ، ليدلنا على مواطن التوافق «الفاضح» بين القرآن والنصرانية ، والغريب أنه خلط بشكل مضحك حابل مصادره بنابلها فأشرك كل إنجيل وسفر وكل الرؤى ورسائل القديسين ، ثم حشر التلمود اليهودي ، وبعض المصادر الأجنبية «المقدسة» طبعاً ، وكل مصادر الإيمان المسيحي ، بشيء أصبحت المقارنة ليست بين النصرانية والإسلام كما أرادها ، وإنما شملت اليهودية والمسيحية بطريقة فوضوية ، شلت قدرة القارىء على الرؤيا والتمييز .

ومع ذلك ، فسنحاول أن نوجز للقارىء بعض شواهده وبراهينه ، لكي تتوضح أمامه صورة «حقائقه» وأسلوبه «الرزين» .

قال : في وصف يوم المعاد : جاء عنه في : القرآن	ووجد في رسالة يهوذا الصورة ذاتها ، فقال :
A يأتي الله في ظلل من الغمام والملائكة ، وتجتمع الملائكة صفاً صفا .	A في يوم الدين يحضر الملائكة ، كشهداء على أعمال البشر ، وكمشتكين على سيئاتهم .
B يحدث برق ورعد ومخاوف عظيمة ، فيكون جوع عظيم .	B وفي متى : تحدث مجاعات هنا وهناك .
C يجعل الولدان شيبا .	C من رسالة بولس إلى أهل غلاطية : يرى على رؤوس الشبان شعراً أبيض .
D ينقر في الناقور ، وينفخ في الصور ، وتسمع صيحة في كل مكان .	D من رسالة بولس إلى أهل كورنتوس :وينفخ بالبوق .
E يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه .	E من متى :يسلم الأخ أخاه إلى الموت ، والأب ابنه ، ويثور الأبناء على والديهم ، فيقتلونهم .
F فيه لا يسأل حميم حميماً .	F بولس: على كل واحد أن يحمل حمله .

G	ولا يغني مولى عن مولى شيئاً .	G	مصدر أجنبي «مقدس»قال : لا أحد يشفع لأحد ، لا أب ، ولا أم ، ولا أخ ، ولا صديق .
H	نحن أكثر أموالاً وأولاداً ، وما نحن بمعذبين .	H	مصدر أجنبي «مقدس»قال : الويل لكم أيها الأغنياء ، لأنكم وثقتم بغناكم ، ستحرمون منها ، لأنكم لم تذكروا العلي يوم غناكم لقد نضجتم ليوم الدين .
I	للذين استجابوا لربهم لهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له ، لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ، لأفتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم .	I	قال إن لها مطابق في «العادات» النصرانية ، فنقل عنها :لا تقدر فضتهم ولا ذهبهم على إنقاذهم في يوم غضب الرب ، ولا يشبعون نفوسهم ، ولا يملؤن أجوافهم بهما ، لأنهما كانا معثرة لهم .
J	يوم لا ينفع لا مال ولا بنون .	J	في حزقيال ، صفنيا ، سفر الأمثال :لا ينفع المال في يوم الغضب .
K	ثم نراه يأتي بكلمة من كل آية من سورة مختلفة كالآتي : فيه يحضر الناس أمام الله «أشتاتاً» . ويكون الفصل بين الأبرار أصحاب اليمين والأشرار أصحاب الشمال . ويخيم على الجميع صمت رهيب ، ويبتدأ الحساب ، وتكشف الأعمال والخفيات بحسب	K	متى :تحشر لديه جميع الأمم ! فيفصل «النعاج» الأبرار عن يمينه ، والكباش الأشرار عن شماله . رؤيا يوحنا :يجازى يومئذ كل امرىء على قدر أعماله ، كل واحد سيؤدي عن نفسه حساب الله . رؤيا دانيال :ثم تفتح الكتب ، ومن لم يوجد مكتوباً في سفر الحياة ، طرح في مستنقع النار .

كتاب الأعمال ، لأن لكل إنسان
كتاباً خاصاً تدون فيه أعماله .

ويختتم مقارنته بإدخال التلمود اليهودي إلى ساحة البراهين والأدلة ، فيقول :

في القرآن	في التلمود
L تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، ويشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم .	L كل أعضائكم تشهد عليكم في السبت الأزلي .

على هذا النمط جرت براهينه «الدامغة» ليقنعنا بها بأن القرآن ، وكأنه منقول نقلاً مباشراً عن الإنجيل العبراني ،ولكن الغريب ، أن ما جاء في القرآن حول أوصاف يوم المعاد ، وطريقة الحساب ، وسواهما ، كان لها ما يماثلها في كل المصادر المسيحية واليهودية دون استثناء .

وجدناها في إنجيل متى ، وفي رسائل بولس ، وفي نبوءات حزقيال وصفنيا ، وفي رؤيا يوحنا ، وفي نبوءة أشعيا ، وفي إنجيل لوقا ، وفي أعمال الرسل ، وفي رؤيا دانيال ، ثم في مصادر المقنع «الأوروبية المقدسة»ثم أخيراً في التلمود اليهودي .

نسأل : كيف «الوفاق» والحال هذه محصوراً فقط بين النصرانية المزعومة والإسلام ، حول المواضيع المطروحة ، ومصادر المسيحية واليهودية بصمت بأصابعها العشرة على صدق ما جاء في آيات القرآن أيضاً حولها .

«براهين» الحريري ان أثبتت أمراً ، فهي تثبت توافقاً بين الإسلام وبين البقية السليمة من تعاليم المسيحية واليهودية ، خصوصاً حول المواضيع ـ المسلمات ـ التي لا يعلمها إلا الله ، لتعلقها بالماورائيات وأمور ما بعد الفناء .

فـأين الريب في مـوقف الإسلام ؟ وأين الشبهـة في نظريـاته ، والكـل في المواقف حولها سواء ؟

من التوافق النصراني الإسلامي المزعوم حول المعاد ويوم الحسـاب ، إلى توافقهما الجديد حول :

أحوال الجنة .

قال :

> في القـرآن العربي ، كمـا في التقـاليـد النصـرانيـة ، جنـة واحدة في أوصافها وأحوالها ومحتوياتها . وما يسترعي منـا الاهتمـام والانتباه ، تلك المقـابلة القريبـة بين جنة القـرآن وفـردوس مار افـرام السيريـاني ٣٥٩ م، الملقب بـ «كنـارة الروح القدس»[١] .

ولا نفهم في الحقيقة دور افرام السرياني هذا في هذه المعمعة ؟

فهل يعقل ، أن تكون مقبولة مقارنـة آيات القـرآن بأقـوال شخص ما ، قـد يكـون رجل دين منشق ، أو كـاهن مهرطق ، أو أسقف خـوارجي ، كمـا عـودنـا هؤلاء أن يكونوا ، لا وزن لقوله ولا معيار لكلمته ، أمام كلام القرآن ؟

صفحات وصفحات من كتابه دبجها بأقوال مار افرام السرياني ، ثم قارنهـا ببعض آيات القرآن ، فبلغت به الثرثرة حداً مـزعجاً ، جعلنـا نفضل أن لا نـرهق القارىء بمتابعة عملية فارغة من أي مضمون ، وخالية من أية فائدة .

فبـالإضافـة لأقوال «الكنـارة» أشرك المؤلف في المقـارنـة ، كـل المصـادر المسيحية دون استثناء واليهودية أيضاً ، فأتى ببولس ورسائله ، وإنجيـل يوحنـا ، وسفـر الرؤيـا ، والتلمود ، ومتى ، وأشعيـا ، وسفر التكـوين ، وزكريـا ، ورؤيـا بولس ، وأسرار موسى ، ورؤيا يشوع .

---

(١) قس ونبي : ص ١٥٤ .

والعجيب المستغرب ، أنه ورغم كل ذلك ، ظلت المقارنة بنظره محصورة بين القرآن والنصرانية ، لم تتعداهما إلى المسيحية .

طوافنا السعيد في جنة القرآن ، وفردوس الكنارة مار افرام السرياني ، وزملائه القديسين ، وأترابه الرسل والأنبياء ، شارفت على نهايتها ، ولم يبق أمامنا سوى زاوية أخيرة يشع منها النور والعطور ، والدلال والجمال .

جعلها الحريري خاتمة المطاف ومسكه .

لندعه يشرح أمرها بنفسه ، وهو يقودنا إليها وبيده «كتبه الكثيرة المقدسة» وبيدنا قرآننا الوحيد .

قال :

ما يزيد في بهجة الجنة القرآنية ، وجمالها الفتان ، وملذاتها العارمة ، حوريات خلقهن الله حديثاً ، وخصيصاً للمتقين الأبرار ، فكانت في القرآن :
أنشأهن إنشاءً هن أبكار على الدوام ، قاصرات الطرف ، حور عين ، أزواج مطهرة ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً .

ويصل حقد المقنع على الإسلام حداً ، جعله يخرج عن حدود اللياقة والأدب والتهذيب ، عندما قال :

يقوم في خدمة أصحاب الجنة وأزواجهم ، غلمان وولدان مخلدون ، كأنهم لؤلؤ مكنون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً .

إن هذه الأوصاف هي أوصاف الحوريات نفسها ، ويخشى لهذا أن يكون للأبرار الذين لا يلذ لهم نكاح الإناث ، أو الذين لا يكفيهم ذلك ، أن يكون لهم حظ اللواط ، كمتعة

مرغوبة في جنة القرآن[1] .

ولا نعتقد أن كلاماً بهذا المستوى الشارعي ، جدير بالمناقشة أو التدقيق . وليس لنا والأمر كذلك إلا التمثل بقول الشاعر :

إذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

بعد هذه الجولة المتعثرة المضطربة ، التي تنقلنا أثناءها بين جنة القرآن وجنة الأناجيل ، حط بنا الحريري الرحال عند آخر باب من أبواب الخروج من الجنة ، مسجلاً للأجيال خلاصة انطباعاته عن الرحلة السعيدة ، فقال :

> لا أقول أن القرآن العربي نقل مباشرة عن مار افرام السرياني أو عن سواه ، ولا أقول أن محمداً كان مطلعاً على شوارد الجنة النصرانية ، وأوصافها كلها ، بل أن أفكار مار افرام كانت شائعة في الكنيسة السريانية النصرانية ، ومعروفة لدى جميع آبائها وكتابها ، والصلة بين القرآن ومؤلفات الكنيسة السريانية ، لم تكن فقط نتيجة جو عام عاش فيه محمد وأخذ عنه ، بل كانت بواسطة تعاليم ونصوص عرفها شفهياً ، وكتابة على السواء ، وعرفها بواسطة معارفه الشخصية واحتكاكه المباشر ببعض مؤلفات السريان[2] .

الواقع أن صاحبنا بات محتاراً ومرتبكاً ، فهو لا يدري أية فرية يدبرها للإسلام ، وأية تهمة يلصقها به .

ولحيرته بات يخلط بين هذه وتلك .

صنفه بدعة نصرانية ، ثم طور التهمة ، ليصبح الإسلام إنتاجاً يهودياً نصرانياً مشتركاً .

---

(١) قس ونبي : ص ١٦١ .

(٢) قس ونبي : ص ١٦٣ .

ثم أدخل المسيحية بعجها وعجيجها ، أناجيل وأسفار ونبوءات ، ورؤى وأعمال رسل ورسائل ، في شركة الإنتاج تلك ، وفي خلاصته هذه يعود الآن بالإسلام ، ليجعله يتنفس هواء السريانية ، بعد أن ظل يمنع عنه كل نسمة هواء ليست أبيونية .

رأى الإنجيل ، فقال :

وكان القرآن منقول عنه نقلاً مباشراً .

وفتح صفحات التوراة ، فقال :

أكثر القرآن منها .

وتصفح التلمود ، فقال :

وجدت القرآن فيه .

سمع عن إنجيل يقال العبراني ، فقال :

هو ذا القرآن بعينه مترجماً .

تحدثوا أمامه عن أبيونية انقرضت ، فأقسم :

بأن القرآن كتابها العربي .

وذكر بعضهم ورقة بن نوفل : فحلف :

أنه بعينيه الغاليتين رآه ينقل القرآن عن إنجيله .

وتذكر فجأة المرحوم مار افرام السرياني «الكنارة» :

فإذا الصلة بين القرآن والسريانية لا ينفصم عراها ، وإذا بمحمد ، يتحول من أبيونيته الشهيرة ، إلى سريانية لا ندري كيف ضمه إليها .

والمضحك قوله :

عرف محمد السريانية بواسطة معارفه الشخصية (؟) واحتكاكه المباشر ببعض مؤلفات السريانية[1] .

---

(١) قس ونبي : ص ١٦٣ .

على سبيل التذكير نقول : أن المؤلف في ص ٨٠ من كتابه كان قد أتحفنا ونورنا بقوله :

الحقيقة تقضي بأن نقول : بأن محمداً لم يكن يعرف لغة أجنبية .

فكيف صار بين عشية وضحاها ، عارفاً بالسريانية ، ملماً بها شفاهة وكتابة ؟ .

من جنة القرآن وفردوس افرام ، من بين الحسان الملاح والعسل المصفى ، من الحديث عما يطيب للمؤمن ويرضاه .

من أنباء النخيل الباسقة والأنهار الجارية ، ينقلنا الحريري على بركة الله إلى الحديث عن :

جهنم .

جهنم التي تنتظر بنارها الموقدة الحمراء كل منافق أفاك .
فلنسمعه يتحدث عنها ، والخوف يأكل قلبه ويفري عظامه .

قال :

في القرآن كما في التوراة ، والتلمود ، والأناجيل ، أسماء عديدة ، واستعارات كثيرة ، تدل على جهنم .

وبعد أن ملأ صفحة كاملة من كتابه ترديداً وتكراراً ، ليثبت أن كلمة جهنم في القرآن تعني ناراً لا تطفأ ، تماماً كما هي في التوراة والتلمود ، وأناجيل متى ، ولوقا ، ومرقص ، وبطرس .

أضاف قائلاً :

أما وصف جهنم ، فيتفق فيه أصحاب التوراة والقرآن .

والملفت للنظر هنا دخول شلة جديدة من «القديسين» على خط «جهنم» لتدعيم موقف الأناجيل والكتب المقدسة ، في المواجهة مع القرآن ، فقال :

وفي تشبيه القرآن لجهنم بـ «دار القرار» وبـ «المستقر» و «دار الخلود» و «دار البوار» ما يجعلنا نقارن بينها وبين

«شوول» التوراة ، يعني مقاماً لا رجوع للإنسان منه .

وهو موقف آباء الكنيسة أمثال : هيبوليت الروماني ، اغناطيوس ، وكليريلس الاورشليمي[1] .

ولا نرى فائدة ترجى من سؤالنا له : ماذا تمثل أقوال هؤلاء الآباء الكنسيون في عملية مقارنة ، بين تعاليم كتب سماوية مقدسة ، حول أمور دقيقة غيبية ، كالجنة والنار وما شابههما ؟

ولم نجد فيما أفاض بشرحه حول جهنم ، والذنوب الموصلة إلى نارها ، وحال الواردين إليها وعذاباتهم فيها ، والتوافق التام بين القرآن ومصادر الإيمان اليهودي والمسيحي ، حول شؤونها وشجونها . . لم نجد في ثرثرته كلها أية فائدة للقارىء ، فآثرنا أن لا نثقل عليه بها .

نقطة واحدة نقف عندها ، قال :

يختلف الرأي في القرآن عما إذا كانت عذابات جهنم أبدية ، أم لها نهاية .

ونرى فيه رأيين متقابلين أو متناقضين :

١ ـ من جهة أنها عذابات أبدية لا تزول .

٢ ـ ومن جهة ثانية أنها منتهية ، لا بد أن تقف عند حد .

ولكي يدلنا على هذا التناقض الذي اكتشفه بثاقب بصيرته قال :

يؤيد الرأي الأول بعض النصوص ـ لسانه لا يطاوعه أن يقول الآيات ـ مثل :

﴿من يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾[2] .

---

(١) قس ونبي : ص ١٦٤ .
(٢) سورة الجن ، الآية/ ٢٣ .

﴿وأن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً﴾[1] .

﴿أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[2] .

ويكمل فيقول :

وهو رأي نراه في المسيحية بوضوح حيث جهنم «نار لا تطفأ» «ونار أبدية» «وعذاب أبدي» . ويؤيد الرأي الثاني : نصوص أخرى ـ لو لسانه طاوعه لقال آيات أخرى ـ تنيط الهلاك بمشيئة الله .

مثل :

﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد﴾[3] .

والآية : ﴿قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم﴾[4] .

ويضيف قائلاً :

كل شيء ـ إذن حتى أبدية جهنم أو نهايتها ، متعلق بحكم الله ، وإرادته الحرة ، وتصرفه المطلق[5] .

ولا ندري أين وجد الحريري المزيف التناقض في القرآن ؟ وأين هو اختلاف الرأي فيه حول جهنم ، هناك مسلمات أساسية في الإسلام ، تحت مظلتها وأحكامها تمر كل الأمور الجوهرية منها والهامشية ، وأولى تلك

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية/ ٦٤ .
(٢) سورة البقرة، الآية/ ٢٧٥ .
(٣) سورة هود، الآية/ ١٠٦ـ١٠٧ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية/ ١٢٨ .
(٥) قس ونبي : ص ١٦٨ .

المسلمات أن مشيئة الله فوق كل مشيئة ، وإرادته فوق كل إرادة .

فأين التناقض بين آية جاء بها :

﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ .

وآية تقول :

﴿النار مثواكم خالدين فيها إلاّ ما شاء الله إن ربك حكيم﴾ .

فمشيئة الله في الآيتين واحدة ، إن أراد في الأولى عفا ، وإلاّ فهم في جهنم خالدون ، وفي الثانية نفس الحكم ، ومشيئة الله في الآيتين هي القضاء ، وهي القرار ، وهي الحكم الفصل .

ويستفيض المؤلف بشكل ممل رتيب ، وعلى مدى عدة صفحات ، بسرد أمور هامشية ، تتعلق كلها بما جاء في القرآن ، وفي كتب المسيحية وقديسيها حول أصحاب النار ، وعن الميتة الواحدة ، أو الميتتين ، للهالكين في جهنم ، وعن عذاباتهم وحالاتهم النفسية فيها ، وعن وصف المنافقين ـ هذه قد تهم الحريري ، ونراه مهتماً بها لسبب ما ـ فإذا به يكشف والحمد لله ، عن وفاق تام جديد بين المسيحية والإسلام حول هذه المواضيع ، رغم أننا لم نجد فيما ذكر ما يخدم هدفه الأساسي ، الذي كدنا أن ننساه ، وهو ربط الإسلام بالنصرانية وحقوقها عليه .

ورغم أن أحداً من المسلمين أو المسيحيين كما أتصور ـ باستثناء الحريري ـ لم يشغل باله مرة بالتفكير المضني ، بما سيؤول إليه وضعه النفساني أو الجسدي بعد الموت ، سواء كان في الجنة أم في جهنم ، ورغم هامشية الموضوع .

إلا أن الأمر لطرافته جدير بأن نذكر عينة منه للقارىء .

في القرآن	في الأناجيل المسيحية
في عدد الميتات: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾[1]. ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾[2]. ﴿فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾[3]. ﴿إن هي إلا موتتنا الأولى﴾[4].	في سفر الرؤيا: من غلب فلا يضره الموت الثاني. وبحيرة النار هي الموت الثاني. أما الجعفاء والكفرة فإن نصيبهم في البحيرة المتقدة بالنار والكبريت هذا هو الموت الثاني.
في عذاب الهالكين: ﴿يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾[5] ﴿نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، إنها عليهم مؤصدة، في عمد ممددة﴾[6].	في كتاب احنوخ: الظلمة مسكنهم، الدود مهادهم، ليس لهم أمل بالنهوض من مرقدهم.
في وصف المنافقين: ﴿النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾[7] ﴿أما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾[8]. ﴿ترى الذين	عند مار افرام السرياني: الهالكون يقعدون في بحيرة من نار، يتألمون بدون أمل في الرجوع عن الألم.

(1) سورة غافر، الآية/ ١١.
(2) سورة الدخان، الآية/ ٥٦.
(3) سورة غافر، الآية/ ١١.
(4) سورة الدخان الآية/ ٣٥.
(5) سورة العنكبوت، الآية/ ٥٥.
(6) سورة الهمزة، الآية/ ٦ ـ ٩.
(7) سورة البقرة، الآية/ ٢٤.
(8) سورة السجدة، الآية/ ٢٠.

﴿كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾[1] .

في حالة الهالكين نفسياً :﴿نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم﴾[2] .

﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾[3] ﴿تراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل﴾[4]

﴿خذوه فغلّوه ثم الجحيم صلوه﴾[5] .

افرام السرياني :إن المنافقين في جهنم مأكل للنار .

عند متى :المنافقين قابعين في ظلمة قاتمة .

عند أيوب :أرض حالكة كالديجور ، وظلال الموت لا نظام فيها .

في متى :لهم في جهنم بكاء ، وصراخ ، وعويل ، وحريق أسنان .

في لوقا :لا يسمع منهم أسفهم وتوبتهم .

في احنوخ :سلسلة من حديد ومقارع يحملها ملائكته التعذيب .

في متى :أمسكوه وغلوه في يديه ورجليه ، واطرحوه في الظلمة البرانية .

وعلى هذا النمط المتعثر اللامنسجم سار الحريري في عدة صفحات من لقيطه يتلقط من كتبه المقدسة وغير المقدسة ، كلمة من هنا ، وجملة من هناك ، ليقابلها بآية من القرآن يأتي بها بشكل كيفي من سور مختلفة ، دونما اعتبار لظروف نزولها ومقاصدها ، ومعانيها . . إذ يكفي أن يجد فيها كلمة متطابقة مبنى «لتصبح صالحة للمقارنة والقياس . .» .

---

(١) سورة الزمر، الآية/ ٦٠.
(٢) سورة التوبة، الآية/ ٦٣.
(٣) سورة القلم، الآية/ ٤٣.
(٤) سورة الشورى، الآية/ ٤٥.
(٥) سورة الحاقة، الآية/ ٣٠- ٣١.

ورغم تحفظنا على مثل هذا الأسلوب الصبياني ، في بحث ومعالجة قضايا دقيقة حساسة ، تتعلق بالغيبيات من الأمور ، وبالماورائيات من حياة الإنسان .

إلا أننا لا نعترض على نتيجة المقارنة ، طالما أنها أدت بالنتيجة إلى القول بوفاق تام بين المسيحية والإسلام ، ولو كان وفاقاً حول موضوع جهنم .

ثم قال :

> إن كلام القرآن على اليوم الأخير ، والقيامة العامة ، والجنة والنار ، كان أول ما بشر به محمد ، وأنذر في دعوته .
>
> وهذا الكلام في أحوال المعاد قريب جداً من الأفكار النصرانية ، ومن يتعمق بالبحث أكثر يتثبت أكثر[1] .

ويبدو أن الحريري رغم أنه غارق إلى أعمق أعماق ضلاله وبهتانه ، إلا أنه يعتبر نفسه بحاجة إلى انحدار أشد ، وإلى تعمق بالدس والتضليل أعمق فأعمق ، ليصل إلى أسفل السافلين .

---

(١) قس ونبي : ص ١٧٦ .

إنجيل لا أثر له .. ويقرأ من نصوصه ؟؟

كما يبدو ، فالمؤلف مصر أن يتعمق أكثر ليتثبت أكثر ، وعليه فهو ينقلنا إلى ص ١٧٧ من كتابه ، ليثبت لنا حق النصرانية على الإسلام في :

أمثال الإنجيل القرآنية .

قال :

بين القرآن العربي والإنجيل العبراني ، صور وتعابير ، وتشابيه وأمثال ، وألفاظ مشتركة - إن وضعنا بعضها إزاء بعض ، نتأكد بدون شك ، لا من معرفة محمد بالأجواء النصرانية وحسب ، بل من اعتماده إنجيلاً مكتوباً كان موجوداً بين يديه .

وطريقة الاعتماد هذه تقوم ، لا على النقل الحرفي كما هو معروف اليوم ، بل على حرية التصرف ، والتصريف ، والشرح ، والتفسير ، والتفصيل ، لكأن القرآن في نقله يعلق على الإنجيل ، ويفسر لسامعيه بحسب مقدورهم ، وقد يخلط أمثال الإنجيل في مثل قرآني واحد ، أو ينشر تعاليم الإنجيل الواحد في مواضع متعددة من القرآن .

وقد يستلهم في شرحه وتفسيره ، أخباراً ، وأمثلة ، وقصصاً ، من بيئته العربية ، ومن تاريخ قبائل مكة ، ومن

قصص وروايات نصرانية متداولة .

ويضيف إلى بلاغته هذه قوله :

أما المقارنة بين تعاليم القرآن العربي والإنجيل العبراني (؟) تبقى أساس بحثنا ، لأن ما فيها من طرافة النقل وطريقته ، يجعلنا نأمل بحقيقة الدعوة المحمدية ، وبهوية الإسلام نفسه ، ولا يغيب عن بالنا بأن الإنجيل العبراني الذي إليه نعود ، لا نملك بين أيدينا نصوصه ، بينما نحن على علم به أكيد (؟؟) من خلال الأناجيل الإزائية الثلاث : متى ، ولوقا ، ومرقص ، الذين اعتمدوا على إنجيل متى الآرامي ، أصل كل الأناجيل بعده ، الرسمية منها والمنحولة .

إذاً المعزوفة ذاتها ، واللازمة عينها ، يرددهما هنا كما رددهما في كل صفحات كتابه ، مختصرها بكلمات قليلة : الإنجيل العبراني الضائع ، وجده مخبأ في زوايا القرآن .

بعدما قام النبي بعملية تمويه حاذقة ، إن انطلت على الآخرين ، فلم تنطل على الحريري المقنع الذي سرعان ما اكتشفها ، فكشفها ، مبيناً أن النبي لجأ في عملية التمويه تلك ، إلى أساليب مختلفة ، منها :

١ ـ أن ينثر تعاليم الإنجيل المغيب الواحدة ، في مواقع متعددة من القرآن .
٢ ـ أو أن يستلهم في شرح الإنجيل وتفسيره ، أخباراً ، وأمثلة ، وقصصاً من بيئته العربية ، ومن تاريخ قبائل مكة .

هل رأى القارىء ، أساليب التمويه التي استعملها النبي ، في عملية إخفاء تعاليم الإنجيل العبراني في القرآن ؟

ثم هل رأى مهارات شارلوك هولمز العصر ، الذي أزاح الستار عنها وكشفها ؟؟

وبعد صحوتنا من الذهول نسأل :

كيف استطاع بهذه الدقة ، أن يتبين طريقة النقل وطرافته ، والإنجيل العبراني الذي إليه يعود ، لا يملك بين أيديه نصاً واحداً من نصوصه كما قال ؟

وإذا كان بواسطة الأناجيل الإزائية كما أخبرنا ، فكيف وبأية طريقة استطاع أن يميز ، بين آيات الإنجيل العبراني المفقود ، وآيات الأناجيل الإزائية الثلاثة ؟ . . ليكون له الحق ، بأن يقوم بمقارنة معقولة بين القرآن والإنجيل الضائع . . .

ننتظر من يبرز من الظلمة ليجيب .

من بين الأمثال التي عرضها المقنع في جدوله الذي وضعه أمام القارىء ، ليثبت به «سرقة» النبي لأمثال الأناجيل على اختلافها ودسها في القرآن ، استوقفنا المثل التالي :

في القرآن	في الإنجيل
﴿اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم﴾ .	متى ، مرقص ، لوقا :من أراد أن يخلص نفسه يقتلها .

لنا وقفة هنا لنوضح ، أن من يقرأ الآية «اقتلوا أنفسكم . .» بالشكل الذي أورده المقنع ، يفهم منها أنها أمر من الله للإنسان بقتل نفسه ، أو دعوة منه إلى هذا الإنسان للانتحار تكفيراً عن خطيئة مجهولة ، وهذا مناف للحقيقة ، وبعيداً عما قصدته الآية .

ثم أن الآية ليست من الأمثال ، وإنما آية نقلت حديث موسى لقومه عندما عاد إليهم فوجدهم يعبدون العجل .

والآية كاملة هي :
﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى

بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم أنه هو التواب الرحيم﴾[1] .

والأمر بقتل النفس هنا مجازي ، بدليل أنه مسبوق بالنصيحة ، أو الأمر بالتوبة إلى البارىء التواب . . فجاء بمعنى أنه لخير لكم أن تقتلوا أنفسكم ، من أن تستمروا في عبادة العجل .

وإساءة التفسير لم تقتصر على الآية فحسب ، وإنما شملت النص الإنجيلي الذي أورده أيضاً . فبقصد إيجاد نص إنجيلي ، يتطابق والآية القرآنية ، سمح لنفسه أن يمسخ النص ويشوه تفسيره ، كما فعل بالآية .

فالمراد بقتل النفس الذي أورده من الإنجيل ، هو قتل الشر في النفس ، قتل الأنانية والأطماع الذاتية فيها ، بمعنى إفناء الحافز المادي في النفس البشرية ، ليعمها الصفاء الروحي ، وليس بمعنى دعوة إلى الانتحار . .

في القرآن

﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ [2]

في الآية فكر اشتراكي ، إنساني ، واقعي ، واضح ، وفيها محاكاة وتوجه للحوافز الروحية والمادية في حياة الإنسان على السواء ، فطلب الإنفاق في الآية ، جاء بمعنى وجوب التبرع والعطاء ، ببعض من الغالي الذي يملكه الإنسان ، ينفقه ابتغاء مرضاة الله ، ومساهمة منه في بناء العدالة الاجتماعية في مجتمعه ، ينفق بعض ما عنده في سبيل الله ، ثم يحتفظ لنفسه بالبعض الآخر .

---

(١) سورة البقرة، الآية/ ٥٤ .

(٢) سورة آل عمران، الآية/ ٩٢.

إنها الواقعية التي ميزت الدين الإسلامي عن سواه ، الواقعية التي حاكت إنساناً له مشاكله المعقدة ، وظروفه الجسدية والروحية المتشابكة ، المتأتية من كينونته مادة وروح ، فقبلته بجسده وروحه ومشاكلهما ، وأتت لتساعده في حلها على السواء ، فلا أنكرت فيه روحاً لحساب جسد ، ولا جسداً لحساب روح . . فتوجهت إليه بهما سوياً ، معتبرة أنه بهما يعيش ، وإليهما ولأجلهما يجب أن تنصب الجهود ، وتتوجه كل النظريات .

في الإنجيل
إذا أردت أن تكون كاملاً ، فاذهب وبع كل شيء

أما ما جاء في النص الإنجيلي ، فهو طلب للإنسان إذا أراد الكمال ، أن يتخلى كلية عن دنياه ، عن الجانب المادي من حياته ، ليعيش في روحانية مطلقة ، هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع . وهي نظرية تكاد تكون مستحيلة على النفس البشرية لدى تطبيقها ، لنزوعها إلى محاكاة مجتمع لا وجود له على الأرض .

والإنسان بموجبها أمام خيارين ومصيرين ، وكلاهما مر وأمرّ .

الأول : أن يأخذ بها دستوراً نافذاً لحياته ، نشداناً للكمال الموهوم ، وذلك سيؤدي حتماً إلى خلل رهيب في نظام الحياة برمته ، نتيجة تجاهل النصف المادي المكمل والمهم من حياة الإنسان .

والثاني : أن يسقطها كلية من حياته ، كنظرية خيالية فاشلة ، ليخسر الكمال المنشود ، ولتسود حياته مادية جافة خشنة ، تستشرى بها ومعها فوضى الأطماع والأنانية .

والخلل في نظم الحياة الإنسانية في الحالين حتمي ومدمر .

فأين هو التطابق المزعوم ، بين آية تطلب من المسلم إنفاق بعض ما

عنده ، لينال بركة الله ورضاه ، ونص من الإنجيل يشترط على المسيحي أن يتخلى عن كل شيء ، ليحظى برضى الله ؟ فارق كبير بين الحالين ، هو نفس الفارق بين الواقعية والخيال .

ونلاحظ أن الحذاقة والفطنة ودقة الملاحظة ، بلغت عند الحريري حداً مكنته من اكتشاف التطابق «الفاضح» بين الإسلام والنصرانية ، حتى في طريقة مناجاة المسلم والمسيحي لربهما وصلاتهما إليه .

نرى أن نورد بعضها :

في القرآن	في الإنجيل
﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾[1] .	متى : أبانا لا تعرضنا للتجربة ، اعف مما علينا ، فقد أعفينا نحن أيضاً من لنا عليه . لوقا : اغفر لنا خطايانا ، لأننا نغفر لمن أساء إلينا ولا تعرضنا للتجربة .

بديهي القول أن هذه أدعية ومناجاة وجدانية ، وليست أحكاماً ولا تشريعات ، يستطيع المسلم وربما المسيحي ـ أيضاً ـ أن يبتهل إلى ربه بها أو بسواها ، وأن يضيف إليها أو يختصر منها كلمات وأدعية ، وتظل صالحة مقبولة عند الله ، كتعبير عن خشوع المؤمن أمام ربه ، وطلب رحمته وغفرانه ، ولذلك فهي غير صالحة لتكون أساساً لمقارنة معقولة بين ديانة وأخرى .

على هذا النمط الفارغ الممل ملأ من كتابه صفحات وصفحات ، وهو

---

(١) سورة البقرة، الآية/ ٢٨٦ .

يجترّ نفسه ، ويلوك طروحاته ، ليثبت بطريقة مثيرة للسخرية والضحك ، التطابق الوهمي بين الإسلام والنصرانية ، حتى ضاع بالنتيجة عن هدفه ، و تاه عن مراميه ، فصارت المقارنة بين الإسلام وكل الديانات ، اليهودية ، والمسيحية ، والنصرانية لو سلمنا جدلاً بوجودها .

وما كان في الحقيقة في مسعاه ، إلا فاشلاً ، وفي خطاه إلا متعثراً . .

على هذا المنوال ، تابع الحريري دبيبه على أرض الدس والضلال ، حتى وصل أخيراً إلى نهاية الفصل الخامس من كتابه بخاتمة نورد للقارىء الكريم بعضها :

قال :

إن المسلمين لا يقبلون أن يكون القرآن خاضعاً للبحث التاريخي ، أو أن يدخل القرآن في التاريخ ، أو أن يكون له مصدراً غير الله مباشرة .
محمد نفسه برأيهم ليس له فيه يد ، القرآن عندهم يتعلق دائماً بالافق الأعلى ، ويعتمد كلياً على اللوح المحفوظ في سدرة المنتهى ، بيد أن حقيقة الوحي كما أدركها الأنبياء الأقدمين ، ومحمد يفتخر بالانتماء إليهم ، تعتمد على وهن الطبيعة البشرية وتحولات التاريخ . وحظ الانسان مع الله ألا يبقى الله متعالياً وصمداً إلى الأبد ، لأن الخلاص يحتم على محبة الله أن يتدخل نفسه في تاريخ الإنسان ، ويشرك الانسان في تدابيره الخلاصية . وشأن كلمة الله ، لكي تكون خلاصية أن تكون مدركة . ويوم ينزلها جبريل أزلية أبدية ، دون اعتبار أحوال الزمان ، وتغيرات الانسان ،

> يكـون قد قضى على الله والإنسـان معـاً ، لأن كـرامـة الله تقضي ألا تكون على حساب كرامة الإنسان وحريتـه. والله حفظا لكرامته ، لا يسلب الإنسان كرامته .

وينهي خاتمة الفصل الخامس بالقول :

> بقي أن نعترف بحق الانجيل على القرآن ، وبحق من كان ينقل الإنجيل ، ويفصله على من كان يحضر هـذا النقل ، وهذا التفصيل طيلة ٤٤ سنة من عمره[١].

وكما نرى فالختام كان بالمسك المعهود . .

في هذه الخاتمة نقاط ، لابد من التوقف عندها ومناقشتها :

١ ـ قوله :

> إن حقيقـة الـوحي تعتمـد على وهن الـطبيعـة البشـريـة وتحولات التاريخ .

قصد بذلـك ربط موضـوع الوحي بـالخلفية الـذهنية ، والمستـوى الفكري للإنسان ، معتبراً أن تمرير نظرية الوحي في مجتمـع ما ، يعتمـد بالـدرجة الأولى على غبـاء الإنسان فيـه ، وضعف مستـواه الثقـافي والحضـاري ، وعلى الحقبـة التاريخية التي أثير موضوع الوحي أثناءها .

والوحي ـ بنظره ـ وجد في المجتمع العربي ، طريقاً ممهدة ، ولاقى قبـولاً ونجـاحاً ، لا لكـونه حقيقـة إلّهية ، وإنمـا لكون الإنسـان العربي بجهله وتـأخره وبدائيته ، مهيأ لقبول هذه النظريات ، فقبلها وتعاطف معها . .

٢ ـ والنقطة الثانية : قوله ـ

> وحظ الإنسان مع الله إلاّ يبقى الله متعـالياً « وصمـدا » إلى

---

(١) قس ونبي : ص ١٨٦ـ ١٨٧ .

الأبـد. لأن الخلاص يحتم على محبـة الله أن يتدخـل الله
نفسـه في تاريـخ الإنسان ، ويشـرك الإنسـان في تـدابيـره
الخلاصية ، وشأن كلمة الله لكي تكون خلاصيـة أن تكون
مدركة ، ولكي تكون كذلـك عليها أن تعتمـد على أحداث
التاريخ وتحولاته .

هذه المقولـة في الواقـع ، هي من صلب نظريـة التجسد في المسيحيـة ، ووجـه من تفكير المسيحيـة في الله ، ثم في إعـلان ذاتـه ، وتجسـد الكلمـة في المسيح .

حظ الإنســان مـع الله ألا يبقى الله متعــاليـاً وصمــدا إلى
الأبد .

إنهـا من تأويـلات المسيحية للتجسيـد ، من أجل غفـران خطايـا البشريـة وخلاصها .

هـذا التجسيد لم يكن كمـا يبدو ، لـلفـداء وخلاص الإنسـانيـة فحسب ، وإنمـا كان أيضـاً وسيلة ليـرى النـاس الله رأي العين ، ولتـردم الهـوّة التي كـانت تفصلهم عن الله طـوال العصور التي مـروا بها ، وأطـالوا النـظر والتـطلع إلى الله دون أن يروه .

وهو ما قصده الحريري ، برفضـه أن يبقى الله متعاليـا وصمداً ، غـامزاً من قناة التصور الإسلامي لموضوع الله .

إذ أن تصور المسلمين لله بنظر المسيحيين ، أن الإلٓه يبدو منعزلاً بعيداً عن الناس ، تقوم بينهم وبينه هوة سحيقة لا يملؤها فكر ولا خيال .

فيما لا توجد بين الله والناس قيد شعرة في التصور المسيحي له .
فهو إلٓه متواضع ، يلبس جسد إنسان ، ويعيش في طبيعـة إنسان . وحـول

ذلك قال الدكتور ميشال الحائك في كتابه : « المسيح أمام المسلمين »[1].

فالإسلام يقوم على إله لم يعلن سر ذاته .
فبين العبد والمعبود هوّة عميقة لا يقطعها إنسان ، فليس اذن على العبد إلا التسليم أو الإسلام للإرادة التي لا تحتكم إلا إلى ذاتها ، فتهدي من تشاء وتضل من تشاء .

والسؤال مفروض هنا : ماذا يمكن أن يكون للعبد من إرادة مع الله ؟ هل يملك أحد من أمر الله ومشيئته ؟

وهل يجوز في حق الله ، وفي جلاله وعظمته ، أن يحتكم في إرادته إلى غير ذاته ، ليهدي من يشاء ويضل من يشاء؟

ويبدو التناقض على أشده ، والتجديف على العقل فاضحاً ، عندما يقول الدكتور الحائك :

ولا تقل المسيحية تنزيهاً لله، حين تعلن أن الله لا يدركه المحدود البشري ، ولكنها توقن أن الله أوحى هو ذاته ذاته وسر وجوده ، فذاته محبة ، وهذه المحبة لا تدرك إذ أن بها ـ أي بالمحبة ـ تجسدت كلمة الله في ناسوت المسيح ، فأصبح الله قريباً للإنسان في المسيح[2] .

يعلق الاستاذ الخطيب على مقولة الحائك ، فيقول :

من قال أن كنه ذات الله هو المحبة ؟ إن ذلك تحكم في ذات الله ، وتسلط قاهر من العقل عليها . . وإذا قيل في الكتب ، إن الله محبة، فليس معنى ذلك إن ذات الله هي

---

(١) المسيح أمام المسلمين : ص ١٥ للدكتور ميشيل حائك « عن المسيح في القرآن ».
(٢) المصدر نفسه : ص ١٥.

المحبـة ، بـل بـالاقتـراب من رضى الله ، والتعـرض لرحمته ، هو في المحبة التي تقوم بين الناس والناس [1].

ويـدلي صاحب كتـاب « المسيحية الأصليـة » بـدلـوه مـدافعـاً عن نـظريـة التجسيد ، ونزول الله بشخص المسيح إلى ساحة الإنسان ، فيقول :

> ولكن إذا أراد الإنسـان أن يعـرف الله شخصيـاً ، وان ينـال غفـران خطايـاه ، وأن يدخـل في شركـة وعلاقـة مع الله ، ظهـرت حـاجتـه أكثـر إلى إعـلان عملي حسي ، وأن مـا يحتاج إليه الإنسان هو أن يكشف لـه الله نفسه ، ولا سيمـا في قـداستـه ، ومحبتـه ، وقـدرتـه على الخـلاص من الخـطيئة ، وقـد سر الله أن يفعـل ذلـك . وبهـذه الـوسيلة وصلتْ كلمة « الله » إلى أنبياء كثيرين ، إلى أن جاء يسوع المسيح أخيراً : والكلمة صار جسداً وحل بيننا[2].

وهكذا ظل الله عند الإسلام معتصمـاً في عليائـه على الجميع ، صمـدا ، أبدياً ، منعزلاً عن خلقه وعبـاده ، لم يقبل أن يكـون له شـريك في الملك ، ولا نزل على الأرض وتجسد ، ولا أرسل ابنه الـوحيد ليصلب ويتعـذب ، تكفيراً عن خـطيئة البشـرية ، وانقـاذاً لها من العـذاب الأبـدي ، ليعـود بعـدهـا إلى أبـاه ، وسكـاكين اليهود أثـارها تغـطي جسده الشـريف ، فلا المؤمنـون بـإلـه المسلمين رأوه ، ولا عباده نظروا وجهه ، فظلت الهوّة بينه وبينهم ، عميقة، قائمة، قاتمة .

فيمـا كـان تصـرف «الله المسيحي» على العكس . . إذ نـزل إلى سـاحـة عباده ، تواضعاً منه ، وإثبـاتاً مبـاشراً لهم عن وجـوده على الطبيعـة ، وكشفاً عن حقيقته وذاته لهم .

---

(١) المسيح في القرآن : ص ١٤٢ .

(٢) المسيحية الأصلية : ص ١٠ عن « المسيح في القرآن » .

فلبس جسد إنسان ، وتقدم بخياره وعن سابق تصور وتصميم وخطة ، ليجعل اليهود يصلبوه ، فمات ودفن بعدما تعذب وتأوه ، وأنّ وتألّم ، تكفيراً عن خطايا البشرية ، ولكنه بعدما حقق إرادة والده الأب ، ونفذ الخطة المرسومة بدقة متناهية ، قام من القبر ليعود أدراجه ، إلى حيث أباه المشتاق ينتظره بلهفة وقلق . .

وهذا الموقف نجده في رسالة القديس يوحنا الأولى ، إذ يقول :

الكلمة الذي صار جسداً ، طريق مشاركتنا الأب والابن ، ذاك الذي كان منذ البدء ، ذاك الذي سمعناه ، ذاك الذي رأيناه بعينينا ، ذاك الذي تأملناه ، ذاك الذي لمسته يدانا ، من كلمة الحياة ، لأن الحياة - يقصد المسيح - تجلّت فرأيناها ، ونشهد لها ، ونبشركم بتلك الحياة الأبدية التي كانت عند الأب ، فتراءت لنا .

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو :

إذا كان من مخطط الأب - الله - الذي وضعه لانقاذ البشرية ، وخلاصها من الخطيئة ، أن أرسل ابنه الوحيد ثاني الآلهة إلى الأرض ، ليصلب على يد اليهود ، تكفيراً عن خطيئة البشرية ، فبهذه الحالة ما ذنب اليهود الذين صلبوه ، طالما أن صلبه إرادة الأب والده ، باعتباره الطريقة الوحيدة ، والوسيلة الممكنة ، والخيار الأوحد المتوفر أمام الله ، لانقاذ خلقه من خطاياهم ؟

أما إلى ذلك قصد يوحنا في إنجيله ، عندما قال ؟

أحب الله العالم ، حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به ، حتى تكون له الحياة الأبدية[1].

---

(١) الإنجيل المقدس : رسالة يوحنا الأولى ف ١-١ .

إذن الله في الإسلام بدأ فردا ، صمداً ، أبدياً ، واستمر صمداً أبدياً .

أما الله في المسيحية، فهو إلّه مرن ، متجدد، متطور، يأخذ في كل مرة يريد أنماطاً آلهية متغيرة، بدأ الكلمة الله ، ثم الله المتجسد، ثم الله العائد من قبره إلى أحضان أباه ، ثم أخذ مكانه وشغل مكتبه في السماء اقنوماً في شركة الأقانيم الثلاثية الإلّهية ، واستقر حتى الآن كذلك ، ولا ندري ماذا قد يكونُ غداً .

الفارق بين التصورين الإسلامي والمسيحي لله كبير وكبير جداً ، فالله في الإسلام واحد أحد، فرد صمد، فيما هو في المسيحية قد مدد ذاته ، حتى صار إلّهاً بثلاثة ، أو ثلاثة آلهة بإلّه واحد ، وهنا المعضلة .

وأخيراً نسأل ما هذه الهوة التي بين الله والناس ؟ أو بين الله والوجود كله ؟ ألأن الله في علوه وسموه ، يكون بعيداً عن العالم ، منعزلاً عنه ؟ أهو كائن مادي إذن ؟ لا سلطان له ينفذ به إلى كل موجود أوجده .

إن الشمس على بعدها البعيد ، تغمر هذا الوجود الأرضي بنورها ، وتبسطه على كل جانب منه، فكيف بالله وقدرته التي لا حدود لها ، وبسلطانه الذي يعلو كل سلطان .

ألا تستطيع قدرة الله ، أن تملأ هذا الفراغ ، أو تلك الهوة السحيقة التي بين الله في علوه، وبين المخلوقات في انخفاضها ؟

وإذا كان الهدف من كل هذه العملية المعقدة الشائكة ، هو رغبة الله بإنقاذ البشرية كما تقول المسيحية، فهل ضاقت بالله السبل ، وسدت بوجهه الآفاق ، فلم يجد من طريقة لإنقاذ البشرية من خطاياها ، ومديد الخلاص لها، إلا بهذه الطريقة الطريفة الشاذة التي اعتمدها؟

فأخفى حقيقته بجسد إنسان ، ثم عاش بين الناس مدة ، يأكل ، ويشرب ، ويبول ، ويغيط ، ويمرض ، ويتألم ، ثم دفع باليهود ليصلبوه فيموت بعدما توجع وتألم ، وبعد ثلاثة أيام من دفنه قام من القبر ، ليقضي فترة « نقاهة » مدتها أربعون يوماً على الأرض ، ظلت إقامته أثناءها مجهولة، ولغزاً محيراً ، وسؤالاً بلا

جواب ، ثم صعد بعدها إلى حيث أبيه الله ، في السماء ، منتظراً ابنه الـوحيد ، البكر، على أحر من الجمر شوقاً ولهفة .

أما كان من سبيل آخر أمام الله ـ الوالد ـ وهو على كل شيء قدير ؛ لهداية البشرية وتصحيح مسيرتها ، إلا بهذا الأسلوب الغريب العجيب؟

أما كان بإمكانه تعالى ، أن يبعث في نفوس البشر أنوار الهداية والرشاد ، فيقـوّم فيهم الإعوجـاج وتستقيم أمور النـاس ، ويصطلح نهجهم ، بـدون اللجوء لكل هذه العملية الشائكة المعقدة ؟

مقـولته :

> وشأن كلمة الله ، لكي تكون خلاصية ، أن تكون مدركة ، ولكي تكـون مـدركـة ، عليهـا أن تعتمـد على التـاريـخ وتحولاته .

نقـول : إذا ما اعتبـرنا أن كلمـة الله هي مشيئته وإرادتـه ، وهما مـدركتـان كاملتان ذاتـاً لكمال الله ، فـإن شرط اعتمـاد كلمة الله، على أحـداث التاريـخ البشري وتحولاته ، لتكون مدركة وخـلاصية كمـا قال صاحب اللقيط ، ليس إلا تجديفاً على العقل ، وعبثاً بمنطقه ، وطعناً بكمال الله ومشيئته . إذ ما هـو الرابط الموجب ، بين كلمة الله الكـاملة المدركـة ذاتاً ، وبين أحـداث التاريـخ البشري وتحولاته ؟ ، فـالأولى كاملة بـالذات ، والثـانية نـاقصة بـالذات ، لكـونها تجـربة إنسانية ، ومزيج من الخـطأ والصواب، فهـل لا تكون كلمـة الله مدركـة ، إذا لم تعتمد على التاريخ وتحولاته ؟

ثم لا ندري كيف نناقشه قوله العجيب الغريب :

> ويوم ينزلها ـ أي كلمة الله ـ جبريل أزلية أبدية ، دون اعتبار أحوال الزمان ، وتغييرات الإنسـان ، يكون قـد قضى على الله وعلى الإنسان معاً .

وهل جبريل ينزل كلمة الله من عنده ، أم من عند الله ؟

ألا يعني هذا القول مساواة بين الله والإنسان ، طالما أن كلاهما ـ الله والإنسان ـ خاضعان لأحوال الزمان ، وتغييرات الإنسان؟

وطالما أن ما يقضي على الإنسان ، يقضي على الله أيضاً ؟ والحكم عليهما واحد ، والنتيجة واحدة ؟

ليس من تجديف على العقل أكبر من هذا التجديف ، ولا من مروق وكفر وزندقة أكبر وأفظع .

ولنا في نهاية هذا الفصل ، كلمة لابد من أن نقولها .

وهي أن التقارب الذي « فضحه » الحريري بين القرآن ، وبين السليم الباقي من تعاليم عيسى وموسى ، رغم سلبية قصده من الحديث عنه ، هذا التقارب بنظرنا ، له دلالة أخرى ، دلالة ايجابية ، إذ أنه يثبت أن القواسم المشتركة بين الأديان الثلاثة موجودة ، وأن عناصر الوحدة بينها قائمة ، وأن حتمية وحدة مصدرها ، التي نرى براهين وأدلة عليها ، تحتم الا تكون عوامل الفرقة بينها أصيلة وأساسية ، بل دخيلة ومصطنعة .

لأن ما يباعد في الحقيقة بين الأديان الثلاث، هو ما دخل على اليهودية والمسيحية من زيادة ونقصان، وما طرأ عليهما من تحريف وبدع .

إن قواعد الوحدة موجودة ، والوحدة بالتالي ممكنة ، فيما لو أعلنت المسيحية إيمانها المطلق بوحدانية الله ، وحدانية صافية نقية ، طاهرة من كل أشكال الشرك .

وإذا ما تخلت عن إيمانها المهزوز بنظريات بولس المفلسة ، وفلسفته المعقدة ، التي أدت بالمسيحية إلى متاهات الشرك الواضح .

نقول بثقة : ما عدا الخلاف حول وحدانية الله ، وهو خلاف مركزي أساسي ، فطريق الوحدة بين الديانتين مبسطة معبدة ، وسبل اللقاء سهلة ميسورة ، لأن المنطلق واحد ، والأساس واحد ، والمصدر واحد . .

الفصل التاسع

١ ـ النجاح الموهوم
٢ ـ والفشل المزعوم
٣ ـ هؤلاء مدحهم القرآن وهؤلاء ذمهم
٤ ـ دموع التماسيح
٥ ـ شبح الوحدة الإسلامية يلاحقهم حتى القبر
٦ ـ بالدس بدأه وبالدس نهاه
٧ ـ الخاتمـة

النجاح الموهوم

نحن عند آخر فصول الكتاب ، وقد خصص له صاحبه مقدمة امتازت بسفسطائية فارغة ، ليس فيها من حيث الجوهر أي جديد ، رغم أنها حوت الكثير من الكلمات الرنانة الجيدة السبك ، الحسنة الترتيب ، الفارغة من المضمون ، فلم تكن في الواقع إلا ترديداً وتكراراً لآرائه المعروفة ، ومعزوفته المعهودة ، ولازمته القديمة .

قال :

«لقد أدى بي البحث إلى الكلام على مقاصد القس ورقة بن نوفل ، وعلى مهمته الصعبة التي قام بها ، وعلى إختياره محمد خليفة له على كنيسة مكة .
لقد نجح القس في ذلك ، وتوقف نجاحه على نجاح تلميذه . . ونجح التلميذ» .

الحمد لله . . كانت أيدينا على قلوبنا قلقاً ، حتى طمأننا الحريري طمأنه الله ، على مصيره المعروف في آخرته .

أكمل قائلاً :

«ركائز نجاحه ـ يقصد التلميذ محمد ـ يدل عليها أثره الكبير في تاريخ العالم ، بيد ان الأثر الكبير لازمه فشل ذريع حدث له بالعرض ، بسبب العصبية القبلية المتمكنة في

نفوس المستجيبين ، وجهل المتدينين ، حقيقة رسالة القس ، فبدلوا بالدعوة ، وبدلوا بالكتاب»[1] .

ولكي يدلنا الرجل على الأمر الجلل ، والواقع الخطير ، أعادنا إلى الصفحة ١٩٣ من كتابه، ممهداً للحديث عن « الفشل الذريع » بالحديث عن : «نجاح القس والنبي » .

فإذا نجاحهما محصور بثلاثة أمور :

الأول :

«كان نجاح القس في تعليمه لمحمد الشرائع والتوراة ، وتدريبه له على مسؤولياته كقس على كنيسة مكة ، خليفة للقس ورقة بن نوفل» .

والثاني كان :

«في نقل الإنجيل العبراني الذي سماه قرآناً»[2] .

ورغم النجاح الثاني الذي أعلنه سعيدا ، نراه يندب حظه قائلاً :

«لا الكتاب العبراني يتضمن كل ما في القرآن العربي ، ولا القرآن العربي يحتوي كل ما في الكتاب العبراني ، حيث أضيف للقرآن العربي عملية « جمع » الكتب المتداولة في أيدي الشيع والأحزاب النصرانية ، وفي جعلها كتاباً واحداً .

فالقرآن العربي هو أولاً الترجمة المفصلة للكتاب العبراني ، يسرها القس للنبي بلسان عربي .

وثانياً هو الكتاب الذي نسخ « الكتب السابقة » وأخذ من

---

(١) قس ونبي : ص ١٩٢ .

(٢) قس ونبي : ص ١٩٣ .

الصحف الأولى ، وجمع بينها ، ووحد تعاليمها ، بعدما كانت متفرقة بين أحزاب بني إسرائيل»[1] .

وهذا يعني عملياً نسفاً لكل تهريجه السابق ، الذي ظل يجتره ويلوكه ، ويكابر ويعاند ، ويشرح ويتفلسف ، في تهويش مضحك ، ليثبت أن القرآن هو الكتاب العبراني وحده قلباً وقالباً ، وأن الإسلام هو الأبيونية بعينها ، وأن محمد أبيونياً ، وأن القس ورقة استاذه رئيس الكنيسة الأبيونية . . . أليس هذا ما حواه كتابه ؟ وهو زبدة كتابه ، ولب طروحاته ؟ فما الخطب، حتى يلحس أقواله ؟

فتصبح الأبيونية في القرآن « الأبيوني » ظلالاً باهتة ، بعدما طمستها معالم وتعاليم « الكتب الأخرى » .

والإسلام لم يعد الأبيونية الصافية ، وإنما نتيجة مبهمة مائعة ، لمشاركة كل الكتب السابقة والصحف الأولى فيه . أما النجاح الثالث : فما هو في الواقع سوى ترديد مستهلك ، وقولبة كلامية ، لنفس النجاحات المزعومة الأولى .

قال :

النجاح الثالث الذي تحقق على يد القس والنبي ، يقوم على « جمع الفرق والشيع والأحزاب النصرانية ، وجعلها ديناً واحداً ، وما الإسلام في حقيقته وجوهره ، إلاَّ دين التوحيد في ثلاث معان :

١ ـ توحيد الكتاب في قراءة واحدة .
٢ ـ توحيد أحزاب بني إسرائيل .
٣ ـ توحيد الله ، كأساس مطلق لتوحيد الكتاب والأحزاب[2].

---

(١) قس ونبي : ص ١٩٥ .
(٢) قس ونبي : ص ١٩٧ .

وقفة لابد منها حول المعنى الثالث أي توحيد الله ، فما قاله يعني أن توحيد الله في الإسلام كان وسيلة وليس غاية ، وسيلة لغاية هي توحيد الأحزاب وكتبها ، ولولا الغاية لما كانت الوسيلة ؟

أو لولا ضرورة توحيد الأحزاب ، الذي لن يتم إلاَّ بتوحيد كتبهم وتوحيد الله ، لما كان في الإسلام توحيد لله .

فمعاذ الله أن يكون هذا يستحق نقاشاً ، وتدقيقاً ، وتمحيصاً ؟

والفشل المزعوم

من نجاحات القس والنبي المبهمة، إلى : « فشل القرآن »

قـال :

> لحق بالنجاح الكبير فشل ذريع ، وأسرع الفشل كما أسرع النجاح ، ولم يكن بالحسبان أن يكون ما كان (؟) . .

ثم يشرح هذا الذي كان ولم يكن بالحسبان ، فيقول :

> مـات النبي ورجعت العصبية تتحكم بـالأحزاب التي خشي منها في حياتـه ، ولكنها رجعت بـأشكال جـديدة ، وحـول مسائل جديدة .

و« المسائل الجديدة » بنظره هي :

> ١ ـ زعم قوم أنه لم يمت ، وإنما أراد الله رفعه إليـه ، كما رفع عيسى بن مريم .
> ٢ ـ اختلفوا في دفنه ، فأراد أهل مكة رده إلى مكة ، وأهل المـدينـة أرادوا دفنـه فيهـا ، وقـال آخـرون بنقله إلى القدس ، ودفنه ببيت المقدس .
> ٣ ـ ثم اختلفـوا فيمن يكـون الخليفــة ، بين شيعــة علي وأنصار سعد بن عباد ، ومن مال إلى أبي بكر .

ثم فجأة ، نراه يجعل تلك الخلافات تشمل كل شأن في الإسلام ، كبيراً كان أم صغيراً ، فقال :

توالت الخلافات ، واشتدت العصبية ، وتخطت إلى أمور الدين وعقائده ، وكل فرقة تسلحت بالسيف كما تسلحت بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية[1] .

فهل رأى القارىء الكريم كيف كان «فشل القرآن» ؟

وهل دقق ملياً « بالمسائل الجديدة » التي كانت « الكارثة » على الإسلام والمسلمين ؟ وهل أدل عليها وعلى فشل القرآن من :

١ ـ أن لا يصدق أحد المسلمين موت نبيه، بعدما أذهله الخبر.

٢ ـ أو أن يتمنى كل من المسلمين ، لو دفن نبيه في مدينته ليتبرك منه ، مكياً كان أم مدنياً ؟

٣ ـ أو أن يقترح أحدهم دفنه في بيت المقدس .

هل من « كوارث ألمت بديانة أكبر من هذه الكوارث » التي حلت بالإسلام؟

فرحمة بالحريري وبقلبه « الكسير » على واقع الإسلام ، واختصاراً لمعاناته ، واختزالاً لحزنه ودموعه المسفوحة على حال هذا الدين ، نذكره «لنطمئنه» :

١ ـ إن الذهول الذي ساد اذهان المسلمين بموت النبي ، قطعه الصحابي الأول أبو بكر عندما خاطب الناس قائلاً :

«من كان منكم يعبد محمداً، فمحمد قد مات ومن يعبد الله، فالله حي لا يموت»[2] .

وهكذا انتهت إلى سلام واحدة من المسائل « الجديدة » وعاد الناس عن ذهولهم . . .

---

(١) قس ونبي ص ٢٠٢.

(٢) الصواعق المخرقة : ص ١٥.

تطمين وتذكير اخران نسوقهما له فنقول: إن النبي دفن بالنتيجة في المدينة ، بتوافق كل المسلمين ، دونما سيوف جردت ، ولا دماء أهرقت ، كما كان يتمنى ، أو لنقل بحسن نية كما كان « يتخوف » أن يحدث بين المسلمين .

يبقى من آثار الفشل المزعوم ومن « المسائل الجديدة » آخرها ، وهي الخلاف بين المسلمين على شخص الخليفة .

أيضاً نذكره « لنطمئنه » إنه في اليوم ذاته الذي فقد المسلمون فيه نبيهم وقائدهم ، وقبل دفنه بالذات اختاروا خليفته الأول أبا بكر الصديق لقيادة السفينة .

فتناسوا خلافاتهم ، ودفنوا عصبياتهم ، وتغاضوا عن أنانياتهم ، وكان همهم الأول : وحدة المسلمين ، وصيانة الإسلام ، فتوحدوا به ، وصانوه منيعاً حصيناً ، عزيزاً قوياً .

ولربما هنا أيضاً ، أخابوا « ظن المقنع » بهم .

ونذكره « لنطمئنه » أكثر فأكثر إن الإمام علي بن أبي طالب بارك هذا الاختيار ، ثم بارك الاختيار الثاني بعمر بن الخطاب .

حتى أنه كان مصدر الافتاء الشرعي في العديد من المسائل في عهد عمر وزوجه ابنته أم كلثوم . .

فأين الخلاف الدامي ، وأين الفشل وأين السيوف التي جردت ؟ . .

نقول هذا ، ونحن لا ننكر ولا نخفي وجود خلافات بين المسلمين ، كانت في بعض الأحيان حادة ومتوترة ، إذ لسنا بوارد لفلفتها ولا التستر عليها ، لأنها لا تشكل في ذهن المسلم عقدة ، ولا في تاريخه وصمة وعار .

خلافات كان لها أسبابها وظروفها ، وأهم تلك الأسباب هي :

١ ـ إن الدعوة الإسلامية لم يقتصر إيصالها إلى الناس على الموعظة والإرشاد المجردين ، وإنما نزلت إلى ساحة التطبيق والعمل والتجربة ، فكان في أخطاء التطبيق ما حتم أن يفجر بعض الخلافات بين القادة، وهو ما حصل

في أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان .

٢ ـ تحول مشروع الحكم الإسلامي وطريقة إدارته ، من طريقته البسيطة النقية ، التي كانت تستحوذ في ذلك الوقت على رضى وإعجاب كل الناس ، والتي ظلت سائدة ، متبعة طيلة وجود النبي ، وحتى أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان ، وصولاً إلى الحقبة المضطربة القلقة التي تسلم فيها الخليفة الرابع الإمام علي ، مقدرات الخلافة الإسلامية ، تحول مشروع الحكم هذا إلى مشروع دولة بكل ما تعنيه الكلمة من تعقيدات ، ومتغيرات ، وتبعات ، بدأت تلقى بظلها على الحياة العامة في الامبراطورية الإسلامية ، مع بداية العهد الأموي .

الأمر الذي أحدث صدمة في نفوس المسلمين ، الذين لم يكن من السهل عليهم تقبلها ، والتأقلم معها ، والاقتناع بها .

٣ ـ امتداد رقعة الامبراطورية الإسلامية ، ودخول شعوب وقوميات متعددة تحت مظلتها ، مما شكل مناخاً مناسباً لبروز تيارات قومية ، وفكرية ، وسياسية واجتماعية مختلفة ، برزت معها انماط مختلفة من المبادىء السياسية الفكرية والاجتماعية .

٤ ـ دخول الفكر الإسلامي دائرة الصراع الفكري الخلاق ، الذي كان على حلبته الفلسفات اليونانية، والفارسية ، والبيزنطية ، ولحد ما الهندية والمصرية ، هذا الصراع الرائع ، الذي كان بنتيجته بروز مدارس فكرية فلسفية في الإسلام ، أهمها برز في العهد العباسي .

ولكن ما يجب أن نركز عليه ونلتفت إليه ، هو أن هذه الخلافات على أهميتها في المجتمع الإسلامي ، ظلت في إطار محدود ، هو الشأن السياسي ، والاجتماعي ، والفكري ، ولم تتعداه مرة لتمس جوهر العقيدة الإسلامية . بمعنى أن خلاف المسلمين لم يكن حول قرآنهم ، ولا حول نبوة نبيهم ، ولا سماوية رسالتهم ، وإنما كان حول السياسة ، والقيادة في الدولة الإسلامية .

أما السيف الذي تحدث عنه المقنع ، والبسمة الصفراء تملأ شدقيه ، وإن

كانت في الحقيقة يجب أن تكون بسمة خيبة واحباط ، هذا السيف لم يسحبه مسلم بوجه أخيه المسلم ، إلاَّ في حقبة متأخرة من تاريخ الإسلام ، وبسبب الخلاف السياسي ليس إلاَّ ، تحدثنا عنه في فصل سابق من هذا الكتاب ، بكل موضوعية ، وتجرد ، ووضوح ، وصراحة .

وننصحه ألا يفتح باب السيف عليه لأننا ـ إن دخلنا منه ـ إلى تاريخ مسيحيته ، فلن نجد فيه إلاَّ الدماء المسفوحة ، والقبور المفتوحة ، والجثث والضحايا ، والصليب يغطيها جميعها .

ثم قال المقنع :

امتد الخلاف وتشعب (؟) واتسعت دائرته ، حتى شمل شعوباً كثيرة ، زحف إليها أتباع النبي ، وبلداناً عظيمة اخضعوها لحكمهم ، ولم يميز الفاتحون بين نصارى ويهود، ولا بين مجوس وروم ، ولا بين مؤمن وملحد ، إنه الجهاد في سبيل مغانم كثيرة يأخذونها .
ولو كان في سبيل الله لميزوا بين يهودي ظالم ، ونصراني حنيف ، وبين مسيحي يغلو في دينه ، ونصراني على دين الحق ، وبين فتوحات لأجل نشر الإسلام ، وفتوحات في سبيل الجاه ، والمال ، والتوسع السياسي[1].

وقفة اخرى لابد منها ، بوجه هذه الموجة من الأباطيل .

لندقق بروح متجردة منصفة بهذا الهرج الدعائي الظالم ، بهذا الدس الرخيص الذي لا يغير من الحقائق شيئاً ، يقول :

« إن الإسلام لم يميز بين مؤمن وملحد ، بين نصراني ويهودي ، وبين نصراني على حق ومسيحي يغلو في دينه . . هل هذا صحيح يا ترى »؟

---

(١) قس ونبي : ص ٢٠٣ .

أقلامنا لن تصفعه ، وحججنا لن نرفعها بوجهه ، فليقلب صفحات هذا الكتاب فسيجد أقلاماً مسيحية منصفة معتدلة ، سددت له الحساب ، وكالت له الصفعة ، وآراء مسيحية حرة نزيهة ، فضحت عورته وعورة أمثاله ، وكذبت ادعاءاته وأباطيله ، وإذا كانت تلك لا تكفيه ، فإليه شهادات أخرون سواهم .

الكونت هنري دي كاسترو في كتابه « الإسلام سوانح وخواطر » قال :

إن الإسلام لم ينتشر بالعنف كما زعم المغرضون ، بل الأقرب إلى الصواب أن يقال ، أن مسالمة المسلمين ولين جانبهم ، كانا السبب في سقوط دولتهم .

وقال :

إن المسلمين فرقوا منذ اليوم الأول من قيام أمرهم ، بين عباد الأصنام ، وبين اليهود والنصارى ، ورسموا لكل منهما معاملة خاصة، والدولة الإسلامية لما استقرت في الشرق ، لم تعارض المسيحية أو تضع أمام بنيها عائقاً[1].

ثم مقارنا بين دولة الإسلام ودولة الرومان المسيحية قال :

أساءت الدولة الرومانية السيرة داخل حدودها وخارجها ، ولذلك فالمسلمون أجدر بسيادة العالم منها .

وهذا هو الأب بروغلي يعترف بعظمة محمد وفضل أصحابه ، فيقول :

إن الذين آمنوا ، بمحمد ، كانوا صادقين ، ذوي دراية وذكاء ، وإن سرعة تقدم الإسلام راجعة إلى ما استحقه المسيحيون من غضب الله ، فأراد أن يعاقبهم على زيفهم[2].

---

(١) الإسلام سوانح وخواطر. انظر التعصب والتسامح ص ٢٠٤ـ ٢٠٦ .

(٢) انظر التعصب والتسامح في الإسلام: ص ٢٠٦ .

وهذا دروزي يقول :

إن الدولة الإسلامية ابقت السكان المسيحيين على دينهم ، وشرعهم ، وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف .

وهذا هو المبشر الأميركي و. أ. شيد. في كتابه « الإسلام والكنائس الشرقية » يقول :

الاضطهاد المباشر للنصارى ، مخالف شريعة الإسلام ، ولا سوابق تذكر له في تاريخه[1].

إن في سجل التاريخ الإسلامي آيات منيرة من التسامح والعدل ، سجلها عبر مسيرته ، وعلى أساسها عامل جميع أهل الكتاب ، الذين عاشوا في كنفه بطمأنينة ، وحرية ، وسلام ، وأرسى قواعد مبادىء سامية نبيلة ؛ عامل بوحيها كل الشعوب ، ففي ظل الحكم الإسلامي :

١ ـ لم يكره مسيحي على ترك دينه .

شهد جورج قرم على هذا الأمر ، فقال :

الجهاد الإسلامي كان يترك بكل تهذيب للعدو ، أن يختار بين الإهتداء وبين دفع الجزية ، إذا كان من أهل الكتاب ، والذي يستثني من القتل النساء والولدان ، والشيوخ ، والنخل ، والماشية[2].

بالمقابل وعلى سبيل المقارنة قال :

إن موقف شارلمان ، حين اجتز رقاب جميع الساكونيين الرافضين للمعمودية[3] .

---

(١) انظر تعدد الأديان وأنظمة الحكم: ص ٢٢٣ .

(٢) نفس المصدر: ص ٢٣٣ .

(٣) نفس المصدر: ص ٣٢٢ .

وموقف يشوع بن نون ، حين أحرق أريحا ، وأمر بذبح سكانها كافة ، هما مثالان سلوكيان لنموذج واحد .

٢ ـ لم يفرض على أي من أهل الكتاب عنوة اعتناق الإسلام ، أو القتال في سبيله .

قال جورج قرم :

إن تياراً رئيسياً من تيارات الإسلام ، ينهل من معين القرآن بالذات ، انتهى إلى قبول التعددية الدينية ، كابحاً بالتالي التيار المعاكس ، المطالب بإخضاع غير المسلمين لنظام من الإضطهاد[١] .

بالمقابل وعلى سبيل المقارنة قال الدكتور قرم :

بالمقابل كانت الغلبة في أكثر من عهد وعصر في الحاضرة المسيحية للتيار الاضطهادي، المطالب باستئصال شأفة غير المسيحيين[٢].

٣ ـ لم يعامل الإسلام أهل الكتاب كأعداء مغلوبين .

فها هو المؤرخ الكبير ت . وأ. أرنولد يقول :

إن الكنيسة لم تختنق تحت وطأة الحكم الإسلامي، بل على العكس ، فتاريخ الطائفة النسطورية يتم عن ازدهار كبير في الحياة الدينية والقدرة على النشاط ، مع انتقالها إلى السيطرة الإسلامية[٣].

أما لوي غارديه في كتابه « الحاضرة الإسلامية » فقد قال :

---

(١) انظر تعدد الأديان وأنظمة الحكم ص ٢٥٠ .

(٢) نفس المصدر، : ص ٢٥٠ .

(٣) نفس المصدر: ص ٢٣٣ .

> إن معاملة الذميين التي خصهم بها الإسلام ، موسومة بطابع من التسامح ، والحقيقة التاريخية تلزمنا بإعلان ذلك على رؤوس الاشهاد[1].

بالمقابل ، وعلى سبيل المقارنة ذكر قرم في كتابه :

> الحل الذي تبنته الحاضرة المسيحية حيال اليهود والمسلمين ، لا يترك لهؤلاء من خيار ، إلا بين العماد ، أو الإبعاد ، أو الموت .

٤ ـ لم يمنع الإسلام على واحد من أهل الكتاب حقه في ممارسة شعائره الدينية بحرية كاملة

جاء في تفسير القرطبي ما يلي :

> ومع أن أهل الكتاب هؤلاء ، قريبون كل القرب في عقائدهم وسلوكهم من المشركين ، فإن الإسلام ظل يراعي أنهم أهل كتاب ، حتى بعد انحرافهم عن كتابهم ، فلم يعاملهم في الجزيرة معاملة المشركين ، الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتال ، وقرر أن يقبل منهم الجزية إذا لم يرغبوا في الإسلام ، وأن يدع لهم حرية الاعتقاد ، استناداً إلى أنهم أهل كتاب من عند الله ، وأن يحميهم من كل اعتداء ، وإلا فلا جزية عليهم حينذاك[2].

بالمقابل وعلى سبيل المقارنة ، ذكر جان دولومو في كتابه « نشأة حركة الإصلاح الديني وتوطدها » ما يلي :

---

(١) انظر تعدد الأديان وأنظمة الحكم ص ٢٣٨ .

(٢) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ الجزء الثامن .

في فرنسا جرى إعلان عن أن البروتستانتيين ، « أموات مدنيون » لا يجوز قبولهم في أية وظيفة ، وبحرمانهم على هذا النحو من الحالة المدنية ، وإسقاط حقهم في شرعية الذرية[1] .

٥ ـ لم يمنع الإسلام أياً من أهل الكتاب من شغل وظيفة في الدولة الإسلامية ، مهما علا شأنها :

الدكتور جوزج قرم قال :

إن الإسلام لا يقيم أي تمييز سياسي ـ اجتماعي بين المسلمين وغير المسلمين ، حتى في مضمار الوظيفة العامة[2] .

وقال :

يتعذر عملياً أن نجد عهداً خلت فيه إدارة الحاضرة الإسلامية من الذميين ، وجدول الوظائف التي يشغلها غير المسلمين واسع للغاية[3].

بالمقابل وعلى سبيل المقارنة ، ذكر الدكتور قرم نفسه وبذات الصفحة ما يلي :

وهذا خلافاً لما كانت عليه الحال في الحاضرة المسيحية ، بالنسبة لليهود الذين سدت بوجوههم جميع الوظائف .

ول ديورانت قال :

كانت طوائف الموظفين الرسميين في البلاد الإسلامية ، تضم مئات من المسيحيين ، وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم

---

(١) نقلاً عن تعدد الأديان وأنظمة الحكم ـ ص ١٦٥ .
(٢) نفس المصدر: ص ٢٢٣ .
(٣) نفس المصدر: ص ٢٥٤ .

إلى المناصب العليا في الدولة ، من الكثرة درجة أثارت شكوى المسلمين في بعض العهود[1].

وأضاف قائلاً :

فقد كان سرجيوس والد القديس يوحنا الدمشقي ، خازن بيت المال في عهد عبد الملك بن مروان ، وكان يوحنا نفسه وهو آخر آباء الكنيسة اليونانية ، رئيس المجلس الذي كان يتولى حكم دمشق[2].

٦ ـ لم يهدم الإسلام ولم يقفل دار عبادة ، أو كنيسة ، أو كنيس ، ولا أحرق مكتبة ، ولا صادر حرية الناس في عباداتهم .

تحدث الدكتور جورج قرم عن هذا الأمر ، فقال :

الشيء الأكيد الثابت ، أن حركة بناء الكنائس لم تتوقف مع الفتح الإسلامي ، وقد ترك لنا التاريخ امثلة كثيرة ، على مبادرة السلطات الإسلامية بنفسها إلى إعادة بناء الكنائس ، التي يصيبها تلف وخراب ، أثناء الفتن المعادية للذميين[3]

وفي مكان آخر قال :

ما كان يندر أن يبادر الخلفاء أو الولاة ، إلى المساهمة مالياً بأنفسهم في بناء الكنس أو الكنائس .

بالمقابل وعلى سبيل المقارنة قال الدكتور قرم :

من المحظورات على غير الكاثوليك بناء كنس جديدة ، وترميم وتجميل الكنس القائمة .

---

(١) قصة الحضارة: ج ١٣ ص ١٣٢ .
(٢) قصة الحضارة : ج ١٣ ص ١٣٢ .
(٣) قصة الحضارة: ج ١٣ ص ١٣٢ .

وقال :

أما الإجراءات التي تقضي بهدم المعابد وأماكن العبادة ، وتحويلها إلى كنائس ، فقد اتسمت بصفة الديمومة .

ديورانت قال :

ثيودوسيوس الأول ، هدم مسجد دمشق العظيم ، وأقام على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان سنة ٣٧٩ م .

في وقت يذكر لنا التاريخ ، أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، امتنع عن الصلاة في كنيسة القدس حين دخلها فاتحاً ، كي لا يصبح ذلك تقليداً يتخذه المسلمون بعده ، فينتهكون حرمة الكنيسة ويحولونها إلى جامع لهم . .

تحدث غوستاف لوبون عن حريق كتب المشركين في الإسكندرية، قبل الفتح العربي ، فقال :

إن النصارى ، هم الذين احرقوا كتب المشركين في الإسكندرية ، قبل الفتح العربي بعناية كالتي هدموا بها التماثيل ، فلم يبق منها ما يحرق .

ولقد وافقه ديورانت على هذا الأمر ، فقال :

إن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة ، قد احرقه المسيحيون والمتحمسون في عهد البطرق توفليس عام ٣٩٢ م .

٧ ـ حتى الجزية البسيطة كان يدفعها المكلف المسيحي ، طالما قدر واستطاع ، وإن لم يقدر ، فكان جزاؤه الإعفاء منها .

تحدث الدكتور قرم عند هذا الأمر فقال :

---

(١) حضارة العرب : ص ٢٥ .
(٢) قصة الحضارة: ج ٣ ص ٢٦٣ .

لا يـدفع الجـزية إلا من يعمـل من الرجـال ، أما النسـاء، والأولاد المجانين، والرهبان، والعبيد، فمعفون منها، وإذا رفض بعضهم دفعها فلا تترتب على رفضهم هذا مسؤوليـة جماعية ، ناهيك عن أن الجزية متناسبة بوجه عام والدخـل وتقلباته ، ففي مصـر مثلاً ربـطت الجزيـة ردحاً من الـزمن بمقدارطمي النيل .

فهـل من عدل أعـظم من هـذا العـدل ؟ وهـل من تسـامـح أكبـر من هـذا التسامح وأروع ؟ ولقد صدق الاستاذ محمد الغزالي عندما قال :

قد أثبت التاريخ حقيقة رائعة : أن المسيحية أو اليهـودية ، تستطيع أن تعيش في ظل الإسلام إذا حكم معيشة طيبة ، لكن كلتا الديانتين إذا حكمت لا تسمح لـلإسلام أن يعيش في ظلهـا ، وتلك علة بقـاء الأقليـات الـدينيـة في الشـرق الإسلامي ، وفناؤها في أوروبا المسيحية .

أما قـوله :

«إن الإسـلام لم يفـرق بين فتـوحـات لأجـل نشر الإسـلام وفتوحات في سبيل الجاه، والمال، والتوسع السياسي» .

للرد على هذا التجني نحيله إلى التاريخ ، وإلى ما سجله في صفحاته من حقائق ووقائع .

ولنستعـرض بهدوء وروية حـال « البلدان العـظيمـة » ويقصـد بهـا البـلاد المسيحية بالـطبع ، التي دخلهـا الإسلام ، وحـالها اثنـاء حكمه أو بعـد خروجـه منها .

---

(١) تعدد الأديان وأنظمة الحكم: ص ٢٥١ .

(٢) التعصب والتسامح : ص ٢٣٩ .

وبذلك نستطيع أن نتبين ، فيما إذا كان الإسلام دخل « البلاد العظيمة » لنشر الإسلام أم للنهب ، والمال ، والجاه كما زعم ؟

ولنأخذ من البلدان العظيمة :

اسبانيا : في أوربة :

والشام : من بلاد الروم المسيحية :

ومصر : من أفريقيا القبطية :

ثلاثة مواقع مهمة من البلدان المسيحية « العظيمة » دخلها الإسلام وحكمها ، فكيف كان حكمه لها ؟ وكيف كانت معاملته لأهلها ؟ وهل ابتليت هذه البلدان «العظيمة» بالإسلام أم ازدهرت به ، وانتعشت بظله ، وعمرت وتقدمت بوجوده .

وبكلمة أوضح : هل سرقها الإسلام أم أنعم عليها ؟ هل كان نقمة أم نعمة لها ؟

للإجابة على هذه الأسئلة نبدأ : بمصر :

وخير ما نبدأ به لرد التهمة عن الإسلام ، ولرفع الظلامة والتجني عنه ، أن نقرأ نصوص المعاهدة التي وقعها القائد المسلم عمرو بن العاص والمقوقس بطريرك الأقباط ، حين دخل الجيش الإسلامي مصر . جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عمرو بن العاص ، أهل مصر من الأمان على أنفسهم ، وملتهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وصلبهم ، وبحرهم ، وبرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ، ولا يساكنهم النوب ، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية ، أن اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف درهم ، وعليهم ما جني لصونهم .

فإن أبى أحد منهم أن يجيب ، رفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا ممن أبى بريئة .

وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى ، رفع عنهم بقدر ذلك .

ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب ، فله مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم .

ومن أبى واختار الذهاب ، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، أو يخرج من سلطاننا .

على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة[1].

ودراسة بنود هذه المعاهدة ، تكفي لتبين العدل العظيم ، والتسامح الرائع ، اللذين عامل بهما قائد منتصر ، شعباً كان سيغلب على أمره حتماً ، في أية مواجهة عسكرية .

فالمعاهدة بما تضمنته ، تعتبر صفحة جديدة في تاريخ العهود الوسطى .

ويجب أن نقرر هنا بعض الأسباب والدوافع ، التي جعلت المصريين يستريحون لهذا العهد المعروض عليهم ، ويوقعون عليه راضين :

١ ـ فقد استردت البلاد حريتها الدينية كاملة ، ونالت ضماناً واضحاً أن تبقى للمعابد قداستها، فلا يقتحمها أحد ، ولا تخدش شعائرها ، وكان الأقباط محرومين من هذا الأمان في عهد الرومان ، لاختلاف المذهب الديني ، وإن انتمى الفريقان للمسيحية .

٢ ـ خف حمل الضرائب التي يدفعها المصريون للحكومة الإسلامية ، قياساً على الضرائب الباهظة ، التي كان المصريون يدفعونها مكرهين للرومان المسيحيين أمثالهم .

٣ ـ يلاحظ أن الضريبة كانت تنقص تبعاً لهبوط الفيضان ، ولكنها لا تزيد عن النسبة المقررة ، كما أنها تؤدي اقساطاً ثلاثة على مدى السنة .

---

(١) تاريخ الطبري : الكامل في التاريخ : ابن خلدون .

٤ ـ هذه المعاهدة معقودة مع المصريين ، الذين هم أصحاب البلاد ، وإذا رغب روماني أو نوبي الدخول فيها ، فله حق المعاملة بالمثل ، وإلا فعلى المسلمين أن يصونوا دمه وحقوقه ، حتى يبلغ المكان الذي يأمن فيه على نفسه ، أو ينقطع عنده سلطانهم .

٥ ـ لا يجوز للمسلمين أن يمنعوا تجارة صادرة ولا واردة .

٦ ـ ويجب عليهم لقاء الضريبة التي يحصلونها ، أن يمنعوا أي غزو لمصر .

والمعروف أنه لما طارد العرب فلول الرومان ، واستولوا على ما بأيديهم من أموال ، جاء كثير من الأقباط يشكون أن هذه الأموال لهم ، أخذها منهم الرومان قهراً ، فرد العرب عليهم ما أقاموا البينة على أنه ملكهم .

كانت تلك معاملة المسلمين للمسيحيين في مصر .

وللحديث عن حال الأندلس في عهدهم، نترك الحديث للدكتور غوستاف لوبون يقول :

> لم يكد المسلمون يتمون فتح إسبانيا، حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها ، فاستطاعوا في أقل من قرن أن يحيوا ميت الأرض ، ويعمروا خرب المدن ، ويقيموا فخم المباني ، ويوطدوا وثيق الصلاة التجارية بالأمم الأخرى ، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين ، وينشئون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوربة[1].

وهذا « ستانلي لين بول » في كتابه « حكم المسلمين في اسبانيا » : يقول :

> لم تنعم الأندلس طوال تاريخها بحكم رحيم عادل ، كما

---

(١) حضارة العرب: ص ٣٣٥.

نعمت أيام الفاتحين العرب[1].

وهذا ول ديورانت صاحب قصة الحضارة يحدثنا عن بلاد الروم المسيحية ، عن الشام في العهد الإسلامي ، فيقول :

> انتشرت أديرة الرهبان وأعمالهم ، في الزراعة ، وفي إصلاح الأراضي البور ، وكانت طوائف الموظفين الرسميين في البلاد الإسلامية ، تضمّ فئات من المسيحيين ، وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى المناصب العليا في الدولة من الكثرة ، درجة أثارت شكوى المسلمين في بعض العهود .
>
> فقد كان سرجيوس والد القديس يوحنا الدمشقي ، خازن بيت المال في عهد عبد الملك بن مروان ، وكان يوحنا نفسه آخر آباء الكنيسة اليونانية ، رئيس المجلس الذي كان يتولى حكم دمشق . وكان المسيحيون في بلاد المشرق ، يرون أن حكم المسلمين أخف وطأة من حكم بيزنطية وكنيستها .

نسأل الحريري : هل سياسة النهب المزعومة ، التي ادعى أن المسلمين مارسوها ولأجلها فتحوا البلاد « العظيمة » والأمصار المسيحية ، كانت تقضي أن يعين الحاكم المسلم على باب خزانة المال المنوي سرقته ، خازن بيت مال مسيحي ؟ ليكون شاهداً على فعلته ورقيباً على حركاته؟ وإذا كان العقل يرفض هذا الأمر ، فبماذا يفسر لنا تعيين الخلفاء والمسلمين ، موظفين مسيحيين في مراكز مالية حساسة ، إذا كان همهم السرقة ، والنهب ، والمال ، والجاه؟

كتب الأسقف سيداروس ، عما آلت إليه أوضاع الطوائف المسيحية في

---

(١) حكم المسلمين في إسبانيا : انظر حضارة العرب : ص ٣٣٥ .

أواخر عهد الامبراطورية العثمانية ، فقال :

> تحول البطارقة إلى طغاة ، نيرهم لا يطاق ، وإرادتهم فوق كل إرادة ، وكانوا يستعملون سلاح الحرم ، ويسيئون استعماله .

وفي تحقيق لوزارة الخارجية البريطانية عام ١٨٦٠ عن وضع النصارى في تركيا ، تبين :

> إن السلطات المسيحية ، أي الرؤساء الروحيين وأحبار الكنيسة ، هم أكثر جشعاً ونهماً ، وأشد طغياناً واستبداداً في دائرتهم الصغيرة من الموظفين الأتراك .
>
> ويرتكب الأساقفة والمطارنة من أفعال الاضطهاد بحق أتباعهم ، ما لو ارتكبه الأتراك ، لثارت ثائرة جميع انصار المسيحيين .

---

(١) نقلاً عن تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ٢٧٤ .

هؤلاء مدحهم القرآن وهؤلاء ذمهم

تابع المقنع شروحاته حول ما أسماه «فشل القرآن» فقال :

«في غمرة الفتوحات والحروب ، تولى الخليفة عثمان بن عفان جمع القرآن من صدور الصحابة .

ولم يوفر في جمعه زيادة أشياء ، وحذف أشياء ، وتبديل أخرى .

تبعاً لعواطف الفاتحين تجاه من انهزموا أمامهم ، أو من قاوموا توسعهم ، أو من عاندوا سياستهم . فبتّ ترى في مصحف عثمان مواقف متناقضة ، لم تكن في قرآن القس والنبي .

ونكتفي بمثل واحد لاظهار هذا التناقض الفادح بين المصحف والقرآن ، أو بين عثمان والنبي ، وهو الذي يتعلق بمفهوم النصارى ، وموقف كل من المصحف والقرآن .

فالنصارى في قرآن القس والنبي ، هم المسلمون حقاً قبل مسلمي العرب .

كانوا للنبي قدوة ومثالاً ، يهتدي بهديهم ، ويتقرب منهم ، وينتسب إليهم ، ويستشهد بهم ، ويمدح مودتهم . ويحل رهبانهم ، ويؤمن بآلهتهم .

أما بالنسبة لمصحف عثمان ، فالأمر يختلف تماماً عن موقف قرآن القس والنبي ، فيه أصبح النصارى كاليهود ظالمين ، وكالوثنيين مشركين ، وكالمسيحيين يغلون في دينهم .

وأصبحوا بالتالي أعداء الفاتحين ، فخلطوا بين النصارى والمسيحيين سواء بسواء ، فاتّهم الجميع بالغلو في الدين ، وباعتبار الله هو المسيح عيسى .

ولا نجد مبرراً لهذا الخلط بين النصارى والمسيحيين في مصحف عثمان ، سوى الانتصار السياسي الذي حققه الفاتحون .

هؤلاء وجدوا سكان الأمصار التي افتتحوها وذللوها أعداء لهم ، ومن الطبيعي أن يكونوا كذلك ، شأن كل مدحور منهزم أمام الفاتح العاتي .

ومن الطبيعي أيضاً ، والقرآن ما يزال في طور جمعه ، أن يسب المقهورين سياسياً ، كما يسب المشركين والمنافقين والكفار .

فزيد بالتالي على قرآن القس والنبي ما يشفي غليل الفاتحين ، وما يبرر فتوحاتهم ، حتى ولو كان المدحورون على دين الحق وإيمان المنتصرين .

فزيدت كلمات جنب كلمات ، لم تكن في الأصل (؟) وأصبح مصحف عثمان متحدياً التاريخ ، ومستهتراً بأبسط أصوله . . »[1] .

---

(١) قس ونبي : ص ٢٠٣ـ ٢٠٤ .

وقفة لا بد منها أمام هذا الدس الرخيص .

فالنصارى الذين :

هم على دين الحق وإيمان المنتصرين .

والذين :

كانوا في قرآن القس والنبي : المسلمون حقاً قبل مسلمي العرب .

والذين :

ظلمهم المنتصرون ، فساووهم باليهود الظالمين ، والوثنيين الكفرة ، والمسيحيين المغالين .

هؤلاء لنا حولهم أسئلة بات طرحها على المقنع واجباً .

الأول : لماذا يظلمهم «المنتصرون» ويذلونهم وهم ـ كما أخبرنا ـ مسلمون مثلهم ، أو حتى قبلهم ، في وقت كان القرآن يناشد أهل الكتاب بحرارة وإخلاص ، ويناديهم بشتى أنواع السبل ، للموادعة ، والمسالمة ، والتعاضد ، والتكاتف ضد الكفار .

فلماذا يظلمهم وفي قلوب هؤلاء النصارى تعاليم الإسلام ، وآيات القرآن ، وحب النبي ؟ . .

وهل كان المسلمون بحاجة لهذا الظلم ، يمارسونه ضد من يحمل نفس إيمانهم ، وبنفس الوقت يحتفظون في قرآنهم بآيات التقدير والثناء ، بحق من «يظلمونهم» ؟

أكان المسلمون بهذا القدر من السذاجة والغباء ؟

أم كانوا عاجزين عن التفريق بين هؤلاء النصارى المؤمنين ، وبين الوثنيين واليهود ، والمسيحيين المغالين ؟

والسؤال **الثاني** : أما والحريري المزيف يلطم وجهه ، تفجعاً على ما آل إليه مصير النصارى «المدحورين» في أمصارهم ، الأذلاء في ديارهم بعد عز ،

بعدما غزاهم المسلمون .

نسأله : أين هي الأمصار النصرانية ، التي كان أهلها على دين الحق ، ممن كانوا مسلمين قبل العرب ؟ أين هي الأماكن التي كانت تقطنها تلك الجماعات النصرانية المؤمنة ؟

يجب أن لا يجدي الحريري نفعاً هذا الأسلوب الغوغائي الرخيص ، الذي يستعمله بطرح أباطيله ومزاعمه . ولكشفه ، ما علينا إلا أن نستعرض بهدوء وتبصر وتجرد ، البلدان التي افتتحها المسلمون مفتشين فيها ، باحثين عن هذه الفئة «المؤمنة» من النصارى التي «ظلمها المسلمون» . فلربما وجدنا لها أثراً على وجه هذه البسيطة ، أو أن نتأكد أن وجودها المزعوم ، ليس إلا أكذوبة من أكاذيب المؤلف ، ووهماً رخيصاً من أوهامه ، وهو ما سنجده بالنتيجة أمامنا .

ونبدأ رحلة البحث والتنقيب من الجزيرة العربية بالذات :

في الفصول السابقة من هذا الكتاب ، بينا بوضوح وإسهاب حقيقة الوجود النصراني ، أو لنقل الوجود المسيحي في الجزيرة عامة ، وفي مكة والمدينة خاصة ، وأثبتنا أنه كان بشكل عام وجوداً هزيلاً ضئيلاً ، لا تأثير له ولا وزن .

وما قدمناه من الدلائل والبراهين ، كان كاف لإثبات هذه الحقيقة القاسية .

والصدام الحقيقي الفعلي ، الذي واجه الإسلام في الجزيرة ، كان مع الوثنيين في الدرجة الأولى ، ومع دسائس اليهود بالدرجة الثانية ، ولم يكن للموقف المسيحي ، رغم سلبيته المعروفة من الإسلام ، أي ثقل فاعل في هذا الصراع ، إلا في المرحلة الأخيرة منه ، وبالذات إلى حين دخول الدولة البيزنطية حومة هذا الصراع .

والمعروف ، أنه كان للمسيحية المثلثة ـ كما يحلو للحريري التفاخر بتسميتها ـ وجود ملحوظ في نجران ، ومعروف أيضاً ، أن هؤلاء المسيحيين النجرانيين ، قنعوا بمعاهدة المسالمة والأمان ، التي منحها النبي محمد لوفدهم ، الذي زاره في المدينة ، فلم يحركوا بعدها ساكناً ، لا مع الدين

الجديد ولا ضده ، وظل الأمر كذلك ، إلى أن اضمحل بالنتيجة وجودهم الديني والمعنوي تلقائياً من الجزيرة كلها فيما بعد .

أما الوجود المسيحي الفاعل في الشرق الأوسط ، فلقد كان متمثلاً بالدولة البيزنطية ، وما يدور في فلكها من القبائل العربية القليلة ، التي تعيش قريبة من حدود تلك الدولة .

أما على الصعيد المسيحي الطوائفي ، فمعروف أنه كان لليعاقبة وجود في الشام ، وللنساطرة وجود في الحيرة ، وللأقباط سيطرة في مصر .

هذا هو التوزع الديني والطوائفي ، للمسيحيين في الأمصار التي دخلها المسلمون ، فأين هم النصارى المزعومين ؟ وأين يقطنون ؟
أين هي بلادهم ، وأمكنة تواجدهم ، التي غزاها المسلمون ، وأذلوهم فيها ؟

ونقصد بالنصارى طبعاً ، أولئك الذين ذرف الحريري دموع العهر على مصيرهم «المشؤوم» .

ننتظر منه أن يجيب ، وإلا فسيكون من حقنا أن نعتقد ، أن وجودهم المزعوم ليس إلا من بنات خياله ، وهي الحقيقة فعلاً .

سؤال آخر لا بد من طرحه ، طالما أن الخليفة الثالث عثمان ، وهو الذي يتهمه الحريري بتحريف القرآن والتخريب على النصارى فيه ، قد بدأ هذا الأمر عن قصد وعمد ، فبدل في القرآن ، وغير في آياته لغير مصلحة النصارى ، فلماذا لم يكمل هذا الخليفة «معروفه» ويقضي على كل ما هو موجود في القرآن ، من آيات الثناء والإكبار ، التي لا زالت موجودة فيه ، بحق الأخيار من الرهبان والقسيسين ؟

فيمحو بذلك على الأقل آثار فعلته ودليل تلاعبه .
لماذا لم يفعل ، وكان في قدرته أن يفعل ؟

ثم يعطي الحريري للأمر طابعاً مأساوياً عندما يقول :
«فرض عثمان مصحفه على الناس فرضاً ، وحرق ما سواه» .

ثم أورد الآيات التي اعتبرها تعرضت في عهد عثمان للتحريف ، أو الزيادة ، أو النقصان ، كالآتي :

١ ـ الآية :

﴿كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾[1] .

معتبراً أن لفظة «نصارى» تفسد النظم المسجع ، الذي اعتدنا عليه في القرآن ، وأن الجدل الوارد في سورة البقرة والآية منها ، كان أساساً بين محمد واليهود فقط ، دون النصارى ، ولذلك فهو يرى أن من الألزم أن يكون أصل الآية :

﴿كونوا هوداً تهتدوا﴾ .

٢ ـ الآية الثانية التي بها نفس «التحريف» هي :

﴿قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾[2] .

فالمؤلف يستغرب أن تجمع الآية بين النصارى واليهود ، لأن من كان لا يقر بالهدى اليهود وحدهم ، ومن المفترض بنظره أن تأتي الآية على ذكر اليهود فقط دون النصارى .

٣ ـ آية ثالثة اعتبرها من ضحايا «تلاعب» عثمان بقرآن «القس» هي :

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾[3] .

فهو يعتقد أيضاً أن كلمة «النصارى» لا مبرر لوجودها في الآية ، أما لماذا اعتبرها مضافة ، فأمر لم يشرحه .

٤ ـ ورابعة لحقها نفس «الاعتداء» هي :

---

(١) سورة البقرة ، الآية/ ١٣٥ .

(٢) سورة البقرة، الآية/ ١١٣ .

(٣) سورة البقرة، الآية/ ١٢٠ .

﴿أم تقولون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله﴾[1].

٥ ـ وخامسة هي :

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾[2].

مما تقدم ذكره يتبين أن «فشل القرآن» بنظره ، كان بسبب موقفه السلبي من النصارى ، وما يعتبره الحريري انقلاباً ضدهم قام به عثمان بن عفان ، الذي بدل آيات الثناء والإعجاب والتأييد ، التي يعتبر أن قرآن القس والنبي كان يفيض بها ، إلى آيات من الذم والهجاء والسب كما قال .

ورغم أن أقواله هي مجرد فرضيات ، وتخمينات ، وتهم رخيصة ، إلا أننا نفضل تفنيدها ومناقشتها ، ولذلك فإن بحثنا يجب أن يلامس نقطتين هامتين :

الأولى : طبيعة وظروف وأسباب توتر العلاقات بين المسيحية والإسلام ، وتحديداً في بدء الدعوة الإسلامية .

والثانية : التدقيق بموضوعية وتجرد ، بالكيفية والظروف التي جمع بها القرآن .

وإيفاؤنا لهذين الأمرين بحثاً وتوضيحاً ، كاف ليكون فضحاً لأكاذيب الحريري ، وافتراءاته ، وتهريجه .

حول النقطة الأولى نقول :

إن دعوة الإسلام القوية إلى توحيد الله ، وإقرار المساواة بين خلقه كافة ، لقيت مقاومة عنيدة فظة من الوثنية ، التي هيمنت قروناً طويلة على جزيرة العرب . وكان حق الإسلام ، أن يلقى عوناً على مجالدة هذه الوثنية الطاغية ،

---

(١) سورة البقرة، الآية/ ١٤٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية/٦٧.

من حملة الكتاب الأولين ، أتباع موسى وعيسى .

فهل أدى اليهود والنصارى بعض هذا الحق ؟

كلا إنهم لم يؤدوه ، بل إنهم لم يلتزموا الحياد الدقيق في هذا الصراع ، إذ انضموا بعواطفهم أول الأمر إلى عبدة الأصنام .

ولما رأوا كفة الإسلام توشك أن ترجح ، انضموا بأسلحتهم إلى الجانب المناوىء للدين الجديد .

وقد غير المسلمون موقفهم ، تبعاً لما طرأ على معسكر خصومهم من تغييرات ، فقبل أن ينضم اليهود إلى جانب الوثنيين ، كان القرآن يوصي بالصفح عن أذاهم :

﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾[1] .

على حين يقول في السورة نفسها ، قاصداً عباد الأصنام :

﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾[2] .

فلما انحاز اليهود إلى المشركين في معركة الأحزاب ، وحاولوا معهم إسقاط المدينة ، وهي عاصمة الإسلام يومئذ ، قال الله عز وجل واصفاً ما تشعب بين المسلمين واليهود من عراك :

---

(١) سورة البقرة، الآية/ ١٠٩.

(٢) سورة البقرة، الآية/ ١٩١.

﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾[1] .

واتسع نطاق القتال ، بعدما تظاهر المشركون وأصحاب التوراة ضد الإسلام ، ثم زادت حدته بعدما تكاثف سكان الجزيرة كلها تقريباً على حرب المسلمين فنزل قوله تعالى :

﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾[2] .

ذلك كان بالنسبة لليهود من أهل الكتاب ، أما بالنسبة للمسيحيين الذين كان يغلب عليهم اسم النصارى آنذاك ، فإن العلاقات بينهم وبين الإسلام في مكة والمدينة ، كانت تمر بأجواء متقلبة ، امتدت من الجمود والتجاهل ، إلى الوئام الظاهري الماكر من جانب المسيحيين في فترات قليلة ، إلى حالات من التوتر والتأزم الشديدين في أكثر الأحيان .

فالمسيحيون في تينك المدينتين ، وقفوا موقف اللامبالاة والاستخفاف بالدعوة الجديدة بادىء الأمر ، ثم موقف المراقب القلق ، ثم موقف العدو المتربص المتآمر .

والعجيب أن الإسلام ، ما إن انتهى من توجيه ندائه المعروف للتعاون بين الأديان السماوية الثلاث ، كخشبة خلاص من الوثنية والكفر ، حتى فوجىء بالنصارى ينضمون لليهود والوثنيين والمجوس ، رغم حروبهم المعلنة ضد بعضهم البعض ، فيؤلفون جبهة قوية سياسية وعسكرية بوجه الإسلام .

ولشد ما كانت دهشة المسلمين واستغرابهم لموقف النصارى بشكل

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية/ ٢٦ .
(٢) سورة التوبة ، الآية/ ٣٦ .

خاص ، الذين أبدى لهم الإسلام أوجهاً مخلصة من المودة والصفاء .

تحدث جورج قرم عن موقع النصارى المميز في القرآن ، فقال :

> إن أهل الكتاب وخاصة النصارى ، خصهم القرآن بوضع مميز[1] .

فإذا بهم في صلب التحالف المشبوه ، وفي عمق المؤامرة ، جنباً إلى جنب مع الوثنيين واليهود ، بدأت بالسر والخفاء ثم أصبحت بالعلن .

فخاض النصارى من العرب والروم ، وأعداؤهم المجوس من الفرس واليهود والوثنيين ، معارك عسكرية موحدة ضد الإسلام، نذكر بعضها :

١ ـ ظهر النصارى بعد معركتي « الأبله » و« الثنى » إلى جانب الفرس ، في معركة « الولجة » وفي وقعة « أليس » حيث أنزل بهم خالد بن الوليد كارثة ، جعلت دماءهم تخالط ماء النهر، الذي يسمى إلى اليوم بنهر الدم .

وكانت وقعة « الفراض » من أعنف معارك الفتح ، إذ التقى الحلفاء الحانقون على الإسلام ، من مجوس الفرس ، ومن نصارى الروم والعرب جميعاً ، بخالد بن الوليد ، فلم يجدهم من تحالفهم شيئاً ، سوى هزيمة مرة كانت خاتمة المعركة المظفرة .

وفي تلك المعركة أنشد القعقاع بن عمرو :

لقينا بالفراض جموع روم	وفرس غرها طول السلام
أبدنا جمعهم لما التقينا	وبيتنا بجمع بني رزام
فما فتئت جنود السلم حتى	رأينا القوم كالغنم السوام[2]

---

(١) تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ٢٢٦ .

(٢) التعصب والتسامح : ص ١٦٩ .

ومن حق المرء أن يتساءل : أما كان هناك موضع لسلم شريف ، يصون هذه الدماء الغزيرة أن تسفك ، وهذه الأرواح البريئة أن تهلك ؟

ولا نشك أن ثمة مندوحة من التورط في هذه الحرب الشعواء .

وإنما يحمل أوزارها من بغى ، لا من نهض يؤدب البغاة .

ومن قصيدة للشاعر حسان بن ثابت ، رثى بها النبي بعد وفاته ، صور في أحد أبياتها ، موقف النصارى من النبي والإسلام ، ومشاعرهم السلبية نحوهما ، حيث صنفهم من بين الشامتين بوفاة النبي ، أسوة باليهود أعدى أعداء الإسلام فقال :

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد[1]

يستشف منه بأن مشاعر الود النصرانية اتجاه النبي ، كانت مفقودة تماماً .

تلك كانت صورة العلاقات المسيحية الإسلامية ، بعدما فشل الإسلام بشدهم نحوه ، واستمالتهم إليه ، وللإنصاف والحقيقة نقول : إن الإسلام كان في كل مراحل صراعه مع النصارى ، في موقف الدفاع عن النفس ، سواء من مؤامراتهم ، أو من سيوفهم المجردة ضده ظلماً وعدواناً .

ولكن موقف المسيحيين المعادي للإسلام ، لم يكن هو السبب بنزول الآيات ، التي كفرتهم وسفهت بدعهم ، وكفرت نظريات نبوة المسيح لله ، أو ألوهيته ، أو تثليث الله ، أو الرهبنة التي ابتدعوها ، وسواها من عقائد التجديف على الله ، التي نأت بالمسيحية عن عقيدة التوحيد الخالص مسافات ومسافات ، لأنها أمور مبدئية لا مجال للإسلام أن يهادن أو يتساهل بشأنها .

وموقفه المتشدد من كفرهم وشركهم ، ما كان ليتغير أو يلين ، سواء سالم المسيحيون الإسلام أم هاجموه واستعدوه .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٦ ص ٤٨٥ .

فالإسلام وجد ، أن من صلب واجبه تجاه الحقيقة والحق ، أن يقف بوجه كل اعوجاج وزيغ والتواء وجده في المسيحية ، ومن مسؤوليته الطبيعية مصارحتهم بها ، فصارحهم ، ونصحهم ، وحذرهم ، ودعاهم للعودة إلى منابع دعوة نبيهم عيسى ، وترك ما بين أيديهم من خطل وضلال ، إلى تعاليم الحق والرشاد .

ذاك كان موقف الإسلام النابع من احساسه العميق بالمسؤولية ، تجاه الحق والحقيقة ، فما تهرب يوماً من مسؤوليته ، ولا ساير أحداً على حسابها ، فكلفه هذا الموقف عداوات كثيرة وأعداء كثراً ، كان في طليعتهم المسيحيون أنفسهم .

وإذا ما قلنا : إن المسيحيين وقفوا من دين التوحيد موقف العدو المتآمر ، إلا أننا لا ننسى ولا ننكر ، أن قلة منهم سارعت إلى تفهم تعاليم الإسلام ، بعدما وجدت فيها الحقيقة المنشودة ، ومنارة الهداية ، وطريق الصراط .

فآمنت به واقتنعت بتعاليمه ، وكان منهم قسيسون ورهباناً ، وبعضهم استشهد في سبيله ، وإلى هؤلاء قصدت الآية الكريمة :

﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنانصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً . . . ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾[1].

هذه الآية تصور حالة ، وتقرر حكماً في هذه الحالة ، تصور حالة فريق من أتباع عيسى ، وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا ، ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ، بل يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً ، موقف القبول بهذا الحق والإيمان به .

ونتابع قراءة الآية الثانية مباشرة ، لنجد فيها إعلاناًفمنهم عن هذا الإيمان في لهجة قوية وصريحة :

---

(١) سورة المائدة : الآية ٨٢ـ ٨٣.

﴿ يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾[1].

فإلى هذه النخبة القليلة من أتباع عيسى ، التي رأت الحق فاتبعته ، ودعيت إلى الإيمان والهدى فاستجابت ، ومنها رهبان وقسيسون ، توجهت الآيات الكريمة ، وإليها وحدها قصدت آيات الثناء والترحيب ، ولا يمكن تعميم حكمها ولا جواز تأويلها ، لتشمل كل نصارى الجزيرة كما ادعى المقنع .

من هذه الوجهة فقط ، يجب أن ننظر إلى موضوع وجود آيات مودة وثناء في القرآن بحق بعض النصارى ، وأخرى تحمل هجاء وذماً وتشهيراً بحق بعضهم الآخر .

وليس في الأمر تغيير حصل في القرآن ، بسبب الصراع العسكري بين الطرفين ، كما تشدق المؤلف، ولا مؤامرة على النصارى حيكت ، لا في عهد عثمان ، ولا في سواه من العهود .

فالأمر بسيط وواضح ، القرآن قصد بآيات المودة من آمن من النصارى به ، وأيده ، واعتنق تعاليمه ، وذم من تمسك منهم ببدعه وضلاله وشركه .

فأين المؤامرة وأين المتآمرون؟

يبقى أن نبحث الطريقة والظروف ، والكيفية التي جمع القرآن بها .

يخطىء من يعتبر أن جمع القرآن جرى في عهد الخليفة الثالث عثمان .

ذلك لأن هذا الجمع قد حدث ثلاث مرات .

الأولى : عندما كتب كله في عهد الرسول وبأمره ، وإن لم يجمع في كتاب واحد ولم ترتب سوره .

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨٣- ٨٤.

الثانية : كانت أيام أبي بكر الصديق، بعد أن أشار بـه عمر بن الخـطاب ، فكان أن قام زيد بن ثابت بتتبع القرآن وجمعه مما كـان مكتوبـاً فيه ، حتى جمـع كله في صحف حفظته كاملاً .

الثالثة : كانت في أيام عثمان بن عفان ، وفيهـا رتبت سوره بعضهـا في أثر بعض ، على حسب ما عرفوه من قبل الـرسول، وفي هـذه المرة التي كـانت في أيام عثمان ، كان الذين قاموا بجمعه وترتيب سوره أربعة :

زيد بن ثابت.

وعبدالله بن الزبير.

وسعد بن العاص.

وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

وقد قال الخليفة الثالث عثمـان لهؤلاء القرشيين الثـلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم .

ولم تختلف نصـوص القـرآن مـطلقـاً ، ولكن حصـل في قـراءتـه بعض الاختلاف ، لأسباب منهـا الخلو من النقط، والشكل المعتـاد في كتابتنـا في هذه الأيام .

فالقرآن بوضعه الحاضر مر على النبي حين كتب .

ومر على الخليفة الأول وصحابة النبي ، حين جـرى تتبع سـوره وآياتـه في عهد أبي بكر .

ومر على الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، حينما حفظ لـدى ابنته حفصـة بعد ترتيب سوره .

ومر على الخليفة الثالث عثمان والصحابة ، ولجنـة من أهل الفكـر والرأي والاختصاص ، مشهود لأعضائها بالاطلاع والنزاهة والتدين .

ووافق عليه وعمل بموجبه ، الخليفة الرابع علي بن أبي طالب .

فلو كان من زيادة أو حذف حصلتا فيه ، لكان حرياً بهذا الأمر ، أن يفتضح ويحدث خلافاً وتصدعاً داخل اللجنة وخارجها ، أو أن يفجر اعتراضات من قبـل كثير من المتشددين من الصحابة ، وكانوا بمعظمهم أحياء يرزقون .

إضافة إلى أن أكثر المصادر الأجنبية تشكيكاً بالقرآن ، وكراهية للإسلام ، لم تتحدث أبداً عن تلاعب جرى في القرآن ، أو عن تحريف في آياته ونصوصه ، على الأقل فيما يختص بالشأن النصراني .

ناحية اخرى ، لو كان قد جرى في عهد عثمان أي تلاعب بمضامين القرآن ، مهما كان شأنه ، ومادته ، وموضوعه ، لكانت المعارضة الهائجة المراقبة لعثمان ، التي كانت تعد عليه خطواته وتحصي أنفاسه قد أثارت أول ما أثارت هذا الموضوع واستغلته ، إذ كان سيشكل بيدها ذريعة كبرى في مخاصمته والثورة ضده ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث .

إن خلاف الإسلام والمسيحية قائم ، بسبب تباين موقفهما من موضوع التوحيد وألوهية المسيح ، التي يرفضها الإسلام رفضاً قاطعاً .

وهو خلاف عقائدي بعيد عن السياسة وتطوراتها .

فالهجاء في القرآن مقصود به من ألّهوا عيسى ، ومن يأكلون الناس بالباطل ، ومن اتخذهم الناس أرباباً من دون الله ، ومن قالوا أن الله ثلاث ثلاثة ، ومن ابتدعوا رهبانية لم يرعوها حق رعايتها ، بهؤلاء دون سواهم نزلت آيات الذم والهجاء ، سواء كانوا مسيحيين أو نصارى ، كما يحلو للمقنع تصنيفهم . فموقف القرآن منهم ثابت ، ما داموا على باطلهم وزيفهم قابضون .

فيما نزلت آيات الثناء بمن آمنوا بالدين الجديد ، وصدقوه ، واعتنقوا مبادئه وتعاليمه . أولئك هاجمهم القرآن وهؤلاء مدحهم .

وبين هؤلاء وأولئك مسافة شاسعة ، هي نفس المسافة بين الشرك والإيمان ، أو بين التوحيد والشرك .

إن ما اعتبره الحريري فشلاً في القرآن ، ليس إلاّ حلماً يراود خياله ، وأمنية تختزنها نفسه . وفشل القرآن كان يمكن أن يكون حقيقة وواقعاً ، لو أنه ساير أهل الضلال في ضلالهم ، وأهل الشرك في شركهم ، تحاشياً لعدائهم ومؤامراتهم ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، فما سكت القرآن عن اعوجاج ،

ولا تغاضى عن زيغ وبهتان ، معتبراً أن من أولى واجباته ، ومن أولى مسؤولياته ، فضح الشرك وأهله ، وكشف الباطل وحاملي ألويته مهما كان الثمن .

وفي موقفه العظيم هذا، يكمن سر نجاحه وعظمته ، بينما طبيعي أن يكون ذلك بالنسبة للحريري مصيبة ، وبلاء ، وفشلاً .

دموع التماسيح

من فشل القرآن الموهوم ، إلى عنوان جديد تصدر الصفحة ٢٠٩ من كتابه ، يعتبر بحق صرعة من صرعاته المحمومة المضحكة ، وهو :

محمديون أم قرآنيون؟

من يقرأ العنوان يتبادر إلى ذهنه ، أن في الإسلام اليوم حزبان : واحد محمدي ، وآخر قرآني . وأن المسلمين ، منقسمون ، مختلفون ، متطاحنون ، بين محمد والقرآن .

ومن يقرأ المضمون ، يصاب بنوبة من الشفقة والسخرية ، نحو واحد من أعداء الإسلام لحق بسواه ممن سبقوه ، وناطحوا الصخرة الصلدة قبله ، فبات يهذي ويهلوس ، ويظن أنه كلما ثرثر وأوجد عناوين غريبة ، وأقاويل شاذة مستهجنة مستحدثة ، كلما انبهر به القارىء ، وانصاع إليه ، ومال إلى آرائه . وهذا ما يطمئن المسلم إلى مناعة دينه أكثر فأكثر ، طالما أن جبهة الأعداء لإفلاسها ، لا زالت تعتمد الباطل والكذب سلاحها ضد الإسلام .

ولنسمعه يشرح الأمر المستغرب ، فيقول :

> يتأرجح المسلمون اليوم بين نسبتين : نسبتهم إلى القس والنبي وقل نسبتهم إلى محمد، ونسبتهم إلى عثمان الذي جمع سور القرآن على غير قاعدة ، ولنقل نسبتهم إلى قرآن القس والنبي ، ونسبتهم إلى مصحف عثمان ، وبكل

بساطة نقول أيضاً : نسبتهم إلى القرآن كما وصل إلينا ، وكما هو بين أيدينا ، ونسبتهم إلى محمد في مواقفه الصريحة من أهل الكتاب .

فالمسلمون اليوم إذن هم أما قرآنيون ، وإما محمديون ، وهم إلى النسبة الأولى أقرب .

ويوجد صاحبنا للأمر الغريب سبباً أغرب منه، فيقول :

والسبب هو المدينة ، وبسبب المدينة اختلطت الأوراق وفشل محمد .
وفشل محمد لم يكن بسبب ذنب اقترفه ـ الحمد لله ـ أو بسبب سوء تدبير عاناه ـ مرة أخرى نحمده ـ ، بل سببه فتوحات سياسية جرفت كل شيء وقضت على كل شيء (؟).
وصراعات طبقية عنصرية ، انتابتها عصبية عمياء سيطرت على القرآن يوم جمعه[1].

دواخة مضحكة حاول أن يدوّخ بها القارىء ، فإذا بالدوخة تصيبه ، فيما القارىء يراقبه بإشفاق ورثاء .

لنختصر ترديده الممل ونقول ، إن القصة كلها هي قولبة معزوفته المعروفة ، بقوالب كلامية جديدة مازجاً تذاكيه المصطنع بمقولات سخيفة تافهة ، فبات السخف مسيطراً .

معزوفته المعلومة :

بأن القرآن ليس كتاب الله ومحمداً ليس نبياً .

---

(١) قس ونبي : ص ٢٠٩ .

في الصفحات السابقة من لقيطه كان القرآن ترجمة عربية للانجيل العبراني ، ولكنه الآن يحرمه هذه « النعمة » وهذا « الشرف » فيجعله صناعة عثمان بن عفان .

ومن كان الحقد الأسود مقود آرائه ، وموجه أفكاره ، فلا مناقشته تجدي ، ولا حواره ينفع ، وهو حال صاحب قس ونبي فعلاً .

نقف عند مقولته :

فشل محمد سببه فتوحات سياسية ، جرفت كل شيء ، وقضت على كل شيء .

نسأله : لا عن فشل محمد وأسبابه ، فهذه شرحها لنا وكفى ، وإنما عما جرفته تلك الفتوحات ، وعن الذي قضت عليه ، فكان « كل شيء ».

لن ننتظر منه جواباً ، وهو الغارق في عتمته وظلامه ، ولذلك فلا بد لنا من أن نقتحم عليه نواياه السوداء ، لنستخرج منها حقيقة مقاصده .

إن ما يندبه المؤلف ليس فشل محمد ، وإنما في الحقيقة فشل الروم المسيحيين ، وحلفائهم الوثنيين ، واليهود الذين تخاذلوا ، فكان بتخاذلهم الإسلام ، وكان النبي كما يعتقد الحريري .

إن نقمته على المدينة ، لا لأنه متيم بحب مكة ، وإنما لأن المدينة قضت على احلامه ، وأحلام من هم وراءه ، فبانتصارها كانت هزيمتهم ، وبنجاحها كان فشلهم ، وخيبتهم ، وحسرتهم .

إن الفتوحات الإسلامية لم تجرف في الحقيقة شيئاً في طريقها سوى الوثنية أولاً ، وحليفتها الدولة البيزنطية المسيحية ، التي كانت رأس حربة مسيحية في هذا الشرق ثانياً .

وتلك الفتوحات، لم تقض في الواقع على شيء ، سوى على الشرك المتمثل بعبدة الأصنام ، ومؤامرات اليهود ، ودسائس المتحالفين معهم من النصارى .

هذا هو الذي جرفته تلك الفتوحات المظفرة ، وهذا ما قضت عليه ، وهو فعلاً كل شيء . وإلا فليقل ما الذي جرفته ، وما الذي قضت عليه سوى ذلك ؟ وإذا كان ذلك بالنسبة للمقنع فشلاً ، فهو بالنسبة للإسلام والمسلمين فوزاً مبيناً ، ونصراً مظفراً .

ثم قال :

> هذه العصبية العمياء حطمت الدعوة في مهدها (؟) وفرقت بين المستجيبين منذ اللحظة الأولى ، وبددت كل أمل في الوحدة بين الأحزاب والقبائل . منذ البدء انشق المسلمون ، فكان منهم شيعة وأهل سنة ، وكان فيهم أنصار ، ومهاجرون قرشيون وهاشميون ، وسبب ذلك سببان :
>
> ١ ـ محمد لم يتوفق في تعيين خليفة له ، كما توفق به القس ورقة .
> ٢ ـ مكة لم تستطع أن تسيطر على غلبة المدينة التي استغلها الفاتحون[1].

لن نعلق بشيء على السبب الأول المزعوم لسخافته .

ولكننا نقول إن ما اعتبره سيطرة من المدينة على مكة ، ليس إلاّ هراء وتلفيقاً ، تكذبه الحقائق والوقائع .

وما علينا لفضحه ، إلا أن نذكره بأن من تبوأوا أمر الخلافة بعد النبي ،بدءاً من أبي بكر وعمر وعثمان، إلى الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب، وصولاً إلى الأمويين أسياد الشام ، كانوا جميعهم مكيين من أسياد مكة ، ومن مختلف قبائلها .

---

(١) قس ونبي : ص ٢٠٩ .

فأين هي العصبية العمياء التي تحدث عنها ؟ وأين هي سيطرة المدينة على مكة ، والمكيون أنفسهم أسياد القرار ، وأصحاب الشأن في الامبراطورية الإسلامية على امتدادها العظيم ؟ إن ما يبكيه صاحبنا في الواقع ، ليس مكة كعبة الإسلام ، وإنما مكة ، مدينة الثلاثمائة وستون صنماً ، وأحباؤه في مكة التي يتفجع على مصيرها ليس ابن الخطاب ، ولا علي ، ولا أبي بكر ، وإنما أبو لهب وأبو سفيان ، وأبو جهل ، وحلفاؤهم الوثنيون واليهود ، الذين وقفوا بوجه الإسلام . ولولا انتصر هؤلاء على الإسلام ، لتعبد لهم الحريري المزيف وجماعته ، عرفاناً بجميلهم ، وتقديراً لإحسانهم . أضاف والحسرة تأكل قلبه قائلاً :

من المدينة كان المنطلق ، وفي المدينة ابتدأ النصر ، وإلى المدينة يرجع فضل الدعوة إلى الجهاد ، أما مكة المسكينة ، فكانت مسالمة آمنة ، تدعو إلى الإيمان والإحسان ، والتقرب من أهل المودة[1].

« من المدينة كان المنطلق وفي المدينة ابتدأ النصر » .

جملة تختصر كل مشكلته وأزمته ، وتعبر عن حقيقة معاناته ، وتختزل المسافة بين الحقيقة المرة ، والكذب المفضوح ، نقمته على المدينة كانت فقط لأنها المنطلق ومنها النصر ، ولولا هذا النصر لما كان الإسلام ، ولو لم يكن الإسلام لما كانت نكبته ومصيبته .

وإذا سلمنا جدلاً ، أن المدينة غادرة ظالمة ماكرة، فكيف نسلّم بأن مكة المسكينة « المسالمة » كانت تدعو إلى الإيمان والإحسان ، والتقرب من أهل المودة ، بدون الإسلام ؟ أو قبله ؟ . . ثم أي إيمان كانت تدعو إليه مكة قبل الإسلام ؟

---

(١) قس ونبي : ص ٢١٠ .

أهو الإيمان بالوثنية وأصنامهـا ؟ أم الإيمان بمن اتخـذهـم الناس أربـاباً من دون الله ، الذين كانوا يأكلون اموال الناس بالباطل ؟
أم الإيمان المشترك بهم على السواء؟

وبلغ العهر الرخيص ، والتذاكي المصطنع حداً، جعل الحريري يتباكى لا على مكـة ومصيرهـا الأسود ، بعـد انتصار الإسـلام فحسب ، وإنما على نهـايـة محمد نفسه ، الذي قال عنه :

> إنه المغدور المطعون بتعاليمه ، وقرآنه ، ومآثره ، وخطه ، ونهجـه ، وديـانتـه ، بـرمتهـا ، من مسلمي المـدينـة انفسهم[1].

نقول : يجب أن يكون بين الغادرين بنبيهم ، الطاعنين بدينه ، صهره وابن عمه الإمام علي بن أبي طالب ، وصديقه الأول أبو بكر الصديق والخليفة الراشد عمر ، وباقي الصحابة الأبرار .

إن دموع التماسيح التي يذرفها صاحبنا ، ليست إلا على حاله وحال أمثـاله المتعصبين وحلفـائهم اليهـود ، المنكـوبين جميعهم النكبـة الكبـرى ، بـوجـود الإسلام ، وثبات الإسلام ، وانتصار الإسلام .
إنها الحقيقة بلا صباغ ولا رتوش .

(١) قس ونبي : ص ٢١٠ .

شبح الوحدة الإسلامية يلاحقهم حتى القبر

في الصفحة ٢١٠ من قس ونبي نرى مؤلفه يزفر كل مخاوفه ، وينفس عما يرعبه ويقلقه ، ويجمع كل ما يفزعه ويفري عظامه ، فيتحدث عنها مرة واحدة ، وليس من شيء يرعبه ، مثل أو أكثر من وحدة المسلمين ، هذه الوحدة ، التي يضع كل أعداء الإسلام قواهم ، ومؤامراتهم ، وخططهم، لمنعها ، أو تأخيرها على الأقل ، هذه الوحدة ، التي يرى كل أعداء الإسلام نهايتهم بها ، تماماً كما كان أجدادهم قبلهم يرون نهايتهم بانتصار الإسلام .

وإذا كانت نهاية الأجداد معروفة ، فنهاية الأحفاد لن تكون أكثر سعادة ، ولا أفضل حالاً ، بوحدة المسلمين الزاحفة كالقدر المحتوم .

تحدث عن رعبه ، فقال :

يسعى المسلمون اليوم إلى الوحدة ، كما إلى التفرقة في آن معاً (؟) . وما نزال نشهد حتى يومنا هذا ، الصراع الدائم بين موجات وحدوية لا حصر لها ، وموجات تفرقة لا تمل .

فمن دعوة إلى الوحدة باسم العروبة . إلى أخرى ، باسم الإسلام .

إلى ثالثة باسم محاربة الاستعمار .

إلى رابعة ، باسم الاشتراكية التقدمية .

إلى خامسة ، بعثية عربية واحدة .

إلى سادسة، خمينية .
إلى سابعة ناصرية .
إلى ثامنة قذافية .
وتاسعة ، باسم محاربة العدو الصهيوني المشترك .
وعاشرة ، باسم القضية العربية الفلسطينية .

ويسترسل الحريري في حديثه عن « البعبع المتعدد الوجوه » فيقول :

كلها تكون ، وكلها لا تكون ، وتبقى التفرقة ، لأن بين مكة والمدينة لا صلح ، ولا عودة إلى كليهما ، وقد كرس مصحف عثمان فصلهما إلى الأبد .

ثم ينهي كلامه بعدما أطمأن إلى المصير ، وتأكد من أن الشبح لن يلاحقه إلى القبر ، فقال :

اثنان لا غير دعوا إلى الوحدة ونجحا ، ولما رحلا رحلت كل وحدة ، ولم يبق من الوحدة المنشودة أبداً إلاّ الرغبة الدائمة إليها أبداً[1].

وهكذا نفس الرجل عن كربه، وأوجد ولو بالوهم والتمني ، طريقة يهرب بها من مخاوفه ووساوسه، ويطرد بها من خياله أشباح الوحدة الإسلامية بكل أشكالها ، فاطمأن وارتاح .

تماماً كما حلم أجداده الأولون، بهزيمة المسلمين ، ودحر الإسلام ، فناموا قريري العين ، مرتاحي البال ، فإذا بالأعصار يفاجئهم والصاعقة تباغتهم ، وانتصار الإسلام ينقض على رؤوسهم . وعندما استفاقوا على الحقيقة المرة ، وحاولوا أن يقاوموا الإسلام ، هزمتهم سيوفه في أكثر من معركة ، ليناديهم محمد

(١) قس ونبي : ص ٢١٠ـ ٢١١ .

فيمن نادى : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وما أقساها وأمرها هذه الكلمات الخالدة على نفوسهم .

وكما نام الأجداد على حرير الاطمئنان ، وأفاقوا على الكابوس ، كذلك الأحفاد نراهم اليوم ، يحشون أنفسهم بأوهام زائلة ، وأمنيات زائفة ، زبدها أن الوحدة الإسلامية لن ترى طريقها إلى النور، بل ستظل حلماً مستحيل التحقيق بعيد المنال .

ونحن ، وإن كنا لا نريد له ولأمثاله إلا أن يناموا على حرير أوهامهم ، إلا أننا نخاف عليهم من أنفسهم يوم يستيقظون على الحقيقة المرة ، ليجدوا أن المستحيل قد تحقق ، والبعيد أصبح واقعاً، والوحدة ـ الشبح ـ صارت حقيقة ، لأنها قدر محتوم ، ولأنها إرادة التاريخ ومنطقه ، والتاريخ لا يعود إلى الوراء .

كلمة أخيرة لا بد منها ، وهي أننا نحن طلاب الوحدة العربية أو الإسلامية ، نراقب بيقظة واطمئنان جبهة أعداء الإسلام والعروبة ، وما أكثرهم ، ونرى على أرض الواقع وحدة قائمة ، قوامها الباطل والعدوان ، وسلاحها التآمر وقوة السلاح بين فئة متعصبة من نصارى ويهود هذا الزمان ، ومعهم كل السفيانيين المنافقين من العرب ، تذكرنا بالتحالف الذي عقده الوثنيون واليهود والمسيحيون في الجزيرة العربية، قبل ١٥ قرناً من الزمن ، لمواجهة الإسلام ، والوقوف بوجهه ، ودحره ، وكما فشل حلف الأجداد يومذاك، فسيفشل حلف الأحفاد اليوم ، ولن يصيبهم من التآمر والأحلاف ، إلاّ ما أصاب أجدادهم من الهزيمة والخسران .

ليس ما نقوله إنشاء ، ولا اضغاث أحلام ، بل حقيقة مؤكدة وبديهية .

نقولها مع علمنا بواقعنا العربي الممزق ، وواقع الأعداء الذين يملكون من أدوات التآمر الشيء الكثير . تحدث الدكتور جورج قرم ، عن ارتماء مسيحي الشرق بأحضان كل فاتح ومستعمر يغزو أوطانهم ، وعن موقفهم التاريخي المخجل ، بوضع أنفسهم كطابور خامس بخدمته ، حتى والمقاتلة في صفوف جيوشه ضد أوطانهم وبنيها ، فقال :

أدت مشاركة كتائب مسيحية في القوات المغولية ، التي نهبت سوريا ، وفلسطين ، ومصر ، إلى اقتراف أعمال ثأر من قبل السكان المسلمين ضد المسيحيين[1].

وقال :

استخدم الانكليز عام ١٩٢٠ كلدانيي العراق ، لقمع حركة التمرد العامة ، التي عصفت بالبلاد ضد الاستعمار الانكليزي يومئذٍ .

وقال :

أضحى الأقباط في مصر ، السند الفعال للسيطرة الانكليزية .

وتحدث الاستاذ حوراني في كتابه « الأقليات في العالم العربي » عن الموضوع ذاته ، فقال :

إن البورجوازية المسيحية ، كانت تقلد أوروبا بخساسة ، وجل طموحاتها أن تربط نفسها بإحدى الدول الأجنبية ، ونادراً ما كانت تكن ولاء للدولة التي تحيا بين ظهرانيها[2].

---

(١) تعدد الأديان وأنظمة الحكم : ص ٣٠٤.
(٢) نفس المصدر: ٣١٠.

بالدس بدأه وبالدس نهاه

لم يبق من كتاب الحريري إلا صفحات قليلة ، ونودع بعدهـا متاعب رحلة طويلة شاقة ، كان لنا خلالها مع الباطل جولات وجولات ، ولا بد قبل الوداع من أن نمر على الصفحة ٢١٢ منه ، ليستقبلنا العنوان الخير :

أسألوا أهل الذكر.

وكنا ننتظر أن يكون في النص ، ما يجعلنا نلجأ إلى أهل الذكـر ، لنسألهم فيه أمراً محـدداً ، غير أن مـا حاء فيـه ليس إلا وجدانيـات ، غلب عليها الـطابع الإنشائي ، والحشو الكلامي الجميل ، والخيال الواسع .

خمس صفحـات انهى بها لقيـطه ، دبجها في وصف خـلاب للصحـراء ، ورمـالهـا ، وليـاليهـا المقمـرة، وللبـدوي وخيمتــه ، وللرمـال المنبسـطة حيث اللامحدود واللانهاية ، وحيث الطمأنينة والانعتاق .

ولكنـه حتى في تلك الأجواء النقيـة الصافيـة ، لم ينس أن يفـرغ في كـبد الحقيقـة آخر سهم في جـعبتـه، وأن ينفث في جسدهـا آخر جـرعة سم تختـزنها خبايا نفسه .

ولن نحرم القارىء الكريم ، وقد رافقنا بكل مراحل رحلتنـا المتعبة ، عبـر هذا الكتاب ، من الاطلاع على بعض ما جاء في تلك المقطوعة الإنشائية ، التي دس سمه في دسمها ، مكتفين بقراءة مقدمتها التي جاء فيها :

يعز علي اتهام الآخرين بالخطأ والضلال ، كما يعز علي إدعاء المعرفة .

ولكن التهمة والإدعاء ، يهونان أمام واقع تاريخي لازمه الخداع والمكر ، منذ نشأته إلى اليوم ، وجميعنا كنا ضحية بلبلة في الإسلام، لا حدود لها ولا نهاية .

ليس من مسلم متدين ، استطاع الافراج عن الحقيقة ، وليس من باحث محقق تمكن من قول الحقيقة ، وليس من جريء مغامر ، هانت عليه حياته ليعلن ما يضمر ، وأخشى أن تكون قضايا الإسلام تسيست ، وعروبة الإسلام استغلت ، وثروة العرب استبيحت ، ليبقى الضلال ضلالاً ، والحقيقة مطاحاً بها في التيه .

ويختتم المقنع لقيطه بآخر اكذوبة في جعبته ، فقال :

بين كتاب القس والنبي وكتاب القرآنيين ، تدور كل حكاية التاريخ ، لا هؤلاء حادوا عن اطمئنانهم ، ولا عثمان بن عفان ترك لنا مجالاً لمعرفة الحقيقة ، وما يزال المطمئنون يحرمون علينا سؤال أهل الذكر[1].

وبهذه الفرية كان الختام ، وهذه المرة لن نعلق على ما هذاه بشيء ، بل سنترك للقارىء حق الرد والحكم ، والقول الفصل ، وليس لنا من تعليق على مقولاته المفلسة ، وتهريجه المضحك ، إلا بسؤاله :

١ ـ متى حرمك المطمئنون من سؤال أهل الذكر؟

---

(١) قس ونبي : ٢١٢ ـ ٢١٣ .

٢ ـ ثم قـل ، هل اسقط القنـاع عن وجهك ،وخـرجت إلى النـور ليـروك فيعرفوك فيمنعوك ؟

وخير ما نختم به كتابنا الآية الكريمة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهـالة فتصبحـوا على ما فعلتم نـادمين ﴾[1].

صدق الله العظيم.

---

(١) سورة الحجرات، الآية/ ٦.

خاتمة

إننا على يقين راسخ ، وقناعة ثابتة ، بأن الحريري المزيف صاحب كتاب « قس ونبي » بخطه ونهجه ، وتوجهاته المشبوهة ، لا يمثل من الرأي العام المسيحي الكريم ، إلاَّ قلة حاقدة موتورة ، لا تزال تعيش في ذهنية الماضي ، التي تعتبر أن الإسلام غزا معاقل المسيحية ودكها ، وإن هذا الدين دخيل على ربوعها ، وإن الجهود المسيحية كلها يجب أن تنصب لتقويضه ومحوه، ولو أدى ذلك إلى حروب صليبية جديدة ، وإن لا مصافحة ولا مهادنة مع الإسلام .

ومن المؤسف الاعتراف ، أن هذه القلة المتشنجة المتعصبة ، هي التي نجدها أمامنا ، متصدرة في أكثر الأحيان واجهة القرار المسيحي ، بحيث تبدو وكأنها المتكلمة باسم المسيحيين في هذا الشرق ، والممثلة لهم ، مع أن ذلك ليس حقيقة وواقعاً. ففي الصفوف المسيحية ، تيارات كبيرة مؤمنة بضرورة التعايش الحضاري السلمي الخلاق ، بين المسيحية والإسلام ، عاملة بجد وإخلاص ، من أجل ارساء قواعد متينة للأخاء المسيحي الإسلامي ، معتبرة عن حق أن خير الإنسانية ، وسعادة البشرية ، في هذا الوفاق العظيم ، ولكن المؤلم ، أن هذه التيارات المؤمنة ، مقموعة ، مضطهدة، مجبرة على السكوت بقوة السلاح . . إنما إلى متى؟

ونحن كمسلمين ، انطلاقاً من إيمان النبي العظيم يسوع ، بأن المحبة هي السبيل الوحيد لخلاص البشرية ، ومن نداء النبي الصادق محمد ، إلى البشرية

جمعاء ، لكي تتوحد بالله ، وفي حب الله وفي حب الإنسان لأخيه الإنسان ، ومن نداء القرآن المخلص لأهل الكتاب :

﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾(١)

ستظل حناجرنا تردد نداء الأخاء ، ولو بحت أصواتنا ، وستظل أيدينا بيضاء ، ممدودة لمصافحة كل الشرفاء من الأخوة المسيحيين ، حتى ولو ظلت وحدها تسبح في الفراغ .

وستظل قلوبنا مفعمة باللهفة ، والشوق ، والرغبة ، للقاء صادق ، وعناق حار بين المؤمنين ، كل المؤمنين ، على أرض المحبة ، والأخوة ، والوفاق .

وسيظل دعاؤنا حاراً ، كي تغيب عن الساحة الفئة الحاقدة الموتورة ، مسيحية كانت أم مسلمة ، ليبرز بديل عنها في الصفين المسيحي والإسلامي ، من حملة الرايات البيض ، ورافعي شعار التآخي والتعايش، والسلام بين الأديان .

وعندها فقط نكون جديرين بحمل اسم المسيحية والإسلام .

وأخيراً سيظل عملنا جاداً دؤوباً ، لتحقيق هذا الهدف ، ولا نظن إلاَّ أننا لمنتصرين . .

---

(١) سورة آل عمران، الآية/ ٦٤.

مراجع الكتاب

- **التوراة وأسفارها.**
- **الأناجيل الأربعة** ، دار المشرق ، الطبعة العاشرة ٩٨٥ ، بيروت .
- **رسائل الرسل.**
- **كتاب البرهان** ، عمار البصري ، تحقيق د. ميشال الحايك، دار المشرق ٩٨٦ ، بيروت .
- **الإسلام بدعة نصرانية** ، الياس المر، لا ذكر لاسم الناشر ، ولا المطبعة والأرجح ـ الكسليك .
- **سوسنة سليمان** ، نوفل جرجس الطرابلسي ، دار لحد خاطر ، طبعة ثانية ٩٨٧ ، بيروت .
- **حرب الكنائس** ، د. أسد رستم ، منشورات الجامعة اللبنانية ، الطبعة الثانية ٩٦٧ ، بيروت.
- **في خطى محمد**، نصري سلهب ، دار الكتاب اللبناني ، طبعة ثالثة ٩٧١ .
- **قصة الحضارة** ، ول ديورانت ، ٢٠ مجلداً ، ترجمة محمد بدران ، بإشراف جامعة الدول العربية .
- **حضارة العرب**، د. غوستاف لوبون ، دار إحياء التراث العربي ، ط ٣ ، بيروت، ١٩٧٩ .
- **المذاهب الكبرى في التاريخ** ، البان ـ ج ـ ويد جيري ، دار القلم ٩٧٩ ، بيروت .

- **محمد في الكتاب المقدس** ، البروفسور دافيد كلداني ، دولة قطر ، طبعة أولى ٩٨٥ .
- **العرب والإسلام والخلافة**، البروفسور بليايف، الدار المتحدة للنشر ١٩٧٩ ، بيروت .
- **تعدد الأديان وأنظمة الحكم**، د. جورج قرم، دار النهار ١٩٧٩ ، طبعة أولى .
- **الإسلام وحضارته** ، أندريه ميكيل ، ترجمة الدكتورة زينب عبد العزيز ، منشورات المكتبة العصرية لبنان ـ ١٩٨١ .
- **نظرات حديثة في الكتاب المقدس** ، الأب هنري أمرسن غوزدك ، ترجمة شاكر خليل نصار ، المكتبة الإنجيلية الوطنية ـ بيروت .
- **الانجيل في القرآن** ، الأب يوسف دره الحداد ، من سلسلة « دروس قرآنية » المكتبة البوليسية ـ لبنان ـ طبعة ثانية ١٩٨٢ .
- **القرآن والمسيحية** ، الأب يوسف دره الحداد (تحت اسم الاستاذ الحداد) ، المكتبة البوليسية ـ جونية لبنان ١٩٦٩ .
- **القرآن الكريم** .
- **مجمع البيان** ، الطبرسي ، دار المعرفة ، الطبعة الأولى ٨٦ ، بيروت .
- **في ظلال القرآن** ، سيد قطب ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة ٧ـ٧٩، بيروت .
- **ابن خلدون** ، دار البيان .
- **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الدكتور جواد علي ، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٨ .
- **مروج الذهب** ، المسعودي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ المكتبة الإسلامية، بيروت .
- **الملل والنحل**، الشهرستاني ، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ٩٦١ .
- **الطبقات الكبرى**، ابن سعد ، دار صادر ٩٨٥ .
- **الكامل في التاريخ** ، ابن الأثير ، دار صادر ١٩٨٢ .

- **تاريخ الطبري** ، الطبري ، مؤسسة الأعلمي .
- **الأغاني** ، الأصفهاني، دار صعب، بيروت .
- **تاريخ الإسلام السياسي** ، د. حسن إبراهيم حسن ، دار إحياء التراث العربي ، ط ٧ ، بيروت ١٩٦٤ .
- **تاريخ اليعقوبي** ، صعب .
- **حياة محمد** ، محمد حسين هيكل ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨ ، الطبعة ١٣ .
- **النظم الإسلامية** ، د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ١٩٦٨ بيروت
- **الدين والإسلام** ، محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، دار المعرفة ، بيروت .
- **المسيح في القرآن** ، عبد الكريم الخطيب ، دار المعرفة ، الطبعة الثانية ١٩٧٦ بيروت .
- **التعصب والتسامح** ، محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٥ .
- **قصة الديانات** ، سليمان مظهر ، دار الوطن العربي ، الطبعة الأولى ١٩٨٤ ، بيروت .
- **أضواء على الثقافة الإسلامية** ، الدكتورة ناديا العمري ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٥ ، بيروت .
- **التبشير والاستعمار** ، الدكتورين خالد وفروخ ، المكتبة العصرية ، الطبعة الخامسة ١٩٧٣ ، بيروت .
- **روح الدين الإسلامي** ، عفيف عبد الفتاح طبارة ، دار العلوم للملايين ، الطبعة ٢٥ ، بيروت ١٩٨٥ .
- **ماذا حول أمية الرسول** ، علي شواخ اسحق ، دار الإسلام الطبعة الأولى ٩٧٨ ، بيروت .

الفهرست